محمد رسول الله

محمد ﷺ

شاطئ وسحاب

سليمان كتاني

محمد شاطئ وسحاب

سليمان كتاني

محمد

شاطئ وسحاب

دار المرتضى

الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار المرتضى - طبع - نشر - توزيع

لبنان - بيروت - الغبيري - شارع الربيع - ص.ب: ٢٥/١٥٥ الغبيري

الإهداء

إِلَيْكَ ، مُحَمَّدِيًّا كُنْتَ أو مَسِيْحِيًّا . .
أُقَــدِّمُ هَــذَا الكِتَاب ،
معَ شوقِ النَفْسِ وَتَوْقِهَا إِلَى تَحْقِيْقِ الآيَة :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إلَى الخَيْر وَيَأْمُرُوْنَ
بالمَعْرُوف وينْهَون عَنِ المُنْكَر – وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْن »

اعتذار

ان شخصيّة من طراز شخصيّة النبيّ هي جلاّبة لكل غوص . انها غزيرة المادة ، يقف منها القلم حائرا كيف يتناولها بالدرس والتحليل ، ففي كل جانب منها مدى .

انها كل هذا الشاطىء المفتوح امام كل هذا الهادىء الغائر. كلّ مقالة فيه ، موجزة أو مسهبة ، ليس لها من نصيب أكثرُ مما لحفنةٍ تمتد من الشاطىء الى البحر ، تأخذ منه غرفة غرفة .

ليس هذا الكتاب اوسع من حفنة ، فليعذر القارئ ريشة ترسم شاطئا يمتد فوقه سحاب ، أنَّى لها مدّة الشاطىء ؟ وانى لها عمق السحاب ؟

المؤلّف

دعـــاء

يا ايّها العجّان ، عليك سلام الله ، قد طاب فرنك .
يا ابن عمرو العلا ، يا ابن هاشم الثريد ، يا نار القرى
خَصُبَتْ قصاعـك .

يا ابن شيبة الحمد ، يا ابن أَبلج ناصية ، يا فوهة زمزم
عذبت مساقيـك .

يا ابن عبد الله ، يا أَطهر زيت في سراج ، يا أَلمع
ضوء في زجاجة
هادت مضاويك .

يا ارتسام الصفاء على الصفحة البيضاء ،
يا تلاميح البهاء في الليلة الدكنـاء ،
يا رسول الله
جلّ بالله سناؤك .

لمحات

مع التاريخ والاجتماع والسيرة

١- جاهلية
٢- موعد
٣- خط الرجولة
٤- المبعث
٥- الصراع
٦- تصفية

مع التاريخ والاجتماع والسيرة

١- جاهلية

منذ ذلك السحيق والجزيرة العربية – بالرغم عن انها كانت مهدا من المهود التي نشأت فيها افواج من الانسان: حضانة، ورعرعة، وتطويرا – لا تتمكّن من ان تملأ خواصرها من انتاج ارحامها.

لقد كان لها الجسم الممدود، مطروحا، كأنه المارد المسحور، او العملاق المخمور، لها اثداءٌ ضامرة شحّت عليها مجاري الدر.

ليس لكل ذلك تفسير اجلى من ان المناخ الذي تشويه لفحات الشموس لا يوفر اكثر من مركز حضانة يحتاج اليه هذا الطور من التكوين، لمدة معينة من العمر، يتعدَّاها، اذ تفيض الحاجة عنها، الى سواها، اخف وطأة منها واغزر طاقة.

لقد انعكست هذه النواميس في تطبيق نفسها على ارض الجزيرة: فالانسان الاول الذي تسنى له ان يتلقط بالحياة في شعبة. مثلا، من شعاب النفود، ما طال به المقام حتى راح يقفز شمالا صوب دومة الجندل او صوب وادي سرحان، وجنوبا نحو تيماء او صوب وادي القرى، ليؤلّف مع الوقت: قبيلة بني كلب، او بني لخم، او بني غدوان، او بني اسد، او بني غطفان، حتى يتوصل الى بناء حصون خيبر. والانسان الذي تمكن من ان يتلقط باسباب

الحياة في حنوة من حنوات الرُبع الخالي ، لم يلبث ان نفر شرقا ، وجنوبا ، وغربا ، وشمالا ، على طول الدائرة التي تتكفكف خلفها معارج البحرين ، ومداخل عُمان ، وخطوط حضرموت ، ومعاطف اليمن ، ومفارق مكة ، في خطوطها المتشعبة نحو الطائف ، او نحو يثرب ، او نحو اليمامة ، لتتكوّن ، فيما بعد ، على التوالي ، مئات من القبائل : منها ربيعة ، وبكر ، ومضر ، وكندة ، والحارث ، ومراد ، وخزاعة ، وسليم ، وغطفان ، وعامر ، وتميم .

كل ذلك بالقدر الذي وفره المناخ منعكسا على الرقعة التي تمكنت من انبات عشبة الكلأ للناقة والشاة اللتين كان عليهما عماد الاود . وكان ذلك بالقدر الذي درت به سحب الغمام في زياراتها النادرة للفسحة المترامية الاطراف : من المحيط الهنديّ الى قوس الصحراء ، ومن مفاسح الحيرة مرورا بالنفود التائهة صوب الربع الخالي منهوكا على شواطىء عمان . وكان ذلك أيضا بالقدر الذي تأهلت به فسحة الواحات في تلقطها بكل تربة طرية سوداء ، او في تشبثها بذيل كل سحابة .

نشأت من ذلك وَحَدَات تتفاوت عليها قوة الدر : فحيث كانت ، وطأة الهجير مجهدة ، جاءت تحتها تربة مسيكة ، وحيث كانت مسارب الغمام رفيقة ، ارشم الشجر وبسق النخيل .

وبين بقعة شحيحة قاترة ، واخرى مستكفية قانعة ، تطاولت مساحات محروقة ، على مَسافات شاسعة ممدودة ، كان البعد فيما

بينها سببا في قطع اللحمة ، وبتر اسباب الاتصال ، فتناثرت – هنا وهناك – قبائلُ قبائل ، تتفاوت أيضا نسبة قوّتها ، وطلائع تقدمها ، مع نسبة ما توفر لها تلك الفُسَحُ من الارض التي انكفات اليها. وكان الشح الذي يصيب هذه يجعلها تتطلع الى هنا وهناك ، اين يمكنها ان تسد نقصا اصابها ، وتستعيض عن رزق فاتها ، او حاجة تشد اليها الملتمس ، فراحت ، يغير بعضها على بعض – غزوا ونهبا – ليرحل الضعيف منها مشردا على صفحة الصحراء.

تلك كانت اساليب الغزو باعتمادها ضروب الفروسيّة ، والباسها حلل البطولات.

وراح الغزو يتطور ويتطاول من جوار الى جوار ، حتى تمّ اختراق الكثيف من خط الرمال ، وانفتح المجهول تحت قوادم الصوافن والرواحل ، وانفتحت العين على المطل الاخضر. لم يكن ذلك على شاطىء المحيط ، ولا على مَضيق عُمان ، ولا حتى على سواحل الاحمر.

هناك – بعد هذا الكثيف من خط الرمال – مدوذ خضراء ، خُطَّت على جانبي دجلة ، وعلى جانبي نهر الفرات ، وعلى كل مفارش الغوطة ينِزُّ عليها بردى ، وهنالك ايضا مشارف ، غيرُ اليمن ، تغتسل اقدامها على الشاطىء الابيض.

هكذا اخذ الرحيل يعبّىء الرحلات ، موجات اثر موجات ، الى كل هذه الرقاع ، حيث استقر ، فيما بعد : بنو اياد ، وبنو حديلة ، وبنو تغلب ، وبنو لخم ، وبنو غسان.

غير ان الرحيل الذي استوعبته هذه الهِجرات ، لا يعني ان ارض الجزيرة قد فرغت من السكان ، فالهجرات التاريخية كانت تعبيرا عن هذا الفائض من السكان عن الطاقة التي توفرها موارد الصحراء . تلك الطاقة هي بالنسبة الى الانتاج الاقتصاديّ الحياتي فيها ، وليس بالنسبة الى الرقعة التي ، لو قُدِّرَ لها غيرُ الشح ، لاتسعت لمئات الملايين .

إلاّ ان الموضوع لا يقصد كل هذا الاستيعاب ، انما يحاول ان يشير الى كون الجزيرة العربية ، بوضعها المناخي ، وبوضعها الجغرافي والجيولوجي ، انشأت شعبا تفسخ - بفعل البيئة - قبائلَ توزعتها الواحات ، واستأثرت بكل وحدة منها مراكزُ الخِصب ومراكز المساقي .

وكانت بالتالي - وان شعبا واحدا تجمعه القربى ، إنْ في الارض الام ، او في كل جوار فاضت عليه - لا يجمعها هذا الحس الموحَّد ، وهذا الشعور الجامع ، في تقرير تعيين المصير .

وكانت - بالرغم عن كل هذه الاسباب التي تقف حائلا دون نموها الاقتصادي والحضاري ، وبالتالي نموها الاجتماعي - تشكل - بفُسحةِ ارضها على الاقل - قوة مرهوبة وقفت على حافتيها كتلتا الشرق والغرب ، تتجاذبان من فوقها حبال النفوذ .

ما كان ذلك ليَضيرها يوم كان السومريون الاكاديون وحدهم قيمين على حضارة العالم القديم . اما اليوم ، بعد ان نشطت قبائل

اليونان والرومان ، وبرزت الى الوجود قبائل الفرس ، وتمَّ لهاتين القوتين فضل الاقتباس والتحضر ، فان بلاد الرافدين والحوضَ الكنعاني اصبحا يعانيان من قدح حوافر الخيول فوق اراضيهما ، إنْ من الشرق او من الغرب . وها هي بيزنطيا اليوم تتساجل فوق هذه الحرمات ، مع اكاسرة الفرس ، لتأمين مراكز الصمود .

وبقيت الجزيرة العربية ، بشمالها وجنوبها ، تعاني اكثر من ايٍّ من هذه الاقطار شدة الافتقار الى اللُحمة التي يتوافر بها مصير الشعوب .

وبقيت القبائل على الانماط ذاتها ، من سطحية التفكير ، وسطحية التحسس ، وسطحية الرؤى ، وبقيت لها العادات والتقاليد متحجرة في قوالبِ الطقوس ، دون أيّ نهج ، او أي تجديد ، او أي تقييم .

وكانت ، مع اي حال ، يتنكر لها هذا الاستنباط تولده الحَضَارات في المجتمعات المتطوّرة ، ليس لفقرها او لفقر الانسان فيها ولا غير ، بل لاكثرَ من ذلك ، لافتقار المجتمع الانساني فيها الى تلك اللُحمة التي تجعله متماسكا ، حتى يكون بالتالي محققا ، ومطوِّرا ، ومولِّدا .

ان مجتمع الجزيرة كان بحاجة ماسة الى ايقاظ ، وكان بالتالي بامسٍّ الحاجة الى بطل عبقريٍّ يسبلُ جَنَاحيه فوق نفود الجزيرة وفوق رُبعها الخالي ، على السواء ، يعجن من تربتها عجينة متماسكةً وصالحةً لان يبث فيها حرارة الحياة .

٢- موعد

وما كانت الجزيرة العربيّة يومًا بأحوجَ منها الى موعد ، كالموعد الذي وافاها به هذا الفجر البازغ من اليوم الثاني عشر من ربيعِ الاول من السنة الموافقة لعام الفيل .

لقد تمت ، مع هذا الصباح الأبلج ، وِلادةُ طفلٍ سوف يعجن الجزيرة بعضَهَا ببعض ، فيخلطُ مفاوزَها باحقافها ، وواحاتِها بحِرَّاتها ، ودهناءَها بنفودها ، وبواديَهَا بشواطيها ، ويمزج قحطانَهَا بعدنانِهَا ، وقيسيَّهَا بيمنيِّهَا ، وينفضُ عن خواصِرها أغبرةَ الصحاري وأوهانَ الدروب ، وينفخُ عن اجفانها تهويمَ النعاس وتقريحَ الرمد ، لينشرَها فوق أحقافها وحِرَّاتها مروجاً خضراء ، ولِيُطِلَّ بها على العالم أفُقاً تتوزعُ عليه قببُ المنائر .

ان الطفل الذي تلقفه فجرُ هذا اليوم ، ولفَّهُ بهذا الهفيف من القِماط ، هو : « محمد بنُ عبدِالله ، بنِ عبد المطلب ، الملقب بـ « شيبة الحمد » ، بنِ هاشم الملقب بـ « عمرو العلا » ، بنِ عبد مناف الملقبِ بـ « المغيرة » ، بنِ قُصَيّ ، بنِ كِلاب ، بنِ كَعْب ، بنِ لُؤَيّ ، بنِ غالب ، بنِ فَهْر ، بنِ مالك ، بنِ النَّضِر ، بنِ كَنَانة ، بنِ خَزَيْمَة ، بنِ مُدْرِكَة ، بنِ الياس ، بنِ مُضَر ، بنِ نزارٍ ، بنِ مَعْد ، بنِ عَدنان . »

وهو : « ابنُ آمنة بنتِ وهْب ، بنِ عبدِ مناف ، بن زُهْرَة ، بنِ كِلاب ، بنِ مُرَّة ، بنِ كَعْب ، بنِ لُؤَيّ ، بنِ غالب »

انه سليلُ كلٍّ اولئك الذين امتدوا على طول هذه الحِقب من تاريخ الجزيرة العربية ، وهو الذي سيتجسَّد فيه ويتقيَّم هذا التاريخ .

وُلد في مكَّة ، يومَ كانت مكةُ تعجن الطحين من كل غبارٍ يتطاير من زحف اقدامِ الحُجَّاج الى حَرَمِ الكعبة ، يومَ كانت تتلمَّسُ بركةَ قطيعٍ من الاصنام المشرورة حول هذه الجُدران ، يوم كانت تنام صَديانة ، تنتظر رجوع النوق من رحلاتها الى الشام والعراق ، لتأخذَ من حليبها المنهوك جرعة ريّ .

ولقد كان ابوه عبدُ الله في رِحلة مماثلة لهذه الرِحلات . ذهب بعد أنْ تركه في حشا آمنة نطفةً تتماثلُ الى جنين . كان ذلك في وقتٍ يُسمَّى بأيَّامِ التشريق ، نسبة الى ثلاثة أيامٍ من منتصف ذي الحجة ، تُعرض فيها ، على الشمس ، لحومُ الأضاحي ، لتجفيفها وحفظها لكلِّ يومٍ ساغب .

بعد زواجِ عبدِ الله من آمنة ، كانت ايام التشريق هذه ، المُثلَّثةُ ، آخرَ فُسحةِ متعةٍ بين زوجين تعانقا ، ثم باعد ما بينهما وادي سرحان في خطِّه الطويل نحو الشام .

ولقد عاد يحمل معه جنيَ قافلته الهزيلة ومجتنى عمره : خمسةً من الابل ، قطيعاً صغيرا من الشياه ، وجاريةً كانها طيبُ

المسك عفةً ومحبةً واخلاصا ، سيكنيها التاريخ بـ « ام أيمن » لانها ستحتضنُ طفلَ مولاها شهيدِ القوافل ، دون ان تعرفَ أَنها تترأَّمُ على من سوف يحتضن الجزيرة كلها .

لقد مات عبدُ الله في طريق عودته ، اذ عرَّج به المرضُ على يثرب ، حيث أُدْرِجَ في مثواه الاخير دون أنْ يَكْحَلَ عينيه بمرأى طفلهِ المهلّ في جوّ الجزيرة كما تهِلُّ الشهبُ من فوق المشارق .

أما آمنة ، فلقد وضعت طفلها بين يديها ، كما وضعت مريمُ من قبلُ طفلها عيسى ، وراحت تحنو عليه بعينٍ تُكَسِّرُ هُدْبَهَا الفَاقَة .

ولكنَّ في عينِ هذا الوليد - وإنْ مطروحاً على حضن يُنهنهه الفقر ، ويهلهلُهُ التأيُّم - لرؤى فيها من المعاني ما يُذهل آمنة عن نفسها ، لتغوصَ ، وهي تحدب عليه ، في تاملات هي كلُّ هذا الانعكاس يعود اليها عن هذه الفَلْذةِ من حشاها ... فَلْتُطْرَحْ على قدميها كنوزُ كسرى ، وَلْتُضَأ بين يديها مقاصيرُ الملوك ، وَلْتمدَّ أَمامها البُسُطُ ، والسُجُفُ ، والقباب ، والعروش ... إنَّ من لمعاتِ هاتين العينين ، في حضنها ، ما يُعَوِّضُهَا عن الدنيا وكلِّ حُثَالاتِ الدنيا .

ولقد جفَّ ثديُ آمنة - آمنةُ الساكنةُ الساكتةُ المفجوعة ، المهدودةُ الرُّكْن والمَلْوِيَّةُ الجانب - فكان لثويبية ، مولاةِ أبي لهب ، أنْ تُلَقِّمَ ثديَهَا للوافد الجميل . بضعة ايامٍ فقط ، من هذا الرضاع ، ربطت محمداً بمسروح - ابنِ ثويبية - بآصرة الأخوة .

وثويبة – هنيئا لها – فلقد اشترت ببضعةِ أيامٍ خلودَ الذكر؛ وهنيئا لمسروح، يشركُهُ ثديُ امهِ بارتشافِ الغَمَام، وهنيئا أيضا لحمزة أنْ يكونَ قد سبق له وتلقمَ الثديَ نفسَهُ الذي درّ على ابن اخيه ذلك الدَرّ.

ثم أخذته حليمة السعدية، من بني بكر، لترضعَهُ سنتين مع ابنها عبدِ الله، وهناك، في قلب البادية، ترعرع محمد، ولم يعد الى امه الا وهو ابنُ ستٍّ سنوات، فحملته من مكةَ الى المدينة حيث تمكن من زيارةِ قبر ابيه.

غير أنَّ الامَّ التي أخذت تستكشفُ في عين فتاها اغوارَ احلامِهَا وأبعادَ أمانيها، فاجأها الموتُ قبل أنْ تشاهدَ ابنَهَا ينفخُ من فمه الأعاصير، ويتسلّقُ القِمَّةَ السامقةَ التي كانت تتفتح خلفَ مرائيها. وفي الأبواء، بين مكةَ والمدينة، كان مثوى الأمِّ الكبيرة.

واحتَمَلَتِ الفتى أمُّ ايمن الى جَدِّهِ عبدِ المطَّلب، ولكن الجَدَّ ما انفردَ بتعهُّدِ حفيدِه اكثرَ من سنتين، بعدَ وفاة أمهِ، حتى التحقَ بابنه عبدِ الله عن عمرٍ يناهز الثمانين.

وكان عبدُ المطلب من رعيل اولئك الذين يؤُمونَ الحياةَ مرفوعي النواصي. ولقد اتفق له ذلك حتى بالرمز تخصُّه الطبيعةُ به؛ فاذا في ناصيته خُصلةٌ بيضاءُ وشمتِه بجلالِ الطلعة وهَلَّةِ الجبين، وخلعت عليه كِنية حَفِظَهَا له التاريخ كما تَحْفَظُ الهالةُ وجهَ القمر، فـ« شيبةُ الحمد » هي الكِنية والوشاح لعبدِ المطلب بمبناها ومعناها، فهو–

في الوقت الذي كان فيه سيدَ قريش : مكانةً وزعامةً وتقليدا – كانت تلوح خلف ناصيته الغراء ناصيةٌ اخرى ، هي امتدادٌ لكل هاتيك الأظلال يطويها عن العين عمق الرؤى .

ولم يكن عبدُ المطلب غيرَ امتدادٍ لتلك القوة الجبارة ، منتقلةً اليه من ابيه هاشم ، وها هي فيه – تلك القوةُ – تشتد وتزدادُ تبلوراً ولمعانا ، فكانما هي تخضع لناموس النضج ، شأنُهَا شأنُ حِجارة الماس ، تطويها بطون الارض ، وتشتغل في طبخها مدارجُ الدهور .

هكذا كانت تظهر في هاشم ، نقلا عن سلسلةٍ بعيدةٍ من اجدادِه ، ثلاميح الصفاء : فهو مالىءُ القصاعِ ثريدا ، كان يملؤها ، من قلبه وحنانه ، عطفا وصدقا على وزن الاولياء الاصفياء ، وليس على وزن الكُهَّانِ تمويهاً وتمليقاً . لقد أطلقَ عليه التاريخ كِنية تتفسر فيها معاني العطفِ والسخاء ، فهو « هاشم الثريد » أي مطعمُ الجياع في وسيعِ قصاعه خبزا ولحوما ، صِدقاً وَحدباً .

من هاشم الى عبدِ المطلب ، الى عبدِ الله – على غيرِ تعمير – الى ابي طالب ، الى محمد ، كانت أروعُ عمليةِ تظهيرٍ ملموحةٍ على طريق التسلسل ، كانت نهايةُ نُضجهَا في طرفها المعقود بهذا الفتى الذي مات جَدُّه وتركه في عهدةِ ابي طالب الفقير النبيل . وهذه حَلَقَةٌ ما التحمت بسابقاتها الا لتزيدَ من إحكام مسيرِهَا في طريقِ نُضجهَا وعَرْضِهَا على صفحةِ النور .

٣ - خط الرجولة

بانتقال الفتى الى العهدة الجديدة ، بدأت تحبك لحمة جديدة لفاصل جديد . فلقد اخذت ترافق نشأة الغلام ظواهرُ فيها من الارتقاب اكثرُ مما فيها من الابهام ، وفيها من السكون ابلغْ مما فيها من التكهن ، وفيها من التحسب أكثرُ مما لها من التحسس .

انها مزيج من التفات مع شيء من لا مبالاة ، وهي تشبه الاصغاء على قلة اهتمام ، والتحسُّبَ مع قلة اكتراث . والتهيوءَ مع قلة استعداد .

ولكنها ، من يوم الى يوم ، كان يزداد وقعُ دبيبها . لقد اصبحت تشبه تكوين العاصفة في خواصر الافق البعيد : ان شيئا من الاغبرار راح يظهر مع تماشيح السحب . لم تصلْ بعدُ العاصفة ، ولكنها اصبحت في مجال الارتقاب .

هكذا اطل محمد ، من تحت إبطِ عمه ابي طالب ، يتدرج من راعي غنم الى رفيق اسفار ، من غلامٍ يحجِبُ سنى طلعته الفقر ، الى فتى يُستسقى الغمامُ بوجهه .

ان اشد الناس تاملاً بهذا الجبين الوضّاء تُطِلُّ من خلفه آفاق ، هو عمُّهُ ابو طالب ، وهو الذي كان اشدَّ الناس ارتقابا لتكشيف هذه الآفاق .

ان ذلك كان بحسه الغائِر في نفسه المبهمةِ الآفاق ، كان مجرَّدَ حس يتلاعبُ به عمقُ الطويَّة .

لذلك كان ابو طالب يحدِبُ على ابنِ اخيه حدْباً فيه من الحنان بقدرِ ما فيه من التخوّف . لقد كان يخاف عليه يداً آثمةً أَو حدثاً مباغتاً ، فعمدَ - بوحي من هذا التخوُّف - الى كل تحسبٍ من ايِّ شيء يُرتقب . لقد كان يسحب فتاهُ هذا من نومه مستبدلاً به ابنَهُ عليًّا ، زيادةً في الاطمئنان عليه وتدليلاً على وَسواسهِ الدائم ، وتحسُّبِهِ المُفرط .

ولم يكنْ يُطيقُ الابتعادَ عنه وهو يُلبي نداءَ الرحيل على ظهور القوافل الميمّمةِ خطوطَ الشام ، لهذا جعله في صُحبته ، ولو جَشَّمَهُ العناءَ الطويل ، في رِحلةٍ من هذه الرِحلات ، فشاهدَهُ على الطريق الراهبُ بحيرا ، واكتشف الناسك ، وهو يُحدِّقُ الى جبينه ، أنَّ وراءَ هذا المهلالِ افقاً بعيداً يَطَالُ سماء .

ونما الفتى ، ونمت معه غُلُفُ الاسرار ، ونما معه السكونُ ، وعمقُ السكون ، واخذ يستقطبُ اليه النَظَرَات . لقد اشتدت حوله علائمُ الاستفسار : هل هو عاصفةٌ تسير من بعيد الى تلاشٍ ، ام انّه هدوءٌ يحومل في عاصفة ؟ أتراه غماماً يتناثر الى جفاف ، أم سَحَاباً يتكاثفُ حتى يهمي ؟

واشترك في كل ما كان يشتركُ فيه ابناءُ قومه ، ولكنها مشاركةٌ كان فيها كلُّ الحس وكلُّ الاستيعاب .

رعى معهم قطعانَ الغنم ، وساق النوق ، وقاد القوافل ، وتردّى الغبار ، وتكحّل بالسراب ، ومدّ الحبال بالدلاءِ الى قعورِ الآبار وملأ احواضَ المساقي ، وطحن حبّاتِ الشعير ، وثرد اللحم وملأً القصاع ، وجاب الجزيرة : مدنَهَا وبواديَهَا ، واحاتِها وصحاريها ، قصورَهَا وخيامَهَا ، ونام في الخباء ، ونام في العراء ، وشبع وسَغِب ، وعطِشَ ونهل ، وزار كعبةَ مكة ، وزار نسطُوْرَا ، وزار بُحَيْرَا ، وزار الحصون في خيبر ، وشهِدَ الحروب ، وشهِدَ الغارات ، وشهِدَ الأَحلافَ والمعاهدات ، ونظر بازورارٍ الى أواوينِ الأَكاسرة ، وباحتقارٍ الى صِوالجةِ الروم .

لقد شب الفتى . لقد أصبح غزير الرؤى ، عميق الغور ، بعيد اللفتات . لقد اصبح تتفتّقُ خلفَ جبينه اثقالُ المجاني . لقد اصبح تلمعُ في عينيه شهبُ المعاني . لقد تكسَّرت على شفتيهِ أَبعادُ الخيال ، كما تتكسَّر على الشاطىء كرّات الامواج .

فَلْتَصِفْهُ ، تحت هذه الاثقال ، عيونٌ تطوفُ مع المظاهر كما تغوص مع المسابر ؛ فهي إذاً امامَ رجلٍ تتراءى عليه الانعكاسات : سريرةٌ بيضاء على بشرةٍ بيضاء ، عينٌ دعجاء تحت بصيرة فيحاءَ ، عنقٌ كابريق فضَّة كأَنَّ يداً تُناوله منهلاً من كوثر ، كَفٌّ من ندى ، قدمٌ من صخر ، عينٌ من بريق ، كتفانِ من اثقال ، مشْيَةٌ الى هدف ، قامةٌ الى تطاول ، فمٌ الى صدق ودعاء وابتهال ، جبينٌ من مفاسح ، وعرنينٌ من شَمَم .

تلك ابرز المظاهر كانت تتراءى على محمد منذ الطفولة ،

وراحت تتناوب على عين الرائي ، بين الاختفاء والظهور ، كانها الرموز ، أو كانها الشمسُ من خلف الغيوم : ساعةً تُطِلُّ وساعةً تحجب .

ولقد نظرت خديجة الى محمد – ورات فيه كلَّ هذه الاظلال – فكانت وقيعةَ رؤاها .

٤ـ المبعث

لقد أصبحت تتكشف المشاهد . إنَّ الاغوارَ البعيدة راحت تحوم فوقها الاحداق . هذه خديجة أوَّلُ سابر يقترب من هذا الغور ، اول كاشف يلجُّ بعينيه على هذا الشفق . كانت كسواها ، تلمح بهاءً وهي تفتش عن نقطة البزوغ ، ولكنها كانت اول من أُخذ بهذا الاشراق قبل ان يتعين مركز صدوره . إنَّ محمداً عينه كان رهين حسٍ مماثل ، ينعكس على نفسه من دخيلة نفسه ، الا أنَّهُ كان أكيداً من بسطة شاطئه أمام هذا الهائجِ الطامي .

كان في الخامسة والعشرين من عمره عندما غَلَّفت خديجة قلبه بموجة من الحب العارم ، وكانت هي في الاربعين عندما شعرت لأول مرة في عمرها بعذوبة الدفء ... انه ثالث رجل في حياتها ، ولكنه الرجل الفريد والوحيد الذي تسرَّب الى عروقها من بين أريافِ مقلتيها وانحدر الى قلبها من فوق مشالح الغمام .

ولم يكن محمد اقلَّ منها تحسسا بالقيمة التي تحمل على كفها صدقَ الحنين ، فاخذها بين يديه ، كما تأخذ الزهرةُ قطرةَ الطلّ ، وحدبَ عليها ، كما تحدبُ الحدقةُ على العين .

لقد بدأت تتكون الخلية في انكفائها على نفسها في ظل الهدوء والسكينة . وفي جو من الاستقرار تم التمهيد للاطلالةِ

الكبرى ، وما كان غار حراء ، في تقبله الخلوةَ الضامرة ، الا كعدسةِ المنظار : كلما ضاقت تحت عدسة العين ، زاد تمكنُهَا من جمع مسارب الابعاد .

ولقد كانت الفترة الممتدة بين تكوين الاسرة وبث الدعوة هانئة هادئة يتجلى فيها التأمل الصامت الثمين ، كما ان ثروة خديجة ، من جني القوافل ، جاءت معوانا ، وفي الوقت المناسب .

ولقد اصبح البيت مدرجا لفتيات أربع ، خلا من بينهنَّ اخوهن القاسم ، ولكنه استعيض عنه بعليّ بن ابي طالب . لقد اصبح الوقت ميسورا لتخفيف العبء عن كاهل العم الجليل ، والنبيل ، واصبح بيت محمد ملجأً لابن العم .

ما مر عقد ونصف على هذا التأسيس الركيزة ، حتى اخذت تتوضح المبهمات ، بمبهمات أعمق منها ، ولكنها مبهمات فيها من النور ما يغمض العين ويأخذ بالبصيرة .

هنالك غار ، يبعد عن مكة ثلاثة اميال ، فتحت عليه كوة من النور تفتقت عليه بفضل تلك الخلوات التي حشرتها فيه تلك الاعوام ... لقد تمت الجلوة الباهرة ، واكتمل الجهاز اللاقط الذي اشتغلت فيه حتى مدارج الاجيال .

ان تلك اللمع التي كانت تظهر في افق الجزيرة ، من هود ، وصالح ، وعيسى بن مريم ، هي ذاتها التي كانت تظهر بروقها مفرقة على الجو. لقد كان يلمح هذا البريق في هاشم ، لقد لمح

ايضا في شيبة الحمد ، ولقد ظهر قبس منه في طوية ابي طالب في محافظته الحريصة على زجاجة المصباح .

لقد انتهى مد الاسلاك . لقد وافى دور وضع الزجاجة في المصباح حتى يخرج النور من مجاميعه .

ان الذين حاموا حول المصباح الجديد هم الذين كانوا خاشعين مع الفجر تتلقط عيونهم بدبيب البهاء المتراسل قبل الشروق . لقد كانت خديجة على عتبة المحراب تراقب بث الاشعة ، ولقد كان الفتى علي يجمع نفسه من العتمة ليغرف من بواكير البزوع ، وهناك فاطمة الرهيفة تتململ في كل حسها تحت وطأة الأرتقاب .

بقيت مخاوف ابي طالب تراقب في الساحات تشابك المفارق . وما ان سطع اول وهجٍ حتى ذعر العم الرؤوف وخاف على ابن اخيه من الاحتراق ، فهب اليه يرجوه أن يضع على مصباحه المكيال . ولكن الجواب الذي قرع محمد به اذن عمه : « يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على ان اترك هذا الامر . ما تركته ، حتى يظهره الله او أهلك دونه » جاء مثباتا لصدق البطولة ، كما جاء للعم فتيلة عزم .

٥ - الصراع

وكان عرض المبادئ مهمازا للصراع . لقد صار لزاما على غار حراء ان يفتح حناياه في عملية بثٍّ حكيم يشبه جوس المتسلقين الى اعالي القمم او الى قعور الهُوَى . من هنا كان ذلك الحسُّ بين الناس ، يرافقهم بوجود محمد ، حسٌّ غلفه دائما ثقل الابهام : أهو- في نعومته - وشاح سلام ، أم إنه حدٌّ حسام ؟ .

لقد انعكست في عينيه وحركاته وتلاميحه ، مع كل اطوار نشأته ، خيالات إعصار يموج ، مع كل هذه النسمات الناعمة ، في تقلبه القالع ، فهو يشبه النطاسي الامين : يُمِرُّ على الدمل انملا من حرير ويُنْشِبُهُ بنبلة المبضع .

وانسان كانسان الجزيرة ، ألف جسمه زرع الدمامل ، ليس عجيبا عليه التنكر لكل ضربة مبضع . كذلك كان التحسس بمحمد يحمل ضمنا وجفة المريض حتى من البسمة التي يقابله بها ثغر المداوي .

ولقد ابتدأ الحس الواجف يهلع حتى من خفقة الوشاح : « يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد ، ان الله امرني ان أُنذر عشيرتي الاقربين ، واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الاخرة

نصيبا الا ان تقولوا لا اله الا الله . إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

ان الانذار ، ولو من حرير ، يحمل بطانة من حد سيف . ان اللهجة والصيغة تقدمان البطانة . ان تقاسيم الوجه ، ولون تنسيق البلاغ ، تشترك كلُّها في تعيين المقصد البعيد ، لم يكن ذلك خافيا على فطنة الحذرين ، فانهم – فيما يختص بالحرص على مصالحهم ، ولو مريضة – لاذكياء خارقون .

وبدأ الصراع على خطه يتدرج من ثقل الى ثقل ، وراح الدفاع ايضا يتدرج من مقتضى الى مقتضى ، وراحت الرسالة تتقيَّم مع شدة الاضطهاد . ذلك شأن الرسالات : تتمنطق بالصواب ، وتستعير الحسام من قبضة المهاجم . وذلك ايضا شأن المعادن : تعتصم بالصلابة ، وتربح لمعانها مفروكة بغبار .

لقد كانت الهجرة الى الحبشة اول دفاع ميسور دفع بالرسالة الى الانسلال من ميدان يخسر التكافوء . يكفيها قيمة انها اصبحت ملموحة في ساحة العراك . لقد اصبحت جديرة بالمطاردة .

ومكة – في حبكها المؤامرات حول محمد – لن يكون شأنها ، تمنعا وجهلا وتنكرا للجمال ، أقلَّ من اورشليم الساخرة الجاحدة ، وسيكون لها نفس المصير . فهذه ، ما تنكرت ليسوع ، الا لتعود فتسحق كبرياءها جاثية على قدميه ، ومكة أيضا أخذت تلجىء محمدًا لهجران بيته ومسقط رأسه ، لتعود ، بعد بضع سنين . تفتش عن كل موضع قدم من خطواته فتنشيء حوله مقام تبرّك .

وها هي شعاب مكة تطبق ضلوعها على الشريد الطريد ، ولكن يثرب ، التي فيها بركة من رفات ابي الطريد ، يتسنى لها مجال من الحدب كريم ، وها هو محمد ، بين اخواله ، يحوقل حوله شرذمة من الانصار، تمكّن منهم بقوة الكلمة .

بارك الله بالاوس والخزرج : ها هما اسعد بن زرارة وذكوان ابن عبد قيس يلبيان اول نداء ، وها هي جمرة العقبة تشدُّ الأزر ، وينطلق منها اول فوج من المبشرين . هؤلاء كلهم أَلّفوا الركب وانطلقوا الى المدينة يدافعون عن الرسالة الجديدة ، يحدوهم الشوق والايمان .

الى المدينة وافاه عليّ مع الفواطم : فاطمة الزهراء ، فاطمة بنت اسد الهاشمي ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب .

ان العشر سنوات التي تقضت على نزول المهاجرين في المدينة ، كانت كافية لتأليف العدة وتوحيد الدَّفّة . لقد كرت القبائل عشرات تبايع النبيّ على الاسلام ، ومنعة الاسلام .

ولقد حفلت هذه الفسحة من الوقت بالاحداث التي يممت الصراع نحو قبلته . ولقد ساعد مركز يثرب على دفع الانطلاق . وكانت مكة عند مخاوفها ، فلقد بدأت تشعر بالثقل يضغط عليها . لقد ذهبت عبثاً كل محاولاتها في خنق الشرارة تحت الرماد . ما كانت تلك المحاولات اقلَّ من نفخ الهواء في الكير على قبسٍ فوقه اكوام من الحطب .

واشتغلت يثرب . لقد تمكّن العبقريُّ من جذبها ودفعها مع اقلاع الموج . صحيح أنَّ لها مصلحة ، يعيِّنُها الاقتصاد ، كما يعينها الزحام على اقتناص السيادة ، ولكن ذلك ليس بالجديد عليها ، وما كان لها يومًا مجال للتحقيق ، الا انها – هذه المرة – تمكنت منها يدٌ تعرف كيف تدفع السارية مع وجهة الريح . لذلك لم يكن خطأً اصلاح ذات البين بين الاوس والخزرج ، ولم تكن لعبة اولاد تلك المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار ، بين ابي بكر وعمر ، بين مصعب بن عمير وسعد بن ابي وقاص ، وبينه وبين عليّ : « تآخوا في الله اخوين » – « انما المؤمنون اخوة » بصيغة الحصر .

ولقد كانت تقضي الحالة بألاَّ يبالي النبي بيهود يثرب . ولم يكن تهافتهم على المناصرة لينفي عنهم كونهم من الطراز الاول بالكذب والنفاق والخيانة ، فهم هم – لا سواهم – شذاذ الآفاق ، المعشرون النعنع والكمون ، الناصبون السبت شراكا للتمتع فيه بكل ما تدر عليهم مكاسب الايام الستة ، المنصرفون الى الدنيا تجميعًا ، ولا فرق ان كان من ربا او من فجور ، المضطهدون عيسى حفاظا على مباذلهم من ان تلتهمها إشعاعات القيم .

هكذا يكون للحق ان يسخِّر حتى الباطل فيمشي في ركابه ، ولقد مشى اليهود ، بابطنهم الثلاثة ، في ركاب الرسالة الجديدة ، حتى اذا ما تم لها تعبيد الطريق ، تبين لها زيغ القوم فتقصَّتهم بعمليَّة تطهير شهدتها سنو الهجرة على التوالي : من غزوة بني النضير الى غزوة بني قريظة وقينُقاع ، الى غزوة خيبر واستسلام فدك ،

مع تشتيت اليهود الى اذرعات والى الشام. كذلك يعيد التاريخ دائمًا نفسه ، فلقد كتب على اليهود أَلاَّ يكون لهم موطن : حتمية من نفسية تقوقعت في عصبية ضاقت عليها معها كل عملية اندماج وانصهار وانفتاح ، ورافقها دائما جوع الى الدنيا وكل تراب الدنيا .

أعود فاقول : بفضل هذا التآخي ، بفضل هذه الحكمة تضفيها عبقرية الفكر على عبقرية النهج ، بفضل هذا الايمان يفيض به القلب فيلمع به حد الحسام ، تمّ ليثرب ان تقتص من مكة ، وان تحقق امنية داعبتها منذ مئات السنين .

وما كان محمد – وهو لا يزال تُضنيه هجرة التشريد – ان يقصد ليثرب إنالتها تحقيق ثار أو إشفاء غليل، فمكةُ ويثرب ، في نظره القريب والبعيد ، وحدة ، وسيعود فيجمعهما الى حضنه فرختين زاغبتين بعد ان يعريهما من ثوبيهما الباليين .

اما اليوم ، فالنهج يقضي باغراء يثرب ، فان لها الحقَّ كاختها في اقتسام المكاسب واعتلاء المناصب . تلك الصدارة لمكة ، باستخدام الزعامة لفئة تجعلها دائما في مركز الاحتكار والاغتنام ، لن تبقى لها خالدة ، فهنالك بشر في يثرب لهم حق التملص من ذل العبودية وتحكم الاسياد .

ثم إنَّ مركزها ، بين مكة والشام ، يجعلها في مقام الخفير على خط تجاري يوفر دائما سبل الموارد . لهذا كانت معركة بدر أَوَّلَ محاولة في قطع المدد عن مكة والاستيلاء على عيرها .

وامتد خط الغزوات يجمع النصر والتحقيق في سلسلة من الاعمال والمخططات ، ان دلت ، فليس على اقل من أن الفكر الضابط ، والعزم المجنح ، يفعلان في الشعوب ما لا يفعله لها لا آلاف السنين ولا اثقل الثروات ، وأنَّ الحق ، والايمان بالحق – شرط متبوع بشرط – هو الذي يلهب العقل ويصمم البطولات : «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإنَّ فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك بالحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون»

من غزوة بدر الكبرى التي خطط لها الايمان بالحق ، تمَّ نصر كأنه فعل الخوارق . ولقد استنفر ابو سفيان اهل مكة ، فتهافتوا تهافتًا على الاندحار .

بعد أكثر من سنة ، تم لقاء آخر كان قد استعد له المكيون ، لقد اعدوا له ميزانية حرب : خمسة وعشرين الف دينار ، وقاد الزمام ابو سفيان ، وكانت الغلبة فيها للحق ، وللايمان بالحق . انها معركة احد . ولقد حدث فيها : أن كل زيغان عن رؤية هذا الحق له قصاص نابت منه .

لقد خُطِّطَ لهذه المعركة . خَطَّطَ لها الثبات الصامد واليقظة الغافلة عن ايّ شيء الا عن تحقيق النصر . وما كان من الحراس المسلمين الا ان سكروا بخمرة الظفر ، وراحوا يتلهون بجمع المغانم ، فارتدت على غفلتهم هذه جموع المهزومين تشبعهم قتلا وتاديبا . لقد انقلبت المعركة من يمين الى يسار : جرح النبي وظُنَّ بانه قتل ، ولقد اخفته عن عيون المتتبعين حفرةٌ وقع فيها ، خلصه منها علي

وطلحة بن عبيد الله .

وعمت الفوضى : لقد فر عثمان بن عفان ، وقتل الوحشيُّ حمزةَ عمَّ النبي ، وولغت هند ، بنت عتبة ، بدماء القتلى تنهب من اذانهم وانوفهم سرائد سرائد صاغت منها لقدميها خلاخل ، وارفضت الجموع ، كل يحمل نوعا من هزيمة ، وثقلا من عبرة .

تكفي حمزة شهادةٌ ، في وقعة احد ، وشحته ببردة النبي ، وتكفي احدا عبرة لو تتذكرها دائما قيادات الشعوب واساطين الحكم في الدول ، لكان لها ان تعرف ان نصاعة الحق وحدها تخلق الابطال ، وأن الزيغ وحده يخلخل أعمال الرجولة ويفت في سواعد الجبابرة .

ولقد ادرك النبي الكريم هذا الضعف فيمن خاضوا معه معركة أحد ، ولمح فيهم خطأ التصرف . لذلك لم يتطلب بأخذ الثأر ، ونهى عن المثلة : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم فهو خير للصابرين » ، ولقد كانت صفية ، عمة النبي ، من هؤلاء الصابرين اذ قالت : « لقد بلغني انه مُثِّلَ بأخي وذلك في الله قليل ، فما ارضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن » .

وكانت غزوة بدر الموعد – بدر الاخرة – بدر الصفراء – ولكنها لم تحقق اكثر من ربح تجاري . اما غزوة الخندق فهي ، بالحقيقة ، غزوة الموعد ، غزوة تجمُّعِ الاحزاب الفاشلة : لقد تجمعوا ، جمعهم الخطر المداهم : الخوف والقلق . لقد اصبح ابو سفيان قطبا يستجمع

اليه كل الموتورين ، كل الكفرة ، كل المشركين . لقد أصبح حيّ بن أحطب وسلام بن مشكمة ، وكَنَانَةُ بن أبي الحقيق ، أحب الناس الى قريش . إنهم اهل كتاب واهل علم ، وان لهم دينا يفضل بكثير الدين الجديد ، « الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا ، هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

ان السادنين اليوم يؤمنون بالجبت والطاغوت ، علَّهم ، عن طريق المالقة ، يتمكنون من ذلك المنادي باسم الله الاكبر ، باسم الحق ، وباسم الخير والصفاء .

وسيتسلم القيادة ابو سفيان بن حرب . سيوافيهم بنو سُلَيْم ، وسيلتحق بهم بنو أسد على رأسهم طلحة بن خويلد ، وستوافيهم فزارة ، بقيادة عيينة بن حُصن ، وأشجُع بقيادة مسعود بن رخيلة ، وبنو مرة ، بقيادة الحارث بن عوف – وسينضم اليهم يهود بني النضير وبني قراظة وبني قينُقاع – سيؤلفون جيشا لجبا ، قوامه عشرة الآف موتور – عفوا – إن الموتورين قلة : إنهم رؤوس تلك القبائل ، ليس أكثر ، انهم اولئك اليهود الذين يعرفون الى ما يرمون . اما كل هؤلاء الكثرة ، فانما لهم جاءت الرسالة ، لتخلصهم من عبودية يساقون اليها سوقا . سيؤلفون ركب الهاربين .

أَنْ ينصح سلمان الفارسيّ بحفر خندق حول المدينة ، وأَنْ يحفر ذلك الخندق ، ليس هذا وحده الذي حقق النصر . ان ايمان سعد بن معاذ ، وهو يرفض ملاينة المشركين كان أقوى من الحصون :

« أفحين أكرمنا الله بالاسلام وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » . هكذا أجاب سعدٌ النبيَّ الذي كان يحاول ان يخفف من هدر الدم بشيء من الملاينة .

هذا الايمان عينه تصلَّبَ به علي بن ابي طالب في معركة أحد وهو ينازل عمرًا ابن عبد ود ، عملاق المشركين وصنديدهم المشهور . ان ضربة واحدة من ذي الفقار خبطت الجو بالنداء الرهيب : « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا عليّ » .

لقد تجندل الشرك مع عمامة بن عبد ود ، ولقد عز التوحيد بلمعان حسام سُلَّ في سبيل الحق والايمان به .

هكذا انتهت وقعة الخندق بعد ان ظُنَّ فيها كل الظنون ، بعد أن حُفِرَتْ حولها الخنادق ، ولقد نزلت فيها الآية : « واذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنون ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » .

بعد ذلك — اي شيء حصل ؟ غزوة بني لحيان ؟ انها غزوة استرداد عشرين نعجة . غزوة الحديبية ؟ انها خروج لعمرة ، انها ، بالنتيجة ، صلح بين قريش يمثلها سهيل بن عمرو ، وبين الرسالة الجديدة يمثلها محمد بن عبدالله . هكذا اصبحت الرسالة تتمتع بمنعة التكافوء . لقد رجع الطريد ، طريد الامس ، طريد شعاب

مكة ، يوقّع معاهدة صلح على ابواب مكة . جاء يثبت وجوده الكبير بعد تشريد ، وعذاب ، واضطهاد . جاء يعاهد، ولكنه جاء ايضا ليبايَع . جاء يحقن دما سيبايعه في اليوم التالي : ان خالد بن الوليد الذي مانع دخول المعتمر ، سيلوي في غد امام هذا المعتمر رأس حسامه .

وستكون ، بعد قليل ، عمرة وادي القرى « بين الشام والمدينة ، بين تيماء وخيبر » وستكون أيضا عمرة القضاء او عمرة القصاص التي نزلت فيها الآية : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُنَّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » .

ان معاهدة الصلح تثبت اقدام الرسالة في المسجد الحرام . أين هي مكة تطارد فتاها ؟ ولكنها تهرب اليوم الى الشام ، وفتاها هذا في عمرته . انها لا تطيق ان ترى بعينيها صورة هزيمتها .

ووثيقة الصلح ؟ التي كان من الواجب ان يوقعها الرسول لا محمد – برأي علي بن ابي طالب – والتي اخذت متسعا لها عشر سنين ، لا حقدَ فيها ولا ثأر : (لا إسلال ولا إغلال) ، ما عمَّرت أكثر من سنتين . غير أنها بالنسبة الى الرسول لم تكن محسوبة . لقد كان عليه ان يعمل ، هنا وهناك ، قبل ان يدخل مكة .

ان غزوة مؤتة كانت – بالنسبة اليه – أبلغ بكثير من دخول مدينة مسقط رأسه . لهذا بعث الحارث بن عمير بكتاب الى هرقل

ليجس نبض الروم ، فما كان من شرحبيل الامير الغساني ، عبد بيزنطيا - الا ان قطع راس الرسول . ولهذا ايضا جهز جيشا ، بقيادة زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، لمهاجمة الاغراب الطامعين . ولقد كانت معركة مؤتة تمهيدا لمعركة اخرى ، هي معركة اليرموك ، سيتم فيها فتح الشام - على يد خالد ابن الوليد - تمجيدا للرسالة ، وثأرا للقواد الثلاثة الذين ماتوا في ساحة الاستشهاد . .

ثم ، ان مكة بالذات ، كانت تعمل على نقض المعاهدة : الموتورون وغير الموتورين ، كانوا يلحون في الوصول الى تصفية . ان الشمس التي طلعت واخذت تنير أجواء الجزيرة ، هي غير شموس الامس ، انها شمس ، فيها دفء وفيها لهب : دفء لكل من يتحسس فيها عذوبة نفسه ، وحريق لكل من يحاول ان يخنق إشعاعها بارياف عينيه . لهذا التقى ، في مكة ، هذان الصنفان ، وانجزا - متحدين - اعمال التصفية .

وكانت التصفية على حساب معاهدة قديمة بين بني هاشم وبني خزاعة . وبنو هاشم اليوم - في قريش - يفتشون تفتيشا عن سند إزاء محنتهم بمحمد ، ولكنه تفتيش يائس : لهذا كانوا يلجّون بالتلقط باية بادرة ياملون فيها شدة إزر . ولهذا السبب عينه ، اصبح كل خصم لبني هاشم ، يتملك الجرأة بالتهجم عليهم . إن الرسالة الجديدة تنتظر أي عمل جديد . هكذا تضافر اللونان في مكة ، للخروج بمكة ، من حالة القلق والاضطراب ، ودفعها

الى الركب الجديد . ان انتظار عشر سنين لن يغير شيئا من المصير ، فليحصل الآن ذلك الذي سيحصل فيما بعد .

ان إغارة بني بكر على بني خزاعة الذين لباهم بنو هاشم تنفيذا للمعاهدة وتثبيتا لزعامة ، فتحت ابواب مكة امام الزحف الكبير .

لقد انتهى كل شيء : ها هو ابو سفيان يلقي سلاحه على قدمي الفاتح العظيم ، لقد توسط له العباس ، وقبل النبي السموح طيب الشفاعة : - « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض » - ولقد اصبح ابو سفيان شفيع قومه : « من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن ، من دخل المسجد الحرام ، أو من أغلق بابه ، فهو آمن » لقد بقيت هند ، زوجة ابي سفيان ، تعترض : انها ام الخلاخل ، الخلاخل المصوغة من آذان وانوف المسلمين ، ولكن أبا سفيان ، همزها بالزجر وادخلها حجرها .

ودخل الفاتح مكة على ظهر ناقته القصواء : « لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، ألا كل مأثرة ، او مال يدعي ، فهو تحت قدمي هاتين ، الا سدانة البيت وسقايةَ الحج » ... « ايها الناس ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ... « يا معشر قريش ، ويا اهل مكة ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : اخ كريم وابن اخ كريم - قال : اذهبوا فانتم الطلقاء » .

وأَذَّنَ بِلالُ فوق ظهر الكعبة لصلاة الظهر ، ونادى المنادى :

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنما الا كسره .

وجاء دور الكعبة :

انها بيت الله ،

لا شريك له ،

فليخشع التاريخ ،

لقد تحققت البطولة ،

لقد شعت الكلمة :

وتناثرت حول الكعبة – الى الارض –

مع الغبار –

حطامة الأصنام .

٦- تصفية

بقيت هناك هوازن وثقيف تتشبثان بسدرتها ذات الانواط. ان مالك بن عوف ودريد بن الصمة، يصعب عليهما ان يتنازلا عن قيادة بني النضر، وبني جشم، وبني نصر. إن هذا القطيع من البشر، هما اولى به من تسليمه الى رجل يفتح العيون وينبه الخواطر.

وكانت وادي حنين موعد لقاء بين النبي وآخر فوج من المتخلفين، وكاد يهزم المسلمون لولا ثبات عشرة ابطال تمكنوا من لملمة الشمل واقتناص الغلبة، وكانت للقلة المؤمنة الغلبة: «ويوم حنين، إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الارض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين، ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وانزل جنودا لم تروها.»

وامتدت المعركة من حنين الى الطائف، حيث تجمع المهزومون. فتتبعهم النبي، وضرب عليهم الحصار، الى ان استسلموا.

وانتهت الجزيرة، بعد الطائف. لقد انكشفت الصفحة المطوية تحت الغبار، ليكتب عليها خط جديد، بحروف جديدة. بفكر جديد، بنهج جديد، وبانسان جديد.

اما غزوة تبوك ، فانها بداية امتداد الخطوط من قلب الدائرة التي كان لا يزال وادي حنين حنوة عرجاء فيها . ان استسلام يحنّه بن رؤية ، صاحب ايلة ، كان من وحي تلك المهابة التي انبسطت فوق كل ارجاء الجزيرة ، وامتدت الى كل ذياك الجوار. لقد كانت معركة مؤتة ، من قبل ايضا ، من هذا النوع المعبر عن اقتراب فيضان الحوض . من هذا النوع ايضا كانت المراسلات الى هؤلاء الذين كانوا متسلمين أزمة الحكم في الحبشة ، وفي فارس ، وفي مصر ، وفي ارض الشام . ان ملك الحبشة تسلم رسالة تدعوه الى النهج الجديد ، فكانت منه الموالاة في حسن الجوار وهرقل ، عاهل الروم ، كانت الرسالة اليه مع الحارث بن عمير الذي قتله شرحبيل ، وسيرغم خالد بن الوليد – هرقل – لتوديع سوريا الوداع الاخير . وكسرى – عظيم فارس – توجه اليه البلاغ القاسي يدعوه فيه للتنكر لدين المجوس ، وكانت – بعد تسلمه البلاغ – نهاية ملكه . والمقوقس – ملك القبط – تسلم ايضا بلاغا هاديا ، فاهتدى بمضمونه : ان ماريا القبطية ستكون هدية المقوقس للنبي ، وسيكون للنبي منها ابن اسمه ابراهيم ، لم يطل عمره . والحارث ، بن ابي شمر الغساني ، تسلم رسالة عصاها ، فارغم على دفع الجزية ، وكان أن باد ملكه .

* * *

هذه دروب محمد : من دار ابن يوسف حيث ابصر اليتيم النور ، الى حضن ثويبية مع اول نقطة رضاع ، الى البادية مع حليمة السعدية ، الى مكة رجوعا مع ام ايمن ، الى يثرب مع

اخواله بني النجار، الى مسقط رأسه في حضن جده عبد المطلب وفي عهدة عمه ابي طالب.

ومن رعاية الاغنام والابل، الى الاسفار على خطوط القوافل، الى زواجه بخديجة وتأليفه البيت الركيزة، الى غار حراء، الى المبعث واطراح الدثار.

ومن تسفيهه الآلهة، الى التشريد في شعاب مكة، الى الهجرة الى يثرب، الى عودته الى مكة كما يعود بعد الجزر مدّ.

كل هذه الدروب التي مشاها، من ابن يوم، الى ابن ثلاث وستين من السنين، كر عليها رجوعا، حاملا في يده نتاجا. هو كل ما جمعه الشاطىء من مدود السحاب.

ها هو اليوم – في حجة الوداع – لا يزال يقرئ الأرض قرآن السماء.

التوسّع

١ـ جاهلية

جاهلية الجزيرة

جاحدة

مغازل

سدانة الأصنام

حمى

قداح

وأد

حيسونة

جاهلية الجزيرة

يا طريحة الثرى –
يا شاحبة الوجه –
يا شعثاء غبراء –
يا صفعة الشمس بلفحة الهجير –
يا راجفة الاديم باوهام السراب –
يا رجيعة الاصداء مع اجترار الابل ...
الا سئمت النفود ، يا جنى الشح وازدراد الرمول !
الا برمت من الدهناء ، يا تغريد الرمال على الهبيب السَّموم !
الا ارتويت من الرماد ، يا قيء الحرَّات ملاهثَ الحِمم !
لا سئمت ...
ولا برمت ...
ولقد ظمئت وما ارتويت ...
وها انك مع الربُع الخالي . يا ابنة الاحقاف –
انت انت :
لك الميتة ،
لك الاصنام ،
لك الفحشاء ،

لك الاوهام .
ولك النهب ، ولك الغزو ، ولك الثأر .
ولك الحَرْمُ على حِلٍّ - ولك الحِلُّ على حرام .
ولك العَقْدُ - ولك النقض .
ولك الذِمة - ولك نقض الذمام .
ولك الفوضى يا ابنة الانساب تتأَبطين مع الشعائر .
ولك القبائل وزعامات القبائل .
ولك العشائر وأسياد العشائر .
ولك السوائم في المراعي مع السابي والسبايا .
ولك الوأد - لبنيّات الحمى .
ولك الاسر - لأُميمات الحرائر .
ولك النوق - يسوقها عمرو بن لُحيّ :
منها البَحيرة - ومنها السائبة - ومنها الوصيلة - ومنها الحامي
ولك الطواطم في الاراقم .
ولك الله منشورا على عبّ الشجر ...

* * *

كل شيٍء لك يا طريحة الفلاة :
مع الشِّعريان خلف الجوزاء .
مع الدَّبَران ولو مشؤوما .
مع هُبل .
مع العزّى .
مع مناة .

ومع اللات ، ومع ذي الكفين ، وذي الخلصة ، وذي الشرى .
ومع غزاليْ مكة – ونائلة مع أُساف .
ومع الفٍ مما ليس يحصى من الترّهات ...
أفٍ لك – ياكلَّ هاتيك المرابع –
في
جاهلية خرقاء !

جاحدة

أطلّت عليك من قبل اللمع .
كل افق هلّ عليه من حواليك فجر :
مع ادريس – مع نوح – مع ابراهيم الخليل .
مع هاجر وابنها اسماعيل تترقرق بين اصابعه مراوي زمزم .
ومن خلف الافق – على الجانب الآخر من الشاطىء الوادع –
حملت اليك الانسام ملامح عيسى يفيض على اردانه عبق الجنة .
ما خفّت عن سماواتك هينمة السماء .
حتى حباك الله بالنافخ الاقرب ...
ولبثت متنكّرة ،
هداك الله يا ابنة البطحاء ،
يا جاحدة !

مغازل

أيَّ غزل غزلت من الدهناء يا ابنة الوبر؟
غيرَ ما رثّ من اسمالك !
بقيت لك الاقدام في عرض الفلاة – عريضة الحفاء –
يا ساق العدو والغزو...
وبقي لك الخصر المضمّر تلوِّحه الشمس مع كل صيهب :
رداؤك الليل محبوكا بخيطان الدُجُنَّة .
لبست الجهل قميصا ورحت ترقصين مع العراة ،
تحت اقدام « العزى » – والغة بدم الاضاحي .
ولبست ثياب « الحُمْس » في تطوافك العاري – بين الصفا والمروَّة ،
يا كليلة العين – والرأس – والمشاعر.
حتى اذا ما جاءك فاتل المغزل
يحوك لك القميص والعباءة والمدرعة : دفئا وطهرا ورشدا .
حَطَمْتِ بين أَنامله المغزل !
يا زبانيةَ بدر ،
يا اسياد مكةَ تحت اقدام هبل ،
يا شعوذة التاريخ خلف جدران الهياكل !

سدانة الأصنام

وما كانت سدانتك – يا تخشيع الطلاسم –
غير نهب القوت من عب اليتامى والايامى والغفّل .
توزعتها – مع الكفاح – سباقا مع الترهات –
على تفاهة المكاسب :
لك في كعبة مكة قطيع من الاصنام الهزيلة –
كأنها السائمة من فيفائك المجداب ...
ولك في كعبة اليمامة ذو الخلصة بجلال يتربع –
كأنه الاله الباسط فوق صحْاريك الأجواء .
هكذا اختلقت النُصُبَ ، واسبغتِ عليها تِقية الحُرُمَات !
يا إطِّلاب الرِفد ،
يا اقتناص الهوام على نسيج العناكب ،
يا ملبسة قبابك الحمر – نسرة نسرة – من جلود القِردَة ،
يا مالئة مساقيك – قطرة قطرة – من اعراق السخفاء .
لا رِفدُك شبعًا في قصاعك ،
ولا سقيك رِيًّا في جرارك .
يا سدانة بنت إبراجها من اغبرة الخرائب ،
وعبأَت حياضَهَا من مآقي الساذَجين .

يا كهانا في المحاريب !
يا عيون الجن في وجه شقّ وسَطِيح !
لكم يوم في حنين – يوم خادع –
يا دفاع الابالسة عن حقها في النعيم !

حـمى

ولقد كان لك في بني وائل حمى !
يا حمى كليب وائل – يا حمى نبح الكلاب ...
هكذا كانت لك الحُرُمَات في عزّ مهيض –
زِحامًا على المراعي في حمى «العزى» «واللات» !
وانتهابا – بمفتول السواعد – دون أيٍّ حس لاشتراع ،
وانتهاكا لكل الحرمات ، دون احتكام الى منطق رشد ...
لا شيخُك شيخا جليلا ولا اميرُك حالمَ اللفتات :
يُغيرُ بنو تغلب على بني عدوان ،
ويُغير بنو كلب على بني ذبيان .
يغير بنو عامر على بني ثقيف وتمتنع بطائفها ثقيف ...
هذا هو الحدو الرتيب :
من بني غسان الى بني لخم ،
ومن بني غطفان الى بني لحيان ،
ومن مَضيق عُمان الى المسارب في عدن ،
ومن شواطيء حضرموت الى خليج العقبة ...
قبائل قبائل : كل واحدة منها في حمى ،
وكل واحدة منها تثير حولها سحب الغبار ...

يا انفتاح الفوضى فوق كل هذه المشالح !
يا اختناق النور فوق كل هاتيك الارجاء !
يا تقحُّل الواحات مع كل هاتيك الفقائر !
يا انفصام العرى !
يا قضّ المضاجع !
يا زيغان الرشد !
يا التهاب الاواصر !
يا رمد العيون وبحة الحناجر !
يا اغبرار المراعي !
يا سقم الشاة وجفة الضرع !
يا استمرار الخيبة !
يا امتداد العِيٍّ في الانسان !

قداح

وكانت لك القِداح – مع امرىء القيس – صدرَ مشورات
وكان ذو الخلصة المستشار.
وفي مكة – امام هبل – سبعةُ اقدحٍ في جوف الكعبة ،
يضرب بها ، كانها العلم في الموازين يضبطها الحجى ،
كأنها الرأي السديد مفتقا عن عقل سديد ،
كأنها علم في كيفية استخراج الماء من اجوافك ،
أو في كيفيّة تلطيف السَموم من اجوائك .
كانها تكشيف الحجب عن الغوامض في طريق تقصي الاسباب بالمسببات
كانها تكثيف الرؤى تحت بلورات مجهر .
كانها تحضير العقل امام المُعْمَيَات ، يجوسها بالفكر والنفس والخيال ...
وهكذا – بين قِدح آمرٍ كانت تتم لك عملية الغزو والنهب او الرحيل –
وبين قدح ناهٍ كان اللجوء الى الصبر والاستكانة ...
وقد يتم الوأد او النحر او شرب دم الضحية .
وهكذا كان لك العلم بالمَيْسِر بخطوطه السبعة –
وهكذا كان لك القِدح المعلَّى !

* * *

خاب فالك في قداح قاحطة ليس لها من العقل ملاقط !
درت عليها الاوهام مما درت عليك :
سقما من سقم ، وعقما من ذياك التردِّي !

وأْد

وعبَثْتِ – مع كل ما به عبثتِ – حتى بالحياة عَبَثْتِ !
بالنسمة الحية فيك ، بقيمة الانسان الكريمة .
بيدك الآثمة نكثت الارض ،
كشفت الحفرة السوداء !
يا ام المعاصي !
يا عقم الامومة !
ليت كان لك العقمُ قبل ان ترمي الطفلة حية في الحفيرة ! ! !
لا عجب تتعلمين الوأد يا موؤودة :
مع فقد الشعور
مع فقد الكرامة !
فانت مع السوائم كالسوائم – وليست هكذا حفيظات السوائم :
بلا قلب ولا رادع ، ولا فكر ولا وازع !

حيثونة

يا بوادي الجزيرة !
يا خطوط الطول فيها :
يا خطوط العرض !
يا صفحة كانت من جليد ثم ذاب !
ثم كرت عليها من الشموس دوافق ،
فاذا هي هجير كأنَّه فُحُحُ اللوافح .
يا فيوض الابد !
يا اخاديد الدهور !
يا ملاعب الاجيال !
كم مرت عليك – مع الايام – عصور زواحف !
قلبتك من حال الى حال :
من صفحة بسطت على كف السدم – قبل هود – قبل نوح – قبل شيت !
الى صفحة أخذت تتساقط عليها لوامح الاضواء :
من عدنان الى ابن كنانة – ومن مالك الى شيبة الحمد ...
يا هذي البوادي ، اما حانت لك – مع كل هذه الاسفار –
جلوة الافاق !

٢- مولد

نجمة
آمنة
أم النبي
أم أيمن
حليمة السعدية
دراسة
بنو هاشم
عودة اليتيم
لمسة الحب

نجمة

بالامس — لم يكن ذلك ابعد من ستة قرون — ولد طفل في مذود ، لقد « انتبذت به امه مكانا قصيًا » ، طفل اضاء نجمه حدود فارس ، فجاء المجوس من تلك الاقاصي يتتبعون ضوء النجم يقودهم الى المكان « الوضيع »

واليوم يبزغ نجم طفل آخر اضاء نوره بين المشرق والمغرب ، وشعت من وهجه قصور الشام ، وأستأنست به اعناق الابل ، فتهادت نحوه حاديات القوافل .

تلك اورشليم — غارقةً في لذاذاتها — لم تلمح ايّ قبس من ذلك النور يتهادى في ذلك الليل من سماء الى سماء . وهذي مكة — مطروحة على أقدام هبل — لا تشعر ايضا بخفقة ايّ شعاع من نور كان يَهِلُّ في حجر آمنة بنتِ وهب ، منبثقا فوق الجزيرة من فضاء الى فضاء .

تلك اورشليم ، انها مخنوقة بحبال من عتمات قلبها ، وهذي مكة ، انها مشوية بنار من لظاها ...

هذا هو عذر مدينتين لم تلمحا ايَّ شعاع لنور من فوقِ أرضهما شع .

آمنة

تباركت خاصرتاك ، يا ام ، ضمتا – مع الشوق – توق الارض الى السماء ، يا حنين الجزيرة الى رحم مخصاب .

ايٌّ طفل ربا تحت حنوات ضلوعك ، بسطت له لياليك الطوال تسهيدا وتجهيدا ، مع الصبر والحب والحنين .

يا حشاك – يا حشا مريم .

يا بِطانة خُمَالتها من ملامس النعيم ، وسكيبتها من مهامر الاضواء .

ما عقُمت لياليك ، ولا هزلت مجاهيدُك ، ولا كَذَبَكِ الشعور ، ولا تجافتك خِيالات الرؤى . ان من تحملين بين يديك ، سيحمل الارض التي عليها تتّكين ، وسيستوعب السماء التي انت اليها تنظرين .

بركات الله عليك يا ام النبي .

أمّ أيمن

أيُّ حس يتغلغل في تلك الطوايا السَاذَجَة يحمل طيبة النفس وعمق الرُوَاء تعكسها عين تتكاثف فيها الدعة وتتخايل معها صفاوة الايحاء ؟

وام أيمن كانت من تلك الفئة من الناس ، تتناول الحياة بسجية يتخبأ العقل فيها تحت معاطف الشعور ، وينساب النبل فيها تحت بِطانة السليقة .

بهذا الشعور العاقل ، وبهذه السليقة النبيلة ، اخذت بين يديها طفل مولاها عبدِالله ، واغدقت عليه من عطفها ما ملأ حوله فراغ اليتم .

كان ذلك احساسا منها فاض عن ذلك العقل الباطن ، لبَّته بهذا التعبير من العطف والحدب والاخلاص كما يلبي النائمُ نداء رؤيا جلاها له فيضُ اشواقه .

هكذا يصدق الحس يشتغل به طهر الطوية ، وهكذا يتنزه العقل تصفو به عريكةُ النفس ، وتلك هي اشعاعات المعادن تشتغل في جَلَوَاتهاِ الدهور ، وتلك هي المخابي يتجلى الله فيها مع السجايا .

هنيئا لمحمد حضنُ امِّ ايمن ، حضنٌ ما قلَّ دفئًا عن حضنِ أمٍّ .

حليمة السعدية

وحليمة – زوجة ابي ذؤيب – أيُّ نصيبٍ كان لها وهي راجعة الى البادية تحمل على صدرها الطفل الغريب؟ وايَّ ثدي تلقم الطفل يعصره سنتين بكفين لوحتهما شمس البادية؟

وايُّ صدر لحليمة قسمته بين اثنين: ثديًا لابنها عبدِالله، وثديا لليتيم محمد؟ ومن اين لها خصبُ الدَّرّ توزعه من جسد مقدود من هذه الرمال، ومكدودٍ – حول هذه الاطناب – من رعي شياهٍ وناقةٍ وجحشٍ وجمل، تنتقل بها وراء كل عشبة غبراءَ ما توصَّل اليها بعدُ تفتيشُ هذه السوائم؟

ذلك كان داب حليمة مع هَلَّةِ كل فجر، ومع سُجُوِّ كل اصيل، حتى اذا ما لمَّها الى الطُنْبِ ارتفاع الشمس على قوسها، عمدت الى تلقيم ثدييها للطفلين «التوأمين».

وحليمة، ما درت عليها البادية اكثَرَ من نصف جفاف، لذلك هبت الى المدينة تفتش عن طفل تُرضعه نصفَ لبنها، مستعينةً بما تعطى عليه من اجر، على تخفيف هذا النشاف من جوِ حياتها.

كل النِسوةِ التسع اللواتي رافقتهن الى مكة في ذلك الحين، أصبن حظا وفيرا، اما هي، فان تلاميح الجفاف على جسدها،

نكّب عنها التوفيق بالحصول على طفل اهله في يُسر، وكان نصيبها يتيما فقيرا .

لقد رضيت بهذا اليتيم على غير أمل بربح : ان قلبا لها رقيقا ونبيلا ، فسح للطفل مكانا رفيقًا ، فحملته على زندها نشفة على نشفة ، وانطلقت به على بركة هذا الحنان .

وكان فيضُ حنانها مصدر در ، لقد عصرت جسمها قُوْتًا لطفلين ، لقد تحول جسدها كله الى غدة مغداق ، تنضح بالحب والعطف والترؤم . تلك حقيقة الايمان بالحياة – اذ يصدق – تتهافت اليها التلبية . هذا شأن الصدق في الحياة ، هذا شأن الحب فيها ، هذا شأن الصفاء والامانة والولاء : تهرب الخيبة عنها ، يهرب عنها الشح ، تغتني بالقناعة والرضى ، تغتني بالحس النبيل ، ولا تشعر بذلك الفقر الذي – بدلَ ان يتفتق عنه الكد وحب العمل – ينفتل الى حسدٍ وكرهٍ وحقدٍ وتنكُّرٍ لكلِّ خيرٍ وجمال .

* * *

ونما محمد في ظل هذه الاطناب ، لقد اشبعه ثدي حليمة : ها هو يحبو تحت الخيام وحول الاطناب ، ها هو يقفز بين تلك الشياه وحِملانها ، وبين قوادم النوق وفصلانها ، ها هو يعتلي ظهر ذلك الاتان ، ويقود القطيع الى المراعي ، ها هي الشمس تلوِّح جبينه وخديه بلون النضار ، ها هما كفاه يَتَغَلَّظان باقتلاع الاعشاب والاشواك والهشيم ، ها هو بين صبيان القبيلة يقودهم الى الملاعب ورمي الجريد .

وها هما عيناه تتسعان من التحديق الى ذلك الفضاء الذي يسرح فيه الشعريان خلف الجوزاء : « اتعبدون الشعرى وتتركون ربها ؟ » وها هو يتعرف الى الدَّبران ، ذلك الالهِ المشؤوم الذي لا يمطر ، ويتعرف الى العيوق الذي يفصل الدبران عن حبيبته الثريا .

وها هو يصغي الى احاديث رجال القبيلة عندما كانت تجمعهم بعض العشايا ، يتنادمون ويتسامرون ، فيفتح اذنيه على سردهم الاساطير عن عاد وثمود مع هود وصالح في إرم ذات العماد والحِجْرِ من وادي القرى ، عن طسم وجديس وجُرْهُم والعماليق ، وعن عَوْج بن عناق الذي كان يحتجز السحاب فيشرب منه ويتناول الحوت فيشويه بحضن الشمس ، وجاء الطوفان فلم يبلغ اكثر من ركبتيه .

وملء السمع كانت اقاصيصهم عن مأرب وسدها ، وعن قصري الخورنق وغمدان ، وعن عام الفيل وقلّيْس صنعاء : « الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيرا ابابيل ، ترميهم بحجارة من سِجِّيلْ ، فجعلهم كعصف ماكول »

وهكذا كانت الاخبار عن ايام العرب ، كحرب البسوس ويوم ذي قار ، والاحاديث والاقاصيص عن الجن ، والسعالي ، والغيلان ، والشياطين ، وعن مواضعها في المغاور والاكام والفلوات ، في البَدِّيّ والبَقّار وجَيْهَم وعَبْقَر ، وعن مطايا الجن كطير النعام ، وعن صلة

الجِنّ بالكُهان ، وعن الارواح الخفية التي تسكن في هياكل الاصنام والاوثان ، وعن الكهانَة ، والعرافة ، والسحر ، والسحرة ؛ كشِقٍّ وسَطيح .

ما شحت عليه البادية – لقد اعتصرها في طفولته – لقد متنت بها شبكة ضلوعه ، واستجمع حواشَيهَا حفاءُ قدميه ، وغارت في سمائها حدقتا عينيه ، وجاب أَقاصيَهَا خيالُه ، وغاصت في مواضيها تاملاته .

وهكذا رجعت حليمة به الى مكة ، فتى ، يحمل على كتفيه اثقال الجنى . وستعود يوما اليه ، يقودها القلب الذي به حدبت عليه : ستجده وقد جمع الحبُّ اليه خديجة ، فيبسطُ لها رداءه ، ويضمها اليه بكل اشواق البنوّة ، وستعطيها خديجة بعيرا واربعين شاة .

وستزوره في يوم حنين ، فيلفها بساعديه ، وقلبه ، وردائه ، فهي امه التي من ثديها تلقَّم العافية ، ومن صدرها غرف الحنان .

دراسة

انه لمن باب ظلم الانسان ان نجرد الجاهلية من كل المفاهيم ، ونجور عليها بالحكم القاسي ، مسندين كل ذلك الى طبيعة أرضها ومناخها . انه صحيح ان الشعوب البدائية يرافقها كثير من التخلف والتردي ، ويرافقها دائما هذا النمط في الحياة ، تعينه النزعة الفردية مستوحاة من النظام القبلي – العشائري ، وانه لمن اشد المظاهر في حياة الجزيرة هذا التعدد من القبائل والعشائر في وحدات متفرقة ، تعين كل واحدة منها لنفسها لونا في العيش وأسلوبا في العمل ، يتفاوت بعضها عن بعض في اشياء ، ويتقارب في اشياء اخرى . الا ان مجموعها يتشعب من منطلق واحد ، يجمعها كلها السبب الوحيد الاصيل .

كل ذلك موجود في الجزيرة ، وان لفتة صحيحة من التنظيم الجماعي ، تتمكن من توجيه الاقتصاد وجعله في خدمة الانماء والتوحيد .

وان يكن ان الجزيرة العربية كانت محرومة انذاك من مثل هذا التنظيم ، فانها لم تعدم عقلا يفكر ويتقبل النظريات : فهنالك فترات ، مر بها هذا المجتمع ، انعكست عليه فيها مدنيات لها شيء من الازدهار – اكان ذلك من نفسها ام اتاها معكوسا من

الجوار – ان اللغة التي تعبر بها عن فكرها ، تشهد مفرداتها ؛ على قوة استيعابها وتمكنها من هضم المفاهيم .

ولقد برزت هذه التيارات الفكرية منذ القديم تتفاعل بها الجزيرة ، ففكرة التوحيد – مثلا – لم تكن غريبة عنها ، فلقد تقبلتها مع التوراة ، ومن ثم عبر كل المبشرين بالنصرانية على اختلاف فرقهم .

ان موضوع البحث لا يسمح في الدخول الى تفاصيل تعين جوهر كل تلك الفلسفات ، والقصدُ هو التدليل على ان اهل الجزيرة تمكنوا من اقتبال هذه الفلسفات وادماجها في حياتهم الفكرية . أمّا أنْ لا يكونوا هم أنفسهم مولّدين ، فذلك يعود الى السبب الوجيه في تفرقهم قبائل قبائل ، لا يجمعهم التنظيم في لحمة جماعية نامية ، هي وحدها التي تنبه الفكر ، وتعين له اهدافه البعيدة .

يدلُّ كل ذلك ، على ان الانسان في الجزيرة ، بمكنته ان يثبت مواهبه كانسان ، اذا جمعته النظرة العلمية الى بساط العمل ، ولملمت جهوده الفكرة الصائبة . ولكن شيئا من ذلك كان قليل الحظ في الجزيرة ، وسيكون لها مثل هذا الحظ السعيد مع الرسول العظيم ، في تمكنه من جمع الطاقات ، والاندفاع بها نحو تحقيق عظيم ، ليكون من ذلك دليل ابرز، على ان في الجزيرة انسانا يتمكن من التلبية .

بفضل هذا الاحتكاك البعيد المدى كان لانسان الجزيرة تهيوء

لتقبُّل الدعوات الفكرية الجديدة ، واستعداد لهضمها وتطورها ، الا ان ذلك لا يتأتّى دون عناء كبير ، فالمفاهيم – في اي شعب من الشعوب – تخضع لطول الممارسة . ان تاريخ الممارسة – كلما طال – يجعل تَقَبُّلَ المفاهيم اكثر استيعابا . اننا نلمح تاريخا بعيدا في الجزيرة بممارسة مثل هذه المفاهيم ، ولكنه تاريخ لم يَشْمُلْ كل انفتاحات الجزيرة . لقد تشردت الجزيرة فوق هذه الفسح ، فكان لها – مع هذا التشريد – فقدان اللحمة ، وحصول الانبتار ، لتخفّ معها تاثيرات تلك المفاهيم ، وتخفّ بالتالي قيمة التاريخ . ان كل المفاهيم كانت محصورة في الخطوط البارزة في الجزيرة : في المدن التي كانت قواعد القوافل التجارية . اما مجموع الشعب الذي هو اسراب اسراب من القبائل ، فانه كان في حالة تشبه العدم ، ولم يكن له من المفاهيم اكثرُ مما تمليه السليقة . لذلك كانت تقل كل قيمة تصل اليه ، فيشوِّهُهَا ويحوِّرُهَا الى ما يلائم طبيعة انفلاته وانفلاشه . ولهذا السبب كانت له كثرة الاصنام مثلَ كثرةِ عدد القبائل ، على غير قيمة ، وعلى غير وزن : انفتاح على انفتاح ، وانفلاش على انفلاش ، وفوضى على فوضى ، وفقدان جامع على فقدان لحمة ، وشح من عدم تنظيم ، وعقم وجهل من ضعف ترسيخ ثقافات .

لقد ساعدت طبيعة البيئة على هذا الضعف ، وساعد ايضا عدم التنظيم على تكثيف هذه الظواهر ، وكانت النتيجة أنَّ الكثرة الجاهلة كانت تقلل من قيمة القلة الفاهمة ، وتعرقل سير تقدمها

في حقل التوليد والاستنباط – ان ذلك يشبه عملية المزج بين عيارين : جزءٌ واحدٌ من عيار تسعين مع تسعةٍ وتسعين جزءا من عيار عشرة ، ان استخراج عملية هذا المزج يأتي بمثل هذه النسبة :

$$\frac{٩٠ + (١٠ \times ٩٩)}{١٠٠} = ١٠,٨$$

وتلك كانت نسبة الواعين في الجزيرة الى نسبة اللاواعين : واحد بالمئة – ان هذا الواحد يمثل العيار من درجة تسعين ، وان التسعة والتسعين كانوا يمثلون عيار العشر درجات ، ان قيمة المجتمع الممزوج في مجموعه الافرادي لا تساوي اكثر من عشرة وثمانية اعشار الدرجة . ان اختلاط الشعب ، بعضه ببعض ، لم يرفع نسبة قيمة الفرد الى أكثر من ثمانية اعشار الدرجة ، بينما مجموع الواعين خسروا من قيمتهم ثمانين من اصل تسعين .

تلك هي قيمة المجتمع ، فانها لا تقاس بقيمة الافراد فيها على حدة ، بل بقيمة المجموع على امتزاج . ولا عبرة للقيمة الفردية . ان قيمة الافراد تبقى محسوبة لهم وحدهم في ميزان التقييم ، بينما تبقى مجتمعاتهم على حقيقة قيمتها .

من هنا يجيء تحسس الأفراد الضمني بمسؤولية رفع قيمة مجتمعاتهم ، حتى يتسنى لهم استردادُ ما يخسرونه من نسبة قيمهم في سياق طرحها الدائم في عملية المزج .

كما وان هؤلاء الافراد ، لا تعلو لهم قيمة ، ما لم يطرحوا مواهبهم في الساحات العامة : قصاعا واحواضا وخيطان غزل . ان حقيقة قيمهم الفردية لا تتبلور في غير إذابتها في المصهر الكبير ، هذا المصهرِ الذي لا تكون وقوده من غير هذا الهشيم . كما وإنَّ هذه النار الآكلة ، والشديدةَ الضرام ، لا ترتفع السنة لهيبها ، الا من جمع هذا الهشيم قشة قشة ، تلتهب باكوامها ضلوع المصهر.

ذلك هو المجتمع اخذا وردا ، في تفاعل وثيق . وهؤلاء هم أفراده في تلاحمهم الموثّق ، أو في تنابذهم المضمَّر : إمَّا مجتمع يتلاحم افراده في المجالات الواعية الخيّرة ، أو مجتمع يتنابذ ابناؤه فيتقسَّم الى وَحَدَاتٍ متعددة تفقده كل قيمة .

كل ذلك ينطبق على الجزيرة التي قللت من قيمتها الاجتماعية انقساماتها الى وَحَدَات متباعدة عن بعضها البعض ، فضاقت فيها مجالات العمران ، وزاد فوق اراضيها الشح ، وقلَّ فيها رجال الفكر ، وطغى عليها الجهل ، وما يتشعب عن الجهل ، وانطمست فيها كل فكرة أصيلة ، وخف تأثير كل عمل ايجابي يُقَدَّمُ في سبيلها .

من هنا أنَّ كلَّ عمل اصلاحي فيها كان يصطدم بثقلٍ مضنٍ ، ترتفع نسبته الى عمق ذلك التردي فيها – الى عمق الوهاد التي تفصل قبائلها عن بعضها البعض – الى عمق تاريخ ذلك التردي – الى عمق كيفية التصرف بذات المقاييس وذات الانماط .

ان لا نظلم الجاهلية – جاهلية الجزيرة – يكفيها الاقرار بانها

تتمكن — اذ تدعى — من تلبية ، فانها تملك الشوق الى الفكرة الصحيحة . يصعب عليها التمييز بين الخطأ والصواب ؟ ان ذلك عائد الى ضعف مرانها ، ولكنها لم تخسر التوق الى تعيين الصواب .

بنو هاشم

على خط الجزيرة ، وفي صف القلة ، يبرز بنو هاشم . ان البحث يصبح عقيما اذا رجعنا نتدرج على السلم رجوعا الى الوراء ، فلقد نصل الى عاد . ولكن الفائدة في الحصر هي اكثرُ منها فائدة في الانفلاش : ان بني هاشم يمثلون خطا واضحا في تاريخ الجزيرة .

ان خط القلة الفاهمة في بناء مجتمعات الانسان ما ضاعت معالمه : فالتاريخ يطوي كل صفحاته للاختصار ، الا انه يعيِّن اسماء العظام على الصفحة التي لا تنطوي .

وقد يكون ان بني هاشم لا يستحقون صفحة كاملة في التاريخ ، لولا ان برز منهم عبقري عظيم احتجز من التاريخ غرة التاريخ ، ولفت الى اجداده الاهتمام .

لذلك توجهت الانظار تنقب عن الخط الموصول بمحمد صعدا ، لتربط الاحداث بعضها ببعض ، ولتجد الجذور المتينة التي تركزت عليها عظمة هذه المناقب .

وكان أَنَّ هذه الجذور هي متينة حقا ، وأَنَّ لها صلة مرهوبة في تسلسل المواهب ونقلها على الخط المتصاعد . ليس يخضع ذلك لقاعدة مطردة في نواميس التربية ، ولكنه يعول عليه كثيرا في

علم الاجتماع ، فالثقافات في الانسان – والتي منها الاخلاق ومتناتها – تعتمد على تناقل هذه التراثات عن طريق التربية والتسلسل الايحائي ، وأنها تكون في تصاعد دائم اذا قُيِّضَ لها إتمام الشروط – وهي كثيرة – من اهمها معرفة بناء الاجسام ، لتبقى دائما وعاء صالحا لنمو العقل . ان هذا الخلل – على الاقل – في مناهج التربية ، يعرقل سير تناقل الصفات على خطها المتسامي ، فتفسد المفاهيم ، ويقل الاستيعاب . ان العقل السليم – في هذه الحالة – تتعطل صفاته ، ليقع الخلل في قاعدة اطراد النمو الخُلُقي في مجتمعات الانسان . انها – اذاً – قاعدة ، وهي قياسية مطردة ، لو يتم لها توفير كل الشروط . ان علم الاجتماع قمين بمثل هذه الدراسة ، وأَحرِ بالامم ان يعير ساستها هذه الناحية الهامة كل اهتمام ، لجاء – اذاً – بناء المجتمعات البشرية اكثر سلامة ، واخصب نفعا ، وأقلَّ ضوضاء ، وانشر سلامة ، وأكثر سعادة ، وأعمق معرفة بروح الحق .

وجذور محمد ، اذ نرضى بالارتقاء بها حتى جده هاشم ، فلانه ليس بحاجة الى ابعد من هذه الجذور . ان العبقرية التي يتفرد بها عظام العباقرة هي خارجة عن خط الاسناد ، انها – بحد ذاتها – اسناد وعالم اسناد . ولكن لذة الحديث عن مجتمعات الانسان تحب مثل هذه الاسانيد ، فهي مُعوَّلُهَا الاساسي في علم الاجتماع .

عمرو العلا

من هذا القبيل ، يكون عمرو العلا ، او هاشم الثريد ، رجلا بارزا في خط الجدود ، ولكنه لم يُعَمِّرْ. بالرغم من ذلك فانه ملأ الخمسًا والعشرين ربيعا من عمره بالاعمال الجسام . لقد كان – على فتوته – سيد قومه .

من الضروري ان يُعرف ان عهده كان عهد انحطاط عام على طول الرقعة المعروفة بدنيا العرب . انه عهد خسران السيادة : ان قياصرة الروم كانوا يضغطون ، بكل ثقلهم ، على كل الخواصر السورية الممتدة من بوابات كيليكيا الى سيناء ، وكذلك كان الاكاسرة من الشرق يعبثون سواد العراق ، وكانت حالة الجزيرة – بين هذين الفكين النهمين – يتثاقل عليها الشح والمجاعة ، وكانت الفوضى بين القبائل عائشة على النهب والسطو والهوان .

في هذا الجو من التردي ، كان هاشم يتسلم مقاليد « وزارتين » من وزارات هذه الدولة الوهمية : وزارة السقاية ، ووزارة الرفادة – وبالحقيقة ، فانه كان متسلما الحكم – ان السياسة الخارجية كانت دائما تفتش عنه .

في هذا الظرف كانت اتصالاته بحكومات الجوار حرزا للجزيرة من تفاقم الفوضى والمجاعات فيها ، فلقد عقد مع قيصر الروم حلفا لتأمين سير التجارة بين الجزيرة والشام ، والتجارة في تلك الايام

هي التي كانت تؤمن حياة الجزيرة . وصاغ ، على طريق القوافل ، ذلك الايلاف الذي يؤمن للقبائل الموزعة على طريق القوافل ، ربحا من تجارتها ، وهو نصيبهم لرفع اعمال نهب القوافل وغزوها ، وكذلك تم بين هاشم والحبشة . ولقد تم على يديه ايضا فتح الجزيرة على بعضها بين شمالها وجنوبها ، فاذا باليمن تسهل مداخلها لاخوانها الشماليين .

هكذا ابتدأ التنظيم يرتب سير الحياة التي تعرقلها ابدا اسباب الفوضى ، وان ذلك دليلُ فكر يعتمد التوجيه ويتحمل المسؤليات . لقد وعى حاجات مجتمعه ونزل الى الساحة العامة يثبت فيها كفاءاته . لقد مد في الساحة هذه قصاعه ، وملاها من ذلك الثريد. لقد بُدِّلَ اسمهُ – ليس اسمه الآن عمرو العلا – لقد سمته الساحة « هاشم الثريد » : ان الحالة في الجزيرة بحاجة ماسة الى من يهشم لها ثريدا : هكذا تشتق الاسماء ، وهكذا يصبح الطهاة ابطالا قوميين – ان البطولات في المجتمع تنبت من حاجة المجتمع بالذات .

هكذا كان عمرو العلا طاهيا في الجزيرة ، يلتف حوله الجياع ، وكانت الجزيرة كلها على جوع . ولكن هذا الطاهي ، ما كان له ان يكون طاهيا لو لم تر قصاعه العيون : ان المخزون في نفسه شع في اعماله ، وان قيمته كانت في ذلك المخزون .

عبد المطلب

ومات عمرو العلا – مات واسمه هاشم – تاركاً خلفه خطا واضح المعالم ، مشى عليه ابنه عبدُ المطلب . لقد تمت الوراثة ، لقد تم فعل الايحاء ، لقد تمت عظمة التناسخ في امتداد الصفات في المجتمع من فرد الى فرد ، لقد كان عبدُ المطلب سليمَ الجهاز ، فتقبل امانة التوارث على ترسيخ وتنمية ، فكان ذاتَ الزعيم في بني قومه اهتماما وأَدَاءَ أَمانة . ان حاجةَ الجزيرة الى ماءٍ ، هي دائما في الجزيرة مطلب لجوج ، ها هو عبد المطلب يضني نفسه بحثا عن تامين السقاية – ان « وزارة السقاية » بين يديه ، لقد مات هاشم فانتقل الاهتمام بها اليه ، انها دائما في باله ، في خياله ، في تفكيره ، ترافقه مع كل سكناته ، في يقظته وفي منامه ... كيف يسد حاجة الجزيرة الى الريّ ؟ ان جزيرته ، وان تكن على جوع ، فهي أيضا على ظمأ . ان الظمأ ابلغُ مفعولا واشدُّ مطلبا ، يمكن الانسان أنْ يأكل التراب ، ولكنه لا يرتوي من رشف السراب .

لا عجب ان تتهافت على عبد المطلب خيَالات الرؤى : احفر طيبة – احفر برّة – احفر المضنونة – احفر زمزم ...

وها انه يحفر زمزم . لقد كان عليه وحده وعي حاجات الجزيرة ، انها كثيرة ، ولكن التنقيب عن الماء كان اشدَّها لجاجة .

ولبئر زمزم فوهة موشومة باصابع ابن هاجر . انها تاريخ في

حياة الجزيرة ، انها توحيد في تراثها ، انها فكر يتجه الى الله وحده في روعة التوحيد ، انها جذور في ذلك التوحيد .

هكذا وعى عبدُ المطلب بئر زمزم : وعاها في فكره وخياله ، في خلواته مع نفسه ، ومع عمق خلواته ، فاذا بها ترافق رؤاه خيالاتٍ مبهمةً تختلط مع الوعي فيه ومع اللاوعي. هكذا أخذ يلمحها – بهذا الابهام – تتغلغل في جو الكعبة ، فتتوشح بها الاصنام ، في هيولى من التوحيد . لقد اصبحت الاصنام ترتعش في خيال عبد المطلب ، ان الهًا مبهما ، غائرًا وراء اللاملموس ، يهيمن في محاجرها ، يرتعش بين اصابعها ، يهتز تحت قواعدها .

ويحفر بئر زمزم بايمان المرتعش امام قوة خفية تنبثق من عمق خياله ، فيستجيب لها بتاودات اوصاله . ويتابع الحفر وهو يرقب ، فاذا الماء ينبجس بين اصابعه كما تنبجس الراحة على قلب المؤمن من تحت ركبتيه الجاثيتين في المعبد : ان الله عزيز كريم ، انه قبل الوجود – بعد الوجود – قبلة الوجود – وهو في كل سليقة .

بهذا الايمان المطوي في سليقته حفر عبد المطلب بئر زمزم ، فكانت له راحة البال على بني قومه ، وبهذا الايمان قابل ابرهة عاهل الحبشة ، يسترد منه ابله ، ويترك له الكعبة يحاصرها ليمنعها عنه الله المشعُّ في قرارة نفسه . وستكون الآية فيما بعد تجسيما لايمان عبد المطلب باله كان في خاطره لمحة من هيولى – « وأرسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سَجِّيل فجعلهم كعصف ماكول »

أبو طالب

وانتقل الخط من عبد المطلب الى ابنه ابي طالب ، وراثة أخرى عن وراثة ، وهذا امتداد آخر عن امتداد ، فيه التكميل وفيه اشتداد النضج ، وتلك هي المسؤولية تتحملها المناكب .

وما كان ابو طالب الا وريث رجل كنته الجزيرة بـ « شيبة الحمد » فورث عنه – فيما ورث – هذا الحمد الذي لا يزال المسلمون ، حتى اليوم ، يوشحونه به .

ان بين يدي هذا الكبير تفتحت اسرار النبوة في محمد ، فهو الذي كفل اليتيم – لقد ورث الكفالة من ابيه الراحل – وهو الذي سهر عليه الليالي الطوال ، وهو الذي جعله في رفقته مع اسفاره الى الشام في الرحلتين اللتين رتب قواعدهما جده هاشم : رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وهو الذي كان يسبح – بتاملاته – في عيني هذا الفتى يكتشف وراءهما آفاقا وراء آفاق ، وهو – على فقره – ما شح على ابن أخيه هذا بشيء من الاهتمام ، وهو الذي رعاه وحماه من غدر قريش ولؤم زعمائها .

لقد كانت له الفراسة في عينين تقتحمان الافق الغائر . ذلك حس يرافق دائما الاعلام الافذاذ ، وعفيفي الطوايا . له من الارهاف ما يجنح به الى الاغوار . يتلقط بالجمال حيث يشعر بخفقة للجمال ، ويتخشع للسمو مع كل همسة من همسات جوانحه .

لقد كان في ذلك ابو طالب : فلقد سجد كثيرا في قرارة نفسه امام هذا الفتى - بين يديه - يستطلع خلف عينيه سرًّا . فليكن ذلك كله مكتنفا بالغموض والابهام ، غير انه يملك جهازا مرقوقا من رهافة ، ينبئه عن ان هذا الهادئ الهائج ، لبحر يجدر فيه الغوص .

ستصدق ابا طالب رؤاه ، وسيكشف له المستقبل المسرع ان اخاه عبدالله لم يمت دون ان يترك خلفه ذكرا يغطيه ببردة الخلود .

ومخاوف ابي طالب على الفتى اليافع - وان يكن لها في نفسه المجال الاوسع - ستذوب جميعها امام بطولة التصميم ، وسيرضى لفتاه بان يقذف بنفسه الى المعمعمة . على البطولات ان تتنكر للمخاوف ، وسيلبيه بكل ما اوتي من مدد : سيعضده بنفسه ، سيقدم له ابنه عليا ، سيقحمه في فراشه ، سيلفه بردائه ، سيلاحمه به حتى يصبحا فلقتي توأمين ، سيقدم له أيضا ابنه الثاني جعفرا ، سيجهز له اخاه حمزة ، وسيحضر له أيضا اخاه ابا الفضل العباس .. سيكون للفتى - مع الوقت ، من بني هاشم - ذخر يطوون عليه الياف الخواصر.

عودة اليتيم

ها هي ام ايمن تحمل اليتيم. لقد ارجعته «امه حليمة» الى امه آمنة، ولكنه اليوم يعود الى مكة من زيارة اخواله في المدينة، يعود وقد ترك امه تنام نومتها الاخيرة في جدث حفر لها في الابواء. لقد أصبح يتيم الاب والام. ان حضن جده عبد المطلب ينتظره بفارغ الصبر ليفرغ في عينيه مخزون عقله، وروحه، واعصابه، مجمعةً اليه من جعبة بعد جعبة ملأتها كلَّها الحياة من مضامين اسرارها وذخائر مكنوناتها.

لقد تلقم الطفل بالامس ثديَ البادية، وها هو اليوم يتلقم ثديا آخر، سيظل يعتصره الى ان يستاصل منه كل الدرن.

في هذه الحنوة الساكنة، تحت عين جده الكبير، راح الفتى يدرج في ساحات مكة: يصغي، ويعي، ويرى، ويتامل.

مر بالكعبة ودار حولها ما طاب له الدوران، وعدَّ باصبعه، وعدَّ بفكره، وعدَّ بخياله، كل اصنامها المتربعة على قواعدها، كانها تتربع على عروش من الخلود، وحدَّق بعينيه الى وجوهها، ومحاجرها، وأطراف اناملها، وتهدل صدورها، وضخامة اكفالها، واحصى كل نقرة من نقرات الازاميل التي انهالت عليها: نقرا، وتقعيرا، وتكعيبا، وتنعيما، وتخشينا، وتمديد اظلال. وقد يكون ان مد اليها يده لمسا، علَّه يشعُرُ في إحداها بخفقة نبض او بململة

حياة ، ثم راح الى فوهة زمزم ، يغسل كفيه مما علق بهما ، فاذا السادن يزجره بالقول : « لا تحلُّ لمغتسل وهي لشارب حِلٌّ وبَلٌّ » ، فينكفىء وسع قدميه ، بتغلغل بين الاحياء ، يفتش عن جده عبد المطلب ، يستفسره عن روح القول ؛ ثم يعود الى فوهة البئر ، يغرز في قالبها تحديق عينيه ، ويطبع على فمها ، من شفتيه ، قبلة .

وراحت خطوات الفتى تتسع فوق المسارب ، وبين معارج الاطناب ، من حي الى حي ، ومن ساحة الى ساحة ، تحت معاقد الغبار ، وتحت ملافح الشمس ، مع الليالي ، ومع مبازغ الافجار ، ومع مهابط الغروب .

وراحت تتسع أيضا تأملاته مع كل حلقة من حَلَقَات بني قريش ، في الاندية ، او تحت المضارب ، وراح يسمع احاديث القوم ، في جِدِّهِم ، وفي تفكههم ، وفي كيفية مساعيهم الى الرزق ، وفي تصريفهم الامور ، مع الامل ، ومع القنوط ، ومع كل تحسّبٍ او تَعِلَّة .

وشاهد ضرب القداح ، ووجف قلبه على مصير ابيه عبدِ الله ، ولم يرد أنْ يصدق أنَّ اباه قد مرَّ تحت ثقل التجربة ، وراح يسأل جده عن النوق المئة التي عينت عددها الاقداح ، فداءً عن تضحية ابيه ، كيف ضحَّاها ، وكيف تَمَّ توزيع لحومها ؟

ثم راح يشارك الناس في احاديثهم ، ليوقفهم – مستفسرا – عند كل مبهم ، فيكون نصيبه منهم الزجرَ ، ويكون نصيبهم منه ابتسامة .

ثم راحت تعمق اليه النظرات واللفتات ... ثم راحت تكثر اليه الاشارات ... ثم راحت تبحث عنه العيون ، فلا تراه ... ، ثم لا تعتم ان تراه .

ويموت جده الكبير ، فاذا هو بين يدي عمه ، ويأخذه ابو طالب الى الكنف الدافىء .

وراح العم يرافق فتاه غافيا ، اكثر مما راح يراقبه واعيا ، وراح يتخشع له ساكتا ، اكثر مما راح يتخشع له ناطقا ، وراح يكفكفه بقلبه ، اكثر مما راح يكفكفه بدثاره ، وراح يتأمل تلاميحه ، اكثر مما راح يتأمل تصاريحه ، وراح يحب فيه الابهام ، اكثر مما راح يحب فيه الايضاح .

وراح الفتى من عُهدة الى عُهدة : يأخذه السهو ، ولا تأخذه الغفلة ، يغيم به العمق ، ويدنيه فرط التحسس ، تطوف على شفتيه المعاني ، وتقل عنها مداعبة المباني .

لقد اصبح الفتى حديثَ قريش – انه سليل هاشم – اتراه يكون اعظم من هاشم ؟ ...

ململة البحث

تلك هي الجزيرة ، لقد بدأت تتوفر لها السوانح . ان الخط الهاشمي يوفر لها – مع التسلسل – الموعد . لقد طال عمر الا نحطاط ، لقد طوت اذيالها – فوق هذه الارض – آلاف الحِقب ، مع كل جرة ذيل سحابة غبار. ان في ذلك لسأماً تتذمر منه نسمة الحياة .

ان شيئا من التلميح ظهر في الافق البعيد ، طواه الامس بهاشم ، مع شيء من التكثيف . ان نوع السياسة كان له – معه – مشحات لون ، ان الحركة كان لها – به – دبيب روح ، وكان للافق الاغبر – على يديه – بعض الا نفتاحات يخطها التنظيم على دروب القوافل ، مع شيء من تذوق الاستقرار والطمأنينة . ان الزعامات بدات تتكيف – على عهده – مع شيء من الحس ، بشيء من الصغار. لقد بقي كما كان خط التنافس بين الا قربين ، بين الا خوة بالذات ، بين هاشم وعبد شمس ، ومن ثم بين بني هاشم وبني امية . غير ان الكفاءات قد بُدِيء يُشْعَرُ بها – على الا قل – مع هذا الموعد الذي راح يتبلور في هاشم ، ثم في عبد المطلب ، ثم في هذا الفتى الذي اخذ يُشغلُ بال مكة .

لقد اصبح للجزيرة – على هذا الخط – جو جديد ، مبهم ، ولكنه ، على كل حال ، جو يحمل شيئا من الا نتظار... انه الموعد .

٣- خط الرجولة

إرهاصات

أبو طالب

على طريق الشام

الغمامة المتنقلة

خديجة

آفاق السحاب

ارتقاب

ان الوقت يمر سريعا ، مع هذه الشموس التي لا تني تنسكب كانها خارجة من فوهات براكين ، ومع هذا الغبار يملأ الجو كالدخان يتلازج على الوجوه كأنه عجين الرماد .

ومكة أيضا ، لا تزال تزحف نحو الكعبة ، تستشير هبل ، ليسمح لها بالاقلاع على ظهور القوافل . ان السفر الى الشام يوفر — على الاقل — الهروب من كل هذه الملاهث الضاغطة بكفوف تذري رماد الحرات .

ذلك كان دابُ الجزيرة : ترتقب الصيف وترتقب الشتاء : مع الصيف ترحل ، ومع الصيف تئووب ، ومع الشتاء تقلع ، ومعه ترجع ، والحدو هو الحدو على وتع الخفاف .

كل شيء كان على ارتقاب : لتهرب من وطأة الحر ، كانت الجزيرة ترتقب السماح لها باعتلاء ظهور القوافل ، لتهرب من الغبار ، كانت تنتظر أيضا تحركات القوافل ، لتهرب من السراب ، كذلك ، كانت تتعلل بشد الرواحل ... وتذهب القوافل وتعود : والغبار هو الغبار ، والسراب هو السراب ، واللات والعزى ومناة ، هي ذاتها غرانيقها المرجوة الشفاعة .

* * *

ويخطٌّ في الافق اول رحالة كانت الجزيرة ترتقب – منذ الاف السنين – توقيع حِداه .

كانت تنتظر – كلٌّ هذا الغبار كان ينتظر العاصفة تنقلب به السحب الهامية ترابا خصيبا .

اجل ، انها كانت على موعد مع اشواقها وامانيها . من يقول : ان الجزيرة ليس لها كل هذه الاشواق تخلصها من هذه السحب القاحطة ؟ من يقول : ليست لها هذه الاحلام تدغدغها مع كل لياليها الناشفة القاتمة ؟

كل شيء كان يهجع في ضمير الجزيرة : في لا وعيها كان يهجع التوق الى الوعي . على زند شبل – بالذات – كان يتململ توق الجزيرة الى اله !

ولكن الجزيرة كانت تحت ثقل رتابة عيشها ، لا تدري ان القافلة الجديدة التي تسير الى الشام ، بقيادة ابي طالب ، تضم فتاها المنتظر. انها به أيضا – حتى هذه الساعة – على ارتقاب .

أبو طالب

منذ ضم ابو طالب ابن أخيه الى صدره وهو يشعر بوجفة ، بل اخذت تزيد فيه هذه الوجفة ، كلما غرز عينيه في عيني هذا الفتى ، ينمو بين يديه على عمق اسرار. ان في الكلمات – يتفوه بها – عمقا يطل على غور ، وان في سكونه – يتامل – بحورَ معانٍ لا تعيها كلمات .

ووجفة ابي طالب هي بداية تفتيق الغلف عن نفسه ، انها الا قمطة التي تلتفُّ بها طفولة وعيه ، تقف على الشفير ، فيحركها توق البطولة الى سبر غوره .

ان الخط الذي تناوله ابو طالب ، لم يزل طرفه معقودا بهذا الحس المؤهل بالتفتيش عن الحقيقة ... انها الخميرة في النفس ، يطيب معها الحسُّ كل يوم بعد يوم .

ان الذخيرة الروحية التي تناولها اليه في خط تسلسلها ، هي التي يشتغل بها فعل التخمير . ذلك شأن كل توَّاقٍ يبحث عن ضالة : فان عينيه تكونان في اذنيه ، وان اذنيه تكونان في عينيه ، حتى ان عينيه واذنيه تكون جميعها في رؤوس انامله ؛ فهو بحَّاثةٌ رائد .

ولم يكن شأن ابي طالب – مع محمد – اخف من هذا العيار . انه اصبح يراقب فيه حتى منبت الشعر في عذاره ، لا ن

اللمح اخذ يفعل فيه مع كل ما في نفسه من تجاوب .

اتراه كان وحده اللماح ؟ الم يلمح في الفتى – سيف بن ذي يزن – دلائل عمق ، خلف عينيه الوسيعتين ، فقال : هذه مفارش النبوة . وبحيرا ؟ – ناسك بصرى – الم يخشع طويلا امام هذه المفاسح ، تفترشها سنون اثنتا عشرة لا غير ، وهو يقولُ للعمِّ الحادب عليه : ان الجنة خلف هذا الجبين ، فاحفظه من عيون الشانئين !

لم يكن ابو طالب وحده اللماح – ولكنه وحده كان المتحسس بقوة هذا اللمح ، ووحده كان الواجف امام شيء عظيم مرتقب ، لا يعرف – حتى الساعة – كيف يكون اخراجه . ان الذي يتطور بين يديه – مع الساعات والايام – يلفه بكل هذا الابهام الجليل والرهيب . صحيح انه لم يفهم بعد ، ولكن المضمر البادي ، يتجاوب في نفسه مع ذلك المضمر الخافي . ان التنقيب وحده يتعلل بتكشيف المضامين ، ولن يكون ذلك خارجا عن توق ابي طالب الى تكشيف نفسه بهذه الكثافة بين يديه ، ليشبه التائه في البحر : يتلقَّط بالصخرة الناتئة ، يعلوها ، ليأخذ فوقها روعه وراحته ، فهي لديه – وحدها – في تيهه ، صمَّام امان .

على طريق الشام

هذا اليوم – كامس الدابر – لا مطر فيه ، ولكن في زاوية الافق البعيد غمامةً تتارجح بها مقالب السحاب . ان العين التي تراقب ، ترى في البعيد طراوة تقترب على تعلّة ، وهذا هو الفارق بين يومين يدوران على ذات المحور.

وان هذا أيضا شأن القوافل : فهي ذاتها لا تزال مجدولة تحت اخفاف الرواحل ، حتى ولو كان فيها فتى يقفز عمره – به – خطوتين فقط ، عن عقده الاول .

ولكن هذا الفتى الوسيم ، ما ترك اليوم مكة الى الشام ، الا بعد ان وزع الكثير من خطواته فوق هذه الرمال . ان هذه الرمال – على الاقل – احست ، على غيابه ، بوحشة الفراق ، وشوق الانتظار.

الا ان شيئا ابلغ من ذلك أخذ يحصل : ان اهتمام ابي طالب ، هذا الرجل السيد في قومه ، الجليل اللفتات ، والهادئ القسمات ، قد لفت العيون الى محمد يستأثر بهذا العطف منه ، وهذه الرعاية .

ان التَنبُّهَ في الخواطر راح يجمع له كل الشوارد : ان البوادر – تصدر عن فتى لا يزال دون اليفعة – راحت تتسجل له خارجة عن الخط المألوف .

ان للرأي العام واعيةً تشتغل دائما في الخفاء ، وهي لا تتلقط

باية قطعة من نسيج لا تكون مفتولة على مغزلها ، لذلك فهي لا تتشح بغير نسجها . انها ، في ذات الوقت ، لاقطة وحافظة ، ولكنها لاقطة – على دقة ضبطها – بطيئة العمل وبطيئة التسجيل ، انها تسجل بعد اجترار طويل .

هكذا اخذت تجتر ساحات مكة خطوات محمد ، تجترها مع كل حركات صاحبها . وهكذا بدأ الوقت يقيِّم – على مهل ، وعلى كف الاهتمام – كل اشارة تصدر عنه ، وكل لفتة وايماءة .

لم ترجع قافلة ابي طالب من الشام الا وقد سبقها كل خبر عاطر . ان تنبُّئات بحيرا تركت في الخواطر شيئا يبحث عن كثير من التفاسير ، وان التحديق الى الفتى اصبح – بعد ذلك – من قبيل الولوج اليه ، على سبيل التقصي .

ماذا على الحاضر ان يكشف ؟ ولكن الرأي العام لا يثق الا بمرور الزمن . غير ان التكهن يحوم دائما حول الحقيقة : لا يتلقط بتلابيبها ، ولكنه يأخذ ببعض أذيالها – لو ان له اكثر من ذلك ، لما وضع على عينيه نظارتين .

ولقد مد التكهن اصابعه حول محمد ، في رأس كل اصبع اذن وعين ، اما هو فانه راح يعتصم بالسكون ، كأنه يهرب من المطاردة . ان الذي كان يفتعل فيه ، كان اعمق بكثير من ان يفصح عنه اللسان ، ولكنه – على كل حال – لم تتكاثف بعد غيومه .

لهذا راح الرأي العام يتخبط في تكهناته ، فهو لم يجمع يوما الى بيادره مثل هذه السنابل ، وان تكن هذه السنابل لم تلتو بعد ، الا ان شكلها هو من النوع الغريب .

ولقد كان التكهن أيضا ينتظر الاشارات ، ان الاشارات تاتي اليه من هنا وهناك : دائما عن طريق المداورة . ان الرأي العام ، لا تأتيه المعلومات مباشرة ، دائما ودائما بعد كثير من اللف والدوران .

بمثل هذا الجو، من الابهام والترقب ، راح محمد يشغل فكر مكة ، يشغل عقلها ، وكأنها تتحضر لان تتمكن من النظر اليه . ان مكة بالذات – والرمد في عينيها ، وعجين الغبار في اذنيها – سترى اليه ، من بين ذريرات رمدها ، وتصغي اليه ، من تحت معجون الغبار.

وبقي خط الشام مفتوحا ، مع كل صيف ، ومع كل شتاء ، وراح محمد يزرع على هذا الخط اشواق نفسه – لقد فهم هذه الخطوط كيف تخنقها السموم ، وكيف عليه ان يجنبها ضغوط لفحاته .

وانسان القوافل ، كان ذلك الانسان الذي يفتش عن الليل هروبا من الشمس ، لان الشمس لم تعكس له يوما الا السراب . وتجلى لمحمد كيف عليه ان يجعل هذا الانسان يؤمن بان الشمس لا تعكس السراب ، وتخلقُ الغيمة الماطرة ، اما السراب ، فهو انعكاس عقم عتمات الليالي .

وانسان القوافل كان يقصد دجلة ، وبردى ، والفرات ، ليرتوي ، ولكن طول الطريق ، في عودته ، بين مكة والفرات ، كان يمتص حتى الجريض من حلقه . وتجلى لمحمد كيف عليه ان يقوّم طريق القوافل : ان فعل الروح في الانسان يقصّر الدروب أمام الرواحل .

كل هذه الأشواق كانت خلف جبين محمد ، لهذا كان — كلما عاد مرة الى مكة — يحمل على وجهه تواشيح يزيد فيها البهاء ويفيض فيها الصفاء .

ومع كل أوبة لهذا المجتلي الرائد ، كان يهتز التكهن حوله ، ضاربا في آفاق المبهمات : أتراه ساحرا يتلاعب بالخواطر؟ ام نبيا تهل به كف السماء؟

الغمامة المثقلة

لم تهم الغمامة بعد ، ولكنها مثقلة . لقد تغلغلت كثيرا اشعة الشمس بين هذه الرمال العجاف ، ولقد لملمت ، بخيوطها ، كل اثر نديّ : رشفتها واستبدلت بها هذا الخادع الرجراج ، يتعلل به حَوَلُ العيون على الظمأ السقيم .

لم تبتلع الشمس هذه الاوشال ، فان ما سحبته ببطء عن صفحة الرمال ، عبَّأَتْ به خواصر السحب ، وها هي تلك السحب ، تسوق امامها قطعان الغيوم ، تحوملها فوق الافق ، من منقلب الى منقلب – انها بانتظار كف باردة ، تكفكفها ، حتى ترخي شئوون مآقيها .

ولقد كان محمد ذلك الافق في جو الجزيرة ، فانه ، منذ ان فتح عينيه على هذه الصفحات ، وهو يجمع على كفه خيطان المغازل .

وخيطان الجزيرة ، يا طالما تلاعبت بها اصابع الجن ، فانتشرت فوق هذه الصفحة الفيحاء ، خيطانا : يختلط فيها الغليظ بالرقيق ، والابيض بالاسود ، والطويل بالقصير – فاذا هي متقطعة معقدة ، منجردة بالية ، يتأكلها الغبار ، ويطمرها العفن .

ما ضنت على الجزيرة بخيطانها المغازل ، فلقد كان فيها الجيد والثمين ، ولكن الجزيرة لم تتقن الحياكة على النول ، فجاءت

ملابسها كأنها من غزل العفاريت .

هكذا كان لها مع ادريس اله احد ، فتناولته بحسها ، فاذا به يتوزع بين يديها ، على كعباتها ، اصناما لها شفاعات . فجاءها ابراهيم الخليل يكفكف اخطاءها ، ويرشدها الى الصواب . ولكنها لم تنظر الى ابراهيم الا بعين تدور في حدقة ، فكانت ، لا تكاد تبصر ، حتى يضيع منها البصر. وبقيت لها الاصنام ، على ذات الوتيرة ، تتشفع لها مع اله ادريس ، ومع اله ابراهيم ، ومع اله المجوس : (زوران اكريني) ، ومع اله عيسى .

لقد اصبح الاله الواحد مطاطا : ساعة ينفتح على كوكب ، وتارة ينزج في ناب افعى .

وزعقت بعد ابراهيم صيحات اليهود ، فتقسموا الى سبعين فرقة ، كل واحدة تنظر الى الله بعين : عين الفروشيم (الرب هو اله ابراهيم) ، وعين الصدوقيين (التقيد بحرفية التوراة) ، وعين العباد (النساك) ، ومن ثم العنانيين (ينكرون نبوة المسيح ويصدقون ارشاداته) ، والسامريين (يؤمنون بنبوة موسى وهارون ويشوع بن نون فقط) ، فالدستابية (الثواب والعقاب في الدنيا) ، والكوسانية (يؤمنون بالعقاب والثواب وباليوم الآخر) .

وزعقت بعد زوروواستر (نبي المجوس) ، صيحات المجوس ، فتوزعوا الى فرق ، كل واحدة تنظر الى الله بعين : الخرمندية (تناسخ وحلول) ، والمسخية (انمساخ النور الى ظلمة) ، والزردشتية

(نسبة الى زرادشت) ، والساسانية والثنوية (ازلية النور والظلمة) ، والمانوية (نسبة الى ماني الذي قرب النصرانية الى المجوسية) ، والمزدكية (مذهب اشتراكي متطرف) ، والكينونية (اصول الخلق ترتكز على النار والارض والماء) .

وزعقت صيحات النصارى ، فتقسموا الى فرق ، كل واحدة تنظر الى الله بعين : المسيحية اليهودية (يسوع مخلص زمني وهو ملك اليهود) ، والنيوستيكية (المخلص منبثق من الروح وهو غير المسيح الانسان) ، والافلاطونية الافريقية (اعتقاد بالتثليث نسبة الى بلاطون الفيلسوف اليوناني وانتشرت في مصر) . ثم علا الصياح بين اريوس « راهب يقول بان الابن هو دون الآب » وبين قسطنطين الكبير في مجمع نيقيا (صدر الحكم على نفي اريوس ، وعلى ان الابن هو في مرتبة الآب) ، ثم فيما بعد بين الملكانيين والنسطوريين (اشرق النور على جسد المسيح وهو مغاير لاتحاد الكلمة) ، واليعقوبيين (استحالة الكلمة الى لحم ودم فصار الاله هو بالذات المسيح) .

وتقسم الله : فهو ساعة خالق ، واخرى مخلوق ، وتارة يملأ الفضاء ، وطورا يتقلّص الى عين غول ، وهو اله في الشمس ، وليس الها في القمر ، وهو في الثريا ، وليس في الدبران ، وهو اله موسى ، ويشوع بن نون ، وليس اله عيسى ، وابراهيم الخليل ، وهو في السماء ، وليس على الارض ، وهو - هنا وهناك - في التوحيد مع تثنية ، او في التوحيد مع تثليث ، وهو جوهر في الظهور ،

او جوهر في الحلول ، وهو صفة تتجسم ، او جسم يتصف .

ولن تنتهي المعزوفة مع هذه الاوتار المختلط فيها المشدود بالمرخي ! ولن تنتهي حلقات القيود ، تكبِّلُ الفكر بالمفاصم ! ولن تنتهي الغايات من حياكة الاحابيل تختبيء وراءها اصابع المغرضين ، فلا تلمحها تهدأ حتى تعود اليها خضا وتهييجا !

لقد كانت بيزنطيا وراء كل جدل بيزنطي ، ولم تكن دولة الاكاسرة اقل منها حضا على اثارة الجدل : فلتنطلق كل هذه التيارات الفكرية المجنوحة في جميع تشعباتها ، فانها ستجد امامها ما تتغلغل فيه فتفصمه عن بعضه البعض .

هكذا كان ، على طول القوس المحيطة بالجزيرة : من خليج العقبة الى طول الشاطيء الممتد على المتوسط ، معكوفا صعدا على طول الجبهة السورية الملتحمة بالعراق ، لتعود فتتكون ، من الشمال الى الجنوب ، متصلة ببحر عمان .

ولقد طاب – تحت عين بيزنطيا – تمثيل المشاهد ، ولقد طاب ايضا وقع فعلها على خاطر الاكاسرة .

لقد تلهى الناس كثيرا بتقسيم اله ، هو اله نوح ، وادريس ، وابراهيم الخليل ، كما هو اله زرداشت وموسى وعيسى . ولقد تلهى الناس باخراجه : حيث رفعه قسم منهم الى كوكب ، بينما لفه قسم آخر على خصر وثن ، وراح كل منهم يدافع عنه مملوكا يحمي

حماهم ، ويغير معهم على حمى الغير ، حتى انهم حصروه في حجر الا ثافي .

* * *

كل ذلك كرت خيطانه امام بصيرة محمد : خيطا خيطا ، لقد ابصر كل خيط ، من حيث انتهى الى حيث ابتدأ ، وقد ازيح عنه الغبار ومُسح عنه العفن ، فبان المهترىء منه ، وانفك المعقود ، وانوصل المقطوع ، والتحم المبتور.

ولقد ابصر الغايات ولمح المعاضل . لقد تكشفت له صفحة الصحراء ، وانفتحت امامه كل خطوط القوافل ، مع كل خطوة ، وتحت كل خف جمل ، رمى لفتة ، ومد شعاع تبصر.

لقد تم جمع الخيوط ، لقد اثقلت الغمامة ، انها بانتظار ما يكثفها ، حتى ترخي من عينها المزنة .

خديجة

صلوات الله عليك يا رهيفة –

يا اذنا حُبِكَتْ من ألياف الحنين الى الذرى ، وتدلَّت اليها من فوق الذرى نجوات المهامس .

يا اشرئباب التوق الى الجمال ، ويا ائتزار الجمال بمخفار الشمائل .

ما يبست تحت قدميك الدروب – يا رحَّالة – في جاهلية كانت تيبس تحت عينيها الدروب .

يا بطولة لم يُسمع لها صوت .
يا ثورة هجعت مع الليل وتحركت مع اول شعاع .
يا ضميرا غفا على سقم ، ثم استيقظ على حفيف جانح فراشة .
يا قلبا اخنعه اسم الحب ، ثم التهب به همس الحب .
هنيئا لك خفة السمع على عمق الاصغاء .
ومبارك عليك عظيم الا قتناص .

آماق السحاب

لم يسمع احد بمحمد ، باذن كالاذن التي سمعت بها عنه خديجة . انها اذن كان فيها اكثر من جهاز سمع . لقد كان فيها غور تشابكت في قعره حياكات نفس شجية ورضية ، كانت خديجة تسحب ذاتها الى ذلك القعر ، في لياليها الطوال ، تُخلد اليه فيها بسكون الاصغاء المتلاشي على وشاحات التأمل .

انها في الاربعين ، في بحبوحة من الاختمار الرصين . وهي تعيش في حنوة قلب ما تبادل مع عقلها يوما ودا بود : طالما دفق هذا النابض عطفه على هذا الصديق ، ولكن هذا المحتمي منها في الأعالي ، ما تمكن من ان يرد اليها حتى اليوم جميلا .

تزوجت مرتين ، وترملت مع المرتين . تزوجت على جاهلية ، لا عقلها رضي ، ولا قلبها نبض . وئدت – هكذا – مرتين ، ومع المرتين نجت ، فانسحبت الى الخَلَوات من نفسها ، تضمد قلبها المجفو ، بعقلها الملجوم ، وهكذا عمقت في نفسها القعور الحالمة .

ولقد تلهت كثيرا ، وهي توفر لقلبها جوَّ النَقَهان ، ولما احست بانه بريء ، ظنت به الجفاف واليبس ، فتركت لعقلها وحده توزيع المشاغل .

وخطَّت – بقيادة « ميسرة » – قافلة لها بين مكة والشام ، يشرف عليها العقل المحرر من الا ثقال ، فكان للقائد الرشيق تضعيف المكاسب .

وانساقت الدنيا الى خديجة ، بنضار بلا لون ، بحرير بلا ملمس ، بازهار بلا عطور.

ايُّ طعم للرغيف تهرب منه حبة الملح ؟ أَية طلة للعقل لا يغتسل -- كل لحظة – في حنوة القلب ؟ اية لذة للعمر تخلو ايامه من ليالي السمر؟ اية قيمة للتراب لا يُنبتُ أزغاب المخامل ؟

ورضيت خديجة بالقسمة ، وانكفأت بها الى التامل والسكون ، فكانت لها الاذن الغائرة على شفف .

* * *

وسرى في جو مكة همس ...

همس بعيد ، غائر ، مبهم ...

كل ما فيه من وضوح انه يحمل اسم محمد – ان الباقي جَلَبَة .

يطول كثيرا على الرأي العام توضيح المشاهد ، فهو كالطاحونة : تقرقع كثيرا قبل ان تفرز حفنة طحين .

وها هي خديجة ، تتلقف اذنها الهمس ، ويشتغل جهازها بعملية الفرز. ان البعيد من الهمس اصبح لاصقا بالشغاف ، ان الغائر هناك اوشك هنا ان يصبح اشد منه غورا . ان المبهم

في الجلبة التي تقرقع راح يشرك العقل مفتوحة عليه فوهة القلب ، فاذا عروق جسدها تحمل المبهم الى بساط من التكهن ، يثمل به كيان خديجة ، فتتلاشى في استسلام المحمول على اجنحة الاحلام .

اي شيء في خديجة لم يكن مستلقيا على وسادة من التهيؤ؟ لهذا راح ، مع اول سانحة ، يشتغل العقل والقلب في وجود خديجة ، لاول مرة في حياتها ، فانفتحت عيناها على ابعاد الكون ، واستيقظ في نفسها فعل الروح ، وسبل الخيال في جوها الفكري رخي جناحيه .

كيف ييبس القلب والعقل لم ييبس ؟ ان القلب الذي ييبس لا يكون ابدا في رفقة عقل . لا تصدِّق الحياة غير ذلك ، فهو المقدس في ناموسها ، ذلك هو عجينها : عقل يصب عليه معين قلب ، والا ، فان الكون كلّه كالصحاري .

* * *

قبل ان تفرز طاحونة الرأي العام حفنة من الطحين ، كانت قافلة خديجة تسير بقيادة محمد الى الشام ، كانت طاحونتها تتكوَّر بالطحين .

لقد رافقته بكل احلامها : بقلبها ، وبعقلها ، وباستسلامها الى روعة المبهم . ان المبهم في محمد — لديها الآن — هو كل قيمة في محمد .

وعاد محمد ، بين يديه النضار ، رمته في خزائنها : له لون ، له شكل ، له ملمس ، له عطر ، له قيمة الجنى ، فهو ليس فقط غبارا ، لقد عجنته آماق السحاب .

٤ ـ المبعث

البيت الجديد
غار حراء
علي
فاطمة
إشراقة
الآية
ومكة
العزم الأكيد

البيت الجديد

ان البيت الجديد كان مصنع حياكات ، سداها شاطىء ولحمتها سحاب ، ولقد كان مشتهى السعادة . فلقد خيم فوقه هدوء ليس هو من عمق الاستقرار ، اكثر مما هو من استقرار العمق ، ولا هو من جلال السكون ، اكثر مما هو من سكون الجلال .

وراحت على مهل تتم الحياكات ، ودون اي حس لصخب ، في تفاعل ضمني يشتغل فيها الايحاء مجدولا بحبال تتدلى من الاعماق ، كما يشتغل بالليل ترسيل الاشعة . هكذا يشتغل النور بانبثاثه في قلب العتمات : يبريها دون ان يكون لها اي اثر لحتات .

وكان رب البيت ساكنا هادئا : يفيض البشر على وجهه ، كما تعمق خلف الاسارير خطوط المهابة ، يرسل الكلمة مع لطف ، ويتوقف بها على جلال ، يهل الصدق من شفتيه على انعكاس من خلف عينيه ، ولا تشهد قسماته بغير لين العريكة .

وتعبأ الوقت الثمين باتمام فعل المشاركة – المشاركة الحقيقية في الخلق والابداع : كل ما حصل ، كان تجسيدا لارادة الحياة ، وكان اخراجا صادقا لحقيقة معانيها .

ومحمد ، ما تسلم الحياة جسدا يلغي عمل الحياة فيه : فهو جسد منبثق من ناموس ، ومتمم لمشيئة . وها انه يتفهم قدسية هذا الناموس ، وجلال هذه المشيئة .

أنْ يربط ضلوعه بضلوع خديجة ، فذلك من وحي هذا الناموس .
وان ينجب الاطفال ، فذلك ايضا تلبية لهذة المشيئة . واتمام العملية ، انما هو تنفيذ للارادة السرمدية ، في المطاوعة لها في التعبير عن نفسها بنفسها . ولن يكون محمد غير مطواعٍ لفوارض الحياة في مشيئتها .

ما اصبحت حنايا البيت مدرجا وملعبا لفتيات اربع الا لتمجد مشيئة الحياة في امتصاصها اشواق نفسها بنفسها ، وفي ارتشافها رحيق شفتيها بشفتيها . لذلك جادت الحكمة في ما بعد : ((لارهبانية في الاسلام .))

هكذا فتح محمد قلبه للحياة وراح يقطره في المجال الخصيب .
فكانت له الابوة مصعدا الى قدسية الشعور ، ومدخلا الى حقيقة اللباب ، وهكذا كانت له المشاركة الفعليَّة في حقيقة الانجاب ، وكانت له الاسلاك ، يلمسها بيديه ، وهو يشحنها بالتيار من أشواقه ، وكان له الحس الصادق بتفاعلات الحياة في مجاري افكاره وخياله ، ولولا ذلك لما صلح جهازه لتقبل تلك الخفقات العلوية التي سيغمر بها الله كل وجوده وكيانه .

تلك حقيقة في الحياة – فان لواعج النفس في الانسان لا يُدرَك كنهها ، في حقيقتها ، وفي مدى عمقها ، الا عن طريق المشاركة الفعلية .

ان المشاركة وحدها تؤمِّن صحة الغوص وحقيقة التحسس – حتى ان المشاركة ، اذما تعمق ، تعمق معها روعة الاكتشاف .

ومحمد – وهو الآن على شفق يطل – ما كان عليه فقط ان يسبر بنظره الاغوار، فلقد كان عليه ان يتدلى الى الاعماق حاملا معه كل اوصاله واعصابه. لذلك كان عليه ان يتمنطق بكل حقائق الحياة، ان يخلع عنه الأوهام وثقلها الرازح، قبل ان يطرح بنفسه الى عب هذا الواسع الصاخب.

لذلك كان عليه – قبل ان يلجأ الى غار حراء – ان يملأ قربته من هذا المعين. وخديجة وفرت له منبعا في النفس، فجَّره الحب معطوفا عليه وعليها، في ابوة وامومة تَلَوَّنَ بهما – تحت عينيهما – منظر الكون.

ولقد كان له بالامس، ان يغرف من هذا المعين: فلقد شارك أهل البادية طفولتهم البائسة، ولقد شارك أهل مكة جفاف العيش على الاوهام، وسار مع القوافل متحسسا حاجة الانسان الى افق لا تشويه الشمس، بل يُدفئه صدق الحنين.

لم تفته – حتى الآن – تلك المشاركة الفعلية، يعبيء منها جهازه الوسيع، حتى جاءته المشاركة الكبرى في تحسس الحياة بادق واجل معانيها: فهو الآن غواص في منابع الشعور، في صدق المشاركة التي تلهب جوانب النفس، وتؤجج أوهاج الضمير، وتدفع الانسان، من جو الانسان على الارض الى جو السماء في الانسان.

لقد اصبح محمد ابا كريما عطوفا، لقد تكاملت فيه الصفات، لقد اصبح – على عتبة غار حراء – راجح الخطوات.

غار حراء

لم يختل وحده – محمد – في غار حراء ، فلقد كان معه : ثويبية ، وحليمة السعدية ، وام ايمن ، وابو ذؤيب ، وجميع الفتيان الذين تراكض معهم في البادية حول الخيام وفي رعاية الاغنام . وكان معه ميسرة ، وجميع الغلمان الذين كانوا يقطِّعون اوصالهم على دروب القوافل .

كل هؤلاء المساكين صحبوه الى الباب ، وتركهم على العتبة ينتظرون منه ايماءة ، وراح يناجي باسمهم : اله اليتامى ، والارامل ، والمساكين ، اله الصحاري والبحار ، اله الارض والسماوات ، اله الخلق ، اله الكون ، اله الازل والابد ، اله الانسان .

دخل الغار ، وادخل معه كل خطوات الامس ؛ وراح يعرض ، امام ربه ، كل دقات قلبه ؛ كل وجفات ضميره ، كل مسارح خياله ، كل اشواق روحه ، كل ومضات فكره ، وكل مسالك جسده .

لقد دخل غار حراء ومعه كل فسح الجزيرة ، في كل اطاراتها في المكان والزمان ، ومعه كل الملامح ، واللفتات ، والموازين ، والمقاييس ، ومعه الاستعداد والتهيوء ، ومعه الخيوط والمغازل ، ومعه الارهاف ، ومعه عمق البصيرة ، ومعه جوهر الانسان .

دخل ، ومعه العظيم النادر في وجود الانسان : معه العبقرية ،

التي لا تشمل الا نسان ، حتى تخطفه الى فوق ، الى عمق ، الى مدى ، حيث يصبح في الهالة الكبرى ، وعلى المدرج الساطع .

* * *

ما كان يرجع محمد الى بيته ، من خلواته في غار حراء ، الا مثقلا بمهابات .

اي جلال للفكر يسرح على جبين المفكرين ؟ اية مهابة للعباقرة تسبق خطواتهم وهم يتنقلون على الدروب ، تتهامى من عيونهم ، كأنها الفيض من اماق السحب ؟ كيف تحدد الصفات ، في انفتاح تكاملها ، وتناسقها ، وتضافرها ، وتلاحمها ؟ باي لفظ توصف وهي مزيج من رصانة ، ووقار ، ومعرفة ، واطلاع ، وعمق فكر ، واختمار ، ووعي ، وغوص ، وتناه في الطيبة ، وتلاش في المصدر الا شمل ؟

وان يكن من اغتباط ، فهنيئا للعين التي تتمكن من لمح هذه المهابات على وجوه العباقرة ، حتى وان فاتها التعبير في وصفها . ان وصف مهابات العباقرة ، عصيٌّ على شقوق الا قلام .

علي

ان تشهد فيما بعد – وحدها الوقائع – بان عليا كان نعم الربيب ، ونعم الرفيق ، فذلك معناه : ان للصدف عقلا وفكرا وخيالا – وليس لها شيء من ذلك . قد يحصل ، ان الصدف تحمل الاعاجيب ، ولكنها اعاجيب تبقى في نطاقها المحصور ، وتلبث مجردة من المواهب .

ليس من باب الصدف ان يتناول محمد عليا من عمه ابي طالب ليجعله بين اولاده ، فللعم الكبير فضل جليل ، وبالامكان ان يثاب بابلغ من هذا التعبير ، ولكن التوسم هو الذي كان وراء هذا التصرف .

وتوسُّم محمد ، هو قراءة الحاضر والمستقبل . له جهازه العميق ، وعدساته اللماحة .

ليس منكورا على علم النفس ان الوجه هو ملعب الطوية ، تشتغل هي في الاعماق ليعكس الوجه اظلالها . ان الوجه وحده يكون الجهاز العاكس . ان الخطوط في الوجه ، من هنا تأخذ اسمها : فهي الاسارير . انها نتيجة ذلك اللمس المتواصل – لمس الطوية . بين إناملها ازميل من حرير ، وازميل من اثير . بهذين الازميلين يتم حفر الخطوط : تطويلها ، وتعميقها ، وتعريجها ، وتقليصها ، وتمديدها ، وتشعيبها ، وتغويرها . وبهذين الازميلين يتم حفر حدقة العين ، وتشبيكُها بالاسلاك ، تضغط عليها النفس

من العمق ، فتتجاوب هي تحت ضغط التلامس .

بهذا العمل الصامت تشتغل الطوية شغلها الدائم ، والدائب ، في وجود الانسان : مباشرة ، منذ ان يولد ، ومداورة ، وهو لا يزال في صلب ابيه واجداده . ان لها عملا بالغا ، عن طريق الوراثة . ان ازميلها وجد في راحتها مع اللحظة الاولى التي نفختها نسمة في الحياة .

انه من البسيط جدا ان نقر بالنظرية ، ولكن الصعب هو ان نتعلم ، وان نجيد القراءة . ان قراءة الاسارير علم ، ولكنه لا يؤخذ ايضا الا عن طريق الطوية .

هكذا لمح محمد في علي - وهو طفل يلعب - كل ما حققه فيما بعد علي ، في مضمار وجوده . لهذا انتقل الفتى الى حجر ابن عمه ، ليكون احد اعمدة الفكرة التي تتنازل الان خيوطها على المتحنث في غار حراء .

كل شيء يشتغل في اجراء التحضير : ان عليًّا اليوم هو عدة الغد .

فاطمة

على ذات القياس جاءت فاطمة تتلألأ على وجهها الاسارير، فتناولها ابوها كانها الشعاع في خاطره، وستكون الشعاع في خاطر الزمن. رمى اليها نظرة من قلبه، ورمى الى علي نظرة من عقله. ان في النظرتين كينونة لحمة أحلامه.

ان الاهداف البعيدة ترسخ القواعد المتينة، وان ذلك يتطلب الحيطة، والحذر، والاشراف الكامل والناجز. فكما ان عليا لن يترعرع الا تحت العين اليقظى، كذلك فاطمة ستربو أيضا بين هاتين الذراعين.

فليتمهل قليلا فعل الزمن. ان في التمهل اكتمال نضج القدر فوق أثافيها: ان عليا يتكامل فيه العمل العظيم، لقد اصبحت خطواته وسيعة في اتجاهها نحو حراء، وها هي فاطمة تتوسع حدقتاها مع هذا الترسيل الذي يتوضح لها سطوعه. لقد انتدبت اخواتها لتنفيذ مشيئة الحياة فيهن، كل واحدة منهن اصبحت في بيت جديد، ليصرن بدورهن امهات. اما هي، فانها بانتظار القدر الكبير الذي سوف يجعلها اما على خط ابيها.

هكذا – وهي طفلة – نيطت بها تربية كشافة عن جوهرها، فاذا هي لها الطوية العميقة تلين مع التلبية وتلبي بكل لين.

ان فاطمة أيضا تنمو وتقترب من العتبات.

إشراقة

ان الذي شاهد بزوغ الفجر ، هو وحده الذي مشى الليل الطويل ، ميمما شطر الذرى . لقد تكحلت عيناه بكل تلك العتمات وهو يسوق خطواته بين بطون الاودية ، ونواتىء الصخور. ما بلغ القمة على غير نزف الدم من قدميه ، ونضح الأعراق من أوصاله . هذا هو الاكسير الذي يُعجن به التوق في النفوس في تلقُّطها بحبال المصاعد .

والقمة التي بلغها المختلي بغار حراء ، هي القمة الكبرى التي تكشف مصادر الاضواء ، وتتناول خيوطها من الدائرة الملتهبة بالدافق السرمد . لقد اصبحت له العينان اللتان لا تزوغان تحت مدافق الابهاء . ان المرود الذي غمسه في عتمات الليالي قد وفر له الكحال الموهوب في تحمل وطأة الاوهاج . ان العرق الذي رشح من اوصاله ، قد أمن له عجينة التوق التي لا يطيب خبيزها الا في افران النور.

كل شيء في محمد قد اعد للطلة العظمى : لقد مشى طريق العظمة بقدمين حبكت ساقيها كل اشواق الجزيرة ، كل اشواق الانسان فيها الى التلقط بحقيقته المغمورة .

كل هذا الهذيان فوق هذه الصفحة المنهوكة ، وكل تاريخ

هذا الهذيان ، حفر في نفس محمد خطوط الايجاب في تعطشها الى منهل الحق ، وفي تطلبها اللقمة عن المائدة الكبرى .

لقد اشتغلت — في انسان محمد — قيمة الا نسان ، لقد وجدت فيه الجهاز الاصيل للبروز بروعة الا نسان .

مرة اولى — ولكنها عظيمة — اثبت الا نسان ، انسان الجزيرة ، صدق مواهبه في مضمار الوجود الا نساني . فلقد كان محمد — في عظيم اطلالته — ذلك البرهان ، تقتنصه الجزيرة من عميق ما لديها من شعور وتوق . لقد تمكّنت اخيرا من تفجير نفسها في الجوهر الفرد — تدليلا منها على عظيم حاجتها الى عقل نيِّر يصلح جهازا لتحمل كل الابهاء — كما وان هذا العقل هو الان منها ولها : من تاريخها الطويل ، من طاقتها ، من حاجاتها ، من تركيبها ، هو كل ما فيها الآن من ثمين ، وهو لها — في المضمار الطويل — برهان آخر على قوة امتداد القيمة في الا نسان التي تهيِّئ له مجالا ت الخلود .

لقد مشت الجزيرة ايضا طريق الآمها في كل العتمات : ان كثرة الاصنام لها كان من تلك الدروب في كثير شعابها ، لقد اوهت عليها كل عزائمها في التفتيش الحائر عن نقطة الدائرة .

لقد تألم لها محمد وهي تمشي تلك الدروب ، وتلك الشعاب : تمشيها مع عمه ابي طالب الواقف الآن لاهثا على المفرق الجامع ، ومع اجداده الذين قطعوا اوصالهم ، فوق تلك الشعاب ، في حيرة

مضنية ، لا تكاد تقربهم من المصدر حتى يوقفهم دونه الوهن والارهاق .

ما انفصل يوما ضمير محمد عن حال الجزيرة : فمن هذه الطاقات الحرارية شُحِنَتْ عروقه بالوقود ، ولكنه كان امتن جهاز تمكن من تلقف هذه الطاقات الحراريّة على غير انفجار ، فتوصلت به الى القمة التي أطلت به على أفسح مجالات الرؤى .

ولقد اهتز الجهاز – تحت وطأة التيار – ولكنه لم ينفجر : « يا ايها المدثر ، قم فانذر » وتمت وصلة الاسلاك .

الآية

ما خاف محمد فادَّثّر ، ولكنه تهيَّب :
تهيَّب الدفقَ الجليل ،
تهيَّب السَّنَا .
تهيَّب الانسانُ فيه على العتبة المنوَّرة تُطِلُّ به على عالمين :
عالمٍ يرهج بالنور ، وعالمٍ يغرق في ظلمة .
ما كان له ان يخاف ، وقد أُعدَّ للعمل الفاصل ، وما كان له ان يَدَّثّرَ بعباء ، وقد تجلبب بالوشاح الاكبر : وشاحٍ غُزلت خيوطه من مجالات التاريخ ، ومن آفاق القيم ، ومن خلود الله وعظمته .

ولكن الحكمةَ كانت تقضي بالتمهل ، بالتمهيد ، بمدِّ المسابر ، بجس الانباض . فالمعالجة ليست على غير جسد الانسان .

كل توقف او تمهل ، كان من وحي .
كل خوف اوارتجاف ، كان من تحفز على اقدام :
« ما ودعك ربُّك وما قلى »
فلتشهد خديجة ،
فليشهد ورقة بن نوفل ،
ولتشهد الآن الجزيرة :
ان مجالات الرؤى حفرت نفسها على جبين المدثّر ،
فلتتراسل عن هذا الجبين جلالات النبوّة .

ومكة

وعلى مكة ان تتبصر، فهي أمام البطولة: إن نقض القديم ليس مطلقا اقلَّ من بطولة. ان تهديم المرسَّخ، وتقويض أركانه، لا يتطلب اخف من تشغيل العقل، وايقاظ النفس، وتحضير الاعصاب، وكلها يتطلب الاستنجادَ بالعزم من معدنه الاصيل.

وكانت مكة – غداةَ البِعثة – على شيء من التحفز: فلقد مشى محمد كثيرا في ساحاتها، يزرع تحت خُطواته ذلك المبهم الرائع، ولقد تجاوبت النفوس بهذا المبهم على صمت وحيرة، وكانت الحصيلة ذلك الاحترامَ المفروض على أهل مكة، تجاه هذا الفتى الذي اطلقوا عليه اسم «الامين». لقد أصبح عند كثير من الناس مستودع اسرارهم، وخِزانةَ ودائعهم، ومفرِّجَ ضيومهم.

لقد كان يتضاعف الاحترام، مع تضاعف المبهم، يغلِّف الفتى الساكن بهالة من الاعجاب. ولقد كان الاهتمام مرتبطا بذلك المرتقب الكامنِ في الخواطر.

فهو ما مشى على طرقاتهم بالخطوات التي بها يمشون، ولا كان منه مرةً حديثٌ بالكلمات التي بها يعبِّرون، مع انه كان يمشي برجلين كارجلهم، ويتكلم بلسان هو عين اللسان الذي به يتكلمون.

ان الفارق الذي لا يُلحظ أَنه فارق، كانت تهجع فيه تلك

العظمة التي لم تكن تحسب انها عظمة – وتلك هي الروعة التي تقف على السُلَّمِ بين انسان وانسان ، فاذا بها تفصل هذا عن ذاك ، بكل ما على السلَّم من درجات .

هذا كل ما سبق محمدا عشية البعثة ، فانه كان قد أصبح – في هذه السنين الاربعين – خميرة في الكوامن ، سبق فعْلُهَا طعمها ، لقد خمرت العجين ولمَّا يُخْبَزْ بعدُ ذياك العجين .

الا ان مكة – وقد فعل بها التخمير فعله الصامت – لم تكن على الاستعداد الناجز لتقديم نفسها الى راحة الفرَّان . أن الفرّان نفسه ، لم تكن العدة في كفه ، وعليه ايضا ان يحاول تخليصها من القبضة التي تطبق عليها بكلابة .

ان الذين كانوا يتطلبون الرغيف ، لم يكن لديهم غيرُ تلك الاكف الممدودة ، كانهم ينتظرون الصدقات ، لقد كان عليهم فقط ان يشاهدوا الصراع بين فرَّانين يتنازعان استلام الزمام . سيكون لهم شأن مع أَيٍّ ترجح معه كفة الغلبة .

من هنا تعاسة الشعوب في لا وعيها ، يخنع بها الاستسلام عن نصرة الحق ، على حساب رغيف يُسَدُّ به ضمورُ البطن ، دون ان تُرْفَعَ به ذَلَّةٌ عن الجبين . ولم تكن مخاوف محمد لتتسرب الى تحسبه ، لو لم يمرَّ في خاطره مجموع هذه الاسراب من البشر الذين تعجُّ بهم بطاح الجزيرة .

ولكنه كان واثقا من النصر يخلعه على الجماهير – فيما بعد – تعزيزًا لهم في نفوسهم ، وبعثًا لهم – فيهم – لحقيقة الانسان .

لهذا سيكون الصراع محصورا بينه وبين فئة من أهل مكة هم الذين يتسلّمون خناق مكة بقبضة من مصالحهم الذاتية .

تلك الفئة من المتزعمين ، لن يهون عليهم ترك المقاليد قبل ان ينزلوا الى الساحة التي راح يساورها هذا القلق .

العزم الأكيد

ان مركز محمد في مكة ، قد اصبح الان على ركيزتين : الركيزة الاولى وفرتها خديجة في ثروة طرحتها مع حجارة الاساس ، فكان لها تأسيس البيت ، وكان لها معوَّل الاستقرار الذي تحفز للانطلاق . والركيزة الثانية هي الجلوة الكبيرة التي اشرقت في انفتاحها على كل مجالات النفس ، فكان لها الاحتكاك الرائع بالقوى الباطنية التي يتفجر منها خزان البطولات .

وما كانت خديجة – في تحسسها الضمني – الا مأخوذة بتلك الرؤى منذ اللحظة التي سمعت فيها عن محمد . وما كانت هذه الاعوام التي مضت عليها ، برفقة زوجها العظيم ، الا لتذيبها في دائرة حبها المستسلم لعذوبة تلك الرؤى . لذلك كانت هي المؤمنةَ الاولى بمحمد ، جاء ايمانها به – عن طريق حبها له – مبهما ، ولكنه كان مُفَسَّرًا بذلك الانجذاب . وما ان لمحت عليه استغراقه في بحران نفسه ، حتى جثت بين يديه ، تقدس فيه روعة الاشعاع .

كذلك كان عليّ – في باكورة نضجه – لَمّاحًا لهذا النور يفيض على ابن عمه في هالات من الجِدِّ والوقار. لقد تأثر بقوة التصميم ، وعزم على الاستجابة . والعزم هنا ليس بغير معنى الانجذاب ، فهو من فعل التأثُّر المفروض الذي يسبق شغلَ الارادة .

والتصميم لم يكن نتيجة فورةٍ ولَّدها انفجارٌ في الاعصاب

إزاء قضيةٍ آنيَّة تمليها انانية مصلحية . لو كان شيء من هذا ، لكان قد رضي محمد بالعرض ، يحمل اليه المال والسلطان : لقد اغواه عتبةُ بنُ ربيعة بكل ذلك ، على ان يتنازل عن بث دعواه :

« توكل على الله وكفى بالله وكيلا » كان الجواب . ان التصميم إذًا ، كان اشملَ من ان تسنده نظرة الى سلطان ، وكان ابعدَ من ان تمليه وسيلةٌ لجمع مال . ان المال – بين يدي محمد – كان يفتش عن السبل التي يتحرَّر بها من ثقل التراب ، وان الجاه كان يبحث عن معانيه التي تنقِّيه من الأورام والبهتان .

ان الحق – عند محمد – كان وراء التصميم . ان الايمان بالحق كان كلَّ ذلك التصميمَ ، وإنَّ العمر ، وكلَّ مجتنى العمر ، والتاريخَ ، وكلَّ عبر التاريخ ، والجزيرةَ ، وكلَّ انسانٍ في حياة الجزيرة ، والانسانَ ، وكلَّ قيمة ترزم اشواق الانسان – كلُّ ذلكَ كان وراء العقل الذي ربط الاقتناع بروعة الايمان ، والعزمَ بقوة التصميم .

فليحاول بنو قريش صد الفكر عن مجاريه ، وليحاول ابو لهب تحطيمَ الانذار : « اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني اسد . ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، وإني لا املك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخرة نصيبا ، الا ان تقولوا لا اله الا الله » .

فليحاول بنو قريش كلَّ سبلٍ الدفاع عن الساحة التي نزل ليها محمد بنور عقله ، وحرارة قلبه ، وصلابةِ عزمه .

فليقدِّمْ عمارةُ بنُ الوليد بنِ المغيرة بديلا عن محمد ، ليرضى ابو طالب باستهلاك ابن اخيه .

فَلْتُسْتَعْمَلْ كلُّ الضغوط على الرجل الذي اصبحت يده تغرز كفها خلف مقاليب الغمام .

ليت بني قريش علموا ما الفرقُ بين انسان وانسان على سلم القيم ! لكان لهم ، من نفسهم ، حسُّ الصغار عندما قدِّموا بديلا عن محمد ، عمارةَ بنَ الوليد .

ليت ابا طالب نفسَهُ كانت له البطولة التي لا ترتجف ، عندما اجاب بني قومه : « ما انصفتموني – تعطونني ابنكم أغذوه لكم واعطيكم ابن أخي تقتلونه – أتعلمون أن الناقة ، اذا فقدت ولدها ، لا تحن الى غيره » وليت كانت له البطولة التي لا تعرف التردد ، عندما اشتد عليه الضغط ، فحمل مخاوفه وجاء بها يثبط العزم الذي استحال الى صلابة .

كلّ ذلك قد كان حول محمد وهو يستعد للقفزة الكبرى : انه الآن في الساحة يتوكأ على زنده ، وعلى بيته ، وعلى ايمانه .

ان عمه ابا طالب لمح اخيرا في عينيه العزم بعد ان اخذ منه الجواب الصادق : « يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو

أهلك دونه » .

لقد ذاب من نفس ابي طالب ذياك الوجيف ، في الساحة ذاتها التي انفتحت تحت وطأة الصراع ، وامام زحف البطولات .

٥ - الصّراع

الجلوة
الخنير
الموروث
المنكر
المفلحون
جبريل
إبليس
الدعوة
بداية الصّراع
الحبشة
التفكر
العام الحزين
شاطئ وسحاب
إعجاز
الإسراء والمعراج

التكامل
المصطفى
شفرات الألسنة
المؤاخاة
ولادة تاريخ
دعائم التاريخ
الانطلاق
حد الحسام
الملحمة العجيبة
الشذاذ
سيف الحق
صلح الحديبية
مؤتة
سكنة
ساحة المجد

الجَلوة

اليس هكذا يتم التحضير؟ أوليس على المقياس ذاته يتم فعل التخمير؟ – والديمة الماطرة؟ الم تتعبّأ بها هكذا – رويدا رويدا – مظلاَّت الغمام .

ذلك شان محمد ، فهو ، مذ فتح عينيه مستوعبا هذه الارجاء ، يعب من اظلالها ، ومن مهامرها ، على السواء ؛ حتى اذا ما استوفت الشروط مضامينها ، جاءت اللحظة الحاسمة بالعمل الحاسم .

ولقد كان جهاز محمد واسع الاستيعاب ، تعبَّأً بالصمت ، لان العمل الكبير كان يلزمه الصمت الكبير . ولقد انحنى تحت هذا الصمت بجلال السكون ، وكان سكونا هادئًا ورصينا ، لأنه كان من فعل الارتقاب .

وماذا كان يرتقب غير ما تمليه العناية؟ لقد جادت عليه الحكمة بهذه الجلوة . فهو الان ، بفضلها ، رسول عليه الابلاغ . ولن يكون الابلاغ دفعة واحدة ، لكل ما فيه من بنود ، بندا بندا سيتم الابلاغ : المهم فالاهم ، الهين فالصعب ، ثم الاصعب .

انه الانِ رسول وطبيب . عليه ان يسوق سعيه في مراحل يعيِّنُهَا المُدَاوِي على المُدَاوَى .

ترى؟ هل ان مع الطبيب كلَّ ما يحتاج المريض من عقاقير؟

ان لم تكن الآن – في جعبة الطبيب – كل العقاقير، فان في علمه على الاقل، كلّ ما سوف تفرضه الحاجة.

ومحمد؟ اتراه في جلوته عشية البعثة، قد انغمر بكل هاتيك المبازغ؟ لا أَشك في ذلك، الا انه كتلك الغمامة، ترسل الان رذاذا، وتطوي الى الغد ذلك السيلَ الجارف.

أي شيء في الساحة يتطلب الآن اكثر من رذاذ؟ ان الطبيب الذي عليه أن يستأْصل، عليه اولا ان يبلسم، ان يمهد اولا بلملمة الجرح، ودغدغة الدمَّل، عليه ان يحضِّر المريض لتحمِّلِ الوطأة – بعد ذلك يُنْشِبُ المبضع.

وإنسان الجزيرة – على باب الجاهلية بالاخص – يا له من انسان يلزمه الكثيرُ من الترويض. انه الانسان الذي تفهَّمه كثيرا محمد: فهو طاقة انسانية، طالما عاشت على رشوحات، تسربت اليها مع السراب، ومع الغبار، ومع عفونة التاريخ، وهي اليوم بحاجة الى كثير من المصافي.

ما كان على الرسول ان يواجه غير الحقيقة، وكلَّ ما تفرضه مواجهة الحقيقة. اما الاساليب فسيعمد اليها كلِّها في سبيل الوصول الى الهدف.

سيحضِّر المصافي، وسيجعلها – في كفه – تعمل. سينزل الى الساحة انسانا سويا، يسوق امامه طاقة الانسان. سيحمل بيمينه الجُهدَ الانساني، ليري الناسَ صحة المجاهيد. وسيعيش الانسان

كلّه ، مأكلا ، ومشربا ، وخفقات قلب .

وسيعيشه فكرا ، وخيالا ، وعفة مسلك . ولن يخاطبَ الانسانَ الا باللغة التي يفهمها الانسان .

انه رسول الله – ولن يكون الله على لسانه أُحجية ، او رزمةَ ألغاز . فالله – في نظر محمد – هو المرجع والمآب : « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون » .

والانسان الذي اراده محمد ، هو الانسان المؤمن ، لا الانسان المشعوذ الذي يُلغي فعل الله فيه .

كيف كانت تتحسس الجزيرة نفسها مع انسان يفقد الشطر الاسمى من ميِّزات الانسان ؟ ان الغبار الذي كانت تلتهمه . والسرابَ الذي كانت تتظاماً فيه ، كانا نتيجةً مباشرة لحياة انسان يبتعد عنه نور الله في عدم تعيين الحق والصواب ، وكان يجفوه الله في ضعف ممارسة الحب الصادق ، والميل العادل ، وكانت تهرب منه مقومات الحضارة النابعة من صميم الانسان الفاهم العاقل ، ولقد كانت تنفر عنه السعادة .

كيف يقترب الانسان من الله بغير تكامل الصفات فيه ؟ ان من شروط هذا التكامل : الشعورَ بالحق ، والهديَ بالصواب ، والتمرُّسَ بالعدالة ، والتكاتف بالحب . وهذا هو الرابوع الذي تخلد فيه قيمة الانسان ، وهذا هو الرابوع الذي يتجلى عليه وجه الله .

هل كانت القيم في الجزيرة تتقيَّد بنسبة ؟ قد يكون ، ولكنها

نسبة ضئيلة ، عاشت بها الجزيرة كأنها تعيش على الهوامش ، أو في ضواحي المجاهل ! ولقد اشارت الآية : « ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، ان هم الا كالانعام ، بل هم اضل سبيلا . » انها نسبة لم تخلِّصها من شح اراضيها ، ولم تلطِّف شيئا من نشفةِ صحاريها ، ولم تحقِّقْ لها حضارةً انسانيَّة مؤمنة ، تنتصر لها في مضاميرها الخيّرة ، وتعمل على تطويع الطبيعة وترويضها في سبيل جعلها تنقاد في خدمة الانسان .

ولقد جاء محمد للجزيرة بما يخلصها من وأد نفسها ، دينا يوقظ العقل ويحقق ثقافة : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون . »

الخير

ان الآية التي ختم بها البحث السابق ، يدور فيها دستور حياتيّ لكلِّ أمةٍ من أمم العالم . ان المفلحين هم – فعلا – اولئك الذين يدعون الى الخير ، ويأْمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر. وان آية وحيدة – تختصر دساتير – أَحْرِ بها أنْ تُنَزَّلَ حروفُها مسبوكةً من أَشعة .

أَنْ ادعو الى الخير : فرض عليّ ان اعرف الخير ، أَن أَشْعُرَ به ، أنْ أحياه ، والا فانّ الحروف تتنكّر عليّ في لغة الخير. أهْوَنُ عليك ان تنزّل لي ثلاثة كواكب من الفضاء من ان تعرض عليّ كلمة – ولو من ثلاثة حروف – لا أفهم معناها . وكلمة الخير – في مدلولها – هي اشمل من كل كواكب الفضاء : هي قبل ، وهي بعدُ ، وهي كل هذا الاستمرار.

الخير هو حاجة الانسان في وجوده الانساني ، هو الضمير الذي يجعله انسانا ، انه حاصل العقل – اولا واخرا – في خطوط الادراك ، والتمييز ، والتلبية . فهو الميل ، يعكسه العقل على النفس ، فيتحلّى به معدن الانسان في تفاعلاته الضمنيّة .

والتحسس بالخير ، هو من فعل الخير ، كانعكاس النور ، فهو ليس من غير فعل النور. كما وان الخير هو من تفتيش العقل ومن تعيينه : ان العقل الصحيح يدل الى الخير الصحيح ، حتى

لكأنّهُ يفرزه ، يخلقه ، ثم يعكسه ، ويدور به ، وينضوي فيه ، كفعل الاعتصار ، والامتصاص ، والتنوير ، والانعكاس .

والخير قيمة انسانية ، وهو سموٌّ من ذلك الخصب الاصيل ، ولا حدود له . فهو من الله وفيه ، مثلما هو الشعاع من الشمس وفيها ، يتلقط به الانسان بعقله من عقله ، وبحسه من حسه : خلقا والتصاقا ، كحفنة الطحين من حبّة القمح ، او كخيط السحاب من قطرة الطِل . فهو – اذًا – تداخل وانسجام من الصفات التي يتحلّى بها الانسان في حقل المواهب ، يقتنصها العقل مزايا ، ويعكسها الحس على حقول الايجاب ، فاذا بها – بين يديه – خير مجسَّد ، له لون ، وله شكل ، وله حجم ، وله أَريج .

ولن تكون نتائج الخير الا في معرض الايجاب : فالحق ، والعدل ، والايمان ، هي آفاق يُطِلُّ عليها الخير بعين الجمال . والحب ، والولاء ، والصدق ، والمعروف ، هي البسط التي يتكفكف بها ذيالك الجمال في كل اطلالاته على عالم الانسان .

هكذا يعيِّنُ العقل الصحيح فعلَ الخير ، وهكذا يطيع الخير امام الحس ، مجبولا – بين يديه – في العجينة المختمرة ، وهكذا يقدمها العقلُ عجينةً مطَّيبة الى فرن النفس ، يخبزها مطهَّرةً شهيّة ، ويتناولها مأكلاً تتناسق فيه قيم الثقافة .

ذلك هو فعل الخير في تنشئة الامم وتثبيتها على متانة المقومات . فالمجتمعات البشرية ، لا شيء يضنيها أَكثرُ من التنكر للخير ،

حتى ان ايّا منها ، لن يكون له شرف الانتساب الى كلمة « مجتمع » ان لم تكن قد فعلت فيه كلمة « الخير » التي هي حاصل العقل الانساني ، وذلك الشعاع الالهي ، وتلك الحقيقة المقدسة في الوجود .

ان امة تدعو الى الخير ، ستتعرف حتما الى الله فيها . سيكون لها العقل المجنَّح بالخيال ، سيكون لها – بحكم الحاصل – امر بالمعروف ، ونهي عن المنكر .

ستكون – على حق – أُمَّةً لها وزن .

المعروف

وتلك من حياكات الخير، من اصطلاحاته، يُعَيِّنُهَا مع المدى، حتى تصبح مألوفة معروفة، حتى تصبح رباط تآلف في مجتمع الانسان. ينحتها نحتا دقيقا لتخرج معبِّرةً تمام التعبير عن موهبة النحَّات. انه العقل الجماعيّ على كل حال.

والمعروف في عالم المجتمعات هو تراث عند كل مجتمع، ينصبُّ في قوالب، تشبه قوالب العادات والتقاليد، ليأخذ شكله من مجرى الحياة في ذلك المجتمع. الا انه تراث يستعير دائما صفوته من داخل النفس، ولا يتوكّأ كثيرا على العقل، وان يكن من نحته. وهو ايضا – في كل مجتمع – نسبيٌّ في تأثره بالمعدن الذي انقدّ منه، أي معدن الحق. لذلك فهو من الصفات الممتازة التي تستعير درجات رقيّها من القيمة الجماعيّة التي يجتهد في حرزها ذلك العقلُ الجماعي في مدى تلقطه بالحق والصواب، وفي مجالات تشبّثه بممارسة تلك القيم.

حتى في الشعوب البدائية، يلبث المعروف بين الصفوة من صفاتها، ليعبِّر عن انه نتاج النفس في تعلقها بالجوهر السامي الذي تسلسلت منه. فهو اشرف ميل في الانسان، وانبل عاطفة يسقي بها قلبه، في شيء من غفلة العقل.

الا ان العقل هو الذي يجتهد في التهذيب والاخراج، حتى

ياتي المعروف مؤتلفا مع معدن الطيبة ، ويستمر العقل يصقله حتى يحرره من ربقة التقاليد والعادات التي لا يرافقها طويلا حتى ييبس معها وبها .

والمعروف – في المجتمعات – يبدو كانه يعيش على الحواشي ، فهو في غير نطاق الإلْزام : لا الحقوق تفرضه ، ولا تطالب به الموجبات .

كل مجتمع ينظر الى عمل المعروف بمثل هذه النظّارات اليابسة ، لن يستمر في وجوده حتى تيبس عيناه ، ويجفّ قلبه ... انه مجتمع يمتص ماء الحياة من رمال الصحاري ، وليس من عروق الواحات ، فعمل المعروف هو تجاوب انسانّي يتدافق ، مع الحبّ ، من مقلة الخير ، ومن منبع الصفاء : فهو طيبة النفس مزروعة في الانسان ، انه تلبية الوجود الانساني في ذلك التعاطف الدافق بالحنين ، انه لحمة الوجود الاجتماعي بالحب ، والولاء ، والتكافل ، والتضامن ، انه شعور بمسؤولية الانسان المقتدر تجاه اخيه المستضعف ، يلبيه بالحب والتعاطف ، انه حس ضمني بان المجتمعات الانسانية هي ذلك التبادل ، والانجذاب ، والالتزام ، في تحمل المسؤوليات الجماعية بهذا العظيم من الاخلاص ، والترابط ، والشعور العميق بالواجبات .

ان اغاثة الملهوف ، وتعزية المحزون ، وتنفيس المكروب ، واعالة المعيول ، ونجدة المظلوم ، ولملمة اليتيم ، والشفقة على المحروم ، واعذار الغشيم ، وامداد الضعيف ... كلها من اعمال المعروف .

وكلها من ضمن عملية تفتيح النفس في الانسان على جوهرها الجميل .

« فأمّا اليتيمَ فلا تقهر ، واما السائِلَ فلا تنهر – واما بنعمة ربك فحدِّث » .

ان امة يفقد انسانها لذة عمل المعروف ، ستفقد حتما – في التدريج – اسمى الصفات التي تجعلها مستمرة في الوجود الانساني .

ان المؤسسات الخيرية ، والمعونات الاجتماعية ، والمساعدات الادبية والمادية ، تلبث من هذا القبيل تعويضا – عند كل الدول – عن عجز الفرد في القيام بواجباته تجاه اعمال المعروف ، لتبقى هناك – في العاجزين عن عمل البر – النيةُ فقط مفطورة عليه .

إنْ فُقِدَتْ النيةُ هذه في الافراد ، فيا لتعاسة تلك الامة ، انذرها بخراب اكيد .

المنكر

وايّة حدود للمنكر ؟ وايّ تعريف له اكثرُ من انه مَسْخٌ وشوه ؟ انه عمل يتنكر للايجاب ، وفكرة تفقد لمحة من النور. انه خيال لا يريد الانطلاق ، ولا يميل الى غير التقزم. مهما يكن ، فهو عمل يتولد ، كما هو المعروف عمل يتولد ، الا ان هذا يتولد منَ التحسس بالخير ، يتولد من المصدر المنبزغ من الحق والجمال ، اما ذاك ، فانه يتولد من ذلك الضعف في الحس ، من ذلك الحس المنقوص الذي لا يلمح القيمة ، لا من مصدرها ، ولا من رغبة التوق اليها ، فهو عمل تعطلت مجاريه ، وانقطعت عنه المنافذ ، فراح يدور على نفسه ملتهما مجهود ذاته بذلك التعبير المبتور عن كونه عملا ، وهو المشوّه الممسوخ .

ان العمل الخيّر – اذ يفقد ريشة من جانحه الجميل – يختنق الخير فيه ، ويهوي عنه جمال الارفاف . هكذا يستحيل الخير الى منكر ، كما تستحيل كلمة « نرجس » الى « رجس » ، اذ تختفي منها النون ، كأَنَّ العوالمَ كلها ليست مكفوفة بغير شروط التكامل : من حيث تهتزُ قيمة الشمس إذْ اتمكَّنُ من أَنْ أَسحب منها شعاعا واحدا لألقيه في جيبة العدم ؛ وسيهتز البحر ايضا إذْ أتمكَّنُ من أنْ أُبَخِّرَ قطرة واحدة منه في فضاء غير فضائه . ليس عجيبا أَنَّ المنكر شرٌّ كان خيرا الى أنْ فقد ولو ذرّةً من اريج .

ان أمَّةً تنهى عن المنكر، هي امة يشتغل الانسان فيها تحت مجاري النور، وليس في عتمات السراديب، هي امة يتلقط الانسان فيها بسبل العقل الذي يعيِّن دروب الخير، ويستسقي من مناهل الجمال، هي امة تعرف كيف تستأصل الحقد، والبغض، والتشفِّي من بين اسنان المناشير حتى لا تبري بها اثقال مجاهيدها، هي امة تتعرف الى الله مصدرا شاملا تغرف منه الحقَّ الكامل، هي أمة تعرف كيف تثبِّت الحروفَ من الكلمات، والاوتارَ على القيثارة، حتى تخرج الكلماتُ حاملةً صحةَ مضامينها، والانغامُ شجيةً بلا نشاز، هي امة تعرف الفارق بين خير وشر، وبين معروف ومنكر، وتعرف – بالتالي – قانون الاستحالة.

المفلحون

لن يصح عمل تضطرب مقاييسه. والمفلحون هنا، هم في امة تعيش الخير والمعروف، فهي - اذاً - راسخة في حضارة الانسان، ولا تعبُّ الا من منهل الحق والخير.

لم تكن الجزيرة العربية تستعمل في موازينها هذه العبارات، ولم تكن مقاييسها من نوع هذه الضوابط. لقد كان الخير لديها تتراقص حروفه على فوضى، على شح، على غباروسراب، على عتمة وعفونة. لقد كانت تستعير فهم الخير من غير جعبتها، لقد كان ينقصها التهذيب الجماعي الذي تنبع منه هذه المفاهيم.

كانت على مثل هذا الشفير الفارغ من تعيين حدود المفاهيم، ليبقى الخير فيها تتناقص حروفه، فيستحيل الى الاداء المعكوس.

ان المفلحين هم الذين يعيِّنون حقيقة الخير: فهمًا، وتطبيق فهم، حتى يكون الفلاح اشعاعا من اشعاعات الحق، وحتى يصبح صميما في الحياة. «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير، ويامرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.» اراد لها ان تكون، دعاها الى مثل هذه الكينونة. ويالعظيم ما دعاها اليه. ولقد رسم لها خطوط البلوغ: دلها الى الله، الى الخير ومصادر الخير، الى الحق ومفارش الجمال، الى الصفة ومنبت المعروف، الى الفهم الذي يصفي الخير من المنكر.

ثم دعاها الى الممارسة الطويلة ، حتى تصبح الصفات فيها طائعة المران ، فتلتحمُ بحياتها كما يلتحم الوشم بظاهر البشرة : فالطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، هي من تلك الفروض التي تذكّر دائما ذلك الانسان بارتباطه بميثاق التدرج الى الوعي والفهم ، وصولاً به الى الخير عن طريق المداومة .

وكان عليه ان يدل الى كل السبل ، خطوة خطوة ، فهو تجاه انسان يتصابى الى الرشد . لهذا راح يفسر لهم الخير عن طريق تجسيد الخير ، وراح يدلهم الى المعروف عن طريق تهذيب الاخلاق ، وراح ينهاهم عن المنكر بايقاظ العقل والمفاهيم ، وراح يعلّمهم – حتى – كيف يأكلون ويشربون وينامون ، وكيف يعيشون ويتزوجون وينسلون ، .

اتراه سيتمكن من جعلهم امة فيها هذا الفوج من المفلحين !

جبريل

منذ زمن بعيد ، تعينت الاهداف .
ولكن جبريل ، كانت له الانامل الملتوتة بفواوير الخير :
بهذه الانامل الشفافة رفع الدثار عن محمد ،
ليُؤْذِن له بالانطلاق .

هبَّ النائم من فراش الانتظار ،
يلبي النداء الكبير .

البطولة مدرج من مدارج الحق ،
وهي مصباح على مفارق الدروب .

ما كان جبريل من محمد ، غيرَ محمدٍ في جبريل :
يهجع فيه كما يهجع الدويُّ في قلب الزوبعة .

إبليس

وانت ايها الشيطان الرجيم...
يا ومضة من ذكاء افطس.
يا عينين بدون بياض، بدون بؤبؤ، بدون اهداب.
يا قزم الخيال: لا جانح، ولا افق، ولا شعاع.
يا كفًّا لها اظافر، وليس لها انامل.
يا وجها منسولا من جلود الافاعي، من مجادل الأفك، من مراشح الخداع والرياء: لا ماء، لا حياء، ولا لون لمكرمة.
يا وليد الحقد، والكره، والحسد!
يا وليد الجهل والاعياء!
يا نكير! يا بؤرة من نتن!!!
كيف كانت لك الولادة؟ يا ساقطا من فوهة العدم! من فوهة العقم! من عتمات المجاهل!
يا غفلة القلب عن منابض الحب!
يا سهوة العقل عن مسارح الخير!
يا تلهّي الفهم عن نيل المكارم!
يا انكفاء الخيال من فوق المشارف!!!
من بين هذه الغفلات تكون لك الولادة:
يا خيال الشؤم والمنكر!

يا عدو الخير والمعروف !
يا منشارا اسود على مفارق الدروب !
. يا جرذا يعيش في السراديب ! ! !

الدعوة

ان الافق الذي اطلت عليه الرسالة كان هكذا مشعا ، اطلت تبشر بالله واحداً احدا ، أسلمتُ أمري ، كلَّ امري ، للخالق السرمد : فلتنتفِ كل ثنائية في التفكير ، ولتتوحد الجزيرة ، فلتُجذب من كل مشالحها ، من كل تشريد ، من كل تفتيت ، من كل تبعيض ، من كل تهويم وتوهيم ، من كل مجاعة ، ومن كل عطش .

ولتسنَّ لها كل الشرائع : من وعوعة الولادة الى زفرة المجثم ، فليس كالتنظيم من جامع ، وليس كالتوحيد من دافع .

ولتطرح لها بسط الفهم ، ولتجمعْ فوقها سنابل الخير ، ولتتعلم كيف تاخذ الى بيادرها حزمَ السنابل ، انها الى كل ذلك الان مدعوة :

« قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفس الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون »

لقد توفرت للجزيرة الدعوة الكبيرة تلملم الشمل ، تحمل

على كفها بساطة الاداء ، لا تعقيد فيها ولا مراء .

فلتختصر كل الفلسفات : فالله واحد ، وهو الخالق ، وهو السرمد ، وهو الازل ، وهو الابد ، وهو وحده الذي يبقى .

بيده الخير ، وهو الطريق الى الخير ، وهو المعرفة ، وهو السبيل الى المعرفة ، وهو الحياة وكل ما تلهم الحياة ، وهو وحده الحب والجمال والاطار .

فتش عنه حقا تجده جمالا ، وتغافل عنه خيرا تغلفك تعاسة المصير . فليدرك بالعقل ، ومن ثم فليخشع القلب ، ولتغضَّ الابصار ، وليمش فقط في هذا الصراط – هذا هو التسليم .

بهذه البساطة ، وبهذا الاقتضاب ، طرحت الرسالة على المفاهيم . فالانسان ، منذ الفجر الذي يعي فيه نفسه ، وهو يطرح امام عينيه وفكره وخياله هذا السؤال الضخم ، ثم ينهال عليه بفلسفات لا تبسطه حتى تلوي عليه ملايين العقد : فالله السؤال ، لا تجد عليه الجواب الا في قرارة نفسك وعقلك : « ومن اهتدى فانما يهتدي لنفسه » – ولن تجده الا في ذلك الخصب المزروع في جنايا طويتك : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » – فهو ذلك الخير وكل ما يوحي الخير : فهو الحكمة ، وهو الحسن ، وهو الحق ، وهو العدل ، وهو الصواب : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادا »

انه الاله الكامل والشامل ، ولن يكون مستقلا عن صفاته ، فهي منه وله وفيه .

ما دل محمد يوما الى ربه الا وهو يشفعه بصفاته :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى اليَّ » .

« انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان » .

« اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

لا حاجة للوجود الانساني لاكثر من نظرة واحدة تعين له سبل النجاح في مجتمع انساني تعيش فيه وحدها طاقة الانسان ، اما باقي النظرات فهي حوار طويل في ديمومةٍ كثيرة العقد .

ان النظرة الاصيلة نحو المجتمع ، كانت عند محمد ، التوحيد : توحيد الله ، توحيد المصدر ، توحيد المجتمع في توحيد النظرة اليه ، توحيد الجهود ، توحيد النظم .

كل شيء خارجا عن التوحيد ، لم يكن صوابا ، لم يكن حقا ، لم يكن خيرا ، لم يكن نجاحا ، لم يكن انسانا مشعا بنور الله .

بهذه الحقيقة وقفت الدعوة موقف اليقين : توحيد ، وايمان

بالتوحيد . توحيد ركيزته الحق ، والخير ، والصواب : نتيجته الفلاح ، وعدم توحيد ، مبعثه التنكر للمعرفة – انه الشرك – نتيجته تعطيل القيم ، فالانهيار .

الى مثل هذه الحلبة نزل محمد يبث دعوته ، ومن حوله يرفرف جبريل – وانبرى له الجهل يقاوم ، و خلفه الشيطان ، في جولة المنكر ،

وابتدأ الصراع ...

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

بداية الصراع

ما تحملها بنو قريش : انها دعوة الى الله ؟ ان الكعبة تغصُّ بالالهة ، لكل يوم من ايام السنة اله مشرئب حول هذه المحارم . ان الجزيرة تزرع كل يوم – خول خيامها – آلهة تنبت كما تنبت عشبة المراعي ، ان حجارة الاثافي تستحيل الى غرانيق ، ان الحبال المشدودة الاوتاد تتعلق عليها اسراب من الالهة ، لو تزحف ، تمتلىء بها غيلانا هذه الصحاري ... ليس بنو قريش بحاجة الى اله لا تتلاعب اصابعهم بعثنونه .

مع ان بني قريش لا تزال معهم – بمحمد – زعامة الجزيرة ، ولكن اسياد بني قريش ، على ارائك هذه الزعامة يتنافسون . ان الخط يشهد على ذلك صعودا الى هاشم ، ينافسه على المركز الكبير اخوه عبد شمس ، من حيث ينقسم الخط الى هاشميين وامويين .

ثم ان هذا الفتى – وفي عينيه هذا البريق ، وعلى جبينه هذا الطواف من الصلابة والعزم – لن يترك اليه الزمام . هكذا راى بنو قريش : امويين كانوا ام هاشميين ، اعماما ام ابناء اعمام .

ان يدعوهم محمد الى حفلة طعام فيمزج لهم الثريد بالتهديد ، فان ذلك لم يكن ليزدرده ، لا ابو سفيان ، ولا عمه ابو لهب الذي انصرف من الحفلة وهو يقول : تبًّا لك ، الهذا جمعتنا ؟ »

ثم اخذت تزيد حياكة المؤامرات ، فالفتى المتصلب برز الى

الساحة ومعه كل العزم . ثم انه اليوم ، غيره في الامس ، ولن يحمل الغد منه غير الضيم .

أمس ، كان يمشي ، يغلفه الصمت والسكون ، ولا ينطق فيه غير هذا الذي يشيع على عينيه وتلاميحه : انه هزء ؟ انه سخرية ؟ انه تهديد مشوب بثورة ؟ ولكنه لم يكن يُسْمَعُ ، ليس في التأويل مادة تلمس ، اما اليوم فانه يصرح ، انه يسفه هذه الالهة التي تتربع - منذ اجيال - حول هذه الكعبة . ان جنونًا من هذا النوع لن يغفر للكافر المارق .

ولكن بني هاشم ، ولو كان منهم عتبة بن ربيعة ، يتردد في مؤازرة المغامر ، ولو كان منهم عم اسمه عبد العزى ، يحمل في قلبه ملاهب الكره ، بالرغم من ان فيهم من لم تطب نفسه بعد ، فان لهم في مكة مكانة تحزم لهم التوقير والاحترام ، ليكون لمحمد فيما بينهم ، مركز الحصانة . يكفي وجود ابي طالب درعا يرد عن محمد رشق السهام .

ولكن القضية بلغت حدا جعلت بني هاشم يقفون موقف المدافع المستعطف ، فلقد تمكن الخصم من تاليب الكثرة عليهم . ان خصومة ابي لهب - على الاقل - كانت تخفيفا من قيمة جبهة الهاشميين .

وتحمَّل الهاشميون ثقل المهاجمة ، ان خط الاعمام - الا ابا لهب - راح يرزح تحت ثقل الدفاع .

ولكن – بالرغم عن كل ذلك – ايّ شيء راح ينبت في الساحة ؟ راح يختلج ؟ راح ينمو ؟ راح يفيض ؟

من اين تأتي العاصفة على مكة ؟ كانها تقتلع . ولا حس لها . ولا دويّ ؟ ان الجو يكفهر ، يغشاه اصفرار وكلوح . فاذا الارض كانها مجروفة باثقال الزوابع ، ولا نقطة بعد لهميان .

ومحمد ؟ ما تناول بعد حساما ، ما هدد بعد بساعد . ما اشار بعد باصبع .. اتراه ، وهو يبسم ، يتفل الزوابع على هذا الجو المُصْفَرّ . وفي هذه الساحة المربدة ؟

ليسوا اغبياء – بنو هاشم – وليسوا اغرابا عن فعل الشهامة تتولد من التحسس بقيمة الحق ، يتحملون الوطء الثقيل في سبيل صيانة رجل منهم ، يدّعي التمسك بحبال تنزل اليه من فوق السدم .

وليسوا غيرَ متحمسين – اولئك الاخصام – بذلك التيار الذي انطلق يهز كل نأمة في مكة . ان الجو المكفهر ، وان لم تنفجر فيه بعد العاصفة ، مع اول ومضة ستنفجر .

هكذا كانت بداية الصراع ، على هاتين الجبهتين : تتلبس الهدوء والسكينة ، وتتحفّز لانفجارٍ ما سُمع بعد دويّه .

الحبشة

هل كان عدد الذين هاجروا الى الحبشة كبيرا ؟ يقال انهم كانوا اقل من عشرين . لقد ارتفع في الفوج الثاني الى نحو المئة .

وما هي نسبة المئة الى سكان الجزيرة ؟ انهم خيرة ؟ – ولكنهم مئة هربوا ، وانسحبوا من الساحة ، راحوا مشردين ، هائمين ، لا جئين .

من قال ؟ ومن يقول ؟ – ان الهروب انغلاب وان الانسحاب هزيمة ؟ ان الرسالة التي اصبحت تهرب ، اصبح لها مجال في الساحة ، تروح به وتجيء . اصبح لها كيان تهتز فيه ، اصبح لها لون تصطبغ به .

ان اللون الذي اصطبغت به وهي تهرب ، يتابطها جعفر بن ابي طالب ، لم يكن غير لون هؤلاء الذين دفعوها الى هذا الهروب ، انها راحت مصبوغة بلون الاضطهاد ، بلون الجهل والعيّ اللذين لم يفسحا مجالا للفكر ، ولم يفتحا له بابا للحوار .

ان المئة الذين ابتلعتهم دروب التشريد ، ما تركوا ارضهم وراحة البال ، لولا انهم ما تميزوا بلون آخر ، هو لون الايمان الصامد بحقيقة المبدأ . ان الانسحاب كان بمثابة حفاظ على هذا الطفل الموهوب في سبيل تامين النمو له في لطوة العزلة .

والحبشة ، ما تقبلت وفود اللاجئين لولا انهم لم يحملوا معهم

— على اعينهم بالاخص — براءة الحقيقة وصفاوة الاقناع .

مرّة اولى — في الاسلام — يحتك الفكر بالفكر عن طريق العقل والنفس ، ليثبت : ان كل فكر — في سموه — يجمعه المصدر الواحد. فلقد عرض جعفر ، وهو المتشبع ايمانا بدينه الجديد ، كل ما يحمل دينه من جوهر. ان سورة مريم كانت ذخيرة في محتواها ، عرضها امام النجاشي المؤمن بيسوع : ان دمعة جميلة راحت تترقرق في زاوية عينه وهو يسمع ، من جعفر ، الشهادة الحقة بدينه السموح . ان يده الكريمة ، تهتز بسماح ، وهي تاخذ عودا تخط به على صفحة الارض خطا حفظته الارض آية : « ليس بين ديننا ودينكم اكثر من هذا الخط » ان هذا الخط — مع اى احتمال — ليس اكثَر من مماحكات فلسفية ، لم يكن لها يوما ، ان تنال الجوهر.

ان دمعة النجاشي راحت كذلك تحمل نفسها الى سموّ. ان لها من الجمال ما نوَّرها ايضا بآية : « واذا سمعوا ما أُنزلَ على الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

منذ ذلك الحين — على التعيين — والاسلام في خطيه : المحمدي والمسيحي ، ليس عليه ان يفتش عن فوارق . ان الخط الفارق ، في نظر النجاشي ، بين توحيد وتوحيد ، ما خفف منها حرارة العناق ، ولا قلل من قيمة لهفة النجاشي كمجير. كما وان جعفر بن ابي طالب ما جاء يستجير الا وهو يعتقد بانه يستجير بمن يحمل فكرا منحوتا من المصدر الواحد الذي منه نحت فكره . ان الحق لا ينقسم الى باطل ، الاّ انه يصبح باطلا في النظرة المنقوصة .

ومرة اولى كذلك – في مجال الاسلام – اثبت النجاشي فيها ان الاذن التي لا يكون الحق من مصافيها ، تعطّل الخير ، اذ تصغي الى الباطل .

لقد كان كثيرا من الجائز ان يتشعب الخط الفارق ، بين دين النجاشي ودين جعفر ، الى خطوط وهميّة فيها الكثير من شوك الادغال – لو ان الاداء بين الطرفين كان مبتورا ، او لو ان النجاشي اصغى الى عمرو بن العاص في ذلك الحين ، ومعه عَمارة بنُ الوليد ، يحملان اليه الوشاية بالمهاجرين . ولكن اذن النجاشي كانت لها المصفاةُ العاقلة ، فما حملت الى عقله غير المنطق وصحةِ الوجدان .

ان الانتصار للحق جمال بحد ذاته ، ولو حمل على كفه المتاعب . وما كانت متاعب جعفر بن ابي طالب ، في هروبه من حضن أبيه ، وفي ابتعاده عن اخيه وابن عمه ، وفي تحمله المشاقّ والمخاطر ، الا من هذا النوع الذي تطيب به النفوس الكريمة في تمتعها بنشوة الجمال .

التنكر

بينما كانت الحبشة منفذا من المنافذ التي استعملتها الرسالة ، تكفكف فيها مجالات التأهب ، كانت ايضا شعاب مكة تلملم شتيت الهاشميين يضغط عليهم اسياد قريش ، لقد اصبح النبي مطلب هؤلاء الاسياد ، مهما يكن الثمن . ان صحيفة المقاطعة يدور بها الان منصور ابن عكرمة ، من قبيلة الى قبيلة ، تحمل هذا التنكر .

أنْ يتراجع النبي ؟ إن ايةَ فكرة من هذا القبيل لم تراوده ، ولو ساعة واحدة في خط جهاده . أنْ يتحملَ الاضطهاد والتشريد ؟ انه لكذلك : ها انه ، مع كل هؤلاء المؤمنين المناصرين ، يؤدون ضريبة استيفاء شروط البطولات . أنْ يناموا في المغاور والكهوف ؟ ان الغار في جبل « تور » يوسع لمحمد حنوة المخبأ . ان يحرم الراحة على فراشه بين يدي زوجه واولاده ؟ وانه ليرضى بذلك : ان هذه السنين الطوال تشهد لياليها باستطابته طعم التشريد . ان شعاب مكة تُطبق على جميع هؤلاء المشردين الذين ارتضوا شظف العيش على ألاَّ يقبلوا بالفكرة الخاطئة .

لقد أصبح الخط يحمل أهدافا صريحة وكبيرة ، لقد توسعت الرؤيا ، من حيث اصبحت ملموحة تحت عيون الكثيرين : عيون المتشيعين وعيون الاخصام ، الفرق بين الفئتين — في معرض الرؤى —

هو ان الفئة المؤمنة كان لها هدف مركز، تستعمل فيه البطولة مع الرضى والحكمة والرويّة، اما الفئة الثانية فانها كانت تجمع نفسها، في حركة التفافية، على خوف وقلق، وكانت تسير بقوة استمرار القديم. والفرق ايضا كانت تفرضه نسبة العدد.

بهذه البطولة والرضى، وبهذه الحكمة والروية، تمكن خط الرسالة من قطع المسافة هذه، ساعةً في التخفي، وساعةً في الظهور: من مكة الى الشعاب، ومن الشعاب الى مكة. بهذه الصفات المرنة تحمل محمد هذا التشريد جَزَاءً قاسيا لفكرة يعرضها في سبيل منعة مكة ورفع مستوى الجزيرة، وبهذا الايمان العميق قابل موتَ عمه ابي طالب وموتَ زوجته خديجة، ليغمره – بهما – حزن فجَّر في قلبه مجاري الالم التي يعمق بها وينجلي شعور الانسان، ليعود فيستأنفَ السير على الطريق المبرِّح في سبيل مرضاة ربه الآخذ بمجامع كيانه.

العام الحزين

والموت ، شأن من الشؤون ، فيه توقف وسكون ، وفيه موعظة وعبرة .

حتى هذه الساعة ، ومحمد – يدور بعمره حول عقده الخامس – لم يتذوق بعد طعم الموت ، لم يمضغه المضغة الراشدة المستوعبة ، لم ياخذه ، على لسانه ، بهذا التذوق البارع ، ولم يرتشفه بهذا اللعاب المتشوِّق المتلمِّظ .

صحيح أنَّ جده عبدَ المطلب ، بين يديه اغمض عينيه ، فانهمرت عليه دموع الفتى . بكاه طويلا ، وناجاه عميقا ، وهو يستسلم الى الرقاد .

وصحيح انه قد يكون مشى كثيرا في ركاب الموت ، وراء جنازات كانت ترتفع فيها عاليا اصوات النادبين والنادبات ، مختلطةً بعويل الباكين والباكيات ، فزفر معهم – من قلبه – زَفَرَاتٍ حملت من لواعجه بليغًا من الصدق .

ولكنه اليوم – وعمه ابو طالب يرخي يديه الطويلتين على هذا الفراش اللاصق بالارض ، لا حسٌ ولا ايماءة – يجابه ، لاول مرة ، الحقيقة الصامتة ، ويقف خاشعا على عتبة مصهر يتناول قلبه ليشويه ، وعينه ليحرقها ، وفكره ليلهب آفاقه ، وخياله ليفسح له الكثير من الابعاد .

هذه هي المرة الاولى يقف فيها محمد امام الموت ، يسلخ منه أَعزَّ من حدب عليه ، أخلصَ من حماه ، أَكرمَ من آواه ، أَنبلَ من واساه ، فهو عمه ، ومربيه ، وكافله ، وحارسه ، ورفيقه على الدروب ، وهو السند والعضد ، وهو – وهذا هو الجليل المستمر – أَبٌ لعليّ واب لجعفر ، أحبٍّ اخوين له من غير ابيه وامه ، وأعز عزيزين عليه بين يدي عقله وقلبه .

مرة ثانية – وخديجة بين يديه جسد مطروح ، قد انسحبت منه كل خَلْجَةٍ من خَلَجَات الحياة – يأخذ محمد الموت بين يديه العاريتين ، ليضمَّه الى كل حنينه ، لينظر اليه بعينين غائرتين كان قعريهما وراء آفاق السماوات السبع .

وهذه هي المرة التي تشبه الاولى ، يقف فيها محمد امام الموت ، وجها لوجه : بهذا العراء ، بهذه الحقيقة ، بهذا العمق ، وبهذا الالم ، يلمسه بقلبه ، بفكره ، بخياله ، بروحه !

مات عمه ابو طالب ، هل مات معه شوقه الى البطولات ؟ هل هكذا تفنى الميول في تصاعد مراقيها ، وهي تتسلق القمم ؟

وقلب خديجة ! هل هكذا ينطفىء الحب ؟ هل هكذا تتعطل جميع المشاعر : الاخلاص ، الولاء ، التضحية ، وكلُّ مدافق الشوق ، وكل معاطف الحنين ؟

لا لعمري ! إن أبا طالب وخديجة ، لن يتركها ، محمد الامين ، الوفي ، فوق فوهة من العدم . فهما بعد الآن – وان يكونا الان

حرقة تتلظى في قلبه وعينيه – مدى في شوقه وروحه وخلوده .

ان مفاسح النعيم ، لن تضيق امام البطولات في طهارة القلوب ، ولن تتعرج امام الحب في لواعج الاشواق المطهَّرة بشبوبها .

شاطئ وسحاب

مثلما تضرب الازميل على صخرة : كل ضربة تترك اثرا ، هكذا الانسان يتلقى من الحياة زخات العبر ، كلُّ عبرة تفتح خطا ينساب مجراه بين النفس والعقل ، تنتقل عليه ، صعودا وهبوطا ، احلامه وامانيه في الوانها ومعانيها .

وكما ان الازميل في يد النحات الموهوب ، لا يحفر الا الخطّ الذي تجري فيه المعاني ، هكذا الانسان العاقل ، ياخذ من ازميل الحياة في نفسه خطوطا يضبط فيها اشواق نفسه .

وما كان محمد – وهو تحت ازميل الحياة ، مذ فتح عينيه ازميل الحياة – الا كلّ هذه الخطوط محفورةً فيه في تشابكها بين نفسه وخياله ، يشحنها بكل ما في نفسه من قوىً ، وبكل ما في خياله من آفاق .

كلُّ ضربة ازميل على محمد ، فتحت خطا عميقا عبرت عليه اشواق نفسه الى عقله ، وردها عقله – ملتهبة مخصبة – الى كل خيط من نسيج كيانه .

كيفما كان يسير محمد ، كانت تسير حوله الازاميل تفعل عليه فعلها الحفّار. لقد وضع كل نفسه في هذه المجاري : اي شيء لم يكن له في خاطره مجرى ؟ لحليمة السعدية خط محفور لا يزال متشعبا مع كل عروقه . ان مجرى الدم في جسده لا يزال ملتهبا

بكل تلك الطاقات نقلها اليه ثدي حليمة تاكل - حتى العشب - ليتفورَّ. لهؤلاء الفتيان في البادية ، يقفز معهم حول الخيام والاطناب ، مجارٍ محفورةٌ في كيانه ، تنساب فيها طفولته مع كل براءات الطفولة ، ومع كل بؤس هاتيك الطفولة . لوجه ابي ذؤيب ، زوج امه بالرضاعة ، خطٌّ محفورٌ في حناياه ، مع كل تلك الحلقات الساهرة تحت النجوم ، في عراء الصحراء ، وفي مراقبة خط الجوزاء . لكل هاتيك القصص في سرد الاخبار ، والاساطير ، والخرافات ، خط مرسوم في خياله ، يجنح به الى التبحر في الحقيقة وتخليصها من شبكات الاوهام . لكل هاتيك النوق مسحوبةً في خطوط القوافل ، مجار تتغور في نفسه مع كل ايام الجزيرة زاحفةً تحمل الظمأَ في اكوابها ، وفوق صوانيها المجاعات .

كل شيء مر على محمد ، نقش في خاطره خطوطه الغائرة ، واظلالَهُ الطويلة ، وآثاره المسحوبةَ الاذيال . وكل شيء فتّق في نفسه طاقاتِ القوى ، وسلط عليها معابرَ الاضواء ، فاذا هو جهاز تتكامل فيه كل الحلقات في استيعابها حقيقةَ المشاعر ، وحقيقةَ التحسس ، وحقيقةَ التعبير ، واذا هو استغراق فيها كلِّها الى درجة التمازج ، والتداخل ، والذوبان .

ابوه عبدُ الله يموت على طريق القوافل ، تشويه حُمَّى السعي وراء البُلْغة . امُّه آمنة تموت تحت وطأة الترمل ، والفقر ، والحرمان ، بعد ان عصرت عليه ذؤابة قلبها ، وحنين ضلوعها . مربيته امّ ايمن تضمُّه الى صدرها المهزول بحنان تجمَّعت له العطور من كل

تلك الازاهر النابتة على ضفاف الكوثر. جدهُ عبدُ المطلب يفني ايامه بحثا عن سقاية الجزيرة، ساكبا دموعه، واعراقه، بَلَّةً لظمأها. عمه ابو طالب يتلاشى وهو يحميه في ساحة التشريد، محرقا اعصابه كما تُحرقُ اشواكُ سياجٍ في حماية عنقود. خديجة – رفيقةُ عمره، وشريكةُ اشواقه – تذوب بين يديه كما تذوب الشمعة على مدرج الهيكل...

اية لاعجة من هذه اللواعج؟ لم تكن في يد الحياة ازميلا تهاوى على هذه الصفحة، فَحَفَرَ عليها اخدودا غارت فيه نفسية محمد، لتنفجر في اعماقه آفاقا تصله باوسع الآفاق!.

والجزيرة؟ وانسان الجزيرة؟ هذه الملايين من البشر، يعيشون مشردين على هذه الصفحة الهائمة: بدون عطف، بدون نظر. بدون شعور، بدون مسؤولية! كأنهم سوائم، كانهم هشيم في الأدغال. يسيرون كأنَّ القضاء لا يسير بهم الا الى حتوف، على غير أمل. بلا محجة، بلا شوق، بلا رباط – تحرقهم الشمس ولا يستنيرون. وتمتد أمامهم الآفاق ولا يتوسعون!

وهؤلاء القبضة من الاسياد؟ يتسلمون قيادات الناس، ولا يسوقونهم الى غير السراب! الى العتمات: من مجهل الى مجهل! الى الصحاري: من قفر الى قفر! الى الحريق: من حِرَّةٍ الى حِرَّةٍ! الى الاسر: من تقليد الى تقليد! الى تعطيل العقل: من صنم الى وثن! الى العطش: من سراب الى سراب! الى المجاعة: من بلقع الى بلقع! الى الموت: من وأد الى وأد!

وايامه السافرة ؟ ولياليه الطويلة ؟ كيف طواها بغير هذا التامل العميق : في وقوفه الصامت الخاشع على هذا الشاطىء المبسوط امام زحوفات هذا البحر ، تتمطى به – فوق اللُجج – حبال السحب !

وغار حراء ؟ في انطباق ضلوعه ، كم استغرق فيه من اشواق ، ففتَّقَ في نفسه التوق الى امتصاص الدهور تذوبُ كلها في المدار المتأجِّج بالجمال ! وكم استوحى فيه من آيات دفق عليه بها الخيال من آفاق تقصر عنها مدارك الخيال !

تلك هي الازاميل التي حفرت كلٌّ خطوطها في كيان محمد ، فاشتبك بها كيانه ، وانسابت فيها كل افكاره واشواقه ، وامتدت فيها حبال خياله ، فاذا هو – بها – هذا الاستغراق الكامل ، وليكون – بها – هذا الشاطىء المبسوط ، يتقبل كل هذه الخيوط المتدلية من عيون السحاب .

إعجاز

ليس من غير هذه المغازل نسيج العبقريات .

وليس تكسير هذه الدوافق – تكرُّ بها محامل الامواج على اقدام هذا الشاطىء المفسوح – من غير هذه الدوافع الزاجرة ، تعجُّ بها اعماق اللجج ، موصولة بأشطان السحب .

كل هذا الاستغراق المتواصل – في حياة محمد ، منذ الطفولة حتى مباسط هذه الكهولة – نشره شاطئًا مفتوحا امام هذا العباب ، يأخذ منه ويعطيه ، فاذا به ، والعباب ، وحدةٌ تتجاذبها الاعماق ، وتتهادى بها صفحات اليم ، وتتلاحم فيها مكامن العظمة .

سيان البحر والشاطىء : فالبحر الذي تجدل مهامره السحب ، هو البحر عينه الذي تكفكف مجارفه الشطئان . الأثنان سيان تحت ميازيب الغمام ، في تفهم أسرار الغمام .

هكذا أصبح محمد – في خَلَواته – مندَغما في المصدر الذي تلاشي فيه ، ليصبح منه ، كما هو الشاطىء من البحر ، في كل هذا التداخل والتلاحم ، ليكون تعبيرا صادقًا عن ان هذه الرمال هي التي تغسلها هذه الامواج غسلاً دائمًا لا ينتهي .

وكان التعبير جليلا في مؤداه : حمل على كفه وشاح نسجه ، من حيث برزت آيات القران تتوشح بهذا الإعجاز ، كما يتوشح

الزبد بهدير الامواج حاملةً كلَّ أشواق اليم .

وكما ان الشاطئ ليس غير كثافةٍ من الرمال ، تعانق دموعا كانت أبخرةً رشفتها حبالُ الشمس ، فجسَّدها على راحته السحاب ، كذلك محمد : فهو انسان عاش الانسان بلحمه ودمه ، وعكس وحيَ الخالق بكل ذلك الشوق المهيمن في روحه ، وفكره ، وخياله .

انه شاطئ بلحمه وأوصاله .

وانه سحاب بفكره وخياله .

الإسراء والمعراج

فلترتفع به تلافيف السحب ، هذا المغتسلُ بميازيب السحب .
وليطُفْ به الشوق والحنين مع كل رفيف اجنحة الملائك :

تحت السماوات وخلف السماوات ،
بين البروق ، والرعود ، وفي اجواء المهابة والسكون .
وليحمل معه شطآن الارض الى كل فضاء :
فالشاطىء المفسوح تحت مواطىء الموج ،
هو ذاته الممدود تحت قعور البحار ،
وهو الذي يرتفع مع خيطان السحب ،
ليعود فيتقبل أوشال السحب .

التكامل

لكل شيء في الوجود كيانان: كيان ذاتي، وكيان اطار. يبتدئ الكيان الذاتي في الذرّة التي هي الجوهر الفرد، وينتهي الكيان الاطار في مجموعة الكون التي هي شمول الوجود.

ان الكيان الاول، بكل ماله من حدود صغيرة، يتمتع بصفات ومميزات لها من الدقة مالا يمنعها عن ان تكون عالما مستقلا بذاته، تدور فيه على نظام كامل الشروط والمقومات، لتكسب – عن حق – صفة الكيان المستقل. غير ان لهذا الكيان المستقل من الروابط ما يجمعه في حلقات لا تحصى، تتلاحم كلها لتنشيء كيانات أخرى، لكل منها مدارثان، تدور فيه على ذات النمط، في حلقات أخرى عديدة أيضا، تنشأ منها كذلك كيانات جديدة تتضافر فيها ذات الشروط والانظمة: هكذا يتم كيان قلبي بين ضلوعي، وهكذا يتم كيان جسدي في حلقات وجود الانسان، وهكذا يتم كيان مجتمعي، وهكذا يتم كيان الكواكب في الفضاء. وهذا هو الوجود في شموله.

في هذا الخط من الترابط، انتقالا من الكيان الاصغر الى مجموعة الكون الموحَّد، يلحظ هذا الاستقلال لكل ذرة على حدة متمتعة بكل الصفات التي تتوافر في مجموع تناسقها شروط التكامل.

ليس المعنى في دقة هذا التحديد أنَّ كل ذرة في الوجود تتمتع

– على حدة – بكل شروط التكامل. فالتكامل هو صفة المجموعة الكبرى، صفة الوجود في شموله الذي هو كل الحق، وكل الخير المتكامل.

انما القياس، على ضوء النظرة هذه، يتوجه الى الكيان المحترم في هذا الوجود، الى كيان الانسان الذي هو سر وجوهر هذا الوجود. انه الكيان الوحيد في هذه الحلقة العظيمة من السلسلة الكبيرة التي هي مدار الكون الذي تجدر فيه بحوث شروط التكامل.

على هذا المقياس يتألف الانسان جسدًا يفرض ان تتناسق فيه جميع الاعضاء. كل تشويه، أو كل نقص في عضو من هذه المجموعة الجسدية، حتى ولو كان في أصغر خليَّة منه، يترك اثرا له فعله المعكوس على صعيد الأداء، له أثر على صعيد الأداء البيولوجي «المادي». كما يكون له أثر مقابل على صعيد الأداء السيكولوجي «النفسي». كل خلل في حركة ترابط الحلقات بعضها ببعض، له اثر كذلك، ليكون له الفعل المعكوس على صعيد الأداء. كل اضطراب في توفير الشروط لتأمين الجو الملائم لنمو اية خلية من الخلايا في تأليفها حلقات الاتصال: له ايضا اثر فعال تظهر نتائجه عن طريق الأداء.

يظهر ذلك ان شروط التكامل خاضعة لمقياس متناه في الدقة، ولن يكون هذا التكامل متوفرا الا في النظام الشامل الذي هو وحدة كل مجموعة. هذه الكيانات التي يتألف منها الكيان الواحد الاعظم.

ويظهر أيضا ، ان شروط التكامل ، كلما تجمعت في انسان بوفرة ، تميل به في ميزان التقييم على رجاحة يتعين مقدارها من نسبة ذلك التوافر.

فالجسم الصحيح المتناسق الاعضاء ، المتناسق الخلا يا ، المتناسق التكوين ، يصح أن يكون جهازًا لعقلٍ صحيح بمكنته الاستيعاب الواسع في مجالات احتكاكه بالحياة في كل منابعها ، فهو – اذا – جهاز لاقط تشتد قيمته بنسبة وفرة تلك الشروط في مجموعها ، وفي دقة ارتباطها ، وصحة انسجامها .

قد يكون من الصعب الى درجة الاعجاز ان تعرف كل الشروط المتوافرة لعبقري كيف تمكن من جمع خيوط عبقريته حتى – بعض الاحيان – في جسم لا تتلاءم فيه الشروط الصحية المألوفة . فهنالك ايضا تناسق ضمن الخلايا لم يتوصل العلم الى تكشيف حقيقة قواها ومداها ، تشتغل بمنأى عن كل ما هو في نظر العلم مألوف ومعروف .

غير ان ذلك لا ينفي الاقرار بالقاعدة : العقل السليم في الجسم السليم ، ومن هنا ايضا ان شروط تأمين الجسم السليم كثيرة لا حصر لها ، فان فيها من الارتباط باللاملموس ، ما يجعلها شروطًا أولية محدودة ، تشتغل شغلها ، وتترك القسم الاعظم ليد القوة الجبارة التي تسيِّر الكون .

غير أننا ونحن في نطاق الانسان – نتناول ما يقع تحت الادراك

لنقول : إن كل تكامل يتوفر يلحظ في نتيجته التكامل .

ليس على هذا البحث ان يتفرغ الى ابعد من ذلك – ان نطاق الحديث يحب ان يميل الى النظر في حقل الصفات في الانسان ، فاذا كان الجسد هو الركيزة ، فالعقل هو المتركِّز ، ليكون بدوره ركيزة تكوين الصفات .

تلك الصفات هي التي يعول عليها في تعيين القيمة في الشخصية الانسانية ، فعلى غزارتها ، وتضافرها ، وانسجامها مع بعضها البعض ، تبرز روعة المواهب التي تتحلى بها تلك الشخصية .

ان تضافر هذه الصفات وانسجامها يعيِّنان ذلك الحق ، من حيث ان شخصية الانسان لابد لها من اجتماع كل الصفات الانسانية فيها حتى تبرز قيِّمة في المضمار الانساني. تلك الصفات بمجموعها ، يبدر لها ان يطغي قسم منها على الاخر ، بشكل يبرز معه الجنوح الذي به يضيع التضافر والانسجام ، لتفقد تلك الشخصية قيمة التعادل والتوازن : كأن نلحظ في شخص مثلاً : شجاعة لا تستند على حق ، او اخلاصا لا يعنيه صدق الروية ، او حبا تبريه الانانية ، او اندفاعا يفقد تعيين الهدف ، او عصبيةً تخسر الرشد والمنطق .

وقد يبرز هذا الجنوح من عدم الانسجام : كأنْ يكون شخص مثلا : صادقا وينقصه الرأي ، او مقتنعًا بصدق قضية وتهرب منه البطولة ، او متحمسا بالواجب وتغمرهُ اللامبالاة ، او انوفًا ويعترضه الجبن .

ان عدم الانسجام بين كل هذه الصفات الانسانية ، لا يخضع لتعداد ، ولا يضبطه تعيين . فهو يظهر في المجتمع الانساني المتأخر ، في كثير من اشكال الاضطراب والتردي ، من حيث يلحظ الانحطاط العام ، نتيجة تفشي كل هاتيك النواقص في بناء الشخصية الفردية التي تفقد جانبا قويا من ميزانها الانساني . ان الباطل هو الذي يسيطر ، يفرضه ذلك النقص في الصفات ، ويفرضه عدم الانسجام : فلا رأي ، ولا منطق ، ولا صدق ، ولا اخلاص ، ولا بطولة ، ولا وزن في دفاع ، ولا قيمة لعمل او جهاد . ان العقل ، في مثل هذه الحال متعطل .

وقد يكون ذلك في مجتمع آخر مضطربا من حيث تبرز الصفات بشكل مبتور كأنْ يتشوه الوجه بعور ، او اليد بقطع اصبع ، انطباقا على ذات المعنى : حقيقة يشوهها الكذب ، او كسب يعرقله الطمع ، او حب تدنسه الشهوة – ان العقل يفقد كثيرا من التوجيه .

وقد يكون ذلك في مجتمع راقٍ اكثر تكاملا ، واوفر تضامنًا ، وتضافرا ، وانسجاما ، من حيث تبرز الصفات في الفرد يكمل بعضها البعض توليدًا واداءً ، واخراجا : كسبٌ من عمل شريف ، صدق من نظرة صائبة ، شجاعة من ايمان ، حبٌّ من صحة فهم ، ايمان صادق من عقيدة رسخها العقل بالاقتناع ، العقل السليم هو الذي يخطط .

ذلك هو الانسجام في الصفات التي يجب ان تتضافر في بناء الشخصية الفردية التي تتألف منها شخصية المجتمعات البشرية .

اما تلك الصفات التي هي ضمن نطاق الاحصاء ، فان في ائتلافها وانسجامها ، وفي مقدار هذا الائتلاف والانسجام ، ما يميز نسيج شخصية عن شخصية ، بشكل لا يضبطه حصر أو احصاء.

من هنا ان الملايين من الناس ، مع ملايين الاجيال ، يتميز كل واحد منهم بشخصيته عن الآخر ، ولو بفارق بسيط ، تعود نسبته الى كيفية انسجام تلك الصفات فيه ، والى مقدار جنوح صفة على صفة في مضمار تآلفها والتحامها - في الشخصية - مع بعضها البعض.

ان العباقرة والمصلحين العظام ، هم من الطراز الفريد : تتكامل فيهم وفرة كبيرة من الصفات على انسجام ، ان العظمة التي ترجح كفة عبقري على عبقري ، تكمن في قوة ذلك التضافر من الصفات ، وفي عمق ذلك الانسجام فيها ، من حيث تتولد كلها ، منساقة من مصدر واحد ، لا تطغي واحدة منها على الاخرى ، لتؤلّف في مجموعها ، وحدة متكاملة تعبر عن ان عقل صاحبها هو العقل الذي تتناسق فيه كل مقومات الكمال والرشد.

كل انسان تتعين قيمته الشخصية على مثل هذا الميزان ، تعينها وفرة الصفات فيه ، وتحدد قيمتها وفرة ذلك التضافر والانسجام.

كذلك المجتمعات الانسانية ، فان قيمتها تتعين من وفرة عدد اولئك الذين تتوافر فيهم هذه الشروط ، من حيث يتوقف عليهم المدى الجميل الذي يقذفون مجتمعاتهم اليه.

المصطفى

عدد الالوان سبعة ، ولكن مزج لون بلون ، مع التلاعب بالمقادير ، هو الذي يعطي من عدد الالوان ما لا يضبطه شيء من الارقام . كذلك الخطوط العريضة في حقل المواهب ، فهي لا ترجع – في مصادرها – الى اكثر من الحق والخير والجمال ، لتتفرع منها تلك الصفات المتولدة في الخط الحياتي على المصاعد الثقافية . فالشجاعة ، والبطولة ، والصدق ، والاخلاص ، والحب ، والتفاني ، والحس ، والارهاف ، كلها صفات متفرعة من تلك المعادن ، تبرز – ويشتد بروزها – بنسبة ما يتشابك بها الفهم ، ويعمق في جوهرها ، فاذا هي ، في عالم الانسان ، صفات كثيرة العدد ، كثيرة الالوان ، واسعة الاخراج وواسعة الاداء .

ان في تشابكها كما في تشابك الالوان ، هذا التنوع الفائق الحصر الذي يضفي على كل فرد من الناس لونه الخاص الذي تتفرد به شخصيته المميزة .

عطفا على البحث السابق ، ان الصفات هذه لا يصح تمازجها ، ولا يأتلف انسجامُها ، الا في ساحة النفس التي يشرف عليها عقل جميل .. عندئذ تأتي المقادير مؤتلفة ، وتخرج روعة الانسجام ..

في هذه الحالة نحن حيال شخصية فاهمة ، تعرف كيف تهتدي بالمفاهيم ، وكيف تعبر عنها بأداء يلجأ الى الحق في سبيل

تحقيق الخير ، ويستنجد بالشجاعة التي يعرف كيف يضاعفها بالبطولات ، وكيف يحافظ عليها بالصدق والاخلاص ، وكيف يرويها بالحب والتفاني ، وكيف يغمرها بذلك الحس المرهف بالجمال .

ليس قليلا ما يجب ان تستنجد الصفات بعضها ببعض عن طريق التداخل ، والتضافر ، والانسجام ، في سبيل اخراج شخصية الانسان الراشد ، كما انه ليس من السهل ان تأخذ ثلاث كلمات هي : الحق والخير والجمال ، لتشتق من تمازجها هذا البحرَ الواسع من القيم ، تغمر دنيا الانسان . كما وانه لابد من ذلك لتحقيق المجتمعات الانسانية الراقية عن طريق العمل الدائب الذي تتعهده آلاف الاجيال ، والذي يجب ان يبقى مستمرا في هذا الاحتكاك الدائم ، لألاَّ تخبو – مع كل ساعة إهمال – هذه الجذوة الالهية التي تلتهب بها جوانب الكون .

من بين هؤلاء الافراد العظام جاء محمد يثبت نفسه طاقة انسانية فذة . تناول الحياة بدعائمها الثلاثة العظيمة : الحق والخير والجمال ، وراح يتسامى بها في كل حقول التفجير ، تنهال عليه منها المقادير على ائتلاف دقيق الوزن ، رائع الانسجام .

لقد فهم الحياة حقا ، ولقد فهمها فهما عميقا . ان العمق هذا يصعب على القلم أن يأخذه في كل تحاديده ، فهو عمق لم يغمر عقل محمد وحسب ، فهو ذوّاب وشديد التسرب . لقد ذاب في دمه ، وتسرب الى كل خلية من خلايا جسده . ما هي تفاعلات هذا التسرب على هذا العقل ، وعلى هذه النفس ؟ كيف للقلم ان

يصف تفاعلات الفهم ، وعمق هذا الفهم ، في عقلٍ ونفسٍ تتوافر فيهما كل شروط التكامل ؟ أنّى للقلم ان يصف – في كتاب – تكوين خط من خطوط تكوين عبقرية تلتحم فيها اسرار الحياة ، بما فيها من حق ، وخير ، وتذوق جمال ؟

ولكن الشيء الذي لا يوصف ، يشار اليه ، حتى يستلمه الخيال – ان وصفه متروك للخيال . تكفي الاشارة الى ان محمداً فهم الحق بعقله ، ونفسه ، وكل كيانه ، ففعل فيه فعله الجبار .

لم يكن التعبيرُ عند محمد – عن غير هذا التفهم . وعن غير هذا الاستغراق في هذا الفهم . ليست صفاته اليوم من غير هذا التضافر ، وهذا الانسجام . فهي من معدن الحق في تصلبه لإبراز الخير . ان بطولاته ، في سبيل التحقيق ، ليست من غير هذه المواعين الصادقة التأثير .

ان التلبية ايضا جاءت في مجالها الصادق ، فهي نتيجة ذلك الفهم العميق : خرجت من ذلك التفاعل ، من عصارة ذلك التفاعل . ايُّ شيء لم يكن تلبية : صمته وسكونه ! جلوسه وتأملاته ! قوله وصدقه ! حبه واخلاصه ! امانته ووفاؤه ! حكمته ورزانته ! صبره وثباته ! جلده وتأنيه ! عفته وطيب مسلكه ! ام تلك الشفافية في الرؤى ، والاستغراق ، والذوبان ، والتلاشي في الذات المصدر ! ! !

وايُّ شيء لم يكن عليه انعكاسا كانعكاس القوالب على محتوياتها ؟ بريق عينيه ام وسع جبينه ! قيافته ام ثقل خطواته ! بسطة كفه

ام نوع ايماءاته ! ! !

كل شيء في وجود محمد كان من قوة عمل ذلك الفهم فيه ، منعكسا عليه صفاتٍ بارزة في خطها الغزير المؤتلف والمنسجم : عبَّر عن صدق تضافرها ، وانسجامها ، بذلك الاقتناع الصادق والعميق ، فجاءت فيه البطولات ، بطولات البث والدفاع ، جلية في إخراجها وأدائها .

هكذا يتولد الايمان : يولده الفهم الغوَّاص في عالم الحق . وهكذا تتولد الصفات ، وهي تعبٌّ طيوبها من تلك المفارز ، يعتصرها الفهم خيرا من رحاب الحق . وهكذا تنتشي النفوس الملهمة بهذا الجمال ، يقدمه لها الفهم من هذا الفسيح الممدود على صدر الحياة .

ان محمدا - بفضل هذا الفهم العميق البارع - بسط وجوده على مناكب الاجيال ، ليكون - في ساحة الحق - النبي المصطفى .

شفرات الأسنّة

ما دار البحث هذا المدار، ليخرج عن اطاره . ان الصراع الذي راح يستجير بشعاب مكة ، ما كان ليسمى صراعا ، لولا انه لم يشحذ حسامه هنا ، على المشحذ النيِّر. وما كان على محمد ان يسحب بيمينه هذا الحسام ، سيوحيه – مع الوقت – حساما مسلولا في كل يمين . ان الحق الذي شحذ عليه ايمانه ، سيتمكن محمد – بقوة هذا الايمان – من أن يعكسه بطولات . كل ما فيه الان راح يشتغل في خط الايحاء : ببطء ، على مهل ! لا بأس ؛ هكذا يفعل الشروق ، فهو ليس دفعة واحدة يبري العتمات .

وراح محمد يتتبع الناس – أَليس هو رسولَ الله الى الناس ؟ ثم انه الخبير باحوال الجزيرة . يعرف كعباتها ، ويعرف أسواقها ، ويعرف كل منتدياتها . هكذا راح يتتبع الحج الى منى والموقف ، وراح يلاحقهم في عكاظ ، ومجنة ، وذي المجاز . راح يعرِّفهم الى محمد ، ويسمعهم – بصوت محمد – نبرات الحق يتفصل فيها الخير ، ويشفُّ فيها الجمال .

رويدا رويدا يتم سحب الغِشاوات عن العيون الضريرة : ان جمرة العقبة ، قرب منى ، بعد مكة ، افسحت في ارضها مكانا لمئذنة . هنالك مسجد البيعة رسم أول خط في طريق الجهاد .

من هم الذين بني لهم في العقبة مسجد ؟ عشرون شخصا ؟

ولكنهم بواكير الاجيال . انهم اللمّاحون الأول : يأخذون الرسالة على شفرة سيف ، يأخذونها بين الشعاب طريدة ، منبوذة ، مضطهدة ، ليصبحوا هم في مجال المطاردة .

من هو أسعد بن زرارة ؟ ومن هو ذكوان بن عبد قيس ؟ يعانقان الحق فوق فوهة بركان : اثنان من الخزرج كانا اول خميرة في ركن الا نصار .

فليكن للعدد قيمة . ولكن حقيقة الا نتصار ليس مرجعها الى كثرة الاعداد ، بقدر ما هو مرجعها الى حقيقة الدافع . انا أقول الا ن : ان أسعد بن زرارة وذكوان بنَ عبد قيس هما اللذان سينتصران على الملايين في الجزيرة . يكفي انهما آمنا بانهما سينتصران : « من كان له من الايمان حبة خردل يقول لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك ، ويحصل » هكذا قال عيسى وهو بر به المؤمن .

وللا يمان شروط ؟ انه لكذلك – وشروط الا يمان ليست حروفا تكتب فتلفظ . انها من فعل الحق في النفوس ، تشتغل شغلها العجيب فيتولد اشعاعها الغامر .

ولقد زال – بين الأوس والخزرج – مجال كان فيه للحقد مقرض ، كان فيه للضغينة منشار أسود . لقد مد محمد ، بين هاتين القبيلتين ، انملا من حبه الابيض : أُنملَ الحق : يحمل الحبَّ من فيوض الخير .

كل ذلك كان من فعل الايحاء ، كان من فعل سحب الغِشاوة

عن العين : ان العين التي سحبت عنها الغِشاوة ، اصبحت جاهزة تحت فعل النور. ان القلب الذي صمد تحت المدلكة ، هو القلب الذي راحت تخفق فيه حرارة الايمان.

ان سبعين رجلا فعل فيهم الايحاء فعله ، في العقبة الثانية ، هم أيضا من أولئك البواكير ، من الاوس والخزرج الذين تألف منهم خط الانصار : انهم كذلك قلة مؤمنة ، ولقد ارتضوا بالنصيب الذي سوف يجعلهم وقودا في المصهر الجديد.

ومحمد ، وحده كان : فعل فيه الايحاء ما يفعله اليوم — عنه — هذا الايحاء ، تدليلا على ان الايمان الصادق يتمكن فعلاً من زحزحة الجبال . ومحمد الآن – وهو يتهيأ للهجرة الكبيرة ومعه هذا العدد الضئيل من الانصار – لا يزال كأنه وحده يعمل. ان عدد السبعين ، ولو مضروبا بسبعين ، لا يؤلف كثرة مطلقاً بالنسبة الى الملايين.

واليوم ، لم يلجأ بعد محمد الى السيف ، وسيلجأ . ولكن الفعل الذي سيصبح في مجال العظمة ؛ لن يكون فعله للحسام. ان العدد الضئيل الذي اصبح الان في متناول الرسالة ، هو الحقيقة الوحيدة التي لم تُخْضِعْهَا شَفَرَاتُ الأَسِنَّة. —

المؤاخاة

إنَّ عينين فيهما رمد ، تسقيهما نقطتين من ماء الورد ، خير لهما بكثير من مرود ، تداعبهما به يدُ الإغواء .

وان اخوين ما بينهما جفاء ، ترمي عليهما وشاحًا من صفاء ، خير لهما بكثير من عنفوان فارغ ، تدغدغهما به كفُّ العداء .

طالما ان الفهم هو الذي يدرك الحق ، ويعين الخير ، فليس من الصعب على محمد ان يجد بين هؤلاء الملايين من يتفهَّم عليه سلامة المنطق . لقد لبَّاهُ في الامس اهل الاوس واهل الخزرج ، فقطعوا ما بينهما كل خيط لجفاء ، وها هو اليوم ، يجمع حوله كل اولئك الذين حسبهم عليه صحابيِّين . فربطهم باسلاك مدَّها بين قلب وقلب : « تآخوا في الله اخوين اخوين » — « انما المؤمنون اخوة بصيغة الحصر . »

لن تنجح الرسالة التي بها يبشر ، لن يجد الله ما يسكن فيه : ان لم يكن قلبا مؤمنا ، ينظفه الايمان من درن الحقد ، ومن شره الضغينة . ولن يجد المجتمع قواما له بانسان مريض لا يعرف الحب ، ولا يرشح منه العطف والحنين . لقد كان ذلك من بين الآفات الفتاكة في مجتمع الجزيرة : عدم الحب ، عدم الشعور بالولاء ، عدم التلذذ بالعطف . ان هذا الحنين في الانسان ، لا ينبع في قلب تتقطع الصلاة بينه وبين المنطق .

كيف لا تكون النظرة صائبة ، في بناء المجتمع ، يكفكفه الرشد : بجمع الكلمة ، بمحو اسباب التنابذ ؟ ليس يرصُّ المجتمع غير المحبة ، وليس ما يوجهه غير الولاء .

ان امة تدعو الى الخير ، وتامر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، هي الامة التي تنشأ بالا نسان الذي يشعر بان « الا نسان اخو الا نسان »

فتشوا الارض في مجتمعاتها : ان ارقاها ، هو المجتمع الذي يعرف كيف يصون حقوق الغير ، هو المجتمع الخفيف الحقد ، والكره ، والحسد ، والكذب ، والرياء – ليكون بالتالي المجتمع الرصيص ؛ يرصه الفهم في نضيد جماعي ، تتوافر فيه العدالة الاجتماعية في تعاون صميم ، يولِّد الخير ، ويولِّد الجمال .

لقد أخذ محمد الخط – في بناء الجزيرة – من طرفه الاول ، بهذه المؤآخاة بين المسلمين : يا ابا بكر ، ويا عمر ، تآخيا ، على تآخيكما ابني الجزيرة . يا حمزة ، يا عماه ، ويا زيد بن حارثة ، تآخيا ، ان في تآخيكما فتيلةً تشتد بها متانة الروابط . يا عثمان ، ويا عبد الرحمن بن عوف ، تآخيا أيضا ، ان في تآخيكما شعاعا ينقِّص من عتمة . يا عليَّ بن ابي طالب ، هات قلبك أَربطْهُ بقلبي بحبل الإخاء ، ان في تآخينا حبالا تربط الاجيال ، بالاجيال .

ما تضاءل على محمد بُعْدُ النظر ، لقد كان يعرف قيمة التراصِّ في المجتمع ، وليست لغيره الحكمة : « عليك بالجماعة فان الذئب يأخذ القاصية »

ولادة تاريخ

ان الليلة التي انسحب فيها النبي من مكة الى المدينة ، تاركا فيها فراشه لعليّ بن ابي طالب ، في تغطية انسحابه ، لم تكن ليلة الوداع . سيعود الى فراشه لينام فيه – ولو ليلة واحدة – نومة الابطال .

وستكون اولَ ليلة من عمر تاريخ – كانتْ هي ناصيتَه – فَجّرَ على الارض سنا الحق . أنعمْ بعلي بنِ ابي طالب ، ينام في فراش – طوال ليل اسود – ليشهد عليه ، مع الصباح ، اعظم ولادة لأنصعِ تاريخ .

لقد التوت – الى هذه الليلة – كلُّ النواصي .

بعد عشر سنوات تكون قد اجتازت الخط : من انسلالها عن فراش في ارض مكة ، الى انزوائها في غار جبل« ثور » ، الى اعتصامها بـ « قباء » و « رانوناء » و « إلمربد » ، الى تحصنها بالمدينة المنورة التي شهدت تاسيس الركائز ، وتكون قد حققت كل هذه الدعائم التي تتثبت عليها عظمة التاريخ .

دعائم التاريخ

ليس على الزمن أن يعين التاريخ. لا شروق الشمس، ولا غروبها، يقيّمان الحوادث ويمنحانِهَا العمر الطويل. فالزمن ما هو غيرَ محورٍ ثابت تدور حوله حوادث الكون، من لولب الى لولب، ياخذ بعضها بركاب بعض، على طول الدائرة الملموحة تحت عين الشمس.

ان الحدث البارز هو الذي يتلقط به هذا المحور، ليعرضه بجلاء امام صفحة النور، فاذا به حدث يأخذ من ثباته على المحور، ما يسلط عليه الضوء، ويبعد عنه العتمات.

كل ذلك في عالم الانسان، لا يعين قيمته الا الانسان. بحيث أنَّ ذلك الحدث البارز هو الذي يتفرد باغزر القيم، يغرفها من وجود الانسان، في سبيل تقييم الانسان.

ان غزارة القيم، هي التي تخصب الاحداث، وهي التي تلونها على لوحة التاريخ، وهي – على كل حال – قيم انسانية. ولا فرق أهي مكتملة، ام إنها تفتش عن خطوط تكاملها. ان بروزها بغزارة، هو ذلك الذي يخصب ذياك الحدث. ان الظلم في نيرون كان غزيرا، ثبته طويلا على لوحة التاريخ. ثبتته ظلماً غزارة كرهِ الانسان للظلم، وغزارة توقه للعدالة؛ لهذا عاش نيرون في التاريخ، مكروها بغزارة. ان العيّ الغزير في

الضبّ ، ثَبَّتَ الضبُّ طويلا على لوحة التارّيخ ، ثبته عياً تقزّزَ الانسان من العيِّ الذي يكبِّلُ الفهم بالبلادة .

هكذا يعين التاريخ ثقل الحوادث ، يكسبها القيمة ، ويعطيها طول العمَر من قيمتها هي ، ومن طول ثباتها واستمرارها في ميزان القيم . حتى الظلمُ ، فان له مركزاً في حقل القيم ، فهو المنشِّط للنفوس في تفتيشها عن ميزان العدالة .

وما كان محمد ليبني تاريخا جديدا ، او بالاحرى ليغير وجه التاريخ ، الا من هذا النوع في تجسيده القيم ، وابرازها بمثل هذا التكثيف الخصيب ، جسَّدها قيماً انسانية ، وكثَّفها حاجة إنسانية : عينتها حاجةً تلك الحالة العامة في الجزيرة التي تمكن هو من استيعابها بجهازه المتين المقتدر على الاستيعاب .

ولقد كان سير الأحداث في مجالٍ خصيب . فالهروب الذي هو في الحساب المألوف جبنٌ وخور ، كان بين يديه طريقًا الى البطولات ؛ فهو هروب يخصبه التخطيط ، وتعينه الروية . كما وان تحدي الناس في معتقداتهم ، والنيلَ من كرامة اديانهم ، هو في العرف كفر ومروق ، كان لديه جرأةً أوصِلته الى حقيقة الايمان ، فهو اذاً كفرٌ يقوده العقل ، ويضبطه الرشد .

كل الحوادث التي اشتبكت في حياة النبي كان لها مظهرها الخارق ، فلقد كانت مثقلة بذلك الخِصب الكثيف ، تدليلا على انها كانت تعبيرا عن قيمة المصدر الذي انزلقت عنه .

ان اقل الحوادث قيمة في النظر المألوف ، كان لها اعز الاسباب وابعدها غورا في الحساب القيّم : ان صبية في الطائف ، يرشقون محمدا بالحجارة ، فيحتمي منهم في ظل حائط لعتبة وشيبة بن الربيعة ، يخلعون على حادث عادي قيمة غيرَ عادية . ان الصبر على الضيم ، في سبيل الوصول الى هدف ، هو الذي كان يجعل محمداً يستنجد بحائط . ان حائطاً هزيلا ، قوامه بضعة لبنات من تراب ، اصبح جديرا بأَن يدخل التاريخ . لقد تكثّفت ، خلف هذا الحائط ، مجموعة من القيم ، تلقّط بها المحور النير . أَن ينام عليّ في فراش ابن عمه ، فذلك حادث عادي ، ولكن النوم في فراش تغطية لانسحاب ، مع ما يرافق هذه التغطية من احتمالات الفتك بالمغطّي ، هو الحادث الذي تخصبه قوة البطولة . هكذا تدخل قطعة من خيش مجال الخلود في التاريخ : انها الان أقيم من كل حرير العالم ودمقسه . منذ الاف السنين ، وابن الجزيرة العربية يمتشق الحسام ، ويتوجّه الى الغزو ، أما اليوم ، فضربةٌ واحدة من سيفٍ ، حجزت لذي الفقار مكاناً واسعا في التاريخ ، فهو سيف شحذته البطولة على قيمة ، ان له وحده ، دون كل السيوف ، مكانة في صفحة الخلود . ان عملية مصالحة بين اخوين ، ففي كل يوم تحدث في العالم ، في كل حيّ ، وفي كل بيت تحصل ، ولكنها – عشية هجرة محمد الى يثرب ، يربط بها بين الصحابيين ، ويرفعها الى درجة المؤاخاة في الاسلام – حدث ترتبت عليه قيمة جدل الجزيرة العربية ؛ وتحرير الانسان فيها من عبودية

التاريخ ؛ انّ لها قيمة في عين التاريخ . انها حدث تبرز فيه القيمة .

تلك هي الاحداث التي تبدو في ظاهرها كانها بسيطة المنال ، بسيطة الحدوث ، وعادية التأليف والتركيب ، ولكنها ما دخلت التاريخ الا لانها تحمل في بساطتها العظمة . كذلك يمكن القول عن كل هاتيك المعارك التي خاضها النبي مسلولاً فيها حسام ، ولكنها لم تدخل مطلقاً صدر التاريخ . لتتربع فيه ، بفضل ذلك الحسام – ان وراء الحسام قيمة كانت ابلغ بكثير منه . وهي التي طيبت حده . لولاها ، لما كان للحسام غير الصدأ . كل حسام لا يمتشقه الحق . يتأكله الصدأ ، ولا يدخل التاريخ ، الا وعليه الصدأ ، كما دخل نيرون وعليه من اللعنة ذياك الصدأ .

الانطلاق

لقد امتلأت جعبة التاريخ بين يدي محمد ، لقد زخرت بالقيم . ان الذي كان ، حتى هذه الليلة : صمتا ، وتاملا ، وسكونا ، وهروبا ، وتلجلجا ، وتشريدا — راح يفتش عن المجال الاوسع ، يفجِّر فيه عميق سكونه . ترك السفح ليرتفع الى القمة التي تشرف على كل مباسيط السفح . ان العاصفة التي كانت تحومل في زوايا الافق ، لملمتها اليوم الريح الى قلب الدائرة ، وها انها بدأت ترخي على الارض الشآبيب . ان كفًّا ترفعها فوق رأسك ، لن تقيك الان من غمرٍ تتدفق به جوارف السيل .

فليُشرع خالد بن الوليد حسامه متتبعا به عليا ابن ابي طالب على طريق « صجستان » ، يحمل معه الفواطم الثلاث : الزهراء ، وبنتَ اسيد الهاشمي ، وبنتَ الزبير بن عبد المطَّلب . سيترك ابن الوليد هناك العبدَ « جناحا » صريعا ويولِّي الإدبار ، ولن يعود الى يمينه الحسام حتى تعلِّمه الرسالة كيف يمتشق الحسام . سيكون له ذلك مع النبي ، على طول القوس من جبهة الصراع التي ستمتد من حدود حكم كسرى الى حدود حكم هرقل ، وسيبقى — بعد ذلك الحين — في يمينه مشرعا ذياك الحسام .

منذ تلك الليلة رسمت الهجرة خطوط الانطلاق . ما ابتعدت عن مكة — وهي الحرون — الا لتعود اليها بعد ثمانٍ من الهجرة ،

لتجدها مضمّرة ، تلوك لجامها على اسلاس . منذ السنة الاولى ، ومكة في بال النبي ، تشغل منه الحيّز الوافر ، كأنّ الاذانَ ما شرع في هذا الحين الا لمكة : « حيّ على الفلاح » ، وبدلا من ان يصلي باتجاه بيت المقدس ، ادار وجهه الى البيت الحرام . ان مسجد القبلتين ، كانت فيه — الى مكة — تلك الايماءة .

ما ونى ، حتى هذه الساعة ، فعل الجهاد : كل نقطةٍ نُزفت من عرق ، على طول الدرب ، بين مكة ويثرب ، كانت اكسيرا تبخر في الجو ، وراح يهمي رذاذا على كل جوار . هنا راحت التلبية تفعل فعلها العجيب ، بمنأى عن هؤلاء الاسياد الذين كانوا سموما في جو مكة . هنا القبائل ، تعيش على السجية ، يكمن في ضميرها الله كما تكمن في قلب الطفل براءة الحق ، ونقاوة الاحلام . هؤلاء هم الذين راح يستيقظ فيهم بهاء الضمير ، ويتململ في اعماقهم طيف الوجدان الذي تجبل منه طينة الانسان .

في بني سُليم الذين التفوا حول النبي نزلت الاية : « قد نُرَى تقلّبَ وجهك في السماء » ، وأدار وجهه الى القبلة التي وُجْهَتُهَا مكة . ثم تهافتت القبائل تلبي نداء المصلّي . وقبائل الجزيرة — ساعةَ يلمهم النداء الى قطب — يحبكون متانة المحور . تلك هي حقيقة السيادة : مهما يُفَتَّشْ عنها فلن يجدها غير وعي النداء . في مثل هذه اللحظة كانت الجزيرة العربية تجد حقيقة كينونتها . تلك هي اول مرة يستيقظ فيها العقل الجماعي ، حول محور واحد ، باتجاه قطب واحد .

هكذا ابتدأت الامة تكتشف نفسها ضمن حدودها ، تكتشف طاقاتها المخزونة ، وجميع امكاناتها . وهكذا ابتدأت الحياكة العجيبة تعبىء نفسها من هذا الغزل المفتول .

سمّ معي القبائِل المشرورة على هذه الصفحة المغبَّرة ، هؤلاء هم سوائم الامس يزحفون اليوم على قيمة ... قيمة ؟ عندما يجد الا نسان حقيقة نفسه – تلك هي القيمة – قيمة الا نسان الفاعل في الحياة ، والمتفاعل معها .

لبني سليم اليوم قيمة : يفقهون معنى الصلاة ، ويديرون وجههم مع وجه النبي صوب القبلة ، صوب المسجد الحرام ، صوب هدف . لبني غيَّان اليوم قيمة ، فيقبلون – مع اعتزاز – بتغيير اسمهم الى « بني رشدان » . لقد اطرحوا وراءهم الغيّ ، وعانقوا – باعينهم وقلوبهم – خيوط الرشد : كل فرد فيهم اسمه « عبد العزى » سيصبح « عبدَ الله » – كل واحد منهم اسمه « غويّ » سيصبح « راشدا »

بنو أسد – تميم – عبس – فزارة – مرة – ثعلبة – مَحَارب – بكر – كِلاب – جُعدة – كنانة – أشجع – باهلة – وائل – تغلب – شيبان – طي – تَجيب – خولان – مُراد – كِندة – زُبيد – سعد هزيم – خُشَيِّن – بُلَيّ – عُذرة – سُلاَمَان – جُهينة – جُرُم – الإِزد – غسان – حَمَدَان – عَنْس – الدَارَبَين – غامد – النخْع – بُجيلة – خُثْعُم – الأشعَرَين – حضرموت – غامق – بارق – دوس – أسلُم – جُزَام – مُهرة – حِمْير – نجران –

حَبَشان   السباع .

لم ينته خط القبائل ، خطّ هؤلاء المشردين بلا قاسم ولا جامع ، المتروكين في العراء ، تنخل الريح على عيونهم دكنةَ الغبار ، وعلى حلوقهم حُرقةَ السراب ، على يأس وقنوط ، وبدون عناء أو امل — هنالك الكثير منهم لا يزال متجها نحو الخط المسبوك — يتوافدون ، وهم يفركون عيونهم من الوسن الطويل ، وهم يلملمون اذيال عَباءات يهلهلها العفن !

هؤلاء هم الذين اصبحوا يُصغون الى النداء ، سيكون من بينهم من يحمل معه الاحقاد ، شأنَ عمرو بن مالك ، لا يُسْلم الا بعد ان يُحَصِّل ثارا له ، ولكنه — بعد ان يفهم ان الحب لا يقتل ، ان الاخلاص لا يحقُد ، ان النور لا يعمي ، ان المعروف يصفح ، ان الخير يبني — يغلُّ يده الى عنقه ، ويجيء مرتين يلحُّ على النبي بطلب الغفران ، لتكون له من شوقه المغفرة .

منذ تلك اللحظة ، بدأت تتحطم الاصنام : ذلك راشد بنُ عبدِ ربه ، من بني سُليم ، يُجزلُ له النبي ولقبيلته العطاء ، برهاط ، فيها تربة سوداء ، وفيها ماء زلال ، لقد سميت ماؤها بعين الرسول . منذ تلك اللحظة تحطم صنم يسدن له بنو سليم ، حطمه راشد وهو يقول :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟

لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

منذ تلك اللحظة بدىءَ تأليف امةٍ تدعو الى. الخير، وتامر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. ان حِرملةَ بنَ عبدِ الله، من بني كعب، في «بلعنبر» سال الرسول: «يا رسول الله ما تأمرني ان اعمل؟» - فاجاب النبي: «ائت المعروف، واجتنب المنكر، وانصرف» - «احبب قريبك» - قالها من قبل عيسى - «وهذا هو كل الناموس»

حدّ الحسام

ما كان للحسام ان يلمع وهو مدفون تحت التراب ، وما كان للغزو يوما ان يطيِّب حداً لحسام : الحقد ، والكره ، والبغض ، ليس لايّ منها قيمة المشحذ – ولا الفوضى ، مع عرض المنكبين ، ولا فتلة الساعد ، بمقدورها ان تمسح السيف بشعاع من لمعان .

منذ ذاك التاريخ حتى اليوم – يومِ بدر الكبرى – وحسام الجزيرة يقصف . ما طاب : لا مع العرب البائدة ، ولا مع العرب المستعربة . كان ، كلما اطل على فضاء ، تنكفىء حوله سحب الغبار : من قلب الجزيرة ، من حِرَّاتها ، من هبوب سَمَومها ، من فيافيها ، من تَمحطها ، من الانسان فيها الغارق في بحر من الفوضى .

دائما ، لا قيمة لحسام لا يلمع ، ان في لمعته ما يجعله يقطع . اما الحسام اللامع ففي يمين الحق مشرع – الحق ؟ هنيئا لامة يوسع الحق أُفقها ، ان لها حساما مقدودا من شمس ، يحمله زند مفتول من الرواسي . لا – وايم الحق – ما كان لامة هذا الشعاع من الفهم ، الا وكان لها ذلك الخلود في التقييم . ان لمحة واحدة من هذا الايمان بالحق ، خصَّ محمَّدٌ بها الجزيرة العربية ؛ راح يدفعها من مِصعد الى مصعد .

أَنا اومن بالانسان فردا – وأَخص به العبقريّ – ولكني لا

اقدر ان اومن به لا يؤلّف الجماعة . ان قلبا ليس في مقدوره ان يضخ نبضاته الى كل ضلع من قفص الصدر ، ليس حريّا به ان يعيش بلا سياج . وتاليف الجماعة ، هو العمل الامثل في دنيا الا نسان ، انه تحقيق الا نسان .

ولست أُومن بان الا نسان يعيش بلا سيف - إن لمعان السيف من لمعان المناعة في الا نسان ، من لمعان العقل المطيَّب بالفهم . ان زجر عيسى لبطرس : « يا بطرس اغمد سيفك ، من اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » ، لم يكن اغمادا ، بل امتشاقا لحسام ، كان اغمادا لسيف الظلم والطغيان ، وامتشاقا لسيف الحق - الحق المسلح بالحب والا نفتاح .

ان فهم الحق يكفي لا ن يضع في يمينك حساما قاطعا يفعل فعله دونما امتشاق ، مع انه يكون دائم الامتشاق . قد يقصف ، ولكنه لا يخسر لمعانه ، ولكنه - اذ يكون في يمين الجماعات - لا يقصف ولا يغلب .

أوليست معركة بدر برهانا على ان للايمان بالحق حساما لا يغلب ؟ ولكن السيف ، في معركة بدر ، لو انه استعمل لمجرد عملية غزو ، لكان شأنه شأنَ تلك السيوف التي استعملت منذ الاف السنين ، لا تكاد تسحب حتى يأكلها التراب . لذلك كانت - في يمين ثلا ثمئة - سيفا واحدا منتصرا ، له لمعة واحدة تبهر .. في الصف الثاني : بقيادة ابي سفيان ، وضمضم بن عمرو الغفَّاري ، كان يشرع الف حسام ، في الف يمين . لو ان الحق الصريح كان

لحمة الالف ، لكانت الضربة تحتها الإفناء .

من اين للشجاعة الرمح ؟ من اين للبطولة الا قدام ؟ من اين للجماعة الوحدة ؟ — ان لم يكن الفهم دليلا الى الحق الجامع ؟

لم تشذ معركة أحد عن هذه القاعدة ، فلقد كان فيها لقاء ثان بين صفين يمثلان التناقض في فهم الحق ، والنظر اليه . تفاوتَ العدد كثيرا بين المتقابلَين ، ولكن الفئة القليلة كانت لها القوة من لحمتها ، لهذا انتصرت . ولكنها أيضا منيت بهزيمة ، في اللحظة التي انقلبت فيها نظرتها الى الحق : ان الصراع في الساحة ، لم تكن مطلقا غايته حفنةً من تراب . منذ ان اعلنت الرسالة نفسها صراعا وهي تهزأ بالدخان ، كان مطلبها اثيرا ، كانت تريد ان تأخذ حفنة التراب لتنفخ فيها هذا الا ثير ، كانت تكره كل عين من زجاج ، على كل عين ان تتحرك تحت فعل البصر ، والا فلتقلع العين اليابسة ، ولتكسر.

ان الذي حصل في معركة أحد ، كان من نوع التمرغ بحفنة تراب ، كان ذلك حسب تخطيط بارع : لقد كان عم النبي — حمزة — المخطط . خصص خمسين رجلاً للحراسة خلف خطوط القتال ، وكانت الاوامر مشددة عليهم بعدم التزحزح ، ولكن النصر ترك الساحة تغص بالغنائم ، مما اغرى الحراس بالا نقضاض على تجميع الاسلاب ، فاخلي مجال الخَفَر لكرة المهزومين الذين عادوا فشوهوا ذياك الا نتصار.

فلتكن العبرة من حادث حصل ، لبس المعصية ببطانتين : بطانة الطمع ، وبطانة الزيغ ، واكل القصاص على كفين : كف الهزيمة وكفٍّ الحرمان .

ولن يكون القياس ، في معركة صغيرة ، غيرَهُ في ايَّةٍ من المعارك الكبرى ، فالامم العظيمة ، لها ايضا حلبات صراع . فلتنزل الى ميدان الحق في صراعها من اجل حقها في الحياة ، ولتتسلح بالنظرة الصائبة ، ليكون لها التحقيق الاجلّ . ان الطمع ، والفوضى قمينان بالباسها قميص الذل والحرمان . كل زيغ عن سبل الفهم يدك الامم ويعرضها للذوبان .

ولكن الايمان بالرسالة ما كانت لتزعزعه الهزيمة في أحد : مات في المعركة حمزة شهيدا ، مات لانه لم يتمكن من فرض اوامر لا تعصى ، ولكنه نال تعويضا : لقد نزل في قبرٍ ملفوفا ببردة النبي . حتى النبي ، فلقد تحمل اعباء الخطأ ، بنزفٍ من دمه لم يجف الا بعد ان ذرت عليه ، ابنته فاطمة ، رماد حصير محروق .

وما كانت هند ، زوجة ابي سفيان ، وهي تمثِّل بحمزة القتيل ، آخذةً من جلده ، ومن جلود القتلى ، سرائد تصنع منها لقدميها الخلاخل ، لتُفقدَ صفيَّةَ — بنتَ عبد المطلب ، وأختَ حمزة ، وعمةَ النبي — روعةَ الايمان ، فلقد اعتصمت بالصبر الجميل وهي تقول : « لقد بلغني انه مُثل باخي ، وذلك في الله قليل ، فما ارضانا بما كان من ذلك ، فلأحتسبنْ ولأصبرنْ »

إن باب الكلام في المعارك التي حصلت فيما بعد وسيع ، وليس للوصف هنا مجال ، فالبحث فيها الان ليس في مدرسة حربية تحلل كل معركة ، لتقفْ منها على فنون القتال ، انما القصد هو في الاشارة الى ان السيف في الساحات لا يحقق النصر بغير مشحذ ، ولا مشحذَ له سوى الحقِ الهدف .

ان معركة بدر فتحت باب الصراع بين حق وباطل ، وان معركة احد حملت معها عبرة كان مؤداها : ان السيف يخسر ، اذ يتنكب الحق عنه ، فالاهداف الكبيرة لا تستعمل الا السيف المقدودَ من صلبها .

اللحمة العجيبة

ما كان للباطل يوما ان يؤلف جماعات الانسان. ان رصّ المجتمعات البشرية ليس مرجعه مطلقا الى الباطل، فشان الباطل ابدا معكوس، يدخل بين الصفوف ليفتتها.

ليس ذلك بالعجيب، فالباطل ليس تركيزا ينظِّمه الخير، قد تنظمه المنفعة المحدودة، ليخرج عن اطار العدالة الاجتماعية، لذلك فهو اضيقُ من ان يطالَ منفعةً عامة، انه أناني محدود، يذوب في فرديته الضيقة.

ان تنظيم الخير لا يتعرف الى مثل هذا الضيق في النظر. يكفيه مدى، هذا الرحبُ يطلُّ عليه من على عتبة الحب، لينفتح جمالا على عالم الانسان. فسلاحه ابدا عقل نيِّر يدرك تمام الادراك ان الانسان، حتى يكون انسانا، لن يكون له ذلك مطلقا الا في تحقيق مجتمع الانسان.

تلك هي حتمية في تحديد الخير، وكل تنقيص من هذه الشروط يُقوِّي ضلوع الباطل، على حساب ضلوع الانسان، على حساب اضعاف المجتمع... فكل مجتمع تتوافر فيه العدالة الاجتماعية، هو مجتمع نامٍ في رحاب الخير، في رحاب الحب، في رحاب المعرفة الكشافة عن حقيقة الانسان، وبالتالي عن حقيقة الكون. انه مجتمع منيع، انسانه بطل، وسيفه لامع قاطع: لامع

قاطع ضد الباطل ، وضد الباطل لا غير.

ان مجتمعا يتعرف الى الخير ، يكون له ذلك الايمان الفذّ الذي يخلق في الانسان معدن البطولات . في معرض دفاعه عن الخير المقدس . ان هذا الايمان بالخير هو اللحمة العجيبة . لحمةُ النفوس التي منها تبنى مجتمعات الانسان .

بهذه اللحمة راحت تبني الجزيرة العربية المتفككة انسانها الجديد . لقد اصبح الصراع اليوم : بين انسان يلمح الخير ، وانسانٍ لم يلمحه بعد . فالاول اصبح انسانا مؤمنا . ليكون بالتالي شجاعا بطلا ، والثاني غيرُ مؤمن ، يدفعه الباطل المحدود الى معركة محدودة ، للانسان الاول هدف سامٍ فيه عزة النفس التي اصبحت تحتقر المادة ، والموت في سبيلها اعز من العيش دونها - وللانسان الثاني هدف صغير من اجل التلقط بمنفعة لا يوازي الحصولُ عليها فقدانَ الحياة في سبيلها .

من هنا كان الفارق بين متصارعَين : واحدٌ مؤمن وبطل . والثاني غيرُ مؤمن ، ليكون جبانا . فلتكن هنا المقابلة - في معركة الخندق - بين بطل وبطل ، بين علي بن ابي طالب وعمرو بن عبد ود . ان قوة علي تستند على ما يضاعفها ، ولا تستند قوة ابن عبد ود الا على ما يُضعفها . ان صوت علي ، لهجةَ علي ، تصرفَه ، اقدامَه ، هزةَ الحسام في يمينه ، استخفافَه بالخصم وبالموت : كلُّ ذلك ، كان عليه من بوادر هذا الايمان معتمرا به صدره ، ليكون ازاء من قد يفوقه قوة في البدن ، اجلى منه ، حتى في قوة

البدن .

لقد خسئت معركة الخندق . ان الباطل الذي جمع قواه من جميع الاحزاب المغلوبة على امرها ، ليس لها اليوم – من كثرة العدد – ما يثبتها في ساحةٍ تتحلّى بالايمان . لا قيمة لعدد يجمعه الباطل في معركة فرضها الحق ، فرضها الخير ، وسلَّ لها الايمان حساما .

هنالك الباطل – عندما لا تكون للخير عين تراه – يتمكن من ان يفعل فعله الهدام . لقد فعل – حتى ليلة امس – فعلَه هذا ، لقد تُرِكَ يفعل ، ولقد كان فعله التخريبي ظاهرا فوق كل هذه الصحراء . ان الرمال المحروقة ، كان بامكانها ان تصبح واحات ، لو ان عينا لمَّاحة تلقطت بالخير ، وراحت تدل الناس عليه .

بعد خمس سنوات من هِجرة النبي ، لمحت مكة – بعين الباطل – ان ذلك الذي اعتصم بيثرب ، ليس بعيدا عليه الرجوعُ اليها ، يهدمُ على راسها اصنامَهَا ، ويحرقُ اطنابها في عتمات الليالي .

لهذا جمعت نفسها لمعركة فاصلة زحفت بها الى يثرب ، وحملت معها كل يهود الجزيرة : بني قريظة ، بني قينقاع ، بني النضير ، ولكن ...

« ان الباطل كان زهوقا »

الشذاذ

ما انخدع النبي بهم ، هؤلاء الشذاذ المقوقعين في قريظة . كان يعرفهم ، انهم في جسم الامة دمَّل له ثلاثة جذور: جذر من الانكماش ، وجذر من الخداع ، وجذر من الضغينة . ان جذورهم هذه تعفن بها التاريخ ، فكانوا ، اينما حلُّوا ، يوبئون الجو بمكرهم ، وخداعهم ، وتمرغهم بتراب الارض . ما نزلوا في بقاع وطاب لهم فيه اندماج ، فهم كالمكوك ، يقفز على النول من حاشية الى حاشية . ولكنهم كانوا مكوكا لا ينقل على النول خيطا من نسيج ، بل مكرا ، وخداعا ، واطماعا . حتى اعمالُهم ، لم تكن من النوع الذي يوحي الولاء ، فما اشتهر فيهم عامل في ارض ، توليدا شريفا لخيراتها ، مثلما اشتهروا – بشكل عام – بمزاولة اعمال يغلب فيها إقتناص الارباح التي لا قلب فيها ولا وفاء : انهم فقط تجار لمواردَ ما تَعبوا مطلقا في توليدها ، انهم صيارفة ، ومحصلو ربا من اموال ما انفقوا نقطة عرق في سبيل تجميعها ، انهم صاغة ، وبائعو جواهر ، دون ان يكون لهم ضربة معول في منجم ، او اية محاولة غوص وراء الدرر – « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها » – هذه هي مقالة النبي فيهم .

لم يكونوا في الامة منها ، في مشاركة الامة في البناء ، والعمل ، والتوليد . لقد كانوا دائما اغرابا ، يقفزون من قطب الى قطب ،

دون ان يذوبوا . لقد كانوا يحملون معهم تلك القوقعة التي لا يمكن ان تذوب .

لن يكون لليهود وطن وهم المقوقعون . ليس الوطن لغير الذين يذوبون فيه حبا واخلاصا ، وعملا وتوليدا ، في ديمومة الولاء . ولن يكون الوطن لاي من المتنكرين ، اكانوا منه ، ام اليه لاجئين .

ان بني قريظة ، وبني النضير وقينقاع ، ما كانوا اكثر من يهود مشردين ، لم يعرفوا ابدا قيمة التوحيد . ان الذي يوحد ربه ، يكون له الحق الموحَّد ، يكون له الوطن الموحَّد ، يكون له المجتمع الموحَّد ، يكون له الحب ، والاخلاص ، والميل النبيل . اليست فيهم الاية ؟ « الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب ، لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا ، وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون . لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن ينصروهم يولّنَّ الادبار ثم لا ينصرون » .

اجل ، ما انخدع النبي ، لا بيهود قريظة والنضير وقينقاع ، ولا بيهود فدك وخيبر – ولكنه في المبتدأ – سكت عنهم – وانهم في المبتدأ – سايروه .

أنْ يسكتَ عنهم النبي ، فهذه خطته في تذليل العقبات ، الواحدة تلوَ الاخرى . وان يسايروه ، فتلك أيضا خططهم في تشغيلهم الاسافين في قلب الامة . فحمد اليوم – في نظر بني قريظة – ثائر جديد ، وقف فيَ يثرب ليفصل مكة عن يثرب .

ان مدينتين في الحجاز ستتطاحنان ، وسيكون لليهود رقصة محجلة حول الخرائب . ذلك كان هدفا من اهداف بني قريظة ، جعلهم يقفون وقفة المناصر لرجل ليس له اليوم ، لا حولٌ ولا طَوْل . انه ، فيا بعد ، سيتم لهم الاجهاز عليه .

في الساعة التي ظهر لهم فيها تقديرهم الخاطىء ، قلبوا لمحمد ظهر المجن . ان مناصرة المشركين هي لهم – اليوم – اجدى . فليمدوا يدهم الى ابي سفيان ، انهم موحدون ، اليس كذلك ؟ كيف جمعهم التوحيد الى ابي سفيان يعبد خمسين الفا من الاوثان ؟ ولكنهم يهود ، ولكنهم صيارفة ، ولكنهم خداعون ومراؤون ، ولكنهم قتلة وسفاكو دماء !

وسعد بن معاذ ، يا له من بطل ! يتسلم من يد النبي امر الحكم عليهم . ما كان سعد بلا قلب – وهو المؤمن – يستاصل شافة ستمائة من اهل قريظة ، في عملية افناء . ولكن مصلحة الامة تقضي بتطهير الامة من الشذاذ المخربين . ليت العملية كانت أُعم ، لكانت أَبعدَ تحقيقا ، لخير الامة .
سيستسلم – فيا بعد – يهود خيبر ، وستكون فدك هبةً للنبي ... لكان اليهود في طريقهم الى الا نقراض ، لو ان العرب بقوا على خطهم الصاعد ، يزيدون من مناعتهم على طريق الخير والحق .

أنْ يعود اليوم يهودٌ جُدُد ، يضربون اسافينهم في الخواصر ، فذلك مما يشهد ان العرب خسروا كثيرا من مناعتهم ، وخسروا ، بالتالي – عن سيفهم – روعة اللمعان .

سيفُ الحقّ

عندما يتسايح الحق بالسيف ينتصر. ولكنَّ الفعل ليس للسيف مع مطلق الحال ، فهو دائما وابدا لذلك الذي يلمع السيف به – اذ انه ليس للسيف ان يعين الحق ، بل للحق ان ينتخب الحسام.

وحسام الجزيرة ما كان اليوم ماضيا ، لولا ان محمدا بالذات هو الذي يمتشقه : محمد الرسالة ، محمد الحق ، محمد الموحى اليه . يمتشقه في سبيل الحق ، ويغمده أيضا في سبيل الحق ، ليبقى – مع الحالتين – ممتشقا . لان سيف الحق – ابدا – لا يغمد . اما السيف الذي يغمد ، فهو سيف الباطل وان ممتَشَقًا .

وسيف الحق ، اذا اغمد ، اذا خبا ، فهو سيف حقٍّ موهوم ، او سيف حق يخطىءُ حاملُه فهمَ الحق ، فهو – مع الحالتين – حق تنكَّب عنه الفهم والادراك .

ان عديدا من دول العالم تلقطت بالحسام الخادع ، فكان عليها ، ولم يكن لها . فليحصر هنا السبب : في فهم الحق وتعيينه ، في الخدعة الكبرى التي تزعم انها تتلقط بمعرفة الحق ، والحق بين يديها يكبو معها الى حضيض .

ليست سبل الحق غيرَ ايمان به نابعا من صدق الفهم ، وصدق الاخراج . لان الحق ذاتَه هو عقل الانسان الواعي في تدرجه

الدائم نحو توسيع آفاق الفكر. انه خط سباق بين مجتمعات الانسان الى حياض العلم والمعرفة. ان التحقيق الاوسع، هو الانفع والاكمل، وهو الاجدر والابقى.

العلم في مجتمع الانسان، يحقق المجتمع، ولقد قال النبي الكريم: «لا فقر أشدُّ من الجهل، ولا مالَ أعودُ من العقل» — «فضل العلم احبُّ الي من فضل العبادة» — «اربعةٌ تلزمُ كلَّ ذي حجى وعقلٍ في امتي: استماعُ العلم، وحفظُه، ونشرُه، والعملُ به» — «العلماء ورثة الانبياء» — «ساعةٌ من عالمٍ متكيء على فراشه، ينظر في علم، خيرٌ من عبادة العابدين سبعين عاما».

ان العلم هذا هو الذي يعرف الخير، وهو الذي يعيِّن الحق، وهو الذي يُنمي الانسان عمادا لمجتمع فاضل، وهو — وحده — الذي تخصبه النفس من معدنها، بالخُلقِ الكريم، فيتوزع الخير — به — صفاتٍ جميلةً، يتحلى الانسان بها في مجتمعه.

ان العلم الذي كان عند النبي، لم يكن ليفوقه علم. لذلك كان حسامه امضى من أي حسام لمع في فضاء الجزيرة. الم يكن وحدَه الغلّاب! الم يرزم الجزيرة كلَّها الى رحابه! الم يحقق — بانسانها الهزيل — ما ادهش التاريخ، وفرض عليه عمقَ الخشوع!

ذلك هو الحسام الذي يستعمله الحق مقدودا من المعدن الخالد، من معدن المعرفة التي لا تختفي، فهي ماثلة ابدا امام كل عين يدفعها العقل الى التبصر.

فليؤخذ العلم من حقيقة العلم ، من حقيقة الحياة الكاملة . انه علم أَن يُعرف كيف تُرقُّ شفرة السيف ، ولكن العلم الابلغ ، هو ان يُعرفَ كيف يُمتشقُ هذا السيف ، وكيف يُغمد ؟ كيف يشحذ ، وباي شيءٍ يُشحذ ؟ انه علم ان يُحترَم الجار وان يصان ، ولكن العلم الابلغ ، هو ان يُعرفَ لماذا يُحترمُ الغير ، ولماذا يصان ؟ وانه علم أنْ يوحَّدَ الله وان يُخاف ، ولكن العلم الاروع ، هو ان يُعرفَ لماذا التوحيد ، ولماذا المخافة ؟

ان العلم الكامل هو غيرُ العلم المنقوص ، وهو – بكماله – يحقق الشخصية الكاملة في الانسان الذي يعرف ، عندئذ ، كيف ، ومتى ، ولماذا يمتشق او يغمد الحسام .

كل علم في المجتمع – والعلمُ واسع الابواب – لا يكون من هذا النوع ، فهو علم منقوص ، وان حسامه مغلول ومفلول .

صلح الحديبية

ان الذي وافى معتمرا ، جاء يقرع باب مكة : لقد غاب عنها منذ ست سنوات ، وحيدا طريدا ، وعاد اليوم معتمرا ، يحمل على كفه ميزان التكافؤ. ان خلفه جيشا جرارا من اولئك الذين كانت تنبذهم مكة ، تعتبرهم عبيدا تحت متناول سيادتها ، لقد استعبدتهم بزعامتها ، أخضعتهم لسلطانها .

كيف للباطل ان يسود طويلا ؟ ولكن الباطل لا يسود ! ليست هذه هي السيادة لمكة : تذوب عدةَ اجيال من الوجود الا نساني – انها العبد الذي لا قيمة فيه لا نسان – ما سادت الا وهي المسودة – لقد كانت تشرب دائما دموع مآقيها – لقد كانت تعتقد بانها سيّدةُ اولائك العبيد المشردين على هذه الصحراء ، وما كان الرقُّ فيهم الا تجوابا لرق كانت هي تغرق فيه حتى الجبين .

هذه هي حقيقة السيادة : يعود متشحا بها من ذاق الحياة غوصا فيها بعقله وقلبه ، بفكره وشعوره ، بنفسه وخياله . لقد نذر نفسه للسيادة المجردة التي لا تتعرف الى طريق غيرِ طريق الخير والحق والتفاني ، غيرِ طريق الحب والصدق والا خلاص ، غيرِ طريق الصراحة المكشوفة . ان الذين يتبعونه اليوم هم الماخوذون بهذا الايحاء المنظَّف من كل العواهن ، هم الحقيقة التي هجعت منذ الاف السنين تحت دثارات من الجهل والاعياء والخمول ،

هم السيف الذي لم تأخذه بعد يمين ممسوحة بشجاعة .

ما كان انسان الجزيرة لِيُتْهَمَ بجهلٍ نابع من جاهليته ، اكثَرَ مما كان يُتهمُ قادتُهُ بالجهل المستطيل ، الذي يطيب له ان يُطيلَ عمرّ الجهل في الناس ، تطويلا لعمر زعامة . ان كثيرا من الامم يصيبهم هذا الخمول ، ولا يخلصهم منه الا خطٌ يتناولون منه عبقريا : فاذا بالجلوة – لديه – تُثبتُ أنَّ الا نسان هو تلك الطاقةُ التي تهجع ، الى وقت ، ثم تنفجر بين يدي مفجِّر .

لقد اثبت انسان الجزيرة انه مؤهل لمثل هذه الثورات المتكاملة وهو يمشي ، بعد ست سنوات فقط ، وراء قائد يُشرعُه ، في ساحات الوغى ، حساما ، يميته شهيدا ، ليحييه بطلا مؤمنا بخلود القيم ، وبعزة الا نسان .

لو لم يكن صادقا ، لما تضافرت خلفه الحشود المؤمنة التي جعلت كُفته اليوم ترجح على مكة ، ليعقد – مع قريش – صلحا يوقف القتال على حد من المعاهدة المحترمة .

ان المعاهدة ، على ابواب مكة ، ما ارتضت بوضع محمد في كفة التكافؤ مع قريش ، الا لترجِّح هذه الكفة بين ساعة وساعة . ان بيعة الرضوان ما كانت لتجمِّد الكفة على مستوى من التعادل ، فالقضيةُ ، ما راحت تتقدم حتى تتقهقر ، وما جاء النبي الى مكة معتمرا ، لتتجمد قدماه تحت شجرة محدودبة . ان مغانمه كان لها السير النامي ، فهي – من الحياة – حركة الحياة .

فليأخذ عروةُ بنُ مسعود الثقفي عثنونَ النبي ، وليداعبْهَ وهو يفاوضه على ابواب مكة ، فان النبي الحكيم لا يانف من ذلك ، ولو صعب الامر على المغيرة بنِ شعبة . فالنبي ، جاء يمهد للناس كلَّ سبلِ التقرب اليه ، لقد بسط رداءه أكثَرَ من مرة في مجال الترحيب بالناس . فليتبركْ ، رجلٌ عادي كعروة بنِ مسعود ، بلمس عثنون نبي — انما هو يلمس عثنونا تتبرك بلمسه — حتى اليوم — مفارش الاجيال .

وليتمادَ بجهله ممثل قريش ، على ابواب مكة ، يعقد مع محمد بنِ عبد الله وثيقة الصلح ، وليرفض صيغةَ الوثيقة يمليها النبي : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فليفرضها معينة باسم محمد بن عبد الله . ولقد قبل محمد الصيغة المفروضة يمليها سهيل بنُ عمرو القرشي ، ولقد فَرَضَ القبولَ بها على علي الذي اراد ان يكابر ، ان يصمد على عنفوان الحقيقة ، وما درى سهيل ، ان محمدا والرسول ، هما الا ن اسميان لمسمى واحد .

* * *

وتوقف القتال ، تنفيذا لمعاهدة الصلح ، لمدة عشر سنوات ، ولكن الرسالة لم تتوقف . ان سيفها الذي أُغمِدَ ، هو الا ن اروعُ امتشاقا ، اكثرُ لمعانا ، اقطعُ حداً . اليس للحق سيفٌ بلا غمد ! اليس للشمس شعاع ، يلويه الا فق ولا يكسره ! — والحق ؟ اليس له الرأى ؟ اليس له السداد ؟ اليس له الروية ؟

فليشهد توقيعَ مُعاهدة الصلح على ابواب مكة : ابو بكر الصديق ، وعمر بنُ الخطَّاب ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف ، وسعد بنُ ابي وقاص ، وعثمان بنُ عفان ، وابو عبيدة بنُ الجراح ، وعلي بنُ ابي طالب . وليفهموا جميعُهم معنى الصلح على ابواب مكة . ان الغد سيضع ، بين ايديهم ، مصير امة تبنى اليوم بناء حكيما على اسس راشدة متينة ، علَّهم يتمكنون من قيادة الامة - في غد - وفي عيونهم قبس من هذا النبراس .

مؤتة

ربما يكون صلح الحديبية قد مهد السبيل امام زحف الرسالة نحو تحقيق أجلّ. ولكنه لا يزال معاهدة تشطر الصف الى خطين تُلهيهما دائما فروضُ المراقبة. ليست العملية اليوم – بصلح الحديبية – عملية جمع ، انها عمليةُ طرحٍ بالمعنى الصحيح. ولا يدخل الطرح في الحساب الا كما تدخل الجرذان الى محاكة : تقرض النسيج لتلغي قيمة النسيج. ليت ربحي اثنان مع اثنين ، وليس مئة تخسر سبعا وتسعين ...

ان الذي بقي من عملية الطرح بين رقمين متحفظين على ابواب مكة ، هو الذي تجهز به زيد بن حارثة باتجاهه صوب « مؤتة ». لقد حمل في جعبته ثلاثة الاف فقط من سهام النضال ، وكان ، من اذكى « هؤلاء » السهام ، جعفر بن ابي طالب ، وعبدُ الله بنُ رواحة ، والمؤمن الجديد خالد بنُ الوليد الذي سيلمع مجده – فيما بعد – بسيف الاسلام.

لم تكن عملية الطرح المُلْغي ، وحدَهَا قربَ مكة ، تخفف من قيمة الزحف الى الشام ، ففي الشام أيضا كانت عملية الطرح هذه تقطِّع صلات الارحام. ان العربَ هناك ، الذين تربطهم بالجزيرة : وحدةُ القربى ، ووحدةُ اللغة ، ووحدةُ المصالح ، ووحدةُ المصير – تشهد على ذلك . منذ الاف السنين ، كلُّ خطوط

القوافل – كانوا عمالا لذلك الاجنبي ، يعفرون بين يديه عزة الجبين . ان بين يدي شُرحبيل ، الاميرِ العربي الغساني ، ضُربَ عنقُ رسولِ النبي الحارثِ بنِ عمير ، وهو يحمل الى هرقل رسالةَ الاسلام . ان العرب المتنصرة من بكر ولخم وجزام ، كانوا أيضا عمادَ الجيش الذي يحافظ به هرقل على الحدود المغتصبة .

أنْ يمدَّ محمدٌ ببصره الى هذا الافق العربي الجريح ، كان من ضمن المخطط الراشد ، في عملية توحيد الصف وتنظيفه من كل التسربات التي تفقده اللحمة . ان الوجود الروماني ، في غربي الجزيرة ، ليس اقلَّ خطرا من وجود الاكاسرة في شرقيها . كِلا الوجودين مغتصبٌ مستعبد ، ان مناعة الامة وربطَهَا بالصواب الخيّر هما الكفيلان بنبذ هذا الغريب عنها .

منذ ستمائة سنة جاءت المحاولة – مع عيسى – تحرك الانسأن الى وعي عزة نفسه . لم تتوصل الى حقيقة فعلها ، لا في مهد مولدها ، ولا في المدى المجاور التي راحت تطوف فيه ، ولكنها ستجد – ان لم يكن اليوم في مؤتة ، ففي غد ، في رحاب الشام – ما يجعلها تساند اختها في التلبية الكبرى . ان المصدر الجامع هو الهادف الى توحيد يعتصم بالخير ، والحق ، والصواب .

ان الحق يهجع مع الهاجعين عنه . ان فعل الهجوع هذا كانت به خسارة المعركة في « مؤتة » . ان دماء عبدِ الله بن رواحة راحت تسقي ارضَ مشارف البلقاء ، وزيد بنُ حارثة طرح نفسه طرحا الى ساحة الاستشهاد ، لتبقى بطولةُ جعفر بنِ ابي طالب

من النوع الغزير في عالم البطولات : فهو الذي تسلم الراية بيمينه فاقتُطِعَتْ ، فاحتملها بيساره فاقتُطِعَتْ ، فاحتضنها بصدره ، بين ذراعين مقطوعٌ ساعداهما ، ثم لفظ الانفاس .

لقد ولى خالد بن الوليد ، بالراية الادبار. في غدٍ سيعود الى الشام ليكمل المعركة ، بعد ان تكون مكة قد انقلب رقمها الطارح الى رقم معه علامة جمْعٍ ، في عملية الحساب الجامعة التي سوف تحقق النصر الكبير.

مسلة

على رِسْلِكِ يا مكة ! ان آلامك الآن هي الأمُ الدمَّل تحت المبضع ، حانت له – تحت يد الجراح – ضربة المبضع .

لم تكن لكِ البطولة – وانت تتحملين القحط يملأ خاصرتيك – مثلما هي لك اليوم ، تفتشين بها عن يد الجراح تلمع في يده نصلة المبضع .

هنيئا لك الساعة الباكرة . ما انتظرتها عشرَ سنين . حولان فقط ضاق فيهما صبرُك ، فطرحت نفسك – على شوق – في الساحة التي التهبت فيها مآقيك .

من هم بنو بكر؟ ومن هم بنو خُزاعة ؟ يُغير بعضهُم على بعض ، ليسند ابو سفيان بني خزاعة ! حلف ؟ : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبدالمطلب بن هاشم لخزاعة » أَلَمْ يشاهدْ بعدُ – يا مكة – أَبو سفيانَ فيك ، كيف تذوب القبائل والحواشي في المجدل الصاعد ؟ – في مساءِ امس ، شاهدتِ يا مكةُ كيف – الى مؤْتة – تنجدل القبائل : الى هدفٍ جليل ، وليس الى غزو حقير ، يسوق المجدُ اقدامَ البواسل .

ولقد سئمت يا مكة ، كلٌّ ما فيك اليومَ يشير الى كونك قد سئمت ، حتى ابو سفيانَ فيك قد سئم . سئمت اجترار العفن على مضغٍ حقود ، سئمت اغبرةَ الدروب تسدُّ عليك فتحات الدروب ،

سئمت السيوفَ المشرُفيَّةَ تقصفُّها زنودُك في نحورك ، سئمت السراب تَعِبّين منه شرابَك ، سئمت القَحْطَ تصبُّينَ فيه جمودَك .

منذ اربعة عقود وانت على موعد مبهم مع ذلك الفتى الذي كان يزرع دروبَك بالتأمل ، بالصمت والسكون ، بالتأهب والتحفز . لقد لفَّك – منذ ذلك الوقت – بالاسرار والالغاز ، فكنت بين يديه حائرة : هل انه غلام يتلاعب به القدر؟ ام انه نسم سينقلب الى زعزع ! هل هو زعامة من زعاماتك ، باكرة ؟ – ام هو طموح تضيق عليه هذه البيد !

وكان لك الغرور ، وكانت لك وحشة المبهم ، وكانت لك القوقعة ، حَوْمَلْتِهَا من كل هذا الوِسْع من بِيْدِك ، فَتَغَلَّفْتِ بها ، كما تَتَغَلَّفُ بطبقتين السلحفى .

ولقد طاردت فتاك : خِفْتِ فيه روعةَ المُبهم – خفتِ فيه اللطف والدعة – خفتِ في عينيه العمق وروعةَ الاغوار – خفتِ فيه الشوقَ والتوقَ إلى قولة الحق واجلال الصواب .

ما كذبتك – يا مكة – المخاوف ، فهي من حس الطفولة ، تخاف من الدواء طعمَ المرارة .

ولكنك اليوم – وعينك ترى – اصبحت اكثر رشدا ، ارهف حسا ، واقل صبرا – فافتحي للقادم الزاحف صدرك رحبا .

ساحة المجد

اليوم وُصلت مكة بيثرب ، رُبطت ربطا بحبال الشمس . اليومَ عَرَفَتْ انها كانت تملأ دنياها هزلا حزينا وبؤسا سقيما . في هذه الساعة - تُطبق عليها من الابواب المشرعة زحوفات السنا - أَدركت انها كانت لغواً على الهوامش ، انها كانت سرابا يشوي ، أَنها كانت غبارا يُعمي ، انها كانت بُحَّةً في حنجرة التاريخ ، وغرغرة في حلق الحشرجة .

ايةُ راية اليوم ، بيد الزبير ، يغرزها بالحجون - في اعلى مكة - تخفق فيها وحدةُ الجزيرة : منورةً ، مشرقة ، سنية ، عطوفة ، كريمة ، كانها مشالح الخير تهلهل في فضاء تلتحم فيه الارض : بالسماء ، بالكواكب ، بالآفاق ، بالسحب ، بالخيال ، بالحق ، بالامل ، بالعطف ، بالحب ، بالانسان ، وبالتربة التي تمتص منها الان - رحيقَهَا - عظمةُ الانسان .

واية قيمة لمكة اليوم ، يدخلها من اسفل ، خالد بنُ الوليد ، في يمينه حسام ، ستظل حنوته تلمع على طول حنوة الهِلال الممتدِ من فوق ايوانِ كسرى في العراق ، الى بلاط هرقل في مدينة الشام ، يُلهبها بحسامٍ ، كان - حتى ليلة امس - حسامنا مقصوفا ، حتى بالحق التهب !

وايةُ روعة لمكةَ اليوم ، يدخلها الفاتح العظيم على ظهر ناقته

القصواء ، يمشي وئيدا ، وهو يحمل اليها اثقال الدهور : من غار حراء – من غور التامل والسكون – من غور التبحر والتبصر – من غور الحب والتفاني – من غور العقل الملتهب بفيوض السنا – من غور الادراك الملتحم بالخير والمتفجر بالحق والجمال !

وأيُّ جلال لمكة ! تقبِّلُ شفرة السيف ، لتبتلَّ شفتاها بالدم المسكوب على حدَّيه ، فتستطعمَ برحيق المجد الذي تدفئه حرارة الايمان .

وايةُ عظمة لمكة ! تدوس اليوم بنعلها : جبين هبل ، جبين اللات ، جبين العزى ، جبين الآلهة ، جبين الاصنام والاوثان ، لتخرَّ – في السجدة الواحدة : امام الواحد القهار – امام الآله الاعظم – امام الخالق الاوحد – امام القدوس – امام الرهيب – امام الاقوى – امام الامجد والامثل والاكبر – أمام الخير !

وايةُ وحدةٍ لمكة ! يدخلها الفاتح رافعا قلبه على رأس حسامه ، يوزع الحبَّ والغفران ، العطفَ والامان : ابو سفيان ، عدُو الامس يندم ، فهو آمن – الوحشي ، قاتلُ حمزة ، يستغفر ، فهو آمن – « يا معشرَ قريش ويا اهل مكة ، ما ترون اني فاعل بكم ؟ – قالوا : – اخ كريم وابن اخٍ كريم ، اذهبوا فانتم الطلقاء » ، « هون عليك ، فاني لست بملكٍ ، انما انا ابنُ امرأة من قريش كانت تأكل القديد » – هكذا هدأَ روعَ رجلٍ وقف مرتعدا بين يديه .

فليبتسم لك المجد يا مكة ، فانت اليوم على العتبة المنورة ! ان بيدَكِ بين يديك : فاما ان تجعلي حِرَّاتكِ واحات ، واما ان تقلبي واحاتكِ حِرَّات ، فاقلبي التاريخ ، ان لديك الان – من مجادلك العظيمة – ما يجعلك جديرة بصياغة التاريخ .

٦ – تصفية

الغرانيق

مالك ابن عوف ودريد بن الصمة

خميدة الردة

الطائف

تبوك

سفانة ابنة حاتم الطائي

لملمة الحواشي

تقييم

حجة الوداع

الغرانيق

ما بالُ تلك الغرانيق تنكبُّ الى الارض مفتَّتة الخواصر؟ يتلقفها الغبار في جوّ المعركة ، وتدوسها الخيول المحمحمة بسنابكها كأنها الهوانُ الذي لا يلوذ بغير الهشيم ! من قال عنها : « انها الغرانيق وشفاعتها ترتجى » ! اين هي اللات ، والعزى ، ومناةُ الثالثة ، الغرانيقُ ذواتُ الشفاعة ! اين هي الحُرُمات ! اين هي السدانةُ تحمي ثلاثَمِئةٍ وستينَ عشنونا تتربع حول الكعبة ، كأنها الهول الجاثم على صدر مكة ، يقسم الجزيرة الى الف بطن من البطون الخاوية ! فلتثبتْ في الساحة التي ظهر فيها الحق ، وزهِقَ فيها الباطل ! فَلْتُثْبِتْ شفاعَتَهَا امام الايمان بعدم شفاعتها ! فلتعتصمْ بجمالها امام القوة التي تشير الى قبحها ! فلتجدُلْ من عددها قوةً توازي قوة الواحدِ المجدول ! ! !

مالك ابن عوف ودريد بن الصمة

الم تُبصرْ بعد ؟ إنَّ كثيرا مثلك تشبثوا بالعمى ، عضوا عليه بارياف عيونهم ... لا تستلذُّ الرمدَ عينٌ مقروحة ، انما الحس الجبان يخاف جرّة المغسل .

بين يديك هوازن وثقيف ، ولك في وادي حنين ، ذاتُ انواط ، وهي سدرتك الخضراء ، وهي كل مالك من مظاهر المجد والفخار... لاية سدرة ستذبح القرابين ؟ وفي غد تصبح ذات انواطك قاعا صفصفا ...

ام انك تريد ان تعتصم بحنين – في سدرتك – لتجعل منها ركيزة انطلاق على العالم ؟ – ما عرفتك الامجاد – يا ابن عوف – جوَّابًا في آفاق المعرفة ، ولا شعرت بك الجزيرة غزّالا في محاكاتها ، ولست في بني النضر ، يلبيك على جهالة ، بنو نصر وبنو جشّم ، الا لتزيد جهلك عيًّا ، وتركبَ ، في القوم ، المركبَ الخشن .

لقد كان ، بين رجالك ، « ابو جِرول » ، وهو بطل ، كما تعلم ونعلم ، ولكن البطولةَ اليومَ هي من غير طراز « ابي جرول » . ربما تكون لك – من هنا – الخدعة التي انخدع بها ، قبلَك ، « عمرو بن عبد ود » و « مرحب » و « عزُّور » . كلُّ بطولة من هذا النوع ، هي الجبنُ عينُه ، يا ابن عوف ، فهي ترتكز على ساعدٍ

كساعد الضبّع . ان البطولةَ اليوم لا تعرف غير العقل المؤمن بالانسان ، وان لها حساما لا يستعير من الزند بريقه ، بل يُضفي على الزند هذا البريق .

ولقد كان اولَ مستشار عندك ، « دريدُ ابنُ الصِمّة » . كنت تظن ان الخبرة تعمق مع عمق العمر : فدريد ، بين رجالك ، ربما يكون قد قفز فوق المئة من السنين ، فهو الخبير الكشاف عن الاسرار ، وهو الغوّاص في ميدان التجارب ... قد يكون ذلك : فالخبرة هي وليدة التجارب ، والتجارب هي ابنة الزمن . ولكن ذلك لا يعني ان الزمن ينشر العبر على كفيه ، فالعقل هو الذي يجني من الوقت صدق النظر ، وربما لا يحتاج كثيرا من الزمن ، فهو قاعدة لخيال يسبق مرور الزمن ، وهو الذي يخصب الزمن .

ان ابن الصمّة ، ولو اعمى ، كان يعرف – اذ نزلتم باوطاس ، قرب حنين – انكم نزلتم في ارض هي نعمَ مجالِ الخيل : « لا حَزْنٌ ولا ضَرْس » و« لا سهل ولا دَهْس » – وتفسير ذلك انها اكمة خشنة وليست سهلا ، وانها ارض لا برمل ولا بتراب ، وكان يعرف رغاء البعير ، ونهاق الحمار ، وثغاء الشاة ، ولكنه – رغما عن عمره الطويل – لم يلمح في طريقه شعاعا دافئا من تلك النار التي يُخبَزُ عليها رغيفٌ طيب ، ولا بلَّ شفتيه بقطرة ماء من تلك الينابيع التي تروي عطشَ ظامىء .

ما كنت وحدك الجاهل المخدوع ، يا ابن عوف . ان الجزيرة كلها عاشت الخدعة الطويلة على شعور مريض . كدت تنتصر

في وادي حنين ، كاد ينتصر ماضيك الفارغ ، كاد ينتصر في تثبيت نفسه على محوره الأجوف ، لولا قلةٌ مؤمنة اخذت على عاتقها تغيير دفة التاريخ .

عشرةٌ لم يرضوا بالهزيمة في حنين ، والوف سواهم لم يفهموا لا النصر ولا الهزيمة ، لقد كانوا يقاتلون في شعاب حنين ، دون ان يدروا لماذا ، وكيف ، واين يقاتلون . ربما كان افهمَهُم ابنُ عوف ، في الوقت الذي كان فيه اتفهَهُم ...

ربما كانت الكثرة ايضا في حنين ، سببا في انقلاب النصر الى هزيمة ، وفي تحويل الهزيمة الى نصر – والا فاي معنى للآية تنزل واصفة معركة جنين ؟ – « ويوم حنين ، اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رُحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم انزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وانزل جنودا لم تروها » .

اجل ، لقد انزل الله جنودا لم يرها ابنُ عوف ، لم يدرك انها موجودة ، أنها مشرعةٌ على رؤوس الاسنة . ذلك هو التراب : يلبث غبارا ادوسه ، الى ان اعرف كيف اقدسه جمالا في بياض الزنبقة ، واريجا في فوحة العنبر ، وتلك هي البطولات ينشرها الحق وميضا مبهرا على شفرات الاسنّة .

خميرة الردّة

في معركة حنين : شهدت الساحة انتصارين ، وشهدت انهزامين ، كان ذلك بالتبادل بين النبي ومالك بن عوف . ولقد كانت البداية لمالك والنهايةُ عليه — فانسحب ابنُ عوف الى الطائف ، وقُتل « ابو جِرول » ، ولفظ العجوز — « ابن الصمّة » — انفاسه .

اما ابو سفيان الذي رافق الركب من مكة ، ابو سفيان الذي شاهد بعينيه كيف كبا الزمن « بهبل » ، كيف فقئت عيناه وتقطعت اوصاله . إنَّ « ابا سفيان بنَ حرب » ، المؤمنُ الجديد ، المستسلم للايمان الجديد ، المستجيرُ والمجار ، المستامِنُ والمؤمَّن ، الزاحف الجديد مع الركب الجديد ، فانه رأى الهزيمة الاولى بعينه الاولى ، بقلبه الاول ، بحقده ، بماضيه ، برمد عينيه . هكذا قال عن الهزيمة : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر والازلامُ معه في كَنَانته »

يا شقاء مستقبلِ الجزيرة ، ان من اشقى مطاميرها خميرةَ الردة ! ان الرسالةَ الجديدة ستحقق الاعاجيب ، والردةُ ايضا ، ستفعل فعلها المذهل ! ! !

الطائف

هنا كان لمالك بنِ عوف موعدٌ آخر، جعله يبصر. هل ان الهزيمة حققت له جلوة النظر، ام ان حلمَ النبي أمَّنَ له صدقَ الاستجابة ؟ ولكن النبي ما جاء ينتقم، فهو المنقذ الخلاق.

هذا هو آخر حصنٍ لثقيف تعتصم به. لقد شربت تربةُ «وج» دماء نافع بن غيلان بن متعب، لقد حطَّمه سيفُ علي، كما حطم على رأسه كلَّ اصنام الطائف.

هكذا انكشفت الجزيرة، بسقوط آخر حصن من حصونها بقي يقاوم حتى اللحظة الاخيرة. كلُّ السبي الذي تجمع في «الجعرانة» وزعه النبي على المؤلَّفة قلوبُهُمْ، على المستسلمين بعد قتال، على الموتورين الذين ما تنازلوا عن امجاد سياداتهم التقليدية الا في ساحات السيف. وُزعت عليهم المغانم، حتى يشبعوا من الشيء الذي يجذبهم اليه. لقد حشا افواههم بالتراب الذي لم يعرفوا ان يشمُّوا منه عطور السواسن.

ما تمت الرسالة بعد، لقد انتصرت في ساحة السيف، ولقد كان الحق وميضَ هذا السيف حتى انتصر. ولكن العملَ الجبار، العملَ البنّاء، عليه اليوم ان يمتشق المنتَصرَ عليهم سيفًا آخر، له من اللحمة الكريمة حدٌّ وضّاء.

تبوك

ان أول نقرة في « مؤتة » على بوابة الشام ، قطعت يد الناقر. لست اظن ان شُرحبيل هو الذي فتك – فعلا – بالحارث بن عمير. لقد كان خلفه بنو غسان ، وبكر ، ولخم ، وخزام. هؤلاء ايضا لم يكونوا وحدهم في الساحة التي امتصت دماء القادة الشهداء : جعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وزيد بنَ حارثة. ان مكة بالفعل ، هي التي صبغت ذلك الافق بالجراح ، لقد كانت وحدها الملهاةَ عن تمكين الجهاد من فعله الحاسم.

وقد سقطت مكة ... فان الافق اليوم – في تبوك – يتحسس بكثير من الوهج الذي اكتسح مكة ، ثم ثقيف ، وهوازن. ان الوحدة في الجزيرة راحت تزحف محملة بالمعنى والقيمة. ويحنّة بنُ رؤية ، صاحبُ إيلة ، لن يكون له مناص من مدِّ يد المصالحة ، انه يصافح البطولة التي تفرض عليه ثقلا من المهابة.

وخالدُ بنُ الوليد – وفي يمناه الان حسام لامع – لن يهرب كما هرب بالامس. ان مكة ، وهوازن ، والطائف ، تلمع جميعُهَا على حدي حسامه ، وانه – بها ، في هذه اللحظة – يُخضع أُكيدرَ بنَ عبدِ الملك الكِندي ، ملكَ دومةِ الجندل ، وبها يتناولُ قَبَاءَ الديباج عن كتفي حسَّان ، أخي اكيدر ، بعد ان يتركه مجندلاً – ليأخذ القَبَاء على رأس حسامه ، فيقدمه هدية للنبيّ.

هذا هو الفارق بين مؤتة وتبوك : خيط من نسيج وصل المدينة بمكة ، فاذا الخيطُ سلكٌ نقل المهابة والبطولة ، ونقل العظمة التي ستفتح الشام ، وتصل الارحام بالأرحام ، والتي ستصوغ روعة التاريخ .

سفانة ابنة حاتم الطائي

لقد بقي في بلاد طيّ صنم اسمه « فلس » لا قيمة له ، الا انه بقي هناك يشوّه سمعة الجزيرة . عيب على طيّ – وفيها رجل كريم كحاتم – ان يشوّه وجهها « فلس » حقير .

على عليّ بن ابي طالب ان يوصل مدى الرسالة الجديدة الى طيّ ، الى هذا الانسان فيها الذي يستحق الاهتمام .

واسرت قبيلة طيّ – وكانت سفّانة ابنةُ حاتم رسولةَ اخيها الى النبي ، طلبت – بلسان بني قومها – العفو واخلاء السبيل ، حتى لا يشمت بها العرب وهي ابنة حاتم ، ولقد قالت للنبي : « كان ابي سيدَ القوم ، وكان يحمي الغرماء ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويَقري الضيف ، ويُفشي السلام . » فقال لها النبي : « هذه صفة المؤمن حقا ، لو كان ابوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فان اباها يحب مكارم الاخلاق » .

فلتُبْنَ الجزيرة الجديدة ، بروح اسلام جديد ، يشهد لحاتم الطائيّ بانه مسلم بالسجية ، بمكارم الاخلاق .

ملحمة الحواشي

ولن تترك اليمن ساحة نزاع بين الحبشة واكاسرة الفرس ، بين غربٍ يمثلُه هرقل ، وشرق يسيطر عليه انوشروان : فالشمال والجنوب هما جناحا الجزيرة اللذان بهما سيسبل المجد .

وتمّ – على يد عليّ ايضا – اسلام اليمن ، الارضِ السعيدة ، الارضِ الخيرةِ المعطاء – وتمّ بالتالي التوحيد مع التوحيد ، وراح العمل المجدي يضيّق مجال الحِرَّات ، يخنق الغبار في رقعة الرُبع الخالي ، يقلِّص الشح ليحصره في النفود والدهناء ، وراح يفتح الآفاق امام الجزيرة المؤمنة – الان – بالحياة .

ان الجسم الذي يطيب قلبه تطيب اطرافه ، هكذا راحت تمتد العافية الى الأطراف : من المدينة ، الى مكة ، الى جدة ، الى صنعاء ، الى عدن ، الى حضرموت ، الى عمان ، الى القطيف ، الى تغلب ، الى غسان .

وراحت مع العافية توحي المهابة : على النجاشيّ ، على هرقل ، على كسرى ، على باذان عامل كسرى في اليمن ، على المقوقس ملك القبط ، يجلُّ النبي ويحترمه فيرسل اليه هديةً « دلدل » البغلةَ البيضاء التي خاض عليها النبي معركة وادي « حنين » ، ويزف اليه ماريا القبطية ، فيبني بها النبي لينجب ابنه ابراهيم .

كل هؤلاء العواهل وصلت اليهم مهابة الرسالة الجديدة ، تدفعها الجزيرة مشعةً من قلب وحدتها ، من نظرتها الجديدة الى الحق والخير والجمال ، من صفها المرصوص ، من نضيدها المجموع في خيطها المحبوك على المغزل العاقل . .

الى كسرى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسولِهِ ، وشهدَ أنْ لا اله الا اللهُ وحدَه ، لا شريك له ، وأَنَّ محمدًا عبدُه ورسوله ، ادعوك برعاية الله فاني انا رسولُ الله الى الناس كافة ... أَسلِمْ تسلم ، فان ابيت فعليك اثمُ المجوس الذين هم اتباعك .

الى النجاشيّ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسولِ الله الى النجاشي ملك الحبشة

سلام انت (انت سالم) فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، واشهد ان عيسى بنَ مريم روحُ الله وكلمتُه ، القاها الى مريمَ البتولِ ، الطيبة ، الحصينةِ ، فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونعمته ، كما خلق ادم بيده ، اني ادعوك الى الله وحدَه لا شريك له ، والموالاةِ على طاعته ،

وان تتبعني وتؤمنَ بالذي جاءني ، فاني رسول الله واني ادعوك وجنودَك الى الله عز وجل ، وقد بَلَّغتُ ونصَحْتُ فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

فلترجع الى الوراء حدود فارس ، ولتقفز البحرَ تخومُ الروم ، ولترسِّخْ اقدامها الحبشة في ملكها المستقر : لا تهدده من الشرق فارس ، ولا تسنده من الخلف بيزنطيا — ولتترك اليمن لاهل اليمن : ان الشمال اليوم ، ليس غير الجنوب في وحدة الحق ، ووحدة العمل ، ووحدة المصير — ان القوة الجديدة خلقت من نفسها ميزان التعادل ، وفرضت مهابَتَها على العالم .

تقييم

لقد ولد في دار ابن يوسف اطفال غير محمد – ما هي اسماؤهم . ؟ لا انا أدري ولا التأريخ يدري . وهنالك دور اخرى كانت تجاور الدار ، هي دور من ؟ وكم من الاطفال ولد فيها ؟ لا انا ادري ولا التأريخ ايضا يدري – ولكني ادرك ان دار ابن يوسف ما كان لها ان تعيش في التاريخ لو ان الذي ولد فيها ما كان من صناع التاريخ .

ليس هذا شأنَ الدار فقط ، بل شان ثويبية ايضا ، مثلما هو شأن حليمة السعدية وام أيمن ، مثلما هو – حتى – شان ام محمد ، مثلما هو ايضا شان مسروح ، ومثلما هو – حتى – شأن عبد الله ابي محمد .

تلك هي العظمة التي لا تكاد تلمح نفسها حتى تنير حولها الدروب ، حتى تترك من اشعاعاتها ما يلون الاحداث ، ويسم الوجود ، ويحفر خطوط المعاني ، ويعين قيمة الوقت ، ويحصي خطوات الزمان .

حتى آمنة ، لكانت لبثت وحدها تناجي طفلها في حضنها ينوِّر عينيها بالحب العجيب – لكان انطفأ اسم ثويبية من الوجود ، واسم ام ايمن – لكانت حليمة السعدية تحت كثافة الف طبقة من طبقات الغبار التي غلفت ملايين الخيام والاطناب في قلب البادية – لكانت الريح قد اقتلعت الوفًا من الهوادج كالهودج

الذي كانت تعتليه خديجة في روحاتها وجيئاتها على دروب الاسفار... لو ان الطفل الذي ولد في دار ابن يوسف ، ليس هو ذاته الذي مشى على تلك الدروب .

وذلك الطفل ، لكان ترعرع حيث ربي ، ودفن حيث قبض . مثله مثل الملايين من الناس في الجزيرة : ولدوا ، وعاشوا ، وماتوا ، ليبقوا في ارض الجزيرة غبارا يزحم جوَّ الجزيرة – لو انه لم يحمل في عينيه بريق الخلود ، ولم يمضغ افاويه التراب ، ولم يشرب دموع السحب .

وهذا العظيم ، لكان شانه شانَ معظم العباقرة : يقدمون الفلسفات والنظريات على اطباق ، والحلول على هوامش ، ليبقوا مع التاريخ في جولات تأكل السِجال وتعيش على مزايدات ومناقصات ، مع شيء من اللمعان وكثير من الخبو – لو انه لم ياكل الحقَّ على صواني الظلم والاضطهاد ، ولم يشرب الجمال مقطورا من جفاف العيش الملفوح بالبؤس والحرمان ، ولم يمش الدروب بحفاء قدميه ، ولم يَرْقَ المصاعد بمتانة ساعديه ، ولم يرفع عماد المجد على منكبيه ، ولم يعانق النور بارياف مقلتيه .

وهذا المشترع ، لكان شأنه شانَ اغلب المشترعين ، يصنفون الوجود : ارضا تقاس بباع ، وسماء تصبُّ في صاع ، وبحرا يكال بصدفة ، لتغص بالدساتير ظلمات الكتب . وتفنى الارض ولا تعدل البوع ، وتنطفيء الشمس ولا تستنير الصوع ، ويجف البحر قبل أنْ تَنْهَلَ الاصداف – لولا ان هذا المشترع ما عجن الشاطيء

بالسحاب ، ودغم السحاب بالشاطىء — فلا باع ولا صاع ولا صدفة — فالبوع والصوع والاصداف وحدة كلها في ميزان العقل تغرف الخير : فيه قسم من سماء ، وفيه قسم من تراب ، لتنمو في القبضة المؤتلفة نبتة العنبر ، فيها من التراب وريقاتها الخضراء ، وفيها من السماء ذياك الشذا .

ما يبست على كفه الارض ، ولا ماعت في عينيه الجنان ، بل لفّها كلها بالعجينة المخبوزة ، يساند بعضها بعضًا تكافوء القيمة — ليبقى شأنه فيها مربوطا بها خلودا في خلود .

وهذا المصلح الفنان ، لكان شأنه شانَ معظم المصلحين : يطيبون الموائد حتى يكونوا عليها المتصدرين ، ويسوقون المجتمع حتى يكونوا عليه المتزعمين . وتجفُّ الموائد فيجوعون ، ويهبط المجتمع فيذوبون — لو انه ما اتخم الموائد من كرمه ، وما بنى المجتمع من ايمانه : جنيا على كف ، وسعيا على قدم ، ونزفا من دم ، وسنادا من فهم ، وبذلا من شوق وتوق ومحبة ، فكان له المجتمع المحقَّق .

وهذا الرسول ، لكان شانه شان اغلب الرسل الذين يؤدون مهماتهم ويرجعون لا عليهم ولا لهم ، كما تفعل الانابيب : تنقل من طرف الى طرف ما يستودعها الشاحن ، لتأخذه وتوصله ، نقلا وتفريغا — لو انه لم يكن رسولا ذواقا حمل الرسالة امتصاصا ، وبلّغها كيفية ومقدارا ، فكان له من عمق امتصاصه فهم التبلّغ السامي ، وفهم التبلغ الملّون بالاخراج والاداء ، اخذا وعطاء ، فاذا

به الرسول الذي لا تنتهي مهمته .

وهذا التقي ، لكان شأنه شأنَ بعض المتصوفة : يسجدون على الارض ويرفعون اكفًّا الى السماء ، يستمطرون النعمة بالصلاة ، ويذيبون اوصالهم بالتقشف ، صابرين الى ان تذوب الارض حنينا الى الصفاء – لو انه ما سجد على الارض وسجدت معه السماء ، ولو انه ما رأى ان الارض لا يلزمها ان تذوب ، بل ان تُسْكَبَ عليها شآبيب السماء ، فالارض في نظره ، هي المعجن ، والسماء هي مرواة الطحين – هكذا كان عجانا يعجن الارض بالكوثر ، فلا العجين ينشف ولا ينضب ذياك المعين .

وهذا الانسان الكبير ، لكان شانه شان كل انسان ياكل الخبز ، ويشرب الماء ، ويمشي بقدمين الى حتف حزين ، لو انه ما فهم الانسان في قيمة الروح ، وان عزة النفس فيه هي طريقه الى المجد والخلود ، وان له مدارا عظيما يصون له خطوط الوصول – لهذا آمن بالانسان قيمة ، وآمن بالمجتمع حصنا يتم فيه الى المعرفة البلوغ ، ولهذا اذاب الانسان في الجزيرة – في البوتقة الكبرى – توحيدا مطلقا جمعه بالخير ، وصانه بالحق ، وزينّه بالجمال – فاذا طريق الانسان الى الخلود هو خلود الانسان في القيم .

وهذا المجتمعيّ الباهر ، لكان شأنه شانَ ايّ عالم اجتماعيّ ، يدرس الانسان : على شاطىء بحر ، او على سفح جبل ، او في منبسط سهل ، او فوق امتداد صحراء – ليكون كل مجتمع من

مجتمعات الانسان قوقعة في عصبية ، تجهل الانفتاح ، وتكفر بقيمة الانسان – لو انه لم يدرس الانسان قيمة ينفحها الرشد بالتقوى تفجيرا للخير الذي يصون المجتمعات ضمن حدودها ، في نطاق التعارف ، والترافق ، والتعاون ، لما فيه نفع الانسان ، اينما وجد الانسان . هكذا امتد انسان محمد ، يلحم المجتمعات البشرية بلحمة التقوى الخيرة التي تجعل الانسان اخا للانسان في رحاب الحرية العاقلة التي هي رحم الانسان .

محجّة الوداع

ما ملّك وجود الجزيرة ايها المودع ! ولن يَملّكَ مطلقا وجود الانسان ! فاذهب الى مكة ، الى منى ، الى عرفات ، واذبح الهدي ، واجعل التقليد سنّة ... صلّ ، حتى اصلي معك ... اوصني بالزكاة ، بالحج ، بالصوم ، بالعبادة ، بالتقوى ، بالسجود ، بكل الفروض ، فان قدميّ الهزيلتين هما باشد الحاجة الى طريق مرسوم ومرصوف ، حتى لا تضيع مني على الطريق ، نقلة القدم . تلك هي دروبك : لقد مشيتها امامي بقدميك ، اشرت اليها باصبعك ، سكبت عليها من مقلتيك ، نوّرتها بعينيك – فاصبحت القدوة ، واصبحت المثال . شدّد عليَّ الوصيّة – فاني غريق في متاهاتي – اصبحت اومن بك رزّاما – لقد اكملت لي بفضل الله ديني – فهلا اكملت انا في الله وفيك يقيني ...

اليست لك يا عظيم الحكمة ؟

« ما اخاف على امتي الفقر ، ولكني اخاف عليها سوء التدبير »

سلام الله عليك ايها المودع .

يا شاطئًا هضم السحاب ،

ويا سحابا عجن الشاطىء ...

الخاتمة

قبل الغروب

وماذا قبل الغروب؟ قبل ان يرحل النازل عن ارض كانت تربتها غبارا واديمها سرابا!

لقد تمكّن من عجن هذا الغبار، ومن تندية هذا السراب. لقد بسط على الشاطىء ألناشف اذيال السحب. لم تعد الحِرّات تتقلّى بهجيرها – لقد ظلّلها باسراب الغمام.

ذلك عمر افناه فوق التراب: يعرك العجين، ويفجّر المساقي: يد في الطحين ويد في المعين – يُعَلِّمُ كيف يؤكل الزاد، ويُعَلِّمُ كيف تستسقى المناهل.

وكان للجزيرة شبع حول قصاعه، وكان لها ريٌّ حول حياضه:

لطمته بكفٍّ من تراب فمزّنها بالسحاب –

كانت بلا كتاب فجاءها بالكتاب –

كانت تشردها القوافل فعبد اليها خطوط القوافل –

كانت هزيلة الانسان فعزّز فيها وجود الانسان.

ماذا عليه ان يفعل قبل ان تطويه بسط السحاب؟

– ان لا يرحل؟ حتى يبقى للجزيرة ظلّ نديان؟

– ان يبقى؟ حتى يبقى للجزيرة خطها الصاعد؟

– ولكنه بشر – كما قال – وان يكن نبيا ورسولا –

– لا بد ان تطويه كفُّ المخاطف ...

– ولكنه ترك حوله كلَّ هذا الهزيز :

– مع القواعد ...

– مع السنن ...

– مع الحكمة ...

– مع اجتلاء العبر ...

وان يكن قد غاب ...

اليس الى ربه قد آب !!!

الإمام علي

نبراس ومتراس

الإمام علي

نبراس ومتراس

الكتاب الذي أحرز الجائزة الأولى في مسابقة التأليف عن الإمام علي

تأليف
سليمان كتاني

طبعة ثانية
عليها ملاحظات أغفل بعضها سهواً
في الطبعة الأولى

دار المرتضى

كلمة

تفضل سماحة الامام الشيخ مرتضى آل ياسين رئيس جماعة العلماء في النجف الاشرف، ورئيس لجنة المباراة الكتابية، بهذه الكلمة المباركة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على محمّد وآله

وبعد فقد شاء الله جلّ شأنه الذي اخرج هذا الكتاب من حبر القلب الى حبر القلم ان يفتح له الطريق الى المطبعة في يسر وسهولة ليخرج الى الناس كتاباً صادعاً بالحق وناطقاً بالصدق فيفيد منه الجاهل علما والعالم اسلوباً ونظماً، وحسبه ميزة ان يبرز بهذا الاسلوب الرائق الذي أقلّ ما يقال فيه أنّه اسلوب بيانيّ بديع له من مقوّمات اللفظ وخصائص المعنى ما يجعله جديراً بكلّ إعجاب وتقدير، ولعلّه في اسلوبه البلاغيّ اوّل كتاب في موضوعه جاء منسجماً مع شخصية لها مثل نهج البلاغة. فشكراً لمؤلّفه الاستاذ الألمعيّ من كلّ وليّ للإمام عليّ عليه السلام. ثم شكراً لتلك الذوات الخيّرة التي مهّدت السبيلَ الى إنجاز مثل هذا الكتاب الفذّ وغيره من الكتب المشاركة له في الموضوع، واخصّ بالذكر منهم السيّدين الشريفين فضيلة الخطيب البارع السيّد جواد شبّر الذي كان لجهوده المشكورة اكبر الأثر في نجاح هذا المشروع والماجد الكريم السيّد هاشم شبّر الذي تبرّع من ماله الخاص بكل الجوائز الثلاث التي وزّعت على الفائزين الثلاثة: وعسى ان تفتح هذه المباراة الفكريّة القلميّة التي اسفرت عن مثل هذا النتاج القيّم باباً لمباريات أُخرى تتحف المكتبة الاسلاميّة بنفائس كهذه النفائس او أثقل منها وزنا وما ذاك عن ارباب الفكر والقلم ببعيد والله المستعان وهو وليّ التوفيق.

مرتضى آل ياسين

المقدمة

بقلم الكاتب الكبير الاستاذ جعفر الخليلي

— ١ —

منذ أربعة عشر قرناً واسم الإمام علي (ع) يحتل الصدارة في بحوث المؤرِّخين، والمتتبعين، والباحثين، حين يجيء ذكر الإيمان، والإستقامة، والعدل، والشجاعة، والجهاد في سبيل اللّه، والصبر على المكاره، أو حين يجيء ذكر المعرفة والحكمة، والأدب والشعر والخطابة، فتمر سيرته في صور مزدانة بألوان من الصفات التي لم تجتمع في شخصيَّة إنسان عبقري موهوب كما اجتمعت في هذه الشخصيَّة الفذة العجيبة التي خلبت العقول، وحيَّرت الألباب، وكانت من القوَّة والرسوخ - من حيث هذه المزايا مزايا العلم والحكمة والمعرفة وسمو الخلق والإنسانية الحقَّة - بحيث تمرَّدت على العوامل الفعّالة التي من شأنها إبادة أي شيء - مهما عظم - إذا ما وقف أمامها.

يقول ضرار بن ضمرة الكناني - وهو من معاصري علي حين أرغمه معاوية على أن يقول عن علي ما يرى - فقال:

«كان والله بعيدَ المدى، شديدَ القُوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدُّنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزيرَ الدمعة، طويلَ الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطَّعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا، وقربه منّا، لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظِّم أهل الدِّين، ويقرِّب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله».

كان علي أُمَّةً مستقلةً بذاتها، تحكي عقليَّـة الدَّهر، وتعبِّر عن نضج الزمان، وتصوِّر نهاية المراحل من سموِّ البشريَّة، وقمَّة المجد، فليس من الصحيح أن يقاس علي بالأفراد فهو نسيج وحده، ومن الخطأ أن يقال عن علي: إنَّه كان أورعهم، وأتقاهم، وأنبلهم، وأسخاهم وأنت تعرض لسيرة العظماء والمزايا الإنسانية فكما أنَّك لا تستطيع أن تقرن الأرض بالقمر بهاءاً، وتقرن معدن الراديوم بالمعادن

الاخرى جوهراً، وتقيس عليه، فإنّك لا تستطيع أن تقرن اسم علي بأسماء العظماء - باستثناء من خصُّوا برتبة النبوة - وهو غير نبي طبعا - لأنَّ مزايا علي قد تجاوزت الحدود المألوفة، ولأنَّ شخصيته بلغت القمَّة من الأمجاد والمثل العليا في دنيا البشريَّة.

وحين يستعرض المرء المبادىء والملكات والمزايا فلا يصح أن يأتي بعلي مثلاً، ذلك لأنَّ علياً - كما قلت - أُمَّة مستقلة ليس لها بين الأفراد من شبيه، وإنَّه قد سما بما جاء به من موازين، وما أعرب به من مزايا، وما عبَّر به عن صفات الإنسان الكامل العديم النظير، حتّى صارت كلمة (علي) وحدها تكفي لترسم أمام العين كلَّ الصور الجذّابة من معاني الإنسانية.

ولعلَّ كلمة (علي) التي يكتبها البعض فوق مخازنهم، وحوانيتهم، أو يعلِّقونها في إطار من الألواح الفنية المزخرفة في بيوتهم، أو التي ينقشونها على أبواب العمارات، والمساجد، والمعاهد والمؤسسات، أقول: لعل هذه الكلمة ضرب من ضروب (البديع) ورمز من رموز الفن المعروف في علم البديع (بالإكتفاء) وهي صريحة المنطوق، واضحة المفهوم، فلا حاجة لأن يضاف إليها شيء ليفهم الناس: أنَّ علياً يحكي المجموعة الكاملة من فضائل الدُّنيا ومزاياها!

يقول مهدي الجواهري:

نعـداد مجـد المرء منقصة إذا فاقـت مزابـاه عن التعـداد

ولقد فاقت مزايا عليٍّ حدود التعداد، وتحدَّت عوامل الزمن التي تجرف أمامها الماضي والحاضر فتجعله أثراً بعد عين.

لقد تحدَّت مزايا (علي) عوامل الزَّمن بقوَّة لم يُعرف لها نظير في تاريخ العظماء حتى أصبحت شخصيَّته كالشمس التي إذا ما حجبها الضّباب أو السَّحاب أو الغبار، أو حال القمر بينها وبين الأرض مرَّة فلن يستطيع أن يحجبها مرّات، ولن يقوى على تغيير جوهرها، ونفوذ عملها وأثرها في الأرض وفي الطبيعة.

- ٢ -

وأنا أقصد بعوامل الزّمن، والعوامل الفعّالة: **(الترغيب)** الذي يتضمن أساليب **(الدّعاية)** واستمالة النفوس بالوعود، والمنح، والعطاء مما استخدمه أعداء (علي) بكل صوره وألوانه لإسدال الستار على فصائله، وحجبها عن العيون، ومحو اسمه من دفتر الوجود.

وأقصد بعوامل الزمن والعوامل الفعالة: **(الترهيب)** الذي يتضمن الوعيد والتهديد، والسجن، والتنكيل، والتقتيل بأبشع صوره للقضاء على أيّة بقيّة لعلي وأولاده ومحبيه، ممن لا يزالون يرون لعلي بن أبي طالب وذريته الصالحين شيئا من الحرمة والمحبّة في نفوسهم.

وإذا ما تمّ الجمع بين الترغيب والترهيب بكل وسائلهما وطرقهما الجهنمية هان على من بيده القوّتان الفعّالتان أن يغيّر اتجاه الأفكار، وأن يبدّل العقيدة وأن يسدل ستاراً كثيفاً على الماضي بجميع مزاياه وحسناته، وما قد يشد المرء إليه من إيمان به، وتمسُّك بمبادئه.

والترغيب وحده يعتبر اليوم من أشدّ أسلحة الحرب مضاءً، وأكثرها فتكاً، فكيف لو انضمت إليه عناصر الترهيب؟ ولقد أضاعت (الدعاية) الواسعة اليوم على الباحثين والمؤرخين حقيقة الأمور فلم يدروا - مثلاً - أحقا كانت المانيا هي المسبّب الأكبر في الحرب العظمى الأولى والثانية أم كانت انكلترة التي تريد أن لا يمس أحد طرفاً من حقوقها في المستعمرات؟

ولكم شاهدنا فيما قرأنا كيف فعل الجمع بين الترغيب والترهيب، وكيف بدّل سجاياً أصيلة في أمم أصيلة، وكيف غيَّر اتجاهات شعوب وعقائد شعوب إلى ما يعاكس اتجاهاتها وعقائدها، وكان من بعض ذلك أن استطاع الأيّوبيون أن يحوّلوا مصر الشيعيّة بعقيدتها الأصيلة إلى مصر السنيّة، واستطاع الصفويّون أن يحوّلوا إيران السنيّة النشأة والعقيدة إلى إيران الشيعيّة، لأنَّ كلا الطرفين - الأيوبيين والصفويين - قد استخدما وسائل **(الترغيب والترهيب)** استخداماً ضمن لهما اجتثاث العقيدة من أصلها، وغرس عقيدةً معاكسة لها تماماً في محلها.

وقصة أدوارد الثامن ليست بعيدة عن الأذهان وهي تكفي لتكون شاهداً لكيفية تخلي الشعب عنه ونسيانه بالمرة بين عشيَّة وضحاها بمجرَّد أن أنزلت الحكومة صوره من أعالي الجدران وامتنعت الصحف من ترديد اسمه، وذكر أخباره، بعد أن كان ملء الأذهان، وملء القلوب محبَّة وولاء، ولم يعرف - الا القليل - أين يقيم اليوم، هذا الملك المحبوب والمعبود بالأمس؟ وكيف يعيش؟ هذا (والدعاية) لم تتجاوز الحدود البسيطة الأوليَّة.

يقول ابن أبي الحديد: «روى عطاء عن عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد قال: إنَّ الأحاديث الواردة في فضل عليٍّ لو لم تكن في الشهرة والإستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة لانقطع نقلها للخوف والتقيَّة من بني مروان مع طول المدة، وشدَّة العداوة، ولولا أنّ للّه تعالى في هذا الرَّجل - يعني علياً - سراً يعلمه من يعلمه لم يرو في فضله حديث، ولا عرفت له منقبة، ألا ترى أنَّ رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير أو صلاح، لخمل ذكره، ونسي اسمه. وصار وهو موجود معدوماً، وهو حي ميتاً».

- ٣ -
الترغيب

وقد استخدمت تلك العوامل والوسائل، وسائل الترغيب والترهيب بمختلف صورها ووجوهها ضدَّ عليٍّ وأولاده من بعده حتى ظلت هذه العداوة تماشي الزمن إلى هذا التاريخ بالرغم من تقدُّم العلوم، وانتشار الثّقافة، واتّساع الأذهان للمناقشة، والتتبُّع، والإستقصاء، ونبذ التّعصب، فلم يزل حتى هذا اليوم من يكره عليّاً ويسبُّه ويلعنه، ولقد مرَّ أكثر من ثلاثة عشر قرناً على استشهاد عليٍّ ووفاته ونحن لم نزل نسمع صوت عمران بن حطان الرَّقاشي وهو يبجّل عبد الرحمن بن ملجم ويثني على تلك الضربة التي شج بها ابن ملجم رأس الإمام علي إذ يقول:

يـا ضربـة من تقـي مـا أراد بهـا ... الا ليبـلغ مـن ذي العـرش رضوانـا
إنّي لأذكره يومـــاً فأحسبـــه ... أوفـى البريـة عنـد اللّه ميزانـا(١)

فحين زار ابن بلَّة الزعيم الجزائري العراق كان أوَّل ما سأل عنه، سأل عن قبر عبد الرحمن بن ملجم أو محل مقتله، وأبدى رغبته في زيارته وقراءة الفاتحة له..! وقد حصل مَن صرفه بلباقة عن مثل هذا السؤال وأشار عليه بما يقتضي أن يراعيه في هذا المقام مما تقتضيه السّياسة، فإذا لم تصح هذه الرواية عن ابن بلَّة فهي صحيحة في عدد غير قليل من قوم لا يزالون حتّى اليوم يسبُّون علياً ويترحَّمون على قاتله عبد الرحمن بن ملجم.

نقول لقد استخدمت كل الوسائل من الترغيب والترهيب لطمس اسم علي وفضائله ولم تترك طريقة ذات جدوى كبيرة كانت أم صغيرة إلا اتخذت للوصول إلى هذه الغاية، ولكنَّ هذه الوسائل على ما فيها من حول وقوَّة ونفوذ، وإعدادها بإتقان وإحكام على أيدي أعداء مهرة ذوي خبرة وحنكة، فإنّها لم تكن بأكثر من خيوط واهنة أشبه بخيوط العنكبوت أين لها أن تشد على رقاب الأُسود وتجرَّها حيث تشاء، لذلك خرجت ذكرى عليٍّ وأولاده الصالحين بعد تلك المحاولات -

---

(١) الكامل للمبردج ٣ ص ٤٩ ط محمد علي صبيح - القاهرة.

التي قد يعجز عن حبكها حتى الشَّيطان في جميع ضروب (الترغيب والترهيب) - أكثر صفاءً، وأوضح بياناً، وأجلى واقعاً.

صحيح أنَّ الإضطهاد قد يساعد على التمسُّك بالرأي المعاكس، وبالعقيدة المخالفة لعقيدة المضطهد - بكسر الهاء - ويجعلها أكثر رسوخاً في النفس، ولكنَّ الإضطهاد المصحوب بالترغيب وحسن الدّعاوة لن يجعل ردَّ الفعل بمثل هذه القوَّة التي صاحبت ردَّ فعل المضطهدين لعليٍّ وأولاده، وشيعته، والتي كان من آثارها ظهور الغلاة، والمؤلِّهين لعليٍّ، والملحقين به كل معجزة لم يستسغ العقل نسبتها إلى الأنبياء فكيف نسبتها للخلفاء، وجعلت اسم (عليٍّ) يذكر في أذان الشيعة وإقامة صلاتهم كرد فعل للسّباب، واللعن الذي أوجبه أعداء عليٍّ على أنفسهم قبل الصلاة وبعد الصلاة، وعند التوجُّه إلى الله بالدعاء، فقد جاء في الأخبار، وعلى ما أورد ابن أبي الحديد: «أنَّ معاوية، وعمرو، والمغيرة، والوليد بن عقبة، وأبا الأعور، والضحّاك بن قيس، وبسر بن أرطاة، وحبيب بن مسلمة، وأبا موسى الأشعري، ومروان بن الحكم، كانوا يقنتون ويلعنون علياً».

وهذا هو دليل عظمة علي، العظمة التي كان من آثارها أن تظلَّ شخصيَّة علي أربعة عشر قرناً، وستظل عشرات القرون بل ومئات القرون كما لو كانت شخصيَّة عظيمة جديدة لا عهد للمؤلِّفين، والمؤرِّخين، ومستعرضي السير بمثيل لها في تاريخ البشريَّة.

ولقد أتقن أعداء عليٍّ سبك (الدعاية) ووسيلة الترغيب ضدَّ علي حتى آمن بأقوالهم الكثير، وإنَّ الكثير من الناس سُوقة جهلاء لا يكلِّف تغيير رأيهم وتضليلهم شيئاً من المجهود للذين يعرفون طرق الدَّعاوة وأساليبها، والذين يوصفون بمعرفة (من أين تؤكل الكتف) وإنَّ الذي يتعمق في التاريخ الإسلامي يرى أنَّ حظ القادة من أعداء علي في فهم الدَّعاوة ووسائل الترغيب وطرقها، وضمان فعلها في النفوس كان كبيراً وكبيراً جدّاً خصوصاً وأنَّ عدد السذَّج من الشعب، والشعب الذي لم يختلط بالمدن ولم يعرف شيئاً من الحضارة لم يكن في جميع الظروف والأحوال قليلاً، ففعلت هذه (الدِّعاية) وعمليَّة الترغيب في مثل تلك النفوس التي يسودها الجهل فعلها العجيب.

ويسوق المسعودي شاهداً على غباوة طائفة من أولئك السذَّج الذين استغلتهم (الدعاية) الأمويَّة فيقول:

« وبلغ من أحكامه - أي من أحكام معاوية - للسِّياسة، وإتقانه لها، واجتذابه قلوب خواصِّه وعوامه، أنَّ رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن (صفين) فتعلق به رجل من (دمشق) فقال: هذه ناقتي أُخذت مني (بصفين) فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيِّنة يشهدون أنَّها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه! فقال الكوفي:

- أصلحك الله إنَّـه جمل وليس بناقة.

فقال معاوية - : هذا حكم قد مضى..

ودسَّ إلى الكوفي بعد تفرِّقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، ودفع إليه ضعفه، وبرَّه، وأحسن إليه وقال له:

- أبلغ عليّاً: أنِّي أُقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرِّق بين النّاقة والجمل[1].

وإذا كانت هذه القصَّة مما تستوجب المناقشة في صحَّتها فليس هنالك من شكٍّ أنَّها وليدة ظروف وبيئة ونهج اختص به معاوية وأعداء علي والكثير من الناس بحيث جاز أن يوضع مثل هذه القصص على ألسنتهم.

وقد استطاع أعداء علي وأولاده، وهم (أي الأعداء) مصدر القوة والسلطة وبيدهم القدرة على التعبئة العامة لجميع وسائل الدعاوة أن يثيروا في نفوس الرعية - ومعظمهم من السذج والجهلة - السخط العام على (علي) وأولاده، وإنَّ السخط العام هو غير الرأي العام كما يحدده علماء الاجتماع.

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: « هنا ينبغي للباحث أن يفرق تفرقة واضحة بين طبقتين - على الاقل من طبقات المجتمع:

طبقة المستنيرين أو المثقفين الذين يستطيعون أن يدرسوا الامور. وطبقة السوقة أو الدهماء أو المنقادين الذين ينقادون انقيادا أعمى لرأي من الآراء، أو

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٣ ط البهية المصرية.

فكرة من الأفكار، لأنّهم عاجزون تماما عن مناقشتها لمعرفة مقدار الخطأ أو الصواب فيها »[1].

(١) المدخل في فن التحرير الصحفي ص ٢٤٠ الط ٣.

وعلى هذا فلم يكن السخط العام بأي وجه من الوجوه معبّراً عن الرأي العام المستنير، وقد حدّثنا التاريخ عن أنّ جماعة (عليٍّ) في عصره وفي العصور الأخيرة كانوا في الطّليعة من حيث السِّيرة، والطيبة، والفهم، والعلم، والأدب، والإيمان بالحق، وليس فيهم من يجوز اتصافه بالغوغائية فلقد كان عدد من شهد (بدراً) مع رسول الله (ص) ٣١٣ من المهاجرين والأنصار، وقد اشترك من هؤلاء إلى جانب عليٍّ في حرب صفّين كل من بقي حيّاً وكان عددهم ١٧٨ بدريّاً، وقد استشهد منهم ٦٣ نفراً، كما اشترك مع علي في معركة صفّين ٨٠٠ رجل ممن بايع النبي (ص) بيعة (الرضوان) تحت الشجرة[1] ومن بقي حيّاً حتى ذلك اليوم.

وكل هؤلاء من الطبقة المؤمنة، ومن أئمّة الإسلام، وأعلام الهدى، وهم الذين يؤلّفون الرأي العام المنطقي الواقعي الذي يمثِّل جانب الخير والحق والصَّلاح لو ترك الأمر لشأنه ولم يستعمل أعداء عليٍّ الأساليب الشّيطانيّة ويثيروا الغوغائيّة، ويحاولوا استخدام وسائل الترغيب لاجتثاث اسم عليٍّ وأولاده من الجذور، كيف لا ومن أصحاب عليٍّ وأنصاره في عصره أمثال أبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت الأنصاري. وجابر الأنصاري، وهاشم المرقال، ومحمد بن أبي بكر، ومالك الأشتر، وعبد الله بن مسعود، والحارث بن النعمان، ومئات غيرهم.

أما الذين شاركوا معاوية في حرب عليٍّ «فكلهم من مسلمي الفتح الذين أسلموا مقهورين، والطلقاء المؤلّفة قلوبهم، وعلى رأسهم عمرو بن العاص، وأبو الأعور السلمي، وبسر بن أرطاة، ومسلم بن عقبة وغيرهم»[1] ممن صال بهم معاوية في الفتك والترهيب وإثارة السخط العام والغوغائيّة.

وإنّ الوعي والإدراك في البلدان والشعوب إنّما يقاس بالرأي العام الخاضع للمناقشة والمنطق، ولا يقاس مطلقاً بالغوغائية والسخط العام «وذلك لسبب واحد فقط، وهو أنّ الناس في حالة (الرأي العام) يتمتّع كلٌّ منهم بفرديّته. ويستطيع أن

---

(١) المدخل في موسوعة العتبات المقدسة ص ٣٤٨.

يظهر شخصيّته، وأن يظفر بالحريّة الكافية لشرح وجهة نظره التي يقتنع بها ويريد أن يقنع غيره بما فيها من صواب، ولكنَّ الناس في حالة **(السخط العام)** تنعدم فرديّتهم وذاتيّتهم أو تكاد، ففي الزُّحام والتجمُّع تنمحي هذه الصفات ويفكر الناس بالصور والخيالات ويكون المجال واسعاً أمام الزُّعماء والقادة - من غير العقلاء - وهم المعروفون عند الاوروبيين باسم (الديماجوج) ممن يثيرون الجماعات، ويستغلّون سذاجتها، وانعدام الفرديّة أو الذاتيّة بين أفرادها:

إنّ الشّعب في حالة (السخط العام) يكون أشبه شيء بالنظّارة في المسرح يتأثرون بالمسرحيّة وتحت مشاهدتهم لها، فلا يستطيعون الجمع وقتئذ بين المشاهدة والنقد. ولا يستطيعون التمييز بين شتى المواقف المسرحيَّة المعروضة عليهم في ذلك الوقت »[١].

وهذا ما حدث فعلا في وقعة كربلاء حين أغار القوم على الحسين وأصحابه فلم يكتفوا بقتلهم بل حزُّوا رؤوسهم، وداسوا بسنابك الخيول صدورهم، وأحرقوا مخيَّم حريمهم، وروَّعوا أطفالهم ونساءهم، وساروا بأهليهم سبايا وأمامهم رؤوس قتلاهم مرفوعة فوق الرّماح يطوفون بهم المدن دون أن يكون هنالك ذنب أو أي شيء يستوجب بعض هذا...

(١) مدخل في موسوعة العتبات المقدسة ص ٣٩٣.

ويظهر أنَّ استغلال السذّج من الناس لتوليد السخط العام والغوغائيَّة من قبل أعداء عليٍّ وأعداء أولاده في جميع الأدوار قد جرى بشكلٍ غايةً في الإتقان بناءً على الجهل المتفشي بين الشعوب، فقد كانت الأغلبيَّة من السَّذاجة وعدم الإدراك ما سهَّل توجيهها نحو الغاية المنشودة: وهي كره عليٍّ وأولاده أو تناسيه وتناسي فضائله على الأقل.

فقد روي أنّه بلغ من أمر طاعة أهل الشام لمعاوية: أنَّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين صلاة (الجمعة) في يوم الأربعاء..!! وأنَّهم ركنوا إلى قول عمرو بن العاص: إنَّ عليّاً هو الذي قتل عمّار بن ياسر الذي كان يقول فيه النبي **« عمار جلدة ما بين عيني »** ويقول فيه: **« من عادى عمّاراً عاداه الله ومن أبغض عمّاراً أبغضه الله »** فلو لم يخرجه عليٌّ في حرب صفّين - على ما يقول عمرو بن العاص - لما قتل عمار، لذلك كانت اللعنة المفروضة على قاتلي (عمار) إنَّما تعني عليّاً بصفته المسبب للقتل، ولا تعني القاتل الحقيقي وهو معاوية أو جنود معاوية.

ويقول المسعودي:

« ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته - أي في طاعة معاوية - إلى أن جعلوا لعن عليٍّ سنّة ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير ».

ثم أضاف قائلا: « وذكر بعض الإخباريين أنّه قال لرجال من أهل الشام من زعمائهم، وأهل الرأي والعقل منهم:

- من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟

قال: - أراه لصّاً من لصوص الفتن!! »[(١)].

وكان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام وقتله لمروان وجه إلى أبي العباس السَّفاح أشياخاً من أهل الشّام من أرباب النعم والرياسة فحلفوا لأبي العبّاس السَّفاح أنّهم ما علموا لرسول الله (ص) قرابة ولا أهل بيت يرثونه

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٢ مط البهية المصرية.

غير بني أُميَّة!

وكان المدركون من أعداء عليٍّ يعرفون لعلي فضله وشأنه ولذلك يسعون بكل ما أُوتوا من قوَّة لطمس هذا الفضل ومحوه من الوجود.

يقول عمر بن عبد العزيز:« وكان أبي إذا خطب فنال من عليٍّ - رضي اللّه عنه - تلجلج.

فقلت: يا أبتِ: إنَّك تمضي في خطبتك فاذا أتيت على ذكر عليٍّ عرفت منك تقصيراً.

قال: أو فطنت لذلك؟

قلت: نعم.

قال -: يا بنيَّ: إنَّ الذين حولنا لو يعلمون من عليٍّ ما نعلم تفرَّقوا عنّا إلى أولاده »[1].

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٢ مط صادر ودار بيروت، وابن ابي الحديد ج ١ ص ٣٥٧.

— ٦ —

وتفنّن أعداء عليٍّ في أساليب (الترغيب) والدّعاية، وخلق الأكاذيب، والتلفيق والطعن في علي طعناً كان من الصَّعب على أحد أن يعتقد أو يتصوَّر أن يكون بالإمكان بعث اسم (عليٍّ) من جديد في تاريخ الإسلام بعد تلك الحملات والأباطيل التي ألصقوها بالإمام عليٍّ، كما تفننوا في وضع القواعد الرَّصينة الثابتة، والخطط التي تقضى على ذكر عليٍّ وذكر محامده ومزاياه، فتمَّ لهم أن يقولوا عنه ما لم يقل حتى في الأشرار والمجرمين، فقد جاء عن أبي جعفر: «أنَّ معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليٍّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم ذلك جعلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير».

وروى الزهري: أنَّ عروة بن الزبير حدَّثه قال: حدثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعليٌّ فقال: يا عائشة «إنَّ هذين - يشير إلى العبّاس وعليٍّ - يموتان على غير ملتي، أو قال على (غير) ديني!!»[1].

وروي أنَّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتّى يروي أنَّ الآية

«ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدُّنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد» قد أُنزلت في علي (ع).

وأنَّ الآية الكريمة: **«ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله»** قد نزلت في عبد الرحمن بن ملجم!! فلم يقبل سمرة بذلك، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل[2].

---

(١) شرح النهج لابن ابى الحديد ج ١ ص ٣٥٨.
(٢) المصدر السابق.

قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوحاظي: قد رويت عن مشايخ من نظراء حريز فما بالك لم تحمل عن حريز؟

- قال: إنّي أتيته فناولني كتاباً فإذا به: « حدثني فلان عن فلان: أنَّ النبيَّ صلّى اللّه عليه وآله لما حضرته الوفاة أوصى أن تقطع يد علي بن أبي طالب عليه السلام »[١].

(١) ابن ابي الحديد ج ١ ص ٣٦٠.

وكما وضعوا الروايات والأخبار والأحاديث في ذم عليٍّ وفسَّروا الآيات القرآنية كما شاؤوا فإنّهم شجَّعوا الشُّعراء على هجاء عليٍّ وأولاده، ولا يبعد أن يؤلِّف هذا الشِّعر عدَّة دواوين لو لم يتحاش تسجيله المؤرِّخون، ولم يصلنا منه إلا بعض الشواهد ومن هذه الشواهد قصيدة كعب بن جعيل، التي يقول فيها:

وقالوا[1] علي إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يقرّ العيونا

وقال أبو العباس المبرد: « وفي آخر هذا الشِّعر ذمٌّ لعليٍّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه أمسكنا عن ذكره »[2].

وكان المتوكِّل شديد الإنحراف والكره لعليٍّ وأولاده حتى قام بحرث قبر الحسين وغمره بالماء ليطمس آثاره، ومعالمه، وقد جرَّأت عداوته لعلي وأولاده طائفة ومنهم الشاعر علي بن الجهم أن يذكروا عليّاً عنده بالسوء والإستهزاء وأن ينالوا من عليٍّ بن أبي طالب بما وسعهم.

وما أصدق البيتين اللذين قالهما عليُّ بن الجهم في مروان بن حفصة على عليٍّ بن الجهم نفسه لو أراد العلويُّون أن يقولوهما في ابن الجهم فقد قال ابن الجهم في مروان:

بلاء ليس يعدله بلاء ... عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون

والترغيب والطمع في المثوبة وحسن الجزاء والصِّلات هي التي كانت تدفع بالشعراء وواضعي الأخبار، وملفقي الأحاديث إلى أن يتخذوا من سبِّ عليٍّ وسيلةَ ارتزاق وبلوغَ جاه إذا لم تكن (الدِّعاية) قد فعلت فعلها في نفوسهم فكرهوا عليّاً عن جهل وعدم إدراك، ثم تحوَّل هذا الكره إلى إيمان بعد ذلك.

---

(١) ويقصد الشاعر بقوله: (وقالوا) اهل العراق.

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٢٣ محمد على صبح - ميدان الازهر.

قال الحجاج يوماً: من كان له بلاء فليقم فنعطيه على بلائه، فقام رجل فقال:

- أعطني على بلائي!

قال - وما بلاؤك؟

قال -: قتلت الحسين.

قال -: فكيف قتلته؟

قال - دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسَّيف هبراً، وما أشركت معي في قتله أحداً..!!

قال -: فإنّك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد، وقال: - اخرج ولم يطعه شيئاً[1].

وقال الحجاج يوماً لعبد اللّه بن هاني، وهو رجل من بني أود، حيٌّ، من قحطان وكان شريفاً في قومه، وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلّها، وكان من أنصاره وشيعته، وقد أراد الحجاج أن يجزيه على ما قدَّم له، وأن يحسن إلى صنيعه فقال له:

- واللّه ما كافأتك بعد..

ثم أكره الحجاج أسماء بن خارجه (سيّد بني فزارة)، وسعيد بن قيس الهمداني (رئيس اليمانيّة) وحملهما قسراً على تزويج ابنتيهما لابن هانىء مهدداً إيّاهما بالقتل بعد أن رأى منهما امتناعاً. وقال الحجاج لابن هانىء:

- انظر.. لقد زوّجتك بنت سيِّد فزارة، وبنت سيِّد همدان، وعظيم كهلان.

فقال ابن هانىء: لا تقل - أصلح اللّه الأمير - ذاك، فإنّ لنا مناقب ليست لأحد من العرب.

قال الحجاج - وما هي؟

قال - ما سُبَّ أمير المؤمنين عبد الملك في ناد لنا قط.

قال - منقبة واللّه...

---

(١) الكامل في التاريخ ح ٤ ص ٥٨٥ مطبعه صادر ودار بيروت.

قال - وشهد معنا صفّين مع امير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد، وكان - ذلك الرجل - والله على ما علمته: امرء سوء.

قال الحجاج - منقبة والله...

قال - ومنّا نسوة نذرن إن قتل الحسين بن علي: أن تنحر كل واحدة عشر قلائص ففعلن...

قال - منقبة والله...

قال - وما منّا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيه حسناً وحسيناً، وأُمَّهما فاطمة!!

قال الحجاج - منقبة والله[1].

فإلى أيٍّ مدىً بلغت هذه الدّعاية، واستمالة الناس بالمال والعطاء والمناصب وإكراه الأشراف على تزويج بناتهم لمن هم دونهم شرفاً ومحتداً، خروجاً على سنن العرب وتقاليدهم حتى يحملوا الشخص على أن يباهي في كره رجل إذا لم يعرف فضله ومقامه فليس له منه ما يستوجب أن يحمل له ولأولاده مثل هذا الكره، وهذه العداوة...

ويكثر طلاب الجوائز والعطاء بسبب ما يحملون لعليٍّ وأولاده من العداء وكم بين هؤلاء من لا يجهل عليّا وأولاده ومكانتهم في الدنيا والآخرة، ولكنّه يعاديهم طمعاً بصلات أعدائهم وتوقعاً لما يغدقه الأعداء عليه من الهبات والعطايا، ومن هؤلاء قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد دخل على يزيد بن معاوية بالسبايا من آل الحسين وهو يخاطب يزيد قائلاً:

أوقر ركابي فضّة أو ذهبا ... فقد قتلت الملك المحجّبا
قتلت خير الناس أُماً وأبا ... وخيرهم - إذ ينسبون - نسبا[2]

---

(١) ابن ابي الحديد ج ١ ص ٣٥٧.

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨١. ومروج الذهب ج ٢ ص ٦٥ والتشريشي ج ١ ص ١٩٣ (اعلام الزركلي).

وحين قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً وقال:

- يا أهل العراق، أتزعمون أنّي أكذب على الله وعلى رسوله؟ وأُحرق نفسي بالنار؟ والله لقد سمعت رسول الله صلى اللّه عليه وآله يقول:

«إنَّ لكل نبيٍّ حرماً وإنَّ حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور - يعني به الجبل - فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، وأشهد باللّه أنَّ عليّاً أحدث فيها».

فلما بلغ معاوية قوله أجازه، وأكرمه، وولّاه إمارة المدينة[1].

وبلغ الأمر بالنّاس أنّهم لم يعودوا يصدّقون أنَّ بإمكان أعداء عليٍّ وأعداء أولاده الصالحين أن ينسوا أو يتناسوا على الأقل بغضهم لعليٍّ وأولاده وإذا اتفق شيء من هذا حتّى من الصالحين تلقّوه بالإستغراب والدّهشة، فحين منع عمر بن عبد العزيز سبَّ عليٍّ استمرت بعض المدن في السّب خوفاً من أن يكون خبر هذا المنع غير صحيح، وحين كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالمدينة يأمره بأن يقسِّم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار تلكأ هذا العامل كما لو كان يسمع امرا يستحيل صدوره، وإنَّ عليه أن يتحقق من صدوره قبل تنفيذه فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول:

«إنَّ عليّاً قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده يقسِّم هذا المبلغ؟».

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز.

«لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبتِ إليَّ: أسوداء أم بيضاء؟»[2]

---

(١) ابن ابي الحديد ج١ ص ٣٥٩.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٨ البهية المصرية.

وأُسطورة (عبد الله بن سبأ) هذه الشخصيَّة الوهميَّة التي لا وجود لها بالمرَّة والتي نسجها سيف بن عمر التميمي المتوفى في عصر هارون الرَّشيد بعدسنة ١٧٠هـ هي أحد أساليب (الدعاية) ضدَّ عليٍّ وشيعته، والتي خفيت غايتها غير الشريفة على كثير من المؤرخين فتصوَّروها - دون أن يناقشوها ويبحثوا عنها - حقيقة غير قابلة للتفنيد، فقد روى سيف بن عمر بما وضع هو من الأسانيد أنَّ (عبد الله ابن سبأ) يهودي أسلم في عهد خلافة عثمان، وراح يدس الأخبار الإسرائيلية، والرِّوايات المختلفة التي من شأنها زلزلة العقيدة الإسلامية بما أحاط علياً من الرِّوايات وبما روى عنه من الأكاذيب مما يخالف جوهر الإسلام وحقيقته، فصدَّق بها شيعة علي وأخذوا بمبادئها وفاتهم اكتشاف هذا الدَّس المقصود من عبد الله بن سبأ في الإسلام.

ويبدو أنَّ هذه الأُسطورة التي وضعها سيف بن عمر بأسانيده الملفقة لم تجد لها مؤيدا في وقتها حتى جاء الطبري بعدما يقرب من قرن ونصف قرن من وفاة سيف بن عمر فنقلها لأوَّل مرَّة في كتابه فبدأت من هنا كما لو كانت قصَّة حقيقيَّة لشخص حقيقي، وحال طول الزَّمن بين الناس أن يفهموا أنَّ قصَّة عبد الله بن سبأ هي وسيلة من وسائل التشنيع ضدَّ علي وأولاده وشيعته وأنَّ سيف بن عمر قد خلقها متعمِّداً بداع من دواعي التشهير والدِّعاية، ووجد فيها البعض تحقيقاً لرغبته بعد نقل ابن جرير الطبري لها فاتخذ منها حجة تنديد. وألبسها لباس البراهين وأطلق عليها اسم (إسرائيليات) وألصقها بأتباع علي وشيعته. ولم يحصل من يسأل:

لقد كان بين وجود (عبد الله بن سبأ) - إذا صح وجوده - وبين وجود سيف بن عمَر التميمي الذي خلق هذه الشخصيَّة الوهميَّة نحو قرن ونصف قرن على وجه التقريب، وقد عاش في هذه الحقبة كثير من الرواة والمؤرِّخين، فلماذا لم يرو هذه الرواية أحد قبل سيف بن عمر ويؤيِّد وجود عبد الله بن سبأ؟.

ولقد كانت المسافة بين وجود سيف بن عمر وابن جرير الطبري نحو قرن ونصف قرن، فلماذا لم ينقل رواية (ابن سبأ) الرّاوون والمحدِّثون قبل الطبري؟.

ولم يسأل أحد لماذا انصب ما انصب من هذه المختلقات والأكاذيب التي سمّيت بالإسرائيليات على علي وشيعته، ولماذا نقلت على لسانه ونسبت إليه روايات هي في الظاهر مما ترفع قيمة علي - لاسيما عند السذّج من الناس والبعيدين عن الفقه والتفقُّه والشّريعة وفلسفتها - وهي في الباطن تحط من قدره، وتثير الأحقاد عليه، وتطمس حقيقة علمه، وتلبسه أثواباً من الأوهام لكي تحول بين العيون ورؤية الحقيقة حتى إذا ما بدّد العلم غشاوة هذه الأوهام لم يبق في شخصيَّة علي لمن لم يرمنها إلا تلك الغشاوة ما يسر ويبهج فيكون مجال الطعن في عظمته وفي إيمان شيعته به من لدن خصومه واسعاً ويسيراً[1].

وإذا ما توسَّعنا في حقيقة سيف بن عمر الأسدي التميمي سهل علينا مما نقرأ في كتبه أنْ نتعرَّف بطبيعته وأن نتوصَّل إلى أنَّ ميوله إلى بني أُميَّة قد حملته غير مرَّة على أن يلفِّق الأخبار ويختلقها اختلافاً كضربٍ من ضروب (الدّعاية) للأُمويين عن طريق الأخبار الدينية والأحاديث والحوادث.

وأمثال سيف بن عمر كثيرون سواء في العصور الإسلامية المتقدِّمة أو العصور الأخيرة ممن كانوا يضعون الأخبار، ويختلقون الرِّوايات، ويكذبون على الله ورسوله والأولياء والتاريخ بقصد الحط من كرامة علي وأولاده، ومن بين هؤلاء كان عدد غير قليل من أئمة العلم والأدب والتاريخ..!!

فهذا أبو حيّان التّوحيدي أحد علماء اللغة وأعلام الأدب في القرن الرّابع الهجري لم يحل بينه وبين بغضه لعليٍّ ما هو عليه من أدب وعلم، ولم يحل مرور أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن بينه وبين وفاة عليٍّ من أن يطلع علينا بتلك المراسلات المخزية التي اختلقها، ووضعها على لسان الخليفة أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، تلك المراسلات المفعمة بالزِّراية بعليٍّ، والتحقير لشأنه، وقد أثبتها عدد من المؤرِّخين كنماذج لقدرة أبي حيّان الفنية في اختلاق الأكاذيب الأدبيَّة ووضعها بذلك القالب البديع.

---

(١) اقرأ تفنيداً تاريخياً مهماً لهذه الأسطورة الملفقة: أسطورة (ابن سبأ) انفرد بتحقيقها العالم الجليل السيد مرتضى العسكري في كتابه: (عبد الله بن سبأ).

ولقد فنّدها المؤرّخون وكذّبوها منذ أوّل يوم انتشارها على لسان أبي حيّان التّوحيدي[1] بل إنَّ أبا حيّان نفسه قد اعترف باختلاقه لهذه الكذبة، وافترائه على الخلفاء بوضعه لها حين آخذه البعض على وضع مثل هذه المراسلة، فقال إنّه قد اضطر إلى ذلك نكاية بأحد محبّي عليٍّ وشيعته، وكان هذا يحضر المجلس الذي اعتاد أبو حيّان ارتياده فلا يجيء ذكر عليٍّ في هذا المجلس حتى يبالغ هذا المتشيّع لعليٍّ بمزايا عليٍّ ويبدأ بالرّواية عنه والتحدُّث بأفضاله.

ويقول ابو حيان بما معناه: وإنّي أردت أن أُرغم أنف هذا الرَّجل فوضعت هذه المراسلة ليكفَّ عن التبجح بذكر عليٍّ وفضائله..!![2].

وإنَّ مرور القرون الطويلة على وفاة عليٍّ كان كافياً لينسى العدو عداوته والحقود حقده، والموتور وتره، ولكن الذين عادوا عليّاً - على ما يبان - لم يستطع مرور الزمن، ولم تستطع الثقافة والعلم أن تغيِّر ما بأنفسهم.

★ ★ ★

إنَّ مثل هذه الوسائل والأساليب من الدّعاوة والترغيب وهي بيد أعداء أقوياء وأذكياء وأشدّاء قد أُوتوا من القدرة ما أُوتوا، إذا لم تستطع أن تجتثَّ إسم الشخص من الوجود فإنّها لتستطيع أن تجعله خبراً من الأخبار، ولكنَّ عظمة عليٍّ كانت كالشّمس، هكذا وجدت، وهكذا ستبقى، إذا حجبها الضّباب أو السَّحاب أو الغبار مرَّة فإنّها لا بد طالعة، ولن تطيق الحوائل - وإن عظمت - أن تحجبها نهائياً عن العيون، والأفكار، والعقول.

على أنَّ التّرغيب بمجموع وسائله، والدّعاية بمختلف أساليبها لم تكن وحدها السّلاح الذي شهر في وجه عليٍّ وأولاده وأشياعهم وأتباعهم، وإنّما نال علياً وأولاده الصالحين من سلاح (التّرهيب) أكثر مما نالهم من سلاح (التّرغيب)، ولكنَّ عظمة عليٍّ التي لا تجاريها عظمة في التاريخ بعد عظمة النبي (ص) قد تحدّت أساليب التّرهيب، كما تحدَّت أساليب التّرغيب بمعجزة لم يرو لنا التأريخ نظيراً لها.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ ص ٥٩٣ - ٥٩٧.

(٢) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني - في باب الكنى.

- ٩ -

الترهيب

يقول المسعودي: وفي سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية بن أبي سفيان حجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبراً في الإسلام، وكان حجر هذا من الموالين لعلي بن أبي طالب والمنكرين سبَّه على المنابر، فحمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة، وأربعة من غيرها، فأرسل لهم معاوية برجل تلقّاهم في الطَّريق فقال لحجر:

«إنَّ أمير المؤمنين - يعنى معاوية - أمرني بقتلك يا رأس الضَّلال، ومعدن الكفر والطغيان، والمتولِّي لأبي تراب، وبقتل أصحابك إلا أن ترجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم، وتتبرأوا منه».

ففعل البعض وتبرأ خوفاً، أما حجر وجماعته ممن كان معه فلم يفعلوا، وقال حجر: «إنَّ الصَّبر على حدِّ السَّيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيِّه، وعلى وصيِّه، أحبّ إلينا من دخول النّار».

ثم نحر حجر بن عدي كما تنحر النعاج، وأُلحق به من وافقه على قوله من أصحابه..!! فمن ذا الذي يرى أو يسمع بمثل هذا المشهد ولا يرتهب ولا يتخوَّف من بطش أعداء عليٍّ وأولاده بهم؟.

ولقد كان من بعض فظائع التَّرهيب والتنكيل أن أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطاة - وهو رجل تجاوز حدود القساوة، وانعدام الشَّفقة والمروءة - إلى الحجاز وإلى اليمن ليستأصل جذور جميع الموالين لعلي بن أبي طالب، وأمره بالفتك فيهم دون رحمة أو شفقة، وقد جاء في شرح النهج عن ذلك ما يلي:

«إنَّ معاوية قد بعث بسر بن أرطاة إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كلَّ من كان في طاعة عليٍّ عليه السَّلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب»[1].

والمعروف في التاريخ أنَّ ابني عبد اللّه بن العباس كانا صبيين وقد قتلهما بسر

---

(١) شرح النهج ص ١١٣ ط دار الكتب العربية.

لمحض قرابتهما لعلي بن أبي طالب، فكيف ترى يستطيع أحد أن يجهر بحبِّه لعليٍّ بعد هذا، وهو يرى أو يسمع بمثل هذا القتل العام الذي يصفه التاريخ (بالخلق الكثير) ثم يرى أو يسمع بصبيين بريئين يقتلان صبراً لا لذنب إلا لأنَّهما قريبان لعلي بن أبي طالب!؟.

يقول جورج جرداق: وكان شعار معاوية: (إنَّ لله جنوداً من عسل)، وهو يعني العسل الذي يداف بالسُّمّ فيقضي به على أخصامه.

وبهذا العسل قتل معاوية الحسن بن عليٍّ، وبالأموال العامَّة اشترى الناس، واصطنع الأنصار والمحاربين، فإذا تأفف الناس من يزيد، وأبوا أن يبايعوه (مثلاً) قال لهم متوعداً.

«أعذر من أنذر، إنِّي كنت أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس، فأُقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتّى يسبقها السَّيف إلى رأسه، فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه»[1].

(٢) الإمام علي (جورج جرداق) ص ٢١٥.

من ذا الذي يجرأ بعد هذا أن يقول شيئاً ومثل هذا التهديد يصك أُذنيه؟ ثمَّ من ذا الذي يستطيع أن يرفع صوته وهو يرى أو يسمع منادي بني امية ينادي بالخروج إلى قتال الحسين في عرصة كربلاء ولا يخرج؟ وأي ترهيب يرهب به أعداء عليٍّ وأعداء أولاده الناس أكثر مما أنزلوا بالحسين وأولاده وأنصاره وعيالاته من التقتيل والمثلة بالقتل على ذلك النَّحو من القساوة والفظاعة التي لم يرو لها التاريخ مثيلاً في جميع أدواره؟.

فلقد وقف الحسين يخطب جيش يزيد بن معاوية قبيل المعركة قائلاً:

« .. أمّا بعد فانسبوني، وانظروا من أنا؟ ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها، وانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلي؟ وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه؟ وابن عمّه؟ أو ليس جعفر الشهيد الطّيّار في الجنة عمي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض: أنَّ رسول اللّه (ص) قال لي ولأخي: (أنتما سيّدا شباب أهل الجنة، وقرة عين أهل السنَّة) فإن صدَّقتموني بما أقول - وما أقول هو الحق - واللّه ما تعمَّدت كذباً مذ علمت أنَّ اللّه يمقت عليه، وإن كذبتموني فإنَّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد اللّه، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل ابن سعد أو زيد بن أرقم، يخبروكم أنَّهم سمعوه من رسول اللّه، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟ ».

ثم واصل الحسين خطبته حتّى قال:

« ... أخبروني، أتطلبونني بقتيل منكم قتلته؟ أو بمال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟ ».

فكان جواب القوم على تلك الخطبة: ذلك الهجوم الذي سوَّدوا به وجه التاريخ، والذي حملهم على أن يضعوا سيوفهم في رقبة الحسين ورقاب أولاده وأنصاره، وما انجلى نهار ذلك اليوم حتى تساقطت اثنتان وسبعون جثَّة احتزوا رؤوسها، ومثَّلوا بها، وداست خيولهم صدورها، وصاح بهم صائحهم: « أحرقوا بيوت الظالمين » فإذا بالنيران تلتهم مخيَّم الحسين ومخيَّم أنصاره، فتنفر النساء والأطفال مذعورين لا يعرفون إلى من يلتجئون، وبمن يحتمون وتساق عيالات

الحسين سباياً، ويطوفون بها المدن والدَّساكر، ورأس الحسين ورؤوس أولاده وأصحابه مرفوعة فوق الرِّماح وبمشهد من السَّبايا من آل بيت رسول اللّه!!

وحين وضعوا رأس الحسين أمام يزيد بن معاوية في الشام، وضعوه في طشت فجعل يزيد ينكته على ثناياه بالقضيب وهو يقول:

نفلِّـق هامـاً من رجـالٍ أعزَّة   علينـا وهم كانوا أعـقَّ وأظلما[1]

من ذا الذي يرى هذه المشاهد أو يسمع بمثل هذا التقتيل والتنكيل والتفظيع بآل عليٍّ ولا يأخذ منه الخوف والهلع مأخذه؟ ثم كيف يستطيع اسم علي بن أبي طالب أن يظل لامعاً وهذا بعض ما حورب به وحورب به أولاده من تلك الأسلحة الفتّاكة لو لم يكن عليٌّ فذاً، ولو لم يكن نسيج وحده بين رجال الدنيا؟.

هذا مسلم بن عقبة أحد صنائع يزيد بن معاوية - وهو مخلوق مسمم الطبيعة، في مسلاخ إنسان - على حد تعبير العقاد - وقد بلغ الغاية في التنكيل بأنصار عليٍّ وأنصار أبي عبد الله الحسين، وكان على ما وصف المؤرِّخون: «أعور، أمغر، ثائر الرأس، كأنما يقلع رجليه من وحل إذا مشى».

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ، فانٍ، مريض: انَّه أباح المدينة في حرم النبي عليه السلام: «أباحها ثلاثة أيام، واستعرض أهلها بالسَّيف جزراً كما يجزر القصّاب الغنم، حتى ساخت الأقدام في الدم..!! وقتل أبناء المهاجرين، والأنصار، وذرِّية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنَّه عبد قنّ لأمير المؤمنين..!!».

وانطلق جنده في المدينة إلى جوار قبر النبي يأخذون الأموال، ويفسقون بالنساء...!! حتى بلغ القتلى في تقدير (الزهري) سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي!.

ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصف البطل الظافر المتهلل بعد كلام طويل يقول:

« ... فأدخلنـا الخيـل عليهم... فما صلَّيت الظهر - أصلح الله

---

(١) ابو الشهداء (العقاد) ص ٩٠.

امير المؤمنين - إلا في مسجدهم: بعد القتل الذريع، والإنتهاب العظيم (كذا) وأوقعنا بهم السيوف، وقتلنا من أشرف لنا منهم، واتبعنا مدبرهم!! وأجهزنا على جريحهم (كذا) وانتهبناها ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين - أعزَّ الله نصره - وجعلت دور بني الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان، والحمد لله الذي شفا صدري من قتل أهل الخلاف القديم، والنفاق العظيم، فطالما عتوا، وقديماً ما طغوا.

اكتب هذا إلى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفاً مزيضاً ما أراني إلا لمابي، فما كنت أُبالي متى متّ بعد اليوم هذا!!؟؟[1].

(١) الإرشاد ٢٢٧ - مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥، أبو الشهداء ص ٩٠.

ويقول العقاد في تعليل هذا الحقد:

« وكان هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة إنَّما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائهين.. يوهم نفسه أنَّه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ».

وكان هذا الحقد منصّباً على عليٍّ بن أبي طالب وأولاده وأنصاره، وقد ذهب الكثير منهم ضحيَّة تلك القساوة والضَّراوة سواء في الحجاز، أو اليمن أو العراق الذي كان نصيب عليٍّ وأولاده وأنصاره من التنكيل فيه من أكبر الأنصباء.

وعندما قتل زيد بن عليٍّ بن الحسين في الكوفة خشي أصحابه من التَّمثيل به - كما خشي آل عليٍّ من التمثيل بجسد الإمام عليٍّ من قبل أعدائه إن دفنوه علانية أو عيَّنوا عند دفنه قبره - وكان الوقت ليلاً، ولم يعرف بعد القوم بسقوط زيد بن عليٍّ بن الحسين قتيلاً، فدفنوه في (نهر يعقوب) وكانوا قد سكروا النَّهر، ثم حفروا له في بطنه قبراً، ودفنوه في ثيابه، ثم أجروا عليه الماء، ووشى به الواشون فاستخرجه أعداؤه الأمويّون، وقطعوا رأسه، وصلبوا جسده، ثم أمروا بحراسته لئلا يُنزَّل، فمكث يحرس زماناً وبعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك، فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق ثم أُرسل به إلى المدينة، ثم حمل إلى مصر فنصب بالجامع، حتى سرقه أهل مصر ودفنوه[1].

وحين ولي الوليد الحكم كتب إلى عامله في العراق وكان يوسف بن عمر الثقفي يقول له:

« إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق - يعني به جسد زيد بن علي - فأحرقه ثم انسفه في اليم نسفاً ».

وقد نفَّذ أمره يوسف بن عمر، وأمر خراش بن حوشب: « فأنزل زيداً من جذعه، وأحرقه بالنار، ثم رضَّه فجعله في قوصرة، ثم جعله في سفينة، ثم ذرّاه في لفرات »[2].

---

(١) الأعلام للزركلي (زيد بن علي).

(٢) تاريخ الامم والملوك (الطبري) ج ٥ ص ٥٣٨ ط الإستقامة بالقاهرة.

فأيّة حادثة من حوادث التاريخ روت فظاعة أشد وأقسى وأنكى من فظائع أعداء عليٍّ وأعداء أولاده في عليٍّ وأولاده، ومشايعيه، ومن هم الذين انفردوا في التاريخ بألوان التنكيل وبشاعة الجرائم غير هؤلاء الذين عادوا عليّاً وعادوا أولاده؟ فهل لو كان قبر الإمام عليٍّ معروفاً في أوّل أمره أكانوا يتجاوزون عنه ويتخلّون عن نبشه؟.

وكتب هشام إلى عامله بالبصرة وهو القاسم بن محمد الثَّقفي أن يشخص كل من بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم، وكذلك كتب إلى عامله في المدينة بأن يحبس قوماً منهم، وأن يعرضهم في كلِّ أُسبوع مرَّة ويقيم لهم الكفلاء على أن لا يخرجوا منها، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة طويلة له نورد بعضها كنظرة عابرة لبعض ما لقي العلويون من أعدائهم من التنكيل، فيقول الفضل في بعض ما يقول - وقد أوردها ابن أبي الحديد كلها في الشرح -:

كلَّما أحدثوا بأرض نقيقا ... ضمَّنونا السجون أو سيَّرونا
أشخصونا إلى المدينة أسرىً ... لاكفاهم ربي الذي يحذرونا
قتلونا بغير ذنب إليهم ... قاتل الله أُمَّةً قتلونا
جعلونا أدنى عدوٍّ إليهم ... ثم قتَّلتموهموا ظالمينا
أرجعوا هاشماً وردُّوا أبا اليقـ ... ظان وابن البديل في آخرينا
وارجعوا ذا الشهادتين وقتلىً ... أنتم في قتالهم فاجرونا
ثم ردوا حجراً وأصحاب حجر ... يوم أنتم في قتلهم معتدونا
ثم ردوا أبا عمير وردوا ... لي رشيداً وميثماً والذينا
قُتلوا بالطفوف يوم حسين ... من بني هاشم وردوا حسينا

ويستمر الفضل في قصيدته ويذكرهم بقتلى كربلاء، ومسلم بن عقيل، وزيد بن علي وغيره.

والعلويون يترفَّعون عن الإنتقام إن ظفروا بخصومهم وكانوا يترسَّمون خطى جدهم عليِّ بن أبي طالب في الحلم والعفو والصفح عن شاتميهم ومضطهديهم، وقاتليهم مما اتصف به عليٌّ فكان ذلك من بعض سجاياه الخالدة التي يضرب بها المثل والتي يعود بعض سر خلود عليٍّ في الزَّمان إليه.

لقد قرأت - ولا أتذكر أين - أنَّ أحد خلفاء بني أُميَّة ويغلب على ظني أنَّه عمر بن عبد العزيز قد بلغه بأنَّ هشام بن إسماعيل عامل بني أُمية على الحجاز كان يختلق الحجج لإيذاء آل البيت ولا سيَّما إيذاء عليِّ بن الحسين (ع) فعزله الخليفة

وأمر بأن يوقف فيمر به من كانت له شكوىً ليسجلها، ودعى الإمام علي بن الحسين وهو أكثر من لقي من آل البيت من ظلم هذا العامل واضطهاده - وطلب منه أن يمر به ويعدد ما أصابه منه فمر بناءً على إصرار أوامر الخليفة، لقد مر على هشام بن إسماعيل الظالم القاسي ونظر إليه ولكنّه لم يكلّمه، ولم يذكره بظلمه، حتى ولم يشر ولا بإشارة صغيرة إلى ما فعل هذا العامل به وبآل الرّسول حتى ابتعد الإمام عليٌّ بن الحسين عنه، والعامل واقف وقفة الذليل الصاغر صرخ ورأى إعراضه وعدم الوشاية به صرخ بأعلى صوته: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ومن أحسن من وصف أخلاق العلويين وصور سجاياهم كان دعبل الخزاعي الذي يقول عنهم:

ألم تر أنّي مـــذ ثلاثـــين حجّـــة أروح وأغـــــدو دائمَ الحسرات
أرى فيأهم في غيرهم متقسّماً وايديهم من فيئهم صفرات
إذا وُتروا مـدّوا إلى أهـل وترهم أكفّـاً عن الأوتـار منقبضـات
بنـات زيـاد في القصور مصونـة وبنـــت رسول الله في الفلوات

هكذا كان وترهم إذا وترواايمدُّون إلى واترهم أكفّاً لا تعرف الحقد والإنتقام

وفعل المنصور بالعلويين ما فعل، وقد روى التاريخ عن بطش المنصور بأولاد علي بن أبي طالب ما تقشعر له الأبدان لشدّة الفتك، وضروب القتل، وأنواع السُّجون في المطامير وبطون الأرض التي يحبس فيها هؤلاء، يقول محمد علي الظاهر:

« وكان المنصور يحبس المتّهمين السّياسيين من آل البيت النبوي في مطامير، ويقيّدهم بالحديد، ويضربهم، ويكسر أعضاءهم، ويجلدهم، ويفقأ عيونهم، وكانوا لا يرون النور لا نهاراً ولا ليلاً، بل كانوا يعرفون الوقت بمرور زمن قراءتهم أحزاب القرآن..! وكان المنادي ينادي من حين إلى آخر بين هؤلاء المساجين: هاتوا أحدكم لنقتله فيتسابقون على الموت، راجع تاريخ الطبري ج ٩ »[١].

وقد فعل المنصور ببني الحسن بن علي خاصة أقسى ما يفعله الوحش الهائج، على أنَّ للوحش الهائج حدوداً لهياجه وضراوته، أما المنصور فلم يعرف التاريخ لوحشيته حدوداً حتى مات، فقد أخذ من العلويين مشايخهم مثل عبد الله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وكان هذا شيخ الطالبيين في عصره - وأخذ بنيه، وإخوته، وبني إخوته سادات بني الحسن وسجنهم، وقتل عدّة منهم في الحبس، ومات الآخرون في حبسه[٢] وقد روي أنّه خرج حاجب المنصور مرة فقال: من كان على الباب من بني الحسن فليدخل، فدخل مشايخ بني الحسن فعدل بهم إلى مقصورة، ثم أدخل الحدّادين من باب آخر فقيّدهم وحملهم إلى السجن وحبسهم حتى ماتوا في حبسه بالكوفة.

ومن غرائب ظلم المنصور: أنَّ رجلاً من بني الحسن جاء حتى وقف على المنصور، فقال له المنصور:

- ما جاء بك؟

قال - جئت حتى تحبسني عند أهلي فإنّي لا أُريد الدّنيا بعدهم.. فحبسه

(١) ظلام السجن ص ٤٠١ ط إحياء الكتب العربية.

(٢) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الإصفهاني ص ١٧٨.

معهم، وكان ذلك الرَّجل عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وكان من أحسن الناس صورة.. كان يسمى (الديباج الأصفر) لحسنه وجماله، فأحضره المنصور وقال له:

- أنت الديباج الأصفر؟

قال - كذا يقولون...

قال المنصور - لأقتلنَّك قتلة لم أقتلها أحداً..!!

ثم أمر فبنى عليه أُسطوانة وهو حي فمات فيها[1].

هذا مضافاً لملاحقة المنصور (للنفس الزكية) وقتله إيّاه، وملاحقته إبراهيم بن عبد الله، والمئات من مشاهير السّادات العلويين الذين لاحقهم بنو العباس وشرَّدوهم في الأصقاع، وقد اضطر الكثير منهم إلى التخفّي في القرى النائية والقبائل البعيدة، وتغيير أسمائهم وبزَّتهم وهيأتهم، وحشر أنفسهم بين الطوائف المسيحيَّة، والتظاهر بدين غير دينهم، إيغالا في التستر حتّى لم يبق اليوم من أبناء أولئك المتستّرين من يعرف تاريخ أُسرته إلا القليل ومن هذا القليل من العلويين - على ما علمت - الشّاعر اللبناني الكبير أمين نخلة، ببيروت، ومنهم الأديب الوجيه: بديع هاشم بكفر شيما، أما الذين أفقدهم التشريد حفظ أنسابهم فلا يبعد أن يكونوا قد تجاوزوا العشرات أُصولا للشجرة، والمئات والألوف فروعاً لها...

---

(١) تاريخ الدُّول الإسلامية ص ١٦٤.

يقول جورج جرداق وهو يشير إلى أبيات أبي العلاء المعرّي في (عليٍّ والحسين)(ع) حين قال المعري:

وعلى الدهر من دماء الشهيدين عليٍّ ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجران، وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشر مستعدياً إلى الرحمن

يقول جرداق:

« وإنّي لأرى من لوعة العاطفة في هذه الأبيات الثلاثة، ومما يختفي وراءها من ثورة الفكر والوجدان، ما هو حقيق بأن يجمع القول المتلوّع الثائر في امتداد المأساة العلوية إلى مآسي أنصار الحق الذين أُوذوا، وجلدوا واضطهدوا، وشرّدوا في المفاوز والفلوات ليموتوا جوعاً، وبرداً، ودفنوا أحياءً، وصلبوا، وأُحرقوا مع أبنائهم وإخوانهم، أنفة منهم لأنْ يخونوا ضمائرهم، فيتبرأوا من الإمام عليٍّ أسوة بالعبيد، وينكروا شرف الخلق الإنساني الذي استشهد الإمام في سبيله.

ولكأنّي أحس أنَّ المأساة العلوية التي امتدت عصوراً طوالاً تحيا بهذه الأبيات الثلاثة مادة وروحاً »[1].

ويقول السيد أحمد صقر الذي تولّى شرح وتحقيق (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الإصفهاني في مقدمته:

« ولا يعرف التاريخ أُسرة كأُسرة أبي طالب بلغت الغاية من شرف الأرومة، وطيب النّجار، ضلَّ عنها حقها- إلى أن يقول- وقد أسرف خصوم هذه الأُسرة الطاهرة في محاربتها، وأذاقوها ضروب النّكال،وصبوا عليها صنوف العذاب، ولم يرقبوا فيها إلاّ ولا ذمة، ولم يرعوا لها حقّاً ولا حرمة، وأفرغوا بأسهم الشّديد على النّساء، والأطفال، والرّجال جميعاً في عنف لا يشوبه لين، وقسوة لا تمازجها رحمة، حتّى غدت مصائب أهل البيت مضرب الأمثال في فظاعة النّكال، وقد

(١) الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة ص ٣٦١ (جورج جرداق).

فجّرت هذه القسوة البالغة ينابيع الرّحمة والمودّة في قلوب الناس، وأشاعت الأسف الممض في ضمائرهم وملأت عليهم أقطار نفوسهم شجناً، وصارت مصارع هؤلاء الشهداء حديثاً يروى، وخبراً يتناقل، وقصصاً يجد فيها الناس إرضاء عواطفهم، وإرواء مشاعرهم فتطلّبوه وحرصوا عليه.

وقد استجاب الرُّواة والمؤلفون لنداء هذه الرغبة العارمة، أو لطلب المثالة بين النـاس، فشرعوا يؤلّفون أخبارهم، ويسطرون فضائلهم، ويدبّجون سيرهم، ويؤرّخون مقاتلهم.

ومن هؤلاء العلماء: أبو مخنف المتوفى قبل سنة ١٧٠ هـ فقد ألّف مقتل (عليّ)[١] و (مقتل الحسين)[٢].

وألف نصر بن مزاحم المنقري المتوفى سنة ٢١٢ (مقتل الحسين)[٣].

وألف الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧ (أخبار الحسن ووفاته)[٤].

وألف الواقدي (مقتل الحسن) و (مقتل الحسين)[٥].

وألف ابن النطاح (مقتل زيد بن علي)[٦].

وألف الغلابي (مقتل عليّ) و (مقتل الحسين)[٧].

وألف الأشناني (مقتل الحسن) و (مقتل زيد بن علي)[٨]

وألف عمر بن شبه (مقتل محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن)[٩].

وألف المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ هـ كتاب: (اسماء من قتل من الطالبيين)[١٠]

---

(١) فهرست ابن النديم ص ١٣٦.

(٢) ابن النديم ١٣٧.

(٣) ابن النديم ص ١٣٧.

(٤) ابن النديم ص ١٤٦.

(٥) ابن النديم ص ١٤٤، ومعجم الادباء ج ١٨ ص ٢٨٢.

(٦) ابن النديم ص ١٥٦.

(٧) ابن النديم ص ١٦٦.

(٨) ابن النديم ص ١٦٦.

(٩) ابن النديم ص ١٦٣.

(١٠) ابن النديم ص ١٦٣.

ثم جاء أبو الفرج الإصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ فألف (مقاتل الطالبيين) أو (مقاتل آل أبي طالب) كما يسميه ابن النديم[١] وترجم فيه للشهداء من ذرِّية أبي طالب منذ عصر رسول الله (ص) إلى الوقت الذي شرع يؤلف فيه كتابه وهو جمادى الأولى سنة ٣١٣ هـ.

وقد ترجم أبو الفرج إلى حين هذا التاريخ لنيِّف ومائتين من شهداء الطالبيين، وكلهم من سراة القوم، ومن الأئمة والوجوه، وأعلام الأدب والشعر، والعلم والفضيلة ممن قتلوا ظلماً وعدواناً بسيف النّاصبين لهم ولعلي البغضاء والعداوة»[٢].

(١) ص ١٤٨ - ومعجم الادباء.

(٢) مقدمة (مقاتل الطالبيين) للسيد أحمد صقر.

وهنالك المئات من الشواهد على ما عملت الدّعاية من جهة والتنكيل من جهة أُخرى بعليٍّ وأولاده لاجتثاث جذوره يجدها القارىء في جميع الكتب التي أُلّفت قديماً، والمئات من الشواهد في الكتب الحديثة التي أُلّفت عن عليٍّ وأولاده ومآسيهم وما لقوا من أعدائهم من الإضطهاد ككتاب عبد الفتاح مقصود وكتاب الشيخ عبد الله العلايلي، وكتاب جورج جرداق، وكتاب عباس العقاد، وكتاب الشيخ محمود (أبو رية) وكتاب جرجي زيدان، وكتاب الشيخ خالد محمد خالد وغيرهم والمئات من الكتب التي أُلّفت باللغات الأجنبيَّة وعرضت لما أصاب عليّاً وآل بيته من التنكيل والإضطهاد، هذا مضاف إلى عدد لا يحصى من ألوان الفظائع التي ورد ذكرها كشواهد في عرض السير والمقالات، ودواوين الشعر مما تضمّنت العجائب مما استخدمه خصوم علي ليطمسوا بذلك ذكره، وليمحوا آثاره، وليضللوا أفكار الناس فيه، وليشوّهوا حقيقته، ولا يبعد أن يكون الذي أضاع التاريخ ذكره من الأساليب التي اتخذه خصوم عليٍّ لمحو اسمه والقضاء عليه كان كبيراً ولم يتسنَّ للمؤرخين ثبته أو أنَّه قد أُهمل ذكره عمداً - ولا سيَّما الشِّعر منه - احتراماً لمقام عليٍّ لما كان يتضمن من الشتائم النابية.

كلُّ هذا وعليٌّ ظلَّ كما هو - نفساً أزكى جميع النفوس بعد رسول اللّه (ص)، وإنساناً تمثَّلت فيه كل عناصر الإنسانية لتخلّده ما خلد الدّهر مثلاً للشّهامة، والعفَّة، والرَّأفة، والحنان، والعدل، والأدب الذي ما عرف له نظير بعد أدب القرآن الكريم، ومثلاً لعقليَّة جبارة حار في وصفها الأقدمون ولم تزل مبعث الحيرة في العصور الأخيرة، وستظل هذه الشخصيَّة موضوع بحث الباحثين في ميادين الحكمة، والفلسفة، والأدب إلى ما شاء الله، وإلى نهاية عمر البشريَّة، إذا كان لعمر هذه البشريَّة من نهاية، وذلك لتعدد جوانبها وتعدد نواحيها، واتساع آفاقها.

وإذا ما أغفل التاريخ برهة من الزّمن - وقلّما غفل بالرّغم من عوامل التّرهيب والتّرغيب - ولم يذكر التاريخ اسم عليٍّ قام هناك عشرات من أولاد عليٍّ في مختلف الأدوار ليُذكّروا النّاس بعليٍّ وبقيمته، وبجدودهم وقيمهم في حياة البشريَّة ووجود الإنسانية فيما يقدّمونه للناس من سيرة تمتلك القلوب، وتأسر

الأفئدة، وتضرب الأمثال للمدى الذي يستطيع الإنسان أن يبلغه من ذروة المجد فتعود الألسن تلهج بذكر عليٍّ، وتمجِّد إفضاله.

يقول عباس محمود العقاد: «... وإنّك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين أبناء عليٍّ والزَّهراء مائة سنة ومائتي سنة وأربعمائة سنة، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيَّل إليك أنَّ هذا الزَّمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات، كأنَّما هو بعد أيّام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السِّنين، ولا تلبث أن تهتف عجباً: إنَّ هذه لصفات علويّة لا شك فيها، لأنَّك تسمع الرَّجل منهم يتكلَّم ويجيب من يكلِّمه، وتراه يعمل ويجزي من عمل له، فلا يخطىء في كلامه، ولا في عمله، تلك الشجاعة والصَّراحة، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أو في دلالة وهما: (الفروسيَّة الرِّياضية).

طبع صريح، ولسان فصيح، ومتانة في الاسر يستوي فيها الخلق والخلق، ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع إذا هي استقامت على سنَّة المروءة والإباء»[1].

هذه الشّخصيّة- شخصيّة الإمام عليٍّ- التي تحدّت الزَّمن،وتحدَّت كلّ الوسائل الفعالة التي يكفي أن يغير بعض مفعولها حقيقة الأمم وواقعها، ويبدِّل مجرى التاريخ وحقيقته، هذه الشخصيَّة كانت ولم تزل ملء العين، وملء القلب، والقدوة المثاليَّة عند ذوي الإدراك والعقول النيِّرة، والباحثين عن الإنسانيَّة الكاملة في دنيا البشريَّة، هذه الشخصيَّة التي لم تكتف بأن تصمد وتثبت كالجبل أمام تلك الزَّعازع والعواصف والرعود والبروق التي نسجتها الدِّعاية بكل ألوانها وأصنافها من وعد ووعيد وحسن جزاء، وصبٍّ نقمة، بل أصبحت مبعثَ الحياة ومأمل الآمل على رغم كل تلك الحروب التي شُنَّت عليها - حتى أُلِّفت فيها الكتب، ووضعت عنها الدِّراسات، ونقلت عنها الشواهد والأمثلة، فكانت نبراساً يهتدي به التائه في ظلمات الدنيا، واستوى الباحثون في حقيقتها، والمتتبعون لآثارها، والذائبون فيها: الشرقيون منهم والغربيون، العرب وغير العرب، المسلمون وغير المسلمين، ولم يطلع على الناس يوم جديد حتى يخرج علينا العلماء،

---

(١) أبو الشهداء الحسين بن علي (عباس محمود العقاد) ص ٥١ - ٥٢.

والأُدباء، والحكماء، والمؤرخون بكتاب جديد يحمل فكرة جديدة عن هذه الشخصية العجيبة المدهشة التي ضربت أروع الأمثال لأسمى الأفكار في أسمى النفوس من دنيا البشريَّة، وعجز الدهر ان يزعزعها أو يغيِّر شيئاً من جوهرها.

وهذا الكتاب الذي أكتب مقدمته بطلب ملح وفي غاية الإلحاح من مؤلفه، ومن الباذل على إخراجه، والناشر له، هو واحد من الكتب التي يخرج علينا بها المؤلفون بين آونة وأُخرى عارضين جانباً جديداً وفكرة جديدة عن شخصيَّة الإمام عليٍّ الفذَّة.

وأنا إذ أقول: إنَّه طلب مني أن أضع مقدمته في كثير من الإلحاح إزاء شدَّة الإمتناع والإعتذار البادي منِّي أقول ذلك لا غروراً ولا كبرياءً وإنَّما لعلمي بعجزي - وأقول هذا عن يقين - في القيام بكتابة كلمة تصلح أن تكون مقدمة لكتاب يخص شخصيَّة هذا الإمام الفذ الخالد خلود الدهر، وعلى أنِّي اضطررت إلى النزول على رغبتهم ولكني لم أزل واثقاً بأنِّي غير أهل لعملٍ مثل هذا.

وفكرة هذا الكتاب انبثقت - أوَّل ما انبثقت - من ذهن التاجر الوجيه السيد هاشم شبَّر، حين علم بأنَّ هنالك كتّاباً يكتبون آراءً عن الإمام عليٍّ، ويؤلِّفون كتباً جديدةً عن جوانب جديدة من حياة أمير المؤمنين (ع) فتحول المادة والنفقات بينهم وبين إخراج مؤلفاتهم إلى حيِّز الطبع وأنَّ من بين هذه المؤلفات مجموعة ضخمة ألفها الخطيب المعروف الاستاذ جواد شبَّر أحد خطباء الدَّرجة الأُولى للمنابر الحسينيَّة.

والتاجر السيد هاشم شبَّر من أُسرة علمية عريقة تولّى غير واحد منها زعامة دينيَّة مرموقة في التاريخ القديم أمثال الحجة السيد عبد الله شبَّر، وفي التاريخ الحديث أمثال العلماء الأعلام السيد علي شبَّر في الكويت، والسيِّد عباس شبَّر الذي جمع بين الزعامة الرّوحية والأدبية في البصرة وغيرهما.

والسيِّد هاشم شبَّر، هاشمي علوي، يشدّه إلى عليٍّ (ع) نسبه، وتولُّعه بسيرته، وإيمانه بمبادئه، فعرض على الخطيب جواد شبَّر مبلغ ألف دينار كثمن لتأليفه للكتاب المذكور كما عرض استعداده لدفع جميع النفقات التي يقتضيها طبع مؤلفه هذا وإخراجه إخراجاً لائقاً.

والخطيب جواد شبَّر نفسه فرع من هذه الشَّجرة الشبريَّة، والأُسرة التي ت
مزاياها، والتي عرف البعض من أفرادها بالإيثار على أنفسهم في كثير من ا
فلا عجب أن اعتذر عن قبول هذا البذل لنفسه بدافع ذلك الإيثار وراح
على السيِّد هاشم بأن يقيم بهذا المبلغ الذي خصَّصه: مسابقةً تستهدف الكتابة
شخصيَّة الإمام عليٍّ على أن يستثني الخطيب جواد شبَّر نفسه من دخول ه
المسابقة...!!

ولقيت هذه الفكرة ترحيباً من لدن السيِّد هاشم شبَّر، وأُلِّفت لجنة من كبا
رجال العلم للنظر في مؤلفات المتسابقين والدّاخلين في حلبة السِّباق، فأحرز هذا الكتاب الجائزة الأُولى.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأُستاذ سليمان كتاني من بسكنتا بلبنان وأحد الأُدباء المسيحيين ولا أشك أنَّه مجبول من تلك الطينة التي يعنيها مزاج الإنسانيَّة من الوجود كلِّه، هذا المزاج الذي يلذه حديث المآثر، وقصص المروءة، وعزَّة النفس، والتفاني في الحق، وإنَّ مثل هذه الطينة المجبولة من هذا المزاج لا تستقر، فهي في بحث دائم واستقصاء مستمر عن هذه الخصائص بين الزّعماء، والسّاسة، والحكماء، والأُدباء، حتى إذا عثرت على بغيتها كلّاً أو جزءاً تعلَّقت بها على قدر ما وجدت فيها من قابلية الجذب والإستهواء، ثم تأثرت بها روحاً، وأصبحت من أشياعها فكراً بقدر ما يجيز لها مفعولها ومفهومها ومعتقداتها.

وهناك ما يؤدي عندي هذا الرأي عن طينة مؤلف هذا الكتاب ومزاجه، وولعه بهذه الصورة التي تجذب إليها الطيِّبين من النّفوس الخيِّرة، وإذا أضفنا إلى ذلك ملكته الأدبيَّة التي تحبِّب إليه الأدب، وتحمله على التغلغل في بطون الكتب نشداناً عن تلك اللذة، سهل علينا أن نعرف سرَّ ولع سليمان كتاني بالإمام عليٍّ، وتتبع آثاره والتأثر بسيرته، قراءةً وكتابة، وسهل علينا أن نستشف هذه الروح وهذه الملكة الأدبية من هذه الصفحات المشرقة التي دبجتها يراعة الكاتب في اسلوب - لا أعدو الحقيقة إذا قلت - إنَّه نسيج وحده، وقد عُني الكاتب بتسجيل انطباعاته وتصوير أفكاره وما قد استخلصه من حياة الإمام عليٍّ مما قاله فيه محبّوه، وما قاله مبغضوه، وما قاله الذين ليس لهم به صلة حب أو بغض، وما

قاله هو عن نفسه وما خلفه للناس ليقولوا فيه ما يشاؤون أن يقولوا حين يرجعون إلى ضمائرهم فيتخذون منها حكماً.

بهذه الرّوح، وبهذا المزاج، وبدافع من الضمير الحي كتب سليمان كتاني كتابه هذا مصوِّراً فيه أفكار أديب اجتذبه الإمام عليٌّ من هذه النواحي التي سيمر عليها القارىء بل سيقف عندها القارىء وقفة طويلة وفي شيء كثير من الإعجاب.

بغداد
جعفر الخليلي

كلمتي

إلى لجنة التحكيم في النجف الأشرف.

بواسطة أمين السِّر، العلامة الخطيب، السيد جواد شبَّر.

أُقدِّم إلى لجنتكِم الكريمة كتابي «علي بن أبي طالب متراس ونبراس» وأنحني عند ذكر الإسمِ الكبير، لأستغفره عن كل تقصير قد يكون بدر مني عن غير قصد، إذ ليس لقلمي من القدرة أكثر من ذلك كي امكنه من التّطواف في العوالم الشاسعة التي تمكنت من أن تغوص فيها نفسيَّة هذا الفذ من بعيد العباقرة.. ولكني رميت بالمحاولة، والنيَّة الحلوة تحدوني على شغف، فجمعت على زندي بعض الخصلِ من تلك الرَّياحين لأُلقيها في هذه الباقة، على النيَّة الصادقة تسهل لها أمام هذا الماثل الكريم بعض القبول.

وإلى لجنتكم الكريمة أقدّم شكري، إذ أتاحت لي سبيل الإقدام على المحاولة، أجلو بها نفسي مع أطيب وأسخى من عرفته حتى الآن أجيال الإنسان.

بكل إخلاص

سليمان كتاني

الإهداء

إلى كل من يستهويه علي بن أبي طالب
في بطولة القيم وفتح كوى النفس على الحق
والخير والجمال

فاتحة

قلّة أولئك الرجال الذين هم على نسج عليٍّ بن أبي طالب.. تنهد بهم الحياة، موزَّعين على مفارق الأجيال كالمصابيح، تمتص حشاشاتها لتفنيها هدياً على مسالك العابرين.

وهم، على قلّتهم، كالأعمدة، تنفرج فيا بينها فسحات الهياكل، وترسو على كواهلها أثقال المداميك، لتومض من فوق مشارفها قبب المنائر.

وإنّهم في كل ذلك كالرّواسي، تتقبل هوجَ الأعاصير وزمجرة السُّحب لتعكسها من مصافيها على السّفوح خيرات رقيقة رفيقة عذبة المدافق.

هؤلاء هم في كل آنٍ وزمان، في دنيا الإنسان، أقطابه وروّاده.

إنّهم في حقول البحث والتنقيب مرامي حدوده، وفي كل خط ضارب في مهمّة الوجود أقاصي مجالاته. وإنّهم له على كلِّ المفارق إشارات ترد سبله عن جوامحها، وفي كلِّ تيه ضوابط تلملم عن الشطط شوارده. وهم له في دجية الليل قبلة من فجر، وفوق كلاحة الرَّمس لملمة من عزاء.

من بين هؤلاء القلَّة يبرز وجه علي بن أبي طالب في هالة من رسالة وفي ظلٍّ من نبوَّة، فاضتا عليه انسجاماً واكتمالاً كما احتواهما لوناً وإطاراً.

وهكذا توفَّرت السانحة لتخلق في أكلح ليل طالت دجيته على عصر من عصور الإنسان فيه من الجهل والظلم والحيف ما يصم ويذل.. رجلاً تزاخرت فيه وفرة كريمة من المواهب والمزايا، لا يمكن أن يستوعبها إنسان دون أن تقذف به إلى مصافِّ العباقرة.

فإلى عليٍّ بن أبي طالب أسوق بحثي هذا، تيمُّناً في طلب واستجابة لميل.. فيه من الإستئناس ما يشفي من نفسي بعض غليلها.

بسكنتا - لبنان ١ - ٧ - ١٩٦٦

سليمان كتاني

مناجاة

أصحيح يا سيِّدي أنَّهم بدل أن يختلفوا إليك اختلفوا فيك؟!
فمنهم من فقدوك وما وجدوك..
ومنهم من فقدوك ثمَّ وجدوك..
ومنهم من وجدوك ثمَّ فقدوك..
إنَّه لعجب عجاب!!

★ ★ ★

أربعة عشر عموداً من أعمدة القرون، بساعاتها وأيّامها وسنيّها، ذابت كما تذوب حبَّة الملح على كفِّ المحيط، ولما يذب بعد حرف من حروف اسمك الكبير.

فكيف لهؤلاء أن يفقدوك ولا يجدوك، أو يجدوك ثم يفقدوك؟! ويا لسخرية القدر! حتى هؤلاء الذين وجدوك كيف تراهم حدَّدوك؟!

إنَّ الحرف الذي انزلق عن شفتيك لا يزال منذ أربعة عشر قرناً يأبى أن يتقلَّص في زمان أو مكان، لأنَّه يحمل عنك نور قيم الفكر واعتلاجات حقيقة الحياة.. وهي أبعد من أن يحصرها إطار.

إنَّ الحرف، منطلقاً من بين شفتيك، أبى أن ينزل في نطاق. فكيف بك أنت إذ حدَّدوك بشورى تُنحِّيك عن إمارة. أو بيعة تصلك بخلافة؟! وكيف تمكنوا من

أن يحشروك بين بداية ونهاية؟.. فإذا قماطك قميص عثمان، وإذا لك على كفٍّ ابن ملجم دثار الكفن.

وكيف وجدوا تلك المقاييس فأخذوا يتلهَّون بها عنك وراحوا يقيسونك بها؟.. فإذا أنت ربع القامة، لست بالطويل ولا بالقصير، عريض المنكبين تميل إلى سمنة ولست بالغليظ، وعيناك على دعج، وعنقك كإبريق فضَّة.. لك ساعدان مفتولان ليس للسَّيف فقط، بل حتى لاقتلاع المزاليج[1].

ثم كيف أقحموك بين المشاكل والأحداث فإذا بها تتلقفك كما تتلقف الحلبة مناجزة المتصارعين؟.

تبتدىء هكذا يوم الجمل بعرقبة «عسكر» وجندلة «طلحة والزبير»، وتنتهي بـ «صفين»، حيث تتحوّل المسرحية إلى مهزلة تختتم بمأساة.

أهكذا نقشت على حدودك تخوم وحوِّط كيانك بسوار؟.. وأنت أنت الوسيم، ليس لدعج في عينك، بل للهب في بصيرتك.. ولا لبهاء في طليعتك، بل لصفاء في سريرتك.. ولا لغيد في عنقك، بل لجبروت في شيمك.

وأنت أنت البطل، صلب السَّيف والترس في كفيك، ليس لفتلة في زنديك أو لعرض في منكبيك، بل لفيض رجح على أصغريك، ثم فاض على نهجيك.

وأنت أنت الناهج الأول، نسجت للدنيا قميصاً على غير النُّول الذي حيك عليه قميص عثمان. وصغت للدين حساماً كان من غير معدن سيف عشيق «قطام».

وأنت أنت الذي ابتدأت الرَّكيزة وشهقت بها، تطل على الدُّنيا فوق حدودها وفوق مداها، تحمل في يدك مصحف الرِّسالة، تلوح به على غير النَّمط الذي لوَّح به في «صفين».. مشعلاً يتجاوز وهجه سنم الجمل ومجرى الفرات، ليعبر من مكة والمدينة، ليس إلى نفود الجزيرة وربعها الخالي وحسب، بل ليتجاوزها مع الشمس إلى حيث يبزغ الشروق، وإلى حيث يرتطم الغروب.

لو أدرك الذين فقدوك، وحتى الذين وجدوك، أنَّك العملاق ولو بقامة قصيرة

---

(١) المزاليج: مغلق الأبواب الحديدية. أو الصّخور الملس.

وأنَّ وجهك ولو من التراب هو من لون الشمس.. لما وصفوك، ولما صدَّقوا حتى اليوم أنَّهم فقدوك.

مدخل

بهذه المناجاة أحببت أن أقرع الباب في دخولي على علي بن أبي طالب.

وأنا أشعر بأنَّ الدُّخول عليه ليس أقل حرمة من الولوج إلى المحراب. وإنّي أدرك الصعوبة في كل محاولة أقوم بها في سبيل جعل الحرف يطيع لتصوير هذا الوجه الكريم، لأنَّ التصوير يهون عليه أن يلتقط بالأشكال والأعراض، في حين يدقّ عليه أن يتقصّى ما خلف الأعراض من معانٍ وألوان.

وعلي بن أبي طالب هو بتلك الألوان أكثر مما هو بتلك الأعراض، وإنّه عصيٌّ على الحرف بتصويره بقدر ما هو قصيٌّ عليه بمعانيه.

فهو لم يأت دنياه بمثل ما يأتيها العاديُّون من الناس، جماعاتٍ جماعات. يأتي الناس دنياهم يقضون فيها لبانات العيش ثم عنها بحكم المقدَّر يرتحلون لا تغمرهم بعد آجالهم إلا موجة النسيان...

أما هو، فلقد أتى دنياه، أتاها وكأنَّه أتى بها.. ولما أتت عليه بقي وكأنَّه أتى عليها.

فإذا اكتفى الحرف فقط بأن يصوِّره في الفسحة التي هي بين مهده ولحده، فإنّه يكون كالآلة، تأخذ مظاهر الأشياء دون بواطنها.

وإنَّ الفرق بعيد بين الباطن والظاهر... فعلي الذي ولد في مكة، وعاش ستة

عقود، ثم مات في الكوفة.. ليس علياً الذي تقمَّط الجزيرة ولا يزال يعيش مع أربعة عشر قرناً دون أن يعرف خرقة الكفن.

وعلي الذي رضي العيش بالأسمال هو غير عليٍّ الذي رفض الحياة بالأسمال.

فإذ ما يقنع الحرف بهذا الشكل أن يصوِّر، يجيء ابن أبي طالب أنشف من كثب في هجيرة، وتبقى مكة مسقط رأسه، ويظل النجف الأشرف مثوىً لجثمانه، ويدم مكفكفاً بأسماله.. وبين الكثب والهجيرة واحة تشتاقها النفوس على عطش، وبين مكة والنجف واحات تفيء إلى أظلالها أجيال الإنسان، وفي تلافيف أسماله برود لا تلبس إلا في الجنان.

أما إذا كان ابن أبي طالب قد حصره التجوال لفترة قصيرة من الزمن بين البصرة والكوفة أو بين مكة والمدينة، فإنَّ ذلك لم يمنع كونه أبداً ذلك العدّاء الذي كانت مواقع خطواته أبعد من محطِّ رحال القوافل.

ومهما يصفه الساردون بأقلام تشط في معابيرها أو تتنزّى بها الأهواء، فإنَّ بطولته التي تتغلب في سردهم على بطولة أصحاب الأساطير تبقى بطولة أضعف بكثير من حقيقته، لأنَّها من النَّوع الذي تخيب في وصفه حروف الساردين.. لأنَّ السَّرد الذي يتناول الأعراض دون أن ينفذ إلى مضامينها، يبقى سرداً يتعطش إلى معناه كما تتعطش فوهة البئر إلى مخازنها.

ومن هنا: إنَّ كل قول في علي بن أبي طالب يحصره في مكان أو زمان يبقى حديثاً له قيمة السَّرد، ويبقى حروفاً مقفلة لا تنفذ إليها ألوان المعاني.

وما أكثر الأقلام التي تناولته بهذا النوع من السَّرد الكليل، فحصرته ضمن الحروف، ولم تتمكن من أن تطوف به في غير جوِّ مكة، والمدينة... كأنَّ مجاله البعيد لا يمكن أن يتعدّى دائرةً تصطفُّ عليها « بدر » و« أُحد » أو« خيبر » و « صفين ».. وكأنَّ قوته لا اعتبار لها إلا أن تكون من النوع الذي يأتي به مارد القماقم.

الساردون إذ خلطوا بين القوَّة والبطولة، فاستبدلوا بالوصف هذه بتلك.

والحقيقة، أنَّ بطلولته هي التي كانت من النوع الفريد، وهي التي تقدر أن

تقتلع ليس فقط بوابة «حصن خيبر»، بل حصون الجهل برمتها، إذ تتعاجف لياليها على عقل الإنسان.

كلّ ذلك لأخلص إلى القول إنَّه يكون من باب الفضاضة أن نربط عبقريَّة رجل كعلي بن أبي طالب بخيوط الأحداث التي بعثرتها حوله ظروف كئيبة كما تبعثر الريح في الجو بعض الغيوم.

فالأحداث التي مرَّت على جانبيه لم يكن له فيها أيَّة إرادة، في الوقت الذي لم يكن لها هي أي شأن في تغيير جوهر ذلك المعدن الذي انغلقت عليه شخصيتّه الفذَّة، كالغيوم عينها التي تتغشى بها صفحة الفضاء لا يمكنها بحال من الأحوال أن تطفيء الشَّمس.

وبالتالي: إنَّ هذه الأحداث ليست غير أشكالٍ وأعراض، ومهما تتكثَّف ومهما يكثِّفها المغرضون، فإنَّ جوهر ابن أبي طالب يلبث خلفها كما تلبث الشمس خلف الغمام.

لذلك فإنِّي أُحاول أن أهرب قدر الإمكان من كل سرد يتناول الأحداث بيبوستها، من حيث تسأم عن حواشيها المعاني.

ولن أدخل محراب هذا السيِّد الجليل إلا بإطراقة المبجِّل، وصمت المتأمِّل وإصغاءة المسترشد.

ولسوف أُغلِّب على حديثي إليه صيغة الأناشيد ما يتمكن من ذلك قلمي، إذ أنَّ للأناشيد نفحات لا يطيب حرفها إلا مع ذكر الأولياء.

وأستميح لنفسي من علي بن أبي طالب عذراً إن لم أجد، فهو أجود المجيدين وأسخى العاذرين.

ركائز

مقاطع البحث

من واقع التاريخ
الجزيرة العربية
ولادة النبي
علي بن أبي طالب في إطار تاريخي
شخصية الإنسان
شخصيَّة ابن أبي طالب
إلى أرض الجزيرة
مولد الرسالة
قيمة الرسالة
واقع الأحداث
دور ابن أبي طالب

من
واقع التاريخ

إنّه لمن باب اللزوميّات - والحديث عن قطب من الأقطاب كالإمام علي - أن يؤتى بلمحة تاريخيَّة خاطفة عن الأرض التي ولد فيها، وعن البيئة التي عايشها، وعن المناخ الحياتي الذي تأثَّر وجوده فيه، وعن الأهداف والمثل التي من أجلها عاش وجاهد.

فكل ذلك يرتبط ارتباطا وثيقاً بحياة كلّ فرد من أفراد الناس.

إنَّ كون عليٍّ بن أبي طالب ابن الجزيرة العربية لألف وأربع مائة سنة خلت، يتطلب بسطاً موجزاً عن تلك الأرض التي كان عليٌّ فرداً من أبنائها.

الجزيرة العَربيّة

جزيرة العرب هي شبه قارة صحراوية تمتد على رقعة كبيرة مستطيلة، من الشمال إلى الجنوب بين بادية الشام والمحيط الهندي، ومن الشرق إلى الغرب بين الخليج العربي والبحر الأحمر. وصحاريها تغطّي القسم الأكبر منها وتعرف بـ « النفود » و « الربع الخالي » و « الحرات »، وهي تجتازها في خط طويل يمتد من الشمال إلى الجنوب.

أما غربها، فهو يتألف من الحجاز في شماله، ومن اليمن في جنوبه.

والحجاز كان على طول الزمان يشكو الشحة في رزقه بنسبة ما يشح عليه هطول الأمطار.

ومن بعض مدنه « مكة » و « يثرب »، وفي الأخيرة « جبل أُحد » و « خيبر اليهودية »، وفيها حصنها المشهور.

ومناخ الجزيرة حار على وطأة شديدة.

أما محاصيلها، فمن الماشية التي تعيش على المراعي نسبة لمساحاتها أكثر مما هي بالنسبة إلى الخصب فيها، ومن التمر، ومن بعض المزروعات الخفيفة، ومن تجارة الأفاويه، التي كانت تجعلها تحتك وتنفتح على ما جاورها من الشرق والشمال.

أما سكانها فمن البدو الرُّحّل.

ويكثر الظن أنّهم كانوا منذ الفجر الأول مصدراً لهجرات إنسانية، فاضت عنها إلى ما حواليها من البقاع شمالاً وغرباً، لتتأسس منها، على التوالي، مدنيّات مختلفة، من البابليين والفينيقيين والعبرانيين.

أما حياة السكان فيها فقد كانت بالنسبة إلى شح اقتصادها بدائية، من حيث انعكست هذه البدائية على نمط معيشتهم وكل نشاطاتهم الفكرية[1]. ولم يظهر في هذا المجال، مع الأيّام، أي تغيّر على أسلوب معيشتهم أو أي تطوير على نمطهم الفكري إلا بالنسبة لما كان يتسنّى لهم من احتكاك بتلك الهجرات التي صدّروها هم أنفسهم بحيث أصبح ذلك ميسوراً لهم، فأخذوا يقتبسون عنهم من كلّ ما حصّلوه وأنشأوه.

ولم تكن معيشتهم البدويّة، الضعيفة الإقتصاد، والمفتوحة على طول هذه الرقعة المحروقة والشاسعة، لتوفّر لهم تلك اللحمة الحياتية التي تنشأ في حضن المجتمعات الغنيَّة المتراصّة. فعاشوا قبائل قبائل، يغيرون على بعضهم البعض في سبيل سدّ ما ينقصهم من تأمين العيش. وهذا ما كان يسمّى في جاهليتهم بـ «الغزو».

ونتج لهم من ذلك مجتمع مشرَّد ومفسَّخ، لا يشدُّهم إليه ذلك الولاء المفهوم لدى المجتمعات العريقة... ظاهرة كهذه ترافق دائماً المجتمعات الضعيفة الإقتصاد.

أما قبائلهم التي كانت تجمع وحداتهم المتعدِّدة، فهي كانت مظهراً بارزاً من مظاهر حياتهم الإجتماعيَّة، يربطهم بها وحدها ذلك الولاء المنشود، لينشأ من ذلك تكريس دائم لمنافسات ومطاحنات تقلل على توالي الأجيال قيمة المجتمع الأكبر الذي لا يزال يسمّى بـ «جزيرة العرب».

---

(١) هذا الإنعكاس قد يوحي الفكرة القائلة: إنّ الوضع الإقتصادي هو الأساس للحياة الفكرية والقاعدة لكل التطورات الفوقية وفي الكتاب معطيات متناثرة قد تنسجم بأسلوب وآخر مع هذه الفكرة.

ونحن إذ نؤمن بالصّلة بين الوضع الإقتصادي وسائر مناحي الحياة الفكريّة والإجتماعية لا نقر تلك الفكرة ولا نعتبر الوضع الإقتصادي:

فكل مجتمع هو الحدد الرئيسي، والقاعدة لكل البناء الفكري والإجتماعي. بدليل أنّ الثورة الثقافية والإنقلاب الفكري قد يبدأ من شعب متخلف اقتصادياً فيجعل منه القائد الرائد لشعوب أغنى وأقوى اقتصاداً كما يبرهن عليه تاريخ الإسلام.

ورافقت ذلك عقليَّة ذكيَّة ولكنَّها سطحيَّة بالنسبة لعدم توفُّر المؤهِّلات التي يمكن للعقل أن يغرف منها ما يروِّضها ويجعلها قوَّة فعالة. وكنتيجة معكوسة، برز مجتمع هزيل بكل مقوِّماته الفكريَّة، غني بنزعاته الفرديَّة.

و« القحطانية » و « العدنانية » لا تزالان الدوحة الكبيرة التي تتظللها النزعات القبليّة بكل ما تفرع عنها من « كهلان » و « حمير ». أو من « ربيعة » و « مضر » أو ما تشعب عن هذه من « طي » و « همدان » و « مدحج » و « قضاعة ». أو تلك من « أسد » و « وائل » و « بكر » و « تغلب »... إلى آخر ما يتفرّع من شجرة الأنساب. حيث تختصر بـ « ربيعة » و « مضر » و « اليمن ».

أما عباداتهم. فإنّها كانت محصورةً ببعض الآلهة. كـ « مناة » و « العزّى » و « اللات » و « هبل ».. أصنام جمعتها مكة تحت ستائر الكعبة. ولم يكونوا ليعيروها كثيراً من الأهميّة. بالنسبة لعدم انصرافهم الفكري نحو الفلسفات التي لا تخصب في المجتمعات المتخلفة في اقتصادها.

غير أنَّ هذه الحالة التي كانت تسيطر على الجزيرة لم تحرمها من بعض المدن التي ازدهرت فيها بعض التجارات، من حيث رفعت اقتصادها وميزاتها عن باقي أجزاء البلاد.

من بين هذه المدن الواقعة على خطٍّ تجاري مهم « مكة » مهبط رأس الرَّسول، ومهبط رأس عليٍّ بن أبي طالب.

ولادة النبي

وجاءت ولادة محمد، فكانت بدايةً ونهاية... بداية لعهدٍ جديد، ونهاية لعهدٍ عتيق.

والواقع أنَّ الجزيرة في غيابها الطويل عن الساحة التي يثبت فيها الإنسان وجوده كإنسان، قيِّض لها أن تستقبل في هذا المضمار ولادة عجيبة لرجل عظيم سينهج في مجالات الفكر نهجاً يعوِّض عن الركود الطويل الذي غمرها - أي الجزيرة - طيلة أجيالٍ بليله الدامس.

ومن واقع الأرض عينها قدَّم الرسول العظيم رسالته الكبيرة، ليكون فيما بعد للجزيرة دين ودستور يشدانها إلى مناهج الإنسان المفكر، ويخلقان لها مدنية مماثلة للمدنيات التي تحيط بها من الشرق ومن الغرب.. ويرفعان بالتالي مجتمعها من انحطاط القبلة المتشردة إلى مستوى الوحدة المتمدنة، من حيث تتثبت على أساس من الإقتصاد المولِّد والمولَّد، تحت رعاية الحق والعدالة والمساواة.

في ظل النبي الكريم ترعرع علي بن أبي طالب. ولم يكد يفتح عينيه على الرِّسالة المطروحة بين يديه حتى امتصَّها بنهم الجائع، مستوعباً كلَّ معانيها وأهدافها في خطوطها القصيرة والطويلة على السواء، وأصبح منها وأصبحت منه، بأمتن ما تكون به الصِّلات. واعتبرها خشبة الخلاص لشعب يفككه اقتصاده

الهزيل، ويلقيه في بؤرة من التقاليد القديمة الساذجة ويبعده عن محارم العقل السليم والقيم...

لا شك في أنَّ الصِّدف كانت سخيَّة.. إذ وافق أن جاء ابن أبي طالب في وقت كان من ألمع السوانح التي اختطفتها أجواء الجزيرة.

فاحتضان النبي، هذا العقل المجنَّح، رجلاً ثانياً هو علي بن أبي طالب قطب آخر من أقطاب العقل البشري، كان بالنِّسبة للجزيرة حظّاً مزدوج النتائج، لأنَّ الرَّجلين جاءا في وقت واحد، وكأنَّ الثاني إنَّما جاء لتكملة الأوَل.. فكان هالته وكان إطاره..

وبالحقيقة، فإنَّ ابن أبي طالب، ذلك العقل النيِّر المولَّد، لم يستبعد باحتكاكه الدائم بابن عمِّه الرسول، عن أن يكون المساعد الأول والمستشار الأجل في كل ما كان من شأنه أن يصون الرسالة الجديدة ويمهد لها سبل نجاحها.. إن في الوقت الذي يجب أن تظهر فيه أم في الكيفية التي يلزم أن تؤدّى بها. وكان بالوقت نفسه ذلك المناضل الجسور والبطل المقدام في دفاعه عنها، دفاع المؤمن الراسخ بصحتها وصدق مفعولها.

كان ذلك في سبيل الجزيرة أوّلاً.. ومن ثم في سبيل الرسالة نفسها بصفتها ستصبح - بدون شك - رسالة الجزيرة للإنسان حيث يوجد إنسان.

وليس الذي يبشر في صحة ما يقول إلا وهو أول من تنعكس عليه قيمة ما يقول.

والرسالة التي بشر بها ابن أبي طالب، بعد أن ساهم في نحتها وتأديتها وإخراجها والذَّود عنها، كان يحمل من كلِّ كلمة منها كلَّ معانيها بنوعٍ أنَّها انعكست فيه تلك المعاني انعكاساً صادقاً وملازماً له في كلِّ أقواله وأعماله ومخططاته القريبة والبعيدة، وأخذ يطبقها نهجاً دائماً لحياته ليكون بها قدوةً حيَّة لغيره.. في سبيل تحضير مجتمع فاضل، يعتمد الشخصيَّة الإنسانية الملحقة بالفضائل كأساس متين يضمن له صحة العقل وصحة النهج وصحة الإستقرار.

إنَّ بناء شخصيَّـة الإنسان بالعقل والمناهج والمناقب كان أبرز ما أخذ ابن أبي طالب يعوِّل عليه في سبيل تطوير حياة الجزيرة.

ولقد بدأ بنفسه.

ومن هنا قيمة الرجل العظيم.

أقول « بدأ » ولست أعني « حاول ».. فإنَّ المبادىء التي اعتنقها كانت أصيلة فيه. فلقد مرَّت، قبل طرحها على الرأي العام، على عقله.

إنَّ الجزيرة التي كانت تشكو التخمة بفسحة أرضها كانت تشكو المجاعة إلى شخصيَّة الإنسان التي يمكنها ضبط مجالاتها، وكانت تشكو المجاعة إلى مجتمع إنساني تعززه الشخصيَّة الفاهمة.

إنَّ هذه الشَّخصية المنشودة قدَّمت لها الرسالة الجديدة كل ملابسها. وها هو ابن أبي طالب يفصِّل منها كل ثيابه، ويتقدم بها زيّاً وطرازاً، ليعرضها على بني قومه، يكون لديهم في قدوة العارض... لبسها في تفهمه للدنيا وفي تفهمه للآخرة. فكان زهده بالاولى طريقاً إلى الثانية.

لبسها بهذا العقل المولَّد والمستنير، فكان قوَّةً وإرادة وشجاعة وبطولة ومثالاً يحتذى.

عرضها واختال بعرضها، غير آبهٍ بكل الصَّدمات التي ستقابله بها عقلية الجزيرة العتيقة، بكل قحطانيتها وعدنانيتها المتبسلسلة حتى آخر مواليدها.

ولم يشعر قط بأنَّ الخيبة ستكون من نصيبه، لأنَّه كان يرى الأشياء بمجالها الطويل، وأنَّ الذي يقدِّمه اليوم سوف يتعدّى فسحة عمره.. لهذا قدَّمه مجرداً من كلِّ مساومة.

في سبيل بناء هذه الشخصيَّة.. قدَّم ابن أبي طالب جهود عمره مثبتاً أنَّ العقل هو كل ما في الوجود للإنسان.

إنَّ الجزيرة التي كانت تشكو التخمة بفسحة أرضها كانت تشكو المجاعة إلى شخصيَّة الإنسان التي يمكنها ضبط مجالاتها، وكانت تشكو المجاعة إلى مجتمع إنساني تعززه الشخصيَّة الفاهمة.

إنَّ هذه الشَّخصية المنشودة قدَّمت لها الرسالة الجديدة كل ملابسها. وها هو ابن أبي طالب يفصِّل منها كل ثيابه، ويتقدم بها زيّاً وطرازاً، ليعرضها على بني

قومه، يكون لديهم في قدوة العارض... لبسها في تفهمه للدنيا وفي تفهمه للآخرة. فكان زهده بالأولى طريقاً إلى الثانية.

لبسها بهذا العقل المولّد والمستنير، فكان قوّةً وإرادة وشجاعة وبطولة ومثالاً يحتذى.

عرضها واختال بعرضها، غير آبهٍ بكل الصَّدمات التي ستقابله بها عقلية الجزيرة العتيقة، بكل قحطانيتها وعدنانيتها المتسلسلة حتى آخر مواليدها.

ولم يشعر قط بأنَّ الخيبة ستكون من نصيبه، لأنَّه كان يرى الأشياء بمجالها لطويل، وأنَّ الذي يقدّمه اليوم سوف يتعدّى فسحة عمره.. لهذا قدَّمه مجرداً من كلّ مساومة.

في سبيل بناء هذه الشخصيَّة.. قدَّم ابن أبي طالب جهود عمره مثبتاً أنَّ العقل هو كل ما في الوجود للإنسان.

علي بن أبي طالب في إطار تاريخي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم الرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي.

أصاب الجزيرة قحط أنهك العائلة الكبيرة، فهبَّ محمد يخفف العبء عن كاهل عمه، فألحق علياً بأسرته.

ربّي عليٌّ وترعرع في كنف ابن عمه.

في هذا الوقت كان محمد يتقبّل الوحي عن فم جبريل في غار حراء.

وكان عليٌّ أول من يشهد ولادة الرسالة الجديدة. وفي سنٍّ مبكرة، بين التاسعة والعاشرة، أصبح مقتنعاً بصحة الدّين الجديد.

كان باكر النضج، قويَّ البنية، حاد الذّكاء، ثاقب النظر، شجاعاً، ملمّاً بدرجة عالية بالعلوم.. وترك أثراً كبيراً بعده في كتاب « نهج البلاغة ».. طرحت الرسالة على الرأي العام مبشّرة بالتوحيد.

قاومها زعماء قريش واعتبروها نقضاً لآلهتهم وتهديداً بتقويض زعاماتهم.

من هنا كانت بداية الصّراع الذي راح يتدرَّج من عنف إلى أعنف، ثم إلى حروب ومجازر.

في كلّ هذه المراحل كان علي اليد اليمنى لابن عمّه والأشجع والأجدى.

وكانت الهجرة أول منفذ رسالة، اعتمدته مسلكاً للنَّجاة من بين قبضات الزعماء الذين صمموا على قتل محمد في إحدى الليالي.

ولكنَّ ابن أبي طالب في سبيل تغطية انسحاب ابن عمِّه نام في فراشه ليوهم المرابطين أنَّ النَّبيَّ لا يزال تحت متناول أيديهم.

وهكذا وفر الوقت الكافي للإنسلال والإبتعاد تحت جنح الظلام، من حيث حسبت على علي أُولى بوادر التضحية.

بعد رجوع المهاجرين من الحبشة التي حدبت عليهم، بدأ الصراع يأخذ شكله العنيف. وكانت «معركة بدر» أول تحقيق، وتلتها «معركة أُحد» التي كاد ينقلب فيها النَّصر إلى انخذال.. فقد جرح النبي فيها حتى ظن أنَّه قتل، وانفرط عقد المؤمنين.

ولكنَّ عليّاً ببطولته حقق النصر الأخير، وحقق معه هتاف جبريل المشهور: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا علي.

* * *

وعقب هاتين الوقعتين وقعات أُخرى أشهرها «وقعة الخندق» التي تسمى بـ «وقعةالأحزاب» إذ تجمَّع فيها كل الأحزاب والفئات، على اختلاف الميول والقبائل، لمجابهة الرسالة الزاحفة، والتي أصبحت قوَّة جارفة ونصراً كبيراً.

أما «وقعة خيبر» - المدينة اليهودية المحصَّنة والمشهورة ببوّابتها الصخرية التي اقتلعها علي بقوة زنده - فإنَّ فتحها كان بداية لفتح المدن الكبيرة التي أخذت تسقط أمام قوَّة الزاحفين، الواحدة تلو الأُخرى.. حتى عمَّ الفتح، باسم الرسالة، سائر أنحاء الجزيرة.

في كل هذه المعارك كان الفضل أولا للمهاجرين، إذ كانوا أول من لبّى النبي في هجرته.. ثم للأنصار الذين استقبلوا العودة بالمؤازرة.

* * *

من أشهر هؤلاء المهاجرين الأوَّلين هو علي بن أبي طالب.

وكثير هم الذين كان لهم شأن كبير في تسيير الفتح وتحقيق النصر.

وكان علي بن أبي طالب من أحبهم إطلاقا على قلب النبي.. فهو ربيبه، رفيقه، مستشاره، ملازمه الدائم، أخوه.. زوج ابنته التي هي أعزّ النّاس عليه، فاطمة الزهراء، أبو الحسن والحسين من فاطمة، الذين انحصرت فيهما ذرية النبي.

وهو أول المؤمنين، وأقوى المدافعين، وأشجع المناضلين، وأصمد المقتحمين، وأبلغ المحققين.

ولقد لمحَّ النبي عن ذلك بمثل قوله:

« اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه ».

« عليٌّ مني وأنا من عليٍّ ».

« من أحبَّ عليّاً فقد أحبَّني، ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله ».

« عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليٍّ ».

« حق عليٍّ على المسلمين حق الوالد على الولد ».

« أنت أخي في الدُّنيا وفي الآخرة ».

« ولداي هذان إمامان، قاما أو قعدا ».

« كل ولد أب فإنَّ عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولدي فاطمة، فإنّي أنا أبوهما ».

مات النبي واختلف المجتمعون في السقيفة، بين أن يكون الخليفة من المهاجرين أو من الأنصار.. ولكنَّ الكفة رجحت مع المهاجرين، واعتبروا الحق للأكبر سنّاً، فعين « أبو بكر الصديق ».

كان عليٌّ غائباً عن هذا الإجتماع الذي سمي بـ « اجتماع السقيفة ». وكان غيابه لانهماكه بدفن النبي. واعتبر نفسه مغموط الحق، لأنّه، حسب تصريحات الرسول، هو الأحق.

ثم تجاوزته الخلافة بعد الصديق إلى « عمر بن الخطاب » بالحجة نفسها

ولما صرع عمر بن الخطاب توجهت الأنظار نحو مجلس الشورى السداسي: علي ابن أبي طالب، عثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف.

أُسند إلى هذا الأخير أمر البتِّ بتعيين الخليفة. وكان اختياره مؤكدا بين اثنين: أيّهما يرضى بالشرط الذي يفرضه.. وهو: أنَّ أيَّهما يتعهد بعدم تعيين أي

من أنصاره أو أبناء عشيرته في مساعدته في الحكم هو الذي يسند إليه أمر الحكم.

وبما أنَّ عليّاً لم يقبل بالشرط، فإنَّ الخلافة وصلت بحكم الطبع إلى عثمان بن عفان[1].

وكان حكم ابن عفان صراعاً بين الأُمويين والهاشميين[1]، لذلك لم يجد الخليفة الجديد أمامه إلا نقض شرط ابن عوف وانتقاء كلِّ معاونيه من بني أُميَّة.

في هذا الوقت، كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، وكانت الفتوحات قد حققت اتساع الرقعة الإسلامية، وحققت للعرب بحبوحة اقتصاديَّة مغرية.. كان انسياقهم وراءها سبباً من أسباب تكريس الإنشقاق وكان حكم ابن عفان خروجاً عن خط الرسالة، وجنوحاً نحو «ارستقراطية» خلقت طبقية جديدة، وأذكت نار الحقد بين القبائل التي كانت قد توحدت في سبيل نصرة الإسلام.. فتولدت ثورة أدَّت إلى مقتل الخليفة.

أما معاوية، والي الشام، الذي كان يطمح إلى تحقيق الخلافة له، فإنَّه قاوم المبايعة الجديدة لعليٍّ، التي حققتها له الجزيرة الثائرة مع كلِّ الأمصار المفتوحة، ما عدا الشام.

وكان بشير بن النعمان قد لفَّ قميص عثمان وهرب به إلى الشام، فاحتجز القميص معاوية، وأخذ يلوِّح به حجة في أخذ الثأر.

هكذا ابتدأ الصراع على جبهتين: عليٌّ من جبهة ومعه الهاشميون والأنصار،

---

(١) ففي الطبقات لابن سعد ان قتاده روى ان علي بن ابي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد (ج ٣ - ص ٢٥).

وسأل مالك بن دينار سعيد بن جبير: من كان صاحب راية رسول الله فقال له سعيد انك اخو اللبب (كان سعيد في زمن الحجاج وكان يخشى منه). فقال له معبد الجهني: انا اخبرك. كان يحملها في المسير ابن ميسرة العبسي. فإذا كان القتال اخذها علي بن ابي طالب. وقد روى ابن عباس ان علي بن ابي طالب حامل لواء الرسول في كل مشهد.

(٢) سيرة هذا الإمام الرِّسالي الممتحن صلوات الله عليه تدل على أنَّه لم يرضخ حتى اللحظة الأخيرة. بل بقي يعيش الكفاح من أجل تغيير الواقع إلى أن خر صريعاً. بدليل أنَّه كان يهيِّىء حملة عسكريَّة واسعة لتحديد الهجوم على جبهة الإنحراف.

ولم يعقه عن إنجازها إلا سقوطه شهيداً في بيت ربِّه.

ومعاوية من جبهة ثانية ومعه الطامعون بالخلافة.. شأن طلحة والزبير.

وكانت عائشة، أُم المؤمنين، تشد أزر نسيبها طلحة لتوصله إلى الحكم، حباً به، وبغضاً بعليٍّ الذي كان بينها وبينه جفاء قديم.

وعطف معاوية كثيراً على المحاولة، وكانت « معركة الجمل » بقيادة عائشة.. ولكنَّ المعركة خسرت، ومات فيها طلحة والزبير، وأُسرت عائشة ثم تركت معزَّزة مكرمة.

وبقي الصراع يشتد بين هذين القطبين، وكادت « معركة صفين » أن تكون الفاصلة لجهة عليٍّ، لولا خدعة رفع المصاحف وتحكيم عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، مما أدّى إلى خلع عليٍّ دون معاوية.. عكس الإتفاق على خلع الإثنين معاً وإرجاع الحكم شورى.

واستؤنف القتال بعد بروز جبهة جديدة هي جبهة الخوارج، الذين انتفضوا على عليٍّ لقبوله بالتحكيم. فأبادهم في معركة النَّهروان.

وضاق عليٌّ ذرعاً بمعاوية، ممّا أدّى أخيراً إلى عقد هدنة موقتة، تركت فيها الشام على حدة، وبقي عليٌّ يعالج شؤون الدولة في الكوفة.

أما الفتوحات، فقد تجمدت كردٍّ فعلٍ لهذا الصراع العنيف، الذي لم يتمكن ابن أبي طالب من وضع حدٍّ نهائي له.

وفي ذات يوم، بينما كان الخليفة متوجهاً إلى مسجد الكوفة، فاجأه عبد الرحمن ابن ملجم بضربة سيف مسموم أودت بحياته.

شخصيّة الانسان

اذا كانت الشخصيَّة تبنى، فعلى حساب العقل مجمل ما ينشأ من تلك العمارة.

فهو الذي على يديه يتم رصف الأساس لتقوم عليه البناية.. إما متينة شاهقة تزخر باللون والجمال، وإما هزيلة باهتة تتقزَّم ولا تثبت على حال. لأنَّ العقل، وليس سواه، هو المعني في الإنسان.. هو الزبدة التي لا يمكن أن يستحيل له سواها في تقلبه فوق أديم الأرض.. كأنَّه الخلاصة الأخيرة في أبعد واحدة من سلسلة المصافي التي تمتد على طول خط الحياة.. كأنَّه القيمة تبتدىء في لبان رغام المادة لتتناهى في صفوة الرّوح.. كأنّه الشذا، يتسلسل من غبار التراب ليعبر تلاوين الزهر إلى خفَّة الأريج.

هذا العقل المصفّى من تربة الجسد، كما تصفّى الراح من خشب الدَّوالي، كما يصفّى العبير من خصل الرياحين.. هو الذي ينتهي فكراً، كما تنتهي الراح نشوة، كما ينتهي العبير شذا.

وهو بالتالي، ذلك الفنّان الذي لا يبرز مجال فنّه في مجالات مهارته، ولا تثبت جلالة صنائعه إلا إذا احتكت بفتنة بدائعه. وهو بالنتيجة ذلك المرجع الذي لا تجد شخصيَّة الإنسان سواه.. إذ تلجأ إلى كنفه، فيعمل على إخراجها بقدر ما أُوتيه من القوَّة على الإخراج.. فإذا هي منه بين راحتيه كأنَّها تعبير صادق عن قوَّة أصالته، أي أنَّها تكون منه بمقدار ما يكون هو من رهافة الوعي وعمق الصّفاء.

ذلك الفنان، الذي هو العقل، هو أشبه حالاً بذلك المهندس الذي يعكف على عمارته، يرتاد من أجلها المقالع التي يعرفها، فينصب عليها نحتاً وصقلاً وتشذيباً ويكتنز لها من حيث تتمكن يداه ما يراه لائقاً بها من النقش والزخرف والرياش.

حتى إذا ما جاء عمله متكاملاً أمام عينيه، جلس قبالته يدل عليه.. انَّ هذي هي مجاهيد يديه، أما تلك العمارة، فإنَّها تكون - بحق - عاكسة لتلك المجاهيد، أما حقيقتها فهي في أعين النقاد: اما كوخ فقير يهتز مع أول هبَّة ريح، واما بيت عادي تأنس إليه الإستكانة أو قصر منيف يزخر باللون والترف، أو قلعة جبارة تهزأ بصرصرة العواصف أو هيكل وقور تخشع إليه الأجيال في تطوافها عبر الزمن.

وقد تختلط هندستها ويتداخل بعضها ببعض، فتتنابذ ألوانها وتتناحر أو تتضارب أشكالها، وتتشاكس أو تهزل جدرانها، وتعوج أو تلتوي باحاتها، وتنكمش أو تتقلص شرفاتها وتضيق.. كل ذلك حيث يحلو ويفضل أن تأتلق وتأتلف، أو تتآخى وتنسجم، أو تسترق وتستدير، أو تستقيم وتنفسح، أو تستطيل وتتسع.

وربما لا يختلط من هندستها كل ذلك.. ولكنَّ التشويش يدق فيها بعض مناقيره، والبلبلة بعض سنانيرها.. فيمتد إليها التشويه، ينهب من قيمتها، وينال من رونقها.

وقد يتم على قلَّة إخراج هندستها بذلك الإنسجام الفريد في وحدة تتزاوج فيها المباني بالمعاني، فإذا هي متناسقة متكاملة، مراصفها تعلو بمشارفها، ومدارجها تأتلق بمباهجها، وباحاتها تندمج بواحاتها، ومطلاتها تزهو بهالاتها، وألوانها تتناسل من أفنانها.

تلك هي العمارة المثلى بين يدي فنان جبار فاضت مفاهيمه على تصاميمه واندمجت اشواقه بأعراقه.

على هذا المقياس بالذات تتنقل شخصيَّة الإنسان في مضمارها بين يدي العقل.

أما المقالع التي يرتادها في سبيلها، فهي تلك المزايا والصفات، يجمعها لها

قبضات قبضات.. تارة مقتورة، وطوراً ميسورة، وساعة موفورة.

وهكذا تتولد، متدرجة من شخصيَّة فقيرة ليس لها من الوجود غير تراب الجسد، دمية تكبو إذ تحبو، إلى شخصيَّة خفيضة، تستكين إلى هيكلها استكانة الأرانب إلى أوجارها، تقضم عشبها بنابها، وتختبىء من نهارها في ليلها، وتنطفي شمسها بفتحة رمسها..

إلى شخصيَّة مزهوة، تستعير ألوانها من أذنابها وتتباهى أحسابها بأنسابها وتتوهم أنَّها تستطيل ولكنها تذوب مع أظلالها..

إلى شخصيَّة كريمة الوشاح، مصقولة المزايا، موزونة الإخراج.. تعيش يومها في غدها، ويورق ذكرها في لحدها...

إلى شخصيَّة ممتنة الحواشي، منزَّهة السجايا، موقَّرة الجوانب... تتسامى بالتراب إلى السحاب، وتخصب الأمد بالأبد، وتكثف الخيال بالجمال، وتغطي اللحود بالخلود، وتعل الفناء بالبقاء، لتحقق الإنسان بالإنسان.

مدارج مدارج...

منها التافه المعدوم تلفظه الحياة على حواشيها..

ومنها الساذج المسكين يتبرَّم بعبء نيره، ويتقبَّل الوجود خوفاً من العد..

ومنها المتبجح المغرور، يقرقع أقدامه على الشاطىء بانتظار أن يستسلم إليه البحر بمكنونه..

ومنها النير الموهوب، يغازل الشمس ولو خلف الغمام..

ومنها المصطفى، جلَّت به الأوصاف، واستجمعت فيه القيم.

شخصيّة ابن أبي طالب

من ذلك المعدن الطيِّب كفكفت شخصيَّة الإمام مستكملة كلَّ مقوِّماتها... شخصيَّة برز العقل فيها السيِّد المطلق، فإذا هي مِنه كما هي الديمة من الغمام، تستمطره فينهمر بها انسجاماً بانسجام.

وهكذا بسط عليها لواءه كما أسلست له قيادها، فامتصته وامتصها، قوة بقوة، ولوناً بلون..

حتى لكأنَّ الهيكل المتين كحبيكة الفولاذ، ما استجمعت أوصاله إلا ليكون قاعدة جبّارة لقائد جبّار..

فإذا السيف في كفه وامض بكر، له حدّان متساندان:
حدّ على التِّرس وحد على القرطاس، في حلبة أبداً بيضاء ذات وجهين:
وجه على الجهاد ووجه على السداد..

ازدواجيَّة في البطولات، لملمها التوحيد فانساقت إلى المضار كانسياق الجوارف تلاحمت إليها الجداول.

وجداول من المواهب تلبَّست المزايا والصفات كما تتلبس الأَفانين أوراق الربيع، وتضافرت في تساجها وتناسقها كحبال الشَّمس، وحدها المصدر وكالمصهر، تتذاوب فيه المعادن.

هكذا انصهرت في هذه الشخصيَّة مجموعة المواهب ومجموعة الصفات ومجموعة

المزايا، قيمة بقيمة، ووزناً بوزن، ومقداراً بمقدار.. فإذا هي يتزاوج بعضها من بعض كما تتزاوج الألوان في لوحة رسام.. وإذا المعطيات كالفيض، تجري كأنَّها في سباق، وتتساند كأنَّها أنداد.

فالعفة والصدق ريشتان ناعمتان كان لهما من القوة لديه ما كان لهما منها في زنديه: التِّرس والفرند، والزهد والجود.. جناحان رهيفان أفاء عليهما من ظلّه، فإذا هما بعين المدى يتباعدان ثم لديه يلتقيان.. فإذا الزهد بالدنيا جود بها، وإذا الجود بالزهد اكتماله.

والتقوى والإيمان شعوران صميان ومنبعان صافيان، غارا في جناحه واندفقا على لسانه، فإذا هما به على نصب الكعبة حسام، ومن ورعه قبلة للإسلام.

والحق والعدالة صفتان متلازمتان، وقلادتان فريدتان، وحجتان لامعتان.. وشم بهما وجدانه، وحلى بهما بيانه، وسنَّ عليهما سنانه.. فإذا القيم بين الحق والعدل تتلمس في معتقده تراثها.

والحب والإخلاص حبلان وثيقان ودفقتان سخيَّتان، ترابط بهما فؤاده ولسانه.. فإذا الأرض، بجماعاتها، تنشد الدفء لتمرع.

والحزم والعزم نتيجتان منبثقتان من صلابتين متكاتفتين: القوة والإرادة. كأنَّ لهما من عينية انعكاس على ساعديه وثورة في منهجيه، فإذا الدِّين والدُّنيا في ناظريه قالبان يستكملان وحدة الوجود من حدَّيه من كل تلك المقادير.

مواهب وصفات شربت شخصيَّة عليٍّ بن أبي طالب، فإذا هي في وجود الإنسان دعامة تتشبَّث بها قيمة الإنسان.

إلى أرض الجزيرة

أتنامين على الطَّوى وتكتفين بالشِّعر يرجز على دروبك تخطها القوافل محملة بالطيوبُ؟

ومالك بالبيد تتعطش رمولها على السراب فتتلظى ولا ترتوي؟

قرِّبي يا نفود الجزيرة ويا ربعها الخالي.. قرِّبي وتلملمي، فليس يلطِّف عنك سموم خط الهاجرة إلا تلك النِّسمات، تبرِّدها المحيطات حواشيك. وحواشيك هي بعض فيوضك... يا طالما زحفت اليها مع السَّحيق من اجيالك.

تلك كانت طفراتك المتمرِّدة عبر السِّنين في هجرات حائرة، ما انتقلت بقدم حتى تشبَّثت بمدنية...

فقرِّبي وخذي مما أعطيت، غزواً بغزو يا فيافي الجزيرة...

ولملمي ذيول ليلك الطويل على كف هذا الصبح الأصيل...

وتيمني، فمكة اليوم ضلعك الأملد، تشهد ولادة ما شهدتها من قبل بيدك السمر...

وتيممي بالمر واللبان من أفاويهك، واجمعيها قوافل من خيراتك، فقد حان لك الأوان أن تحرقيها في جو صميم من أجوائك...

وباركي الجم من آلام مخاضك، لأنَّ المولود البكر الذي يقطع أوصالك سوف يربط أرضك بسمائك، ويفجر النور على أرجائك...

وكنّسي الكعبة من أصنامك، فاللات والعزّى ومناة قد اختبلتها روعة التوحيد...

وترابطي قحطانك بعدنانك، فأنت منذ الساعة قبلة الملايين، ولسوف تنصب عليك أعين الوافدين.

فمع الأوس والخزرج نوّري يثرب يا مدد الأنصار ويا سهد المهاجرين، واجلي الرّمد عن عينيك.. فإنَّ الفجر يحمل إليك تباشير ضياء لن تتمكن مفاوزك على مداها من أن تستأثر بها ضمن آفاقها.. فهي رسالة بمستوى الفيض، مصدرها أزل ومداها أبد.

ولئن تحاولي.. وماذا يضير؟.. فإنَّ الوهج المنبلج لن تئده « بئر أُحد »، فهو نور يتعدّى نطاق الحجب، لأنَّ مصدره أبعد من المكان وأقصى من الزّمان.

فاسترشدي، فإنَّ الهدى على انبثاق بين يديك، وكوني القاعدة وكوني المزار، فليست تضيرك ركيزة المنارة.. ولا تلعبي بنزهاتك إذ تجازفين بمقدّراتك، فإنَّ الثوب الذي به تتدثّرين رثّت خيوطه، فأنت به على غضاضة.. فتوحدي ووحدي، فإنَّ الكلمة أخذت تملأ الدنيا على مسمعيك: « الله أكبر ». وانظري إلى البعيد، فإنَّ الطريق الذي خط أمامك لن تقود قدميك عليه عين كليلة، لأنَّ العقيدة التي نفرت معانيها سوف تضيق عليها قوالب الحروف ولن تتمكن من استيعابها سحب الخيال.

لذلك، سوف تجتاحك إلى حيث تجد إنساناً فتخصبه.. فكوني المطيَّة وعبّدي الطريق، وقدّري قيمة ما تحملين..

إنَّ ذلك مع التأريخ أفخم قوافلك واذكى طيوبك يا أرض الجزيرة.

مولد الرّسالة

ما بالهم يتوافدون زرافات؟.. أتراهم استهوتهم الكلمة؟

والكلمة ما قيلت إلا استقبلت بالهزء والسخرية كأنَّها الهراء، وما استحقت إلا النبذ والإضطهاد كأنَّها التجديف.

وما كانت الليالي العاتمات إلا ستاراً تغطت به هجرتان مشرَّدتان، كأنَّهما لصوصيَّة تتسلل.

على مَ يتوافدون والكلمة التي تستهويهم تجر على قائلها وقابلها على السواء الويل والتشريد؟!

وما قيمة الكلمة يتهذَّر بها رجل في خلوة؟
ومتى كان « جبل حراء » كعبة العرب،
ومكة والمدينة؟ كيف تجوز وقاحة الغار؟ ومن هم هؤلاء المتوافدون؟؟
ومتى كان لرعاع القوم تشوّف على الأسياد؟.

وتشهد « بئر بدر » أول معركة بين سيِّد ومسود تثبت فيها قيمة الكلمة بين سيِّد أخذ يقلق على مصيره ومسود بدأ يغار على مصيره.. بين فئة ترى في ديمومة الأوضاع دواماً لأمجادها وأترافها، وفئة أصبحت تتحسس قبساً جديداً يزيل عن كاهلها حيفاً مزمناً وذلاً مقيماً.

ولا تنتهي « معركة أُحد » إلا والكلمة أصلب عوداً وأعز شكيمة، وإذا هي

تتشبَّث الحجة بالمنطق، ويتعلق الضعفاء بالأمل الجديد كما يتعلق الغريق بحبل النجاة.

وإذا الكلمة تجنح بالخير والحق، وتشع بالعدل والجمال، وتتكشف عن رؤى تتجلّى بالعقل إلى فوق وتتطاول بالخيال إلى محجات تستهيم بها النفوس على مدى القيم.

كلمة تحمل في طيّاتها خفقات الحنان كما تميد حروفها برطب الجنان...

وإذا «الإله الأكبر» هو إله موسى وفرعون، وإله عيسى ومحمد.. إله قدير يلبسه الوجود كما يلبس الأبد الأزل، وتندمج به الآجال كما تندمج الآفاق بالأجواء، وتتوحد فيه المصادر كما تتوحد على بعضها خطوط الدوائر..

إله رحيم هفا إلى حضنه مساكين أهل الأرض.. جمعهم محمد من بين قبضات أقطاب قريش كما لملمهم من قبل عيسى من جور أسياد «روما».

وتتفتّق الكلمة على آفاقها كما يتفتق الصبح على الغسق.

وإذا الغار كوَّة تنهمر منها خصل الضياء. فتهلع لها مخابىء الكعبة، وتتأوَّد بها أوداج «هبل»، ويتهافت المتوافدون حيارى مثقلين.. يجتذبهم الشعور قبل أن يفهمهم الحجى، كأنَّهم عنه في ذهول.. ويتحسسون بالدفء كأنَّه ارتياح الخاطر على قلق المصير..

ويماط لثام، ويسقط قناع.. وإذا الحقيقة على سفور.. رسالة جديدة، وإنسان جديد.

أولئك هم حثالات الناس ومساكين أهل الأرض، يتلمَّسون جباههم بعد تعفيرها، فإذا بها جباه ترتفع من جديد أمام الشمس، تتعزز فيها قيمة الإنسان في وجوده وفي مصيره..

إنسان يتلمَّس طريقه بقدميه، ويقرر مصيره بإرادته..

حر طليق، لا تئده تقاليد، ولا تستذله عبودية.

وكما استعانت «بئر بدر» بـ «أُحد»، هكذا استجار «أحد» بـ «وقعة الخندق».. ولن تنفع استغاثة الخندق بحصون خيبر، لأنَّ غار حراء أصبح ذلك الصَّدى البعيد.

وأنّى لمكة الأسياد وكعبة الأصنام أن تخنق صدىً أخذ يلف أجواء الجزيرة ليتعداها، مع الشروق والغروب.

إلى حيث يوجد إنسان، وإلى حيث يمتد مكان وزمان.

قيمة الرّسالة

ايه غار حراء!.. أتراك خزّان اللهب؟.. أية نأمة صدرت عنك؟... لم تكن خفيفة كالأثير وطريّة كالبراعم، ولكن الأثير الذي يغلف الأرض هو - مع خفّته - أثقل منها، فهي عليه تستريح وفيه تدور..

وإنَّ البراعم التي تنوء بها جزالة الأغصان هي نطاق وجودها، إذ بها تصلب ولها تعيش.

أهكذا كان عنك للكلمة هذا المدار؟

وليس بالعجب... فإنَّ الذي خاطب الإنسان بلغة الإنسان لم يسمعه إلا الإنسان... والكلمة التي تنابث بها الغار لن تعج بها إلا الأغوار.

من هنا كان وزن الرِّسالة... فإذا هي ليست محض كلمات تتبختر بأساجيعها،

بل هي مبانٍ يطل منها الوجود على الخلود،

وتطوف في ردهاتها سحب الخيال، وتنهل على أرجائها خضائل الجمال... فهي للفكر تطوافه وارتياده،

وهي للروح أشواقها ومداها، وهي مع الحياة برفقة العناء كفكفة العزاء، وهي للحياة خلف الحجاب دغدغة الأمل بحسن الثواب على كف المآب..

ومآرب فرشت دروبه بالعطور، وعطور طيبّتها أشذاء الفضائل، وفضائل ما احتوتها إلا القلوب، وقلوب ما وسعها غير الإيمان، وإيمان ما رسخه إلا التّوحيد، وتوحيد ما احتواه إلا العقل، وعقل ما سبغ إلا على الإنسان، وإنسان هو مدار الوجود، ووجود هو «الله» في البدء وفي النهاية(١).

تلك هي الرسالة،

تقدّم نفسها على كفّها المفسوح: نور، وإيمان، واقتناع، وحق، وحب، وإخاء، ووفاء، وصفاء، وعزاء...

وهذا هو النّداء على تلبية، تتلقطه الأعماق كما تتلقط حبّة الرّمل قطرة النّدى،

فإذا هو انعكاس في النفوس وفي العقول..

في طفرة تلين راحتها كأنّها الدّعة، وتصلب شكيمتها كأنّها العناد، وتقلع على الأذى كأنّها العاصفة. كل ذلك على كف يسمح وعلى زند يدفع، فإذا الجهاد جهاد يبشر على اقتناع وجهاد يدافع بغير هوادة،

وإذا البطولات تشرع يسوقها الإيمان إلى نصر أكيد.

---

(١) نلاحظ لوناً من الغموض الصوفي في هذه الجملة، وتشاركها في هذا الغموض جمل اخرى في هذا الفصل، وفي فصل (العدة الكاملة). وأكبر الظن أنّ الكاتب لم يستهدف فيها إعطاء مفهوم فلسفي عن الوجود والمسألة الإلهية بقدر ما استهدف روعة التصوير من الناحية الفنيّة.

واقع الأحداث

إنَّ السهم الذي انزلق عن قوسه لم يعد ملكاً للكنانة.

ذلك كان شأن الرِّسالة.. فهي ما كادت تدور في خلد النّاس حتى تخاطفوها كحق من حقوقهم، وهي لهم على كل حال.

ولقد استوعبوها بقدر ما كانت حاجتهم إليها، ولقد كانوا بأمسِّ الحاجة إلى كلِّ ما يحرر نفوسهم وجسومهم، على السَّواء، من عبودية طال حكمها وتكاثف ظلها.

فهي إذ كانت في البدء شعوراً ينساب حثيثاً إلى الخواطر، إذا هي تصبح حاجةً تنساق إليها الخواطر..

وبينا كانت في أول عهدها تستظل الملاجىء والخابىء إذا هي تنقلب إلى كنف يلجأ إليـه المستظلُّون..

وإذ كانت تسير في طورها الأوَّل بين مكة والمدينة وكأنَّها تحبو، إذا بها تعدو دون أن تتمكن من صدِّها الحصون، ولن تتوقَّف على تخوم الحجاز، ولن تثنيها خطوط الصَّحاري.

وليس العراق وحده بانتظار، ولا الشام وحدها تومي.. فمصر، على أبواب أفريقيا، راحت تجهز ركائز المآذن، وفارس على مفاتح الشرق أخذت تسهل اجتياز المعابر.

لقد انقلب الإنكماش إلى انفتاح وانسياق، وتبدّل الدّفاع إلى تبشير، فإنذار، ثمّ إلى هجوم مركّز.

من هنا، إنّ الحاجة أصبحت ملحة إلى تنظيم عاقل يستمر بدفع العجلة على دواليبها السليمة.

إنّ ذلك لم يسبقه كثير من الإستعداد[1]، لأنّ النجاح الذي تأمّن بهذه السرعة لم يكن إلى هذه الدرجة بالمتوقع..

ثم أنّ المفاجأة الكبرى بدورها كانت أشدّ المفاجئات...

فصاحب الرسالة نفسه جلا عن الساحة، إذ راح يعرض أمام ربّه رصيد حسابه على الأرض، دون أن يسبق ذلك أي انذار[2].

وفوق ذلك، فإنّ الرسالة لا يزال عودها طريّاً ولم تتمرّس بها النفوس على كفاية، وهي مهددة بردات كثيرة كردة أُحد والرجعة، لا تزال تستنجد بأقطاب قريش، أُولئك الذين استزلوا عن أرائكهم على تحدّ.

وهناك «مناة» و «العزّى» و «هبل» لا تزال تتململ في رغام حطامها تحت ستائر الكعبة.

---

(١) و(٢) في الواقع ان غياب صاحب الرسالة عن الساحة سبقه انذار متكرر من النبي، وا ستعداد كامل وتخطيط مستوعب لضمان سلامة التجربة الانقلابية التي مارسها الاسلام.

فقد اعلن النبي صلى الله عليه وسلم في سنته الأخيرة مراراً أنّه أوشك ان يدعى فيجيب.

وحدد في خطابه التاريخي (يوم الغدير) سير التجربة بعده. وربطها من ناحية القرآن بوصفه المرجع النظري الأعلى للرسالة، ومن ناحية اخرى بقادة رساليين على مستوى المسؤوليات الضخمة لقيادة التجربة عصمة وإخلاصاً ووعياً.

وكان الامام عليه السلام هو الشخص الجاهز منهم. بنص الرسول ليتسلم المسؤوليات بعد النبي مباشرة.

وما وقع بعد وفاة الرائد الاعظم من تميّع وخبط لم يكن نتيجة لعدم الاستعداد والانذار المسبق، وإنّما نتج عن الإنحراف.

والرسالة عينها لم تنزل بعد في إطارها القشيب، فهي لا تزال مع الصحابة أحاديث مبعثرة، لم يجمعها تنسيق ولا تبويب.. ومع كل ذلك، فهي معرَّضة لأن تلين تحت عدة تيارات من الإجتهاد والتأويل على موائد المصالح والأهواء.

في هذا الوقت عينه، كانت الرسالة الفتية، تتلمس طريقها لتستأنف سيرها نحو أهدافها البعيدة.

دور
ابن أبي طالب

عفوك يا ابن أبي طالب!.. فأنت من الرسالة كقطب الرَّحى.
إنَّ الدروب التي مشيتها برفقة الرسول تشهد بثقل خطاك...
بضع سنين ربما مشاها وحده وأنت إلى جنبه، فيما عداها
في وحدة العيش
وفي وحدة المصير،
في وحدة النهج
وفي وحدة التفكير.

فأيَّة اعتلاجة من اعتلاجات روحه لم يكن من نفسك فيها اعتلاجة يا رفيق الدَّرب والعمر والجهاد، بكل ما في الدَّرب من وعورات، وبكل ما في العمر من أوصاب، وبكل ما في الجهاد من أثقال؟

ويا حبيباً تنزل في شغاف حبيبه كما تنزل البلغة على الأدوار.. ويا شطراً تناول شطره في كلِّ المهمّات والملِمات...

فإذا ما نمت في فراشه فأي فرق كان ما بين ثوبك وبرده؟... أفهل تكون وحدة الروح أضيق فسحة من بادرة الفداء.

ولا غرو يا حبيب الرسول، فأنت في نظره كقضيب من النّور أخذ بفلقتين، هو فلقة منها وأنت الثانية.. وكنت في رأيه بوّابة العلم إذ يكون هو مدينته،

وأنت زوج ابنته وفلذة كبده فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين مع مريم بنت عمران، وأنت منه كما يكون القلب من الجسد وكما تكون العين من الحدقة.

أي فكر ساوره ولم تسقط عليك ديمه؟.. وأي عزم عزمه ولم يمر على زنديك ثقله؟.. وأي سيف سلّه ولم يكن على مسنّك شحذه؟...

حتى روحه الكريمة ما أحب أن يقدّمها إلا على راحتيك وهو يطرحها على أحضان ربّه.

هكذا نعمت بالرفقة على طول السماح، وهكذا صدمت بالفرقة على ألم البراح!

فتهيّأ، فإنّ الرسالة التي ترعرعت في ظل قلبك وغرفت من فيض حجاك ستظل ترتبط بحامل سيفك نياط مفاوزها، لأنّك لها إذ تغور بها الرّحاب.

التحضير

مقاطع البحث

تأثير الرسالة

زيارة الموت - موت النبي

زيارة الموت - موت فاطمة

مجال الصدمات

الإسلام دين جديد

معركة أُحد

وقعة الخندق

خطيئة عبد الرحمن بن عوف

بين عكسين - الأول - فراغ يمتلىء

بين عكسين - الثاني - ملء يفرغ

مقتل عثمان

أول ثورة في تاريخ الجزيرة

الساحة المكشوفة

بين التردد والقبول

العدة الكاملة

تأثير الرسالة

كيف كانت تهجع تلك الحمم التي تفور من هذه الكوّة الضيّقة التي يتنفس بها هذا الجبل الصامت؟..

أمن تلك الومضات الخفيفة التي ولّدها الإحتكاك قفزت تتواثب في الفضاء كأنّها سيول السعير؟

ذلك كان شأن علي بن أبي طالب، إذ كانت تهجع في أعماقه كوامن اللهب.

غير أنّ الرسالة التي انكب عليها بزخمه والتي انسكبت بزخمها فيه، كانت الومضة الوحيدة في تفجير كوامن طاقاته، كما كانت الشحنة الكبيرة التي أفرغت على هذه الطاقات وقودها...

أقول الرسالة بكلمة.. ولكنها كلمة أطول من حروفها.. فهي بطول قوس يرتكز حدٌّ منها على الأرض بينما يهيم حدُّها الآخر ما وراء الحدود المحسوس.. فهي الرباط الذي يصل الدنيا بالآخرة، الإنسان بيومه بالإنسان بغده.

وأي إنسان ليس له يومان، يوم إقامة ويوم رحيل؟.. والأول موصل إلى الثاني، والموصل حائل، والمستقبل باق بقاء الوجود.

فإذا كان الأمر كذلك، وجب توفير الإهتمام باليوم الأول، لأنّه عتبة اليوم الثاني، ولأنّ الشحنة التي تحضّر هي التي بها يعبر.

أما ذلك اليوم، فمهما يكن لونه ومهما يعتوره من إبهام في الوصف والتحديد، فهو آتٍ ما من مناص.

أما العدة التي تهيّأ له، فإنَّه من اللازم تهيّأ، إذ تكون عند ذلك موفورة إما لاستقباله وإما للتمكن من فك إزاره.

والإنسان بيومه الحاضر وبيومه المقبل هو ابن الحياة البكر، وفيه ينحصر تراثها.. وهو وحده المكنة النامية التي تتمكن من تحقيق التَّطور، وهو وحده القوَّة العاقلة التي يتسنّى لها الإفادة من مقدَّرات الوجود، وهو وحده الطاقة المدركة التي بها تحل الأحاجي وتفك الرموز.. وهو، بالتالي، نواة المجتمع.. ذلك المجتمع الذي هو إطاره الأكبر، وسياجه الأمنع، وتحقيقه الأصدق.

وإذا كان الإنسان هو ابن الوجود البكر، ففي حضن هذا الوجود يدور وليس في غيره يغور.. البداية منه، وفيه التلاشي..

الكيفية وحدها هي التي تخفى، وليست إلا بالعقل تدرك.

وليس إبهام الكيفيَّة، على كل حال، يمنع حصول ما يتم.. فهو على رغم كل ذلك يحصل تحت الإدراك وتحت النَّظر..

حتميَّة لا تمنعها (كيف)، ولا تغيرها «لماذا»، ولا تؤخرها «متى»، ولا تعجلها «إلى أين».. ورضوخ يزيد جماله الإيمان من دون أن يقلل أهميته الشك.

بهذا الإيمان راح ابن أبي طالب يحضِّر شحناته وشحنات الناس في سبيل العبور من يوم بهي إلى يوم خالد البهاء، وبهذه الإيجابية أخذ يحضِّر العدَّة لبناء مجتمع فاضل يمتن بالإنسان ويمتن الإنسان فيه بالفضائل.

زيارة الموت

موت النبي

وجلوة النفس، في أي موقد تجمع وقودها؟.
هل في الألم وحده تحصل الجلوة؟
وما قيمة الحب؟.. وأي تأثير للحرمان عليه؟
قد تكون أسئلة.. ولكنّ الجواب يكون كالإنصهار،
لأنّ الألم الذي تتقلّى النفس على نار غضاه يستعير من الحب ضلوعه ومن الحرمان إكسيره.. أقول « ضلوعه » كي أكسب الكلمة مالها من جمال.

وأقول « إكسيره » كي أرشف هذا الجمال من حلاوته.

فللألم قساوة ومرارة ربما لا تجد النفس في غيرها ما يستحيلان فيها إلى جمال وحلاوة، ولكنّه جمال مصهور وحلاوة مطبوخة، تقدّمهما النفس للعقل طبقاً يغطّي منه بعض جوعه.

هذا النوع من الألم زار عليّاً بن أبي طالب، فأكسب نفسه ذلك النوع من الجمال، وانعكست حلاوته على لسانه بذلك العذب من الكلام.. وكان الموت وحده ذلك المنهل.. جاء على الحب بالحرمان.

وبين يديه، في حضنه، وتحت عينيه، انطفأت شعلة الحياة من قلب الرسول، وانكفأت عن عينيه تلك اللمع، وتراخت يداه عن كفَّيهما، ولف جسده ببرودة الموت..

كيف يسكت قلب نبضت فيه قلوب الناس وأنصتت إلى نبضاته آذان الملآئك؟.. وكيف ينكفىء النور عن عينين قد استعار النور منهما بهاءه؟.. وكيف ترتخي يدان قد انبسطت على كفيهما أوقار الأرض وأفراح السماء؟.. وكيف يلف الصقيع جسداً كان يحمل للدنيا برداً وسلاماً؟...

ولكنَّها الحقيقة...

يعود ابن أبي طالب من ذهوله ليصدِّقها، فهي تحت ناظريه في برودة الموت، تسلخ عنه أحب الناس إليه، أذكاهم، أروعهم، أمثلهم... لقد هرب من بين يديه، في غفوة الأبد، الأمل الوطيد والرأي السديد، وتوقَّف مع رهبة الصمت القلب الحبيب والحب الخصيب.

يا رسول الله! ترى هل هي النهاية القصيَّة؟.. أم هي البداية البهيَّة؟.. والرسالة؟... أتراها انكفأت بانكفائك إلى غار حراء؟.

وساحات الجهاد؟.. أين « بدر »؟.. أين « أُحد »؟.. أين « خيبر »؟.. أتراها الآن قد انمحقت من أرض الجزيرة؟

و « مناة » و « العزّى » و « هبل ».. أتراها تململت من جديد من حطامها لتقهقه الآن قهقهةَ الشماتة؟

وربما لا ينتهي الألم، يحز في نفس ابن أبي طالب وهو أمام الجسد المسجّى على رهبة الصمت..

وربما لا تنتهي مناجاة هذا الكبير لهذا الراقد الأكبر..

ولكنَّه سوف يختم قلبه على هذا الألم بختم الراضخ المؤمن.

وسوف يطبق عينيه هاتين ليفتح عينيه الأُخريين اللتين لا ترفُّ أهدابهما أمام الموت، واللتين لا تريان القريب إلا في قصيِّه، واللتين تبصران أنَّ الموت القصير هو فكاك الأسير والشأو المنير.

موت فاطمة

غير أنَّ الجرح الذي استختم بالصبر والإيمان عاد عليه موت فاطمة لينكأه على حنان.

وتفتَّق الجرح لينزف نزفاً جديداً ومن لون جديد، هو لون الأرض بلحمها ودمها..

وللأرض لون كلون الأساور والخلاخل، حُلى يتثاقل بها الجمال، ويتكاثف بها الدَّلال.

والأرض وإن يكن لونها من لون القيود، فإنَّ الإنسان يأتسر بها فيألفها كما يألف الجرح ضماده، ويهواها كما يهوى الكسيح عكازه، ولا يتبرَّم منها إلا كما يتبرَّم الصديان من السَّراب.

وكانت فاطمة من عليٍّ دفئاً لقلبه ورباطاً لدنياه،

وما أن فصلها الموت حتى أحسَّ بعمق الفراغ وبرودة المتَّكأ.

وإذا هو من واقع الحياة على مجابهة..

جرح وضماد، وكسح وعكاز، وصدىً وسراب..

وأين هو المنهل؟!

ويلقي جرحه بفاطمة على جرحه بأبيها، ويغمض عينيه على دمعتيهما، ثم يستسلم للبصيرة ليقول:

تخففوا تلحقوا.

مجال الصّدمات

إذا كان للألم في النفوس فعل المشحذة في المقاطع، فللصَّدمات كذلك عليها فعل الوقود تحت المراجل.

وليس كلُّ النفوس على السواء تفعل فيها الصَّدمات فعل الإثارة. فالضعيفة منها تقع من التثبيط تحت الكلل.

أما تلك التي تعلو بها مراتب النضج إلى مستوى العقل والقيم فهي التي تتقبل الصَّدمات على صمودٍ لتجعلها بقيمة المدد.

لم تكن نفسية ابن أبي طالب من هذا النوع وحسب، بل كانت من الطراز الفريد الذي كان يعتبر الصَّدمات حوافز في معابر الحياة.

فالصَّدمات التي كان يتقبلها سحابة عمره لم يكن ليقابلها بذلك التحسب الحريص الذي يتحسب به أهل الدُّنيا تجاه الملمات.

وما ذلك إلا لأنَّه كان يرى الدنيا بمنظار غير منظار هؤلاء...

فهي وسيلة لديه، بينما هي عند الآخرين غاية بحد نفسها.

وما أبعد الفرق بين الوسيلة والغاية...

فالوسيلة أداة تصغر قيمتها حتماً بالنسبة لقيمة ما تؤدّي إليه، والغاية هي دائماً أبعد.

بهذا الواقع النفسي المبني على عقيدة واضحة المرامي، عالج الدُّنيا، كلَّ الدُّنيا، بصدماتها ومآسيها.. وقد أفاد منها، ولكنَّها إفادة من وزنه ومن لونه.

ولقد أعدَّ نفسه تمام الإعداد لتقبُّل الصَّدمات كرياضة تتروَّض بها نفسه.

فالموت، حتى الذي تذوَّق طعمه بفقدان الرسول ثم بفقدان فاطمة، تمكن بسرعة من هضم صدماته وتحويلها إلى معناها الجميل..

ذلك المعنى الذي أعلنت نفسها فيه الرسالة من حيث تلبسه كل حياته، وعكسه بجلاء في كل أقواله وأعماله.

ومن هنا كان زهده وتقواه، لا بل مصدر دفاعه عن القيم، بتلك البطولة الفذَّة.

وليست الأحداث التي مرَّت عليه بعد رحيل النبي عن دنياه سحابة ربع قرن إلا مصداقاً لمتانة صموده أمام الصَّدمات، دون أن توهن من عزمه أو تلين من صلابة معتقدة، حتى ولا الأحداث التي سبقت هذه الحقبة من الزمن كانت أخف تأثيراً عليه، رغماً عن كونها مرَّت وهو في يفعه لما يختزن بعد من تجارب الأيام ووطأة العمر صفوة الحكمة وجلال المعرفة.

وإنَّه لمن لذَّة السرد أن يلمح إلى هذه الأحداث بمواقعها، والتي هي بوزن الصَّدمات، حتى يجيىء السرد مصداقا لهالة الموضوع.

الاسلام
دينٌ جديد

ولقد كان محمد ذاته من أهم الصَّدمات التي اصطدم بها ليس عليٌّ الفتى وحده، بل الجزيرة برمتها، بل العالم في شرقه وفي غربه.

فهو دين جمعت إليه قيم التوحيد على ضوء العقل الذي تمكن من هضم الوحي وبسطه على كف الحاجة إليه..

وقدم للجزيرة فاستقبلته باللامبالاة.

ومتى كان ابن الجزيرة يعير كثيراً من الأبه لدينه؟

ولا عجب في ذلك، فإنَّ بضعة أحجار منحوتة بشكل لم يمسسها العقل فيه بفنّه ولا الروح بشفّافيّتها، لم تتمكن، ولا بحال من الأحوال، أن ترخي على من حولها وجبة خشوع أو احترام.

وليس ذلك بدليل على أنَّ البادية لا تحب أن يكون لها دين، بل إنَّ ذلك، بالأحرى، دليل على أنَّ ديناً عاقلا لم يشغل بعد عقل البادية..

حتى كان الدين الجديد، فإذا به عقل يوقظ من سباته الطويل، وتقبّله الناس بعد ذهول.

وكانت الصَّدمة عليهم من نوع وهلة الموقظ على غفلة.. فهو مستحضر من نوم، ومستحث على قلة استعداد.

في هذا الوقت كان ابن أبي طالب أول من يوسع عقله لاقتبال الدعوة الكبيرة، واستوعبها على فهم واقتناع، ولم تشكل لديه صدمة كما شكلت عند غيره، بل أخذها من واقع الحياة عدة للحياة..

لذلك دافع عنها، ومن أجلها نام في فراش ابن عمه في أول بادرة قدَّمها كشهادة لاقتناعه المفعم بحقيقتها فحسبت البادرة عليه بمستوى التضحية وسر الفداء.

وفي سبيلها قطع الجزيرة على طول فيافيها ليحقِّق الفخر لقافلة المهاجرين.

وللذود عنها اقتحم المعارك تلو المعارك بتلك الشجاعة النادرة التي وضعته في مصافِّ الأبطال النادرين.

معركة أُحد

وجاءت معركة أُحد طامعة بخنق الوليد الجديد.. فإذا الرِّدة فيها تبرز برأس ثعلب وقلب أرنب.. تتلوّى على نفسها كأنَّها أفعى.

إنَّها صدمة العقل بجهالته، وصدمة القلب بضعف إيمانه، وصدمة الوعي بقصر بصيرته.

وأي عزم يفقد هذه المقوِّمات ويبقي لديه بارقة من شجاعة أو نزوة من إرادة؟

وهكذا كان.. فإنَّ إشاعة مقتل النبي في أُحد نفثت سمَّها، فانقلبت شجاعة الضعفاء من أهل الصحابة إلى وهن وانسحاب، من حيث تضاعفت شجاعة المؤمنين فاستحالت إلى بطولة..

ذلك هو تأثير الصدمات في النفوس العزومة.

أما ابن أبي طالب، فقد اقتنص الصَّدمة في يوم أُحد ليحوِّلها إلى ذلك الهتاف المدوِّي:

لا سيف إلا ذو الفقار

ولا فتى إلا علي

تلك الرِّدة بالذات وإن تكن تحمل في قلبها عجوفها كما يحمل المصدور جرثومة دائه، فإنَّها في كل حين تتثاقل على هزائهمها لتخوض بها معارك جانبية

ببطولات تدّعيها، ولكنّها تلبث دائماً بطولات معكوسة يلعنها التاريخ فيما يسجلها عليها في باب التهديم والتخريب.

ذلك النوع من الردات عاش أُحداً وعاش فيما بعد أُحد. وكثيراً ما عانى صدماته ابن أبي طالب على طول خطّ جهاده، وكان دائماً يقابلها بنفس المصدر وعين المستوى.

وتوالت المعارك بعد أُحد.. كل معركة تشتد ضراوتها عن الأُخرى بنسبة ما كان يشتد توطيد قدم الرسالة على أيدي المهاجرين والأنصار.

وكانت دائماً فيها الصّدمات تتحول إلى غنائم، لأنّ مفهوم الرّسالة كان قد غدا أكثر وضوحاً عند المدافعين والمجاهدين.

ويكفي أُحداً نصر يقدّمه أنس بن النّضر، وإن كان محمّد قد قتل فإنّ ربّ محمّد لم يقتل!

وهكذا أخذ الجهاد ينتقل من ماديته إلى روحانيته، من قتال يطمع في سبيّة إلى جهاد يطمح إلى تحرير سبيّة

من نضال يستنزل الجنّة على الأرض إلى نضالٍ يرفع الأرض إلى الجنّة.

ومن دفاع عن محمد بلا ربّ إلى دفاع عن محمد له ربّ السماوات والأرض.

ولقد حققت هذه الروحيّة بطولة أبي دجانة الأنصاري، إذ لما أراد الرسول أن يحله من بيعته بعد هزيمة النّاس في أُحد بكى بين يديه وقال: لا والله! إلى أين أنصرف؟ إلى زوجة تموت، أو ولد يفوت، أو دار تخرب، أو مال يفنى، أو أجل قد اقترب..

وبقي وعلياً جناحين على المعركة حتى قتل.

وقد تحقق له الإنتصار.

وقعة الخندق

ولم تكن وقعة الخندق إلا من تلك الوقعات التي تألب فيها الشِّرك مجمّعاً نفسه من كل شتيت.

فلقد توحدت أحزابه على اختلاف نزعاتها، وتوحدت لمجابهة الخطر المداهم.

والخطر كان من نوع العاصفة التي كانت تهب على جدران متداعية.

ولكنَّ السِّنين الخمس التي مرَّت على الرِّسالة لم تكن إلا لتهزأ بالعدد المجمَّع على غير توازن، وبالقوَّة المعبّأة على غير تلاحم.. وإنَّ القوة التي تجلَّت على زندي عمرو ابن عبد ود لم تكن من وزن البطولة التي كان يعتمر بها صدر ابن أبي طالب.

لذلك كانت الغلبة في وقعة الخندق للقوَّة المتصلِّبة بالحق المبين، وكانت الهزيمة للقوة المنتفخة بالكفر المزندق.

وليست القاعدة لتخطأ.. فإنَّ الذي يدافع عن حق واقتناع هو دائماً في صف المنتصرين.. ولا فرق إذ ذاك أن يكون النَّصر لديه بضربة السَّيف أو بقرعة اللسان. والنَّصر لن يكون إلا في نهاية الميدان.

بهذه القوَّة المتصلبة تمَّ فتح مكة، وثقيف، وهوازن، بسلسلة من المعارك أخذت فيما بعد تتضاءل الواحدة منها عن الأخرى، لأنَّ المقاومة بعد هذه المدَّة من الزَّمن أصبح لها شأن معكوس عن الشأن الذي كان لها في المبتدأ حتّى الردة، فإنّها

انكمشت وأضحى مفعولها متستِّراً في قرارة بعض النفوس بدلاً من أن يكون على السواعد والأبدان.

والرِّدَّة، بحدِّ ذاتها، ليس لها مفعول النِّضال على إيمان، لأنَّها فاقدة الإيمان.. وهي وان تفعل فإنَّ فعلها لا يكون إلا كخبط عشواء دون هداية، لأنَّها دون أهداف.. حتى وإن يكن لها بعض الأهداف، فهي حقيرة وقصيرة، سريعاً ما تذوب مع الزمن.

* * *

هذا إيجاز لأهمِّ ما برز من أحداث منذ طرحت الرسالة كدعوة على الرأي العام حتى جلاء صاحب الدعوة عن الميدان.

حقبة ليست بالطويلة إذا ما قيست بالزمن، ولكنَّها كانت أبعد بكثير من الفسحة التي انفتحت عليها. ولقد فعلت كما تفعل الشَّرارة في قلب البراكين.

أما أن نقول إنَّ فعلها هذا كان في كلِّ النُّفوس على السَّواء، فذلك ما لم يكن على الإطلاق..

فالَّتفاوت موجود وإن يكن الشبه قريباً.. الشبه وحده يجمع جنس البشر بكلِّ ما تجمع به الأشباه.. فهو الشبه الموحد المشترك كالعين أو اليد. فلكل إنسان عينان ويدان، غير أنَّ العين عند أي إنسان تحمل من المميزات المفرِّقة عن عين أي إنسان آخر ما لا يتمكن حتّى التَّصوير من حصرها وتعدادها.

أحرى بذلك النفوس وما تنطوي عليه عوالمها من مذاهب وأهواء تتفرَّع بها إلى نواح، منها ما يضبطها المحسوس، ومنها ما يجنح بها إلى ما ورائه في شتّى التيارات، على تباين قواها ودوافعها ومسانيدها، وتحكّم العقل بها أو ضياعها من ضوابطه.. إلى آخر ما يمكن أن يجعل إزالة الفوارق بين إنسان وإنسان في حكم المستحيل؟

غير أنَّ ذلك لا يمْنع كون التيارات الفكريَّة هي وحدها التي تقدِّم البوتقة التي تنصهر فيها مذاهب الناس لتتقارب فوارقها وتنسجم مناهجها وتستقيم بوادرها في سبيل وحدة التفكير وجمع القوى لما هو خير المجتمعات الإنسانية.

والتيارات الفكريَّة هذه تجترح الأُعجوبة بقدر ما تحمل في قلبها من قيم تتناسب مع حاجة الإنسان.

وبقدر ما تقدّم له من صحة هذه القيم، بقدر ذلك يمكنها أن ترافقه في حياته.. أما من يوم إلى يوم، أو من جيل إلى جيل.

على هذا المجال الطويل رافق الإنسان رسالة الإسلام.. رافقها منذ ذلك اليوم، ولا يزال يرافقها حتى الساعة، لأنَّها أخصبت حاجاته من قبل كما أخصبتها من بعد.

هذه النظرة في التقييم هي تلك التي فعلت في كل كيان ابن أبي طالب فإذا به على طول هذه الحقبة التي وصفت يستحل دور البارز الجلّي، لم تفتقده الساحة يوماً من أيّامها، ولم يقعده عن الظهور عليها لا ملل ولا كلل.. حتى الرَّمد فإنَّه أُزيل عن عينيه على طريقة الأعاجيب كي لا يحسب عليه تنقيص خوضة من خياض الغمار.

كل ذلك لأخلص إلى القول: إنَّ علي بن أبي طالب عاش الرِّسالة منذ أن فهمها، وتقبَّل كل الصَّدمات التي اعترضت سبيلها تقبُّل المؤمن الصامد.. فإذا به في نهاية الأحداث، عند موت النبي، قطب من أقطابها يشار إليه بالبنان.

* * *

وبعد موت الرسول..

وديعة تسترد ووديعة تترك أمانة.. والأمانة هذه هي تلك التي ولدت في الأمس فتشرَّدت، ثم لم تلبث أن استجمعت من تشريدها فصارت تلك الإنفتاحة المنساقة.

وليس قليلاً ما كلّفها بلوغ هذا المستوى، فلقد تدرَّج الجهاد في سبيلها بدماء أُسقيها على شديد من الظمأ.

ثم أنَّها، بهذا الإستطراد الذي كان لها في نموِّها، أخذت تتطاول بعنقها إلى ما بعد آفاق الجزيرة..

ولم يعد شأنها كما كان في الأمس، فلقد أضحت من الوزن الجليل أثقل من الكواهل، وأطول من العمر، وأبعد من المكان.

وها هي اليوم تترك حضن صاحبها لتستلقي على أكتاف الذين ترعرعوا في حضنها.

إنّها المسؤولية بكل مداها.. وليس المدى إلا بالغ الأهمية..

فالقضيَّة المطروحة بلغت مستوىً يتناول الإنسان في حياته وفي مصيره، في حياته كفرد، وفي حياته كمجتمع، وفي مصيره كعابر من فناء إلى بقاء، فهي، إذاً، تتناول الحياة في كل نواحيها الفلسفية، اجتماعية كانت أم دينية.. وتربط هذه بتلك كما ترتبط لروح بالجسد.

فمن هو الذي يتمكن من تحمُّل المسؤولية، وملء المركز الخالي، وتسلم الحكم، وتوجيه الدفة في السفينة التي نشرت أشرعتها وأخذت تسير في عرض اليّم؟

ليس من الأهميَّة بمكان أن يورد في هذا الصدد كل الجدل الذي قام في ذلك الحين بين المهاجرين والأنصار في أي منهم هو الأحق بالخلافة، فإنَّ ذلك كان من نوع الصميميّات، وكانت تمليه حالات معيَّنة بالنسبة للمجتمع والعصر وبالنسبة للرسالة..

غير أنَّ الذي حصل ثبَّت هذا الحق للمهاجرين في الدَّرجة الأُولى كجزاء مباشر لما قاسوه، وهم أول من قاسى في سبيل دعم الرسالة والذود عنها بأرواحهم وأجسادهم.

وكانت الخلافة من نصيب «أبي بكر الصديق» بالحجة نفسها التي أخذ بها المهاجرون الأنصار.

أخذ ابن أبي طالب رفقاءه المهاجرين.. فهو أولهم إيماناً بالرسالة، وأبلغهم نصرة لها، وأشدهم قربىً لصاحبها، وأعمقهم فهماً لمضامينها.

ولربما كان أبو عبيدة بن الجراح أشد حرصاً على مستقبل علي من علي على نفسه، إذ أجابه عن احتجاجه: إنَّك حديث السن، وهؤلاء هم كهولها، فاتركهم لها مع تجاربهم.. وإن تعش ويطل بك البقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق!!

وتقبَّل ابن أبي طالب الصَّدمة، وانكفأ بها انكفاءَ الكريم على الأذيَّة.

ولم يثرها إثارة الضِّغن كما أثارها سعد بن عبادة، بل راح يجمع القرآن يفتق منه على نفسه فتتيق بيانه.

كما أنَّ موت فاطمة في هذا الوقت جاء عليه بصدمة ثانية فتحت في نفسه كوَّة السماح.

قال في خطبته « الشقشقيَّة »: « فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجىً ».

إنَّ السبب نفسه جعل الخلافة تنتقل بعد موت الخليفة الأول، عابرة عنه، إلى « عمر بن الخطاب »، كهل آخر من كهول الصحابة.

ورضخ ابن أبي طالب للواقع الجديد، وتناول الصَّدمة الجديدة بإيجابيَّة المؤمن الراسخ، وراح يعاون الخليفة في كل ما كان يشكل عليه من حلول.. معاونة الحريص على مستقبل رسالة هي جزء من قلبه كما هي جزء من دماغه.

عشر سنوات مرَّت على ابن الخطاب ختمتها ضربة سيف من يد أبي لؤلؤة.

وجاء دور الخليفة الثالث « عثمان بن عفان »، فكانت الصَّدمة فيه على ابن أبي طالب أشد الصَّدمات وأعنفها، لتكون فيما بعد أبهاها على بلورة شخصيَّته واكتمال نضجها.

خطيئة عَبد الرحمن ابن عوف

لو كنت تدري، يا سيِّدي، أنَّ للقرن العشرين حقاً بمحاسبة هفوة مر عليها أربعة عشر قرناً لكنت في ذلك الوقت أشدَّ تدقيقاً باختيارك الرَّجل الذي يفضّل أن تلقى على كتفه مقاليد حكم يتناول الأرض والسَّماء على السَّواء!

إنَّ ذلك كان يتطلَّب منك كثيراً من اليقظة وبعد النظر.

حتى ولا مجلس الشورى السداسي الذي انتدبك للمهمّة كان أقلَّ منك تحمُّلاً للمسؤوليات تجاه المعاضل.

فالقضية التي كانت مطروحة بين يديك لم تكن لتخصك ومجلس الشورى بأكثر ما هي لا تزال تخص عصرنا الحاضر.

فالرسالة بالذات التي كانت أُطروحة النبي لبني قومه، خرجت من نطاقه الجليل ومن نطاق الجزيرة لتصبح ملك الناس على اختلاف بيئاتهم وتعداد أجيالهم.

لهذا، كان عليك واجب التحفظ في الإنتخاب حتى لا تتعرض الرسالة في مهدها لهفوات انتكاسيَّة قد تعرقل سيرها في زحفها الصّاعد.

فإذا ما ربطت المصير بسؤال عابر وجواب خفيفٍ فأي شيء تكون قد تعمقت فيه وقطعت عنه سوء ومغبة مصيره. لقد أُلقي عليك التكليف، يا ابن عوف، لاستمزاج الآراء وتقديم بيعة الخلافة للأنسب إن لم نقل للأحق والأفضل.

فلم تستمزج ابن أبي طالب رأيه إلا بشرط ولم تستمزج ابن عفان رأيه إلا بشرط؟

والشَّرط هنا والشَّرط هناك كان شرطاً هزيلاً، ولم يكن ليصلح أساساً للقضيَّة المطروح من أجلها..

فإنَّك، قبل كلِّ شيءٍ كنت تعرف الإثنين حق المعرفة.. فهما رفيقاك في جهاد طويل، لم يغب عنك فضل هذا ولا فضل ذاك..

وإنَّك ما كنت تجهل أنَّه إمّا تجمعهما الرِّسالة فقد يفرِّق بينهما مقدار فهمها، وإمّا تربطهما بها بطولة الجهاد فقد يكون واحد منهما مجلِّياً عن الآخر في مضمارها.. وإما تشدهما إليها همَّة قعساء فقد يفوق واحد منهما على الآخر بما كان له من إنتاج.

وهكذا كان بإمكانك أن ترى بين سيِّدين كريمين في أيِّهما يمكنه التحقيق أكثر من الآخر، بالنِّسبة لزهده وتقواه أو لإخلاصه ووفائه، لعزمه وإقدامه أو لقوَّته، وبعد نظره.. أو بالنِّسبة لقدرة مع ضعف همَّة على شيخوخة، وقدرة مع مضاء عزم على فتوَّة.

كل ذلك كان من الواجب اعتباره قبل أن تطرح السؤال الضعيف:

«أُبايعك يا علي شرط أن لا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب النّاس»!![1].

«أُبايعك يا عثمان شرط أن لا تجعل أحداً من بني أُميَّة على رقاب النّاس».

ومن البديهي أن ندرك أنَّ عثمان بن عفّان خلعت عليه الخلافة لأنَّه رضي بالشَّرط، ومن البديهي أيضاً أن يحصل أنَّ عليّاً بن أبي طالب لم تصل الخلافة إليه لأنَّه رفض الشرط.

---

(١) تقدَّم أنَّ الشرط من عبد الرحمن بن عوف هو غير هذا.. إنَّه طلب من الإمام أولا ثم من عثمان: العمل بسيرة الشيخين. فرفض الإمام وقبل عثمان. راجع «شرح النهج» لابن أبي الحديد ج ١ - عند ذكر «الخطبة الشقشقية».

فالذي وصل قَبِل المساومة، والذي خاب رفض المساومة.. وبين القبول والرَّفض ترجح كفة الميزان.

ثم إنَّك نزَّلت شرطك هذا يا سيِّدي في دستور الدَّولة منزلة التنفيذ.

ولكن عثمان بن عفان قد استهان بشرطك، ولم يشعر بأنَّه كفر، لا بك ولا بدينه، لأنَّ شرطك لم يكن من الدين في لزوميّاته... وها هو يطيب له أن يحشر بين أركانه كلَّ أصلاب بني أُميَّة.

ولم يكن ذلك ليضيره لو لم يضره هؤلاء بخروجهم عن النهج الحكيم ولم يضيروه وحده، بل ضاروا الرسالة التي لا تزال في طور الطفولة.

أما ذلك الذي لم يرض بالمساومة، فإنَّه كان يتمنى عليك أن تتجنب شرطاً لا لزوم له.

وأن تؤمن به أنَّه خليق بوضع الأُمور في مواضعها، وأنَّ الذي عليه أن يكون مؤتمناً على بيت يؤتمن ضمناً على قصعة موجودة بين أثاثه.

إنَّ الشَّرط، بجدٍّ ذاته، هزيل يا بن عوف..
لو لم تختبىء خلفه نيَّة مبيَّتة...
والنيَّة المبيَّتة كان لها أسوأ النتائج.

بين عكسين

١ - فراغ يمتلىء

إنَّ فسحة العشرين عاماً التي مرَّت على علي بن أبي طالب، منذ موت الرسول حتى تسلمه الخلافة، لم تكن بالفسحة البسيطة، لا بطول مداها ولا بقيمة الأحداث التي مرَّت عليها.

وهي وإن تكن تعتبر فراغاً بالنِّسبة لعدم تحمّله فيها أيّة مسؤولية إدارية، فإنّها بالحقيقة كانت فراغاً يمتلىء.

وليس يفهم من كلمة « فراغ » أن ابن أبي طالب غاب في هذا الوقت الطويل عن السّاحة، بل بالعكس، كان فيها ملء السَّمع والبصر.. غير أنَّه كان يحتل فيها برج المراقبة.

فالرسالة التي أغمض عينيه سيّدها العظيم عن رعايتها تناولها أبو بكر وعمر وهي على شيء من التوجيه والتركيز، وها هي الدَّولة تشق طريقها الشائك بين أدغال التقاليد والعادات.

وبدأت تنبت نبتاً طريّاً يتطلب كثيراً من العناية والإنتباه.

ولقد فاضت قوَّة الدَّولة بعد أن تلهت قليلاً بقمع ثورات الردة التي شاغبها بها بعض القبائل في اليمن واليمامة وعمان، وها هي تنصرف إلى الفتوحات يميناً وشمالاً.

فمن جهة أولى، انكشف العراق، ونهبت المدائن بما فيها كنوز القصر الأبيض.

وتربَّع سعد بن أبي وقّاص على أيوان كسرى، ثمَّ طاعت للعرب بلاد فارس، وراحوا يدقون قبضاتهم على أبواب الهند...

ومن جهة ثانية، كانت الشام تفتح أبوابها لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح، من حيث هزم «هرقل» وقال وهو يرحل وداعه المشهور: «عليك يا سوريا السلام ونعم البلد أنت للعدو!».

ومن جهة ثالثة، كانت مصر، بقيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام تفتح الطريق أمام الفاتحين..

من حيث قبل «المقوقس» بدفع الجزية على يد الأسود عبادة بن الصامت..

كلُّ هذه الفتوحات قد تحققت على يد أبي بكر، ثم على يدي عمر بن الخطاب.

وتدفَّقت على الدَّولة كنوز وخيرات لم يحقق مثلها من قبل أي يوم من تاريخ الجزيرة.

ولم تعرف فيا مضى غزوة أبلغ وأسخى من هذا الغزو المفتوح الممتد على طول الجبهات من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب على السواء... كأنَّ النعيم فتح شآبيب الكوثر، فتدفقت مجارفه تغمر الجزيرة غمراً معسولاً.

وفيا كان أبو بكر وعمر بن الخطاب يقضمان الدنيا على زهد بها، تاركين الفتح يجتاح الشرق والغرب على فرس جموح مرخية اللجام، كان سعد بن أبي وقاص يتربَّع على أيوان كسرى ليبني على شكله قصره في الكوفة، ويجمع إليه كلَّ كنوزه.

وكان القوّاد يتلهَّون بالغنائم والسبايا، وكان الزبير بن العوام يملك ألف عبد وألف أمة..

في هذا الوقت من توسُّع الدَّولة، كان ابن أبي طالب مرابطاً في برجه الكبير، يحصر مشاهداته، ويجمعها إلى بساطه، ويتساءل: هل من أجل كلِّ هذا طرحت الرسالة؟

ألم يقل الله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم، قبل المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والكتاب والنبيين وآتى المال على حبِّه ذوي القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرّقاب... واولئك هم المتقون».

والتوسع الذي حصل، والذي توصّلت اليه الدّولة، هل هو تحقيق للرسالة، أم أنّه لا يزال مطيّة للجاهلية؟؟

والجاهلية التي جاءت الرّسالة لدكّ معالمها، أتراها تناولت الرّسالة لتعود فتنسكب فيها؟

وأي تأثير كان للرسالة على «طي» و«أسد»؟

وما بال طليحة الكذّاب تنساق وراءه قبيلة غطفان؟

وما شأن مسيلمة وسجاح من النبوّة، ينجرّ وراءهما بنو حنيفة في اليمامة وبنو تميم؟

وأيّة نبوّة يدّعيها الأسود العنسي فتلبّيه بها قبائل البحرين وحضرموت وعمان واليمن بالذات؟

وإن تكن سيوف المسلمين قد أخضعت هذه الردات المعكوسة وقادتها صاغرة إلى الحظيرة، فهل كان ذلك من النّجاح بحيث يمكن القول أنّ تلك القبائل المرتدّة أو المسترجعة من ردّتها أصبحت مقتنعة بصدق الرسالة؟

والفتح بعد حروب الردّة.

الفتح عينه الذي فيّض الجزيرة على حدودها، وفيّض عليها حدود غيرها..

هل هو الفتح الأكيد والفتح الصحيح الذي تتوخاه الرّسالة كما جاء في القرآن:

«لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها»

«إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي»،

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»،

«قل إنّما حرّم ربّي الفواحش، ما ظهر منها وما بطن»،

«إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»..

وكما يقول الرسول: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة أو قاتل عصبيّة»...

وكقوله تعالى: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله»؟؟

تلك آيات بيِّنات من الرِّسالة.. ولم تشر أيَّة واحدة منها إلى حق اقتناء العبيد بالألوف، أو إلى حقٍّ اقتناص الثَّروات بالملايين اثر غزوة رابحة أو معركة دامية.

ولم تبح استغلال الناس وانتهاك الحرمات والإستمتاع بالسبايا... إنَّما جاءت عكس ذلك.. لتخلِّص الإنسان من رقِّه، لا لتحرِّره ويسترق سواه.. ولتعيده إلى حضن ربِّه حرّاً عزيزاً، لا ليجعل من فكاكه قيوداً للآخرين.. ولتحرره من مركبات ضعفه ومن سيطرة المادة عليه.

أكانت المادة جوعاً يشغل بطنه عن عقله أم بشماً يلهي عقله ببطنه؟

وجاءت توقظ العقل على مداه ولا الشهوات على مداها، وجاءت تمحو عصبيّات القبائل لتجتمع في عصبيَّة واحدة تعتز بها الجزيرة.

جاءت تبني الجزيرة.. تبنيها إنساناً سوّياً.. ثم مجتمعاً سويّاً.. ثم انطلاقةً سويَّة.

والجزيرة، حتّى الآن، لم تبن.. إنَّها في نظر ابن أبي طالب في حاجة إلى بناء يتناول الأساس.. الإنسان أولاً.. الحاكم هو أول إنسان يجب أن يبنى.

وقد علمتم أنَّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدِّماء والمغانم والأحكام وأمانة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته.. ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف منها دون القاطع، ولا المعطِّل للسنة فيهلك الأمَّة.

وليست المهمة بالأمر اليسير.. فإنَّ تثقيف شعب لا يكون إلا بانعكاس طويل الأمد يعكسه حكامه وقوّاده عن طريق القدرة والتطبيق.

والجزيرة كانت بحاجة إلى مثل هذه المدرسة الواسعة قبل أن تستنفر قواها للقيام بحملات فتوحيَّة تنقلها إلى ما وراء حدودها.

وحدودها كانت مكشوفة لما تحصَّن بعد.. ولقد جاءت الرِّسالة لتحصينها.

وليس التحصين هنا بالمعنى العسكري، بل المقصود أنَّها لم تحصَّن بعد بحصون العقل الناضج والفكر المولِّد..

وهذا هو الذي كان يجعل فراغ جاهليتها أوسع من رقعتها.

ولهذا، فإنَّ الفتوحات التي قامت بها، كانت ترتد دائماً عليها بالغلبة.. ولم يسجل لها أي انتصار إلا الرِّسالة التي قدَّرت أن تقدِّمها على رأس حسامها.

فإذ ما يتوفَّر للجزيرة ذلك البناء الصحيح، فإنَّها من نفسها تفيض على ما حواليها بفتوحات تحقِّق النصر، بدون حاجة إلى السَّيف، بل بقوَّة الفكر المشع بالحق والعدالة.

والرسالة لم يحقق لها السيف تلك الغلبة بقدر ما حقَّقها لها العقل الذي تحمله.

كلّ ذلك كان يراه ابن أبي طالب وهو في عزلته..

كان يرى قبائل «طي» و«أسد» و«غطفان» و«بني تميم» لا تزال تفعل فيهم الجاهلية فعلها الأول.

وكان يرى الخط الذي يمشي عليه بنو هاشم وبنو أُميَّة كيف كانوا يتنازعون عليه للوصول إلى كرسي تختبىء تحته مفاخر الزعامات ومكاسبها.

وكان يرى الفتوحات تحقق غير أهدافها وتستثمر غير يوانعها.

وكان يرى أنَّ الجزيرة التي كانت لا تزال غافية حتى ليلة أمس، هبت كما يهبّ النّائم المذعور لتنعم بالأسلاب والغنائم على حساب الرسالة المنوَّرة من حيث أصبح الجهاد في سبيل الغنائم أكثر مما هو في سبيل تحقيق الأهداف.

كلُّ ذلك كان يراه ببصيرة المراقب، وكان يعدّ له العدّة الواقية ليجعلها موضع التنفيذ إذ تنتهي إليه مقاليد الأمور.

أمّا تلك العدَّة، فإنَّها كانت تتحلى أكثر ما تتحلى بالصَّلابة التي لا يمكن أن تقبل بالمساومة.

هكذا كان شأنه عشيَّة تلك الإستشارة التي تقدَّم منه بها عبد الرحمن بن عوف، من حيث توصَّلت الخلافة إلى عثمان بن عفان.

الثاني - ملء يفرغ:

وهذا شيخ مسن، تصله بالخلافة نزعة قبلية.

على رسلك يا ابن عوف!.. أردته شرطاً، وإنَّه لكذلك!

فلن يعاون عثمان بن عفان إلا النُّخبة ممن طبختهم مبادىء الرسالة، وكلكلتهم مواطىء الأحداث، ووسَّع النضج عقولهم ونفوسهم، وطرحوا الدّنيا كأنَّها أحقر من نواة، وعملوا للآخرة كأنَّها لديهم نعم المثوى ونعم المآب!

أما ذلك الذي أبعده الرّسول لأنَّه كان يكتب لديه وشك بصدق وحيه، فإنَّ عثمان بن عفان لم يجد أصلح منه مساعداً له في الحكم، لذلك كان عبد الله ابن أبي سرح والياً على مصر.

وكذلك الوليد بن عقبة، ذلك الآخر الذي استحق لعنة النبي، فإنَّ الكوفة تنتظره لسدّ الفراغ فيها وضبط كلّ أمورها وأحوالها.

ومروان بن الحكم، كان عنده أنظف وأقدر من يمكنه تسلّم الديوان.. وللديوان أهميَّة كبرى، إذ عليه يتركز توجيه الدَّولة وتعيين سياساتها الداخلية والخارجيَّة.

وهؤلاء الموظفون الذين يجب أن يوزَّعوا ويشرفوا على كلّ مراكز الدَّولة التي أخذت تمتد من حدود أرمينية وإيران وآذربيجان مروراً بالعراق وكل أجزاء الجزيرة إلى الفسطاط في مصر، حتى «دنقلة في بلاد النوبة» حتى برقة في طرابلس الغرب، حتى قرطاجنة، حتى قبرص، حتى سوريا، وكل الممتلكات البيزنطية على شاطىء المتوسط، كل هذه الممتلكات المترامية الأطراف لم يكن ليقدر على ضبطها إلا هؤلاء الرِّجال الذين لا يمكن أن يجدهم عثمان إلا من بين رجال بني أُميَّة.

هذا شرطك يا ابن عوف، يضرب به عثمان عرض الحائط!

ولكن القضيَّة لم تلبس أهميتها من هذه الزاوية وحسب، فهي تتعدّى هذا النِّطاق بكثير، إذ ليس مجرَّد تعيين رجال من بني أُميَّة لتسلم إدارة الحكم هو الذي سيغيِّر دفة التاريخ، فرجال بني أُميَّة هم كباقي رجالات العرب.. ومعاوية ابن أبي سفيان راية بني أُميَّة وقطب من الأقطاب الذين يشح التاريخ بأمثالهم في الدَّهاء والمكر.

لم تكن القضيَّة إذاً قضيَّة رجال للحكم يجب أن يكونوا من بني هاشم أو من بني أُميَّة أو من فئة لا هي بالهاشميَّة ولا هي بالأُموية حتى يستقيم الحكم وتبقى

دفعة الفتوحات مستمرة في زخمها الصاعد.

إنَّ القضيَّة كانت بجذورها أكثر مما كانت بأطرافها.

ولم يكن لينجيها تنكب فئة عن الحكم وتسليمه لفئة سواها، بل إنَّ الذي يتمكن من ذلك كان إفضاء الأُمور إلى رجال منخوبين، صقلتهم الرسالة وطبعتهم بطابعها، لأنَّ الرِّسالة بطابعها هي الوحيدة التي قدرت أن تجمع وحدات الجزيرة لتدفعها في قوَّتها المحزومة.

وإنَّ تلك القوَّة المحزومة هي التي تمكنت من تحقيق معجزة الفتوحات. ولولا الرسالة، لكانت الأوضاع وما زالت هي إيّاها...

فسيف خالد بن الوليد هو ذاته الذي كان في يده قبل الرسالة، فلماذا لم يتمكن من فتح العراق وتقويض أركان حكومة «هرقل» لولا أنَّ الرسالة هي التي شحذت هذا السيف ودفعت هذا الساعد وخلقت عقل هذا القائد.

ومعاوية، ذلك الرَّجل الدّاهية، هو ذاته الذي كان يعفِّر جبينه على أقدام «هبل»، ولم يكن ليرى في الطرف الآخر بواسق الشام بخضرتها ونضرتها على ضفاف «بردى» حتى جاءت الرِّسالة.. فاستعار منها عزمه، واسترق من روعتها بريق خلوده، حتى دانت له أعز مدينة كانت تغور جذورها إلى قلب أغارقة اليونان.

وسعد بن أبي وقاص، ربما لم يكن له بيت يأوي إليه إلا من الشَّعر والوبر، يوم كان يدير وجهه ليتبرَّك بـ «مناة» ولم يكن ليحلم، لولا الرسالة التي امتطاها بعنفوانه الجاهلي، أنَّه سيتربَّع على أيوان كسرى.

كل ذلك كان بفعل الرسالة العجيب.

ولا شك في أنَّ كلَّ بعد عنها كان يرد العرب إلى الواقع الذي كانوا فيه.. وهذا الذي قد حصل.

إنَّ عثمان بن عفان قد ارتد إليه بعض من جاهليته، وتنكب عن مضمون الرسالة.

وكما أنَّ الرسالة هي التي خلقته لما امتلأ بها، هي نفسها، باستخدامه رجالاً لم يعوها، أدَّت به إلى فراغ رهيب.

مقتل عثمان

ما كنت تستحق القتل أيُّها الشيخ... لولا.

فالقرآن الكريم الذي جمعت حروفه فأنزلته ضمن دفتين من الصيانة، كان من اللازم على الأقل أن تحسب لك فضيلة حرزه وترد عن صدرك نصلات النبال.

وقبلك، دقت نبلة الغدر في صدر من خلفت. وكانت نبلة مسنونة بكل المعاني، إلا أنَّها لم تقتل ابن الخطاب مثل ما قتلتك.

وللقضاء والقدر مخابىء في الأيّام شديدة الإعتام.. منها مايتحفّز على نصلة تأكلها الصدأ، ومنها ما ينساب بين الثنايا ينفث سمه مع الفحيح، ومنها ما يتلبَّس جلد شاة تحته ظفر وناب، ومنها ما يتلوّى بين زوايا عفنت فيها الضغائن والأحقاد ولم تلمسها قط كف الفضائل بالسماح..

أما أنت، فقد هيَّجت عليك، وكنت أنت المتغاضي عن إثارتها.. ولما أفقت كان قد «سبق السيف العذل».

والفرق بينك وبين ابن الخطاب: أنَّه أثار عليه «أبا لؤلؤة»، لأنَّه أراد أن يصون الجزيرة من أخلاط غريبة قد تؤدِّي إلى إفساد أمرها وعرقلة سيرها على خطِّها الجديد.. فوقع صريع محاولته القاسية في سبيل النظر إلى مستقبل أُمَّته كما دلّه رأيه.

أما أنت، فإنَّك تساهلت بإفساح المجال لاندساس السموم في جسم دولتك الطري عودها، فاغتالتك أنت تلك السموم من حيث حسبت عليك أخطاء القيادة.

أول ثورة
في
تاريخ الجزيرة

إنَّ الرهبة التي خيَّمت على السّاحة وهي تمتص دماء الخليفة الصريع، كانت من النَّوع الذي تخلفه العاصفة إذ تسكت فجأة تاركة في الجو سحب الغبار.

والعاصفة التي هاجت ثم ركدت، كانت من النوع المجنون الذي يهب في الصحارى دون أن تخفف وطأته لا حنايا الأودية ولا صدور الجبال.

غير أنَّ الثورة ذلك شأنها في هبوبها..

أما شأن الحاكم فيها، فإنَّ له كلَّ القدرة في تحريكها لتعصف في الوقت الذي يكون هو فيه أضعف من يقدر على أن يقف في وجهها.

وهكذا كان عثمان بن عفان.. فإنَّه تمكن من أن يخلق الثورة، لا بل إنَّها ترعرعت في حضنه منذ تربع على كرسي الخلافة.. ولم يتمكن من الصمود في وجهها.

ولم تكن الجزيرة لتعرف كثيراً الثورات بمعناها الحقيقي، رغماً عن أنَّها كانت تمارسها في أشكالها البدائية.

ذلك كان هو الغزو الذي كان أُستاذها الأول، الذي تتلمذت على يديه وحده، ولم يقدر أن يقدِّم لها في مدرسته الضيِّقة إلا بعض فصول في الفروسية.. فأتقنت

امتشاق السيف والرمح، ورمي النبال، وامتطاء الصهوات، واعتلاء الرَّواحل، والعدو السريع خلف الطرائد.

وجاء الإسلام في رسالته الجديدة، فكان ثورة على الأوضاع، وأول مدرسة علّمت الجزيرة فروسيَّة الإنتفاضات وفنون الثورات.

وتعساً لأُمَّة ليس لديها مدرسة كبيرة من هذا النوع الجليل.

وهكذا ابتدأت الجزيرة تشعر بقيمة الإنسان فيها.

فالإسلام كان فجر تاريخها، ولقد كان حكم الخليفة الثالث أول امتحان لتلاميذ المدرسة الجديدة التي رسَّخ ركائزها في المجتمع النبي العظيم.

وعثمان بن عفان منذ أن تسلَّم الحكم بتلك النفسيَّة المستهواة بحب الوصول دون أن يكون لهذا الوصول إلا أهداف ضيِّقة، كان يهيِّيء لنفسه، دون أن يدرك، مثل هذه النِّهاية المروعة.

فالأهداف الضيِّقة هي حتماً إذ تتشبَّع تضيق على ما فيها، والحاكم ليس إلا ليستهلك.. وكل شيء في الحياة كذلك.

فالوسيلة التي تستخدم للوصول إلى نتيجة يستغنى عنها فوراً بعد تحقيقها، ما استعملت لتأديته.

وليس الحاكم على غير هذا القياس...

فإن لم تكن أهدافه من النَّوع الذي لا ينتهي، فإنَّ المجتمع ينبذه إذ ينضب معينه.. والمجتمع لا يرحم.

وكذلك الوسيلة التي لا تصيب غايتها، فإنَّها تنبذ كما ينبذ الوالي الذي يسيىء إلى ما انتدب إليه.

كل ذلك قد كان في قضيَّة عثمان...

فالثورة التي وسعت الرسالة فجوتها على شعب الجزيرة، أصبحت ترفض الأثرة، لأنَّ الأثرة كانت سبباً جذريّاً في تكوين مقوِّمات انتفاضتها.

وها هو الإستئثار بالحكم وبمغانمه، من ثروات ومباهج واستمتاع، تنهال كل فيوضه على عثمان وكل من دار في فلك عثمان من بني أُمية، الأقرب فالأقرب..

وكأنَّ الفتوحات وكل مكاسبها لم تكن إلا لسدِّ هذا الفراغ ولأبناء بني أُمية أنفسهم.

وليس، كما جاء سابقاً، وجود رجالاتٍ من بني أُميَّة بالحصر هو الذي جسَّم الأخطاء لو أنَّ هؤلاء كانوا على خط واضح من الأهداف الكبيرة التي تجيىء منساقة مع خطوط الرسالة التي وضَّحت كل الأهداف.

هذه بعض الأسباب المباشرة في خلق الثورة، وليست كلها.

فهنالك أسباب غير مباشرة أدَّت إلى هذه النتائج، وإنَّ تداركها من جذورها كان أولى به « مجلس الشورى السداسي » الذي مثَّله بآخر تفويض منه عبد الرحمن ابن عوف.

من هذه الزاوية كان من الواجب أن يدرس وضع الجزيرة بوجه عام، لأنَّ للرئاسة الأُولى مثل هذا المعنى الشامل الذي هو حري جداً بهذا الإهتمام.

من المعلوم، والواضح، أنَّ الجزيرة العربيَّة، حتى فعل الرسالة الجديدة، كانت تعيش عدَّة مجتمعات متنابذة في مجتمعها الواحد الأكبر.

قبيلة حرون كانت تفعل فعلها الجاهلي.

وكان يئن من هذا الواقع الغشيم تاريخ الجزيرة.

واقع كهذا كان يساوي انحطاطاً عامّاً في المجتمع، لينعكس في الإقتصاد، في التَّفكير، وفي الإجتماع.

وجاءت الرسالة، فتمكنت، بعد محاولات قاسية، من فرض نظامها الجديد.. وتقبَّلتها الجزيرة بسرعة، لأنَّها وجدت فيها الدَّواء المصيب في شفاء أمراضها.

ومن البدهي أن يدرك أنَّ الرِّسالة كانت عقلاً وفلسفة متفقين مع واقع الجزيرة... ولو أنَّها كانت غير ذلك لما تقبَّلها المجتمع بسهولة، غير أنَّها بصفتها عقلاً وفلسفة كان من الواقع أيضا أن لا تدرك إلا في مفعولها، لأنَّ الإنسان المجتمعي يرفض العقل المتفلسف كعلم ويقبله كتأثير ونتيجة، كما يقبل المريض الدَّواء على إفادته المجرَّدة وليس على فهم تركيبه العلمي.

إنَّ هذا الفهم عينه يكون من نصيب فئة قليلة تسمّى « النخبة »، وهي التي تعكس هذا المفهوم على تيارات المجتمع ليفعل فعله الصحيح.

هذه النخبة تكون المسؤولية بقدر ما تفهم، وهي التي تعكس ما تفهم.

من هنا، إنَّ الرئاسة الأولى يجب أن تكون حتماً من بين هؤلاء النخبة بحيث يضيق التعيين حتى ينحصر في القمَّة.

وقد يخطأ التعيين وقد يصيب.. فلئن يصب فتلك هي الغاية المنشودة، ولئن يخطىء فبقدر هذا الخطأ تكون مساوىء النتائج.

والنتيجة في عثمان بن عفان دلت على وجود الزلل، ويفهم من ذلك:

أنَّ الرئاسة هي آخر نقطة في سلسلة الإنتخاب الذي لا يكون على صواب، إلا إذا كان منسجماً مع الواقع الذي نخب من أجله.

والواقع، كان نتيجة ثورة فكرية أخذت تنبذ الروح القَبَليَّة لتحل مكانها زعامة المجتمع.

ولقد اقتنعت الجزيرة بصوابية المبدأ، واستيقظت فيها قيمة الإنسان.. لهذا، فهي لم تقبل بابن عفان متسلِّطاً يعيدها إلى أمسها الدابر، لا سيَّما وأن أمسها المقروح لم يبعد، فهو لا يزال يتَّصل بيومها الحاضر.

ثم إنَّ الرسالة التي جاءت تعالج الواقع الراهن في الجزيرة أصبح لها هي الأُخرى واقع آخر تجب معالجته حتى تستكمل غايتها، ألا وهو توسيع استيعابها ليخرج فهمها من نطاق النخبة إلى نطاق المجموع، وكي يتعدّى الإقتناع بصدق معالجتها للأوضاع الشّعور بقيمتها إلى التحسس العميق بحقيقة هذه القيمة. وهذا ما يخرج من نطاق المعرفة السطحيَّة إلى نطاق الثقافة التي تكتسب عن طريق الممارسة العقليَّة على المدى الطويل.

كما أنَّ الفتوحات التي قامت بها الدَّولة، بعد أن جمع قواها نداء الرِّسالة، جاءت تقلل من قيمة المدرسة التثقيفيَّة التي كان المجتمع بحاجة إليها كعدَّة فكريَّة نفسيَّة تتسلح بها قبل أن تتسلح بالسَّيف والرمح.

من هذا القبيل، كان من الضروري على «مجلس الشورى» أن يعالج هذا الواقع الجديد على ضوء العقل الذي يليق أن تعالج به أوضاع الدول، لا عن طريق سطحيَّة المساومات وإرضاء روحيَّة العصر المولِّي.

وتعيين عثمان بن عفان للخلافة لم يراع شيخوخة هذا الرجل في عجزها عن القيام بمثل هذا التحقيق والتجديد.

كما أنَّ القضيَّة لم تدرس بهذه الحيطة التي تتطلبها لها جدّيَّة الأحداث من حيث بقيت العلة تنمو وتتضخم حتى انفجرت بثورة أودت بحياة الرجل، وألقت المجتمع الجديد بين أشداق ثورات داخلية، أخذ يتمرَّس بها كمخرج يشعر بجدواه كلَّما تدعوه الحاجة إلى إعلان تذمره من وضع.. أيكون معه حق بإعلانه أو لا يكون؟

السّاحة المكشوفة

إنَّ السَّاحة التي كشفت بمقتل الخليفة، لم تكن ليغطِّيها أيٌّ كان من المتنافسين.

فالتجربة التي مرَّ عليها عقد وسنتان، كانت شبه كافية لخلق فكرة إيجابيَّة في كيفية الحكم وفي لزوم إلقاء التبعات على كواهل الأقطاب.

وليس معنى ذلك: أنَّ النضج قد أصبح شاملاً كلَّ الموائد..

فالناقمون كانوا مقسومين إلى فئتين: فئة الأسياد الطامعين بالمركز الشهي، وفئة الشعب المتذمِّر من الظلم والتعسف.

غير أنَّ النَقمة الشعبيَّة لم يكن لها كبير شأن مع هؤلاء الأسياد.. فهي إنَّما جمعها الحيف الذي لحقها من فساد الحكم.. فأقدمت على فعلتها، ثم راحت تتطلع إلى من يسد هذا الفراغ.

ولقد كان حاضراً في ذهنها ذلك السيِّد الذي يتمكن من ضبط الموازين، فهو عينه الذي كانت تشتاقه الساحة منذ ربع قرن.

ولقد عاد في هذه اللحظة الواجفة ذلك السؤال، يبحث بنهم عن الجواب، لماذا نكب، منذ البداية، عن الساحة فتاها؟

ولكنَّ الماضي قد تغطّى بما منع الإلحاح في طلب الجواب.

أما الآن، فلا سبيل للتغاضي.. فالوضع في أحوج ما يكون تشديداً في طلب الجواب.

فعلي بن أبي طالب، هو ركيزة الأساس، وهو بالنسبة للرسالة كل الرسالة، في تأسيسها وفي طريقة المحافظة عليها، في نشرها وفي مجالات الدِّفاع عنها.. وإنَّ له أطول سلسلة من النعوت الكريمة يتحلّى بها، فهو قوة، وإرادة، وشجاعة، وبطولة، وعقل، ومعرفة، وحق، وعدالة، ومثال، وكمال...

فأي شيء يحول دون تسليم الزِّمام إلى يد كريمة كهذه اليد التي يعز نظيرها في كل الجزيرة.

أما أبو عبيدة بن الجرّاح، فإنَّ الساعة الحاضرة ترفض تمام الرفض الإصغاء إلى مثل نصائحه، فإنّ ابن أبي طالب لم يكن في أي يوم من أيام شبابه أقل حكمة وأقل رشداً من أي يوم من أيام كهولته، ولكنّه كان الحريص على الرسالة، وكان الكريم، وكان الرضي بكل خُلقه وكل سجاياه.

فإذا ما قبل الخلافة تتجاوزه إلى غيره من الأسياد الكهول، فلأنّه كان يتعمم فضيلة نكران الذات، وكانت كفايته أن يرى الرِّسالة تسترد الجزيرة من جهلها إلى عقلها، ومن خزيها إلى مجدها، ومن دنياها إلى ربِّها، ومن خمودها إلى انطلاقتها.

وكان في كلِّ ذلك يسدِّد خطى هؤلاء الذين سابقوه إلى حقِّه في القيادة، مرتضياً بصحة العقيدة ونجاحها.. وهذا كان حسبه من دنياه.

أما الآن، والرسالة لم تبق مكاناً وزماناً، بل أصبحت مدىً.. فلا يجوز أن تترك في الساحة المكشوفة، يتناوشها الطامحون ويتقاذفها المتنافسون.

فلترتعد فرائص قريش، ولترجع الأكباد إلى النحور، فإنَّ الكنز الثمين لن يكون عرضةً للمناهب.

وهكذا كان التصميم عشيَّة مقتل الخليفة، وهكذا أصغت آذان الثائرين ليسمعوا الجواب الذي ما زالوا يلحون في سماعه منذ ربع قرن من علي بن أبي طالب نفسه.

بين التردد والقبول

قيل لعلي: لا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك.
فقال: لا تفعلوا، فإنّي لكم وزير خير منّي أمير!
ومن خطبته يوم المبايعة: «إنّي كنت كارهاً لأمركم إلاّ أن أكون عليكم».

إنَّ السبب الذي دفع بابن أبي طالب إلى التردد في قبول تسلم الخلافة الجديدة هو عينه الذي لجَّ عليه بالقبول.

فمن جهة أولى إنَّه لم يكن بعقله الثاقب ليريد أن تلعب أدوار مثل هذه المأساة على كرسي الرئاسة. لأنَّ ذلك لما يقلل من قيمة المركز الكبير الذي أصبح قاعدة لأكبر امبراطورية في الشرق العربي.

وليس من مصلحة هذا التوسع الضخم باسم الرسالة الجديدة أن يشاع على العالم أنَّ القيّمين على مبادىء التأسيس تنخرهم المنازعات الصغيرة في سبيل الوصول إلى كرسي بدل أن يكون محاطاً بهالاتٍ من الكبر والوقار، تستبد به أهواء هزيلة وحقيرة، أكثر ما يمكن أن تنعت به أنَّها حب الإستئثار على جشع.. لذلك، فإنَّه بذل قصارى جهده للحيلولة دون الوصول إلى آخر مشهد من مشاهد المأساة.

وكان يسعى إلى وأد الثورة بتعليلها بالإصلاح.

وكان ينجح لو أنَّ مروان بن الحكم ساعده بذلك، أو لو أنَّ النّية الحسنة أتته

من ذلك الجانب... ولكنَّ الذي حصل غيَّر المقاييس وبدّل الجو إلى اكفهرار من حيث وقع المحذور.

ومن جهة ثانية، جاء الحدث الجديد يسلِّط عليه كل الأضواء، فكأنَّ الثورة كانت تنظر إليه قبل أن تتحرك وهي عن وعي منها وعن غير وعي.. صممت ونفذت لأنَّ ابن أبي طالب كان يملأ ذهنها بكل عظمته، وكل جبروته.. ولو أنَّه لم يكن موجوداً لكانت أقل اندفاعاً إلى تحقيق ما أقدمت عليه. ولكنَّ الثورة كانت تنظر إليه دون أن تصغي إلى حكمته وتحفظاته.

وعلى كل حال، فالثورة لا تؤمن كثيراً بالحكمة والتحفّظ.

تجاه هذا الحدث الجديد، وقف ابن أبي طالب يقيس الأُمور بمقياسها الأنوف...

وتردد في قبول الخلافة المطروحة عليه فرضاً، لأنَّها تأتيه عن طريق فيه تذليل للرئاسة وهوان لها، وهي المركز الذي يجب أن يكون محفوفاً بكلِّ معاني الحصانة والإجلال.

ولكنَّ الحقيقة كانت تفرض عليه فرضاً آخر يجرِّده من تصلُّبه الأنوف.. فالمركز الخالي ليس هو الذي ذل.. ثم أنَّه كان يدرك أنَّ الطامعين بالمركز المغري هم الذين يجرِّدونه من هالاته الكبيرة وهم الذين يتسابقون الآن إلى نهب ما يتبقّى له من كرامات.

ولم تكن لتغريه الرئاسة، فإنَّه لم يطلب يوماً مجد الدنيا وكنوزها، وكثيراً ما توفَّرت له فرفضها.. ولكنَّه كان يتشدد في طلب الخلافة، لأنَّه كان يؤمن تمام الإيمان بنفسه، ولم يكن شديد الإيمان بغيره، بأنَّه هو الذي يتمكن من صيانة أقدس وأجل ما أنتجه الفكر في سبيل خلق الإنسان العظيم الذي هو تراث الحياة العزيزة.

وإنَّ الرسالة التي قدَّمها النبي لم يكن هو أخف منه شأناً فيها، فإنَّه والنبي أبواها.

هكذا قال الرسول: «أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمَّة».

فالرِّسالة له، وهي جزء منه.. من عقله، من قلبه، من كلِّ كيانه..

فمن هو الذي يكون أحق منه بالدفاع عن نفسه؟

إذاً، ليس حب الظهور هو الذي دفعه من قبل إلى المطالبة بهذا الحق، وليس حب الإستئثار بالمغانم هو الذي يدفعه الآن إلى القبول.. بل الرسالة التي أصبحت تحقيقاً للأهداف التي من أجلها بنيت ولن تترك الرسالة تتراجع عن أقل من مداها.

ولبّى علي بن أبي طالب نداء الثورة، وقبل الخلافة وفي يده عدّة جاهزة للحكم الذي يتلبّد أفقه بالغيوم.

العدة الكاملة

من الظاهر أنَّ وصول الخلافة إلى ابن أبي طالب كان بمفاجأة.. إنَّ ذلك كان بالنسبة لأحداث الساعة، لأنَّه لم يكن كثيراً من المنتظر أن يختتم حكم الخليفة الثالث بدمه، وإن يكن ذلك كان قد أصبح له في المدة الأخيرة شيء من الحسبان.

أما بالنسبة للخليفة الجديد، فإنَّه لم يفاجأ بالحكم على قلَّة استعداد للحكم..

فهو منذ وفاة الرسول، لا بل منذ كان الرسول على قيد الحياة، حتى وقبل أن تعلن الرسالة على الملأ، كان يمارس سياسة الحكم..

لقد مارسه وهو يافع يراقب سير كلِّ حركة من تنقلات النبي الكريم، ثم مارسه وهو فتىً لا ينسلخ لحظة عن مرافقة ابن عمه وهو يتقبَّل الوحي ليصوغه آياتٍ بينات، ثم مارسه وهو بالرفقة العزيزة الدائمة يعقدان الجلسات السرية الإستشارية في كيفية نقل الأمانة إلى حيِّز العمل الجدّي. ثم مارسه في تنسيق هجرة واقية كسبت من الوقت عدَّتها وصيانتها، ثم مارسه في الرجوع إلى المدينة حيث كانت بالإنتظار حشود الأنصار.

ثم مارسه بإيمانه وعقله الكبيرين، اللذين تفتقا على لسانه وساعديه بتلك الشجاعة والبطولة النادرتين، فخاض غمار سلسلة من المعارك الدفاعية الباهرة، من حيث وطد الرسالة على أساس من القوَّة والمتانة جعلاها تستند إليهما في أضخم

وأروع انطلاقة حقّقتها رسالة في وجه التاريخ.

أما أن يكون قد تغيَّب عن اجتماع السقيفة، ذلك الإجتماع الذي غمط فيه حقه بالخلافة، فإنَّ ذلك لم يبعده عن إكمال سلسلة ممارسته للحكم طيلة ربع قرن.

ولكنَّه بقي يمارسه بالمراقبة اليقظة، ويتنقَّل معه من حدث إلى حدث، ويشارك القيمين الثلاثة عليه مشاركة المخلص الوفي، بصفته أول واحد من أهل البيت، وبصفته صاحب الرسالة، وأول الصحابة، ومن أصدق أهل الحديث، وعلى رأس المفقهين، ومن أخلص أهل الرأي ومن أرسخ علماء العصر.

وكانت ممارسته بالمراقبة من أشد الممارسات كسباً له، فوسعت خبرته من سياسة شعب الجزيرة إلى سياسة باقي الشعوب، ونقلته بالرسالة من حيزها المكي إلى نطاقها العالمي.

وهكذا يمكن القول: إنَّ عليّاً بن أبي طالب ما توصلت إليه الخلافة وهو بحاجة إلى استجماع العدَّة لها، لا بل بالعكس.. فإنَّها كانت تعدو سريعاً للحاق به حتى تستقيم بطريقه طريقها.

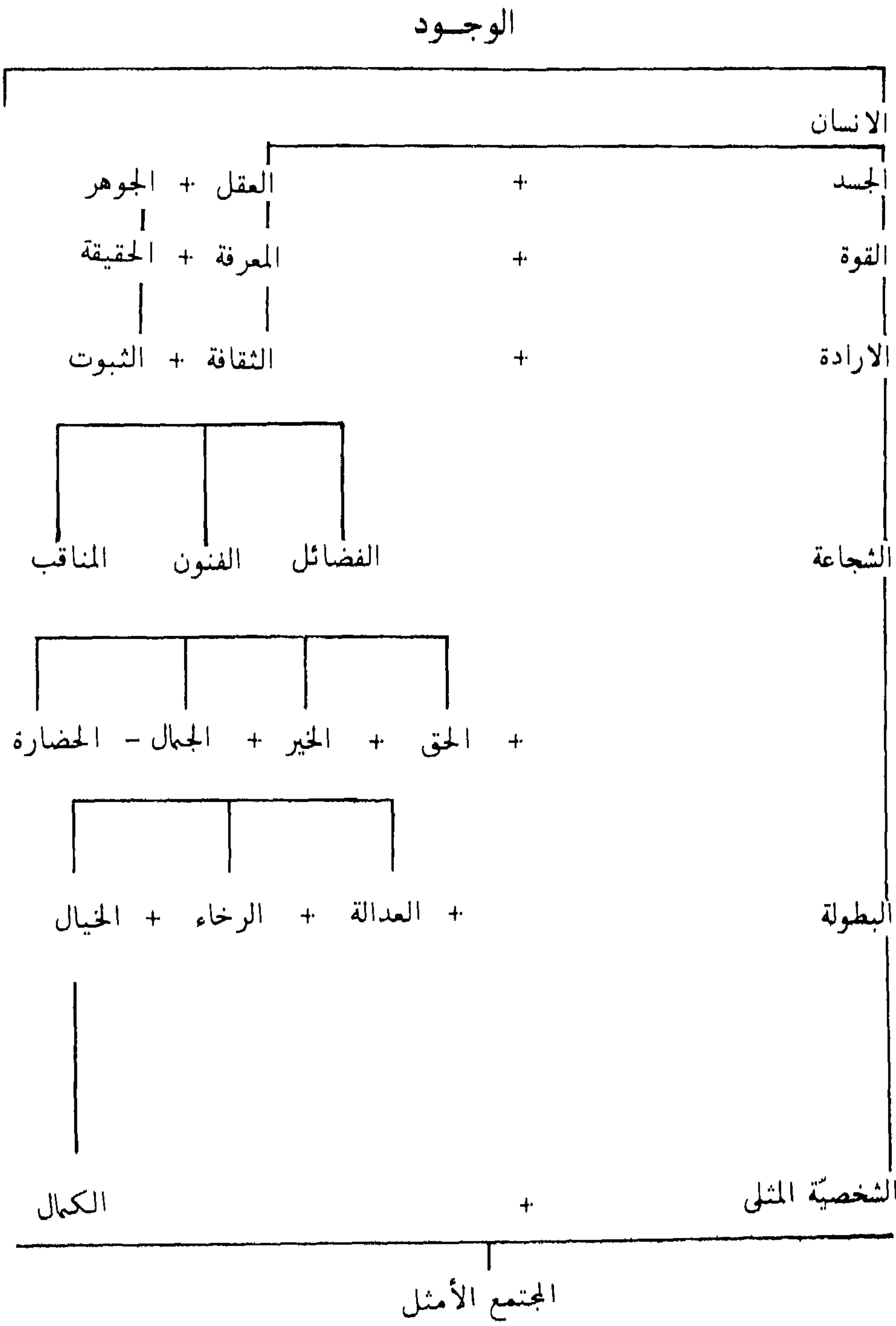
فالعدَّة كانت جاهزة وكاملة.. جاهزة من الأساس بكلِّ مقوِّمات الحكم، وهي لم تكن محصورة بكثير من البنود.

فهي، أولا وآخراً، مختصرة موجزة، بناء الشخصية.

فابن أبي طالب لم يمكنه أن يفهم المجتمع إلا شخصية مبنية من الأساس على الفضائل.

وحتى يتمكن من بناء الجزيرة بناءً يجمع قبائلها إلى قبيلة واحدة لمصلحة الجزيرة العامة، شدد على الفضائل.. فهي وحدها، في نظره، التي تبني المجتمع الصحيح.

وكأنِّي به رسم لذلك هذا التصميم كشجرة يتدرَّج عليها الإنسان في حضن الوجود، إذ منه ينبثق وإليه يعود:


الوجـود
الانسان
الجسد
+
العقل + الجوهر
القوة
+
المعرفة + الحقيقة
الارادة
+
الثقافة + الثبوت
الشجاعة
الفضائل
الفنون
المناقب
+ الحق + الخير + الجمال – الحضارة
البطولة
+ العدالة + الرخاء + الخيال
الشخصيّة المثلى
+
الكمال
المجتمع الأمثل

من هذا الشكل، في الصفحة المتقدِّمة يفهم أنَّ الوجود بشموله هو الله - عز وجل - الذي هو العلَّة الكبرى.. وهو الجوهر الكامل، والحقيقة الكاملة، والثبوت الدائم.. لا تحوير ولا تبديل، بل كينونة يلتقي فيها الأزل والأبد، ينبثق من الوجود الإنسان بحدَّيه: الجسد والعقل.

من الناحية الأُولى، يبرز العقل الذي هو صفوة الجسد.. هذا العقل الذي يمكنه أن يحتك بجوهر الوجود لتتناسل من هذا الإحتكاك خيوط المعرفة..

المعرفة بدورها، وهي تلامس حقيقة الجوهر، تنقلب من معدن النَّفس لتصبح ثقافة الإنسان...

أما تلك الثقافة التي هي نتيجة هذا التماس المنوَّر، فإنَّها تلتحم بهذا الإحتكاك وتثبت مستمرَّة بالتحامها إلى أن يخصبها الجوهر، فإذا مواليدها منه هي الفضائل والفنون والمناقب.

أما الفضائل والفنون والمناقب، فإنَّها تتلاقح من بعضها البعض لتنجب على التوالي الحق والخير والجمال.

ثلاثة توائم تربو في أحضانها حضارات البشر، وتتوالد منها، على السواء العدالة، والرَّخاء، والخيال.. ثلاثة ينابيع هي كوثر الوجود الكمال.

من الناحية الثانية، يبرز الجسد الذي هو قاعدة العقل. فالجسد باتصاله بالعقل المحتك بالجوهر يكتسب القوَّة..

القوَّة نفسها تبقى بلا معنىً حتى يباركها بهاء المعرفة، إذ ذاك تصلب وتصبح إرادة..

الإرادة بدورها ينقصها التوجيه... والثقافة الخصبة تسدد خطاها، عند ذلك تتحلّى الإرادة بهذا البارق الجميل الذي هو الشجاعة..

الشجاعة نفسها تبقى قوَّة غاشمة إن لم يصلقها الحق، والخير، والجمال، وعند ذاك تنقلب إلى بطولة تعمر بها النفوس والعقول قبل أن تصلب بها السواعد والمتون... بطولة لها وزن الجمال، ووزن الحق، ووزن الخيال.. وهي حلية الكمال، خير حلية تلبسها شخصية الإنسان.

فالنتيجة: إنَّ مجتمعاً ينشأ على مثل هذه الفضائل المتسلسل بعضها من بعض لمجتمع أمثل يبعد أن تتطرق إليه عوامل الوهن.

وهكذا رسم الخطة منذ البدء، منذ أن حمل الرسالة بيده يلوّح بها كمنقذ للجزيرة.

ولقد طبَّقها طوال حياته على نفسه، فإذا اعتقاده بالله اعتقاد راسخ قلَّ أن يخلو حديث له من ذكر ربه.

ولم يغرف عقله إلا من جوهر هذا الوجود الذي هو «الله» فكانت لديه المعرفة الكاملة بأبهى معانيها.

وتثقفت بهذه المعرفة، فأصبح لديه خزان طافح بالفضائل والمكرمات، حتى لا يمكن القول إلا أنَّ عليا بن أبي طالب هو مثال العفة والصدق والنزاهة، ومثال القوَّة التي تسلَّحت بالإيمان والحق والعدالة، فانطوت فيه تلك الإرادة الصلبة، وفاضت عليه تلك الشجاعة النادرة، واندفقت به تلك البطولة الخارقة، من حيث برزت شخصيته المثلى التي أحبَّ أن يكون بها قدوة لبني قومه في سبيل بناء الجزيرة ذلك البناء الأمثل.

وها هو ذا الآن يتسلَّم دستورياً الحكم.. لا بل إنَّها تطرح عليه هذه المقاليد إثر انتفاضة ولَّدتها الحاجة إليه.

والحكم اليوم غيره بالأمس.. فعلى عليٍّ بن أبي طالب أن يتحمَّل أتعاب الترميم ثم أتعاب الإستئناف في السير الطويل.

فالرسالة ليست بعد طفلاً يحبو بين مكة والمدينة، بل أصبحت ذلك العدّاء الذي يلتهم المسافات رغم الحدود، ولن تليق بها أقمطة الطفولة، وأصبحت بحاجة إلى ما يشد حقويها في ترحالها السريع. وهي لم تهبط قطراً من الأقطار إلا واحتلت مدنيَّة قائمة وعزّاً شامخاً، وإنَّه من الحيف أن ينقل وهجها من لا يدرك قيمتها.

من هنا، إنَّ ابن أبي طالب كان يدرك أنَّ الرسالة مشى بها من لم يستكمل بعد استنارته منها، وأنَّ الفتح الذي حققته إنَّما كان بقوَّة فاعليتها أكثر مما كان بقوة الذين حملوها.. ولن تكون النتيجة، عندما يثوب الفتح إلى رشده، لمصلحة الجزيرة إلا بشكل ضئيل.

ثم أنَّ الرسالة، وهي دنياً ودين، لم تكن مطلقاً لتحصر ضمن حدود الجزيرة.

فالدِّين لله، والله ليس للجزيرة وحدها!

أما الجزيرة بالنسبة للرسالة، فإنَّ لها فخر المولد وشرف المصدر.. وحرام عليها أن تكون أقل قيمة من مواليدها، وأخفض جانباً من صادراتها.

لذلك كان علي، في غيرته على الرسالة وفي غيرته على الجزيرة، يرى أنَّ تثقيف ابن الجزيرة بفضائل الرسالة هو الواجب الأوَّل الذي كان لازماً أن يسبق كل الفتوحات.

ولكنَّ الفتوحات، باسم الرسالة، قد سبقت هذا التدرُّج المطلوب..
وبدلا من أن تحقق إفادتها المرجاة أتت بالعكس من ذلك.

فالشخصيَّة التي كان منتظراً أن تمتنَّ بالفضائل جاءتها الفتوحات لتغرقها في بحبوحة من الثروات والغنائم، فأفسدت عليها بدنياها دينها الذي لم تستحكم فيه ثقافتها بعد..

حتى الخليفة عثمان بن عفان أصابه هذا الدوار الخبيث، فابتنى القصور على حساب الجهاد، وأغرق أهله وذويه بمثل الذي غرق فيه، ليسجل التاريخ عنه مهزلة سوف يلصقها ومخازيها بتاريخ الفتوحات.

وليس هذا الواقع الحاضر بأقل حاجة إلى المعالجة، وليس الرجوع إلى الوراء ممكناً، ولا المضي إلى الأمام بالنهج القديم بمضمون النتائج.

وهكذا فرضت الخلافة على عليٍّ عبء النِّضال على جبهتين: جبهة تعالج من جديد تحت الشخصيَّة العربية، وجبهة تعالج الفتوحات لتبقى على معناها الأصيل.

وهنا يبرز أسياد الجزيرة، الذين لا تزال تشدهم إلى الوراء تلك العنجهية في عصبيّاتهم التي كانت تطل من حين إلى آخر كلَّما سنحت لها المناسبات تدفعهم إلى الإلتجاء إليها نفوسهم المريضة بحب السيادة، من حيث لم يتمكن الحكم الذي انقضى من صهرهم وصبِّهم في القالب الجديد، ويساند بقاءهم على مثل ذلك، التلهي بالتوسع الفتحي، من حيث انصبّوا هم أنفسهم على خوض غماره لزيادة كسبهم منه على الصعيدين المادي والرئاسي.

والصعيد الثاني كان تحقيقاً للأول.

وهكذا استعملوا الرسالة وسيلة، لا غاية، بحدٍّ ذاتها.

وكانت كل أزمة تصطدم بها مصلحتهم تجعلهم يقفزون كلٌّ إلى قبيلته، غير عابئين بما يصيب الرسالة من انتكاس.

وتبرز أيضا، من ناحية ثانية، فئة الشعب الذي جاءت الرسالة من أجله، لتخفف من بؤسه، ولتوقظ الإنسان فيه.

إنَّ الشعب هذا هو الدمية التي لا يزال يلعب بها هؤلاء الأسياد، فيجعلونها مطيَّة لأهوائهم ونزواتهم، ويستخدمونها في سبيل الحصول على غاياتهم ومآربهم...

ذلك الشعب نفسه، على انعدام ثقافته، رمي في الساحة لتحقيق الفتوحات، فطاب له طعم الغنائم على زنود السبايا.. ولكنّ ذلك إذ يدوم له يوماً فلن يدوم يومين.

والرسالة إنّما جاءت لتشبعه كلَّ عمره، ولن يكون شبعه إلا عن طريق إيقاظ عقله، العامل الوحيد في إنماء اقتصاده الشريف.

إنَّ هذا الشعب لم تشبعه بأجمعه نعم الفتوحات، والذين بقوا بعيداً عن الموائد حركتهم المجاعة الحاسدة.

وهكذا الرسالة التي خلقت لتجمع، إذا بها تتعرَّض من جديد لتفسخ أقسى مما كان.

في هذه الفوضى كانت الجزيرة تدور في آخر أيّام ابن عفان، من حيث انفجرت ثورة ما استهدفت منقذاً لها إلا ابن أبي طالب.

هذا الإنسان في الجزيرة، من سيِّد يحاول دائماً تثبيت سيادته، إلى شعب لا يزال أتعس مما كان في جاهليته، هو الذي يقابل عليّاً في أول خلافته ليعيد النظر في كيفيَّة بنائه إنساناً جديداً يليق به أن يكون عدَّة ناضجة لاستكمال معنى الفتوحات.

إزاء هذا الواقع المؤلم، شمَّر ابن أبي طالب عن ساعديه، ليعود فيستعمل تلك البطولة التي ما انفصلت يوماً عنه.. فهي نفسها لا تزال عدته منذ وعى الرسالة حتى اليوم.

ولن يتمكن من النَّصر ما لم يلجأ إليها، فهي لديه مستكملة كلّ شروطها. لذلك فإنَّه لن يرضى بأي نوع من أنواع المساومات، وسيستعمل كلَّ فضائله دون أن يستنفدها، في سبيل الوصول إلى بناء الإنسان في الجزيرة.. وسيقدِّم نفسه القدوة المثلى، وسينتصر الإنتصار الكامل، لأنَّه سوف يبقى عنوان الإيمان بالله، ومثال الصدق والعفَّة والنّزاهة. ومثال الشجاعة والبطولة في الدِّفاع عن قيم الحق والخير والجمال.

وسيبقى والنبي الكريم أبوين صميمين لأُمَّة العرب.

أعباء القيادة

قال علي:

« من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، ويعلن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه.. ومعلِّم نفسه ومؤدِّبها أحق بالإجلال من معلِّم الناس ومؤدِّبهم ».

مقاطع البحث

الراية الجديدة
بداية الحكم
القميص الطائر
الواقع المؤلم
أُفق الكوفة وأُفق الشام
الكتلة الأُولى - الشام
الكتلة الثانية - الكوفة
طلحة والزبير في سطور
معركة جانبية
يوم الجمل
حق البكارة
تعقيب
صفين في بضع فقرات
ملحق
خاصرتا أبي موسى الأشعري
ذيول
الهدنة
١٩ رمضان

الرّاية الجديدة

« ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة.. ما لهم؟ ».. هكذا قال علي.

إنَّ الراية الجديدة التي خفقت عزيزة فوق رؤوس المسلمين، وظللت أرجاء الجزيرة، وامتد تحت وارفها الفتح من مبازغ الشرق إلى مهابط الغرب، قد رثّت خيوطها وحالت ألوانها، فهي لم تعد خليقة بعد ربع قرن بأن تحقق خفقات هذا الإندفاع الجارف، وتهتز هزات هذا العزّ العارم...

لهذا تحتَّم أن تستبدل براية العقاب راية أُخرى يمكنها أن تحمل طابع العصر ولونه الزاهي، ولذلك يتحتم أن تكون خيوط نسجها وألوان صبغتها من النَّوع الذي يغالب الزمن فلا يفنى ولا يحول.

إنَّ هذا النَّوع من النسج المتين ومن الصباغ الثابت لن يجده هذا العصر إلا في قميص عثمان.

وها هو ذا قميص عثمان لا يزال حتّى الآن راية خفّاقة البنود، لم يبل خيط منه بعد، ولم تزل زاهية الألوان.

تلك حقيقة مؤلمة... قميص عثمان!... ويا ليت الجزيرة لم تعرف نولاً ينسج مثل هذا القميص! ويا ليت عثمان كان عارياً من قمصانه!.. إنّما الرِّسالة جاءت

لتحطّم مثل هذه الأنوال ولكنَّ الحطّم كان نصيبه منها أن لبس كلَّ قمصانها.

أتراها سنة الفداء؟...

ألم يجيء عيسى من قبل ليحطّم أخشاب الصلبان، فكان أكبر صليب من نصيبه؟

وسقراط؟.. ألم يتناول الكأس لينظفها من سمومها فلن يتمكن حتى جرعها.

تلك كانت حكاية ابن أبي طالب في عصره...

فلقد كتب عليه أن يلبس قميص عثمان، ولكنَّ قميص عثمان ما كانت لخيوطه هذه المتانة، وما كان لألوانه هذا الزَّهو، لو لم يلبسه علي بن أبي طالب.. أُلبسه في دمشق تدليلاً على الجريمة، فرأته الأجيال تخليداً للبراءة.

وهكذا لبس خلود الجريمة من حاك قميصها، وبقي لهم قميص عثمان راية العصر.

بداية الحكم

لا شك في أن بداية الحكم كانت بالنسبة إلى علي بن أبي طالب تهافتاً على المتاعب، ولن تكون النِّهاية بأهون منها..

وهو، على كلِّ حال، لم يطلب الحكم متعةً وملهاةً، بل تطلَّبه مسؤولياتٍ وأعباءً.

« وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارُّوا على كضة ظالم ولا سغب مظلوم » ولم ينهجه مسايرة، وملاينه، بل امتطاه جداً وصلابة.

ولقد أتاه النصح من المغيرة بن شعبة ومن ابن عباس بالمساومة والملاينة فأبى وقال: « لا أُداهن في ديني، ولا أُعطي الدنيَّة في أمري ».

وكيف يفعل ذلك ونهجه وحيد وصريح؟..

وممن يخاف؟.. ومم يخاف؟؟

« ما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبَّه... »

أمن الدنيا أن تحبس عنه كنوزها ونعيمها وأمجادها؟ ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة؟ وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه، وتبقى تبعته وحسابه؟

ولكنَّه لم يلبس الدنيا إلا بقميص من الكرابيس وبمدرعة مرقوعة، ولم يأكلها

إلا في حبّات من الشعير تطحنها كفّه لقمة يابسة لفمه، ولم يسكنها في قصورها بل في أحقر خص من خصاصها، ولم يمتطها إلا كما يمتطي الفارس الجواد إلى ساحة الجهاد، حقيرة لديه غاية، عزيزة عليه وسيلة.

« الدنيا دار مني لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء.. وهي حلوة نضرة، وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر.. فارتحلوا عنها بأحسن ما يحضركم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ ».

وقال له مرَّة عاصم بن زياد الحارثي: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!

فأجابه: « ويحك! إنّي لست كأنت!.. إنَّ الله فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيَّغ[1] بالفقير فقره ».

هذه الدنيا التي عالجها سحابة عمره زهداً وتقى، ومد إليها يده عفّة وصدقاً وبطولة.. لن يتمكن اليوم من أن يصافحها مصافحة المستجدي ودها والطامع بخدر من أخدارها، ولم يكن خدناً من أخدانها.. إنّما جاء اليوم يوضح الخط المرسوم.. كيف يجب أن ينظر إلى الدنيا، وكيف يمكن أن تستعمل أداة وصول إلى محجة، وكيف يليق أن يؤدي الإنسان فيها دور الفاهم الناضج، وكيف تتحتَّم صيانة المجتمع على أُسس من الوعي العاقل الراشد.

إنَّ نهجاً واضحاً كهذا خط ابن أبي طالب كلَّ بنوده، وطبقه على نفسه، وعاشه كلَّ عمره، ونشره في كلِّ أقواله وأعماله.. لم يبق باستطاعة أي في الدنيا أن يقلل من قيمته أو يقطع خيطاً واحداً من متانة نسجه.. ولقد أصبح، بحد ذاته، لونه الدائم ونصره الأخير.

من هنا، إنَّ المساومة لم يبق لها درب مفتوح إلى بابه، ولا التهديد بالموت يكون له أيّة فاعلية في ثنيه عن خطّه.. لأنَّ الموت، في نظره، إذ يقطعه عن دنياه، وهو لا شك فاعل، لن يتمكن من أن يقطعه عن ربّه الذي له يعمل وإليه واصل.

ولقد قال: « لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: اعزب عنّي! فعند الصباح يحمد القوم السرى ».

(١) أي يتهيج به.

ولقد قال أيضا قبل موته: « غداً ترون أيّامي ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلوِّ مكاني وقيام غيري مقامي ».

وكما نظر إلى عثمان في أنَّه انتهج خطّاً غير الذي رسمته الرسالة، فإنّه بات من المستحيل - وهو يتسلَّم الآن زمام الحكم - أن يترك الخط على مسيره الأوَّل.

وكذلك الثورة التي هبَّت تقتلع الفساد، فإنَّها لم تكن لتولد لو أنَّها لم تشرب من حوضه النمير.

إذاً، فالمساومة قد انتفت نصّاً ومعنىً من معجم عليٍّ، لتحل مكانها كلمة أُخرى تحمل معناها.. ألا وهي « الصلابة ».

والصلابة هذه لم تكن لتحمل الرعونة، فلقد نحتها من تلك القساوة التي يتحلّى بها معدن الحق والعدل، ولوّنها بتلك العفة والنزاهة، ودفعها بتلك الشجاعة والبطولة.. فإذا هي تعبير صادق عن نظافته الخالصة، ونفسيته العلية، وفكره العبقري.

ولن يتخلّى مطلقاً عن هذه الصَّلابة، لأنَّها معين شخصيته الفذة، وكانت نبراسه في كلِّ حياته، وهي التي رافقته في كلِّ جهاده، وهي التي لا تزال ترافقه حتى الآن في تاريخ خلوده.

ولقد ابتدأ بالتنفيذ في اللحظة التي تسلم فيها شرعية التنفيذ...

فاقتلع العمّال الذين وزعهم الخليفة المرحل على الامصار المفتوحة كلها بقوة الرسالة، ليستبدل بهم هؤلاء الممتحنين على محك الفضائل، وسلمهم شعارهم الجديد.. « النظافة ».

والنظافة هذه كانت تحمل بين حروفها: الصِّدق، العفَّة، الإخلاص، التقوى، الرفق...

ولن يسلم عاملاً عمله على رقاب الناس قبل أن يخاطبه بمثل هذا المقال:

« إلى الأشعث بن قيس، عامل آذربايجان »:

« .. وإنَّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنَّه في عنقك أمانة. وأنت مسترعىً لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة. وفي يدك مال من مال

الله عزّ وجل، وأنت من خزّانه حتى تسلّمه إليّ ولعلّي أن لا أكون شر ولاتك لك. والسلام».

وإلى زياد ابن أبيه:

«إنّي أُقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً، صغيراً أو كبيراً، لأشدّنّ عليك شدّةً لا تدعك إلا قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر. والسلام».

وإليه أيضا:

«دع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدّم الفضل ليوم حاجتك.. أترجو أن يعطيك الله أجر المؤمنين وأنت عنده من المتكبّرين؟ وتطمع وأنت متمرّغ في النعيم؟.. تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدّقين.. وإنّما المرء مجزى بما أسلف، وقادم على ما قدّم. والسلام».

هكذا سلم الإمام علي زمام الأُمور إلى رجال فرض عليهم من كفّه نظافة الكفّ، ومن لسانه عفّة المنهج، ومن صلابته محازم الأعمال.

ولقد وزع عليهم لائحة المبادىء الّتي يجب أن يتناول منها ما يسدّد خطاهم...

«والله لو وجدته قد تُزوّج به النّساء ومُلك به الإماء لرددته!».

«إنّ في العدل سعة.. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».

«لا دين لمن لا مروءة له».

«لا كرامة للكاذب».

«نضرة الوجه في الصدق».

«فرع الشيء ينبت من أصله».

«ظل الأعرج أعوج».

«جولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى الساعة».

«لا يغرنّك الطمع، فقد جعلك الله حرّاً».

«كن للمظلوم عوناً وللظالم خصماً».

« فقر الرؤساء أهون من رئاسة السفلة ».

« عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان ».

« ظرف الرجل تنزهه عن المحارم ومبادرته إلى المكارم ».

« شرّ الولاة من خافه البريء ».

« سياسة العدل ثلاثة: رأفة في حزم، واستقصاء في عدل، وإفضال في قصد ».

« الحق سيف قاطع ».

« إمام عادل خير من قطر وابل ».

« ثوب العقل أشرف الملابس ».

« ثابروا على اغتنام عمل لا يفنى ثوابه ».

« راكب الظلم يكبو به مركبه ».

إلى آخر ما احتوت هذه اللائحة من نصائح وحكم... ترد إلى سواء السبيل.

إنَّ هذه الصلابة نفسها التي سلَّمها قوّاده وعملاءه، ووجههم ليعملوا بوحيها في السياسة العامة، لإيصال الحق إلى نصابه، ولتهذيب ابن الجزيرة التهذيب اللائق بالإنسان.. أخذها أخصامه ليقابلوه بها بتلك الرعونة وذلك الجفاء، والتجأوا إلى الفتنة يولدونها.. وكان لهم من قميص عثمان عود الثقاب.

القميص الطائر!

ويحك أيُّها النعمان بن بشير!.. يا حامل الجريمة تطوف بها، تجسِّمها تنفخها، تنفثها سمّاً، تنشرها داءً!..

يا حاملَ الطاعون تبخه وباءاً عليك، على أهل بيتك، على أصلابك، على كلِّ بني قومك، على كل أنحاء الجزيرة.. على معاوية، على عمرو بن العاص، على الشام لينتقل منها كما انتقل الفتح إلى مصر وافريقيا، إلى العراق وخراسان!.. ومن يومك إلى غدك، إلى الأجيال التي ستخلف عصرك وتسجِّل خزيك مجبولاً بعارك.

ماذا تحمل تحت إبطك!؟.. أيَّة صرَّة تلف بها آيات كتابك وأمجاد جهادك؟!.. إلى أين تنتقل بك قدماك يا حامل البوق ويا صنّاجة العرب؟! ويحك! ألم تدرك أنَّ ناقل الشرِّ أثقل من الشرّ!؟ وأنَّ حامل الفتنة أبلغ منها!.

أيُّها الموتور المقرور!.. مهلاً!.. ألم تثب، وأنت تمشي طريق الشام، إلى رشدك. وجاهليتك التي علَّمتك الوأد!.

يا هذا!.. ألم تعلِّمك وأد الشرِّ الكبير وخنق الفتنة العمياء، ودينك الجديد؟

يا حامل الراية إلى الفتوحات.. ألم يفتح على قلبك كوة السماح بالإيمان وروعة التعقل؟!

تخفف في طريقك يا ابن بشير.. لا تسرع...

إنَّ قميص عثمان الذي تحمل وأصابع نائلة المقطوعة التي تنقل إنَّما هو قميصك البالي.

لم تزل تلبسه من قبل أن تولد.. وهي أصابع كفِّك اليسرى التي كانت تقطع في جاهليتك عقاباً على سرقة.. وها إنَّك لا تزال تسرق، حتى الآن، فضيلة دينك الجديد الذي اقتبست، لتحمل الفتنة تنشرها أين ما تتوجه.

قف مكانك.. لا تقطع حدود الجزيرة.. واحفرها عميقة، وارم إليها قميصك، ووار فيها حقدك وضغنك.. ثم ارجع من حيث فررت فإنَّ الدَّم الذي يثقل وزره لا يليق بك نشره، فهو من الجاهلية وقره، ومن فضائل دينك ستره.

واربأ بنفسك!.. فليس الثأر الذي إليه تسعى إلى غير الويل والدَّمار يقودك، ولن تنال عليها الجنَّة من حيث تحسب عليك الجنة.

وارجع إلى عقلك!.. فإنَّ المحنة التي اندفقت نارها ليس من مصلحتك، ولا من مصلحة جزيرتك، أن تجمع لها الوقود لتزيد ضرامها.. بل بالعكس، برِّدها من معين نهاك، وخفِّف لظاها بفيض حجاك لو تعقل..، واسكب عليها بدل السموم شيئاً من السلوان، واغرف لها من النسيان ما يرتقها لا ما يزيد من فتقها.

يا صاح!.. يا حامل العقل الجديد!.. يا ناقل الفكر السَّديد!.. يا فاتح الأمصار باسم الرسالة!.. يا غازي الجهل تدك حصونه!.. تريَّث فليس في الردَّة غير السُّموم!.. فحرام عليك أن تعود إلى عقمك، فتهدم دينك، وتروِّع قومك، وتجمِّد روعة امجادك.

ئد هذا القميص بالله إده!..[1] من قلبك، من عقلك، من أعصابك.. وارجع إلى قومك.. وبلسم جرحاً نزف، وخفِّف حدَّة تنقم، واجمع شملاً يتمزَّق.. وناد بالرسالة، فهي الكبيرة، وهي التي تسع، وهي التي توحد، وهي التي تجمع.

أتراك، يا ابن بشير، تعقل وتفعل؟!

---

(١) من «وأد» «يئد».

الواقع المؤلم

إنَّ الأزمة التي انفجرت بموت عثمان وراحت تنشر قميصه فوق الجزيرة وفوق كلِّ جزء من أنحاء العالم الذي توصَّلت إليه راية الدين الجديد، لم تكن بالأزمة المستحدثة.

فهي أزمة الجزيرة منذ كان الإنسان في الجزيرة، وهي أزمة رافقتها كما رافقها واقعها الإقتصادي.

فالشح الذي كان لها من أرضها انعكس شحاً في نمطها في العيش، وفي كلِّ مجالاتها العمليَّة والفكريَّة.. فانصرفت تعالج شؤونها من زوايا ضيِّقة تلبَّستها، مع طول الوقت، عادات وتقاليد، من حيث أصبح تشذيبها من الصعوبة بمكان.

ولقد أصبح من المعلوم أنَّ الرسالة الجديدة جاءت تبني إنساناً جديداً يتمكن من السيطرة على واقعه وتطويره.

إنَّ أول ما ابتدأت به هو تحضير العقل، ليصبح مكنة فاعلة في خلق هذا التطوّر ودفعه لتحسين الواقع الإقتصادي.

إنَّ هذا البناء الذي استهدف الفكر أولاً، نجح إلى حدٍّ بعيد في خلق إنسان أخذ يشغل عقله.

وبالفعل، فإنَّ التَّيَّار الدِّيني الذي احتل عقل الجزيرة، جعلها بحق مركزاً لعدة انطلاقات فكرية، تشعبت شرقاً وغرباً، وحققت بعض الإنتصارات.

ولكنَّ الجزيرة التي تمكن الدِّين من تحريك عقلها لم يتمكن حتى الآن من أن يصبح ثقافتها، لأنَّ الثقافة هي تمرّس دائم وانعكاس في النفوس مع المجال الطويل.

ثم إنَّ الثقافة هي كرجع الصوت بعد أن يجول في كلِّ أنحاء الكهف الذي يطلق فيه دوي النداء.. أي أنَّ الثقافة التي يتحلى بها الفرد في المجتمع تأتيه من ذلك المجتمع بعد أن تكون قد شملته كلَّه على السواء.

إنَّ الثقافة الجديدة للجزيرة، بنوع خاص، لم تبلغ بعد مكانة تذكر في وقت لم يتجاوز الأربعة عقود.. فهي لا تزال ثقافة تختلط اختلاطاً ظاهراً بما قبلها، فهي مخضرمة.

ثم أنَّها، من حيث يطلب منها أن تكون قاعدة انطلاق لتحقيق اقتصاد عاقل يضمن استنادها إليه في دفعها واستمرارها، لم تحقق شيئاً يذكر من هذا القبيل.

بل إنَّ عكس ذلك قد حصل...

فالفتوحات التي قامت بها الجزيرة أغرقتها في فيض من البحبوحة المستعارة، من حيث جعلتها تتذوَّق طعم النّعيم النّابع من غير صلبها.

من حيث جعلتها تتذوَّق طعم النّعيم من غير صلبها.

ولقد توزع هذا الخير المستباح أولاً على القواد والحكام، ثم على الجند بالتدريج.. من حيث خلق طبقات مترفة على استحداث.. فطغت المادة على الروح، لا بل وقفت المادة تلك حجر عثرة في سبيل نجاح طبخ النفوس والعقول بالثقافة الأصليَّة التي يجب أن تحتل رويداً رويداً مكانها في المجتمع، يسندها بذلك اقتصاد صادق ثابت وعفيف.

ثم أنَّ هذا الدفع من الكسب الموقَّت لم يكن ليشمل كلَّ أفراد الشعب... فالذين كانوا يتسابقون إلى خوض المعارك في الفتوحات هم الذين كانوا يرجعون بالغنائم.

فكريًا واقتصادياً قد اصطدم نجاحها بتلك العراقيل التي كان من اللازم إزالتها من طريقها قبل أن تواجهها.

إنَّ ذلك فاتها وهي تمشي الطريق في خطواتها الأولى مع عمر بن الخطاب، الذي لم يرسم لها إلا بعض المخططات الجزئية التي أخذت تهتم بالناحية العسكريَّة، أكثر من أن تهتم بالقضيَّة النفسيَّة الثقافية وبالتوجيه الإقتصادي الصحيح.

[illegible] من طموحاتها الواسعة التي حققها
بسرعة فائقة.. غير أنَّه ترك أمر الإهتمام به ربما للوقت، من حيث سترسم خطوطه عن طريق تطوير العقل واقتداره على الغرف من الحضارات المحيطة به، مقتبساً منها كلَّ شائق وجديد.

* * *

تلك كانت أهداف ومخططات ابن الخطاب الناظرة إلى مستقبل الجزيرة من ناحية علمية.

أتراه كان مصيباً في كلِّ تلك المناحي، أم أنَّ شيئاً من هذا النَّوع لا يبلغ درجة من الكمال إلا مع التجارب التطبيقية؟

وذلك كان في بداية التطبيق في دولة آخذة في تثبيت وجودها لأول مرة في تاريخها، غير أنَّها كانت بعض المخططات، وليست كلّها، التي كان من الواجب أن ترسم بكلِّ تفهم وحيطة، وأن تمشي خطواتها بكلِّ إخلاص وتجرُّد، وأن تدرس بكل واقعية وانضباط، وأن تؤخذ بكلِّ شمول وتعمُّق، وأن تطبَّق بكل تحفُّظ ورويَّة.

أما عثمان بن عفان، فإنَّه لم يتلمَّس النهج في البناء بشيء من هذا التدقيق المخلص أو هذا النحت المتيقِّظ... فبقيت الدَّولة تشط عن أهدافها، وراحت الرسالة تضيِّع مقوِّماتها مع الفتوحات المغرية، وأصبح الفتح غاية ووسيلة يتسابق إليها الشعب سباقاً، من حيث أصبحت الجبهات الحربية زحاماً انتقل إليها معظم سكان الجزيرة.

أما البناء النفسي العقلي، فلقد أُهمل بالتلهي بكلِّ المغريات.. من أموال، وتحف، وسباياً، وغلمان، وأموال.. إلى آخر ما على لائحة الكسب من أسلاب وغنائم.

وتبرَّم من ذلك عقال الجزيرة، كما تبرَّم المحرومون... حتى أنَّ الإقليم المفتوحة التي أخذت بروعة الرسالة بدأت تتبرَّم من هؤلاء الذين أخذوا يستبيحون خيراتها.

ودليل ذلك، أنَّ الثورة على ابن عفان كان قوامها عدَّة مئات من مصر، حضروا متذمِّرين من الخليفة المتخلِّف عن نزاهة الحكم.

هذا ما كان في بداية تأسيس الدَّولة الجديدة.

ولا شك في أنَّ الأساس المتين هو الذي يعول عليه في تشييد البناية الضخمة التي قدَّم تصميمها الدِّين الجديد.

فالأخطاء التي حصلت إنَّما حسبت على القيادة، إذ فاتها أن تكون الحريصة فى التشديد على أعمال التأسيس.

إنَّ هذه الأخطاء كانت الموصلة إلى هذه النتائج التي أخذ يعاني وطأتها علي بن أبي طالب منذ تسلّمه دفة الحكم.

وإنَّ مثل هذه الدِّراسة قد لمحنا إليها في فصل سابق من هذا الكتاب، كما أشرنا إلى كون ابن أبي طالب كان مطّلعاً عليها وهو في عزلته يراقب سير الأحداث.

وها هو يتسلَّم زمام الحكم وفي جعبته مخطط الترميم، تعويضا عما فات، واستئنافاً لعمليَّة البناء السليم.

ولكنَّ الوضع الحاضر أصبح أشدَّ عناءً بكثير من الوضع الذي قابل الرسالة في أطوارها الأولى...

هنالك إنسان كان يستدرج إلى وعيه، وكان يشكو ثقل الزَّعامة عليه، لأنَّها كانت سبباً لاستبعاده وإفقاره.. وهنا إنسان موقظ متحفز، أخذ من جديد يستسيغ التزعم عليه كأداة لاستدرار الرِّبح واستمراره.

هنالك قبليَّة بدائية ضيقة وفقيرة.. وهنا قبلية ارتقت إلى الحزبية المنظمة، ومدعومة بالإغراء المادي.

هنالك إنسان كان طفلاً بريئاً.. وهنا إنسان أصبح مفسوداً حتى بالإغراء الجنسي.

هنالك عقلية بذائية كان سهلاً أخذها.. وهنا عقلية أخذت من الجديد داء ضمَّته إلى قديمها، فإذا هي تستوجب العلاج لمرضين مشتركين.

وهنالك الإقتصاد المركز المألوف.. وهنا الإقتصاد المباح الذي لا يستوي على ميزان.

وهنالك الثقافة التي كانت قد ابتدأت تبنى بناءً حثيثاً.. وهنا الإنفتاح على مدنيات أُخذت بدون تفهم، فكان ضررها أكثر من إفادتها.

وأخيراً... هنالك صاحب الرسالة كان لا يزال حاضر الرعاية بالغ التأثير..

وليس التأريخ ليجهل أنَّ علياً ابن أبي طالب كان بريئاً من قميص عثمان براءة الذِّئب من قميص يوسف.. وليس يجهل أيضاً أنَّ إخوة يوسف هم الذين جرّموا الذئب بقميص أخيهم.

ولكنَّها الدُّنيا، تتشبَّث بملكوتها، وتستعمل كلَّ الوسائل في سبيل أغراضها.

والشام اليوم في حضن معاوية وابن العاص.

تلجأ إلى مثل هذه الوسائل وسيّان عندها أكان المتَّهم بدم عثمان بريئاً أم لم يكن. فالوضع يسنح لفتح الجبهة.. وعلى كلِّ حال، فالاموي هو القتيل، وهم الأهل الذين يحق لهم الأخذ بالثأر.

ذلك كان ظاهر الأحداث..

ولم يكن أُفق الشام إلا ليتشح بذلك الإكفهرار الذي ينذر بهبوب العاصفة.

وانقسم الرأي العام في الإمبراطوريَّة الحديثة إلى ثلاث كتل: كتلة تمد يدها إلى معاوية، ومحورها الشام.

وكتلة تتشيَّع للإمام علي، ومحورها الكوفة..

وكتلة حيادية نامت على يد سعد بن أبي وقاص فاتح العراق، والمتربّع على أيوان كسرى.

وراحت كلّ كتلة تجمع سلاحها.

فلندع السَّيف قليلاً.. فهو ليس بالسِّلاح المقصود..

وهو وإن يكن له في الميدان قولة الفصل فليس إليه دائماً يرجع معنى الظَّفر.

وقبل أن نوغل في الحديث فلنحذف الكتلة الثالثة، لأنَّها ألقت سلاحها واعتزلت المعركة، وراحت تراقب سيرها كأنَّها ليست منها وليست لها، تهرب من المسؤوليات.. والتَّهرب من المسؤوليات يضر أكثر من أن ينفع.. من حيث يجرِّم أكثر مما يبرِّىء.

ولنستطرد

الكتلة الأُولى - الشام

والشام منذ أن وجد الإنسان في الجزيرة وهي تعبٌّ من هجراته منها لتعيده

إليها مع تموّجات العصور إنساناً ملقّحاً بمناخ آخر... وهكذا مع الأجيال كان يحصل ذلك التّبادل الوثيق بين هذين الخطّين الضاربين في قلب الصّحراء، يتلاقيان فيتمازجان ويفترقان، لينجبا مجتمعين متقاربين متناسلين من صلب واحد.

وهكذا كانت صلة الدّم وصلة الروح تجمع شعبين بالأُخوّة إلى مصدر واحد.

ذلك هو الشيء الذي سهّل اللقاء الأخير بين الجزيرة والشام، ليتبادلا العناق في حضن الرسالة الجديدة، وكي يدقا بقبضة واحدة عنق الأجنبي الذي ولّى مهرولاً وهو يلفظ وداعه الأخير:

«عليك السلام يا أرض سوريا... ونعم البلد أنت للعدو!»

ولقد سمعت أُذن معاوية بن أبي سفيان ذلك الوداع التاريخي عندما كان يتقصّى العدوّ الراحل. يسانده بذلك عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجرّاح.

ولم يكن التاريخ ليصدّق آنذاك أنَّ قبضة من البدو الهائم على هذه الصفحة المحروقة بنار الهجير تحقّق مثل هذه الإنطلاقة اللامعة، وتدك معالم مدنية زاهرة احتلت صدر التاريخ القديم.

أجل!.. لم يكن ذلك ليحصل لولا الرسالة التي أطلق دويّها النبي الكبير، فجاءت باسم التوحيد الأكبر، فوحّدت الجزيرة بكلّ نزعاتها، وجمعتها من شتيت قبائلها، وصبّتها في قالب واحد.. فانطلقت تحقّق المعجزات.

كان ذلك بقوّة واحدة، هي قوّة بني هاشم وبني أُميّة، وقوّة اليمنيين والنزاريين، وقوّة القحطانيين والعدنانيين.

بذلك السّلاح الذي وحد العقول والقلوب تم الفتح العجيب، تم بفعل الإيمان وبما شع من الإيمان.. فكان وهج السّيف من ذلك النّور، وكان يحمله زند عربي موحد.

أما اليوم.. فما بال معاوية يعمد إلى سلاح قديم غرير.. ما باله يستبدل براية العقاب البهيّة قميصاً ملطّخاً بجريمة؟!

عائشة

يا أُمَّ المؤمنين! ليس من باب نكأ الجراح أن يورد اسمك في هذا الكتاب مقروناً بمعركة فوّرت فيها دماء أبنائك من المسلمين!

وربما يكون ذلك من بعض أمجادك، أيَّتها الأُم الكبيرة، لو وفَّرت لك السوانح ركوب الهوادج إلى تخوم الجزيرة، حيث كان الفتح يجمع النَّصر باقات تنثر أزاهيرها على جدث زوجك العظيم الراحل.

ولكنَّ التاريخ الذي يوسع لك في صدره مجالاً واسعاً في باب الحرمات، كان يأسف أن تشوب حروف اسمك الناعم بعض الشبهات.

إذ أنَّك لست من هؤلاء اللواتي كنَّ يعشن على الهوامش... فأنت زوج لأضخم اسم في الحياة، من حيث أصبحت أُمّاً لأكبر عدد من السلالات ولا تزالين أيّتها الأُمّ الوقور.. فكلّ من أسلم لربّه تستهيمه إلى حضنك الدافىء شعائر البنوَّة.

من هنا تنساق عليك أبواب المآخذ!...

إذ أنَّ التدخل السافر في قيادة معركة كانت من أقسى المعارك الأهلية التي شهدتها الجزيرة، لم يكن ليجعلك في موقف الأُمّ المتألمة من مشاهدتها أبناءها يتزاحمون إلى موارد الموت.

لا!.. بل إنَّ عكس ذلك كان...

فلقد كنت في طليعة المحرِّضين، ولقد تأبَّطت سيِّدين من أسياد قريش، ورحت تطوفين بهما بين مكة والمدينة، وبين المدينة والبصرة.. ولقد اعتليت منصّات الخطابة تؤلِّبين حولك وحولهما الأنصار، من حيث هيَّأت للمعركة عدَّة لبّتك تلبية المستميت.

ولا غرو.. فإنَّ صوتك الجهوري، وبيانك الفصيح، الصادرين عن شخصيَّة أكسبها القرب الوثيق من النبي قوة التأثير وصدق التلبية، كانا معواناً على تحضير تلك المعركة تحضيراً عبَّ من دماء المسلمين على غير ارتواء وجمَّد قوة الدَّولة الناشئة تجميداً مؤلماً، واستدرجها لمقابلة سلسلة من المجازر الأهليَّة أوهت بها أركانها وأجلت عنها هيبتها... لتكون، فيما بعد، سبباً وجيهاً في إناخة عزِّها، وتقليص مجدها، ونقل مركز القيادة منها.

ليس معنى ذلك، أيّتها الأمّ الجليلة، أنَّك لو لم تقفي موقف المتشيِّع كنت تتمكنين على تأكيد من رأب الصدع بين جبهتين متصارعتين على كرسي الحكم.

ولكنَّ موقفاً من هذا النوع لو كنت لتقفيه، يكون له كبير أمل على ترجيح في تخفيف الحدَّة الناشبة ومنع الإصطدام الواسع.

فالجمل الذي اعتليت لو أنَّك قدته إلى وسط الساحة، ومن طاقة هودجك أطللت بوجهك الصَّبوح، وقلت بكل إيجاز:

«أنا أُمّكم يا مؤمنون!.. هذه هي أنا بلساني، بمعصمي، بقلبي، وبجناني... ضعوني حدّاً بين خلافاتكم...».

لو فعلت ذلك فقط، يا سيِّدتي، ربما كنت تمكنت من تغيير مجرى الأحداث، لأنَّ المشاهد كان بمكنته أن يرى ويسمع ويفهم... يرى في عينيك شعاع الحب، ويرى في وجهك شعاع الحب، ويرى في الإيماءة عن معصمك شعاع الحب.. ويستجمعها كلَّها فيسمع فيها نداء الحب.. ويقلِّبها جميعاً في ذاكرته، فيدرك منها معنى الحب..

وليس الإخلاص بغير إشعاع، فهو في العين أبلغ منه على اللسان.

ذلك الإخلاص كنت أنت الأولى به مصدراً فياضاً.. فأنت أُمُّ المؤمنين تتنزه فيك الأغراض.. فلا الحكم غايتك، ولا الرِّياسة مشتهاك.. وجل مبتغاك أن

وبقيا جالسين، حتى «وقعة الجمل».

ولقد ترافقا كل عمرهما متساندين متنابذين كما يترافق ذئبان إلى طريدة.. فإما الطريدة وإما الرفيق يسقط، فيكون الطريدة!

وهكذا كان يمنّي كل واحد منهما نفسه بالخلافة.. وسيان لديه، أكان يحمل لها العدّة اللازمة أم لا يحمل.. كأنَّ قرشيَّة كل واحد منهما لتحمّل الأعباء تكفي!

ولم يزل هذا منوالهما حتى استأنس كل واحد منهما بنقطة الضّعف عند عثمان ابن عفان، فأسلما نفسيهما إلى المحاولة.

ولكنَّ الثَّورة التي رميا إلى نارها بعض الوقود، لم تكن لتضع نصب عينيها شخصيتين من هذا العيار.

وسريعاً ما انفتلت تلج على فتاها الأصيل لتطرح بين يديه زمامها.. وكالأفعى الجريح تنقلب على جرحها تعضه ربما يبرأ، انقلبا على جرحيهما يعضانه في مكة، حيث تمكنا من التغرير بـ «أُم المؤمنين».. فهبّت تلف ساعديهما!

ومن وراء الأفق، حيث تنام الشام على قلق، جاءتهما شعرة معاوية تتلاين في ملمسها لتزنر الباقة المجمعة بأمل المبايعة والوصول بأحدهما إلى خدر الخلافة، ولتنفخ فيهما بطولة معكوسة.

« ويخلق الله لكم ما لا تعلمون ».

ونجحت الردة الجديدة يقودها الجمل « عسكر ».. وسارت تغرر بألوف المسلمين حتى هبطت البصرة.. وفي يوم واحد لاقت حتفها!

معركة جانبيّة

من المؤكد أنَّ أعمال الفتوحات التي توسعت مع الوقت أكسبت القواد العرب خبرة في القتال، من حيث أصبحوا يعدُّون من ألمع رجالات الحرب في ذلك العصر.

فخالد بن الوليد الذي خسر «معركة مؤتة» - أُولى محاولاته على الروم قرب بحر الميِّت - استفاد من هزيمته تلك ليستفيد أكثر فأكثر في دحر قوى الردة على أبي بكر، ثم لم يعد ليذوق طعم الخيبة لا في الحيرة التي انتزعها من «آل ساسان» ولا في حصاره المشهور على دمشق التي اقتحمها طارداً منها الروم ليضربهم الضربة القاضية في يوم اليرموك.

إنَّ هذه الخبرة التي وفَّرها الفتح الإسلامي لرجاله وقوّاده، والتي جعلت خالد ابن الوليد في مصاف القوّاد.. هي نفسها التي اكتسبها معاوية وشرحبيل وابن العاص في قفزاتهم.. إن إلى مصر وافريقيا، أو إلى أرمينية وأذربيجان..

وهي نفسها اليوم يستعملها معاوية وعمرو بن العاص.

وبدلاً من أن يستمرّا يضيفان إليها الحنكة تلو الحنكة في دفع الفتوحات إلى الامام وتثبيتها على أساس متين من الوزن والإستقرار، سحباها من ساحة الفتح ليستعملاها، بكلِّ دواهيها، على الجبهة التي قررا فتحها على الخليفة الجديد، بحجة الثأر لعثمان.

وفتح الجبهة في الجزيرة نفسها كان من أحكم الخطط وأصوبها، لأنَّ نقل القتال إلى أرض العدو له أفضليَّة النتائج، إذ أنَّ أرض العدو هي التي تكابد الخسائر.

وهكذا تمكن معاوية من ضرب اسفينه في أرض الجزيرة، مستخدماً طلحة والزبير، ممنياً أحدهما بالخلافة، مترقباً من وراء ذلك إرهاق الطرفين لعلَّه بعد ذلك يجد الفرصة الأكثرملاءمة لإعلان انتفاض آخر يوصله إلى غايته الأخيرة التي لم يلمح إليها بعد حتى الآن.

في الوقت عينه، لا يكون قد فرَّط بشيء من قواه التي يوفِّرها لوقت لا شك في أنَّه سيحتاجها فيه.

ولقد نجح في كلِّ ما رمى إليه.. فإنَّ طلحة والزبير - وهما من أجلِّ الصحابة - تمكنا بمعاونة « عائشة » أمّ المؤمنين من تأليف الجبهة المقصودة وسارا يقود حشودهم « عسكر » - اسم جمل أُمّ المؤمنين - إلى حيث اصطدموا بحشود الإمام عليٍّ قرب البصرة، حيث فشل أخصام الخليفة، وقتل قائدا المعركة طلحة والزبير، وأُسرت عائشة أُمّ المؤمنين، وأُرجعت إلى بيتها - وهي نادمة وآسفة - بكلِّ احترام.

يوم الجمل

قيل: إنَّ معركة الجمل انتهت بيوم واحد، ولذلك نعتوها بأقصر معركة في التاريخ راح ضحيَّتها أكثر من خمسة عشر ألفاً.. أكبر عدد يمكن أن تستهلكه معركة في يوم واحد.. أي في أقل مدَّة يمكن أن تحسب بالثواني لاستيعاب مثل هذه الجزرة التي عدَّت بالألوف.

ولكن «معركة الجمل» تأبى أن تتلبَّس نعتاً هزيلاً كهذا النَّعت يحصرها في «يوم واحد» وهي لا تزال تفتش، حتى اليوم، عن كلمات أوسع وأشمل تتمكن من أن تتلبَّسها لتبرز فيها مستكملة شروط وصفها وتحديدها.

وكيف تجد ذلك وهي معركة كانت تكملة لمعارك عديدة سبقتها، وهي لا تزال مستمرَّة بعد أربعة عشر قرناً حتى اليوم.. دون أن تدري إلى متى سيستمر مفعولها التخريبي على طول الرقعة المسماة بـ «دنيا الإسلام».

فهي نفسها أصبحت تجهل - تقريباً - تاريخ مولدها، وتجهل أيضاً الموعد الذي ستلفظ فيه أنفاسها.. ولم يعد بإمكانها ضبط العدد الكبير من ضحاياها، لأنَّ العدد الذي سقط تحت خفِّ الجمل ليس هو إلا أصغر عدد أمكنها أن تحصيه، من حيث اختلط عليها إحصاء الذين سقطوا من قبل، وداخت عن

إحصاء الذين سقطوا من بعد.. وسوف تضيع عن إحصاء الذين سيسقطون في المستقبل الحامل كلَّ أنفاث سمومها.

ولكنَّها تفخر بكونها بدء التاريخ.. لأنَّ ما سبقها قد أُسقط من الحساب إذ غمرته الجاهلية بعدم المسؤولية.

فهنيئًا لمعركة الجمل تلقُّب نفسها بـ «أُم المشاكل»!

حقّ البكارة

ولكن معركة صفين تتقدّم بكثير من الإعتراض على أختها، إذ سابقتها إلى حقّ البكارة.

فهي تدّعي أنّها ولدت قبلها في الساحة، وأنّها هي التي دغدغتها ومرّنتها على تحريك قدميها، وهي التي كانت تحنو عليها بكثير من العطف قبل أن تتجرأ على الوقوف وحدها، وهي التي وفرت لها السبيل لأن تمشي وهي تراقبها بفرح الناقة يحبو تحت أنفها فصيلها.. حتى إذا ما سارت إلى آخر الميدان نسب إليها اكتشافه وإحراز قصب السبق.

والحقيقة: أنَّ معركة صفين صادقة في ادعائها.. إذ لولاها لما كانت « بنت الجمل » لتجرأ على المحاولة القاسية.

والفضل يعود إلى صفين في كلِّ ما يسمّى بشقِّ الطَّريق واللعب بين المخاطر.

إنَّ حقَّ البكارة يعود لها.. فهي البكر بالمولد، وهي الأساس بالتدريب، وهي المعلِّمة الفاهمة بكلِّ فنون الميدان، وهي التي ضرَّستها الأيام فأكسبتها قوَّة الجلد والصبر على اقتحام المخاطر، وهي التي أضحت خبيرة بأمور السّاحة، ما استدقَّ منها وما انفرج وما اعوج من خطوطها وما استقام.. وهي، بالفعل، التي دفعت أختها الصغيرة إلى السّاحة المكشوفة، وكانت من بعيد تسندها وتدغدغ خطواتها.

ولكنَّ المشاهد أبى إلا أن يسلِّم الطفل الجريء جائزته الأولى. إن لم يكن عن جدارة فمن تحبُّب على الأقل.

أما معركة صفين فلن يغمط حقّها، إذ سوف تلبث الأخت الكبرى لمعركة الجمل، حتى أنَّها سوف تبقى مستحصلة على حقّ الأمومة.

فهي « أُخت » و « أُم » في وقت واحد!

وإن معركة الجمل لن تخسر فضيلة الإقرار بالجميل.

فهي تصرّح: أنَّ صفين أُختي وأُمي في وقت واحد.. أُمي التي ماتت - وأنا طفلة - إثر مرض عضال لم يشفها منه نُطّس الأطبّاء الذين تداولوا على تمريضها تحت ستائر الكعبة، فتحطّمت ضلوع « هبل » ولم تتمكن من شفائها، وكذلك فقئت أعين « اللات » و « العزّى » و « مناة » دون أن تصل إلى اكتشاف الدّواء، وعجزت كذلك زبانية « بدر » و « أُحد » و « خيبر » عن اقتلاع الحشرجة التي كانت عالقة في حلق الأمّ التي وهنت.. وأخيراً لفظت هي آخر أنفاسها.

كلّ ذلك تصرّح به « معركة الجمل »، وتدرك أنَّ أُختها « صفين » هي التي تعهّدتها بالتربية حتى بلغت رشدها.. وهي اليوم - أي بنت الجمل - إذ تتزوّج من ارستقراطي، فإنَّها لن تستأثر بثروة هذا الزوج الثري الذي مات في ليلة عرسه، فلأُختها الكبرى منه النصيب الكبير.

...

تعقيب

من المؤلم حقاً أن توصف « معركة الجمل » و« معركة صفين » بشيء من التهكم الحزين.

ولكنَّها فورة الألم على الأمل المصدوم.

أين هي تلك الرَّوعة التي كانت ترافق العرب على طول الجبهات المفتوحة تتضافر فيها على هاماتهم أكاليل الغار؟

وأين هم القوّاد من العدو المدحور يتكفكفون من حصن إلى حصن، يجرّرون أذيال الإنخذال؟

أين « هرقل »؟.. أين « رستم »؟.. أين « المقوقس »؟.. أين « سرجيوس » و« تيودورس » و« يزدجرد الثالث »؟.. أين « آل ساسان »؟.. أين أبطال الروم؟..

هل سمح لكلّ هؤلاء أن يستعيدوا النَّفس الواجف، ويلمّوا الشمل المشتَّت بعد أن شاهدوا الزّاحف الفاتح ينكفىء إلى خاصرتيه يغوص فيهما برمحه وحسامه؟

وأيَّة قوَّة ستكون فيما بعد للعرب لمجابهة كلّ الأحداث التي ستتألَّب عليهم عند رجوع المد؟

وكيف سيقابلونها بكفٍّ مبتورة وسيف مغلول؟

وستتألّب عليهم تلك الأحداث، وسيدفعون لها الجزية صاغرين... وهي جزية يفرضها عليهم تنكبهم عن مضمون رسالتهم، يفرضها عليهم تضليل الفتح عن أهدافه.. إذ أنّهم لو وعوا أهداف الفتوحات لكانوا أول ما عمدوا إلى فتح الجاهل في نفوسهم، يكنسون منها قذارة التعصب القبلي وما يوحي من شهوات تضلل النّفس والعقل وتمرّغهما بأنتن الوحول.

وما كانت الرسالة إلا فتحاً مبيناً في عملية انتصار العقل على الجهل، وفتح كوى الخير على النّفس، وإبدال التسامح بالحقد، والمحبّة بالبغض وإضاءة الدُّنيا بالدّين.

وما كانت معركتا «الجمل» و «صفين» لتجيبا الرسالة بشيء من موحياتها...

فاليمنيّة والقيسيّة هما نفسهما اللتان لا تزالان في الميدان، وهما نفسهما لا تزالان حاملتين روحيّة الجاهلية من عرب الجنوب وعرب الشّمال، ولا تزالان منتميتين إلى قحطان وعدنان.. وهما اللتان لا تزالان الخط الذي ينقسم عليه المتنافسون في ظلّ الرسالة على اقتسام الدُّنيا والتنعم بخيراتها.

ولقد استنجد معاوية باليمانيّة حتى أوصلته إلى عرش الشام، وسيستنجد أبو مسلم الخراساني بقبيلة «الأزد» اليمانيّة لدك العرش الأُموي وتسليمه إلى العباسيين، من حيث لن يتمكن الخليفة الأموي «مروان» من الوقوف في وجه الزّحف العبّاسي، لأنّه سيكون منهمكاً بالخلافات القبليّة بين القيسيّة واليمنيّة بالذات.. ليس في الأرض الامّ حسب، بل حتى في الأندلس التي سينتقل إليها مع الفتح القيسي واليمني، وستكون الروح القبليّة الغذاء النفسي للفظائع التي سطرها التاريخ...

القبلية الهوجاء التي جاءت الرسالة تحرقها، تطمرها، تمحو آثارها.. ليصفو الجو لمجتمع صحيح مبني على عقيدة وإيمان، على عقلٍ وصواب، على نظافةٍ وعدالة، على محبّةٍ وإخاء.

ولكن يومي «الجمل» و «صفين» لم يكن لهما غير عيني جمل همّه قضم العشب من واحة خضراء.. وسيان لديه: ينضب دجلة وبردى، أم يغور الفرات!!

صفين في بضع فقرات

على ضفّة الفرات الغربيّة تقوم « صفين » شمال « الرقة ».

بعد إنذارات عديدة، ومحاولات فاشلة قام بها الرسل بين الخليفة الجديد ومعاوية لمنع هذا الإشتباك، تقرَّر الزَّحف لقمع العصيان.

إلتقى الجيشان المعبثان في صفين.

أسبوعان من الوقت مرّا في مناوشات خفيفة، كان القصد منها استدراج معاوية للكفّ عن القتال فتسلم جوانب المسلمين.
لم تنجح المحاولة.

منع معاوية جيش عليٍّ عن ورود الماء.
تمكن جيش الخليفة من الشرب بالقوَّة، ولم يبادر الخصم بالمثل.
شهامة قدمت على سبيل استدرار العاطفة، لم تنجح.

التحم الجيشان في قتال أليم، وكادت تدور الدائرة على جيش الشام.
استنجد معاوية بعمرو بن العاص لتفتيق الحيلة.

جادت الحيلة على ابن العاص، فنصح برفع المصاحف، وطلب التحكيم.
بعد مداولات عديدة، وتحت ضغط الأنصار، وخاصّةً هؤلاء الذين سُمُّوا فيما

بعد بـ « الخوارج »، وفي سبيل حقن الدِّماء، قبل التحكيم.. بل أُجبر الإمام على قبوله.

عمرو بن العاص عن معاوية..

أبو موسى الأشعري عن عليٍّ.

تمتَّ المهزلة التاريخية بخديعة الحكم الأشعري.. من حيث عزل ابن أبي طالب عن الخلافة!!

كانت الحصيلة عشرات الأُلوف من القتلى..

استئناف القتال..

تصدع الوحدة الإسلامية..

ظهور الخوارج..

تجميد الفتوحات..

اغتيال أكبر رجل كان بإمكانه صيانة الأُمَّة وإرساءها على أُصول من المناقب والفضائل تتجمَّل بها لو فعلت، وحين تفعل، إلى أبد الدهر.

ملحق

إذا كان من حقِّ الثَّعلب أن يفتخر بدهائه، فأي دخل لذنبه بهذا الإفتخار؟!

ولكن الذَّيل يدَّعي: أنَّ الرأس الذي يحتاك بالحيل لم يذهب مرَّة واحدة في مغامراته دون أن يصطحبه لذلك.. فهو رفيقه في كلِّ خطوة حققت له فنَّ الرَّواغ.

إذا كان الأمر كذلك، فلمعركة «النهروان» هذا الحق بالإدعاء.. فهي ذيل طويل لمعركة صفين دون جدال.

ولكن وإن تكن قد انبترت بضربة واحدة، فإنَّها لم تمر دون أن تتبعثر من حواليها علامات التعجب والتفجع، فوق ما تركت من ذيول لا تزال تتجرر حتى اليوم، منطوية على فلسفات يشتق بعضها من بعض كما تشتق السفسطات من المماحكات.

غير أنَّ الخوارج في كلِّ ما تشعبوا إليه، من الأزارقة، إلى النَّجدات إلى الأباظية، إلى الصفورية.. إلى كلِّ فرقهم التي بلغت العشرين، في غلوِّهم أو في اعتدالهم، في ديمقراطيَّتهم أو في ارستقراطيتهم.. فإنَّهم يستحقون شيئاً من الإجلال على كثير من الشفقة، لأنَّهم كانوا ينشدون الحق وإن أخطأوه.. كما قال عنهم الإمام عليٌّ قبل موته:

«لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» أو كما قال عنهم عمر بن عبد العزيز في ما بعد:

«إنّي قد علمت أنّكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنياً أو متاع، لكنّكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها».

إنَّ معركة صفين تتذيَّل بمعركة النّهروان.. ويكفيها بؤساً كونها، فوق ما فسخت العالم الإسلامي في فجر وحدته وباكورة أمجاده، تسببت في حقن صدر ذلك الخارجي بسموم الحقده فشرب سيفه به، وأقدم على قتل أعظم رجل عرفه تاريخ العرب بعد النبي.

خاصرتا أبي موسى الأشعري

من المؤكد بأنَّك لم تكن من ذلك العجين الذي إذا خبز تشهته الموائد، ولا عودك كان من ذيّاك النبت الذي إذا حرق صفا نوره وطاب دخانه، ولم يكن لمعانك من النَّوع الجريء الذي لا يخاف من أن يعرض ذاته على المحك الذي تنجلي عليه صفوة المعادن.

ولقد تسلمت زمام الكوفة فالتوى فيها عودك كما يلتوي العكاز في يد الكفيف.

وأي نفع للضرير من دليل غرير؟

لذلك، نبذتك الكوفة حين انتدبتك عصاً تتوكأ عليها، فلم تجد فيك أكثر من عصل.

أما أنت، فلبثت تتعصَّر على خاصرتيك تنفخهما بشيء من العلم المفقَّه، حتى ظن عودك الأملد.

ولم تخف على علي بن أبي طالب خوافيك.. فهو الذي أبقاك على الكوفة يجلو بها جوهرك، وهو الذي عنها رماك بعد أن استعجم عودك.

ولكن الأقدار التي تحبل بكلِّ المساخر، لم يطلب لها إلا أن تطرحك على الخط الذي ستلتقي عليه كل القوافل.

فيا ويل خاصرتيك المنفوختين بالعلم والهباء!

كم ستتلقى من الوطء الثقيل مع السّرى ومع الإدلاج ذهاباً وإياباً على كلِّ هذا الخط الطويل؟!

ذيول

لم تكد تنتهي معركة النَّهروان حتى رجع القتال إلى ما كان عليه بين عليٍّ ومعاوية.. تارة يتلبَّس الجبهات الحربية القاسية، وطوراً يتقلَّص إلى مناوشات ترتدي طابع التحايل والتراوغ وزرع أعمال الفوضى والتخريب في سبيل إشاعة الرّعب وقضٍّ المضاجع.

أما الشعب الذي كانت تمثل على أعصابه كلّ هذه الأنواع من المهازل، فكان عرضة لقلق نفسي يترجح به بين الغضبة لكرامته واستئناف القتال، وبين الإستكانة والإستنكاف من قتال يجعله الخاسر على كلِّ حال.

وأصبحت الدَّوّامة هي نفسها...

اليمني هناك على طول جبهة الشام، والقيسي هنا على طول خطِّ الكوفة. وبين اليمني والقيسي حبال متصلة من كلِّ شتيت القبائل المتفرِّقة، والمشدودة بعضها ببعض إما بعامل الزيجة والقربى وإما بعامل المصلحة والأثرة، والترقب، مرهف مع أيَّة جبهة من الإثنتين تميل كفَّة النَّصر.

وهكذا حسب التقديرات، والترجيحات، كان يحصل الإنتقال الشعبي للإلتحاق بالمعسكر الذي يتأمَّن معه إشباع الرَّغائب وتسمين المطالب!

ولم تكن لتنتهي تلك المناوشات.. فلقد أصبحت حالة راهنة.. لذلك عقدت بين الشقَّين المتنابذين هدنة رضخ لها الطَّرفان، تكرَّس فيها التقسيم الإداري حقناً للدماء، وللمة لسمعة أخذت تصفر كما تصفر وجنة المريض على فراشه السقيم.

الهدنة

هل هي هدنة أم هي تعب من سياسة نشرت كلّ فشلها على كلّ أجواء العالم العربي بما فيه الجزيرة والشام واليمن ومصر؟

أليس هو الفشل يؤدّي بمعاوية إلى تجميد الفتح وقبول دفع الجزية لـ « كونستانس الثاني » عاهل الروم؟

أليس هو الفشل يحوج ابن أبي طالب إلى أن يعيد النظر في أعمال الفتوحات على الخط الشرقي ليرد انتفاضة الفرس بقيادة ابنة كسرى التي هبّت تحاول استرجاع أمجاد أبيها متبرّمة من الفتح الذي قدّم الرسالة على كفٍّ ثم أخذ يلملم بالكفّ الثانية كلّ السبايا والأسلاب والغنائم؟

ولقد تمكن خليد بن فارس، عامل عليٍّ على خراسان، من أسر الأميرة المنتفضة في « نيشابور » وسوقها مخفورة إلى ما بين يدي الخليفة..

ولكن ابن أبي طالب الذي لم يكن لتروق له كل الأنماط التي سيقت بها الفتوحات منذ بدأت الفتوحات، لم يعامل الأميرة الأسيرة بتلك المعاملة التي كانت تجري على أسرى الحرب. ولقد عرض عليها أن تختار الرجل الذي تريد فيزوّجها منه، ولكنها رفضت إلا الرجل الذي يملك في الدولة حق الصّدارة.

وأنف عليٌّ، وهو الكهل الجليل، من أن يقبل بالزّواج الفاقد عناصر

الإنسجام، لتكون في ما بعد الحرية المطلقة للأسيرة.

مثال صغير قدَّمه عليٌّ بن أبي طالب على كيفية سوق الفتوحات نحو أهداف سامية، لا يليق أن تدنسها مطامع الكسب، ولا أن تغير جوهرها غايات الغنم أو لذاذات التمتُّع المتدنّي حتى أحط الميول البهيميَّة تثيرها عماوات النزعات الجنسيَّة.

فالزَّواج الذي كان بحدِّ ذاته، في تلك الأيام، نوعاً من الكسب السياسي لربط القبائل بأواصر القربى في سبيل تخفيف التناحر القبلي.. لم يتمكن من تأدية الغاية المنشودة، وبقي يعرض الفتح إلى انحطاط النزعات وحرقه في سعير الشَّهوات، ليلهيه عن مجاري الفكر العالي والإنصراف عن حرز المكاسب الرُّوحيَّة.

وابن أبي طالب، المتشبِّع من جلالات الفكر، والمرهف الحس بكلِّ لواعج الروح، لم يكن ليرضى بالدُّنيا تجر على الفتح خطوطها الملطَّخة بالمهجة الجنسيَّة وبالفكرة الوحشيَّة.

وسواء تمكن من فرض ذلك بقوة الحكم أم عجز عن فرضه، فإنَّ المهم لديه أصبح، بعد ثقل الأحداث ورعونتها في تجسيم النماذج وفي حصرها ضمن الحروف الكبيرة والقدوات النافرة، تحمل تساجيلها مقرونة باسمه وباسم الدعوة الكبيرة إلى كلِّ الأجيال التي ستتناقل الرسالة لصبِّها في قوالب مناهجها.

ولقد أصبح هذا شعوره - ومعاوية يتخذ الشام متراسه - بأنَّ الجزيرة التي سجلت فضل بث الدعوة الكبيرة، لم تتمكن مطلقاً من اقتناص روعتها إلا كما تقتنص الطلقة صداها المرجع.

ولن يكون الكسب المادي الذي جاء على الحواشي إلا كما يكون الهطل من ديمة مرَّ بها السَّحاب ثم طواها.

فلتكن الهدنة..

وليكن معها الرضوخ للواقع(١) النفسي الثقافي الذي لم يتمكن من فرض

(١) سيرة هذا الإمام الرَّسالي الممتحن صلوات الله عليه تدل على أنَّه لم يرضخ حتى اللحظة الأخيرة. بل بقي يعيش الكفاح من أجل تغيير الواقع إلى أن خر صريعاً. بدليل أنَّه كان يهيِّىء حملة عسكريَّة واسعة لتحديد الهجوم على جبهة الإنحراف.

ولم يعقه عن إنجازها إلا سقوطه شهيداً في بيت ربِّه.

توحيد كيانات العرب منذ اللحظة الأولى التي أحسوا بها بلذَّة طعم هذا التوحيد وليشعروا بخيبة التفرقة التي تقدّم أطباقها الأنانيات المهيضة وليتنكبوا ما شاءت لهم نزعاتهم المريضة أن يتنكبوا عن كلّ المثل التي جاءت تنظف دربهم من العوسج.

وليحب وحده هذا الطفل، وليسقط وحده كذلك.

وليتكرر حبوه وسقوطه على طول الطريق المفتوح أمام قدميه.

فإنَّ كلّ كدمة في ركبتيه ستذكره بضلاله عن جادة المسلك.

١٩ رمضان

في هذا اليوم بالذّات ضرب عبد الرحمن بن ملجم موعده مع البطولات.

فلقد عزم على أن يسنَّ سيفه ويطيبه بقبضة من السُّموم ليقتل به عليّاً بن أبي طالب.

ولقد شدّدت أعصابه «قطام» - المرأة الجميلة المغرية.

وقطام هذه، خاض كلَّ الحروب أبوها وأخوها.

ولقد قتلا في معركة النَّهروان، وذهبا يقابلان ربَّهما، تاركين ظلاًّ كثيفاً من الضَّغائن لا تزال حتى اليوم، تنسل تحت عتمته النفوس المريضة بوباء الحقد والمكابرة.

أما الإبنة المفجوعة، فهي لن تنام بين ذراعي العاشق المتيَّم إلا بعد أن يمهرها برأس ابن أبي طالب!!

وهكذا تربَّع التاسع عشر من رمضان في صدر التاريخ، من حيث تخشعت لذكراه صفحات التاريخ.

معابر

مقاطع البحث

نهج البلاغة.
دهاة العرب.
إلى معاوية بن أبي سفيان.
ابن ملجم.

نهج البلاغة

قالوا: إنَّ اليد التي امتدت إلى « نهج البلاغة » هي يد طويلة كانت أطول من ثلاثة قرون. ولقد امتدت تتلاعب بالحروف، تصوغها كما يشاء فنُّ الإقحام.

فإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ للمقحم أطول باع في مجال الفن.. إذ أنَّه تمكن من درس العصر درساً وافياً، وغاص في تحليل نفسيَّة ابن أبي طالب غوصاً يؤهِّله لأن يندمج فيه تمام الإندماج، وكان بارعاً في فنِّ الإخراج وفنِّ الأداء، وفنِّ التَّقليد، وفنِّ التَّمثيل.. فظهر، وهو يقلِّد، بمظهر الأصيل الأصيل، فذاب النزيل في الأصيل، وضاع القصد من الدخيل.

وأي شيء أُنزل على « نهج البلاغة » لم يكن تصويراً صادقاً لتلك النفسية التي تنزَّلت في جسد علي بن أبي طالب كما يتنزَّل نور الشمس في الكأس الشفيف؟

وأي عمل أنجزه ابن أبي طالب في حياته لم يكن تعبيراً متناهي الصِّدق عن تلك النزعات السامية التي كانت تتأجج بها روحه الصافية.. ففاضت في كلِّ تعبير من تعابيره، وفي كلِّ إشارة من إشاراته، وفي كلِّ جملة من كتابه؟

وماذا جاء في « نهج البلاغة » يدغدغ الشك في ما جاء في نهج البلاغة؟

وهل الكتاب كان غير تقويم للرجل الكبير في نهجه الطويل، الذي زرع عليه الإنسان قيمة تتبلور بالعقل الصحيح وتسمو بالفضيلة، وجعل الفضائل تنمو

وتدور على محور واحد هو محور التقوى والإيمان بالله؟

ومتى، وفي أيَّة لحظة من لحظات عمره، لم يعبِّر عن هذا النهج الصريح؟ أفي إعلانه الرسالة وإيمانه بها ولقد نذر نفسه للدعوة لها والجهاد في سبيلها، أم في تطبيقها دستوراً كاملاً لكلِّ مجاري أفكاره وأقواله وأعماله من حيث كان زهده وتقواه وشجاعته وبطولته؟

فإذا كان الإقحام في «نهج البلاغة» تكويماً لتعابير تحمل مثل هذه المعاني لم يسكبها جنان المنسوبة إليه ضمن حروف نبتت من شق قلمه، فإنَّ ذلك لن يضير نهج البلاغة بشيء.. لأنَّ الكلام المقحم جاء صادقاً في نحت نفسه قالباً لائقاً بالفكر الأصيل. ولأنَّ البلاغة، في مفهومها الحقيقي، ليست مطلقاً في قوَّة اللفظ والنحت بقدر ما هي تنزيل لسموِّ المعاني في قوالب متينة السَّبك والحبك.

وإنَّ هذه الأخيرة تبقى أبداً قوالب جوفاء ما لم تستتم فيها تلك المفاتن.

و «نهج البلاغة» سواء أكان صقل حروفه على يد ابن أبي طالب - وهو الأصوب - أم كان على يدي مقحم فنّان، فإنَّه يبقى دائماً تعبيراً عميق البلاغة عن نفسية رجل واحد سمي بـ «علي بن أبي طالب».

دهاة العرب

قيل: إنَّ دهاة العرب أربعة..

وقسّموا الدّهاء عليهم..

فكان حق الأولية لمعاوية بن أبي سفيان، إذ سلَّموه الروية..

وخصوا عمرو بن العاص بالبديهة، نظراً لكونه سيِّد من أفتى باختلاق الحلول عند اشتداد المصاعب وبروز المفاجئات..

أما المغيرة بن شعبة، فلقد خلعوا عليه قسم المعضلات.

وتركوا لزياد بن أبيه القسم الأخير لكلِّ صغيرة وكبيرة.

والملاحظ يرى: أنَّ الدّهاء، بهذا التقسيم، كان من نصيب بني أُميَّة وفي شخص معاوية ومن لفَّ في فلكه، من حيث لم يبرز له أثر فيا قبل هذا التاريخ.. وكأنَّه بفعل هذه الحيازة لم يبق من حق الأجيال التي تتلو أن تدَّعي حق الإنتساب إليه.

ويحار الملاحظ أيضاً في أمر زياد بن أبيه، في أي وقت كفكفت إليه الخلعة السنية؟..

هل عندما كان ميله وهواه مع علي بن أبي طالب أم عندما اعترف معاوية بالأخوة المنسية وضمَّ إلى صدره الأخ أخاه وسلَّمه زمام البصرة الثائرة والكوفة المتمرِّدة؟

ولن يتوقف الملاحظ أيضاً عن إبداء الدّهشة والحيرة عندما يرى، العصر مشطوراً إلى شطرين متناحرين.. كيف أنّ شطراً واحداً كان نصيبه كلّ الدّهاء، من حيث لم يبق للشطر الآخر شيء منه يتحلّى به؟

ثم إنّ الدّهاء الذي قصدوه هو غير الدّهاء الذي يعرفه الواقع العلمي والرأي الفلسفي.

والحقيقة، أنّ الدّهاء درجة عالية من درجات الذّكاء، يتصرّف به العقل في لباقة الإخراج لكلّ القضايا المعقدة التي تعترض سير الحياة في تطلبها الحلول والمعالجات.

وهو إذ يكون محكاً لقوة العقل وعمق مداه، يكون بالوقت نفسه، في كيفية تصرفه، تعبيراً عن قوى النفس ومدى الصفاء في جوهرها.

ولن يكون له أمر جليل إن لم يكن وليد تزاوج بين العقل السليم والنفس الكريمة.

إلا أنّه في مفهومه الذي أبرزوه مع أبطاله الأربعة، لم يكن إلا سلاحاً يلجأ إليه أهل الدّنيا في الوصول إلى أغراضهم، ولا يحتاجه كثيراً اولئك الذين تنقبض نفوسهم على الزهد بها، وهو سلاح تتراكب ضلوعه على المكر والخداع أكثر مما تتآلف على الصّدق والصّراحة.

لذلك، فإنّه أكثر استعمالاً، وأنفذ مجالاً، وأطوع وسيلةً، عند أرباب المنافع والغايات منه عند المستخفين بالدّنيا ومباهجها وبريقها الخدّاع.

وليس معنى ذلك أنّ أهل هذه الفئة الأخيرة من الناس ليس لديهم عقل يصلح مسرحاً لهذا التّلاعب الملوّن بالمواهب، ولكنّهم يربأون بأنفسهم عن أن يلجأوا إلى الأساليب التي تتلوّن بأي صنف من أصناف الختل والخداع.

وفوق ذلك، فإنّهم ليسوا بحاجة إلى تلك الأساليب من التمويه والتراوغ لأنّهم يعيشون الدّنيا مقتورة، ويرجون الآخرة عفّة وصدقاً وحسن مآل.

وهذا هو بالواقع الصريح.. كلّ الذي عاد فقسّم الجبهة العربيّة بعد وحدتها بفترة قصيرة من الزمن إلى شطرين متناحرين:

شطر الدُّنيا وشطر الزُّهد بها.

وليس يفهم مطلقاً أنَّ هؤلاء الزاهدين كانوا يرفضون الدُّنيا ولا يعيرونها أي اهتمام، ولكنَّهم كانوا يرمون من التشديد في امتهانها إلى التخفيف من الإقبال عليها إقبال الجائع النَّهم، حتّى لا يكون التَّهافت المجنون سبيلاً لإضاعة جوهر الإنسان عن مثله الجميلة التي تكون العفَّة أبهى معانيها، من حيث يتردّى المجتمع الإنساني في انحطاط خلقي يكون سبباً في تخلّفه عن كسب كلّ مقوِّمات المجتمعات الحيَّة المتحضِّرة.

ولذلك، كان الدَّهاء سلاح أهل الدنيا في المعركة القائمة بين ابن أبي طالب في جبهة وبين ابن أبي سفيان في جبهة ثانية.

ولقد لبّى معاوية الدَّهاء، وكان بين يديه أداة لينة.

وبالحقيقة، فإنَّه استحقَّ الرَّويَّة، أولى وأبرز صفات الدَّهاء، وأعمقها غوراً، وأرزنها حلية للعقل..

ولكنَّه تصرَّف بها تصرُّف أهل الدُّنيا، ولم يتصرَّف بها تصرُّف غير المنخدعين بمباهجها وبريق أوهامها.

وليست الرَّويّة، بمعناها الحقيقي، إلا التبصُّر بالأمور والتعمق في عواقبها، وأخذها بأبعد منظار يمكن أن تنظر به.

وهنا يظهر الفرق البعيد بين روية يستعملها ابن التقوى وروية يستعملها ابن الدنيا...

فهذه تنظر إلى الأرض بعين الأرض ولا ترى شيئاً أبعد من الأرض أما تلك فإنَّها تنظر إلى الأرض كقاعدة تقفز منها إلى محجة بعيدة تهزأ بالمسافات وتتهكم على الحدود، لأنَّها ترى الوجود من جزئياته إلى شموله، وترى أنَّ اجتياز الدَّرب الطويل لن يكون إلا بكلّ خطوة سليمة.

ومعاوية، بعد أن تروّى فعل.. وعليٌّ بعد أن تروّى فعل.

وصحت رويَّة معاوية فسيطر على حقبة من الزَّمن، وصحت رويَّة عليٍّ فامتلك الزَّمن.

ولقد استعمل معاوية الرَّويَّة في الفتوحات، فلبَّته الرَّويَّة وبهرته الفتوحات.

ولقد انطوى على التمرس.

وأصبح الملك هدفاً بعيداً من أهدافه، وسيصل إليه يوماً بكل ما ستؤتيه له الرَّويَّة من منافذ ومداخل ومخارج، بدون تأثُّم ولا استنكار.

وما أن تم له فتح الشام، حتى راح يؤسِّس فيها لنفسه.

ولقد صمَّم على اعتمادها الركيزة لمستقبله، وراح ينتظر الصُّدف والمفاجئات.

ولقد دلَّته الرَّويَّة على صدق المسعى لتنفيذ مخطَّطه..

وكان الكرم أول دروبه يشقها إلى قلوب أنصاره.. وكثرةٌ هم الذين لم يحرموا من هذا العطف المادِّي يطوِّقهم به ويقودهم فيه إلى جنابه.

ولقد قال ميمون بن مهران: «إنَّ معاوية كان أول من وضع شرف العطاء ألفين».

ولكن الخلافة كانت، بحكم الطبع، لمن بها أولى.

ولم يكن لمعاوية إليها سبيل والمهاجرون والشيوخ وأهل الصحابة والأقربون هم المقدَّمون والمفضَّلون.

ولكنَّ معاوية، المؤمن بسخاء المناسبات وعجائب المفاجئات، لم يقطع خيط الأمل.. لا سيَّما وهو المشهور بشعرته اللينة اللدنة.

ولما صرع عمر بن الخطاب، تنفس الصعداء ليساند بكلِّ قواه عثمان بن عفان في الوصول إلى الخلافة، فتقوى شوكته، ويصلب عوده.

وعثمان، شيخ لن تطول به فسحة العمر.. وهذا أمل جديد موصولة خيوطه بالخلافة بنهاية رجل من الخلافة.

أما عمرو بن العاص، فإنَّه ترك لأعمال الفتح.. ركب المصاعب واقتحم المخاطر حتى حقق فتح مصر واستولى عليها، ليتحفز منها لبلوغ هدف لم تخف طويته على معاوية.

ولما كان عزل عثمان لعمرو عن مصر واستبداله بأخ عثمان بالرضاعة (عبد الله بن أبي سرح)، لم تقم أبداً قيامة معاوية على هذا التبديل والتشكيل.. فهو ضمن

المخطط المرسوم في مخيّلته لتخفيف المنافسين.

أما الثورة على عثمان بن عفان التي أدّت إلى مقتله، فإنّها لم تأت عليه بالمفاجأة المزعجة، وإن يكن قد تصنّع الظهور بالحزن العميق.

أما استقباله «قميص عثمان» وتعليقه إياه في الشام في سبيل تحريك العواطف، واستعماله شرحبيل بن الصمط لنقل تأثيرات الجريمة إلى كلّ أهل الشام للمناداة بطلب أخذ الثأر... فإنّ ذلك كان من ضمن مخطط تطبيق الخطة المرسومة في سبيل الوصول إلى العرش المنشود.

وكثيرةٌ هي الخطط التي انتهجتها له هاتيك الرَّويَّة على طول الطريق الذي أدّى به إلى عرش الشام.. كلّها كانت محكمة التطبيق ومحكمة التنفيذ.. من فتح الجبهة على خصمه في الحجاز بقيادة طلحة والزبير، إلى افتعال حوادث تخريبيَّة ضمن الخلافة بقيادة الضحاك بن قيس، إلى معركة صفين ورفع المصاحف، إلى خدعة التحكيم، إلى مراقبة معركة النّهروان، والإطمئنان إلى حسن نتائجها في خدمة مصالحه ونجاح مخططاته، إلى ضرب أسفينه المسموم بقضية قيس بن سعد بن عبادة والي مصر، ذلك الرجل الذي كان يمثّل عليّاً بنظافة الكفّ وحسن الإدارة ويبذّ معاوية بالدَّهاء العاقل المتروّي، مما أدّى إلى إبعاد الرجل عن ولايته ليحل محله ابن أبي بكر، فيعمل على قهر أهل «خربتا» في مصر، وإثقال وطأة الفوضى في البلد المفتوح.. حتى يتمكن عمرو بن العاص من قتل الرجل وقطع رأسه وإرساله إلى بيت عثمان بن عفان، ليرقص حرم الخليفة القتيل حول الوريد المقطوع رقصة الإبتهاج بأخذ الثأر.

وتتلملم المأساة بمقتل الإمام المكافح علي بن أبي طالب بضربة سيف ذلك الأحمق الغادر.. وينفرج الجو أمام المبايعة الجديدة.. ويتوصَّل معاوية إلى الملك.

سلسلة طويلة من التَّضحيات والمحاولات، بخ فيها معاوية كلَّ ما فتقته له الرَّويَّة بدهاءٍ قلَّ نظيره في التاريخ، مستعملاً حوله قبضة من الرِّجال درَّبهم وحنَّكهم بمثل هذا الدَّهاء الفذ.

فإذا عمرو بن العاص يلبّي أُستاذه بكلّ نجابة بتلك البديهة الحاضرة لمواجهة المشاكل وتقديم الإرتجال في الحلول.. فراح يجرِّر أذيال النَّصر في نهاية معركة

صفين، كأنّه طاووس له كلّ الفضل على ألوان ذيله الطويل.

ولم يأنف من مقابلة زميله في التحكيم - أبي موسى الأشعري - بتلك الخيانة التي لم تتعرّف إلى حرف من حروف المروءة والوفاء، إلى تنصيب نفسه قيّما على المطالبة بدم عثمان.. من حيث لم يتورَّع عن قتل ابن أبي بكر وتلوين حادثة قطع الرأس بفظاعة الجريمة.

وراح المغيرة بن شعبة يحل المعضلات، تارةً بتقديم النُّصح لابن أبي طالب بإقرار معاوية عشيَّة مقتل عثمان على إمارته في الشام حتى تهدأ الحالة ثم يعزله إذا اقتضى الأمر، ثم بتغيير رأيه مع الصَّباح فإقراره بصواب عزل المتمرِّد عن كرسيِّه وفقاً لعمليَّة التَّطهير.

ثم لينتقل إلى مكة ليساهم في ترتيب معركة الجمل والبحث في كيفية جعلها صالحة لمقارعة المسلمين بعضهم ببعض، ثم لينسحب منسلاً إلى الشام حيث يتابع تقديم النّصح لمعاوية وتدبير المؤامرات حول أعمال التحكيم.

وبقي في الساحة الشرقية زياد بن أبيه، يلملم أطراف المملكة ليرزمها إلى طاعة أخيه بذلك البأس وتلك الحنكة اللتين جعلتاه يلم بكلّ شاردة وواردة.

ذلك هو موجز الحكاية الطويلة التي رافق كلَّ أطوارها ومثَّل كلَّ فصولها معاوية بن أبي سفيان، ملهب الفتوحات على الجبهة الرومانية، ومؤسِّس الدَّولة الأمويَّة، وواضع أول حجر في زاوية تركيز الإنقسام بين الكوفة ودمشق.. مستعيناً باليمنيين على القيسيين، مستجيراً بذلك الدَّهاء الذي دام يلبيه طوال تسعة وثمانين حولاً.

أما الجبهة الثانية، التي وقفت تقارع وعلى رأسها الخليفة الجديد، فإنَّها أخذت تتلقّى الصَّدمات بذلك الصدر الواسع

وماذا تراه يفعل علي بن أبي طالب؟..

أيقارع الدَّهاء بالدَّهاء؟..

وبأي نوعٍ من الدَّهاء يقارع؟

ومن المؤكد أنَّه ليس يلجأ إلى ذلك الدَّهاء الذي يعيش بين الأواسن والعوافن، ولقد قال: «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنَّه يغدر ويفجر..

ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة».

ولكنَّ الدَّهاء الذي هو لديه كان من النوع الصراح، لأنَّه كان وليد تلك الرُّويَّة المتباعدة الآفاق.

وأولاً، وأخيراً.. لماذا تألَّب عليه أهل الدنيا لو لم يكن لهم ذلك الخصم العنيد.. ولقد هددهم ليعد الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه: «لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة»، وليس أمري وأمركم واحداً.. إنّي أُريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيها الناس: «أعينوني على أنفسكم.. وأيم الله! لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنَّ الظالم بخزامته، حتى أُورده منهل الحق وإن كان كارهاً»؟..

وكان من الطبيعي أن يلجأ أهل الدنيا إلى الدّفاع بتلك البطولة المعكوسة.

وكان من البديهي أن يقابلهم علي بن أبي طالب بتلك البطولة الإيجابية، وكان من المؤكد ربحه على كلِّ الجبهات، لأنَّه كان يناضل بسيف الحق، وسيف الحق لا يمكن أن ينقصف.

وهنا يبرز دهاء ابن أبي طالب.. وهنا تتجلّى منه الرُّويَّة.

والدَّهاء كان دهاء العقل النيِّر، والرُّويَّة كانت رويَّة العقل المبصر.

ومن هنا كان تقديره البعيد في أن الرِّبح لن يكون إلا للحق في آخر الحلبة التي لن تكون فسحة العمر مداها، ولا حتى فسحة العصر..

بل إنَّ الأجيال، برمتها، ستكون الميدان الواسع لجولة الحق الكبير.

أما الجولة التي هي بين يديه، فإنَّه لن يستعمل فيها سلاح الرِّبح القصير..

وإلا فأي معنىً يكون للرجل الذي يقدِّم الرسالة قدوةً ومثالاً ولن يساوم على الحق والخير والجمال.. وإلا فكيف يستبدل بالكثير اليسير وبالجليل الضئيل، ولن يقبل بنصيحة المغيرة بن شعبة «أقرر معاوية على عمله وأقرر العمّال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجند، استبدلت وتركت».. لأنَّه إنَّما جاء الحكم لينظف، والموت أهون عليه من التنكر لمبادئه.

ولقد رفض الحكم مقيّداً على يد عبد الرحمن بن عوف، ولن يتشبَّث به اليوم مربوطاً بمساومة.

أما ذلك الداهية الذي يدَّعي أنَّه أهل لحلِّ المعضلات، فإنَّه ربما يقدِّم حلاًّ لمعضلة الساعة، وليس مطلقاً حلاًّ لمعضلة الخلافة بحدودها الكبيرة، التي يجب أن تتناول الرعية بالحق والعدالة لا أن تتناولهم بالإرهاق والأنانيّات.

والأُمَّة بحاجة كليَّة إلى بناء قويم، حتى لا تضيع بين الرّكام والرّغام.

ولن يلجأ أبداً إلى الغدر والخديعة حتى يربح عرشاً، ولو اقتضى ذلك تنكبه عن الخلافة.

لذلك، كان دهاء ابن أبي طالب، برفضه النَّصيحة، من النَّوع الجليل الذي يرضى المتاعب في سبيل تحقيق المبادىء.

وكذلك لم يكن رفع المصاحف في صفِّين ليخدعه أكثر مما كان ليجل قدره، لأنَّه هو نفسه، منذ ثلاثين عاماً ولا يزال، يحصِّن الأُمَّة ويهيِّئها لمثل هذه الجلوة من التحكيم.

وهو اليوم، مع قبوله الخديعة، أول من يلبِّي بإسناد التحكيم إلى الصفحة الكريمة.

وهو أعلم إنسان بما جاء في الآي الكريم، وهو القائل: «سلوني عن كتاب الله. فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم سهل أم في جبل!».

وستذوب الخدعة مع الخادع، وستبقى الوثيقة مع الصفحة الجليلة تنبض باحترام المخدوع للكتاب الكريم، من حيث تتقلَّص بديهة الخادع إلى عقله المتقزِّم، وتتسامى رويَّة المخدوع إلى سدرة المنتهى.

وكان البون شاسعاً بين ابن العاص يفاوض المقوقس في مصر على يد الأسود (عبادة بن الصامت) إذ يقدِّمه بهذا القول: «هذا الأسود سيِّدنا وخيرنا والمقدَّم علينا»... وبين ابن العاص يستعمل كلَّ دهائه في سبيل الحصول على خراج مصر، باعتبار الفتح في نظره بقرة حلوباً!

وكان الفرق بعيداً بين عمرو بن العاص يبني المسجد في الفسطاط وبين عمرو ابن العاص يحمل المصحف في صفين.

فهنالك كان الكتاب صفحة إيمان، وهنا استحال الكتاب بين يديه إلى ضجيج المكر والبهتان.

فأين هي البديهة تلبي العقل؟

وأين هو الدَّهاء يعيش ساعة وينتحر؟

وهكذا كان الدَّهاء يدور على محورين في الصراع الناشب بين ابن أبي طالب وابن أبي سفيان..

ينشر قميص عثمان ملفوفاً بالمصاحف، ودهاء ينشر المصاحف ملفوفة ببرد النبي..

دهاء يستريح على فراش من الخزِّ والدِّيباج، ودهاء يكتفي بفراش من سعوف النخيل..

دهاء يحشر الوجود في ثنايا مطارفه.

ودهاء يوسع الوجود على مباهج مشارفه.

وكان الفرق بين دهاء ودهاء: أنَّ واحداً منهما لا يزال يقفز بين الأجيال يتلقَّط به الإنسان لتحقيق قيمة الإنسان.

إلى معاوية
ابن ابي سفيان

أيّها المخلوق المهيب!...

لنبدأ بالتقييم على عامودين:

كنت في جاهلية تتخشّع لحجارة الأصنام، وأصبحت في دين يضرع الأرض بك إلى السّماء. كنت في عصر مغلوق على ذاته يمتص حضارة مشوبة، وانفتحت بدينك على آفاق لُقِّحت حضاراتها بنور جديد.

كانت تشد أودك عصبيَّة صغيرة تندفع بها في غاراتٍ ضيِّقة لم يكن مداها أكثر من تأمين العيش، وأصبحت تسند أزرك في أوسع الفتوحات عصبيَّة، ذابت فيها كلّ قبائل الجزيرة في سبيل نقل الفكر والرّوح إلى مدى الإنطلاق.

كنت في مكة ورواقك الأطناب تحميك من لفح الهجيرة، وأصبحت على وسعة الشطآن فوق القلاع والحصون والمواكب.

كنت صغيراً - عفوك! - وأصبحت كبيراً بفضل الرّسالة.

ليس من الممكن أن تجهل ذلك، فهو بعض أمجادك.. وهكذا كانت لك روعة الفتح.

فإذا كان الفتح عمليَّة تهدف إلى تطويف الفكر على آفاقه وتقييم الأعمال بتيارات الروح والمبادىء، فهذا هو الذي دفعت إلى تنفيذه في امتشاقك الحسام،

يشق دربك إلى حيث كنت تحمل رسالة الفكر والروح.

ولقد استقبلتك الشام هادياً لا غازياً، واعتبرت زيوت مشعلك من النّوع المكرَّر والمطيَّب.. كما أنّها وجدت فيه النسيب الحبيب.

كل ما فيك يشع بالقربى.. من الدَّم، إلى الفكر، إلى الرّوح.. من بادية إلى بادية، من جوار إلى جوار، من قادم جديد إلى نازل قديم من موحد إلى موحد.

بتلك الحفاوة استقبلتك الشام على يد الأسقف منصور بن سرجوس، وعلى يد حفيده القدّيس يوحنّا.

ولو كنت غازياً آتياً لما استبدلت بك غازياً سواك.. فهي إنّما وسّعت لك مع حدود القربى لأنَّك جئت بمشعل النجاة لتنجيها من ليل الغزاة..

إذن، إنّما جئت نسيباً وقريباً، ولم تجيء فاتحاً غريباً.. وجئت مشعلاً ونبراساً أكثر بكثير مما جئت حساماً ومتراساً.

وهنا كانت قيمة الفتح بين يديك، تشع من مصحفك على شفرة حسامك، ولم تشع من رأس سنانك على ضفَّة قرانك.. وجئت تصل وما جئت تفصل.

ولقد تمَّ على يديك ما أرادت الرسالة أن يتم، وكان المجد لك ملتحماً بأمجاد بني قومك، ولم يكن الفارق بينك والياً وبين عمر بن الخطاب خليفة لينتقص من قيمتك قيد أنملة.

فكنت وابن الخطاب في باحة المجد والجهاد قطبين تربطان الشام والمدينة بحبل وثيق الإتصال ولم يكن الحبل الذي يربط الجزيرة بالكوفة إلا ليستعير متانته من حبلك مشدود الفتائل بكلِّ مسلم مجاهد بأعصاب دينه فوق أعصاب قبيلته.

ثم إنَّك اتصفت بالدهاء فكنت المدلول إليه بحسن الرويَّة.

ولا شك في أنَّك بهذه الميزات الكبيرة تمكنت من تأسيس عرش للشام بزَّ عروش الرّوم في أبان مجدهم، وإنَّ ذلك لم تكن لك أمجاده وأنت خليفة بقدر ما كانت لك وأنت مجاهد عادي.

ولم يكن ليتم لك بقوَّة بني كلب وحدهم لو لم يكن بنو قيس يمدون أيضاً يد

المصافحة، ولم يكن حتى لا بنو كلب ولا بنو قيس بالمحققين لو لم يذوبوا جميعاً بمصهر جديد.

والمصهر الجديد هو الذي أكسب السيف رونقه، وأكسب الجهاد روحه، وأكسب الأهداف عقائدها، وأكسب النَّهج فلسفته...

وأي نهج بلا فلسفة تستقيم خطوطه، وتعمر أهدافه، وتستقر جوانبه؟

والدّنيا نفسها، متى يثبت لها أرجاء؟ ومتى يصفو لها رواء؟.... إلا بقدر ما تستقي من منابع الفضائل، وتنهل من موارد الجمال.

وهذه أو تلك هي الروح التي شعَّت من الرسالة الجديدة التي كانت مصهراً جديداً للجزيرة الجديدة، لينفع بها الفتح الجديد.

وكنت تعلم، يا معاوية، بفيض رويّتك: أنَّ الجزيرة إذ توحَّدت حقَّقت المعجزة.. وكنت تعلم كذلك أنَّها لم تتوحَّد أبداً في أي يوم من أيّامها مثلما توحدت اليوم.

ولم يكن ليخفى عليك سرٌّ توحيدها.

وبالرَّغم من ذلك، ركبت المركب الخشن، لتحقق لبني اميَّة نصراً على بني هاشم.. فبعدت النَّصر الأكيد.

ونصر بني اميَّة ونصر بني هاشم كانا نصرك الصحيح حين كنت تعرّي الشام من أخلاط الغرباء، وحين كان إخوانك ينظفون العراق من الأعاجم[1].

والشام والعراق هما جناحاك الطليقان في دنياك الكبيرة.

فأي شيء كان ضائراً لك لو تمد يدك لابن أبي طالب لتجمع الكفَّين للصالح الموحَّد؟

وكنت تعلم علم اليقين أنّ ابن عمّك نظيف الكفّ، لأنَّه نظيف القلب والعقل والروح..

(١) يجب أن يقصد بالغرباء والأعاجم هنا الحكام الكفرة الذين امتد نفوذهم إلى الشام والعراق من قياصرة وأكاسرة.

وأما الغريب بمعناه القومي أو الإقليمي فلا يعتبر غريباً في عمليات التصفية الإسلامية.

وما كنت تجهل مطلقاً أنَّه القطب الكبير الذي دار عليه محور الرسالة وأنت تشق بها كل دروبك، وأنَّه الأساس المتين لكلّ ما نشأ من حصونك وأنَّ له كلَّ حقّ الجهاد وكلَّ حقّ الصدارة، وإليه يعود فضل النّهج والإخراج وبه تحصر القربى، وعليه تدل الوصايات.. لأنّه العفيف النزيه، والعالم الكبير، والحجة الغائرة إلى كل جذور المنطق..

وأنَّه الذَّوق السليم، والقائد الحكيم، والبطل العنيد...

أي شيء كان أحسن لك من أن تجمع صدرك إلى روعه، ورأيك إلى حجاه.. فتشرب دنياك بدينه، وتصقل دهاك بحزمه.. إذن، لكانت لك الدّنيا صحيحة الجوانب متينة القوالب.

إذ أي نفع من الدنيا يتملَّص منها سمو الشرائع وتتعرّى من ثوب الفضائل؟

ولو قدِّر لك أن ترى كلَّ الذي حصل، من بعد أن تركت الدنيا، لكنت أول الآسفين وأبلغ النادمين.

فلقد التهب خط المجازر بحروب أهليَّة على طول الرّقعة الممتدة من خليج العرب حتى البحر الميِّت، وهب أكثر من واحد يطالبون بالخلافة، ليسقط أخيراً صريعاً في ساحة الوغى، وحوله عشرات الألوف، كلّهم من أرومة القحطانيين والعدنانيين.. تارة في «الحرة» وطوراً في «البصرة» وحيناً في «مكة والكعبة» وحيناً في «الكوفة».

وهكذا كانت الفتنة تنتقل دوّارة من الشام إلى العراق، أو من الشام إلى مصر، أو إلى مصر والعراق والشام في آن واحد.

ولم يكن أسخى منها مجازر قطعت فيها الرؤوس بالألوف، بأنواع كثيرة التشكيل من الإضطهاد والتنكيل، تلوَّن بشتّى الأساليب.. منها الغدر، ومنها الغيلة، ومنها التسميم[1].

---

(١) بل لو قدِّر له أن يرى كلّ الذي حصل لما ندم على ما فرّط به، ولما تردَّد لحظة في إنجاز مؤامراته الكبرى التي حطمت كلَّ مكاسب التجربة الإسلامية، أو أكثرها.

وكيف يخالجه التردّد في عمله حين يدرك عمق المأساة الرسالية التي سوف تتمخض عنها مؤامراته وهو في عمله مخطط هادف.

ولم يكن يهمّه مجده الشخصي وحده بل كان يهمه إلى جانب ذلك القضاء على مجد الرسالة وخلودها، وبهذا الصدد لاحظ كلام معاوية.

ولقد كان الحجاج بن يوسف من أبرع هؤلاء وأطولهم باعاً، فلم يبق في العراق ولم يذر..

ليتقلّص أخيراً مجد الجزيرة، وتنكمش على ذاتها، ويطفر أبناؤها مشتتين، هرباً من الظلم والجور والإضطهاد.. ليزيد الحقد في القلوب، ولتنطوي الأغلال في النفوس، من قبيلة إلى قبيلة، ومن جهة إلى جهة، ومن جيل إلى جيل.

ولم تنته سلسلة الإغتيالات...

ولم تتوقف على عثمان بن عفان، أو علي بن أبي طالب، أو الحسن بن علي.. بل بقيت مستمرة إلى الحسين بن علي، إلى عبدالله بن الزبير إلى مروان بن الحكم، إلى الوليد بن يزيد، إلى مروان بن محمد....

وهكذا، بعد تسعة عقود، ضيَّعت دمشق روعة عرشك الكبير ونعومة ظلّك النضير... ولم يبق لديها ما يذكرها بعصرك إلا المسجد الواسع الفخم تأوي إليه مطمئنة.

وهكذا، يا معاوية، تنتقل الدنيا مشرقة مع الشروق وكالحة مع الغروب، ليبقى وجه ربك الكريم من قبل ومن بعد.

إلى مثل هذه المآذن كان يدعوك ابن أبي طالب، استخفافاً بالدّنيا واستجماعاً للروح.

فضائل يتحتَّم نثرها على المجتمع، حتى يتمكن في ظلّها من التنعُّم بالدنيا بعيداً عن أشباح المخاوف، بعيداً عن الأحقاد والضغائن، بعيداً عن المراوغ والمزاوغ.

ولم يكن ذلك ليتمَّ لمجتمعات العرب في حضن بداوة لا تقيم وزناً للمزايا والصفات، فراحت تتلهّى بالحزازات والعصبيّات.

ولم تأخذ من الفترة التي انتصرت فيها على عصبيّاتها وحققت فيها أعز فتوحاتها عبرة كافية تجعلها تتعلق بأسباب وحدتها وسر نجاحها.

وهكذا رجعت سريعاً إلى أسباب انحطاطها...

إنَّ هذا النَّوع من التربية الصحيحة من كان مسؤولاً عن توفيرهللمجتمع غير قوّاده وحكامه..؟

ولكنَّ الأساليب التي عالج الحكام بها رعاياهم، لم تكن لتأتلف وهذه الغاية من الأداء السَّليم، لأنَّ التَّنافس على الرِّئاسة واحتلال المناصب في سبيل التنعُّم الوسيع بالدُّنيا لم يكن من شأنه أن يحقِّق نجاحه الآني إلا باستجداء العصبيّات القبليَّة عن طريق الإغراء بالخيرات الدّافقة من الفتوحات.

وأفسد الفتح، وأفسد الحكام، وأفسد المجتمع.

وكان اللجوء إلى العنف أقرب الطرق لتحقيق استمرار السيطرة والتنعّم بها.

وهكذا كانت الدَّوّامة تدور على نفسها لتقرض نفسها بنفسها.

فبعد غفوتك الأخيرة، قام عبدالله بن الزبير يستحث الحسين بن علي للمطالبة بحقه في الولاية، وتنكب عن مؤازرته حتى يخلو له الجو.

وما كان من ابنك يزيد إلا التنكيل بالحسين، وقطع رأسه، وتقديمه هديَّة حلوة إلى اخت الحسين نفسها، لتعود به إلى كربلاء، وليصبح للشيعة صيحة جديدة لم تزل تدوِّي حتّى اليوم مطالبة بثارات الحسين، ليغتنمها فرصة حبلى بالأحقاد عبدالله بن الزبير المؤازر الطامع بالخلافة.. وقد حقَّقها لنفسه مدَّة تسع سنوات، وحقَّق معها «صفيناً» ثانياً على كل قبائل العرب.

أما مروان بن الحكم، فتلك كانت فرصته المرتقبة.. فتسلَّم الخلافة باسم الدَّولة المروانية بعد موت حفيدك معاوية الثاني، وظل يخض باليمنيين على القيسيين، حتى قتلته عاتكة أُم خالد تحت الشوادك أشنع قتلة.

أما الحجاج بن يوسف، فلقد توجه إلى الكوفة ليقول: «إنِّي لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإنِّي لصاحبها، وكأنِّي أنظر إلى الدِّماء بين العمائم واللحى».

ولقد أُحصِيَت الرُّؤوس المقطوعة على عهده، فبلغ مجموعها مئة وعشرين ألفاً.

كلّ هذه المجازر رافقت كلَّ أطوار الخلافة الاموية من بعدك، وعشَّش فيها من البغض والحقد والكيد ما عشَّش.

ولم تنشأ خلالها أيّة محاولة فيها، من العطف والحب والتسامح، ما يمحو شيئاً من آثارها ويخفّف وطأة من أثقالها.

وكانت جميعها تنوخ بثقلها على جميع المسلمين.

وعلى طول هذه الحقبة من الزمن، والتي لم تتجاوز السبعين عاماً، ظلّت الأحقاد تنمو وتتجمّع مدوّرة من فينة إلى فينة ومن خلافة إلى خلافة، تغتمر بها الصدور وتتحفّز بها الخواطر.. حتّى استغلّها فرصة بفرصة « السّفاح العباسي » فكان التنكيل على يديه ثأراً بثأر وتمثيلاً بتمثيل.. فإذا الذي كان مدّاً أصبح جزراً، والذي كان جزراً أصبح مدّاً.

وهكذا ترى - يا ابن اميّة - الحقبة التي خفق عليها قميص عثمان قد ضرّجت العصر كله بدماء مئات الأُلوف ومن كلّ قبائل العرب.

وجمدت الفتوحات تجميداً مخزياً، من حيث أصبحت الجزية تدفع بدل أن تؤخذ، وأصبح كرسي الخلافة دوّاراً بين المدينة والكوفة، وبين الكوفة والشام، وبين الشام وبغداد.

وظلّت القبيلة نفسها تتناحر وتنتقل مستعرة من جبهة إلى جبهة ومن عصر إلى عصر.

وبقي الخلفاء على نمطهم في العيش والبذخ، واستغلال أفياء المسلمين وصرفها على أهوائهم وملذّاتهم الضاربة إلى حدّ الخلاعة والمجون.

واستمر الشّعب راسباً في انحطاطه المستمر البعيد عن نواحي التفكير الصحيح والثقافة المستحلبة من جذور الحب والخير والجمال، ولم يستتب للإقتصاد الموجه الحقيقي أيّة بادرة تجعل الجزيرة تتركز على شيء من الإستقرار، من حيث كان واجباً - أولاً وآخراً - نحت الدّولة نحتاً دقيقاً يحصر كل جهودها في تمثيل الإنسان في الجزيرة وإخراجه الإخراج المثقف، حتى يصبح مكنة فاعلة قبل طرحه في الميدان الصاخب الذي رمي إليه بعجره وبجره.

وكانت البادرة الأُولى ضعيفة جدّاً من ناحية هذا المعنى الأصيل.

ورحت - يا ابن اميَّة - بقميص عثمان ترجح به كفَّة الدنيا إلى صدرك فناء بها صدرك كما ناءت بها صدور أهل عصرك. وتركت العصر يتخبط بمدِّه وبجزره، ليبقى قدوة لما بعده من العصور.

إبن ملجم

لست أول الخارجين عن الخط.. ولن تكون آخرهم..

ولست أول الحاملين أعباء الجريمة.. ولن تكون مطلقاً في النّهاية أتفههم، وليس الدّافع فيك لا بالأوهى ولا بالأسخف.

فكل هؤلاء الذين يقدمون على مثل هذا الإقتحام هم مثلك يحملون هذه العتمة في نفوسهم، وهذا المنطق الأبله في رؤوسهم.

وليست القذارات التي تتمرَّغ فيها بضلوعك، والتي تنكب عليها بيافوخك، بأقل نجاسة وأخف نتانة من تلك التي يتمرَّغ بها الخنازير في اصطفافهم حول المناتن.

وأي شيء فيك، يا حامل الجريمة، أكثر مما يقال في مجرم!

وماذا يهمّك من النعوت ينكال عليك أبشعها وأنت الذي تجرَّدت من كلِّ خلجة تتأثر بها كرامة حي؟

غير أنَّ الكلام فيك، الذي لا يفتش عن أن يتنقّى من عواهنه، لا يقصد أن يهاجمك أكثر مما يقصد أن يهاجم الجريمة التي ترنّحت على يديك، وهي جريمة العصر، امتصصتها سمّاً ذُعافاً سكبته على رأس حسامك، فكنت المخرج الأوحد تجمَّعت فيك مطامير الحقد على بله.

ولقد قالوا: إنَّ امرأة موتورة أغرتك بجمالها ومنَّتك بدفع نفسها ثمناً لك إذ تحقّق في سبيلها البطولة المقصودة!

فأي جمال هذا تحسَّسته في عتمة نفسك فاقتنصتك حرارة لفحاته؟!

ولكنَّه جمال الخفافيش التي لا يمكنها أن ترى إلا في عتمات الكهوف.

ولقد تواقحوا فسمّوك «صنديداً».. إذ تمكنت من صرع بطل لم تشهد له الجزيرة مثيلاً في تاريخها، لا الغابر ولا الحاضر.

وأي بطولة هذه تشحذ سيفها على مشحذين: مشحذ السُّم، ومشحذ الغيلة؟

والغيلة ذاتها كانت بجبن رفيقاتها التي سبقت لم تنجح، والسم وحده الذي فعل.

ولقد تغابوا ونسبوا إليك صفة المنقذ، إذ قصدت أن تخلِّص الأُمَّة من مسببي ويلاتها ومثيري حروبها.

ويلك! وويل من تغابى مثلك!!

عمر طويل من الجهاد في سبيل رفع المظالم عن كاهل الأُمَّة وكاهلك، في سبيل تحرير جيلك، وفي سبيل دفع القدوة إلى كل الأجيال التي تتلو عصرك، في سبيل صيانة كرامة كل إنسان يجهل إنسانيَّته مثلك، في سبيل نقض الجزيرة - جزيرتك - وترميمها لتصبح مستحقَّة للإصطفاف بين المجتمعات المتحضِّرة.

ماذا تَدَّعي يا هذا؟... وماذا يدَّعي كلُّ الذين خلفك؟... وكلّ هذا الذي مرَّ من جهادٍ طويل، به ابن أبي طالب كلّ عمره بالأتعاب والأوصاب بالفقر والحرمان، بالسهر الطويل والحرص النبيل.

في سبيل من كان؟

هل كان في سبيل إبادة الأُمَّة بحروب أهليّة، أم في سبيل تطهير الأُمَّة من رواسب الجهل والإنحطاط؟

أتراه كان مجنوناً يحاول أن يختطف الأرض ليحطِّمها بين قوافل النُّجوم أم تراه كان عاقلاً يستنزل السَّماوات ليفرش بنعيمها جنبات الأرض؟

أتراه استحل خيرات الفتوحات يجمعها إلى قصوره تنعّماً ولذاذات، أم تراه

راح يغني الفتوحات بكنوزه المدفونة، يدفّقها من قلبه ومن عقله، ثروات لا تعرف الأرض لها فناء؟

أتراه جاء يهدم أم تراه جاء يبني؟ أتراه جاء يسلب، أم تراه جاء يعطي؟

والرسالة التي عليه كان قوامها وإليه انتهى زمامها؟.. أتراه خفر الذّمام وخان الأمانة؟

أما تراه حملها بسيفه وبيانه كما تحمل الرّيح محامل الغيث إلى كلّ صادية من صحاريك؟

ألم تره تحت ضربة سيفك الغادر على طريق المسجد تحني رأسه جلالات وجلالات، تحت قميص مرقوع، ومدرعة قد انجردت في ساحات الجهاد، تكفكف قدميه نعل مخصوفة؟

ألم تسمع ابن عباس يسأله عن هذا النّعل.. «دخلت على أمير المؤمنين بـ (ذي قار) وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال: والله لهي أحبّ من إمرتكم، إلا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً!».

ألم تسمعه يقول ذلك؟

ألم تره بتلك المظاهر المثقلة بالأجلّ وبالأبرّ؟

ولكنّك لم ترَ إليه إلا بالمنظار الذي وضع على عينيك الكفيفتين.. وكان ذلك من تراث عصرك.

ثم إنَّ عصرك كان أكثر إجراماً منك، بحيث أنّه عجز من احتضان الرجل الضخم، وتغافل عن وجوب رفعه إلى السدة المنيعة، حتى لا يجوز لقزم من أمثالك أن يتمكن من النّظر إلى صفحة نعله المخصوفة؟

وكان ذلك بمثابة استهتار العصر برجاله الأفذاذ، من حيث حسبت عليه الجريمة في ميزان التقييم، تخلّفاً عن إدراك القيم، وتنكباً عن ضبط المثالب. وإنَّ عصراً جائعاً إلى الرّجال، كعصر الجاهليّة بالذات، تمطره السماء بعلي بن أبي طالب غيثاً مدراراً ثم ينبذه ليعود فيتعلّق بالسّراب.. لعصر أقلّ ما يقال فيه إنّه عمي لا تزال تأخذه سنة الدّياجير.

أما الرجل الذي خرَّ صريعاً أمام مسجد الكوفة، فإنَّ ضربة السيف لم تنل من مقتله، لأنَّ الذين يعالجون الفكر مثله في أبراجها العالية يصبحون في المأمن الحريز من أي ترابي على شكل ابن ملجم.

ولكنَّ الضربة التي هوت على رأس هذا العبقري، رغماً عن أنَّها لم تصب منه إلا التافه من كيانه، فإنَّها لا تزال تعتبر طعنة في صميم الكرامة الإنسانيَّة، ووصمة على عصر يتنازل عن حقِّه، تاركاً للأجيال شرف تقييم الرجل الذي أهملت تقديره... من حيث أصبح ابن أبي طالب أوسع واحة يهفو إليها عطش الإنسان، إذ يلهث به تجواله عبر العصور.

الخاتمة

غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري،

وتعرفونني بعد خلوّ مكاني. وقيام غيري مقامي.

الغروب المشرق

إلى أين يستطيع أن يطوف بك الفكر وقد تخلَّيت عن كلِّ القيود التي كانت تشد بك عن تلك المطاوف التي كانت تهتز تحت مقارع قبضتيك؟

وكيف أصبحت تنظر إليك الدنيا بعد أن نبذت إليها كلَّ ما كان لك منها كما ينبذ الليل أمام الفجر آخر ذيل من ذيول عتماته؟

وكيف بدأت تنظر إليك ساحات الجهاد بعد أن تركت لها السيف الصقيل والرمح الأسيل؟

لعمري! إنَّ التاسع عشر من رمضان لم يكن اليوم الأوحد الذي فيه رزمت حقائبك وشددت رحلك للسَّفر الطويل.

فلقد تهيّأت لاعتلاء المطيَّة البهيَّة منذ اليوم الأول الذي به تكحَّلت عيناك بذلك الفيض الذي من «غار حراء»، دُفقت عليك غموره...

ومنذ ذلك اليوم والدنيا تطأطىء رأسها بين يديك، وتلقي بكلِّ جبروتها تحت نعليك.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت خطواتك تتجه نحو الأقاصي، لا تستوقفها الأعاصير، ولا تلهيها رغوات الزبد؟

والدنيا التي قابلتها بخشونة كفّك، وصدفت عنها بشمم أنفك، ورميت إليها بطيٍّ كشحك...

هي اليوم التي ترنو إليك، كأنَّها أدركت أنّك أنعم وشي لبرودها، وأنَّك أطرى سحابة مرَّت تلطفت النشفة في أجوائها.

وأنَّك كنت أعقل معدَّل في صماماتها.. تارة يطبق عليها الشح فتستد به على اختناق، وطوراً يغور بها البطر فتحبل به على انفتاق.

* * *

وأنَّك كنت أجرأ من مدَّ إلى خدِّها المبرّج يداً فهتك عنه الأزرار، ودخل خدرها المنمَّق فمزَّق عنه السَّتار.. فإذا بالوجه السافر تفضح الشمس مساحيقه، وبالخدر المدلل المغطى بالسجف الوثيرة يتعرّى عن كلِّ مفاتنه الوبيئة.

وهكذا أخضعت الدُّمية الكبيرة وسلختها من أغلفة الأوهام لتلبسها الثوب البسيط المعفف، وسحقت عن أجفانها سقم المراود، وعرَّضتها للنور تستجمع منه مفاتن الكحل؟

وإنَّ الدنيا هذه إذ تخسر تحت عينيك بريقها الوابق، تكتسب بين راحتيك وهجها الدافق.. فإذا هي دروب آمنة الجوانب، يتمشّى عليها العابرون على اتزان.. يحدوهم الشوق العفيف، والأمل اللطيف، والمسعى النظيف.. في سبيل الوصول إلى غفوة قريرة، لم تنغِّصها لا دلجة الطمع ولا لمز الجشع، ولم تهتكها نخاريب الفجور أو تجاويف الغرور، ولم تؤرِّقها دبابيس المظالم. وليس الفقر فيها بمنءٍ عن الفضائل، وليس الغنى منها بمغنٍ عن الشمائل.

وهكذا صنت حدود الدنيا إذ كشفت حدودها، وأسبغت عليها الكنوز من حيث بعثرت كنوزها.

لذلك، فإنَّها أصبحت ترجع إليك في كلِّ سانحة تشعر فيها بأنَّه قد غصّ بها الطريق، وفي دستورك كان لها ذلك المرجع الوثيق.

ودستورك كان ذلك الإلمام الفسيح بكل أُمور الحياة، مشاكلها ولواعجها. فلم تعالج شأناً من شؤونها إلا سبرت منه الأغوار وسلَّطت عليه الأنوار.

أخذت الرسالة، فإذا هي من نور ربِّك الكبير هداية ما فاتك منها قبس جمعت إليها حجاك، فشعَّ بها منك الحجى،.. وضممتها إلى قواك.. فإذا صدرك منها كظهر الجن فرحت تغرف وتفرغ، دون أن يوهيك الغرف أو يوهنك التوزيع..

كأنَّك أليم، ما ملت من مدِّك الشطآن.

ولم تأخذ كبيرة إلا عالجتها بكبر، ولم تتناول صغيرة إلا أعرتها كلَّ الفكر.. فكأنَّك كنت على البعد وعلى القرب كالنور، جوّاد البصيرة جوّاب النظر.

وتهافتت حول حياضك الفضائل مترابطة كما تترابط ببعضها البعض خطوط القوافل.

فإذا بها مشدودة الرصف، منسَّقة القوالب، موزونة الإيقاع، سلسة المدارج؟

فكنت الجائد الجوّاد من حيث كنت الزاهد الزهّاد..

وعجنت الدنيا بماء الزهد وخبزتها، فإذا موائد الجود تتفتَّح على حقيقة السخاء.. حتى إذا تناولت الرغيف المقدَّد تأكله بحبَّة ملح، كانت لك فيه كل العوافي.. ورغيفك كان كفافك، لأنَّه كان من الزهد عجينه.. ولن تحسه غيرك على رغيف، لأنَّه من جود زهدك كان طحينه.

وزهدت بالدنيا، لأنَّك لم تر لها ظلاًّ مقيماً ولا عزّاً مستديماً.

ورأيت أنَّ دروبها ليست غير معابر، ورأيت أنَّ الإنسان فيها حثيثاً حثيثاً إلى الموت سائر، وأنَّه إلى أحضان ربِّه صائر.

ورأيت أنَّ الفضائل خير حلية تجمع الإنسان في دنياه، يسلكها بتقواه ويتركها بنجواه.. راحة في الحياة وبلغة للممات.

ورأيت أنَّ المثالب بنت المتاعب، تفسد المطالب، تحتضن الأحقاد، وتقضّ المضاجع..

ولن يكون للإنسان فيها حقيقة مأرب، بل هي ملجأ العقل الواهي، ومسلك الطامع المغرور، والجائع النَّهم... هدف صغير، وشأو حقير، لن تبني إنساناً يعي

حقيقة الوجود، بل تبقى له مصدر قلق في سباق أليم، ينهكه التّزاحم، ويدهده التحايل والتراوغ.

فمددت باعك الطولى تفرض العفّة في المسلك، والصّدق في المنطق، والصّراحة في الرأي، والحق في الفصل، والعدل في التنفيذ.. فإذا بك تمد الخوان تغنيه الفضائل، وتزيّنه الشّمائل، وتطيّبه التقوى، ويشهيه الإيمان.

* * *

وعجينك هو العجين المطهر، لم تمتد إليه يد البغي بأصبع..

وكان المأكل منه نعم المأكل..

فيه الغذاء وفيه العزاء.

فيه الرضوخ وفيه الرضا، فيه الحب وفيه السماح، وفيه السعي على إباء.

وفيه الفكر على نبالة.

وفيه يقظة الوجدان، وفيه روعة الإنسان.

هذا ما تركته للدنيا من حقيقة الدنيا...

فلا عجب أن تجوع الدنيا إلى صوانيك كلّما غصّت بموائدها، أو تتعطش إلى مساقيك كلّما غرقت في مناهلها.

والدنيا إنّما سغبها في تخمتها، وإنّما صداها بفيض غمرها.

أما أنّ أطباقك كيف لا تتخم، ومشاربك كيف لا تغرق، فلأنّك الذوّاق، إذ قدمت فنّ المأكل وفنّ المشرب.

وهكذا لا تزال الدنيا بأجيالها تغرف الطيب من أفاويهك، يا أيّها الوجه الكريم من سنا ربّك.

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاء

فاطمة الزهراء (عليها السلام)

وتر في غمد

الكتاب الذي حاز على الجائزة
الأولى في مسابقة التأليف عن
الصدّيقة الزهراء في النجف الأشرف

تأليف
سليمان كتاني

دار المرتضى

باسمه تعالى

عزيزي الاستاذ الالمعي سليمان الكتاني المحترم

تحية مباركة طيبة وبعد فاني أبارك لك ينبوعاً بين أهليك لا يزال يتدفق نميراً صافياً سائغاً للشاربين، وأحيي فيك كاتباً عبقرياً ذا ضمير حي عامر بالوعي لا ينفك يستلهم حقائق التاريخ من مصادرها الوثقى ثم ينظمها عقوداً من البيان تكاد تزري بعقود اللؤلؤ والمرجان وهذا ما ألمسته فيه بالأمس في كتابك الذي أمليته حول شخصية سيدنا الإمام علي عليه افضل الصلوة والسلام وهو ما جعلني ألمسه اليوم في كتابك الذي أسمعتنيه وانت تمليه حول شخصية زوجه الطهر البتول فاطمة الزهراء سلام الله عليها فما احراك ايها الاستاذ بالمزيد من الشكر والتقدير لقاء ما اهديت واسديته لي وللمكتبة العربية الاسلامية من نتاج قيم ثمين طالما راودته اقلام وعالجته افهام فلم توفق لمثل ما وفقت له انت من تفوق باهر واسلوب ساحر احرزا لك السبق في كلا المضمارين وماذاك الا بفضل وعيك العميق الذي ارجو ان يخطو بك خطوات اخرى كهذه الخطوات الفائزة بالإعجاب من صميم القلوب لكي تستأثر بقصب السبق في كل تلك الميادين والمولى تعالى هو الموفق وهو المستعان

٢٢/٩/٦٨ مرتضى آل ياسين

هَـدايا

الى لجنة التحكيم

بواسطة سماحة السيد حسين بحر العلوم الجزيل الاحترام .

الى النجف الاشرف — منه واليه — اقدّم كتابي :

« فاطمة الزهراء »

« وتر في غمد »

ان امرأة كفاطمة : رهيفة الحس — ذكيّة المعدن — كبيرة القلب — نيّرة اللب — حريّ ان يكتب فيها ، ابرازاً لمثال ، وتجسيداً لقدوة . انّ المجتمعات العربيّة لفي حاجة لبناء الاسرة الفاضلة ، تدعيماً لكيان اجتماعيّ ناضج يكون امتداداً صحيحاً لتاريخها الماضي المجيد .

بين يديكم هذا القصد منّي — فان يكن التوفيق ، فلكم منّي الشكر على اتاحة الفرصة ، ولفاطمة الزهراء فضل جلوة الخاطر .

بسكنتا في ٢٥/٦/٩٦٨

المؤلّف :

سليمان كتّاني

اِلى كُلِّ امْرأة

تفتش :

عن مرود ...

عن قارورة طيب ...

عن ريشة خضاب ..

اقدّم : فاطمة الزهراء

إلى القارئ

لا – لست اكتب سيرة – حسبي من السيرة مضض الشواهد والاسانيد – حسبي منها حلقات لا تجد لحمتها الا في « عن » حرف له ابرز شهرة بين حروف الجر – وحسبي منها سرد كأنه ناجذ جرذٍ في جدار .

ولا اذكر اني قرأت سيرة إلا انزلقت عيني عن كل « عن » فيها لتستقرّ على ما يبرز بعد آخر كل « عن » ، ولا تتبّعت أيّ سرد من سرودها إلا الذي تتقعّر حروفه برأي او تهتزّ بأثير .

لهذا سوف اكتب في فاطمة الزهراء – متنكـّراً –قدر الامكان – لحرف الجر هذا – وسأكون متنكـّراً للسرد ايضاً ، فالريشة التي في انملي ، ليس عليها ان تكون مختبراً يحلـّل نسبة الحديد والكبريت في ساق زهرة ، أكثر مما لها ان ترسم اللون فيها وتهتزّ من فوح العبير .

انّ فاطمة الزهراء هي أجلّ من ان تشير اليها الاسانيد ، واكرم من ان تدلّ عليها السرود – يكفيها اطاراً كونها ابنة محمد ، وزوجة عليّ ، وامّ الحسن والحسين ، وسيّدة نساء العالمين .

إلى فاطمة

ايه فاطمة ...

يا ثغراً تحلّى بالعفاف فطاب رضابه ،

ويا عنقا تجمّل بالمكرمات فذكا اهابه .

لقد عبق خطّ وصلك ببنت عمران – يا ابنة المصطفى .

فتلك مريم – ما فرشت الارض إلاّ من نتف الزنابق ، وانت النفحة الزهراء ، ما نفثت الطيب إلا من مناهل الكوثر .

والخطّ خطّ الطهر والعفاف – ما زنّر الارض إلاّ خفّف أرهاقها ، ولا عانق الأجيال إلا لوّن افاقها .

والارض – لولا هذا الاثير يغمرها – تأجن

والزمن – لولا هذا العبير يرشفه – يأسن .

يا بتول – يا أمّ ابيك ...

لقد كانت النبوّة طفلك البكر :

داعبته بيد – قبّلته بفم – عانقته بعين – رافقته بقلب – حضنته بروح – ضممته بشوق ... فاشتعلت بين حناياك اشواق السماء – والتهبت في محجريك اثقال المعاني .

لقد ذاب التراب في المصهر – يا ابنة الجنّة ...

هكذا – يا ابنة ابيك – اصبحت الوصيّة ...

يا طيب الامومة ،

يا مشتهى العفـّة ـ يا طهارة المردن ،

يا نحيلة ،

اي فتى هو فتاك ـ ما اندغمت في رحابه إلا كما يندغم النور في كأس شفيف ...

يا عناق الحب ـ يا وصلة العمر ـ يا امتزاج المسك بالعنبر ـ يا اعتصار الشوق من قلب العفر ـ يا ام ريحانتين جسّدا اشواق النبوّة .

يا ابنة البقيع ...

يا كبرياء النفس في عنفوان الخفر ...

ايّة دمعة ليس لهـــا ان تحرق مقلتيك ، وانت فوق ضريح ـ ثوى فيه مخمل الكف ، وحنوة القلب ، ورنوة العين ، وهلـّة الجبين ، ودفقة المبسم... وهالة كالديمة موصولة العبق بغار حراء... ومسحة كالنور فيها كل العزاء ...

وذاب حبر الوصيّة يا انوف ...

وبقيت على الخطّ الكريم – يا عديلة مريم ،

يا قيثارة النبيّ ،

يا ثورة اللـّحد ،

ويا وترا في غمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١ - فاطمة الزهراء

ان الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها . فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن أحبها فقد أحبني . فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبي. فاطمة سيدة نساء العالمين .

هذه الشهادات وامثالها تواترت في كتب الحديث والسيرة عن رسول الله محمد صلى الله عليه واله وسلم ، الذي لا ينطق عن الهوى ولا يتأثر بنسب او سبب ولا تأخذه في الله لومة لائم .

مواقف من نبي الاسلام الذي ذاب في دعوته وكان للناس فيه اسوة فأصبحت خفقات قلبه ونظرات عينه ولمسات يده وخطوات سعيه واشعاعات فكره ، قوله وفعله وتقريره ، وجوده كله اصبح تعاليم الدين واحكام الله ومصابيح الهداية وسبل النجاة .

اوسمة من خاتم الرسل على صدر فاطمة الزهراء ، تزداد تألقاً كلّما مر الزمن وكلما تطوّرت المجتمعات وكلّما لاحظنا المبدأ الاساس في الاسلام في كلامه لها « يا فاطمة اعملي لنفسك فاني لا اغني عنك من الله شيئاً » .

فاطمة الزهراء هذه مثال المرأة التي يريدها الله وقطعة من الاسلام الجسد

في محمد وقدوة في حياتها للمرأة المسلمة وللانسان المؤمن في كل زمان ومكان .

ان معرفة فاطمة فصل من كتاب الرسالة الالهية ودراسة حياتها محاولة لفقه الاسلام وذخيرة قيمة للانسان المعاصر .

٣ – مع المؤلف

بهذا الاحساس كنت استمع الى الاستاذ الجليل والاديب العبقري سليمان الكتاني في صومعته ببلدة بسكنتا على سفح جبل صنين وهو يتلو كتابه العزيز (فاطمة الزهراء وتر في غمد) كنت استمع اليه وأرى امامي لوحـــات رائعة تكشف بوضوح جمال ذوقه وروعة فنه .

سرت معه ساعات في دنيا فاطمة الرحبة المشرقة فاشعر بالسمو والرفعة وانعم البصر والبصيرة واعتز بعقلي وقلبي امام هذا التراث المجيد الموجّه .

متعة العمر كانت هذه الساعات امام الجمال الالهي في جلوة فاطمة المنعكسة على فكر وقلب هذا الرجل المرآة الوديع .

وُعدت الى مقدمة الكتاب فسمعته يتابع ويقرأ « لهذا فسوف اكتب في فاطمة الزهراء متنكـّراً قدر الامكان لحرف الجرّ هذا – يعني حرف «عن» الاداة المستعملة في كتب السير – وسأكون متنكراً للسرد ايضاً ؛ فالريشة التي في أنملي ، ليس عليها ان تكون مختبراً يُحلـّل نسبة الحديد والكبريت في ساق زهرة ، اكثر ممّا لها ان ترسم اللون فيها وتهتز من فوح العبير » .

قلت له : وهل خصّصت معرضك الفاطمي البديع هـــذا بالذين عرفوا فاطمة واطـّلعوا على حياتها عن طريق كتب السيرة والسرد . ومنعت الذين يريدون ان يطلعوا على سيرتها .

هلاّ رسمت الطريق للوصول الى عين الشمس ونبع الحياة لكي يتمكن مجتمعنا الذي يقرأ الكتاب من تربية المرأة الفاطمية والرجل الفاطمي .

قلت له : إن هذه اللوحات الرائعة سوف تعجب وتجتذب ارواح الناس الحائرة التي ضاقت بالابحاث والاراء والتجارب عن المرأة حتى أصبحت المرأة هي عقدة العقد في المجتمع القديم والحديث ؛ وهـــذا الاعجاب والاجتذاب بدورهما يؤدّيان الى البحث والتفتيش عن المواد التي كوّنت هذه اللوحات ، عن الحديد والكبريت ، وعن المدخل الى هذه البيوت التي اذن الله ان ترفع .

ان الباحثين الجدد في معالم الحضارة الحديثة يسمونها حضارة الجنس وهذا يكشف عن خطورة عقدة الرأي في المرأة وعن الاخطاء الكبرى التي نعانيها من جراء الخطأ في تجربة الحضارة حول المرأة .

إن آراء الكتاب وعلماء النفس والمادية المتحكمة في كل شيء وفي المرأة بالذات قد أظلمت الدروب واغرقتها في الاهواء فضاع الصواب وعمّت الحيرة وانهارت إنسانية المرأة تحت وطأة التجارب القديمة والحديثة .

اننا نشعر اليوم اكثر من اي وقت مضى بالحاجة الى سرد موجز لحياة فاطمة الزهراء لكي نجعلها قائدة ونقتبس من فيض سيرتها في طريق الصلاح والاصلاح .

قلت له هذا كله . فسمعته يقول بصوت واثق وبشعور من أدى الواجب :

لقد تركت لك هذا الامر حتى تكتب في مقدمة الكتاب وتؤدّي هذه المهمّة — فيكتمل العقد ويبلغ الكتاب النصاب .

شعرت بالاحراج الكبير أمام الغاية السامية وامام الوسيلة ايضاً فنقلت له كلام المقدس الامام عبد الحسين شرف الدين في تقريظ له على كتـــاب « الامام علي صوت العدالة الانسانية » مخاطباً مؤلفه الاديب اللامع (أعرني قلمك لكي أقرّظ به كتابك) .

هذه كلمات من اضاءت كتبه ورسائله سماء الكتب وعـــالم الابحاث

والرسائل ـ فكيف بقلمي القاصر وببضاعتي المزجاة .

ومع ذلك كله فسوف أستمد من فاطمة الزهراء في هذه المحاولة المتواضعة وأؤدي الواجب قدر المستطاع سائلاً المولى لي وللقارىء الكريم توفيق الرؤية الصائبة والاقتباس .

٣ ـ المرأة :

الحقيقة ان اكتشاف موقف الاسلام تجاه المرأة في هذا الوقت لا يخلو من بعض الصعوبات . حيث أن هناك آثاراً دينية اسلامية تبدو في بادىء الامر أنها متفاوتة ومتخالفة وزادت الصعوبة حينما اختلط بعض العادات ، التي كانت ولا تزال عند بعض الشعوب الاسلامية ، اختلطت هذه العا.ات بالتعاليم الاسلامية الاصيلة فخيّل للباحث ا ن جميعها من الاسلام .

واذا لاحظنا آراء المستشرقين حتى اصحاب النوايا الحسنة منهم ودرسنا ما كتبه بعض الكتاب المسلمين ايضاً نجد أن هذه الصعوبات الدراسية جعلت الموقف الحقيقي الاسلامي تجاه المرأة غامضاً مجهولاً حتى أن اكثرهم تبنوا آراء بعيدة عن الحقيقة وبعضهم اعتبر المرأة مظلومة في الاسلام .

والحقيقة أن عند المسلمين نوعين من التراث فهنـــاك تعاليم دينية مأثورة وعادات موروثة غير واردة في الآثار الدينية ويجب الدقة والاهتمام لفصل احديها عن الأخرى . ثم أن الآثار الدينية الاسلامية ايضاً نوعـان : قسمٌ يتحدث عن وضع المرأة في مرحلة معينة من التاريخ والقسم الآخر هو تعاليم اساسية خالدة .

وتوضيحاً لهذا الرأي ألفت نظر الباحث الى مصطلح علماء المنطق واصول الفقه حيث يفرقون في كل خبر (وحسب مصطلحهم كل قضية) بين القضية الحقيقية والقضية الخارجية : حيث أن الاولى تبحث عن الاحكام الثابتة للموضوع اينما وجد وفي كل زمان ومكان في حـــين أن الثانية تنظر الى

الموضوع القائم في زمان صدور الحكم وتبحث عن حالته في ذلك الوقت دون سواه .

ولأجل اكتشاف حقيقة الموقف الاسلامي تجاه المرأة ، علينا ان نجعل من الآيات القرآنية اساساً للبحث عن المرأة واطاراً لمعرفة التعاليم الحقيقية – لا الخارجية – بالنسبة للمرأة وعندئذ فقط نتمكن من فصل العادات عن الاحكام ومن معرفة الاحكام الثابتة وتمييزها عن الاراء المرحلية .

رأي القرآن في المرأة : القرآن الكريم على خلاف جميع الآراء الفلسفية والمذهبية والعادات التي كانت قبل وحال نزوله وعلى خلاف كثير من الآراء والعادات المتأخرة – القرآن يحدّد المرأة ويعتبرها مثل الرجل في الحقيقة وفي الذات[١] ثم يعلن انها تشارك مشاركة جوهرية في تكوين الطفل وليست ممرّاً لانجاب الرجل ولا حقلاً لبذره[٢] وقد جعل الله النبي محمداً بالذات شاهد صدق على هذا الموقف حيث جعل نسله من فاطمة وردّ على من سماه ابتر بعد موت ابراهيم ابنه من مارية القبطية[٣] في السنة الثانية من الهجرة .

ويؤكد القرآن في كثير من الآيات هذه المساوات ويُكرّر عبارة (بعضهم من بعض) ثم يسنُّ قوانين لاحترام نفس المرأة وطرف المرأة [٤] ولاحترام عمل المرأة مادياً[٥] ومعنوياً[٦] واقتصادياً[٧] وسياسياً[٨] ويؤكد

---

(١) ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً . قرآن كريم .

(٢) يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .. قرآن كريم .

(٣) انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر أن شانئك هو الابتر . قرآن كريم .

(٤) الطرف في مصطلح الفقهاء أجزاء الجسد مقابل النفس يعني الحياة ، فالدية والقود والقصاص ثابتة بالنسبة للرجل والمرأة على تفصيل مذكور في الكتب الفقهية .

(٥) من المحرمات الكبيرة فرض عمل على الرجل وعلى المرأة حتى من زوجها او منع الرجل او المرأة من العمل وحجز حريتها او حرمان العامل او العاملة اجرتها .

(٦) ... اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى . قرآن كريم .

(٧) للرجال نصيب مما كسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن . قرآن كريم .

(٨) يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله ولا يسرقن ولا يزنين ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن . قرآن كريم .

حترامه لقرابتها في الميراث[١] واعترافه بجميع حقوقها في جميع شؤون الحياة[٢].

ولا نجد في جميع الآيات القرآنية ما يمنع المرأة من التصرف في اموالها حتى بعد الزواج [٣] او يسمح بفرض الزواج عليها دون رضاها [٤].

والآيات التي تضيف المرأة الى الرجل لبيان الاحكام او التقدير او المواعظ او العبر كثيرة جداً دون ان تقلل من مقامها او تحتقرها او تعتبرها اقل شأناً من الرجل[٥].

وفي خصوص الحياة الزوجية ولاجل صيانة الزوجة وعدم وصول الحياة المشتركة بين الزوجين الى مأزق وحتى يمكن البت بالامور العائدة الى شؤونها المشتركة جعل للرجل على زوجته، دون غيرها من النساء، درجة وذلك بعد أن أكّد – تماثل الحقوق والواجبات' في الآية الكريمة « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وهذه الدرجة هي التي عبّر القرآن الكريم عنها في مكان آخر « الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا ».

---

(١) للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل او كثر نصيباً مفروضاً. قرآن كريم.

(٢) ولهن مثل الذي عليهن.

(٣) لا يزال بعض القوانين في العالم المعاصر وفي البلاد المتحضرة يحجر على المرأة بعد الزواج في ما لها.

(٤) وحق الوالد في زواجها الاول حق استشاري وليس له فرض الزواج عليها ثم ان الوالد اذا عضل ومنع البنت من الزواج مع وجود المصلحة والكفاءة يسقط حقه.

(٥) من عمل صالحاً منكم من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حيوة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.. قرآن كريم..

ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين لفروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً.
قرآن كريم.

والمتعمق في دراسة القرآن الكريم يجد ان الفروق التي يثبتها بين الرجل والمرأة تكرّس المساواة الذاتية وتولي الاهتمام العادل بامرهما على حد سواء فالتفاوت في الاحكام وفي الواجبات والحقوق انما يرجع الى التفاوت في الكفاءات بينهما والى اختصاص كل منهما ، في اكثر الاحيان ، بنوع خاص من الاستعداد يختلف عن الآخر .

فالمرأة بمقتضى خلقها الجسدي والروحي تصلح للامومة ولتربية الطفل وهذه المهمة اعتبرت اهم بناء في الاسلام بموجب الحديث النبوي [1] .

ان هذه المهمة التي لا تقل تأثيراً عن أي مهمة حياتية اخرى ، حيث انها تصنع الفرد وهو قوام المجتمعات ، ان هذه المهمة تتناسب مع المرأة ، فالاسلام ينصحها بتحمل هذه الرسالة دون ان يفرض عليها [2] ثم يحاول تهيئة الجو المناسب لها لكي تتفرغ لاداء هذه المسؤولية فيفرض على الرجل ان ينفق عليها تسهيلاً لمهمتها .

ويعوّض على الرجل بمضاعفة حصته في الميراث لحصتها حتى تتحقق العدالة وحتى لا يكون المال « دولة بين الاغنياء منكم » على حد تعبير القرآن الكريم .

ويبني الاسلام على اساس هذا الاختصاص وهـــذه الممارسة سائر احكامه فيحكم بقبول شهادة المرأة في اطار عملها واختصاصها مثلاً .

اما موضوع الغطاء في الاسلام فليس المقصود منه تحقير المرأة او حبسها او التفخيم والتمجيد الزائد لها ، كما كان متعارفاً عند بعض الشعوب ، بل انه سلاح للمرأة ومنع لطغيان الانوثة على المرأة لئلا يتغلب هذا الجانب على جميع كفاءاتها ، ان هذا القصد واضح في الآيات القرآنية التي تمنع الخضوع في القول

---

(١) ما بني في الاسلام بناء احب عند الله من الزواج . حديث شريف.

(٢) فليس الزواج واجباً عليها ولا اداء هذه المهام مفروضة عليها حسب التفاصيل المذكورة في كتب الفقه .

او الضرب بالارجل في المشي او التبرج او ابداء الزينة [1] .

والحقيقة ان ابراز مفاتن المرأة يؤدي الى طغيان جانب الانوثة على وجود المرأة فيحوّلها الى لوحة فنية فقط . إنّ هذا احتقار لها وتنكّر لكفاءاتها وتقليل لعمرها ولوقتها وفرصها الغالية وعلى الاخص فان هذا الامر يؤدي الى حرمانها وحرمان المجتمع من اتقانها خدمة الامومة .

هذه هي المعالم الرئيسية لموقف الاسلام تجاه المرأة وعلى هـذا الأساس يمكننا معرفة العادات وتمييزها عن الاحكام ونتمكن ايضاً من اكتشاف الروايات التي تستعرض وضع المرأة في مرحلة تاريخية معينة .

وقد بذل رسول الله جهداً متناهياً في رفع مستوى المرأة التي كانت تعيش في عصره والتي كانت تحمل تبعات الاضطهاد الماضي الطويل وعقده وفي تحسين نظرة الناس اليها ـ فقد اعتبر ان « خير الاولاد البنات » وان « احسن الناس احسنهم لزوجته » وان « المرأة محببة عنده من الدنيا كالصلاة » وان « النساء أمانته في امته » .

واعتقد أن ما نقل عن الامام علي عليه السلام حول المرأة مما جعل بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم (يعتبرونه) عدو المرأة . نظير قوله « المرأة شر كلها وشر ما فيها انه لا بد منها » او قوله « النساء عيّ وعورة فاستروا عيّهن بالسكوت وعورتهن بالبيوت » وأمثال ذلك ان هذه العبارات على افتراض صدورها عن الامام ؛ انما هي من قبيل القضايا الخارجية على مصطلح الاصوليين ، تعبر عن وضع المرأة في مرحلة تاريخية معينة .

وللامام كلمات وحكم اخرى تنطبق تماماً على ما استنتجناه من القرآن

(١) الآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة نذكر بعضاً منها « فلا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » و « ولايضربن بارجلهن ليبدين مـا يخفين من زينتهن » و « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » و « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » .

الكريم . وهو في بعض الاحيان يحاول ان يعطي تفسيراً رائعاً عما كان شايعاً بين الناس من الامثال حول الامرأة فحينما يسمع المثل الشايع « ان النساء ناقصات العقول ناقصات الحظوظ ناقصات الايمان » يفسرها بمثل ما شاهدناه من التعاليم القرآنية من التفاوت في الميراث والشهادة وبالتفاوت في اداء بعض الفرائض في حالات خاصة وهذا الاسلوب هو موقف تربوي رائع نجده ونجد مثله في حياة النبي والأئمة وفي حياة الزهراء عليهم السلام .

٤ — سرد موجز

ولدت فاطمة بعد مبعث الرسول الأكرم بخمس سنوات اي قبل الهجرة بثمانية سنوات وهي آخر اولاد رسول الله من خديجة ولدت في مكة وفي بيت الوحي والجهاد وفي اجواء الصبر والصمود وتحمل المشاق وترعرعت في غمار العواطف الصادقة والحب الطاهر المتبادل بين رسول الرحمة وبين خديجة التي ما نسي النبي عواطفها واخلاصها طوال حياته .

هاجرت بعد رسول الله من مكة الى المدينة مع الأخريات من اهل بيت النبي وبرعاية علي بن ابي طالب والتحقوا جميعاً بموكب الهجرة في منزل قبا بالقرب من المدينة .

وتزوجت من علي بن ابي طالب في السنة الثانية من الهجرة وهو في الثالثة والعشرين من عمره يعني حينما بلغت العاشرة[١] وقد أكد النبي لاصحابه أن تفضيل علي من بين الخاطبين الكُثُر لفاطمة ، كان بنصيحة من الغيب ولعدم رضاها بغير علي . لقد رضيت به دون سواه بالرغم من محاولات كثيرة بذلها

---

(١) هذا هو المشهور في روايات آل البيت وهو اقرب الى السيرة المتبعة من استحباب الاسراع في تزويج البنات . حيث ان عمر فاطمة وقت زواجها من علي حسب هذا النقل يكون عشر سنوات وبموجب النقل الثاني عن ابن عباس ، وهو ولادتها قبل البعثة بخمس سنوات ، يكون عمرها حال الزواج عشرين سنة . اما استغراب الحمل والولادة في السنين المتأخرة من حياة خديجة فيرفعه امكان حيض المرأة القرشية والنبطية الى ستين سنة وهذا اصل مشهور بين الفقهاء .

النساء في المدينة حيث نصحن فاطمة بعدم الاقدام على الزواج من عليّ لفقره ولانصرافه للجهاد المستمر ولصلابته في ذات الله .

عاشت مع علي ثمان سنوات حياة مثالية هي عنوان الحيـــاة الزوجية وانجبت له الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم ومحسن الذي اجهضته بعد وفاة ابيها في الاحداث المؤلمة التي حدثت آنذاك .

وتوفيت بعد ابيهـا باشهر قليلة ودفنت في مكان مجهول حسب وصيتها كما وأن دفنها وتشييعها حصلا سراً وفي الليل تنفيذاً لرغبتهـــا . وبعض الآثار التاريخية والأحاديث المأثورة تؤكد أن قبرها في احـد الاماكن الثلاث : في البقيع او في بيتها الملتصق، في زماننا هذا، بقبر النبي او في الروضة الشريفة التي هي بين محراب الرسول وقبره والتي تتميز الآن باعمدة خاصة .

اما عمرها فيبلغ ثمانية عشرسنة واشهر وهو عمر قصير ولكنه مثال كامل شامل لحياة المرأة التي يريدها الله ويسعى لتحقيقها دين الله .

أن التعاليم الدينية تحتاج الى نماذج من البشر يجسدونها ويحققون تنفيذها تحقيقاً كاملا لكي يخرجوها عن الفرضية المثالية (ايديالية) ولكي لا يكون للناس على الله حجة .

وحينما أراد رسول الله أن يباهل (والمباهلة ابتهال الى الله لكشف الحقيقة بعد عدم اقتناع الخصم بالحجة وقد كانت الوسيلة الناجعة الاخيرة في دعوة الانبياء وفي نصرة الله للدين الحق) وأمر بذلك بموجب الآية الكريمة : (قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعـل لعنة الله على الكاذبين) فاصبح الرسول الأكرم في مقـــام عرض الأبناء والنساء والانفس الذين يمثلون رجال الاسلام ونساءه وابناءه ، عند ذلك اختار علياً وفاطمة والحسنين معلناً بذلك ايمانه بالحق وبتمثيل هؤلاء لدينـــه تمثيلاً كاملاً .

فلندرس بصورة موجزة هذه المرأة — فاطمة الزهراء ـ التي هي المثال الصحيح للمرأة المسلمة بعد هذا السرد المقتضب لحياتها .

٥ — أم ابيها :

ان فاطمة الفتاة تحاول أن تشارك في جهـــاد ابيها فتسعى مخلصة لسد الفراغ العاطفي الذي كان يعيشه الرسول بعد ان فقد ابويـه في اول حياته وهذا الفراغ كان يزعج النبّي وينعكس على قلبه الرهيف المشتاق الى الحب .

ان الرسول كان بحاجة الى عطف الام ورعايتها في حياته وفي عمله الشاق المضني وفي مواجهة بيئته القاسية بالنسبة اليه وقد وجد هذا كله في فاطمة .

ان التاريخ لا يحدثنا الا نتفاً عن هذه المواقف الامومية التي كانت تصدر عن فاطمة بالنسبة للرسول ولكنه يُؤكد نجـــاح فاطمة في هذه المحاولة التي اعادت الى محمد الاكتفاء العاطفي الذي ساعده دون شك في تحمل الاعباء الرسالية الكبرى .

ان التاريخ يؤكد هذا حينما ينقل تكراراً عن لسانه « فاطمة ام ابيها » وحينما نرى انه كان يعاملها معاملة الام فيقبل يدها ويبدأ بزيارتها عند عودته الى المدينة ويودّعها وينطلق من عندهـا الى الاسفار والرحلات وكأنه يتزوّد من هذا النبـع الصافي عاطفة لسفره .

ومن ناحية اخرى نجد ان احساس النبي بالابوّة كان يتجسد في صلاته مع فاطمة وحينما أُمِرَ الناس بان يخاطبوا محمداً برسول الله ونفذت فاطمة هـذا الأمر ، منعها رسول الله وطلب منها ان تخاطبه « يا أبه » .

ونلاحظ في سيرة الرسول الاكرم كثرة دخوله عليها في حالات تـَعَبه وآلامه او حينما يجرح في الحروب او حال جوعه او فقره أو دخول ضيف عليه ، ثم تقابله فاطمة الام ترعاه وتحتضنه وتضمد جروحه وتخفف من آلامه

وتقابله فاطمة البنت تخدمه وتطيعه وتهيىء له ما يحتاج اليه وهكذا نجـــد دورها العظيم في حياة رسول الله .

٦ – زوج علي :

يقول علي عليه السلام : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآني ضحك ثم قال: ما جاء بك يا ابا الحسن قال: فذكرت له قرابتي وقدمي في الاسلام ونصرتي له وجهادي فقال : يا علي صدقت فانت افضل ممّا تذكر فقلت يا رسول الله فاطمة ، تزوّجنيها . فقال يا علي انه قـــد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها فرأيت الكراهة في وجهها ولكن على رسلك حتى أخرج اليك فدخل عليها فقامت فاخذت رداءه ونزعت نعليه وأتته بالوضوء فوضّأته بيدها وغسلت رجليه ثم قعدت فقال لها يا فاطمة فقالت لبّيك لبيك حاجتك يا رسول الله قال ان علي بن ابي طالب من قد عرفت قرابته وفضله واسلامه واني قد سألت ربي أن يزوجك خير خلقه واحبهم اليه وقد ذكر من امرك شيئا فما ترين فسكتت ولم تُولّ وجهها ولم ير رسول الله فيها كراهة فقام وهو يقول الله اكبر سكوتها اقرارها .

فأتاه جبرائيل فقال يا محمد زوّجها علي بن ابي طالب فان الله قد رضيها له ورضيه لها قال علي : فزوّجني رسول الله ثم أتاني فأخذ بيدي فقـال قم بسم الله وقل على بركة الله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وتوكلت على الله ثم جاء بي حتى أقعدني عندها ثم قال اللهم انها أحبّ خلقك إليّ فاحبها وبارك في ذريتها واجعل عليها منك حافظاً واني أعيذهما بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

بهذه البساطة تمت مراسيم الزواج وقـــد جعل عليّ درعه مهراً وُصرفت قيمته لتجهيز البيت فاشترى بهـــا الطيب وقميصاً بسبعة دراهم وخماراً باربعة دراهم وقطيفة سوداء خيبرية وسريراً مزمّلاً بشريط (اي ملفوف بخوص)

وفراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف وحشو الاخر من جز الغنم واربع مرافق من ادم الطائف حشوهـــا اذخر وستر من صوف وحصير هَجَري ورُحى لليد ومخصب من نحاس وسقاء من ادم وقعب (كاس من خشب مقعر) للبّن وشنّ للماء ومطهرة وجرّة خضراء وكيزان خزف . وهكذا تم التجهيز وقبض المهر .

وانتقلت فاطمة الى بيت عليّ المؤلف من غرفة واحدة كانت لام سلمة زوجة النبي وصعد علي على ربوة هناك ونادى: اجيبوا الى وليمة فاطمة فاقبل الناس واشتركوا في فرحة آل بيت الرسول .

وبدأت فاطمة حياتها الجديدة في بيت علي فكانت تقوم بواجبات البيت فتطحن وتعجن وتخبز وكان علي يشاركها في خدمات البيت فكان يكنّس البيت في بعض الاوقات ويحلب العنز ويحتطب ويستقي وقد قضى رسول الله بينهما فوزّع عليهما خدمات البيت فجعل لعلي مـــا هو في خارج الباب ولفاطمة ما دونه .

وانجبت له الاولاد وكانت تقوم بتربيتهم وخدماتهم حتى تضايقت لكثرة الأعمال ولقيامها وحدها بها رعاية لفقر علي وكرمه .

وراجعت حسب طلب زوجها رسول الله لعـــله يساعدها على استخدام خادمة تعينها على بعض الاعمال وسمعت أباها يعتذر عن ذلك ويذكرها بفقر الناس وكثرة اصحاب الصُفّة اصحابه الفقراء الذين لا يملكون مسكناً ولا قوتا كافياً .

وبعد فترة معينة تحسنوضع الامة فيها ، استجاب الرسول لطلبها وارسل لها خادمة فوزعت الخدمات البيتية بينها وبين الخادمة فيوم لها ويوم لخادمتها دون تفاوت .

وأنهت فاطمة حياتها ملخصة تصرفاتها الزوجية في جملة تخاطب بها علياً

معتذرةً مودعة « يا بن عم : ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتك » ثم تموت مطمئنة حينما تسمع علياً يقول لها « معاذ الله انت اعلم بالله وأبرّ واتقى وأكرم واشدّ خوفاً من الله ان أوبخك بمخالفتي. قد عزّ علي مفارقتك » .

هذه النصوص اوجزتها هنا وهي تغنيني عن البحث والايضاح حول حياتها البيتية .

٧ – في طلب العلم :

إنّ فاطمة لا تكتفي بما هيأ لها بيت الوحي من المعارف والثقافات على كثرتها ولا تقتصر على الاستنارة العلمية التي كانت تهيىءلها شموس العلم والمعرفة المحيطة بها من كل جانب . لا أنّ فاطمة تريد أن تكدح في طلب العلم ولا توفّر جهداً في سبيل كسب هذا الشرف . لذلك نراها في لقاءاتها مع رسول الله ومع علي ، باب مدينة العلم ، تحاول امتصاص العلوم والمعارف بكل وسيلة وبمختلف الأسباب والطرق .

ومن اجمل هذه الوسائل ؛ ارسال ولديها الحسنين الى مجلس الرسول منذ طفولتها بصورة دائمة ثم استنطاقها بعد العودة اليها والسؤال عما يجري من سؤال وجواب ووحي هناك وبهذه الطريقة كانت تحرص على التقدم الثقافي المستمر لنفسها مع تشجيع ولديها وتربيتها العملية لاستيعاب كامل للمعارف والعلوم بحيث يتمكنان من نقلها .

هذا الجهد المتواصل في طلب العلم رغم الاوقات والطاقات التي كانت تبذلها فاطمة في سبيل اداء واجباتها البيتية ومسؤولياتها العامة ؛ هذا الجهد جعلها من كبريات رواة الحديث وحملة السنة المطهرة . وكان عند ابنائها الائمة المعصومين كتابٌ كبير لها باسم مصحف فاطمة ينقلون عنه كثيراً ويتحدثون عنه باعتزاز .

وقد رأيت هنا انا كتفي بنقل خطبتها الشهيرة التي ألقتها بعد رسول الله وبحضور كبار اصحابه في المسجد حيث أنها صورة رائعة عن عمق تفكيرهـا الاسلامي واتساع ثقافتها وقوة منطقها ورفعة ادبها بالاضافة الى ان الخطبة في حد ذاتها صوت الحق والجهر به وهذا جهاد اكبر :

الحمد لله على ما انعم ، وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بمـا قدم ، من عموم نعم ابتداها ، وسبوغ آلاء أسداها ، وتمـام نعم والاها ، جمّ عن الإحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء امدها ، وتفاوت عن الإدراك ابدها ، واستدعى الشكور بأفضالها ، واستحمد الى الخلايق بأجزالها ، وثنى بالندب الى أمثالها ، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الاخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها . وأنار في التفكر معقولها ، الممتنع عن الأبصار رؤيته ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا إحتذاء أمثلة امتثلها ، كوّنها بقدرته ، وذرأها بمشيئته من غير حاجة الى تكوينها ، ولا فائـدة له في تصويرها ، الا تثبيتاً لحكمته ، وتنبيهاً على طاقته ، واظهاراً لقدرته ، وتعبداً لبريته ، وإعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، واشهد أن ابي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله اختاره وانتجبه قبل أن أرسله ، وسمّاه قبل أن اجتباه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه، اذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأوهام مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله بمآل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله إتماماً لأمره ، وعزيمه على إمضاء حكمه ، وإنقاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقاً في أديانها ، عكـّفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله بأبي محمد ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلى عن الأبصار غممها ، وقام في النـاس بالهداية ، وانقذهم من الهواية وبصرهم بالعماية ، وهداهم الى الدين القويم ودعاهم الى الصراط المستقيم .

ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ، ورغبة وإيثار . فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم عن تعب هذه الدنيا في راحة ، قد حف بالملائكة الابرار ، ورضوان الرب الغفار . ومجاورة الملك الجبار ، صلى الله على ابي نبيه وأمينه على وحيه وخيرته من الخلق ورضيّه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

انتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله على أنفسكم ، وبقية استخلفها عليكم كتـــاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع بيّنـة بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلياً ظواهره ، مغتبط به أشباعه ، قائد الى الرضوان أتباعه ، مؤدٍّ الى النجاة استماعه ، فيه بيان حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة . وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبه ، ورخصـــه الموهوبة وشرائعه المكتوبه فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك . والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ، ونمـــاء في الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة في العمر ، والقصاص حقنا للدماء ، والوفاء بالنذر تحريضاً للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن الخمر تنزيهـــاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرّم الله الشرك اخلاصاً له بالربوبية فاتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون ، واطيعوا الله في ما امركم به ونهاكم عنه ، فإنما يخشى الله من عباده العلماء .

ايها الناس ، إعلموا اني فاطمة وأبي محمد ، أقول عوداً وبداءً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً .

قد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عَنِتّم بالمؤمنين رؤوف رحيم ،

فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزى اليه . فبلّغ صادعاً بالنذارة ، مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم ، آخذاً باكظامهم ، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يكسّر الاصنام وينكث الهام حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر وحتى تفرّى الليل عن صبحه ، وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقدة الكفر والشقاق ، وفهتم بكلمة الاخلاص في نفر من البيض الخماص . وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطىء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون الورق ، أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فانقذكم الله بأبي محمد بعد اللتيا والتي وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ، وبردة اهل الكتاب ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله أو نجم قرن للشياطين ، أو فغرت فاغرة من المشركين ، قذف اخاه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها باخمصه ، ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في أمر الله ، قريباً من رسول الله ، سيد أولياء الله مشمراً ، ناصحاً مجداً ، كادحاً . وأنتم في رفاهية من العيش وادعون ، فاكهون آمنون ، تتربصون بنا الدوائر ، وتتوكّفون الأخبار ، وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال .

فلما اختار الله لنبيه دار انبيائه ، ومأوى اصفيائه ، ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين ، وهدر فينق المبطلين فخطر في عرصاتكم ، وأطلع الشيطان رأسه من معرزه هاتفاً بكم ، فالقاكم لدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً ، واحمشكم فالقاكم غضاباً فوسمتم غير ابلكم وأوردتم غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لمّا يندمل ، والرسول لما يقبر ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

فهيهات منكم، وكيف بكم وأنّى تؤفكون ، وهذا كتاب الله بين اظهركم ، أموره ظاهرة ، واحكامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، قد خلفتموه وراء ظهوركم . أرغبة عنه تدبرون ، أم بغيره تحكمون ، بئس للظالمين بدلاً ، ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، ثم لم تلبثوا إلا ريثما تسكن نفرتها ويسلس قيادها ثم اخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها ، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي ، واطفاء نور الدين الجلي ، واهماد سنن النبي الصفي تسرون حسواً في ارتغـاء ، وتمسون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشا والآن تزعمون أن لا إرث لي من أبي ، أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون، افلا تعلمون؟! بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية إني ابنته .

ويهاً أيها المسلمون أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً . أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ يقول : رب هب لي من لدنك ذرية يرثني ويرث من آل يعقوب وقال وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . وقال يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين وقال: ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين ، وزعمتم أن لا حظوة ولا إرث لي من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي ؟ أم تقولون اهل ملتين لا يتوارثان . أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة أم انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ونعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم يا معشر الفتية واعضاد الملة وانصار الاسلام ما هذه الغميزة في حقي والسّنة

عن ظلامتي أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابي يقول المرء يحفظ في ولده . سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا أهالة ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول . أتقولون مات محمد ؟ فخطب جليل استوسع وهنه ، واستنهر فتقه ، وانفتق رتقــه ، واظلمت الارض لغيبته وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته ، واكدت الآمال ، وخشعت الجبال ، وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته ، فتلك والله النـــازلة الكبرى ، والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل فناؤه في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً ، وتلاوة والحاناً . ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله بكم فصل وقضاء حتم وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مـــات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين .

ايه بني قبلة أأهضم تراث ابي وانتم بمرأى ومسمع ومنتدى ومجمــع تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة ، وانتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون وانتم موصوفون بالكفاح ، معروفون بالخير والصلاح والنخبة التي انتخبت والخيرةالتي اختيرت لنا اهل البيت ، قاتلتم العرب وتحمّلتم الكد والتعب وناصحتم الامم وكافحتم البهم فلا نبرح وتبرحون ، نأمركم فتأتمرون حتى اذا دارت بنا رحى الإسلام ودرّ صلب الايام وخضعت نعرة الشرك ، وسكنت فورة الإفك وخمـــدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين فأنى حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام ، واشركتم بعد الإيمـان ، بؤساً لقوم نكثوا أيمـانهم وهمّوا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة . أتخشونهم والله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين . ألا قد أرى أن قد اخلدتم الى الخفض وابعدتم من هو احق بالبسط والقبض . وركنتم الى الدعــة ونجوتم من الضيق بالسعة فمججتم ما وعيتم ووسعتم ما تسوغتم فإن تكفروا انتم ومن في الأرض

جميعاً فإن الله لغني حميد . ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ولكنها فيضة النفس ، وثبة الصدر ، ونفثة الغيظ وتقدمة الحجة فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر ، نقبة الخف ، باقية العار موسومة بغضب الله وشنار الأبد ، موصومة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله مـــا تفعلون ؟ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأنا ابنة نذير لكم بين‌يدي عذاب شديد فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون .

* * *

اما التشكيك في صدور هذه الخطبة عن فاطمة الزهراء فهو كالمناقشات الجارية حول نهج البلاغة تصدر غالباً عن استغراب مجرد عن المستندات وطرق نقد الحديث والتاريخ .

والخطبة هذه نقلت بعشرات من الاسانيد الموثوقة وقد وردت في كتب قدماء الاصحاب وكانت من‌النصوص التي يرويها مشايخ ال ابي طالب ويعلمونها ابناءهم حسب نقل كتاب بلاغات النساء لابي الفضل احمد بن ابي طاهر .

والكتب التاريخية ومسانيد الرواة والكتب الفقهية منذ القرون الاولى تنقل فقرات منها حسب الحاجة للاستناد والاستشهاد .

والخطبة هذه تشتمل على احتجاج شديد حول اغتصاب فدك . ولفدك هذه بحث آخر والحقيقة انها كانت وسيلة لاهداف اخرى تتخطى الجانب المادي . فاغتصابها كان جزءاً من سياسة العزل والأفقار استعملت تجاه علي ابن ابي طالب زوج فاطمة بعد وفاة الرسول وهذا الهدف يبدو بوضوح في محادثة جرت بين عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي فيما بعد وبين بعض ابناء فاطمة حول تحديد فدك حينما أراد الخليفة اعادتها اليهم .

اما المطالبة والاصرار عليها والاحتجاج بهذه الصورة العلنية القوية ، فهي نوع من الإدانة امام الرأي العام وللتاريخ صيانة للحق الصريح . حتى ولو كان الانحراف صادراً عن كبير المسؤولين في الدولة .

٨ – الجهاد المتواصل :

لقد لاحظ القارىء خلال سطور هذه المقدمة نماذج من جهاد فاطمة في بيت أبيها وفي بيتها وفي مواقفها الإيجابية والسلبية تجاه الاحداث العامة وحتى في وصيتها حيث جعلت من سرية دفنها وإخفاء قبرها سندين لاعتراضها على الوضع العام .

وقد اشتركت فاطمة في مقدمة النساء المسلمات في الحروب التي خاضها المسلمون دفاعاً عن عقيدتهم وصيانة لكرامتهم وحريتهم . وقامت بدورها ، الدور الذي كان على المرأة المجاهدة في ذلك العصر ، من ضماد الجرح وغسل الثياب وتمريض الجرحى وتحضير كافة وسائل الحياة في الحرب .

ولكنها ـ أي فاطمة ـ لعبت دوراً بارزاً وشاقاً في نصرة الحق والدفاع عن وصية الرسول حينما كانت تقوم بزيارات سرية لأصحاب الرسول تشجعهم على الوقوف بجانب علي بن أبي طالب عليه السلام وقد وقفت بشكل لا مثيل له وبصورة حادة ، حسب نقل المؤرخين ، مع علي في احرج ايام حياته مؤكدة ان الجبهة الداخلية في حياة علي صامدة لا تشعر بالضعف ، ولكنها تترك تقدير الظروف وانتخاب المواقف لقائدها وزوجها الإمام يقرر ويُصمّم ويأمر فيطاع .

وسيرة فاطمة تتحدث أنها في كل غداة السبت كانت تأتي قبور الشهداء وقبر حمزة وتترحم عليهم وتستغفر لهم . وهذه البداية لاعمال الاسبوع تفصح عن مدى تقدير فاطمة للجهاد وللشهادة وتعبّر بوضوح عن حياتها العملية التي تبدأ بالجهاد وتستند على الجهاد والتضحية الى درجة الاستشهاد .

٩ – فاطمة في المحراب :

يقول الحسن بن علي سلام الله عليهما : رأيت امي فاطمة قامت في محرابها

ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء .

وفي سيرتها أنها كانت تخصص الساعة الاخيرة من نهار الجمعة للدعاء .

وانها في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك لا تنام الليل وتُحرّض جميع من في بيتها باحياءِ الليل بالعبادة والدعاء .

وانها كانت تشكو من تورم في قدميها لكثرة وقوفها بين يدي ربها خاشعة ومتهجدة .

وهل خرجت فاطمة في حياتها كلها عن المحراب وهل كانت حياتها كلها إلا السجود الدائم .

فهي في البيت تعبد الله في حسن التبعل وفي تربية اولادها حيث « ان مسجد المرأة بيتها » وهي في قيامها بالخدمات العامة كانت تطيع الله وتعبده في خلقه الذين كلهم عيال الله واحب خلقه اليه انفعهم لعياله .

وهي في مواساتها للفقراء وللمتعبين والمعذبين كانت تقوم بعبادة الله بنفسها وبأهل بيتها حيث انهم كانوا حسب نقل القرآن الكريم « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً » حين كانوا « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » والغاية على لسانهم وفي قلوبهم « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » صفحة من حياتها وركعة من صلاتها .

١٠ – الكوثر :

مات في السنة الثانية من الهجرة النبوية ابراهيم آخر ابناء الرسول الثلاثة وبذلك بقي الرسول بلا عقب حسب المنطق الجاهلي . وبدأ الشامتون المنافقون يفرحون وينتظرون موت رسالة محمد مع موته . حيث أن الرسالة

في زعمهم كانت وسيلةً ومُلكاً وأنّ الولد الذكر هو دون الانثى استمرارٌ لشخصية والده وبقاءٌ لجده وذكره وقد فقد محمد اولاده الذكور وهو يعيش في العقد السادس من عمره .

ولكن الوحي الالهي اوضح خطأهم وزيف منطقهم وأعلن : ان اعطيناك الكوثر . فصَلِّ لربك وانحر ، ان شانئك هو الابتر .

فالرسالة باقية والاسلام خالد ومجد محمد مقترن مع مجد الله وذكره يملأ الأبد وذريته هم حفظة الرسالة واعلام الهداية والشامت المنافق هو الابتر .

وفاطمة هي تجسيد للكوثر فذرية الرسول منها وأبناؤها هم الائمة المعصومون ثاني الثقلين اللذين تركهما محمد في امته وجعلهم لا يفترقون عن الثقل الاول ، القرآن الكريم ، يصونونه ويضحون لأجله والثقلان هذان ، الكتاب والعترة استمرار لوجود محمد ورسالته ووسيلة لسلامة سير الأمة في الخط الصحيح دون الانحراف والضلال وهذا الشأن الفاطمي العظيم ورد على لسان رسول الله في اماكن مختلفة فقد قال ذريتي من نسل علي وفاطمة . وقال الحسن والحسين ابناي امامان . وقال اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ، وانهما لن يفترقا حتى يردا علي .

وقد قامت بنتها زينب بدور مصيري في إنجاح حركة الحسين ، لإعادة روح الاسلام الى الامة وللقضاء على الظلم والاستعباد والانحراف عندما كانت تتحكم باسم الاسلام وما بقي من الاسلام الا اسمه . ومواقف زينب وخطبها وشعاراتها وجهادها وعلمها صورة حيّة عن فاطمة وهكذا نجد فيما قدمنا وفي غيره مما لا يسعه هذا المختصر ، نجد الكوثر العظيم الذي اعطاه الله لنبيّه .

* * *

هذه هي فاطمة ، ابنة اعظم نبي ، وزوجة أعز امام وبطل وأم أينع برعمتين في تاريخ الإمامة التي يقدم فيها الاستاذ الكريم سليمان كتاني كتابه الأدبي الملون الذي هو فيض إشراقة لأطهر وجه عرفه تاريخ الاسلام .

فلنتابع – مع هذه الريشة المغموسة بالطيب وباللون – قراءة الكتاب على مهل مكتشفين مع كل صفحة لوحة فنية رائعة نستشف ضمن خطوطها ومن بين كل ظل من ظلالها وجه فاطمة الزهراء مشرقاً وضاء وعفيفاً سنياً .

صور – موسى الصدر

تكوينُ الإطار

عناصر البحث :

نبذة .

تاريخ ـ اجتماع ـ ما قبل الاسلام .

الشرارة الاولى ـ خديجة .

الامين محمد ـ القافلة ـ بعث واحداث .

الجهة الجانبيّة ـ بيت عليّ .

الجهة المعارضة ـ السقيفة .

فدك

ختام البحث .

نُبْذَة

كيف يفيد الحديث عن فاطمة الزهراء ، ان لم يلجـأ الى نبذة تاريخيّة اجتماعيّة ، لا تطال فقط الفسحة التي امتدّت بين ساعة ابصرت فيها النور وساعة انطفأت فيها ، من عينيها ، لمعة الحياة ، بل وتمتدّ بشمولها الى تاريخ الجزيرة قبل مولدها ، وتتجاوز اليوم الذي غيّبها في ضريح ، حتى الساعة الحاضرة .

ليس الشمول في البحث – على هذا الطراز – شرطاً من شروط كتابة كل سيرة ، فهنالك من تكتب فيه السيرة محصورة في فسحـة عمره ، وقد تحصر في فاصل معيّن من هذه الفسحة ، كان فيها بروز صاحب السيرة بشكل فذّ حقّق لفت النظر اليه وجدارة الاهتمام به . وهنالك من لا تكتب السيرة فيه الا في اطار مشدود بماضيه وحاضره وما ياتي بعده من زمن . تلك هي عبقريّة الافراد يربطون حياتهم بحبال التاريخ ليغيّروا وجه التاريخ .

وفاطمة الزهراء – ان لم تكن من اولئك الافراد – فهي على الاقل – ابنة نبيّ – هزّ – ليس تاريخ الجزيرة وحسب – بل جذور الفكر في الانسان وقفز به فوق الاجيال ، وهي زوجة رجل – هو الاخر قطب من اقطاب الفكر ، وخط من خطوط الاصالة ، وركن من اركان الحقّ ، وامتداد لاعظم عبقريّ جدل النور في قران .

وليس ذلك ليكفي – فهي انجذاب بين قطبين – عبّت من الاول كما عبّت من الثاني فاذا نهجها في الحياة امتداد لنهج مرسوم .

وكان لها ــ من كرم الخالق ــ جمال ، هو انعكاس لكل ما فيها من عقل وطيبة وصفاء ، ولكل ما فيها من جاذبيّة وايحاء ، فاستأثرت بحب أعظم اب وحب اعظم قطب ، فانحصرت فيها ذريّة ابيها لتكون ذخيرة يتوارثها كل جيل عن جيل .

ذلك كان جوّها ــ عاشت فيه ، وشعّت عليه ، وامتدّت به ، وعبّرت عنه فكراً وانتاجاً . لقد غدت خطاً في الرسالة التي انطلقت ثورة واصبحت هي من لونها ، وستتبرّك بها الاجيال ، حتى إذا قامت ــ فيما بعد ــ دولة في مصر ــ اخذت من اسمها ما تيمّنت به . فالدولة الفاطميّة ، والجامع الأزهر ، يمن بها وفيض تبرّك . ولن ينسى الإسلام ــ خاصة في شيعته ــ انها كانت اعز من احبّ النبي ، وانها ام لأشرف نسب .

لذلك دخلت التاريخ ، ولن تكون لها سيرة بغير استدراج صفحات التاريخ .

تاريخ - اجتماع

ما قبل الاسلام :

إن البيئة التي ولدت فيها فاطمة ، لم تكن تحترم المرأة ، فتاريخ الجاهلية ينبو فيه وأد البنات ، وما ذلك إلا لهزال الرابطة الاجتماعية التي لا تكون قوتها غير مظهر من مظاهر العمران والازدهار الاقتصادي ، وهذا ما كان يفتقر اليه مجتمع الجزيرة . فالارض التي فتحت على ابعاد شاسعة كان يخنقها الشح ويضنيها القحط ، فكان مجتمعاً مشروراً – هنا وهناك – قبائل قبائل، لا يضبطها نظام اقتصادي مدروس ولا توجيه فكري موحّد ، فاعتمدت على الغزو والاختباء في طيّات الفيافي اكثر مما كان عليها ان تعتمد التنظيم في توجيه اقتصادها مستوحية العقل والعلم . وكان لها في الجوار ما يوفّر لها الاقتباس، فهنالك – ما بين النهرين ، وعلى طول الخط المؤدّي الى الشام والاردن وسواحل البحر الابيض – كانت تعتز مدنيات مجتمعات قوية وناهضة في اعتمادها على نفسها واستنبات الخيرات من أراضيها وتنظيم تياراتها الفكرية ومعاولها الاقتصادية .

ولقد انفتح – منذ القديم – هذا الجو من الجوار امام هجرات قوية ومتعددة من الجزيرة ، لم تجن الجزيرة منه إلا قليلاً ، واستمرّت تصدّر هجراتها ، ولبث من بقي فيها على الاستمرار في الانماط المألوفة، يمارس بعض

الزراعات الخفيفة ، ويجمع بعض العطور والاطياب في تجاراتـه المعتادة التي كان يجهّز لها بعض القوافل الموسميّة .

وكانت الهجرات تنهب من رجال الجزيرة دون نسائهم ، وكان الغزو ايضاً يقلّل من هذا العدد ، فظهر اختلال في هذا المجتمع بالعدد النسبيّ بين الرجل والمرأة ، بحيث اختلّ تكوين الخليّة الاجتماعيّة التي لا تجد قوامهـا الا في الجنسين المترافقين المتلاحمين ، فكان الوأد حلاً من الحلول التي ما عدّلت خللاً حتى عطّلت قيمة فكريّة اجتماعية ، كان في فقدانها ذيّاك الانحطاط .

ولقد شمل الانحطاط جميع مرافق الحياة ـ زراعية ـ اقتصادية ـ فكرية ، فلم تنشأ أيّة زراعـة متطوّرة ، ولم يتبدل سير القوافـل ، ولم يتغير نمط التجارة ، وبقي النزوح عينه النزوح ، والغزو ذاته الغزو ، وبقيت الكعبة نفسها الكعبة ، تتربّع في زواياهـا حجارات منحوتة بغير هندسة ، وبقي الخلاف في تحديدها اياه الخلاف ـ أهي نصب ام انها اوثان ؟ ـ وبقيت رابعة الاثافيّ وحدها رابعة الأثافيّ امام كل خيمة مهجورة او وتد منسيّ .

كل ذلك قد كان ومـا لبث مستمراً حتى جاءت على الخط قافلة الامين محمد ، فتوقف التاريخ بالقافلة ليجعلها حداً فاصلاً بين عصرين ـ عصر الجاهلية وعصر صدر الاسلام .

* * *

الشرارة الأولى ـ خديجة ـ

ان القافلة التي اعترضت طريق القوافل هي قافلة خديجة ، ما سارت إلا لتتوقف ، وما توقّفت إلا لتنطلق ، لقد تغير فيها مركز القيادة .

وخديجة بنت خويلد ، هي الشرارة الاولى في الثورة الاجتماعية التي قلبت الاوضاع ونقضت القديم .

لقد تلقـّطت بيديها – بزمامين – بيمناها زمام ، وبيسراها زمام، بهذين الزمامين توقفت قافلتها على المفرق الفاصل بين عصرين .

لقد ذاقت مرارة الوأد ، ثم تذوّقت نشوة الانبعاث – انها خديجة بنت خويلد ، من اشراف قريش ، ومن اصبح نسائهم وجهاً وانبههن ذكاء .

كانت صغيرة لما سيقت الى زواج باكر من « عتيق بن عابد » وسريعاً ما بتر الموت هذا الزواج فسيقت الى زواج آخر تقدم به منهـــا شريف يدعى « ابا هالة » ورزقت منه ولداً أسمته « هنداً » ، ثم عـاد الموت ففصم عروة الزواج الثاني ، فتوقفت خديجة عن تلبية العروض في تكرار زواجها ، وكان رفضها بمثابة ضريبة ادتها عن نفسها تعويضاً عن زواجين سابقين لم يكن لهـا فيهما كبير شأن .

ومرت الايام ، وفي يمناها زمام جاهلي ، تقوده على طريق مكة – الشام، بقافلة جاهلية المولد – جاهلية الرحل – جاهلية العير – جنت منها ارباحـاً طائلة لم تكن غير جاهلية .

وبدا لها في الطريق جبين وضّاح – فيه من العزم اكثر مما فيه من الفتوّة – وفيه من الجد ابلغ مما فيه من السكون ، فرأت تلاميحـــه واستبشرت بفك رموزه ، واقدمت – دون ان يثنيها قنوط الاربعين – واستسلمت دون ان يؤثر عليها أيّ اعتبار .

وكان لها ما أرادت ، فتزوّجت بملء حرّيتها ، مكسّرة من حولهـــا طوق التقاليد .

وكان الزوج الجديد ، الفتى الامين محمّد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي – فتى في الخامسة والعشرين ، لم تدخل – حتى الساعة – امرأة في حياته ، وسيم الوجه – هادىء الطبع – بريء القسمات – عميق السكون – وكان من بيت كريم له في مجتمعه مكانة الزعامة .

وكان الزواج مثار همس ولمز : امرأة تخطب ورجل يتلقى العرض ... ما هكذا توزن كرامات البيوت وامجاد بني هاشم ... انثى ليست لها الحرية بنسبة ما لها الوأد ... بريق الذهب يعمي البصيرة ... الى آخر ما توصلت اليه معازيف تلك البيئة المشدودة بحبال التقاليد .

الامين محمد ـ العائلة ـ البعثة ـ أحداث

ولقد كان ، بين خديجة ومحمد ـ قبل الزواج ـ ما يشبه الاختبار والامتحان ، فهي ـ قبل ان تقدم ـ جعلته في قافلتها ، ثم انتظرت الوقت يبلور حسّها ويجيب عن حدسها .

وما كان الوقت إلا ليفرض الحقيقة ، فالامين محمد ، الذي مشى تلك الفيافي ذهاباً واياباً ، عدة مرات ، هو الذي خبر القبائل مشرورة على طول وعرض هذه الرقعة الغارقة تحت الخيام والاطناب ، تزحف مع كلّ غبار ، وتنساق وراء كلّ سراب — شاهد حجارة الاثافيّ ونصب الاصنام .

لقد مرّ على « يعبوب » جديلة طيّ ، وتوقّف طويلاً امام « ذي الشرى » صنم « دوس » — ولم يتردّد عن زيارة « ذي الخلصة » — كعبة اليمامة ، ليكون فيما بعد للنبيّ حديث فيه : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة » ، اشارة الى ردّة العرب الى جاهليّتهم بعد اسلامهم .

وسيشهد حريق « ذي الكفّين » صنم بني ملهب يحرقه الطفيل بن عمرو وهو يقول :

يا ذا الكفّين لست من عبادكا
ميلادنا اكثر من ميلادكا
انّي حشوت النّار في فؤادكا .

وسيناجي وداً « ملياً وهو واقف أمام تمثاله المتقلّد السيف والمتنكّب القوس — ولسوف يهيب بخالد بن الوليد ان يكسّره بعد غزوة تبوك .

اجل — لقد مرّ الامين محمّد علىهذه القبائل وشاهد بعينه كل ما يغرقون فيه من فقر وسخافات ، ولقد غاص معهم بكل تأملاته غوص المدرك المتألّم لنفس الانسان تنحطُّ عن درجة العقل المتبصّر المتروّي .

ولقد زار الشام وكلّ الدائرة المطلّة على المتوسّط ، وخبر فيها الحياة الاجتماعيّة : ماديّة — اقتصاديّة ، وفكريّة — روحية ، وتأمل واستوعب وقارن .

لقد خبر بنفسه كل مجالات الجزيرة ، من اول تاريخ هجراتها وتدفّقاتها الى الساعة — ولقد ادرك ان هذه الارض التي قدمه عليها الآن — قد اصبحت امتداد مجهود شعب قد اختلط حابله بنابلها فامتزج بقرابة تاريخية وبتوحيد مصير .

ورجع بالقافلة على تصاميم ومناهج ، ستتبلور قريباً — في غار حراء — رجع ليعرض على خديجة ربح القافلة ، بعد ان كان اميناً على ما حمل .

ولكن خديجة ، التي كانت ترمي بتجارتها ، كما تُرْمى الحصاة في بئر — سبراً لغور — ما همّها ربح جزيل اكثر مما همها الاكتشاف الخطير : فلقد تكشّف لها انها امام رجل لا تنمّ قسماته عن نبل اكثر مما تطلّ على شفق وان قافلتها التي جعلته فيها ستذوب حتماً فيه .

وفعلاً — لم يتم الزواج ، إلا لتصبح خديجة وما تملك ، ليس بين يدي الامين محمد ، بل ليصبح الاثنان وما يملكان ، وقفاً على تأدية رسالة ستعرّيهما من كل اثقال التراب ، ليعيشا — رغماً عن ثروة ثقيلة — في فقر وحرمان ، تحقيقاً لفكرة وتدعيماً لإيمان .

وانطوت العائلة على نفسها ـ تنجب الاولاد تقديساً لمشيئة الحياة، وتنجب الفكر ، تأليهاً للسمو ـ هنا في الزوايا ، درجت فاطمة بعد ام كلثوم ورقية بعد زينب ـ وهناك ـ في غار حراء ـ كانت تفتح الكوّة يطل منها وجه جبريل ـ وهنالك قبائل لا تزال تزحف نحو ديدنها ، تأكل الغبار وتشرب السراب ، وتنام في الاغلال ...

ما توقفت قافلة خديجة ـ ولكنها تتريّث. انها تستعدّ لانشاء قافلة كبيرة ـ وهي الآن تجلو صوت حاديها ، ليغمر الجزيرة وآفاق الجزيرة . لقد تألفت النواة ـ يكفي القافلة الجديدة فتى يتهيأ ـ ليس عمره سبعاً، بل سبعة دهور.

لقد ربي عليّ في هذا الكنف ـ أخذه محمد ـ يا لسخاء الاقدار ـ ليخفف العبء عن كاهل عمّه ابي طالب المعيول .

نطحته العبقرية بقرن فذرّ بها قرنه ـ وامتصّ كل ابن عمه بكل صمت وكل هدوء ـ فاذا هو ظلّ لا يفارق وطيف لا يماري ـ ليصبح ـ فيما بعد ـ سيف الرسالة ودويّها . لم ينحصر دوره في الفسحة التي عاش فيها ـ لان النبيّ زوّجه من أعز بناته ـ فاطمة الزهراء ـ ليكون له من ذرّيتها صلب ميراثه وامتداد قيمومته على رسالة وجّهها الى أهل الارض .

وكان للبعث قذفة ارتجاج في جوّ مكة، اول ما سمع صداها في الكعبة ـ « رادار » تلك الايام ـ فهبّت ضجة قلقة تستفسر الخبر : ـ بيت يفتش عن زعامته ، جنون يتلقط بالغيب ليعكسه حقيقة ...

وكانت خديجة ـ في صمتها ـ تصغي ـ انها بداية الساعة في تحقيق المبهم المرتقب ، انها الوصول الى الكنز الذي ذابت ـ في التفتيش عنه ـ ثروة .

وخفق قلب فاطمة ـ وهي ترنو بوسع حدقتيها الى الساحة التي يلعب فيها ، ابوها الكبير ورفيقها البطل ـ لعبة الخلود ... وانطوت على نفسها توسّع ضلوعها امام قلبها الخافق .

وكانت ردّة الفعل، ولّدها ذعر السدانة، وتجاوبت بها زعامات القبائل، لقد هب ابو سفيان يضغط على ابن ربيعة ليردّ زينباً الى البيت الذي خرجت منه ، وهكذا فعلت « ام جميــــل » اذ سلخت « رقيّة » عن « عتبة » و « ام كلثوم » عن « عتيبة . لتعودا من زواجها الى ابيها - ارهاقاً له ، وعرقلة لمسيره . لقد رمت « ام لهب » كل حقدها في وجهـــه : بذاءة من لسانها وشوكاً على دربه .

هذا هو الطراز الذي قوبلت به الرسالة ساعة بثّها – وبمثل هذه الخشونة فوجىء الوجه الوليد على كفّ القابلة ...

ولكنّها رسالة – تحمل الحقّ – تحمل النور – تحمل الصواب – تحمل الشوق – تحمل الايمان .

لهذا تحملت التشريد في هجرتين تمكنت فيها من لمّ شعثها ، وكان لها – على يد الصحابة والانصار شدّة ازر ولفّة ساعد وشملة ميعاد .

وعادت تزيح اشواك « حمّالة الحطب » من دربها – وكان من المع ابطالها الفتى عليّ وسيفه ذو الفقار .

وتخطّت الدرب ، عبر « بدر » ، عبر « احد » ، عبر « خيبر » ، عبر « مكة وهوازن » وعبر الكعبة تتحطّم فيها ضلوع هبل .

واشرأبّت نحو الجوار ، قافلة تحمل الاجيال على كفها، مآذن وفتوحات.

* * *

لقد رسمت للجزيرة خطوط عريضة تعلّمها: كيف تأكل، كيف تشرب، وكيف تنام، تعلمها كيف تصنع من الغبار زهرة، وكيف تستقطر من السراب قطرة ندى، تعلمها كيف تضع في محجر « هبل » عيناً لها بؤبؤ وريشة هدب، تعلمها كيف تسير الى الشام ونحو الكوفة على حدو الشوق والحنين ، يحمله حبّ الانسان للانسان، وتحمله قيمة الفكر مبسوطة على سجف من الوجدان.

* * *

والتفّ رجال الصحابة ورجال الانصـــار حول النبي العظيم لينفض عن اكتافهم غبار الماضي ويثبّت أقدامهم فوق المفارق — ولقد شدّهم بالعقل ، واستوثقهم بالمعرفة ، وربطهم بالارض بالرباط الذي يليق بالاحرار ، وافهمهم كيف يعيشون ، وكيف يتزوجون ، وكيف ينسلون ، وكيف يحيون ، وكيف يموتون ، وكيف يحشرون .

ولقد عاش معهم مجسّداً في نفسه القدوة والمثال - قولاً وعملاً — فكراً وايحاء ... قال لهم : — كلوا — وأكل - اشربوا — وشرب — عفّوا — وعفّ — تزوجوا — وتزوج — أحبوا — وأحب — أعدلوا — وعدل — لا تغتروا بالدنيا — ولم يغتر — انفقوا في سبيل الله — وأنفق .

لهذا لم يترك الدنيا إلا بعد أن خلع عليها رداءه ، ولم ينزل في قبر إلا بعد أن سحب منه كساءه .

ومات النبي وهو تلك الكثافة .

الجبهة الجانبية — بيت علي —

على الجبهة الجانبية من هـذا العرض ، نتتبع نشوء بيت آخر ، هو فرع من البيت النبويّ ، وهو انطباق عليه لأنه انبثاق منه — إنّه بيت عليّ .

رجل كان ربيب النبيّ — من صلبه — ابن عمّه — من معدنه : عقـــلاً وانجذاباً ، ميلاً واستجابة ، عملاً وتطبيقاً .

أمن المصادفات ؟ ام انـّه تدبير يجهل العقل كنهه ؟ كان وجود هذين القطبين في وقت واحد ، ليكون للجزيرة العربيّة انبلاج شفق وتحقيق تاريخ؟

ولقد تساندا متكافلين في كل انجاز ، ولقد ادرك النبيّ ذلك تمام الادراك ، فالقى على ابن عمّه أثقال القضيّة ، وناطه بكلّ جليل .

امّا فاطمة الزهراء ، فهي التي خُصّت بها عليّ ، كانتها التدليل على عمق محبّة النبيّ له وايثاره ايّاه ـ لان محبّة الاب لابنته فاطمة كانت فريدة من نوعها ـ كانت فوق درجة الوله .

ولقد تضافرت العوامل لتزيد هذا الوله تمتيناً وتعميقاً — فالنبي الحريص على رسالته لم يجد لها — من صلبه — من يتقيّم عليها بالرعاية من بعده ، ويمتد بها من مصير الى مصير . أما علي القريب القريب ، وفاطمة النجيبة النجيبة ، فهما اللذان يكون منهما حبل الرباط .

واشتد الوثاق ـ ان الحسن والحسين ارهفا شعور النبي حتى اصبح يشمّ فيهما عبق الجنة .

تلك هي العترة الطاهرة ، عائلة النبي ، اهل الكساء ، المطهرون من كل رجس ، ذريته ، اوصياؤه ، احب الناس اليه ، الخط الطويل من بعده .

* * *

وتشابهت ، فيما بين هذين البيتين ، مسالـك التأسيس ، وتساوت سبل المناهج — فكان هذا طباق ذاك . يكفي الطباق تجانساً فهم الرسالة والتعبير عنها قولاً وعملاً — فلقد عاش علي حياته ممدود الكف ممدود الساعد — بذلاً ودفاعاً ، ولقد توفرت له الدنيا فلم يأخذها إلا بتقتير ، وحيـاً من عقيدة وتجسيداً لقدوة . ومثلما القت خديجة ـ بين يدي محمـد — ثروة لا لتؤكل ، بل لتصرف على قضية ، هكذا توصلت اليه ـ عبر زوجته فاطمة ـ نحـلة « فدك » ، لا لتؤكل ايضاً ، بل لتصرف على ذات القضية ، ومثلما كان ما بين يدي النبي مفتاح ثروات الجزيرة ، فلم يقبل إلا ان يعيش ويموت فقيراً ، هكذا توصّلتْ الى علي مقاليـد الثروات ، ليس من الجزيرة وحسب ، بل حتى من اطراف امبراطورية طافحة بالذهب ، ولم يقبل الا ان يعيش ويموت وهو يخصف نعله ويرقع مدرعته ، ومثلما تزوّجت خديجة رجلاً

احبّت فيه طيفاً خلف عينيه ، هكذا تزوّجت فاطمة رجلاً احبّته طيفاً في عين أبيها .

* * *

وعاشت فاطمة تحت ظلّتين: ظلّ ابيها وظل حليلها،وعانقت ريحانتين – الحسن والحسين – ذريّة لرجلين – نبيّ وامام ، وعانقت رهافتين – رهافة الجسم ورهافة الحس ، واختبرت عصرين – عصر الجاهليّة وعصر الانبعاث ، واحبت أباها حبّين – حب البنوّة وحب الامومة ،وصهرت بمصهرين – مصهر الفقدان ومصهر الحرمان .

بهذه الازدواجية عاشت فاطمة الزهراء ، صابرة على مكاره الدهر،اقتناعاً منها بصدق قضيّة يلزمها الكثير من التجسيد وحسن الاخراج – ولقدجسّدتها كما جسدها ابوها وزوجها بحبـــل طويل من الرضوخ والقناعة والاستسلام ، وبسلسلة طويلة من العزم والاقدام والبطولات وبالكثير من التضحيات .

* * *

ولقد رافق ذلك كله شموخ هو انعـــكاس تلك المتانة في النفس تتصلب بالشعور بالحق وصدق الوجدان . فقضيّة « فدك » ارثها عن ابيها ، بلورت فيها هذا الشموخ بكل انواعــــه ، وما كانت مطالبتها بالارث الا تعبيراً عن هذا الشموخ في تفلّته من عنصر الخوف والاستكانة .

ولقد قطعت شوطاً بعيداً بهذا الدفاع عن حقها ، لا لتصرفه على نفسهـا وبيتها لذّة وترفيهاً – لقد كان يأنف خطها هذا الترفيه – بل لتصرفه في سبيل تمديد القضية ، قضيتها وقضية زوجها وأبيها .

وما كان ابو بكر الصديق – ومن خلفه عمر بن الخطاب – إلا ليجابهـــا امرأة تحرمها الجاهلية حقّ البروز ، وحق التمرّس بكل أنواع البطولات – لولا ان الاسلام أمّن لها هذه الجلوة ، ولولا ان في فاطمة الزهراء عنفوان

النفس التي تتخطّى الحواجز. ـ ولما كان لأبي بكر ان يتردد في ارضاء فاطمة بحقها ، لولا ان وراء الرفض لوناً سياسياً لخط لا تزال كل جاهليته موفورة .

لمجابهة هذا الخط ، كشفت فاطمة عن معصمها النحيـــل لتخوض معركة جانبية ، عميقة الأسباب ، بعيدة الجذور ، ولم تدع الألم من فقدان أبيهـا ، يؤخرها عن متابعة الصراع ، فكان لصوتها في الحلبة رنـّة ناقوس الدير يهيب بالرهبان الى الصلاة .

وهوت فاطمة في الحلبة ـ بعد موت ابيهـا بقليل ـ وبقي بعدها الخط يسجّل وقع خطاها ـ وبقيت رنـّة الناقوس ـ على نعومتها ـ تتهادى من ظل الى ظل، لتنفجر جهاداً في باحة قصر الخليفة الثالث ـ عثمان بن عفان ـ زوج اختيها رقيّة وام كلثوم ، في زواجها المكرر ـ ولتنعقد ولاء لصاحب الحق الأصيل بالخلافة ـ الامام عليّ .

واستمرّت ساحة الاسلام لا يسلس لجوادها قياد ، يرخيه يمـــين فيجذبه يسار ثم يرخيه يسار فيجذبه يمين ، وراح الجواد من خبب الى خبل ومن خبل الى خبب ، بين تيّارين في مقوده متنافري الجذب متعاكسي الاتجاه ـ مفرق الى الكوفة ومفرق الى الشام ـ معركة في البصرة ورواغ في صفـّين ـ اذان في يثرب ومنجنيق على الكعبة ـ مدّ في الاندلس وجزر في الحجاز ـ انطلاق في مصر وانقباض في بغداد ... ودماء أغزر من دجلة ... وحوار في غبار ... ودموع من سراب .

تلك نتيجة ـ لن يتبرأ منها اجتماع السقيفة ، ولن تحرم من نعمتها قضية « فدك » .

ليت الرسول يوحي :

فتهدم سقيفة بني ساعدة .
ويفنى كلّ يهوديّ في « فدك » .

في الجهة المعارضة ـــ السقيفة

امّا الجهة المعارضة ، فهي القديم الذي رضخ للواقع . وما كان الرضوخ يوماً غير الاستسلام ، ولو ان الاستسلام يشبه الاقتناع لانتهت المشاكل .

والقضيّة التي جدّت في اقدامها واكتسحت بصدق عزمها ، وجدت في المساندين لها هذين النوعين من المناصرين : فئة المقتنعين وفئة المستسلمين . ولا يزال الخط حتى اليوم مقسوماً بين مقتنعين ومستسلمين ـ الفئة الاولى هي التي ترى الحق من اجـــل الحق ، اما الفئة الثانية فهي التي لا ترى اليه إلا من خلال المصالح الذاتية .

ولقد مشى بالاسلام هذان النوعان من التأييد جنباً الى جنب ، وكانا قوّة فعلت فعلها الجبـــار ـ كانا جنباً الى جنب تحت عين القائد الأول ، صاحب الفكرة ورب القضية . ولكنه ـ لمّا ذهب ـ رجع المستسلم يفتش عـــن مغانمه ، وبقي المقتنع يتابع تثبيت مغانم الحق .

وفئة المستسلمين هي الفئة الأشد تنبهاً لكل اقتناص ، لانهـا تكون دائماً في مركز التربص ـ وهكذا حصل ، فما كاد النبي يغمض عينيه حتى كان ابو سفيان ومن لف لفه من الذين ناهضوا الدعوة في مستهلها ، ثم اليهـــا استسلموا ، قد انتهوا من تدبير الخطة التي ما احكمت إلا لتجر اليهم وحدهم كل المكاسب .

* * *

ذلك كان اجتماع السقيفة ـ سقيفة بني ساعدة ـ خرج منهـــا المجتمعون باسناد الخلافة الى ابي بكر الصديق .

انه صحابي له وزن بين اللفيف الذي عاون في انطلاق الرسالة ، ولقد

ربطه النبي اليه برباط قربى – بزواج – ان عائشة ، ام المؤمنين الثانية ، هي بنت الصديق ، وهي التي ستقود المعارضة – فيما بعد – ضد ابن عم النبي ، وضد ابنته فاطمة ، سيكون لها شأن في معركة الجمل .

في الساعة التي انتقل فيهـا النبيّ الى الرفيق الأعلى ، ظهرت على المسرح الالوان ، وانقسمت الساحة الى جبهتين : جبهة البيت واهله ومعه الانصار ، وجبهة قسم من الصحابة ذوي الزعامات القديمة التقليدية في تاريخ الجزيرة .

وسيتوالى على الحكم ثلاثة من اولئك الصحابيين قبل ان ينقلب الحكم الى مصلحة الفئة التي انتقل اليهـا دور المعارضة ، وستكون قضيّة « فدك » مفتاحاً من مفاتيح ذلك الانقلاب .

هكذا تبادل الخطّان المنقسمان دروبهما – فالذي كان في البدء مستسلماً اصبح في مركز الاصالة ، والذي كان مقتنعاً اضحى من المستسلمين الراضخين، وبالتالي من فئة المتربّصين .

ان الثورة على عثمان بن عفان كانت نتيجة ذلك التعدّي في ارجاع الخلافة الى اهل البيت .

ولكن الخلاف اصبح من نوع التجـاذب الذي لا ينتهي – لقد لبسته الاجيال سجالاً .

اما الجزيرة التي انطلقت الرسالة منها ولها ، فانها تمزّقت بين خطين : واحد ربطها بالشام وآخر ربطها بالكوفة ، ثم تشعبت خطوط الضغط عليها، لتعود فتتفرق من جديد تحت ضباب ، ولا فرق ان كان من سراب ام كان من غبار ...

فَـدك

في مستهل هذه الضجة التي زعق غبارها برزت قضيـة « فدك » عاقدة على خصرها زنـّار حداد ـ ولقد كان واضحاً خط الضغط فيها .

انها نحلة من الرسول لابنته فاطمة ـ وهي مقاطعة يهودية ، صالـح النبي أهلوها بتقديمها اليه ـ هبة دون حرب ـ فحققـّت له صرفـاً . لم يشرع في سبيلها حسام ، ولم ترق عليها نقطة دم ـ لذلك ليس للجهاد حق عليها .

قد يخلق الاجتهاد ما يشاء ـ فلنقل مثلاً : لو لم يكن الجهـاد هو الذي اكسب النبي منعة الجانب ، لما كانت فدك لتصل اليه .

ان في ذلك وجهـة منطق ، ولكن الرسول هو الذي يوصي ـ الرسول عينه ، الذي أغنى الجزيرة بألف فدك ... لماذا لا يحق له ان يوصي ؟ ان يورّث ؟ ـ ثم ان الذي اوصى بفدك ليس النبي ـ انه الاب الذي انجب ... والوارث ـ من جهة تالية ـ ليس نبوة ، انها الابنة التي لها لحم ودم ـ انهـا التي لا تعيش إلا بالخبز والماء ، وبكل حقها من الإرث ...

ثم هنالك الاحترام ـ احترام ذلك الذي كان الملمّ المعمّ ـ ذلـك الذي قسّم الشرع وظهّر الحقوق والموجبات ، ووضع الحدود والمقاييس ، لقدكانت كل كلمة من كلماته شرعاً ، ... لماذا لا يحق له ان يوصي ؟

« كل ما يرضيني يرضي فاطمة »

« كل ما يغضب فاطمة يغضبني »

لماذا الشهود على الوصية في « فدك » ؟ اليست هذه ايضاً وصية تثبت كل وصية ؟ وهذه لم يلزمها اي شاهد ...

لنعد الى الخط التاريخي—وصلت فدك الى يد النبي فأوصى بها الى فاطمة.

مات النبي ، فتوصلت الخلافة الى ابي بكر الصديق في اجتماع السقيفة ، كان غائباً عن هذا الاجتماع علي بن ابي طالب لانهماكه بتجهيز جنازة الرسول.

ما كاد اهل البيت يفيقون من لمة المصاب حتى تكشّفت امام عيونهم خيوط المؤامرة .

مهما يكن من امر — تم السكوت في قضية الخلافة درءا لاي تفسخ يضر بالوحدة .

قطعت فاطمة عن ميراثها فاقدمت تطالب به — في مجلس الخليفة بالذات بخطاب مفند .

طلب اليها تقديم الشهود بالوصية — قدمت شهودها — لم تنجح — دعمت حقها بالارث بكل آية وردت في الكتاب الشريف — في ما يختص بيحيى بن زكريا — اذ يقول :

« رب هب لي من لدنك ذرية يرثني ويرث من آل يعقوب »

او : « وورث سليمان داود » .

او : « وأولو الارحام بعضهم اولى من بعض » .

او : « يوصيكم الله للذكر مثل الانثيين » .

كل ذلك لم يلق اذناً صاغية .

وراحت « فاطمة » تتربص — تحرك المشاعر — وهي النحيلة الناعمة ...

لا اشكّ في انها اصبحت : —

— وترا في غمد —

ـ ختام البحث ـ

تلك إلمامة لم يتوفـّر لها الا الخط العريض – اكان تاريخاً واجتماعاً ام رأياً وتعليلاً .

في مثل هذا الجوّ عاشت فاطمة الزهراء ،متأثرة بمحيطها ، وبهالة وضّاءة غمر كيانها بها ابوها النبي وزوجها الامام .

بهذه الهالة اتـّشحت فانجبت الحسن والحسين – وبهذه الهالة قادت معركة ابيها وزوجها في الساحة التي برز لها فيها ابو بكر الصديق ومن خلفه عمر بن الخطاب – وبفعل هذه الهالة انفرط الكرسيّ من تحت عثمان بن عفّان .

وبقيت لها هذه الهالة في اقصى المغرب واقصى المشرق ، ليكون لها دولة في مصر – فيما بعد بثلاثة قرون – تتيمّن باسمها وتتبرّك .

وهي عينها اليوم – تلك الهالة – توحي لها الاجلال والمحبة والتقدير – فهي سيّدة كل عبق من كل طهر وكل عفاف .

خُطوط

عناصر البحث :

على طريق القوافل .

اكبر القوافل .

قافلة محمّد .

خديجة .

البيت الجديد .

القافلة الجديدة .

دثار .

بعد الانذار .

الرفيق .

رهافة .

المرأة .

على طريق القوافل

والعربة... لم اخط خطوة في صحاريها ـ ولكني اجتزتها بخيالي فانفتحت امام خاطري حرّاتها المحروقة بسيول اللهب ، ونفودها المطروحة الامـــداء كأنها اشباح الليالي الطوال ، أو صرصرات العصور المجدبة .

ولقد انفتحت كل آفاقها على ابعاد مترامية الاطراف ، مغلّفــة الرمول بنشفة موحشة .

كان ذلك منذ البعيد البعيد – منذ انفكّ عن خصرها طوق الجليـــد فانفتلت تغمرها الشموس بدوافق السعير ، لتنتشر فوق صحاريهـــا امواج السراب كانما هي كل احلامها في استدرار الديم .

هكذا ربي الانسان فيها عدّاء وسع فيافيهـا – من حرّة الى حرّة ومن فدفد الى فدفد ، قفزاً على قفز ، طول الليالي ... لقد ملّ السراب معينـاً من ملافح النار – وبئر زمزم لم تتسع ريا – فوهتها – لاكثر من هاجر وابنها اسماعيل – لذلك امتطى العتمات – في كل عشيّة – وراء كل قطرة ندى او مخايلة سحاب .

وكان العراق مهبطاً من اغضّ المهابط... واذا القيلولة تنبسط من شطآن دجلة والفرات لتتوسدكل خميلة تزهو على ضفاف بردى او تحت بواسق الغوطة .

وامتد حبل القوافل من مكة الى الكوفة ـ الى شنعار ـ الى الشام والتيماء والبتراء : تخرج بالعبير وتعود بالحرير ...

واعتاد ابن الجزيرة شدّ الرواحل ـ وراح ينقل اسفاره صـــوب تلك المراوح. لم يكن ذلك سأما اكثر مما كان توقاً الى غصن ظليل ونسمة عليلة ـ اكثر مما كان حاجة لتطوير حياة جمّدتها الاغبرة في نطاق الرتابة ، وهصرتها الشموس تحت الخيام والاطناب ، ولفحهـا الشح برجفان السراب وقحط السحب .

والحق يقال : ان كل تطوير في حياة الجزيرة كان بفضل هذا الجوار الذي انفتح امام زحوفات القوافل في مدود ارتحالية ومداورات تجاريـــة طويلة الامد ـ سبقت زحوفات الفرس واليونان والرومان ، قبل ان يكون لهؤلاء كيانات اجتماعية منظمة الروافد ـ قبل ان يهبط ابرهيم بهاجر واسماعيـــل ويتركهما فوق الارض التي انفجرت منها بئر زمزم ـ كان ذلـك مع اولى لمحات التاريخ ، مع اول انسان تمكن من خرق الخط الرملي الكثيف ، مـع تلك العهود الاكادية ـ السومرية ـ الكنعانية ـ العمورية .

هكذا كان ابن الجزيرة يفيض فيهجراته ـ على ظهور القوافل ـ في موجة اثر موجة ، نزوحا ورجوعا : مع العرب البائدة من ملوك حمير وبني كوش وقوم عاد وقوم ثمود والعمالقة ـ ومع العرب العاربـــة من بني قحطان وحضرموت ـ ومع العرب المستعربة بابرهيم واسماعيل وعدنان .

وهكذا رسمت خطوط القوافـــل على طريق الحجاز وعلى طريق البحر الاحمر وخليج العقبة الى ايلات ومن هناك الى صور وصيدا والى طول الشاطىء الفينيقي القديم تحت عين حيرام ملك صور .

وهكذا كان ينتقل ، من الحجاز واليمن : البخور والطيب والمر والعود واللؤلؤ ـ وموجات من الانسان ... ويدخل اليها الذهب والقصدير والعاج وخشب الصندل والابنوس وريش النعام ـ ويدخل معهـــا الفكر ملقّحاً بثقافات تعبت في نحتها أجيال الانسان ومدنيات مجتمعاته .

ففي الجوار كانت مدنيات السومريين الاكاديّين يتوارثها الاشوريون

والبابليون والكنعانيون ـ الفينيقيون،ليعكسوها على قبائل الفرس شرقاً وعلى قبائل اليونان والرومان في غربي المتوسط .

واشتركت القوافل في نقل هذه التراثات من قواعدهـــا برّاً على متون الرواحل وبحراً على خشبات السفن .

وامتزجت القبائل المهاجرة من الجزيرة بالعائدة اليهـــا في خط تم فيه الاختلاط والامتزاج والالتحام ، مما اضفى على العروبة اطاراً موحداً لكل هؤلاء الذين اندمجوا في خط تاريخي بعيـــد الغور ، سحيق المدى ، وثيق التفاعل .

لهذا جاء الفتح في صدر الاسلام – تحمله القرابة – سهلاً هيّناً . وحيث كانت القرابة اكثر وفرة كان القبول بالاسلام اكثر يسراً .

على الخط الذي كان يصل مكة بالشام كانت القافلة الكبيرة تسير ـ قافلة خديجة . .

اكبر القوافل

وكانت على الخط قافلة خديجة — لم تكن الاولى بين القوافل ، لا بجودة رحالها ولا بانتظام سمتها .

ولطالما نظم عقدها « ميسرة » فعرج بهـا على يثرب ليمسح عن اوراكها اوحال الغبـار وينفض عن كتفيه وعثاء السفر ، ليعود فيستأنف السير في قلب البوادي على حدو اصم ناشف الخـف يابس الوتر ، لينكب في وادي سرحان مستأنساً بنسيمات رطيبة تنزلق اليه على طول هذا الساحل المتاخم للبحر الاحمر ، ليشرف — بعد طول عناء — على البواسق الغوطية والخمامل السندسية التي تفترشها بلاد الشام .

أجل لم تكن قافلة خديجة القافلة الاولى بين مكة والغوطة او بين مكة والعراق ، فطالما شاهد وادي الرمّة وبريدة نجد خطوط القوافل منساقة على حدو رتيب تساجلته اودية الجزيرة واستعذبته اذان الابل .

ولكن قافلة خديجة هي القافلة التي ستصبح عين القوافل ، هي التي ستفقه معنى الانفتـاح — هي التي ستنتقل بالاحتكاك من مفهومه التجاري المادي المحدود الى انطلاقه الخيّر الواسع المفتوح — الى المـدى الرحب — الى المدى الأرحب الذي يوسّع أجواء الجزيرة .

اجل ، أجواء الجزيرة — الجزيرة بالذات ، الواسعة ، المفتوحة ، الهائمة الحدود ، المترامية الاطراف : من خليج العدن ، الى الخليج الفارسي ، الى خليج العقبة ، من حضرموت ، الى الاحقاف — الى الربع الخالي، الى الدهناء،

الى الحجاز ، الى تيماء النفود ... مع كل ما فيها وما عليها من عشائر وقبائل وانماط عيش ووراثات تقاليد .

كل ذلك الوسع كان اضيق من ان يجمع شعباً ويسبغ عليه لوناً مجتمعياً سمح الاهاب رتيب القيافة .

وتغيّر لون القافلة ـ لقد بقي فيها « ميسرة » ليمشي في عيرها ـ امـــا الامين محمد ـ فلقد حل فيها ليشعل النار في اوتادها ، ليحرق اطنابهـــا على الدروب ، ليذريها رماداً في سماء الجزيرة ـ قطرات ندى فوق احقافهـــا ونفودها ودهمائها ـ ليصبح صوت « بلال » قرار الحدو بين حداتها .

قافلة محمّد

والتهبت قافلة خديجة : بلفتة عين ـ بهمسة قلب ـ بومضة روح ـ بشعاع ما لمس سلكه حتى سطع وهجه ـ بشعور ما لمح حسه حتى اجّ سعيره .

وانتدب محمد لقيادة القافلة ... ما عرّج على يثرب ـ الا ليأخذ حفنة من التربة التي امتصت رفاة ابيه ـ هنالك ثوى « عبد الله » وهو يقود قافلة مكة صوب المناهل ـ ولكنه مات صديانا ، والى مكة لم يرجع .

ثم مشى محمد ، وهو يعرف كيف يمشي ـ ومشى معه التوق والايمان ، واختفى من امامه السراب في ظل غمامة ، لقد امتصت الحفنة التي في يده ـ من بقايا ابيه ـ اوهام الرحيل واعباء الطريق ، لقد ادرك في مثوى ابيه سر الشهادة ...

لقد تمكّن من هضم العناء في السير الطويل ـ ان الجزيرة التي مشت ـ منذ آلاف السنين ـ على درب القوافل ، لم تجن قط ثمرة اتعاب المسير على حدو الرواحل ـ ذهبت في عطش ولم تؤب مرة على غير عطش .

أما « ميسرة » فسيظل في يده مقود عير القافلة ، وسيبقى مشدوهاً بين يدي رجل مشى الخط الطويل ولم يتعب ، لان « ميسرة » الذي كان يمشي بقدميه واوصاله هو غير « محمّد » الذي كان ينتقل بفكره وخياله .

وسيعود « ميسرة » الى مكة عطشاناً ـ لان ما دفعه الى السير من مكة كان ثقل السراب ، اما « محمّد » فان السراب كان تحت قدميه لما مشى ،

وسيعود بكل غمامة تمحو من جو الجزيرة اظلال السراب .

ولقد وجد في جو الشام سراباً ـ فوق بردى وفوق شواطىء الاردن لمح السراب ... لقد مات عيسى مخنوقاً فوق صليب ، من وطأة السراب هذا تنفخ به في الجو غطرسة روما ... لقد كانت العبودية في الشام ذيَّـــاك السراب ... شهد له بذلك ـ على الطريق ـ الراهب « بحيرا » .

ورجع « محمد » ـ يلقي بين يدي خديجة جني القافـــلة ... ورنت اليه بعين ـ وحدبت عليه بقلب ـ وحنت اليه بروح ـ وضمته بشوق ـ لقد ادركت ـ من عينيه ـ تصميم العقل وعزم البطولة .

ورمت تحت قدميه كل ما ردت عليها ـ من قبل ـ اعقاب القوافـــل ، والقت بين يديه احلام المصير .

خَدِيجَة

وقلب خديجة كان يتلفع بالسراب ، على ظمإ في الفكر وفي الروح ، وعلى لوعة الواقف على المفرق الحائر ، وعلى حنين موؤود ، كأنه عناق الخيـال في الكرى او مداعبة الطيف في الخاطر .

تلك احاسيس النفس يحجبها عن مدى الشوق ستار وعن تذوق الحق ازار ... وما كانت التقاليد الموروثة في مجتمع خديجة لتنيلهـا حق التعبير عن مدى الشوق في نفسها الا في نطاق مكبوت كان له الوأد بالمرصاد ان فات الحدود .

هكذا تلقطت خديجة بالافق المبهم تتلهى عن الرجال بشد الرحال وتلجم النهى بمناجاة السهى .

وفي اللحظة التي وجدت فيها منطلقاً للإرادة كسرت الطوق وثارت على التقاليد وكان لها من الحق ما اعتصمت به على الاقدام والتحقيق .

كان ذلك صادقاً في نفسها وفي ايمانها ، لذلك كانت لها قوة الاقناع لانه كان لها من ايمانها كل الاقتناع .

هكذا يتعين الحق اذ يترسخ الايمان به ، ولن يلوى عن الحق عنان اذا دل عليه صدق الايمان .

لقد خفق الحب في قلب خديجة وفيه من الصدق مدافق ، وفيه من الحياة تعابير الحياة عن نفسها من صدق الوجدان وصدق العقل وصدق الارادة .

لقد فجّر الحبّ في قلب خديجة عقلٌ وسّعته التجارب فاصبح في وجودها تلك المصفاة التي تتنقى فيها العواطف من املاح الجسد ، لهذا كان حبها في غمرته نقياً صافياً ، لانه حب لم ينزلق الى القلب من الشرايين الا بعد ان مرّ على العقل في مصافيه ، وهذا هو الحب الذي يخلد في غمرته .

هكذا احبت خديجة محمداً : ملامح نور لا ملافح نار – رجاحة عقل لا غضاضة عود – احبته بعقل الاربعين لا بغفلة التسع ولا بنزوة العشرين ، احبته في ارادة التعبير ، فانساقت هي اليه ولم تسق – ولكل امرأة في تنسيق الزواج – بين ان تسوق نفسها وبين ان تساق – بشير سعادة او نذير شقاء – تلك هي حرية الارادة ينبثق منها صدق الميل وصدق التعبير في انشاء العقد الاجتماعي الصحيح الجذور .

وكان لخديجة – من قبل – زواج باكر لم يمتعها الا بارتشاف السراب لانه كان ارادة مشلولة وقلباً موؤوداً – كان في نشفة الحسّ وتعقيم الشعور – كان سوْقاً ولم يكن شوقاً ، كان تسييراً ولم يكن تعبيراً ، كان عادة وتقليداً ولم يكن رأياً وتوليداً ، كان وأداً ولم يكن وقداً – كان وزراً ولم يكن أزراً – كان كسباً ولم يكن حباً .

لهذا وقفت – بعد ان فرط الموت هذا الرباط – حيرى على المفرق التائه ، تعالج قلبها بكف جفّ ملمسها ، وتحنو عليه بعين خفّ لموعها ، وراحت معه تتلهى على طريق القوافل .

واصبح لها على الدرب الطويل رغبة الكاشف وخبرة الدليل ، مع لمح الذكيّ وفطنة النبيه .

وتمت لها – في محمد – هدية القلب الى المعين ، وكان لها من صدق الحس ارتكاز الارادة على عاطفة مجلوّة ، لهذا لم تتردد – في ثورة على التقاليد – واقبلت تعرض هي على محمد – تجسيد هذا الحب ، وصب هذا الحنين في قالبه ، واستمطار هذه الديمة من مجاريها .

وتضاءلت بين يدي حبها الكبير مجاهيد دنياها ، وذاب من تحت عينيها بريق الذهب ، ذلك كان ايمان الحب بالحب ، وذلك كان التجريد الذي اختفى من تحته وهج السراب .

اما الامين محمد — فانه ما استجاب لهذا الحب الذي مرت عليه البواكير ، الا وهو يشعر بان قلب خديجة لم تخفق الا اليوم فيه بكارته ، ولقد خفق معه العقل فتوحدت فيه الخلجتان .

ولم يلمح على جبين خديجة غضون الاربعين ، وفي عينيهـــا كانت تطوف فتوّة الروح وصلابة العزم — وهو الوحيد المدرك ان الجسد ثويّة الروح ولا قيمة له الا بها .

وها هو اليوم — في غمرة شبابه ، وفي ربيعه الخامس والعشرين — ما نقرت على عوده بعد نغمة فيها من الحب المستطاب كالنغمة التي ولجت بها خديجة الى كيانه ، لا بلونها ولا بعمقها : فلقد كانت جريئة كانها البطولة في اقتحام الحصون ، وباهرة كانها لمعان السيف سحب لاول مرة من غمده .

ولقد وجد في هذا الحب ثروة ذابت في كنز ، كانها الهشيم لا يجمع الا ليحرق في كل ليلة هابط ، استجماعاً لدفء او استنارة لقرى .

هكذا القت خديجة — بين يديه ، على بساط هذا الوله — ثروة نبذت قيمتها لتجعلها وسيلة بلوغ الى اهداف ، كأنهـــا الشموع التي لا تذاب الا في اضاءة المحاريب .

البَيْتُ الجَدِيد

ورفّت على البيت الجديد سعادة فيهـا من الندى كل طراوة — وراح السكون يغلّف كل عشيّة وكل سحر .

ودرجت في باحة البيت — على التوالي — ثمرات هذا الزواج الهـاني : من رقيّة الى ام كلثوم ومن زينب الى الوسيمة الزهراء .

وكانت هناك ـ في الركن السموح ـ زاوية كأنها المظلة ـ يدرج فيهـا ايضاً فتى صبوح كأنه بداية الصبح من خلف الافق ـ فتى ضمـه العطف الى كنف ابن عمه ، فربي فيه كما يربو القلب في حنوة الضلوع انه الفتى عليّ .

ومع كل سجوّ اصيل كانت تشهد العشايا انسلال طيف الى غار لا يعـود منه الا في ظل سحابة .

وشب البيت على تلك الرهافة : على دعابة لاهية كأنها البراءة وعلى صمت خافق كأنه الارتقاب ، فكل ما في البيت جوٌ أنيسٌ ، وكل مـا في البيت جوٌ رهيب ، يلمسه الحنان بكف ويُخشعه الجلال بجبين ، يأخذه المحيّا بمرح وتضبطه المهابة بإيحـاء ، فهو جوّ يشبه الافق : قريب من الارض وعن الارض بعيد .

هكذا مُدّ بين هذا البيت وغار حراء سلك مزدوج البطانـة : هذي حرير وتلك أثير .

وعاج بالبيت هذا الحرير ، وغام البيت بهذا الاثير .

وعمق الحب حتى لمعت به العين .

وعظم الاجلال حتى عمق به الصمت .

وعز الوصف فالبيت بيت النبي .

القافلة الجديدة

لقد مات « ميسرة » — خنقته اغبرة الطريق !

وعير القافلة اختبق — بمقوده البالي اختنق !

لقد بقيت هناك بعض النوق باركة تجتر لعابها وتترأم على فصلانها، بانتظار من يهمزها الى سير جديد .

ولن تهمز هذه المرة على الحدو العتيق ، ولن يستشار — في اقلاعها — لا رأي المنجمين ولا ضرب القداح — ولن تلجأ الى اجتناب كل نهار محرور او كل ليل مقرور — ولن تكون موسمية منتظرة او جانبيـــة مبتسرة — ولن يعرّج بها — تيّمنا — بين يدي العزّى او تحت اقدام هبل ، ولن يشد بهـــا حبل من سراب او وتر من تراب — ولن يغذّ السير فيهـــا جهد عقيم او عزم قاحط ..

كل شيء قد اعد للقافلة الجديدة — في غار حراء : لقد شد لهـــا العقل ، والشوق، والايمان — الفكر ، والعزم ، والبصيرة — وتأملات كأنها الغوص ، وانفتاحات كأنها الانعتاق ، واستراحات كأنها الانطلاق، وتصاميم كأنهـــا البطولات ، وعبقرية هي كل الارتكازات

كل شيء تهيأ — لقد هتف النداء :

« ايها المدّثر — قم فانذر »

دِثَار

لقد ارتجف الانسان في محمد — فادثر .

والانسان محمد هو ربيب الجزيرة — يعرف تقاليدها واوهامها ، وكل حساباتها وارقامها .

ليس قليلا — على محمد — ان ينفض الغبار عن كل هذه الصحارى ، وليس خفيفاً عليه ان يخنق كل هذا السراب .

ولم تكن القوافل في الجزيرة الا لتأكل من هذا الغبار على غير شبع ، وتشرب من هذا السراب على غير ريّ .

ان يشبع الجزيرة - من جني الجزيرة — وان يروي الجزيرة من معين الجزيرة — كان عليه ان يصقل الجزيرة بانسان الجزيرة .

ولن يكون العمل الضخم الا على حساب عمر يشحنه بالعزم والتصميم والبطولات .

خاف الانسان فيه فارتجف وادثر .

واستيقظ الروح فيه فهبّ وانذر .

بَعْدَ الإنذار

ان الكوّة التي انفتحت في غار حراء تلقّطت بالفضاء وراحت تربط الارض بالسماء ـ لقد اصبح للجزيرة كتاب يماشيها ويرفع الانسان فيها الى مرتبة ـ لقد تعين الجهاد في سبيل اعلاء قيمة الكلمة ـ تلك الكلمة التي تفسر كنه الحياة في اجل معانيها وروابطها ـ ولقد بدأ الانطلاق مع التصميم المدروس يثير الهمم ويحرّك الحوافز ـ ولقد اخذ الوعي يستشار مع الاستعداد لكل عمل خطير ومع القبول بالتضحيات على حساب اي مصير ـ ولن يقف في الدرب لا خوف ولا قلق ـ ان القضية اجلّ من ان يرهقها الجبن وامتن من ان يجمّدها الخوف واثمن من ان يقيّمها الفقر ـ ان مرحلة الخوف تخطّاها التصميم البطولي ـ ان الوعي النفسي تجلّت قيمته مع كل عزم على التنفيذ ـ لقد رمي الدثار جانباً ـ لقد اصبح مجرد دثار مغزول من وبر الابل ـ ان الذي كان تحت الدثار اصبح قوة انطلاق لا تحتاج بعد اليوم دثاراً يتخبّأ تحته رأس « نعامة » .

« ايها المدثر ، قم فأنذر »

وكان الانذار ـ بإسم الله توحيداً ـ وكان الانذار نزولا الى الساحة الرحبة بذلا وسخاء ـ بذل اعراق ودموع ـ مع السهر الطويل ـ مع التشريد ـ مع الفقر والجوع ـ ومع الصبر الجميل ـ ومع الاحتمال والرضى .

اي شيء سيتمكن من الصمود امام التصميم ـ ان الهجرة الى الحبشة لن تكون غير ارادة ما انسحبت عن الخط الا لتعود اليه مع الايمان المتمكن ومع البطولة المصقولة .

وهبّت الجزيرة تقاوم الزحف المقدس ــ راح المريض يعض يد المداوي ، لقد رفضت العين الرمداء جلوة المرود .

ولكن قوة الحق هي التي فرضت نفسها في الميدان ــ لقد بدأ يرضخ المريض لمشيئة الطبيب ، ولن تكون الهجرة الثانية الى المدينة الا جمعا لشمل وترسيخا لبنيان سوف تشهق من فوقه ذروات المآذن .

* * *

في المدينة المنورة لاقت فاطمة اباها لتمسح عن جبينـــه الطاهر اعراق الجهاد ــ غبار الدروب عبر الصحاري ــ غبار التشريد واتعاب التسهيد لتلقي رأسها الصغير على صدره فتسمع دقات قلبه الكبير ، ولتتيه بابيها كبرا .
لقد تم الانذار وتم التبشير ، واصبحت الرسالة تحقيقاً جمـــع الجزيرة من حواشيها نحو اندفاع ما شهد التاريخ له مثيلاً .

الرَفِيق

نعم الرفيق الفتى الصبوح .

لقد مشى الطريق بعينيه قبل ان يمشيها بقدميه .

شرب السحاب ولما يهم بعد السحاب ، واستمطر الغمامة ولما تكشف بعد الغمامة .

وما كان علي بن ابي طالب ـ في هذه السنين القليلة من عمره ـ اكانت سبعاً أم بلغت تسعاً ـ الا من هؤلاء القلة النادرين الذين يقفزون من فوق عتبات المداخل ، من هؤلاء الذين يؤمّون الحياة بواكير في مواسمها .

ولم تكن العشرة السنّية لتضفي عليه أكثر مما يضفي على المرمر ازميل النحات ، وعلى اللوحة ريشة الفنان ، وعلى الوتر نقرة الموهوب .

وما كان الجو الذي ربي فيه الا ليكون له منه ما يكون للصفحة الصافية من انعكاس النور ولمجوّف الكهف من ارتجاع الصوت .

ولقد ادرك نور محمد اية صفحة صقيلة يداعب ، ولقد ادرك صوت محمد اي كهف عميق يناجي .

لهذا انفتل علي بين يديه كما تنفتل العجينة في يد العجان ، يرقّها بكفه ويخبزها بفرنه .

واصبح علي من محمد : رجع صوت - وانعكاس نور - وخبيز فرن - وركيزة تحقيق - وصدر مشورات - وبيكار هندسة - ومدى انطلاق .

واصبح سيفاً .

واصبح ترساً .

واصبح ارثاً ووسع مجال .

رَهَافة

بينما كانت هناك الاخوات الكبيرات يتقدّمن الى عتبات الحيـــاة ـ ليخرجن ـ الواحدة تلو الاخرى ـ الى مضمار الواقع ، كانت الصغرى فاطمة تودع كلا منهن لتزيد من ولوعها بامها وابيها .

لقد حملت « زينب » الى بيتها الجديد حيث كان ينتظرها المصير المترجرج بين يدي ابي العاص بن الربيع ، وكذلك تقدمت « ام جميل » زوجة ابي لهب وحمّالة الحطب ـ فانتشلت من حضن هذا البيت الكريم « رقيّة » و « ام كلثوم » لتجعلهما في عهدتي ولديها « عتبة » و « عتيبة » : رجلين وصلت اليهما وضاعت سبل المكارم .

وبقيت في البيت « فاطمة » تملأ الفراغ فيه ، لقد غابت عن البيت مآزر وبقي في البيت وشاح .

وراحت « فاطمة » تسرح في البيت الخالي ، تعي وتتأمل ، لقد بقي لها وحدها هذا البيت ، فهي صغيرته ، ولقد اصبحت رابعة ثلاثـــة فيه لكل واحد منهم في قلبها ظل مؤنس ، ولها في نفس كل واحد منهم عطف خصيب.

وعاشت موفورة الدلال ملوّنة العواطف ، مرهفة الحس منزّهة الشمائل ، على انوثة تعهدتها كف امها بشملة الحب المعفّف ، وعين ابيها بغمرة الحنان المطهر ، ورفقة عليّ بخفقة القلب البريء .

وعين ابيها ـ يا لعين ابيها ـ تشرب العطف منها مناهل كأنها الصبيب السكيب من الكوثر .

وغرقت « فاطمة » في حضن ابيهـــا ، بين ذراعيه ، وتحت عينيه : يشمها كأنها السوسنة ، يضمها كأنها الشوق ، يعانقها كأنها الحنين ، يلثمهـــا كأنها البراءة .

لقد تفردت « فاطمة » بالحب العظيم ، اي شيء فيها كان الموحي ؟ اهي الطفولة في براءتها ، ام هي النجابة المتوسمة ؟ .

وكبرت « فاطمة » وتجلت معها براءة الطفولة ، ونما معها الحس المرهف، وتوسعت حدقتاها ، لقد اصبحت تنظر الى ابيها فتراه افقاً وراء افق ،خطاً خلف خط ، غارا فوق غور ، حباً خلفه مدى ، عطفاً دونه عمق ، فكراً خلفه بصيرة ، حكمة وراءها قصد ، جسماً طيه روح .

واصبح حبها لابيها حباً فيه من الاجلال بقدر ما فيه من التفاني،وانطوى عطف منه عليها على عطف منها عليه فاصبح العطفان من معدن واحد .

لم تخب النجابة المتوسمة ـ لهذا كان حب الاب لابنته حباً فريداً ، ولهذا كان حب الفتاة لابيها حباً غنياً ، ولهذا قال الاب الكبير :

ما يغضب « فاطمة » يغضبني

وما يرضي « فاطمة » يرضيني .

وتوالت العوامل فيما بعد على « فاطمة » تشحذ هذا الحس فتزيد رهافته ، ففي الوقت الذي انقلب فيه حبها لأبيها من نطاق حب بنوي الى تقدير بالغ الخطورة ، اصبحت لها عين كالسهم واذن كانها الغور واصبح لها قلب كأنه اللين ، وفؤاد كأنه الوهج البعيد .

لقد تحكم العقل بهذا المعدن ـ فطاب الوجد فيه مع النهى كما يطيب السيف على المشحذ ، وهانت عليها رسالة ابيها ـ لم تبق لغزاً خفياً : فهي رسالة إنْ تؤخذ بالادراك المتبصّر ، فانها تؤخذ ايضاً باللمح الناعم ، ولن تكون

مهمة الادراك لغير جلوة هذا الحس في منبع الشعور .

لهذا انعكس ابوها في وجدانهـــا ، فامتصته في عقلها وعبرت عنه في عاطفتها ، وبفضل هذا الحب ازدوجت لها الحالتان: فهي بنت ابيها في الوقت الذي اصبحت فيه « ام ابيها » ـ وتلك اول تسجيلة حلوة من نوعها تاخذها صفحة ناعمة من صفحات التاريخ .

وعلي ـ بينما كان في المبتدإ مجرد انيس طفولة ورفيق ملعب ، اصبح ـ بعد ان شبّت وشبّ ـ خيالاً لطيف ومرآة لجبين ، لقد اصبحت ترى في عينيه طيف ابيها وظلّ ذياك الجبين .

ولقد كانت تهواه في كل انعكاس بريء الصفاء ـ تهواه في انعكاس عقلهاعلى قلبها ، واصبحت تهواه معكوساً عليه وهج ابيها .

هكذا اصبحت لها جلوات الرؤى وتوجيه الميول ـ لقد اغتسلت شرايينها في تلافيف عقلها ، فانطفأت مجامر الدم في هذا الحنين .

ولن تحب رجلاً لانها لحم ووتر ولانه عظم وعضـــل ، وستحب رجلاً يكون وشاحاً وخيالاً وفكراً وايحاء .

ولن يكون سير القضية التي نفخ بها ابوها على المزمار الا على درب كله شوك وتبريح ، ولن يثبت عليه الا كل بطل له العبقرية سيفوالحس المرهف جناد.

ولقد بدأت طلائع العاصفة تثير الغبار ـ لقد رجعت الى البيت « زينب » من زواج خاسر ، صيغ على وزن اللحم والدم ، وستعود في غد « رقية » و « ام كلثوم » من زواج عقد على الوزن المماثل .

وتلك اضافة اخرى في بطانة القالب الذي كانت تتوسع عليه حدقة عين « فاطمة » فاصبح لها رأي متنكر لكل زواج مماثل لزواج اخواتها ـ حتى اضحت تفضل ان لا ترى رجلا .

ولكنها سوف ترى رجلاً يرزم اشواقها ويكشّف احلامهـــا ، وستقتنع بصدق رجولته ، لا وحسب ـ لأن اباها هو الذي سيدعوها الى الالتصاق به ـ بل لانها هي التي ـ بعد ان اكتمل وسع حدقتيها ـ اصبحت تملك عدسة المنظار .

كل شيء في وجود « فاطمة » ساهم في نحت شخصيتها فجهزها بهذا الحس المرهف .

ولن تكفكف يد الموت عين امها الا لتغلف قلبها بهالة جديدة من الالم وعمق التبصر ..

وسيرهف حسها الى اقصى حدود الارهاف بموت ابيها النبي ، وستبكيه البكاء المقرح .

وستصبح ـ مع رهافة الحس ـ رهيفة الهيكل مع كل صدمة وكل خيبة امل تنتظرها على الدرب المضني الذي وسع لها عليه صدر ابيها الراحل .

وستذوق ـ مع مرارة اليتم ـ مرارة الحرمان مع كل خطوة ستخطوها ايضاً على الدرب الذي عرضت عليه خطوات زوجها الفارس الامين .

وستهوي حافية القدمين ، نحيلة الخصر والقوام من فرط تلك الرهافة التي جعلتها بحق :

جلوة عصرها .

وسيدة نساء العالمين .

المـــرأة

والمرأة – في كل آن وزمان – انما هي رفيقة الرجل ، لا تنفصل عنه الا لتلتصق به في حركة انجذابية ممغنطة القطب مقفلة الدوائر – فهي منـــه وله كالجزء من الكل وكالخيط من النسيج . تلك هي الوحدة في ثنائيـة وجودية وازدواجية حياتية ، مـــا تمكن الانسان يوماً من ان يملها وهو في اطار هذا الكون .

وكأني بالرجل والمرأة تكوين منفلق من خلية واحدة الى شطرين، يجمعها دائماً حنين الخليّة الى وحدتها ، في سيرهـــا المنجذب ابدا الى تكميل ناموس الحياة .

وليست المناصفة او المفاضلة بين هذين الشطرين شرطاً من شروط التقييم ، فميزان التقييم في الحياة لا تنشال في كفته فلقة الا والثانية معها على اتحـاد ، باعتبار ان كلا من الشطرين متمم للثاني عن طريق التداخل والالتزام ، فامـا وجودهما منفصلين – متحدين ، واما فصلها مبتعدين – ملتغيين ، في الحالة الاولى خصب الوجود ، وفي الحالة الثانية فوهة العدم .

ليس ذلك في اي معنى مجازي ، فالمرأة بعض الرجل ، اكان طولهـــا خمسة اسداس طوله او وزنها ستة اسباع ، فالقضيـة وجودية حياتية حتمية مزدوجة – كالليل والنهار في تكوين الدورة اليومية ، وكالسلبية والايجابية في توليد الشرارة – فالجزء الذي – اذما يلغ يلغ قيمة الكل – له حتمـــاً قيمة الكل .

من هنا ان المرأة في وجود الرجل شطر متمم للانسان فيه ، ولا قيمة لها او له الا في كونهما قطبين متكافلين متضامنين ، ولن تكون اية عملية حسابية في أيهما أوزن أو أطول ، افهم او اكمل ، اول او اجدر – الا كعملية انشاء المفاضلة بين اضلاع الزاوية او المستطيل : اي ضلع في نظر البيكار – من هذا او تلك – اجدى او اكمل ؟ فلكل خط من تلك الخطوط قيمة التكميل ، وحذف اي ضلع يلغي الهندسة .

من هنا ان المرأة – في وجود الرجل – هي البعض الذي يتمم الاخر – أكان هذا البعض انعم أو اخشن ، أطول او اقصر ، افهم او اقل ادراكاً – فمن الطولين يخرج الاطار الواحد كما يخرج مربع المستطيل من ضلعه الطويل مع ضلعه القصير – ومن الثقلين يتجمع الوزن الصحيح كما يتجمع وزن السيف من ثقل قبضته مع ثقل شفرته ، ومن القيمتين تتولد القيمة الموحدة ، كما يتولد النغم من خشبة القيثارة مع حبل الوتر .

ولطالما بحثت قضية المرأة والرجل على سلم المقايسة والموازنة والمفاضلة ، فلم يبلغ طولها اكثر من ستة اسباع طوله ووزنها اكثر من خمسة اسداس وزنه – اما قيمتها فكانت تتايل على مقياس مئوي من حيث كانت – في نظر بعض الاجيال – صفراً . ففي الجيل الخامس للميلاد كانت لا تزال تعقد المجامع للنظر في هل هي انسان لها نفس ؟ ام هي في مرتبة اخرى لها بعض الامتيازات .

وكانت تحسب سلعة من السلع اومتعة للرجل يلهو بها على هواه ويتصرف بها كما يشاء – فالعصر السابق لصدر الاسلام كان له حق وأدها دون اي قانون يطاله بالتجريم – حتى اذا جاء الاسلام متعها بحقوقها واعتبرها اماً وزوجة وخلصها من الوأد والحرمان .

وما زالت المرأة حتى اليوم ، مع كل ما توصلت اليه مدنيات المجتمعات المتحضرة – توزن بثقل جسدها وتقاس بطول قامتها ونحافة هيكلها ، وتقيّم

منفصلة ، بنسبة مواهبها الذاتية ، دون ان تحسب جزءاً من الرجـــل وظلاً عاكساً لحقيقته ورفيقة ملازمة له وبعضاً متداخلاً في بعض .

والصواب أن المرأة ليست الا امتداداً لكيان الرجـــل بتداخل صميمي فيه ، ولن تفصل قيمتها عن قيمته طالما انها الحتمية المتممة لوجـوده ، ولن تقاس مواهبها الا بالنسبة الى مواهبه طالما انها الخلية التي تستمد من هـــذا الشطر مقومات وجودها .

فاذا ما طلب منها ان تكون اعمق فكراً ، واكثر ثقافة ، وامتن اخلاقاً، واشد مراساً ، واقل ميعانا ، واخف غروراً ، واصدق لسانـــاً ، واثبت جنانا ـ فان ذلك اولى ان يطلب الى الرجل ابرازه بجهد مضاعف حتى تتم على المرأة عملية الانعكاس .

فاذا شكي في المرأة من نقص فهو نقص الرجل يظهر في المرأة مثلما يظهر اللين في العظام من نقص الاملاح في الجسم ، او كما يظهر الهزال في العضلات من ضعف الغذاء في البدن ، او كما يظهر الشحوب في الوجه من ضآلة الحيوية في الدم .

ان الرجل والمرأة شطرا جسم واحد ـ فاذا كان الرجل بحاجـــة الى ام فالمرأة رحمه ، واذا كان بحاجة الى رفيق فالمرأة شوقه وحنينـه ، واذا كان بحاجة الى ترفيه فهي كأسه وعبيره ، واذا كان بحاجة الى مجتمع فالمرأة تربته وخصبه .

كل مجتمع لا يعتبر المرأة بمثابة اليد اليسرى الى اليـــد اليمنى في جسم الانسان ، يكون مجتمعاً مسؤولاً ـ الى حد بعيد ـ عن تخلفـه عن السير في مضمار التحقيق والتقدم والفلاح .

تكثيفُ المشاهِدْ

عناصر البحث :

دراسة
طريق المجد
بداية الحوار
الوتر المجروح
أسامة
عتب
صدمة
بلاغة
دمعة
ثلاث نساء
خطاب في باحة المسجد
البطولة

التسجيل
وتر في غمد
فدك
ابنة النبي
زوجة علي
ام الحسن والحسين
الامامة
الارث
البقيع
بستان
اسماء بنت عميس

دراسة

من المفهوم ان عصر الجاهلية لم يكن يتمتع بشكل من الحكم الراقي ؛ ان المجتمعات البدوية ـ شأن مجتمع الجزيرة ـ ليس لها اكثر من شكل اوتوقراطي تتحكم به روح قبلية . ولا يرافق هذا النوع من الحكم ذلك الولاء الصميم الذي يرافق الوحدات الاجتماعية المترابطة بالمصالح والمصير . فالقبائل المشرورة في الجزيرة على طول رقعة شاسعة ، تفصلها عن بعضها البعض صخار وكثبان ، لم تكن لتجمعها تلك الوحدة الحياتية ، ولم يكن ليرعاها ذلك الشعور .

ان ذلك لم يكن مطلقاً في الجزيرة ـ فالحقوق الشخصية كانت شبه معدومة ، والملك الفردي كان شبه معدوم ، ولم يكن الفرد اكثر من وحدة عددية في القبيلة ، يستعمل للغزو ، فهو متنقل ابداً مع قبيلته وراء الكلأ والتفتيش عن الاود .

ولم يكن بالامكان جمع هذه القبائل بهاتف من الاقنـــاع العقلي ـ العلمي الذي يعين وحدة المصالح مع وحدة التفكير ووحدة العمل ووحدة التوجيه ـ لا يجد كل ذلك تلبية له الا في المجتمعات التاريخية المثقفة التي مارست كل فضائل الاجتماع واستوعبت عمق المدارك . وهذا ما كانت تفتقر اليه قبائل الجزيرة بحكم طبيعة ارضها ومناخها . لقد توصل الى هذا الفهم اولئك الذين هاجروا منها ، الى ارض الرافدين ـ مثلاً ـ فاندمجوا في الارض التي هبطوا فيها ، ووجدوا منها ارضاً صالحة لهضم مجاهيدهم العقلية والجسدية ، هنالك تولد لهم ذلك الولاء للارض التي انصبوا فيها ـ مع الاكاديين او السومريين

او الكنعانيين ـ الفينيقيين ـ مع كل هؤلاء الاقوام اندمجت هجرات اهل القبائل من الجزيرة في تطوافهم القديم ، فاثبتوا ـ باندماجهم الذي تطور الى مدنيات ـ ان الانسان يكون انعكاس البيئة التي يتفاعل فيها ومعها تفاعلاً تاريخياً .

ان الرسول لم يجهل هذه الحقيقة ـ حقيقة واقع مجتمع الجزيرة ـ لهذا فانه لم يتمكن من جمع وحداتهم إلا بفكرة هبطت من فوق ، فجـاء الدين بالتوحيد يفعل ما لا تفعله اية قوة اخرى ، ولقد قال : « لو انفقت مـا في الارض جميعاً ، ما ألّفت بين قلوبهم » .

لقد برزت عبقرية النبي بشكل حقق الاعجوبـة ـ فالجزيرة كانت باشد الحاجة الى قوة تزم قبائلها المتفككة ونزعاتها المتغايرة وميولهـا المتشتتة ـ لقد كانت بحاجة الى من يوجه قوافلها المهاجرة نحو الافادة من خطوطهـا التجارية اليابسة .

ولقد تم العمل بسرعة ـ لا معركة « احد » ولا معركة « بدر » تمكنتـا من ان تتوقفا في درب المهاجرين الذين رجعوا لتنفيـذ التصاميم المدروسة ، وكانت الغلبة للذي كان عنده التصميم على كل من لم يكن لديه اي تصميم ، اما الشعب فهو الذي ينقاد دائماً وراء القائد البطل ـ لست اقول : ـ عن فهم ، بل عن انجراف وانقياد ـ لم يكن الفرد في الجزيرة ـ في ذلك الحين على الاخص ـ ليؤلف تلك الجماعة الواعية ، ثم ان الفرد ـ في كل حين ـ حتى في المجتمعات الراقية ـ شأنه ضئيل في التصرف ، الا ان يكون من النوع الذي تليق به القيادة. ان المجتمعات التي يكثر فيها هذا العدد من الافراد المدركين ، يرفعون نسبة الرقي في مجتمعاتهم ويعينون ، الى حد بعيد ـ بروز القادة اللامعين فيهم لتخف الاخطاء في القيادة وليتميز النجاح في تطبيق المناهج .

ولم يبرز في مجتمع الجزيرة اي فرد تمكن من حصر القيادة ونقشها على صفحات التاريخ ـ الا في ظهور محمد ـ فحطم ابلغ رقم قياسي في تاريخ خلود القادة العباقرة .

غير ان النجاح الذي حققته الرسالة الاسلامية في الامبراطورية الضخمة التي غطت الشرق والغرب لعـــدة قرون ، والتي اكتسحت بتعاليمها مئات الملايين على وجه الارض ، لم تحقق فعلها بقوة تلك القبائل التي زحفت هائمة من الجزيرة ، بل حققته بقوة قابليتها ، وبصدق نظرتها الى الحياة والكون . اما ابن الجزيرة ، فانه جنى من منافعها ما تمكنت قابليته هو من الاخذ منها، ولقد فعلت فيه على حياة الرسول بنسبة مـا تمكن الرسول نفسه من عكس التعاليم الرسالية عليه اشعاعـا من شخصه الكريم : وجوداً وتجسيدا ، قدوة وتمثيلا ، ولما قبض الرسول ـ اي لما غاب عن الجزيرة هذا الحضور ، هـذا التجسيد الماثل امام العين ، خبت الجذوة التي كانت تستمد من هـذا المصدر وهجها وحرارتها ، وانقسم بسرعة مذهلة الخط الجامع الموحد ، واستيقظت القبلية التي هجعت لمدة قليلة من السنين .

ان الوقت الذي عاشه الرسول في محيطه لم يكن كافيـــاً لطبخ النفوس وجعلها تتمرس بالحق والصواب ، لقد كان يدرك ان المجتمعات البشرية يلزمها تاريخ ـ لا بل يلزمها صناعة التاريخ ، وصناعـــة التاريخ لا تتم الا بالمدى الثقافي المتولد من الدأب الحثيث في مجالات الحياة المخصبة والمولـّدة ، بالتمرس بكل ما هو انتاج صادق في مجتمع صادق ، كل ذلك تحتاجه المجتمعـــات الراقية ، وأحر بمجتمع الجزيرة الذي لم تلمسه بعد كف الحياة بحقيقة واعية ، لذلك فهو بحاجة قصوى الى مدى ، الى سلسلة طويلة من القادة الموجهين حتى تتم على ايديهم سبل التوجيه القويم وسبل المران الطويل .

ان شعب الجزيرة كان بحاجة ماسة الى توجيه صادق يسلخه عن قبليته العمياء ليضعه على الخط الحضاري المتلقط بانتاج ذاتي هو وحده الذي يبقى مع كل مجتمع ، ليبني وجده ذلك المجتمع .

وشعب الجزيرة ـ الذي بقي حتى هذا التاريخ ، بلا قائد ـ يصعب عليه ان يخلق لنفسه مثل هذا القائد الذي رمت به اليها يد العناية .

من هنا كان حرص النبي على القاء تبعات هـــذه الرسالة الجليلة والطويلة المدى على عاتق وليٍّ يتركها اليه ليتوارثها عنه من بعده كل من سيصبح فيها اشد مراساً ـ ومع كل خطوة الى الامـــام يكون شعب الجزيرة قد اصبح اكثر مراناً واشد تعمقاً بما يلقى عليه في سبيل تأمين مصيره كمجتمع .

ولكن موت النبي لم يحقق اتمام الوصية واتمام المخطط لاتمام النهج . ان الاجتماع الذي حصل في السقيفة ـ وجثمان النبي لا يزال فاتراً ـ كان اكبر دليل على اليقظة السريعة للميول المكبوتة المجمدة تحت ضغـــط الهالة القدسية التي كانت تشع من جبين المسجى الصامت الذي كان على قيد الحياة منذ ساعة ، لقد وجدت تلك الميول ـ في هذه اللحظة التاريخية الواجمة ـ متنفساً لها فعبرت عن روح قبلية جاهلية لم تتمكن حتى الرسالة من وأدها .

ان الجزيرة التي كان عليها ان تغرق في صمت رهيب امام الجسد الواقف على عتبة تاريخها ، راحت تداعب ترهاتها وتتلاعب بمقدساتها ، ان النضيد الذي لف النبيُّ به جيد الجزيرة ، حسبته الجزيرة من زجاج عندما قطعت عقده وراحت تبعثره بين الغبار ـ ولقد كانت معذورة ، فانها لم تشهد قـــط في تاريخها ـ لآلىء ذات حجم .

طريق المجد

لقد سلك الاسلام طريق المجد ـ الاسلام الذي هو فكرة مقتنعة بصدق نفسها ، والذي هو فكرة تمكنت من توزيع ذاتها اشعة ايمان . ولقد كان الاسلام فكرة توحيد ـ وحدت الخالق ووحدت العمل الجبار الذي انطلق تبشيراً وفتوحات .

تقبلته الشام فتحاً «يسيراً» وتقبله العراق فتحاً «يسيراً» . والشام ـ منذ الاف السنين ـ وهي تتقبل زحف القوافل ، وهي اليوم تفتح صدرها لاعظم قافلة تنجدل فيها حبال النور . منذ ستة قرون ، وهي تحاول ـ مع عيسى ـ تقليص شبح العلج الروماني ولم تفلح ، اما اليوم ، فهي التي تمد يدها بسخاء للزحف المقدس الذي سيطرح بكوتستانس الثاني الى اليم . وليس العراق باقل ارتباطاً من الشام بحبل الاواصر ، ولا اخف منها شوقاً لتقويض اركان ايوان كسرى .

هكذا امسى التوحيد يخط طريق الفتوحات : الى العراق والشام ، الى مصر وافريقيا ، الى فارس ومهابط الهند ، الى اوربا وحوض المتوسط . ان الفكرة التي بشرت بالتوحيد كانت لها جاذبية التوحيد .

ولكن الكفاح الذي مشى به الاسلام كانت تتجاذبه ـ في الفكرة الاصيلة فيه ـ روحيتان : روحية حضرية وروحية مدنية ، ومشت الروحيتان متوحدتين الى هدف مشترك ، وانخدع التوحيد باسم التوحيد .

فالروحية الحضرية هي التي اخذت لنفسها من الفكرة مبدأ وعقيدة

تقيدت بهما بكل انضباط ـ لقد كان التشديد على العفة في المسلك من اشد ما تقيدت به من مواثيق . اما الفكرة الثانية فهي التي مشت بثوبها القديم ، تقنعت بالفكرة كما يتقنع المتسلل بالليل لاتمام عملية غزو . هكذا هب بجمل القبائل في الجزيرة ـ باسم الجهاد ـ لتجعل من الكفاح محارز اغنـــام ـ لقد كانت فكرة التوحيد فذة ، ولكن الموحدين لم يكونوا كلهم افذاذاً ، لهذا مشى الفتح الى تحقيق يرافقه دائماً خوف وقلق ، أدّيا به الى انحطاط وانهيار .

منذ البداية والفتح يعاني هذه العوارض ، وبقي يعانيها في سيره الطويل : عاناها على حياة النبي بالمؤمن والمرتد ، وبالمخلص الفاهم والمناصر الخاتل ، وفي ساعة موته عاناها : بالمؤمن بالجهاد درباً الى الحـــق ، وبالمؤمن به درباً الى نفوذ ... بفتح الشام عاناها : فتحاً صادقاً مؤدياً الى انفتاح ، وفتحاً مغرضاً مؤدياً الى انغلاق .

هكذا نجح الفتح مع كل اصالة ، وهكذا خاب مع كل زيـغ ، وهكذا كانت دائماً تنقل الهجرات تجاراتها من الجزيرة ، ويتقبلها الجوار ، اكانت صدقاً يغني ام كانت هرفاً يضني .

بدايـة الحوار

بعد موت النبي - بعد اجتماع السقيفة - بعـد نقض الوصيتين : وصية الخلافة لعلي ، ووصية الارث بفدك لفاطمة - شهد العالم الاسلامي بداية حوار .

وليس احب الى الحوار من المنطق ، وليس اشفع للمنطق من العقل ، وليس اجلى للعقل من الهدى ، وليس اقرب الى الهدى من الصواب ، وليس اضمن للصواب من الحق ، وليس اجدر بالحق الا الذين انطوت في نفوسهم تلك القيم ، واشرف ما في القيم نقاوة الوجدان .

وكل قضية لا تستقيم بدون حوار . ان نهضات الامم ما تحقق الجليل منها الا بعد حوار طويـل ، ولا اقول ان الحوار لا يمتشق حساماً ، فاصطراع العقائد يؤدي في اغلب الاحايين الى انفتـاق الثورات في الشعوب لتحقيق الافضل والاسمى ، انه الحوار الذي يتنكر للكلام ويمتشق الحسام .

غير ان مفهوم الحوار -بشكله الناضج- هو ذلك الذي يعتمد الاقناع وسيلة الى هدفه - اما اذا تعذر الاقناع « فالسيف اصدق انباء من الكتب » .

ويتميز الحوار - بين ان يكون رصيناً او ان يكون مبتـذلاً - برصانة المتحاورين وصدقهم ، او باسفافهم وتخلفهم ، وهنيئاً لمجتمع يعتمد الحوار الرصين : حوار العقل والحجة والمنطق - انه يكون مجتمعاً يفتش تفتيشاً عن المثل .

كلما كان الحوار رصيناً ، كان الوصول الى الحقيقة أضمن وأوفى . والحوار

في المجتمع هو الطريق المؤدي الى تطوير هذا المجتمع تطويراً نامياً ، ولا ينهض مجتمع بغير حوار .

ان الحوار الذي قـــام بعد موت النبي لم يكن من هذا الوزن ، فالذين اجتمعوا في السقيفة لم يستدرجوا المجتمع الى حوار ، لقد تحاوروا فيما بينهم ولم يستدعوا الشق الاخر لاستكمال عناصر التنقيب والتوجيه .

ثم ان المجتمعين ـ أي شيء دعاهم الى الاجتماع ؟ هل هو استلام الحكم ، ام هو الحرص منهم على الرسالة ـ عن طريق استلام الحكم ؟

ان يكن الاول ، فلقد توصّلوا الى الغاية ، ولا لزوم الى حوار ... وان يكن الثاني ـ كما هو الادعاء ـ فلماذا الخوف من استدعاء رجل سلمه زمـــام الرسالة من برأ الرسالة ؟

ولكن القضية لم تكن بحاجة الى حوار ، لقد احتاجت الى تصرّف – ان اهل السقيفة تصرّفوا ـ اما الحوار ، فانه قـــام فيما بعد ـ لقد دفعه حوارا ذلك الذي كان من الواجب ان يحسب قطب الحوار .

الوَتَرالمجَرُوح

ما انبلج صبح اشد كلوحاً من ليل ، كهذا الصباح الحزين يعصر ضلوع فاطمة الزهراء على حواشي فراش لصيق بالارض سجّي عليه جسد بلا حراك ـ جسد كانت عيناه ـ لبضع ساعات خلت ـ كانهار النور من الكوى ،وكان فمه كانفتاح الكوى على المناور ...

وكانت تميد الارض بفاطمة وهي تداعب يدين مرخيتين ، كانها استسلام الحب في غمرته ـ لا هي ترخيها من بين كفيها ، ولا همـــا ـ بين كفيها ـ تتأوّدان ...

وكان فمها يتنقل بشفتيه لثماً وتقبيلاً على طول هاتين الذراعين المتلاشيتين، كانها تنقل اليها من لواعجها دفء الحياة وحرّة الدم .

وكانت نفسها تفيض شعاعـــاً وهي تطوف حول الفراش البارد بعينين مغمضتين على لهب الجامر ، لا الدمع يطفيها ، ولا برودة الموت ترويها .

وكانت مناجاتها تطوف صعداً وهبوطاً من قلبها الى لسانها ومن جنانها الى عمق كيانها ، كانها الوعي المسعور او الشوق المحرور :

ابتاه ـ اطعمتني من قلبك وسقيتني من عينك ، لهـــذا انا اليوم اتضوّر جوعاً اليك واتقلى ظمأ الى عطفك .

ابتاه ـ يا ايها الهابط الجاثم ـ ما هكذا تجثم الجبال على الشواطي .

يا أيها الصامت الساكن ... ما هكذا تسكن الرياح مع السحب ...

أبتاه يا أعطف وأكرم أب ما هكذا تنقطع الصلات ، ولا هكذا تنبتر المكارم .

وما كانت فاطمة لترتوي ، لا باللمس ولا بالهمس – فالأب الذي كان يملأ عينيها ضياء ، أغمض عينيه على هباء – واليد التي كانت تلف خصرها بالحنان – يبست على ملامسها الحمالة ...

لهفي على فاطمة ، لهفي على الرهيف من حسها ، لهفي على القدّ النحيل يهصره الألم – لهفي على الصديقة التي رافقت أباها كما يرافق الظل اغصان الشجر والشذا الناعم النديان عب السوسنة ...

فليكن لك البيت يا فاطمة – في البقيع – وليكن لك كل يوم ، بأبيك لقاء – ليس كل أب كأبيك ، ولا كل دمعة كدموعك لها من سكبها طهر النزيف ...

أُسَامَة

وانت ايها الفتى البطل ـ كانت تشوح بك البطولة الى اقتناص الامجاد ، لقد كان حظك بالقيادة مربوطاً بمصير ـ والجزيرة ـ يا اسامة [1] ـ لم يكن حظها وفيراً في سلوك المصاعد .

يا ابن زيد ، يا ابن بطل خرّ صريعاً في ساحة النضال ـ لقد شهدت « مؤتة » بداية الصراع على يدي ابيك في جلوة الحق وتكنيس الحرم من ادران الوالغين ، خرّ صريعاً وكان شهيد المحاولة ، ولكنه كان اول من عبّد الطريق يسلكه الى المجد من بعده ، خالد بن الوليد ليحرر الشام من ربقة الاستعباد ، ويهزّ حضارة العهد القديم .

وانت يا اسامة ، يا شهادة الحق بان البطولة ليست وقفاً على عدد السنين ـ كان حظك ـ وانت ابن العشرين ـ يضعك على الخط الذي يمشي عليه الابطال التاعسون .

---

(١) اسامة – هو ابن زيد بن حارثة ، وزيد هذا هو الذي تبناه النبي ثم سلمه قيادة جيش لغزوة « مؤتة » ولكنه فشل في ذلك الحين وقتل ـــ ثم تولى القيادة فيما بعد خالد بن الوليد فغزا مؤتة وافتتح الشام ـــ واسامة سلم قيادة جيش كان من ضمنه : ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وابو عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وغيرهم ، وامر للتوجه الى البلقاء لمحاربة اهل « ابنى » الذين قتلوا زيد بن حارثة في محاولته غزو الشام – ولقد تململ شيوخ الصحابة وطعنوا باسناد القيادة الى فتى يافع – ولقد قال في ذلك النبي : (ان تطعنوا في امارته فقد كنتم تطعنون في امارة ابيه من قبل ، وايم الله ، ان كان لخليقاً بالامارة ، وان ابنه لخليق للامارة) ولكن جيش اسامة لم ينطلق ، لقد اخره مرض النبي – ان الصحابيين الذين كانوا فيه عرقلوا هذا الزحف بانتظار ما سيحدث للنبي ، واغلب الظن انهم كانوا يتوقعون موته .

لقد مات النبي ـ وهو يقلدك الوسام ـ فارتبط حظك البائس بحظ الجزيرة الذي وقف على المفرق الخطر .

ومثلما تنكبت عن علي ـ اثقال الخلافة ـ تنكبت عنك ـ يا ابن زيد ـ امجاد القيادة .

عَتْبٌ

من كان يحسب ان فاطمة المفجوعة بابيها لا تجد ـ بعد موت النبي ـ لفيفاً يتقاسم حزنها ويخفف لوعتها .

عتباً على التاريخ ، يتقبل في فاطمة ، كل كلمة مجنحة ، كل وصف تتشوق الى مثله مخامل الورود ومعاطف النرجس ، كل صفة كانها تيمن الارض بانقى الشمائل . ثم يتقبل جحوداً بها ، كانها الغفلة المنسية او النواة المرمية .

يا اهل الجزيرة ـ هذه الديمة هي ارخيّة ذلك السحاب ـ يا تحرّق الغبار الى السراب .

صَدْمَة

كان بالامكان ان تخف لوعة فاطمة على ابيها ـ اجـــل على ابيها الذي اعتادت كل عمرها على غرف الحنان من حضنه ، ولم يكن وجود علي ليخفف من تلك اللوعة ، مع انه اصبح كل شيء في دنياها ـ فهو رفيقها الانيس الصادق وابو ريحانتيها النديتين الصافيتين ـ ولكن الجفاء الذي قابلها به من حل ـ في الحكم والادارة ـ محل ابيها، هو الذي وسم على قلبها غمرة الحزن، فالمركز الذي كان يحتله النبي هو نتاج عقله وخياله ونحاتة عزمه وجهاده وحرم تفلته واندغامه ومحراب سجوده وقيامه ـ وما كانت فاطمة ـ في محرابه ـ الا صلاة في ابتهاله ، فهي شعاع نفسه وبعض فؤاده .

ان الذي حل محل ابيها في الحكم والتوجيه ـ لم يحل محل ابيها بالعطف ـ حل بالعنف ولم يحل بالتؤدة ـ حل كما اراد هو لا كما اراد ابوها، ذلك كان ـ بحس فاطمة ـ كل الاغتصاب .

لقد كان ابوها اباً لها قبل ان يكون أباً لأي سواها ـ فما بال الناس يغتصبون منها حتى اباها .

وابوها هو الذي صنع الجزيرة ـ ولقد احبته الحب الدافق لانه ـ بالحصر ـ صنع الجزيرة . فبأي عرف جاحـــد تزحف الجزيرة اليوم لتحطيم حشاشتها وتهشيم ضلوعها .

وابوها هو الذي كان رب المنطق والبيان ، وباعث الحق وباعث الايمان ، وهو الذي قـاد وهو الذي وجه ، وهو الذي اخصب وهو الذي وزّع ـ

فبأي بيان تسد عليه سبل المنطق ؟ وباي حق يحجب من بعده الرأي السديد؟

ولم يكن النبي ليخلف – الا كله ليخلف : في ما قال وفي ما عمل ، في ما اخذ وفي ما بذل ، وفي ما وهب وفي ما اوصى وفي ما احتسب ، وفي كرهه وفي حبه وفي نهيه وفي رغبه .

فأي شيء هذه الخلافة منقوصة مبتورة – مفتولة مشطورة ؟ ما طعم الغيرة عليها وفيها الاثرة ؟ ما قيمة الشأن لها ظاهره الصدق وباطنه الحيلة ؟ لقد ضاق النبي فيها وفيها قصر ، وهو الطويل النجاد والواسع العباب ... اهي خلافة لنبي ، ام هي تظهير للون ؟ وسع الحرص فيها حتى ضاق، وضاق العدل فيها حتى انفرط – وكان الحرص في النبي فيضاً وتوزيعاً، وكان العدل عند النبي رحمة وتوسيعاً .

كل هذه الافكار كانت تدور في رأس فاطمة الحزينة ، وقد اقحمت الخلافة على ابي بكر الصديق ، بكل ما في الامر من نقض وصية ابيها الموصي – وفدك – نحلة ابيها اليها – قد قطعت عنها كما تقطع يد السارق .

بَلاغَة

أي شيء نفر بفاطمة الى ساحة المسجد ؟ .

من قال : ان البطولات وقف على الرجال ؟ .

من قال : ان النفوس الكبيرة تعيش بغير شموخ ؟ .

من قال : ان الشعور بالحق يرضى بالمهانة ؟ .

كل ذلك وجد تطبيقه في الزهراء وهي تمشي – متلفّعة بوشاحها الاسود – نحو باحة المسجد ، بقد نحيل جارت عليه مبراة الالم .

أي ألم ؟ وهل للمفجوع غير التأسي ؟ .

ولكن فاطمة الزهراء ما جاءت تقول للناس : عزّوني . بل جاءت الى الخليفة لتريه لون الشعاع في الشمس ، ولتسمعه نبرة الناي في خفق العواصف.

لقد قالت له المعنى الكثير – ولكن البليغ الذي سمعه ، هو الذي كان مسحوقاً بصمت ، والذي جاء ملفوفاً بوشاح .

دَمْعَـــة

لا علي ، ولا فاطمة ، كانا مقتنعين بنجاحهما باسترجاع فدك ، ولم يكن تصرف فاطمة بالاقدام والمطالبة ـ اكان ذلك في باحة المسجد ، على ملأ من المسلمين ، ام كان في مراجعات اخرى في بيت الخليفة ، ام في بيوت الانصار ، ام في اية من المناسبات العارضة ـ عن اقتناع بان حقوقها بالارث ستعود اليها.

ولم يكن ذلك ايضاً ، دليلاً على تفتيش البيت عن مورد يؤمن له الثروة والترفيه ـ فالبيت هذا الف القناعة في العيش . ان جهاز فاطمة لم تكن قيمته اكثر من قيمة درع ، ولم يكن زواج فاطمة بعـــلي الا ليكون ـ في معناه ومجتناه ـ متانة درع .

لقد قنعت ابنة الرسول ، في يوم عرسها ، بثوبين من الصوف وبقطيفة وخمار ـ قنعت بفراش من خيش محشو بليف ، وقنعت بقدر واحد وجرة خضراء ، ورحى لجرش حبات الشعير تديرها بكفهـــا الهزيلة ، ولم تطمع باكثر من قعب للبن وشن للماء ، وقطعة حصير . هذه هي الدرع ـ درع علي التي حملها علي الى السوق بنفسه وباعها باربعماية درهم ليصرفها جهازاً لعروسه.

هذه هي حقيقة البيت الذي يطالب بفدك ، يطالب بها ، لا ليزيد لنفسه ثروة ، بل ليزيد من متانة الاسلام ، ليزيد من اعمال البر وتفريق الحسنات على كل هؤلاء الذين يعيشون في الجزيرة على مجاعات واشدّها مجاعة الفكر ومجاعة الروح .

لذلك هبّت فاطمة تطالب بالارث ـ لا لتحصل على الارث ، بل لترهف

حساً جماعياً لا يزال يهجع في الذل ويرضى بالاستكانة ، لتظهر للحاكم : انه لن يتمكن من القيادة وفي عينيه دكنة من ظلم ومشحة من اغتصاب ، لتظهر له ان فدكا وكل شبيه بفدك ، شوكة في عين الخلافة ــ وكل خلافة ــ الى ان تنزع .

ان الم فاطمة ، لم يكن مصدره موت ابيها ــ اكثر مما كان مصدره ان رسالة ابيها ، ما ان عاشت حتى دخلت في حشرجة . لم تكن فاطمة تحب في ابيها زنده المفتول وصدره البض ــ لقد كان حبها له في صفوة العقل وانبعاث الروح ، لقد احبته في افق ... ولما مات ، كانت تدرك ان لكل انسان نهاية ، وان في رسالة ابيها تكون البداية .

وها هي الرسالة ، اخذوها للاستعمال ولم يأخذوها للاكتمال ، اخذوها اداة ولم يأخذوها صفوة اناة .

ان الذين يغتصبون خلافة ، ليس كثيراً عليهم ان يختلسوا قطعة ارض ، وان الذين يعيشون في رهافة الحس ــ كفاطمة وعليّ ــ ليس كثيراً عليهم ان يضنيهم التبرم والالم ، وهم يشاهدون باعينهم مشاهد المأساة .

ولقد برزت فاطمة الى الساحة تمثل دورها الناعم ، فكانت كشعاع الشمس ــ دافء ولكنه حارق ، وكانت كحد السيف ــ رهيف ولكنه قاطع .

ولقد ادرك ابو بكر الصديق عمق القضية فبكى ، ولم يكن بكاؤه عاطفة هيجتها فيه فاطمة بشكلها او يتمها ، او اثرت عليه انوثة فيها مكسرة الهدب او ذابلة الوجنتين ــ لقد بكى من هزة في نفسه ، ومن شعور في ضمنه ، ازاء وجفة من ضمير ، وومضة من وجدان .

لقد كان يعرف ان الخلافة ما وصلت اليه مفتوحة على كف من السماح ، فلقد كان ينقصها كثير من الصراحة مع كثير من انبساط الخواطر ، لقد كان ينقصها الاجماع .

لقد نقصها الحس الصادق والشعور البريء والعين الرضية ــ وليس قليلاً هذا الذي نقصها ، فالحاكم هو الصدر مشتبكة كل ضلوعه ــ ان ضلعـــاً منه مبسوراً ، يشغل القلب ويضني التنفس، والحاكم هو كل قبل ان يكون لنفسه، وهو عقل وقلب وقلب وعقل، وهو كل النظافة ــ ان النظافة يجب ان تكون كل اطاره ــ لهذا يجمل بالحاكم الاول ان يستقطب اليه الحس الجماعي ، حتى يأتي دوره في الحكم تلبية لاحترام كامل يضمن له صدق العمل وصحة المسير.

ومركز ابي بكر الصديق في الخلافة كان في هذا الانتخاب محصوراً في سقيفة ، وكان الاولى به ان يكون في الساحة التي ليس فوقها لا جذوع ولا سقوف .

ان الخلافة ــ بمعناها الصادق ــ لا تتمكن من التلقط بكل ازمتها ، الا في الساحة المكشوفة ــ هنالك يتمكن الجميع من تسريح النظر ، فمثلما هو للكل ، عليه ان يعرض نفسه امام الكل ــ ان حكمة الحاكمين لا تتجلى في المخابي ، وما ينشأ في المخابي تمتهنه المكاشف .

لقد كانت الوصية بالخلافة لعلي ــ لقد جاهر علي بذلك ــ ولقد كان الاولى ان يعرض علي على الساحة لتقول الساحة كلمة الفصل ، اذ عليها هي ان تحقق في صدق الوصية للعمل بها او لنقضها ، ولم يكن ذلك مطلقاً من اختصاص السقيفة .

طلب ابو العباس وابو سفيان الى علي ان يبايعاه وهو ما زال الى جوار جثمان النبي ، فاجاب : « اني لاكره ان ابايع من وراء رتاج » .

في هذا الاتجاه المنقوص شقت خلافة ابي بكر الصديق دربهـــا ، تاركة وراءها اتجاهاً آخر يشق عليه الانقسام درباً مؤدياً الى جبهة خصام .

ان احتجاج فاطمة عن سلبها الارث كان بالفعل تنبيها لاصلاح زلل، حرك دمعة في عين الصديق ، ليتها لم تنشف .

ثلاثُ نِسَاء

يتناول الحديث ثلاث نساء كان لهن على الاسلام شأن بالغ، ولقد اثبت الاسلام فيهن فضله في انتشال المرأة من مركز المهانـــة الى مركز الاجلال والاحترام .

ولقد برهنت كل واحدة منهن عن ان المرأة تستجيب للجو الذي تنشأ فيه ، وتنعكس فيها التربية التي تتربى عليها ، وتتمكن من ان تسمو مع السمو ـ كل ذلك بنسبة تتجانس مع قواها التي محضتها بها الطبيعة كامرأة لها كيان خاص بها ومواهب ذاتية منبثقة من تركيبها الخاص .

خديجـــة

اولاهن خديجة ام المسلمين الاولى ـ تلك التي كانت لها قافلة سئمت حدوها فأذابتها في قافلة اخرى لف صوت حاديها جنبات الكون .

والتاريخ يعلم ان خديجة لم يكن لها شأن كبير قبل ان تجد على طريقها الامين محمداً ، ولقد ورد في سياق هـــذا الكتاب كيف ان خديجة تخطت التقاليد واقدمت على تزويج نفسها ممن احبت .

غير ان المقصود في هذا البحث هو اظهار الناحيـــة التي تختص بالمرأة في اتاحة الفرص لتربيتها وتنشئتها التنشئة الصحيحة ، ثم تركها تختار من نفسها تخطيط مصيرها ، فهي ـ اذ تشعر بمركزها المحترم وبارادتها المعتبرة ـ تضع

نفسها في الخط البناء ، لمشاركة الرجل في الاعمال ، ولتحمل المسؤولية التي تلقيهـا عليها طبيعة وجودها .

ولقد وضعت خديجـــة نفسها على مثل هذا الخط ، ولم يكن الفضل في ذلك لمألوف التربية في محيطها، ولكن الظروف اتاحت لها ما حقق شخصيتها وابرز مواهبها .

احبت ، وهي في سن الاربعين، حباً اوحاه العقل – فهو حب معبر عن حقيقته – والامين محمد – فضلاً عن كونه نسيج وحده – هو ايضاً في سن الرشد والاختيار – قدر قيمة هذا الحب فلم يتأخر عن الاستجابة له .

زواج قوبل من الطرفين بذات الشعور ، بذات التقدير ، بذات الاحترام، وجعل من الاثنين لحمـــة متفاهمة متكاملة متلاحمة متفاعلة ، لم ينغصها يوماً اي خلاف .

ولقد خدم هذا الرباط حتى مدّ القدر يده فاختطف السيدة الكبيرة الى العالم الاوسع .

ان خمسا وعشرين سنة كانت مليئة بالحب والتفاني ، ولقد ذابت خديجة في حبها واخذت من زوجها كل ما اعطاها ، واعطته كل ما اخذ منها – لقد كان الاخذ والعطاء بنسبة واحدة بدون اي شعور من الطرفين بان الاخذ هو غير العطاء او ان العطاء هو غير الاخذ .

اعطت خديجة زوجها حباً وهي لا تشعر بانها تعطي ، بل تاخذ منه حباً فيه كل السعادة – واعطته ثروة وهي لا تشعر بانها تعطي بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الارض – وهو بدوره اعطاها حباً وتقديراً رفعها الى اعلى مرتبة وهو لا يشعر بانه اعطاها بل يقول : « ما قام الاسلام الا بسيف علي وبثروة خديجة » واعطاها عمره وزهرة شبابه، ولم يبدل عليها امرأة حتى غابت عن الوجود وهو لا يشعر بأنه اعطاها، وهو يقول: «لا والله ما ابدلني

الله خيراً منها، آمنت بي اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس»

ان في مثل هذا الحب – صادقاً صافياً – تجد المرأة نفسها سيدة نفسها ، سيدة بيتها ، سيدة مصيرها، وبمثل هذا الحب يجد الرجل جوه رحباً فسيحاً وكاملاً جميلاً .

ان التربية وحسن التنشئة وافساح المجال للاختيار كفيلة جميعها بإنشاء البيت السعيد لمجتمع ايجابي صحيح .

فاطمة

ونجد في فاطمة الزهراء مثالاً تطبيقياً آخر على كون المرأة هي استجابة لتلك التربية الممتازة، ولادة وتنشئة ، عملاً وايحاء .

لقد ربيت فاطمة في حضن ام كان الحنان يذوب من اردانها – وحنان الام ما فاض من قلب ام إلا بمقدار ما تفيض عليها في البيت السعادة – ولن تقاس السعادة في بيوت المتزوجين الا بميزان واحد هو ميزان الحب في تفاهم وتبادل وانسجام . فالبيت – بكل ما فيه – وحدة حياتية دون تمييز او مفاضلة ، دون محاسبة على اخذ اكثر او عطاء اقل ، ثم اجراء مناقصة او مزايدة – كل ذلك بعفوية تشملها الغفلة والنسيان ، وبعطف يفرضه العقل السليم ، نظافة وصدق شعور ، وتلبية وتنزيه ميول .

لقد وجدت فاطمة في بيتها كل هذا غمراً موفوراً ، وجدته ، حتى من قبل ان تنزل تكويناً في بطن امها – لقد مهّد لها هذا الجو وامها لا تزال بعد تداعب طيف الحب في قلبها ومحمد غائب بالقافلة بين مكة والشام – وجدته وهي جنين في الحشا تتلمّس امها بها خاصرتيها مع الليالي الطوال بمناجاة كأنها عذوبة الاحلام – وجدته مع اول شعاع ابصرته بعينيها بعد هبوطها الى الحضن الرفيق – وجدته مع قطرة الرضاع حاملة كل اشواق

الامومة – وجدته في طفولة بريئة قفزاً من حضن الى حضن ومن عنق الى زند ، بين ام حانية ذائبة واب وادع حالم ، واخوات ناعمات راغدات ، ورفيق تطوف في عينيه لمعة سيف – وجدته في فتوّتها تتفتح على اسرار الحياة فهماً وتيسير فهم ، وحساً وترهيف حس ، وشموخاً وتعزيز شموخ.

لقد تولّد لفاطمة – في هذا الجو الرائع – رأي شخصيّ حر ، هو كل ما امّنه لها مناخ البيت – لقد كان يسأل النبي في قضية فيجيب : « لنأخذ اولاً رأي فاطمة » – هكذا كان لفاطمة رأي في تربية صحيحة ، كانت لشخصيتها فيها تلك التنمية .

ولم تخب التربية ، فبمقدار ما توفرت اجابت : – توفرت غزيرة واجابت بغزارة – هكذا تزوجت فاطمة – رجوعاً الى رأيها ، واقتناعاً منها بصدق الرجل الذي تزوجته . لم تكن تحب – كما افصحت عن نظرتها ذات مرة لأبيها – « ان ترى رجلاً » – رأياً منها بان المرأة – اذ تعتبر سلعة وتحقيق شهوة للرجل – تتدنى مرتبتها في الحياة وتنحط ، في الوقت التي هي فيه نصف الحياة في جد الحياة ، نصف البيت في تكوين البيت ، نصف المجتمع في تدعيم المجتمع ، نصف السعادة في استقطاب واستكمال السعادة . وميول الرجل وميول المرأة هي من معدن واحد ، تأخذ منه الحياة مزيج عصارتها وطبخة قدرها ، فلا يجوز ان يفسد شطر من المزيجين بامتهان او بتقليل قيمة.

هكذا تنشأ الأسرة الفاضلة ، وهكذا ينمو المجتمع الفاضل : – نظرة صحيحة وتطبيقاً صحيحاً ، وانتاجاً صحيحاً ، ونتيجة صحيحة .

وكان لفاطمة البيت الصحيح ، البيت الذي تركّز على نظرة صحيحة ، ولقد وجد عليّ في فاطمة تكميل نفسه فاطمأن وراح يعمل من وحي هذه الطمأنينة ، باندغام وجد استجابته قبل ان يتم تأليف البيت ، – لولا ذلك الاقتناع الموحى من قبل لما تمت بينه وبين فاطمة هذه الوحدة التي لم يفرطها الا الموت .

ولن يكون الحديث في عائشة ـ ام المؤمنين الثانية ـ الا ليجد فيه تطبيقاً للنظرة الاجتماعية التي ترى في التربية هذه النسبية في الانعكاس .

وما كان الزواج الباكر لعائشة من النبيّ الا ليكون زواجاً ذا لون ـ ان ربط الاواصر بالزواج كان مألوفاً ، لا سيما في ذلك العهد الموصول بالجاهلية ، والمتلقط بالتقاليد القاسية الناشفة ، والمضغوط بروح قبلية مفروضة .

ثم ان القربى من النبي اصبحت ـ بعد انتصاراته الباهرة ـ مطمع هؤلاء الاسياد، ليجدوا فيها بعض التغطية عن زعاماتهم المهددة بالتلاشي، فاستعاضوا عنها باذابتها في زعامة ثانية هي اليوم زعامة فيها من اللمعان ما يبهر ، وكانت القربى من الرسول برباط الزيجة من اجلّ هذه المظاهر .

ولقد لبى الرسول ـ قدر المستطاع ـ ميل التقرب مطلوباً اليه ، في سبيل توحيد الجزيرة ورَفع جانبها ـ وما كان قبوله بعائشة ـ رغماً عن حداثة سنها ـ الا تظهيراً لهذا اللون السياسي مضيفاً عليـــه عطف القلب الذي افلتت منه خديجة الى الابد .

تلك كانت رغبة ابي بكر الصديق في تزويج ابنته من الرسول ،فاحتملت الى العش الزوجي مع لعبها وملاهي طفولتها ـ انه زواج من غير النوع الذي تم به زواج خديجة ... وهو ـ بكل جلاء ـ من غير النوع الذي تم به زواج فاطمة .

هنالك حب خبر نفسه ، وعيَّن دربه ، وامتلأ بحريته ـ فكان زواجاً معبراً تمام التعبير عن خطه وهدفه ، ليتحمل ـ عن رضى كامل ـ كل مسؤولياته غير منقوصة .

اما زواج عائشة ، فلقد كان ـ من جهة عائشة ـ محتاجاً الى عنصر التلبية الفاهمة المقتنعة . فانها لم تكن في عمر يمكنها من فهم ما تقدم عليه ، ان هذا

التفهم من ابيها لا يمكن ان ينتقل اليها بذات الحس وذات المعنى ـ انه زواج بين رجل وامرأة لا بين رجل ورجل ـ وليس عمر التسع ليفعم بهذا الشعور الناضج ـ لا من جهة التفتح الجنسي ، ولا من جهة التوسع العقلي ـ ان هذا التعويض عما يلزم ان يكون لم تتوصل اليه عائشة الا فيما بعد ، عندما تم لها البلوغ . ولم يكن لها ذلك الا في التدريج ، بحيث انها لم تتمكن من المشاركة الطويلة بهذا التمرس لا بعطف النبي ولا بفهم المعاني التي كانت تشع منه ـ لهذا كان الفرق بعيداً بين تحسسها بالقضية وتحسس خديجة بها ـ من جهة ـ وتحسس فاطمة بها من جهة ثانية . ان قضية الرسول كانت قضية خديجة ، وكذلك كانت قضية فاطمة ، وبقدر يتناسب مع قوى كل من المرأتين ، باعتبارهما امرأتين ـ اما عائشة فانه ـ بحكم الطبع ـ كانت مشاركتها في القضية مشاركة جانبية ، اضأل قوة وأخف حظاً ، ولهذه الاسباب عينها .

ولما مات الرسول ، لم يظهر على عائشة الا اللون الاصيل الذي قيدت به الى بيت الرسول ـ هو عينه اللون السياسي الذي تلونت به الخلافة باسنادها الى ابي بكر الصديق ـ هو عينه الذي جعل عائشة ، ابنة الصديق تركب الجمل لتقود ـ من على ظهره جبهة المعارضة ضد الامام علي . ان معركة الجمل شهيرة في التاريخ .

ان هذا الإستعراض الخاطف لموقف هؤلاء السيدات الجليلات الثلاث يوضح موقف المرأة في مشاركتها الرجل في ميادين جهاده ، وكيف انها تكون دائما لونه وانعكاس روحه ـ بالقدر الذي يتوفر لها .

يجدر بالمجتمعات العربية ان لا تنظر الى المرأة الا من هذه الزاوية الناعمة ، مسندة اليها دوراً خطيراً في البناء الجدي . فالمرأة ـ قبل ان تكون اداة ترفيه وتسلية ـ هي شطر الوجود الانساني ، وهي حرمته التي لا يجوز ان يلعب بها لعبة الهزل ـ ان من مشاهد الهزل تخرج المآسي .

خِطابٌ في بَاحَةِ المَسْجِدِ

هل كانت المطالبة بفدك ، غير المطالبة بالخلافة للامام علي ؟ وهل ان اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة ؟

ولقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم ان المطالبة بفدك لن تعيد اليها الارض – ولم تكن لتطلب ارضاً فيها نخيل ، انها كانت تطالب بارث آخر ، فيه عزّة النفس – فيه اصالة الحق – فيه عنفوان الرسالة – فيه امتداد ابيها... هذا هو الارث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد .

وسيان ، اكانت المطالبة بخطاب مدروس ام بخطاب مرتجل، ام –حتى– بخطاب لحمه التنقيح او الاقحام – كما يطيب القول للادعاء ...

يكفي ان تقود فاطمة قدميها الى باحة المسجد – ان تقف امام الخليفة بجبّة وخمار – ان ترمي اليه نظرة شزراء – ان تحرك يــداً بمعصم نحيل – ان تومي – ان تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل .

ولقد فعلت – ان التاريخ يشهد انها فعلت – ان صوتهـا ، وهي تلقي خطابها، لم يسمعه الا نفر قليل– ان ماسمع من خطابها ليس كلامها المنطوق – ان ما دونه التاريخ من ذلك الخطاب، هو المعنى–هو الفكر– هو التمرد على كل ما هو ظلم وجور ... لقد شرحت في الخطاب رسالة ابيها –لا لتشرح الرسالة– بل لتعيّن مركزها من الرسالة – مركز علي منها – ولقد طالبت بالارث ،

مثبتة ان لها حقاً فيه كما لكل البنين من وراء آبائهم ، ولقد نددت بالحاكم - قالت له انه مغتصب - ولقد نددت ايضاً بالمهاجرين : الصحابيين والانصار - لقد انفجرت نقمتها على كل هؤلاء الذين هم اشباه الرجال في تخلفهم عن رؤية الحق ونصرته - ولقد غمزت - بتنبؤاتها - بما ينتظر الظالمين الكافرين .

هل جاء الخطاب عميقاً ؟ ليس العمق على فاطمة بكثير - فهي اول من تلقن القرآن سمعاً وفهماً واول من رشف اباها حساً وشوقاً - وهل جاء الخطاب متيناً بليغاً ؟ ولا بدع - فهي زوجة ذلك الذي كان رب البلاغة والبيان . لعبت معه طفلة ، ورافقته فتاة ، وشاركته الحياة فكراً وميولاً ، واندغمت به زوجة واخلاصاً ، وانجبت له البنين عفة وطهراً. هل جاء الخطاب قوياً عنيفاً ؟ - لا غرابة في ذلك - ان التي تخطب هي ابنة الملع جبين شاهدته الجزيرة في تاريخها ، وهي زوجة اعز بطل رفع الاسلام بسيفه وبيانه ، وهي ام اشرف بزغتين في تاريخ الامامة .

ان لم تكن فاطمة الزهراء هي التي نطقت بخطابها الشامخ امام الخليفة - فمن هو الذي يكون اولى به منها؟ ومن هو الذي يكون احرى منها بتقمص الشموخ حساً وتعبيراً ؟

غير ان المتتبع تاريخ الزهراء بعمق ، لا يهمه - لا بكثير او قليل - ان يلهي نفسه بتحقيق حول ما هو تافه . ان الكلمة ليست غير قالب تعبير عن فكر او اداة تلميح عن روح - ولم تكن الكلمة - في تاريخ تدوين الكلام - لتصلح قالباً مكتمل الجهاز للمحة واحدة من لمحات الفكر او لخلجة واحدة من خلجات الروح - ان الكلمة أوهى بكثير وكثير من ان تضبط لون الخيال ضارباً في آفاق غير محدودة . لو ان للكلمة هذا القالب الموسوع ، لكفى بالقرآن آيات تتخلص من كل ما هو تفسير وشرح او تأويل واجتهاد.

ان خطاب فاطمة - بكلماته القليلة - لم يكن ، على كل حال ، كثيراً

عليها . بل ان العكس يفرض . فهو - بالنسبة - قليل وضئيل ، اكان تعبيرا عن ألمها بفقدان ابيها ، ام كان احتجاجاً عن حرمانها من ارثها .

ان العظيم منه والجليل - هـــو الذي كان يتوارى خلف الحروف - هو الشموخ الذي لا يمكن للحرف ان يتلقط به - هو عزة النفس - هو الشعور بالكبر - هو تلك الانفة التي منها تصاغ رفعة الجبين .

هذا ما كان في خطاب فاطمة امام الخليفة . لقد استكثروه عليها ، ولم يدروا ان الضعف فيه هو ان حروفه كانت هزيلة جداً امام معانيه ومراميه

البُطُولَــة

اي فرق كان بين البطولة التي تجلى بها علي بن ابي طالب في دفاعه عن الرسالة وبين البطولة التي تجلت بها فاطمة في دفاعها عن الحق امام الخليفة .

لعمري ، انها بطولة من معدن واحد — الفرق في ان علياً كان بمكنتـه ان يعبر عن هذه البطولة بسلاحين في وقت واحد : العقل والحسام — ان الحسام ما كان لفاطمة النحيلة ؛

تلك من نعم الصدف ان ترافق المنطق قوة البدن ، ولكن قوة الساعـد تكون هباء عندما تخبو شعلة العقل ، وتكون وبالا عندما تنعدم جودة المنطق.

وكل قوة في البدن — مهما يبلغ شأوها — ليست لها قيمة في الحساب إلا بين الكسور — اما القيمة الحقيقية فلتلك التي تعمل من ورائها كما تعمل القيادة الحكيمة من خلف الحصون ، فالعقل هو الذي يعيّن الاهداف ويجلوها امام قوة التنفيذ والتحقيق ، ان القوة — بين يدي العقل — تحصل على ايجابيتها ، وتنقلب ضعفاً وهو انا في غير ساحة المنطق .

ولما كان علي بن ابي طالب متين الساعد لو ان العقل كان يهرب منه — ولما كانت — لأية آية من آيات القرآن الشريف — سطوة الانطلاق والانفتـاح — لو انها ما تسلحت بنور المعرفة وبهاء الحق .

تلك حقيقة ، قلّ من لا يعرفهـــا كتحديد عامي — فلسفي ، مألوف

ومعروف ، وقل من يحترمها في نهجه التطبيقي .

واشد من يكون بحاجة الى هذا الفهم والتطبيق هي الطبقة الحاكمة ، فهي تتحصن بالقوة لتبطش ، ولا يجوز ان تتحصن بها الا لتعدل . وذلك هو الضياع في التحديد بين قوة السلطان تستمد حقيقتها من الحق ، وقوة السلطان تستمد نفوذها من هيبة المقعد — فالقوة الاولى هي التي تنبعث خلف هذه الهالة ، حتى اذا شعر بضياعها ضاعت من المقعد المسحور تلك المهابة وذابت عنها رغوة البهارج .

وليس قليلاً ما تعني الآية : « العدل اساس الملك — » ولست اظن ان دولة تفهم هذه الآية ويطالها الانقراض .

ان تطبيق العدالة في مجتمع ما — يشغل كل قوة في ذلك المجتمع في وجهتها الايجابية لتكون قوة فاعلة في الحقل الواعي ، وهنا تكون للقوة قيمتها المنتجة .

ولن تكون العدالة على حقل دون حقل فهي تطال المجتمع في كل طاقاته — تطاله في كل نواحي الحياة — في المادة وفي الروح ، في المادة عدالة اقتصادية وفي الروح توجيهاً فكرياً اخلاقياً .

هذه هي العدالة الكاملة التي ، اظن انها — اذ تنهج في دولة ما — تصون ذلك المجتمع من صروف الحدثان .

ولن يطلب في ذلك الكمال — فجمهورية افلاطون ظلت خيالا ولم يتحقق المجتمع الافلاطوني الا على الخريطة التي خططها قلم ذلك الفيلسوف .

وليس ذلك يعني ان المجتمعات البشرية ليست بحاجة الى المبالغة في التوجيه والى القساوة في التطبيق .

لقد كانت النظافة في الحكم رفيقة النجاح لكل هؤلاء القادة الذين تنظفوا

بالحق وتقيموا بالعدالة ـ قد يكون ان سقطوا في الساحة ضحايا مبادئهم ـ ومن على الارض لا ينحل تراباً ؟ ـ ولكنهم ، بقوة ذلك الاشعاع تمكنوا من الخلود . ان نظافة الخيال في افلاطون هي التي لا يزال خالداً بها حتى الساعة ، ان خلود عيسى ومحمد مدين لتلك العبقرية المتصلبة بمعدن الحق ـ ان السلسلة الطويلة التي تستحكم حلقاتها بكل هؤلاء العظام الذين مروا على سطح هـــذه الغبراء ـ تشهد لكل منهم بمقدار ما حمل من اشعاعات السمو ـ ان الخلفاء الذين تداولوا على مقدرات الخلافة في الاسلام ، يحمل كل منهم شهادة لا يزال يسجلها له التاريخ ، تعلو قيمتها وتهبط بنسبة تمسك صاحبها بالحق او تنكبه عن صفات العادلين .

لو ان الخلفاء في الاسلام مشوا على النهج المرسوم نظافة وحقاً وتقى وعدالة فاغلب الظن انهم ما كانوا توصلوا الى اية خيبة من خيباتهم الكثيرة .

هل تتمكن المجتمعات الانسانية من تطبيق كل ذلك ؟ ـ ان هذا منوط بها ، ولكن القول بان السير في المجتمعات البشرية على اساس من هذا السمو ، هو الذي يتطلبه العقل في المجتمعات الراقية لتحقيق كل الاهداف العظيمة ـ واشد تلك المجتمعات رقياً هي ابلغها رسوخاً في تحقيق هذه المثل .

تلك هي العدالة التي بشر بها الامام علي ، مشياً على صراط مستقيم ، هدياً من رسالة بشرت بالحق والعدل والمساواة .

هكذا يتم الابتعاد عن الخطأ ـ باتباع نهج يرسمه العقل والمنطق ، وتلك هي القوة تتسم بمعناها البطولي .

ان البطش وسفك الدماء ليسا غير تعبير عن قوة سلبية هي الوهم عينه ـ هي تهديم نفسها بتهديمها المجتمع ـ لقد كتب الامام علي الى الأشتر لما ولاه على مصر بعد محمد بن ابي بكر : « اياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فانه

ليس شيء ادعى لنقمة ولا اعظم لتبعة ولا احرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حلها ـ فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فان ذلك مما يضعفه ، بل يزيله وينقله . »

ان البطولة ليست قوة تستند على بدن وساعد، ولا على كرسي وسلطان، ان البطولة هي التي تتمنطق بالعقل فهما ورشدا فتعين الأهداف وترسم المناهج.

وما كانت بطولة الزهراء من غير هذا المعنى الجليل ـ غرفت منه ما لمعت به عيناها دون ان يؤثر عليها زندها النحيل ولا خصرها الهزيل .

التسجيل

لم تكن ـ على عهد فاطمة ـ اية لاقطة « صوتية » تسجل الكلمة التي تفوهت بها امام ابي بكر الصديق، وكذلك لم تكن هناك اية لاقطة «ضوئية» تعكس عنها الاشارة التي كانت تبدر عنها وهي تلقي ذلك الخطاب ، حتى ولم تكن ايضاً تلك اللواقط من الحروف الطائعة تنساق متلقطة بالفكر تضبطه في اطارها وتتمسك به ضمن خطوطها ودوائرها، ليحصل ضبط ذلك الخطاب في امانة الحروف .

لم يتم ، لا تسجيل الصوت ولا تسجيل الصورة ـ لا صوت فاطمة بكلماته المتقطعة ونبراته المتدفقة، ولا صورتها بعينها الحزينة وقدها الناحل ـ ولم يتم ايضاً لا تسجيل الاثر الذي تركته علي جمهور ساحة المسجد ولا تسجيل لون اذن ابي بكر الصديق بعد سماعها خفقة التنديد .

بالرغم عن عدم وجود اي شيء من هذا ـ تمت كل التساجيل ، كأن آ لة العصر الحاضر كانت في ذلك الحين هي ذاتها تفعل... ومتى كانت الآ لة ـ في تنفيذ اختراعها ـ غير تعبير عن شوق الانسان في حاجته اليها ؟ ان هـــذا الشوق هو ذاته الذي كان منفتح القلب والعين والاذن امام فاطمة في وجودها في ذلك الحين ، وفي كل وجودها . لذلك انسكبت في وجـــدان التاريخ تسجيلاً حفظته واعية الخواطر ، وتلقطت به حافظة القلوب ، وتناقلتـــه اشواق الاسانيد : تعبيراً عن ان الرأي العام في مجتمـــع الانسان هو حقيقته الماثلة في مكشوفها ومستورها على السواء .

لم تكن فاطمة وحدها التي تتكلم في ذلك الحين ـ ان الملايين في الجزيرة العربية كانوا يتكلمون ـ ولم يصل الينا سوى النذر من التساجيل عنهم ـ ألا ان فاطمة وحدها كانت تتكلم ؟ .

تلك شهادة على ان الرأي العـــام يتمثّل دائماً في خطوطه العريضة كما تتمثل قطرات الغيث في المجاري الزاخرة ، وكما تتمثل الانهار الجارفة في التحامها بالشواطىء .

ان الذين تكلموا في الجزيرة قد تم لنا تسجيل ما قالوا ـ وصل الينا كل الصحيح مما قالوا ـ لم يكذب الرأي العام فيهم ، فلقـــد صوروه وعكسوه ولقد اوصلوه مع العبر .

ان اللون السياسي الذي انصبغ به الخطان العريضان في ذلك الحين، عيّن في كل واحد منهما اسم القائـــد ـ عيّن الشكل ، وعيّن الفكر ، وعيّن الاتجاه ... ولقد عيّن ايضاً صفات الارث .

ولكن الارث الوحيد الذي ضاعوا عنه هو وحـده الذي كان كفيلاً لهم بتحقيق الثروة ـ نفروا عنه اذ كان الاولى ان ينفروا اليه ـ ان هذا الارث كان محصوراً ـ بالنسبة الى الجزيرة على الاقل ـ في تلك الوحدة المنورة بالحق والهداية ، ولقد قالت فاطمة في خطابها ؟ : « افإن مات محمد او قتل انقلبتم على اعقابكم ؟ »

ان في الانقلاب على الاعقاب رجعـــة الى ماضي الجزيرة في تفككها وتشتيتها ـ في عدم لحمتها وفي عدم تحقيقها ـ لقد وحدتها الكلمة الصائبـة ، لقد جمعتها الفكرة الكبيرة ، لقد رسمت لها الاهداف ، لقد طبقت امامهـا المثل ، لقد تحقق لها البرهان ، ولقد دفعت ثمن ذلك من دمها ... فما بالهـا ـ وقد مات نبيها العظيم ـ تنقلب على اعقابها ؟

وها هو الانقلاب على الاعقاب يدشن اول خلافـــة وضعت على كف

التاريخ – كأنّ الجزيرة ما تعبت كل عمرها من روح قبلية ما اطعمتها الا الغبار وما سقتها غير السراب – كأنها لم تتعب من انماط الغزو والتشريد على دروب القوافل ...

وكأنّ الرسالة ما جاءت بهذا البذل السخي الا لتخدم كرسياً لخلافة وتشبع نهما لزعامة ، وتحيي رميما لتقاليد – .

وكأنّ الحق فيها والعدالة ما كانا تبشيرا فذا بقيمة الانسان – بل كانا تفسيراً ضيقا وتسخيراً حقيراً لخدمة روحية مقبوضة على رثاثتها .

هكذا تكرس الانقسام مع اول خلافة برزت الى الصدارة ، ليبتر اول وحدة لمحها تاريخ الجزيرة .

اي شيء ، فيما بعد ، تمكن من اعادة اللحمة ؟ اي عهد من العهود التي كرت ، حتى الساعة الحانية ، عبر اربعة عشر قرناً – عمل على الترميم ، وساعد على محو ما علق في الخواطر ؟ – اية يد حاولت ان تتناول شريط التسجيل التاريخي لتحوّر بثه او لتغير الوان مرائيه ؟

واي مجتمع من مجتمعات الاسرة العربية – ابتداء من الجزيرة الام – ام الهجرات التاريخية ، وام القوافل الدارجة الى كل هذه المهابط اللاقطة حدو القوافل – اللاقطة والحاضنة والمطورة – اجل ، اي مجتمع لم تتعكر مجاريه من ثقل ذلك الغبار الذي ثار حاملاً معه كل هذا الكثيف من السموم والعفن ؟ ...

ولا تزال الاجيال حتى اليوم تتلهى بغربلة خطاب فاهت به فاطمة الزهراء : في هل ان كلماته خرجت بالفعل من بين ثناياها ، ام ان عبقرياً اخر نحلته عبقريته اليها ؟ ...

وفاطمة الزهراء كانت لوناً بارزاً في – الخط الثاني – كانت نصف الرجل الذي حمل راية الخط ، فهي معه وحدة في العمل وفي النهج .

ان المأساة في درس الخطاب من ناحية حروفه وليس من ناحية معـانيه ، كالمأساة عينها في ان نحصي خطواتنا على طريق مقفل يمتص اعراقنا دون ان يردها الينا قيمة ...

ان العبرة في تفسير مـا قالت الزهراء تكمن في تحصيل قولها انذاراً — والعبرة في ان الخلافة لم تقبل الانذار .

والعبرة كل العبرة — في ان الاجيال — اجيال الاسلام — لم تدرس حتى اليوم خطاب الزهراء ، وهي ضائعة بين ان تسنده الى فاطمة او ان تسنده الى مقحم ، طباق اخر على كل ما وجه الى الامام عليّ في نهج البلاغـة : اسنادا اليه ام اقحاماً عليه .

والعبرة في ان خطـاب فاطمة الزهراء ـ اكانت هي تدري ام لم تكن تدري ـ جاء يرزم قوة التعبير عن ذلك الرأي العام الذي اهتـاج ـ وهو يرضخ للواقع ـ ليعود فيتكون ثورة على كل مـا هو خروج عن خطوط الحق والعدالة .

منذ ذلك الحـين تكونت نواة المعارضة مطالبة بتركيز الخلافة على محورها الصادق ـ ومنذ ذلك الحين والخلافة لا ترتبط بمصير حتى تتقطع حبال ذياك المصير .

ومنذ ذلك الحين والسيف العربي لا يرتوي من دماء ابنائه ـ ومعظم الخلفاء لا يرتوون من شرب الدم ، صرفاً ، ام ممزوجاً بالخمور والفجور ـ اكان ذلك مع الحجاج ام مع السفاح ، اكان مع الوليد ام الامين بن الرشيد .

ومنذ ذلك الحين والخلافة تدور بهـا العواصف والزعازع من مكة الى يثرب ، ومن يثرب الى الكوفة ـ الى الشام ـ الى بغداد ـ الى خراسان ـ الى مصر ـ الى القيروان ـ الى الاندلس ـ الى بلاد الاتراك. ومن تفسيخ الى تفسيخ من الراشدين الى الامويين ، فالعباسيين ، والفاطميين ، والايوبيين ، والمماليك ، والمغول ، والحشاشين .

قد يكون في هذا القول كل القساوة في تحميل الخلافة الاولى هذا الحبل الطويل من المسؤوليات الجسام ، ولكن ـ اي طريق طويل لا يقاس بالخطوة الاولى ؟ واية دولة من دول العالم يتجسم الحقد فيها كما تجسم على يد الحجاج بن يوسف ، وبقي لها شيء من كيان ؟ كيف يربو الولاء في صدور حفدة مئة وعشرين الف قتيل حصدها سيف طاغية تثبيتاً لكرسي خلافة ؟ وكيف لا يكون الحقد وليد الحقد ، وقبور بني امية تنبش لتجلد فيها الرمم ؟ وكيف تربط دنيا الاسلام بعضها ببعض ، برباط الحب والانفتاح ـ ومؤسس الدولة الانفتاحية في الاندلس ، لا يزال يبكي اخاه مقطعاً بسيف الحقد والضغينة ـ وهو لا يزال هارباً من الملاحقات عبر الفيافي ـ كيف ينمو حنين الانسان الى وطنه ، وبغداد تحمل شارات التعسف والظلم منشورة جماجم معلقة في الهواء فوق جسور دجلة والفرات ، تدليلاً على عظمة البطش وهيبة السلطان ...

لعمري ـ ان رسالة الامام علي الى الاشتر ، تشهد للرجل الكبير بصدق نظرته وحصافة رأيه ... تلك الدماء ـ ذاتها ـ مهدورة بغير حلها ـ جبلت من طينها ـ فيما بعد ـ جماجم الغزاة ، شأن جنكيز خـــان وتيمورلنك ـ اجل ، هو ذاته تيمورلنك الذي بنى ـ في بغداد ـ بجماجم البغداديين ، مئة وعشرين برجاً .

اجل ان الخلافة تكون مجوراً عليها اذا حملت جريرة عدة اجيـــال ، ولكنها كانت مسؤولة – كخلافة لرسالة سوف تتخطى المكان والزمان ـ عن مد نظرها الى مثل هذه الابعاد ـ وهي مسؤولة ـ على الاقل ـ عن تثبيت قدم العدالة التي ما تزال قريبة من منابعها .

ان الخطوة الاولى قررتها السقيفة ، وكان فيهـــا ذلك الاعوجاج ، ولن يقاس درب طويل بخطوة معوجة ...

ولم يكن الاعوجاج من المتطلبين امجاد الحكم اكثر مما كان من الحبل الطويل المشدود على خصور القبائل ـ ذلك الشعب الذي كان معوجاً ، وما صرف

الجهد النبوي الا ليقوم اعوجاجه ـ .

كيف تبحث قضية الخلافة بامانة واخلاص ان لم يتحرر الباحث من الهوى؟ ولكن الذين تزاحموا على كرسي الحكم ما ساقهم اليه الا الهوى .

كان كرسي الخلافة ـ بين ان يثبت متيناً ، وبين ان ينهار ـ رهناً بحروف اسمه ـ : اما ان يكون خلافة ـ او ان يكون حكماً ـ والخلافة كانت استكمال خط واستمرار نهج ، والحكم كان لوناً سياسياً وصولياً .

ان الحكم في الجزيرة ـ في خطه الماضي ـ لم يكن درجة في سلم حضاري ـ ان الرسالة الجديدة هي التي نقضت هذا الحكم في مجال تحضير مادة جديدة يستقيم فيها الحكم ، تلك المادة هي الوجبة الروحية التي يكتمل بها رشد الانسان في الجزيرة حتى يتوصل الى حقيقة الحكم .

تلك الحقيقة كان يعرفها النبي وكان يعرفها اشد الناس اختلاطاً بالنبي ، لهذا كان النبي اكثر تشديداً على استكمال نمو رسالته بتسليمها الى الذي يدرك الكنه العميق ـ هنا كانت تبرز الاشارة بوضوح الى علي .

كان المقصود باسناد الخلافة الى علي ، خلافة بالمعنى الصحيح ، اكثر منها حكماً مؤقتاً ـ خلافة لرسالة تتمّم تحضير الوجبة الكبيرة ليأكل منها كل الذين هم بحاجة الى اكتمال الرشد .

في اي وقت يكتمل الرشد ؟ ان ذلك يكون رهناً بالسلسلة الطويلة في اكتمال نضجها وبث اشعاعاتها ـ وهذا كان ـ على ما يظهر ـ قصد الرسالة .

وَتـرٌ في غِـمْد

ان الذين كانوا اقل الناس فهما لخطاب فاطمة هم بالذات اولئك الذين كانوا حاضرين في باحة المسجد يصغون ـ لان ذلك الخطاب كان من نوع الامخال في اقتلاع الحجارة : لا يتأثر مركز الثقل فيها الا بنسبة ما تطول سوقها .

ولم يكن الخطاب موجهاً الى شرذمة من الناس ، فهو ما اخذ من المسجد قاعدة له الا لتكون له رنة الاذان .

لذلك كان الخطاب في المسجد لابعد بكثير من جدران المسجد ، ولم يكن للمئذنة في المسجد بل للجو الذي تتطاول اليه مئذنة المسجد ...

هل كانت فاطمة تدري بان لخطابها تلك القيمة وتلك الابعاد ؟ ولكن الثورة التي كانت متولدة في نفسها كانت من وحي تلك المعاني ومن مسافة تلك الابعاد ـ لهذا جاءت كلماتها ناعمة كالانوثة فيها وهادرة كانها التعبير عن انفجار السدود .

وكل شيء يفقـــد قيمته ان لم يكن تعبيراً ـ وثورة فاطمة كانت ذياك التعبير عن الم في النفس كانت تدرك هي كل اسبابه وتعاني كل اثقاله ـ لقد عاشت اباها في كل قضيته ، ولقد تزوجت علياً في تجسيده تلك القضية ، ولم يكن موت ابيها الا ليفقدها نشوة تحسس نجاح القضية واستطراد نموها .

لقد بدأت تلمس ـ بكل حسها ـ ان الموت الذي تناول الرجـل العظيم اخذ يمد يده الباردة الى النتاج العظيم الضخم من بعده ... ان البادرة الاولى

كانت رهيبة بالنسبة اليها : ـ اين اصبح كرسي الخلافة من زوجها ـ زوجها بالذات الذي ساهم بالنحت والتوجيه والاخراج؟ ـ ماذا كان النفع من الوصية؟ لم ينفع لا التلميح ولا التصريح ـ لقد جاءت مع موت ابيهـــا يقظة الردّة ـ تلك الردة الآثمة التي تفغر فاها لتهدد مجهود عمر ذاب في سبيل نشل الجزيرة من وهدة التردي والانحطاط ..

بوحي هذا الكابوس انطلقت فاطمة تعبّر عن نفسها لتعبر عن كل القضية ـ اما اولئك الذين سمعوها ، فانهم لم يسمعوها الا من خلال « فدك » ـ من خلال ارث ـ فقط ـ تطالب به .

انه ـ فيما بعد ـ في كل سنة بعد سنة ـ في كل جيل بعد جيـل ـ اصبح السماع اليها من خلال القضية .

هكذا كان يعمق ـ مع الوقت ـ سمع الخطاب ، وهكذا اصبحت فاطمة تسمع ـ من خلال صوتها الناعم ـ كأنها النذير ...

ما تضاءلت قضية « فدك » ولكن فاطمة اصبحت ـ من خلالها ـ «وتراً في غمد » .

فَدك

ما اضيق « فدكا » ارثا لفاطمة .

لن تكون قرية في الحجاز ـ مهما تطب ارضها ، او تبسق نخيلاتها ، او يترطب جو واحتها ـ حدود ارث لتلك التي وعدها ابوها بكل ميراثه .

وميراث محمد ؟ في اية خريطة من الخرائط تنزلت له الحدود ؟ ذلك الذي ربط الجزيرة بالافاق ، واذاب الآفاق في الاجواء ـ لا الارض وسمت ، ولا الخيال يطال ـ ذلك الذي فتح الغار على الاغوار ، لن تكون الارض وحدها حدود رؤاه ، ولن يكون الفضاء ابعد من مداه ـ انه رسول ذلك الذي هو قبل الحدود وبعد الحدود ، قبل الزمان وبعد الزمان .

ان اولئك الذين كانوا يطلبون خلافة ، قد ضيعوها لما وضعوا لها حدوداً ، وجزؤوها لما اقتطعوا منها ما سموه « بفدك » وما كانت خلافة محمد الا نظرة متطاولة الى ابعاد : ـ مع التراب وعبر التراب ـ مع الاثير وعبر الاثير ـ مع الانسان وعبر وجود الانسان . وما كان محمد ذرة من تراب الا ليكون كل الهيولى ، وما كان بؤبؤ عـــين الا ليكون فضاء المرائي ، وما كان غاراً الا ليكون كوى المفاتح ، وما كان « فدكا » او واحة في « فدك » الا ليكون جنة او كوثراً في الجنان .

ولقد رمز الامام موسى بن جعفر الى هـــذا المعنى في الشمول ، اذ حدد

« فدكا » بهذا الرمز : « الحد الاول لفدك ـ عدن ـ والحد الثاني سمرقند ، والحد الثالث افريقيا ، والحد الرابع سيف البحر مما يلي الجزر وارمينيا ».

وهذه حدود ، ان تشمل ، فانها لا تشمل غير حدود امبراطورية الاسلام ـ انها ليست اكثر من حدود مغبرّة فيها ماء وفيها تراب ـ وحدود« فدك » ـ لعمري ـ هي « فدك » وما بعد « فدك » ـ وهي بعد كل غور ، وبعد كل مرئي ، وبعد كل ملموس ومحسوس ، وبعد كل حاضر وبعد كل آت ، ـ انها كل ذلك : موحوداً ومضموماً ، مقطوعاً وموصولاً ، منثوراً ومنضوداً .

ولقد ذاب يهود « فدك » لما ذابت حدود « فدك » في الهالة الكبرى ـ ولقد انصهرت الجزيرة على« فدك » ، ـ في الساعة التي انغمرت فيها بالنور ـ في اللحظة التي انفتحت فيها آفاقها على الاجواء ـ في اللحظة التي وجد فيها الانسان حدود الانسان .

في تلك اللحظة فقط : تقلص القزم اليهودي ، وذاب وهم ارض الميعاد ـ في تلك اللحظة فقط ، ماد جبل « طورسينا » تحت خفقة ومضة الحق ، في تلك اللحظة انخبطت اسباط « بني اسرائيل » وفقئت عين « الاسخربوطي » وتصدع حجاب الهيكل، وطغى الزبد على مرفأ« ايلات»ـ فيتلكاللحظة كانت ترتبط الارض بالسماء ، وتتوسع آفاق الارض امام الزحف المؤمن ، لتتقوّض اركان المرتع الروماني وتهتز جذور أواوين الاكاسرة ـ في تلك اللحظة كانت تتثبت حدود اللامحدود ، وتذوب النزعات اليهودية الحقيرة في مصهر الحق والعدالة ـ في تلك اللحظـــة كانت تتنظف الارض من الادران ، ويتحول السراب الى انداء وينقلب عجين الغبار الى مزاهر ...

ـــثم عاد يعيش الوعل الروماني ـ عاد يتنفس الذئب في « اسرائيل » ـ عادت منذ تلك اللحظة ـ بالذات ـ تفرط فيها « فدك » الى حدود ، ينظر اليها عدداً من نخيل ورطوبة في واحة وسواداً في تراب ـ منذ تلك اللحظة

المتردية اخذ يتقلص النور ليحصر في زجاجة ، واخذت السحب تتجمع من مساحيبها العميقة كانهـا معاقد الدخان فوق البراكين تتحول الى نشفة السراب ...

على هذا المفرق الحزين ـ وبعد موت النبي ـ وقفت فاطمة تنشد ارثهـا فلا تجد حدوداً له اوسع من قرية في الحجاز فيها واحة وفيها نخيل ، وفيها عنصر من الناس ما كادوا يذوبون حتى عادوا فانفجروا اسافين تقوض عز امبراطورية كانت تفتش عن حدودها فوق الارض وتحت الارض ، وفوق السماء وتحت السماء ..

ابنة النبيّ

لقد كانت فاطمة الزهراء ابنة النبي اكثر مما كانت ابنة الامين محمد ــ لقد كانت ابنة الصفة في زوج خديجة .

واي معنى للانسان يعيش بجسده ولا يعيش بالصفة فيه ؟ اية قيمة لحبة القمح ان لم تكن تاجاً فوق ساق تمتن بقوة الخصب من قلب الحياة ؟ واي معنى لبتلات الزهرة ان لم تكن فوحاً بين وريقات تخضلت بانفاس الربيع وانداء السحر ؟ .

وفاطمة العفيفة كانت ابنة الصفة في النبي ــ الصفة المخصبة بعبقرية الخلق والتوليد ــ لقد كان جسدها النحيل وعاء لروح شفت حتى اندغمت بالمصدر الذي بزغ منه ابوها .

وهي التي احبت اباها ياكل اللقمة على المائدة الكبرى ويشرب الكوب من رشح المنابع ــ هكذا احبت اباها صفة في الوجود لا طينة من تراب ــ احبته ذرة رمل تحضن سوسنة وليس ذرة رمل تتطاير طحين غبار ــ احبته غماماً يتكاثف ليهمي غيثاً وليس ضباباً يتناشف ليرتجف سراباً .

تلك هي الرهافة في الصديقة الزهراء التي جعلتها ابنة نبي اكثر مما جعلتها ابنة عبقري ــ تلك هي القبلة المفتوحة على بواكير الصفاء، تخص رفيقة للرجل العظيم الذي شرع حسامين دفاعاً عن حق توطدت ركائزه على صلابة ساعده ومتانة منكبيه كما تركزت على متانة عقله وصفاوة وجدانه ــ وتلك هي البتول المحصنة بحب ابيها ــ حب ذابت فيه كما تذوب الشموع على مدارج الهياكل ، لتكون اطهر ام عرفتها الاجيال .

زَوْجَـةُ عَلِيّ

تبارك بيت لحارثة بن النعمان – بيت موصول ببيت ، جدار واحد يفصل ويجمع – ذلك البيت كان البيت الجديد الذي نزلت فيه فاطمة وزوجها علي، ليكون لها في جوار البيت الكريم جدار تسند اليه رأسها الناعم فتسمع من خلفه نبض قلب الاب الكبير يخفق حباً وكبراً وحنانا .

من هذا الجوار كان يمتد – عبر الجدار – سلك مشبوب اخـذت فاطمة تتلمسه ، كل صباح وكل مساء – وتنقر عليه من قلبها كل لفحات حبها وعطفها واعتزازها ، وتستقبل عليه من الطرف الثاني كل اللواعج المكنونة في قلب أب رأى الدنيا كلها مسكوبة في عين فلذة حلوة من فلذاته .

في هذا البيت الذي فضّلت ان تنتقل اليه مع زوجها ، تيمّناً بالجـــوار والتصاقاً بالجدار – تمت حياكة عمرها .

لقد تزوجت علياً – لقد عرض عليهـــا من قبل الزواج – من ابي بكر الصديق مثلاً – من عمر بن الخطاب طالب آخر – ولكن النبي الكريم مــا كانت له بعد الموافقة – إنه كان ينتظر – بفاطمة – القضـــاء ... حتى نزل القضـــاء .

ولقد تم الزواج ببساطة كأنها القناعة ، كأنها الرضى ، كأنها العفة، كأنها الاستسلام لمشيئة منتظرة ، كأنها السعادة المرجوّة على إرتقاب .

وارتبطت حياة فاطمة بحياة علي بالرباط الذي يجب ان يتقاسم عليه كل زوجين احكام المصير : نعيماً بنعيم وبؤساً ببؤس .

وتقدمت فاطمة الى ساحة الحياة ، تحمل على منكبيها اعباء المشاركة ، برضوخ المؤمن في استجابته للمشيئة الكبرى ، وكانت التلبية منها شهادة لها بالاصالة .

احبت عليّا بطلا ، فاندغمت به على بطولة ، احبته صمصاماً ، ولم تقبل الا ان يكون على يدها تلميع حسامه ، احبتـه خيالاً ولم تسبح الا في فضاء خياله ، احبته غيثاً ولم ترض الا بان تغتسل بالمزنة من غمامه .

كل هذا كان منها على تحقيق : رضى بفقر ، وصبراً على قشف ، واستسلاماً بايمان ، ورضوخاً عن اقتناع ، وسكوتاً في كبر ـ تأدية لواجب عينته نظرة واضحة المرأى جلية المرمى .

لم يكن الجدار الفاصل بين بيتها وبيت ابيها غير سلك تعبر عليـــه تلك الاشواق المحمومة : تنهمر عطفاًوضياء من عين ابيها ، تستنير بوهجها في تنقيل خطواتها على الطريق الشائك ، وتقوم بكل مسؤولياتها تجاه فروض الحياة ـ كيف لا ـ وهي ليست الا ام ابيها ـ ان قلبها الصغير بمكنته ان يتسع ليس لامومة مفردة بل لامومتين ـ هكذا رضيت بتحمل الاعبـــاء ـ مع جسمها النحيل ـ تحقيقاً لاهداف قبلت بها نفسيتها الجبارة .

ولن تخيب اشواق ابيها ـ ان خصرها النحيـــل سيتقبل خلجة الحياة الشريفة ، وستتوسع ضلوعها مع الجنين الاول لتضع في حضن الحياة اقدس ما تتمكن به من مشاركة الحياة في الخلق والابداع ـ وسيأخذ النبي اول نتـــاج لفاطمة ، وسيرفعه بين يديه الكريمتين ، وسينفخ في وجهه نسمة الحب والرضى وسيطرح عليه البركة التي سترافقه مع الاجيال .

هنيئاً للام النحيلة باكورة اعراقها وآلامها ودموع مآقيها تنطفيء كلهـا مع وعوعة طفلها الاول مرتسمة على محياه النديّ احلاماً عذابا تتبلسم بها عين ام انجبت لابيها عماد الملكوت .

ثم انجبت الام فلذتها الثانية ـ من عصارة نحولها ـ ليكون للنبي بالحسن

والحسين جناحان في امتداد المجال .

وبقيت الأم تنجب - من جسمها النحيل - لقد نزلت في البيت الفقير اختان اخذتا اسمي خالتيها زينب وام كلثوم ، وبقيت الأم تشارك بالمجهود ، تارة تسقط تحت العبء فيمد الزوج الأمين يد المساعدة؛ وطوراً تنهض لمتابعة الجهاد ببطولة ما كانت تجد في الجسم الهزيل تلبية لها .

وما ونت - ستتحمل موت ابيها ، ولقد تحملت من قبل اغماضة عين امها - وستشارك زوجها في بطولات الدفاع .

ان باحة المسجد ستنتظرها وهي ماشية اليه - ولن تنهار قبل ان تفي البطولات حقها ، وقبل ان تسجل - مع العبير - اسمها الجميل .

أمّ الحسن والحسين

وهذه رحم ما كانت بطانتها من لحم ودم ـ لقد شقت من قبل رحم مثلها عن ولادة جاءت رحماً لسمو الانسان ـ تلك مريم واضعة في حضنها ذلك الذي احتضن الارض والسماء ـ وهذه فاطمة الزهراء تتفتق خاصرتاها عن سلالة هي ديمومة النبوة في خطها الصاعد مع الاجيال ـ هي ارث الانسان في احتكاكه بالجوهر الاسمى فيه ـ هي ذلك التحضير النفسي لتحسس الانسان بقيمته المربوطة بالمصدر الاعلى ـ هي تكشيف ذلك الادراك الانساني عن طريق التحسس الضمني بان الله سمو ، واكثر ما يتحسس به هم الاولياء المرهفون .

وما كان الحسن والحسين الا بداية السلسلة المؤتمة ـ ان الرحم التي انشقت عنهما ما طابت الا في انها كانت مستقراً لذرية تحدرت من قطب الوعي العقلي والتفتح النفسي ـ تحدرت من مشيئة ذلك الذي استوحى المشيئات .

« هذان ولداي قاما أم قعدا » .

« النجوم امان لاهل السماء واهل بيتي امان لاهل الارض » .

يا علي ـ اساس الاسلام حبي وحب اهل بيتي » .

« اثبتكم على الصراط اكثركم حباً لاهل بيتي » .

انها مشيئة في تعيين الارث وضبـــط المخططات ـ ان الجزيرة المفككة بحاجة الى هذا الانضباط ـ ان انسان الجزيرة المشتت بحاجة الى جامع ـ الى ضابط والى وازع ـ انها باشد الحاجة الى القيادة .

وارث محمد ما وسع ليضيق وما انفرج ليقبض ـ ولقد اصبح ارث الرسول

اشمل من ان يحد بتخوم وابعد من ان يحصر بمجال ـ ولم يكن اعتماد النبي في التحصين والتكميل الا على رجل واحد شاركه بالتنوير والاضاءة ، ولم يهب حبه الكامل الا لامرأة واحدة انشطرت من قلبه وانتزعت من روحه ـ ولم يعقد له امل الا على اهل هذا البيت الذي اخذ يدرج فيه عمادا الاتي .

لهذا جمع اهل البيت تحت كسائه :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً » .

« الصلاة اهل البيت ـ الصلاة » .

هكذا تم التحضير ـ فالرسول انما هو فوق الارض لتسري عليه نواميس الارض ـ لن يكون بعيداً يوم يترك فيـــه جبلة التراب ، ولن يترك صفحة الارض قبل ان يترك لها خريطة الغد ـ ان الشريعة قد نزلت في قرآن ـ وسيعين عليا اول قيم على هذه الشريعة ـ من هنا تكون بداية الخط من جيل الى جيل .

ولم تكن اذن فاطمة الا لتتسع وهي تسمع اباها يمهد لهـــا ولاهل بيتها بالارث وبالوصاية .

في مبدأ البعثة قال النبي في علي : « هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم ».

في غزوة الخندق قال ـ وقد برز علي الى عمرو بن ود : « برز الايمان كله إلى الشرك كله » .

وقبل الهجرة قال : « انت مني بمنزلة هارون من موسى ، غير انه لا نبي من بعدي » .

ولقد روى ابن عباس ان النبي قال : « انه لا ينبغي ان اذهب الا وانت خليفتي » ـ « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق » .

ولقد قال الرسول : « انا مدينة العلم وعلي بابها » .

« اقضاكم علي » .

« علي مع الحق والحق مع علي ، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» .

« لكل نبي وصي ووارث وان وصيي ووارثي علي » .

ويوم الغدير قال « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

« من كنت مولاه فعلي مولاه » .

بهذا التحضير الكامل هيأ النبي عدة المستقبل ، موجهاً اهـــل الجزيرة لاعتماد الخطة الجامعة التي تأخذ على عاتقها السير بالامة على منهج موحد ، ليبعد عنها الضلال ، وليقيها شر الفرقة .

ان ام الحسن والحسين كانت اشد الناس استيعاباً لقيمة التحضير .

الإمَــامَة

وما كان التحضير الا ليحصر القيــادة في نطاق عصمتها ـ فالخلافة الاولى هي لزوم جمع الصفات الكبيرة فيها ـ فهي امامة ـ من حقها ان تكون راساً كبيراً وعيناً وسيعة وقلباً رحيماً ـ من حقها ان يكون لها ثقل السداد وبعد النظر وقطب العدالة وروح السماح ـ من حقها ان تكون هذا الرأي وهذا العطف وهذا التفاني ـ من حقها ان تكون هذا الكل وهذا التوجيه وهذه الرفعة ـ من حقها ان تكون ترجيح عصمة .

في اللحظة التي تأمنت فيها للجزيرة هذه العصمة المتكاملة تضافرت مجادلها نحو تحقيق ، ما شهد التاريخ له مثيلاً.

لم يكن النبي العظيم ليغفل عن سر نجــــاح دعوته الكبيرة ـ فاحب ان يترك للجزيرة من بعده من يتمكن من متابعة جدل الحبال ـ لن يكون ذلك عن طريق الاختيار ـ فقبائل الجزيرة لم تبلغ بعد الرشد حتى تتسلم بنفسها زمام نفسها ـ ان تربية المجتمعات الانسانية تلزمها الاجيال الطوال حتى تصبح الثقافة فيها اصيلة المعدن ـ ومهما تعمق تلك الثقافة في المجتمعات، فان الافراد فيها تتفاوت مفاهيمهم ولا يجمعهم كلهم صواب الادراك ـ ليبقى هناك واحد تنفرد فيه صفات القيادة .

ولقد احب النبي ان يعين القيادة من بعده بعد تحضير طويل ـ ولقد وجد في علي كل انصباب الصفات المؤهلة ـ ولقد جليت هــــذه الصفات وبرزت جلوتها ـ ولا شك في ان جلوتها كانت نتيجة هذا الاحتكاك المتين .

من هنا يبدأ الخط في توارث الصفات ونقلها في جو من الاحتكاك الدائم يكون فيه التمرس الطويل طريقاً للاقتباس وللابداع .

هكذا حصر الامامة في علي لتكون من بعده وحي ولاء عن ولاء وفهم عن فهم ومراس عن مراس وتوليد عن توليد وكفاءة عن كفاءة . بهذا الخط الثابت تتوصل الجزيرة الى حقيقة ديمومتها في الخط البناء المتصاعد ، موفرة عن نفسها التمرغ في حزبياتها والوان سياساتها ، مبعـــدة عن نفسها اخطار الاختيار في الرجوع الى قبلياتها المتناحرة على كرسي السيادات .

بهذا الاستقرار تتوصل الى نحت نفسها في تعميق ثقافاتها وتنمية معاولها وتمتين ركائزها ، وبهذا الاستقرار تتوصل الى تنقية اجوائها من زحم الغبار ، والى تجنيب واحاتها من رجفان السراب .

تلك كانت نظرة اصيلة الى مجتمع كمجتمع الجزيرة ، مرّ حقباً طويلة بمحاولات قاسية ما كان يجني منها غير التفكك المخزي : فلقد عاش مشتتاً فوق رقعة ملتهبة ، تهرب منها طراوة العيش وطراوة التفكير ، وتهرب منهـــا وحدة العمل وقوة الاستنباط ، وتهرب منها روابط المجتمعات المتحضرة من اقتصاد نام وثقافة مولّدة .

ولم تشعر يوماً بقيمة وحدتها حتى جاء النبي يلملم خيوطها ويجمع شتيتهـــا ـ ولقد سلمها للتاريخ عبرة من اذكى العبر : في كيف ان المجتمعات المتردية يفعل فيها التوجيه الموحد ما لا تفعله اية قوة اخرى وفي اي مجتمع لا يعتمد فكرة التوحيد .

تلك كانت يقظة الجزيرة في تحريك القوة الشعبية فيها نحو اهداف ومثل هي وحدها تلك الاهداف وتلك المثل تعيّن المنهج وتلوّن الخــط وتعصر المجهود من كل طاقة بشرية حتى تعمل ايجاباً .

ان تسليم الجزيرة لامامة مصقولة ـ خصوصاً في ذلك الوقت من تاريخها ، وفي تلك الحال من اوضاعها ، كان فيه كل الصواب وكل الرشد .

وما كانت فاطمة الزهراء الا لتشعر بهذا الثقل يرزح على بيتها الكبير ، فهي ام هذه الامامة وبداية هذا التاريخ .

الإرْث

كل الذين يرثون يتعين ميراثهم الا فاطمة الزهراء - فانّ ارثها لم يكن ليتعيّن - فهو - في الوقت الذي كان يشار اليه في فدك - كانت حقيقته تمتد من مكة الى المدينة الى خيبر الى هوازن ثم الى الشام والكوفة، ثم اخذ يمتد الى فارس والهند والى مصر وافريقيا.

لقد كان ميراثها في فدك من لون التراب، واصبح - فيما بعد من نوع الاثير.. لقد كان يتقيم - مع كر الايام - كانه من نوع امتداد الاظلال للاجسام تقصر في قرب هذه من مصدر النور وتستطيل مع بعدها عنه.

وكان ارثها مع ابيها نبوّة، واصبح في زواجها من علي، امامة ثم ارتباطاً ببطولات - وتطور في فدك الى صنوج تستثير الى جهاد، وانقلب مع الحسن والحسين الى امتداد القضية ثم الى استشهاد.

ثم تطاول الظل فاصبح الارث ولاء تعشقته الاجيال: عفة مسلك، وطيب تذكر، وحبات مسابح، ووجه قدوات، وحقاً مشروعاً يطلب وذكراً لا تطاله النسوة.

البَقِيْع

ان البيت الذي بني في البقيع من جريد النخل ، هو الملجأ الذي كانت تأتي اليه فاطمة تنفس فيه عن آلامها وأحزانها ــ لو ان وصية ابيها احترمت لكان لها كل التأسي ــ لكانت لها اليوم جهود تصرف للعمل الايجابي ، ولكن الموت الذي اسكت قلب ابيها ، مهد السبيل لرجعة جاهلية حالت دون وصول زوجها الى تسلم المقود .

ذلك كان الفشل الذريع. لقد هبطت ــ من اعلى ذروتها ــ مباسم الآمال، لقد ذبلت ــ من ابهج يوانعها ــ معاقد الاحلام .

كل ذلك جاء الماً على الم ــ يزحم بعضه البعض ، وجاء مع الكفر بالنعم، جاء مع الجحود مبيتاً على الكره والبغض والتحدي ، جاء انتهازاً لفرصة وضربة غدر : فكان اختلاساً وتحقيراً وامتهان كرامات واخلالاً بمواعيد ونقضاً لمواثيق ــ وجاء تهديداً لوحدة جماعية عصر مجهود عمر في خلقها وتمتينها وتعهدها ــ جاء تهديداً بهدر اتعاب كلفت كثيراً من التضحيات ونزف الدم في مجال تحقيقها وتثبيتها وتسييرها في وجهاتها الصاعدة المتألقة ــ جاء خطراً على الغد الذي ينتظر اكمال الصرح الثابت بعزيمة الابطال العباقرة ــ جاء مخدوداً بنزعة ، مصبوغاً بميل ، مبتوراً بنية ، مجروحاً بغاية ، مذلولاً بقصد ، مجنوحاً بقصر نظر ــ جاء يقسم الخط الموحد الى خطين ، ثم كل خط منهما الى ما لا يعلم الا الله قيمة كسوره .

تلك هي جسامة الآلام التي كانت تعانيها فاطمة ــ في البقيع ــ دموعاً على ابيها الراحل ، ونفثات من صدرها كانها الهلع على المصير .

بَسْمَتَان

والارض ـ ما استحقت من فاطمة غير بسمتين طافتا على ثغرها كما تطوف السخرية على فم حكيم امام كومة من الجهلة او شرذمة من الافاكين ـ والبسمة الاولى تذوقها ثغر فاطمة والالم يعصر قلبها حـــول فراش ابيها يطوف حوله شبح الموت ـ وكانت بسمة فيها كل الغبطة وكل الرضى ـ لقد شهدت لها بهذه البسمة عائشة ام المؤمنين ـ لقد شاهدتها على وجه فاطمة تنزل هانئة كما تنزل قطرة ندى في كم زهرة ـ ولقد تعجبت عائشة من بسمة تسرح على محيا فاطمة الحزينة قبالة جسد ابيها تتجاذب اوصاله الحشرجة ـ ولقد اتهمتها بما يشبه الخبل ـ فالموت الذي يخيم بجناحيه في القاعة الواجمة ليس بمقدوره ان يستل غير الدموع والولولة ، وما درت ـ الا بعـــد حين ـ ان بسمة فاطمة كانت جواباً على وعد اسره الاب في اذن ابنته بانها ستكون اول اللاحقين به .

تلك هي البسمة الاولى طرحتها فاطمة على وجهها ازاراً توارت خلفه بحور من المعاني : بحر من الادراك ـ بحر من الحب ـ بحر من التفاني ـ بحر من الزهد ـ بحر من الهزء بالارض وتراب الارض ـ بحر من التفلـــت ـ بحر من التوق الى التملص والانعتاق ـ بحر من الايمان بابيها ـ بحر من العنفوان ـ بحر من البطولات ـ وبحر من التراث المجيد .

وكرت بعد هذه البسمة دموع فتحت فوق خديها المجـــاري هي دموع الحنين الى تحقيق ما وعدت به من قرب اللقاء ـ هي دموع التراب يغتسل بتكسير الموج على الشواطىء ـ هي دموع الابطال يرسفون في قيود الاسر ـ هي دموع المآسي تتجسّم فوق خشبات المسارح .

وجاء دور ختام المأساة ــ تلك كانت بسمتها الثانية ــ بسمتها الاخيرة ــ لقد جادت بها وهي تسجي نفسها فوق نعش تمكنت هي من الصعود اليه ــ لقد كان قبولها بالموت كقبول عروس بجلوتها يوم الزفاف ــ لقد اغتسلت ــ ثم طلبت ان تلبس ثوبها الجديد ، والقت على جسدها بساط الكفن ــ لقد تمت الجلوة الباهرة ــ كل شيء قد تم ــ ان الكلمة الاخيرة جــــاءت التماساً بان لا يكشف جسدها بعدموتها ــ لقد انجزت هي بنفسها كل الواجبات ــ واغمضت عينيها ، وعلى ثغرها تطفو ابتسامة الرضى .

لقد اصبحت في حضرة ابيها .

أسماءُ بنتُ عميسٌ

تباركت انامـــل « اسماء بنت عميس » تباركت كف لمت الفراش وحامت حوله كما تحوم الفراشة حول المزاهر ـ تباركت باع اسندت الرأس المنحني على فراش الموت ـ تباركت قدمان طافتا في البيت كما يطوف الطهر في عب الزنابق ـ تباركت عين سحت بالدمع فاغتسلت به كما يغتسل الجرح بالبلسم ـ تباركت اذن نزلت فيها آخر دعوة من دعوات فاطمة :

« سترتموني ـ ستركم الله » .

لملمة الخيوط

عناصر البحث :

دوافع

منطلقات

شـّدة الاوتار

حبل الحزام

المردن

دوافع

اذ ينتهي هذا العرض ، بهذا التصوير التلميحي الموجز ، يكون قد برز الإطار الذي تتنزل فيه شخصية فاطمة الزهراء .

كان في موت النبي بروز هذه الشخصية التاريخية ـ وكان التصرف بالخلافة على النحو الذي انتقلت فيه الى يد ابي بكر الصديق ما عيّن بروز فاطمة الى الساحة المكشوفة بروزاً اضفى عليها هالة كبيرة من البطولات ـ وكانت « فدك » مفتاحاً للبوابة التي اطلت منها على رحابة التاريخ .

والحق يقال : ان كل القضايا التي لا يولج اليها من مداخلها تتعقد في وجه الوالجين ـ وليست كل قضية الا لتكون مستندة على نظرة فلسفية تبرر وجودها كقضية ، ان الفلسفة الحقيقية هي التي تكمن وراء القضايا ـ تتثبت هذه الاخيرة عليها من عمق الواقع ومن عمق الضرورة .

وقضية الخلافة بعد النبي كانت من تلك القضايا المصيرية الكبيرة ـ وكانت على مستوى القائد الاكبر ـ عالجها بحرص وروية ـ ولقد رأى انه من الخطر البالغ افلات الزمام فيها في معرض طرحها على الرأي العام ليقرر الرأي العام وجهتها وكيفية مصيرها ـ لقد كانت الشورى لديه شبه مفقودة ، فهو لم يكن يأمن للشوري ـ لقد كان له الرأي المنفرد بالعمل ، يقيناً منه بعدم وجود الاكفاء في معالجة قضية فتية وضع هو بنفسه لها كل البنود .

ذلك كان واقع الجزيرة ، في ضعفها كمجتمع ، وفي ضعف هذا المجتمع كثقافة وتوجيه . ان الرأي العام فيها كان نهباً لنزعات قبلية مشرورة دون

روابط ـ دون تحسس بمسؤوليات تتحملها همة الواعين المخلصين ـ ان قيمة المجتمع لم تكن من بين الفضائل التي يتسابق الى حرزها الواعون المدركون ـ ان هذا الحس كان ضعيفاً جداً ـ في الجزيرة ـ بمعناه المجتمعي .

ذلك كان ضعف الجزيرة تفقد به كل الروابط التي تجعل منها مجتمعاً متيناً ـ عكس ما كان ينشأ من حواليها من مجتمعات واعية سبقتها الى نبذ قسم من خلافاتها ، فسبقتها بكثير الى التحقيق .

وما كانت الرسالة الجديدة غير معالجة جذرية ، انوجدت بها للجزيرة قضية نجحت في التحقيق ـ وهي لا تزال تنتظر ـ في تثبيتها ـ مرور الزمن حتى تصبح ثقافة راسخة مع طول المران .

لقد اصبحت قضية كبيرة ، عينتها فلسفة عميقة نبتت من واقع صريح ـ ولا يجب ان تكون الخطوة الاولى الا في كل حـــذر ـ فالمجتمع ضعيف التمرس وخفيف المران – وتلك قضية اخرى يلزم ان تسند القضية الكبرى ـ انها قضية الخلافة .

ولم تكن النظرة للخلافة الاولى الا من معدن المخلوف ـ فالضرورة ايضاً تقضي بان تأتي طبق الاصل ـ دون احداث اية رجة في البناء الذي لم تنشف بعد طينة بنيانه ـ ان نظرة النبي الى قضية الخلافة عينها ، ـ هو ـ قبل ان يرحل ـ فكل المصادر تشير الى كونه قد عينها من وحي هذا الحرص وهذا الواقع ـ ان الذي كان بمكنته ان يسن شرعاً ودستوراً للناس ولاجيال الناس ـ لم تفته هذه الحواشي ـ ان واقع الجزيرة يقضي بافضاء الحكم فيها الى سلسلة منخوبة تأميناً للخط المرسوم .

ان التاريخ يثق بنفسه ـ فلقد دل الى علي بن ابي طالب بكل وضوح ، بانه هو الموصى به للخلافة ـ ان هذا الرجل العظيم هو الذي نحته النبي الكريم ليكون على الخط الطويل ـ ولكانت انتهت ازمة الخلافة لو ان الامور اخذت مجراها المنحوت .

كان الولوج الى قضية الخلافة ـ بعد موت النبي ـ من جانب غير الجانب الذي عين الدخول منه ـ لهذا كانت الرجة عنيفة بالنسبة الى البناية الناشئة ـ لقد اهتز المجتمع من الرجة المحدثة ـ هكذا عاد يستيقظ الرأي العام ليتسلم هو بنفسه زماماً لم يكن ليعرف كيف يوجه له المسير ـ لقد عادت القبلية عينها تخط في الجزيرة ، مثيرة حولها الغبار ـ لقد عاد الزعماء الى التمسك باعنتهم ليلهثوا على طول طريق عقد فوقه غبار وعقد فوقه سراب .

والقضية التي اثيرت ـ بنسبة مـــا حادت عن مستواها الاصيل ـ وجدت امامها العراقيل . ففيما يختص بخلافة الصدّيق ، كان عليها ان تعمد الى كل ما يعزز لها الدفاع — ان ذلك من اهم ملتمساتها . وكانت « فدك » — بقطعها عن اصحابها — من اهم الضلوع الدفاعية ، اذ ليس من الجائز ان يسلم الخصم اي سلاح — وفدك كانت مصدراً للخصم وموردا سيصرفه على تقوية نفسه : أكان مباشرة ام مداورة في تعزيز الانصار .

ولكن التعدي على الحق المشروع من شأنه ان تكون له ردة فعل تضيع قيمة القصد من المحاولة -- وقد ظن بان قطع « فدك » يقطع المدد عن فاطمة — وتاه الذين ظنوا بان ليس هكذا يقطع الوريد ...

ان « فدكا » كانت بخدمة القضية الكبرى — وقطعها لا يعتبر الا بمثابة انتهاك تلك القضية بالذات — لذلك كانت المطالبة بفدك مفتاحاً للوصول الى صلب الموضوع . ولو لم تكن « فدك » موجودة لكان التفتيش عن مفتاح آخر له نفس السرعة ونفس الغاية — مع العلم بان « فدكا » لم تؤثر لا بقليل ولا بكثير على سير القضية التي نشأت لتنفجر ازمتها رويداً رويدا مع السنين ومع كل فرصة سانحة — ان اليوم الحاضر لا يزال يلاحق القضية من خلال اسم « فدك » وليس من تحت فيء نخلة في قرية في الحجاز تسمى « بفدك » .

هكذا ظن الذين قطعوا « فدكا » عن بيت فاطمة — في خدمة لون سياسي ضل عن قاعدة مخطوطة بناء على هندسة صممها واضع الخريطة نفسه —

ولكن التغيير في الخريطـــة من شأنه ان يؤدي الى خلل عام في خطوط الهندسة ، ولن يكون اصلاح هـذا الخلل منوطاً بغـــير المخطط نفسه ـ وها هو الاصيل غاب ، وها هو الوكيل تفرض عليه القيود .

كل شيء ـ بعد موت النبي ـ مسه الخلل ، مسه التبديل والتحوير ـ لقد ظهر الاحتجاج ـ اول ما ظهر ـ في باحة المسجد، لقد نجح المخطط ، ولكن النجاح كان آنياً ـ سوف تظهر السحب في الافق ـ ان لم يكن الليلة ففي غد ـ ان العاصفة بدأت تنتشر امامها سحب الغبار ...

مُنْطلقات

ان التحسب سيعصر دمعة من عين الخليفة – امام فاطمة – وهو يؤاسيها، معتذراً اليها – وسيظنها البعض دمعة فيها رأفة وفيها ندم – ولكنها – بالحقيقة – دمعة فيها خوف من شيء مرتقب. ان الحس الضمني في ابي بكر الصديق كان يتأثر بذلك الذي كان يهدر في البعيد – ان اكفهرار الجو يشير الى اقتراب العاصفة – ان للرأي العام اسلاكاً خفية تتناقلها الملامح بين الخطوط في الوجوه وخلال رفات الاهداب .

ولن تكون تهجمات عمر بن الخطاب على بيت علي دليل خشونة في طباعه اكثر مماهي اكتمال لمخطط اضعاف الخصم وطرحه في سلة العزلة، تسكيناً لرأي عام – هو الاخر كان يشعر بدبيب هديره في الساحات .

ولم يكن الفرق بعيداً بين ان ينفجر هذا الاعصار في وجه ابن الخطاب او ان ينفجر – فيما بعد – في وجه عثمان بن عفان – غير ان تحسس الخليفة به وشريكه عمر كان صادقاً في شعوره ، فالثورة التي ستندلع ، كان لها – من نفسيهما بها حس الشعور – ذلك شأن الضمير يشعر بوطأة التجريم قبل ان يسمع الحكم من فم القاضي .

كل ذلك يثبت ان القضايا – اخص منها الكبيرة – يلزمها صدق الانطلاق حتى تستمر صافية في مجاريها . وقيادة الشعوب وبنيان الامم هي قضية الانسان في تدرجه فوق ملاعب الحياة – انها قضية وجودية مصيرية كبيرة القيمة جليلة الجانب ، لها حساب صارم وميزان دقيق – لذلك يجب ان يتنزه

القيم فيها عليها من كل هوى والا فان الحساب يكون عسيراً .

ولا فرق بين ان يكون الحساب وجاهياً ام غيابياً ـ فهنالك من قاضاهم التاريخ فبرأهم بعد ادانة وأدانهم بعد تبرئة .

غير ان الصدق في مثل هذه القضايا هو الذي يثبت فيها على تعميره وهو الذي يجنبها اهوال الاعاصير ، وهو الذي يرزمها في خط صاعد فيه الكمال وفيه الجمال وفيه كل الطمأنينة .

ان الامل بنظافة علي بن ابي طالب كان عاملاً من عوامل التهييج على الثورة التي انطلقت فاطمة الزهراء تداعب اوتارها وتحرك انغامها .

ان الامام علياً ـ بوجوده وبوجود فاطمة ـ كان طيفاً يعمل من خلف الستار في خاطر الرأي العام الذي اخذ من هذا الكبت يجمع مادة الاعصار.

وسيدمر الاعصار في انفجاره ـ سيقسم الخط الجامع بين الشام والكوفة ـ سيقطع الجزيرة الى خطين جريحين ـ سيقطع العالم العربي الى اخوين متنافرين متنابذين ـ متناحرين مستضعفين ـ وستهتاج الاجيال من مرأى الدم مهدوراً على غير خصب منزوفاً على غير ريّ ـ وستعيش « فدك » مقهقهة خلف « خيبر » لتتجاوب اصداء قهقهاتها في اجواء فلسطين ـ وستغتنم كل فرصة في العالم للاجهاز على الجسم المطروح بين اشداق التفسخ والعنعنات ـ لتبقى الرسالة وحدها بريئة من ضعف القيمين عليها : رعاية وفهما وحسن تبصر .

شدّة الأوتار

لقد جاء في البحث السابق ان الرأي العام في الجزيرة لم يكن مسؤولاً عن توجيه نفسه في المضمار الكبير ـ او بالاحرى ـ لم يكن مهيأ لهذه القضية الجليلة ـ ولكن ذلك لا يعني ان ليست له الاهمية في رصف القوى التي يتوقف عليها التحقيق ـ فالشعب هو دائماً ركيزة الانطلاق ـ ينقصه التوجيه ولا تنقصه القوة ـ انه يجد حقيقة قوته في حقيقة التوجيه ، ولكن قوته تنقلب وبالا عليه اذ يثار على فوضى .

وقوّة الشعب لن تثار في يوم واحد ـ انها تحرك في رأي عام يتكون من مجموع الثواني ويتألب مع السنين والقرون : كل حركة تحدث ـ كل كلمة من فم ـ كل نقرة على عود ـ كل نأمة او كل ضجة او كل حدث ـ ... كل شيء من ذلك يجد له تسجيلاً في الرأي العـــام يتراكم مع الوقت ليعبر عن نفسه في اللحظة الحاسمة .

والضجة التي قامت حول الخلافة الاولى ، سيصغي اليها الرأي العام بكل صمت ، وسيجتر صداهـــا كل يوم بعد يوم ، وسيدرسها بكل سكون ، وسيصدر لها او عليها الحكم ـ ان لم يكن الليلة فبعد عام او بعد عشرة اعوام **أو بعد قرن أو بعد عدة قرون ـ أن تسجيلات الـرأي العام لا يمحـوها مـرور** الزمن ، لا بل بالعكس، يزيد من حفرها في الترسيخ .

وصوت فاطمة في المسجد ـ لا فرق ان كان نغمة حزينة على وتر شجي ـ ام كان هدرة جريئة لها دوي الطبول والصنوج ـ فانها ، بقدر ما ارتبطت

بقضية ، وبقدر ما اعتصمت بحق ـ تناولها الرأي العام باذنه الحاضرة وراح يمضغها بصمته المألوف ، لتفعل فيه فعلها الصادق ، وفي لحظة من اللحظات .

ان فاطمة نفسها كانت تتكلم وتنتظر فعل كلمتها عليها مع الزمن ـ فهي ـ من الرأي العام ـ فرد مثله ، تنعكس نفسها على نفسها في اللعبة الجماعية الصامتة .

هل كانت فاطمة الزهراء تقصد ان تحرك النفير ؟ هل كانت تعلم انهـــا نبرة على وتر يبث نشيد الثورة ؟ ...

ولكن الثورة التي تهيج ، ليس بمقدور فاطمة الا ان تكون نأمة من نبراتها ـ فهي فرد من بين الافراد الذين يكونون وقود الثورات .

وثورة فاطمة كانت ذلك الصدى المرتد اليها من الرأي العام ـ فهي تعبير عن ذلك ، والا لما كان لها قيمة التأثير .

ان وصية النبي لم تحصر في اذن علي وحده ، ولم تستمر في خاطر فاطمة وحدها ـ انها انتقلت الى الرأي العام ، كما تنتقل قطرات المطر الى اغوار الارض ينابيع مخفية المجاري ـ وخطاب فاطمة في المسجد ان كان قد فعل ، فلانه وجد في كل قرارة نفس تجاوباً فعالاً وتحضيراً كامناً في الخواطر.

وستموت فاطمة قبل ان تشاهد فعل كلماتها ـ ولكن الثورة التي اندفعت بها الى الامام ستظل امتداداً فاعلاً مع الخبو ومع الالتهاب سواء بسواء .

حَبْل الحِزام

هكذا كانت فاطمة حبل الحزام ـ فالعـــالم العربي ـ وهو بالطبع في مجموع تكوينه وصيرورته هو العالم الاسلامي ـ حفظ لنبيه العظيم ولاء ما اختلف على تقدير قيمته اثنان ـ فهو الذي محضهم بالقرآن الكريم رسالة شملت كل قضايا الإنسان : مادية ـ روحية ، لهذا حفظوا لشخصه الكبير هذا الاحترام الذي لا يزال يرافق هذه الاجيال الطويلة .

ولقد تجسد هذا الولاء بشخص فاطمة الزهراء ، فهي بضعته السخية التي انجبت له حفـــاظ الارث وحبل الذكر ـ ولقد دار الزمان كل دوراته ، ودارت المحاورات الكثيرة حول تجريد هذا البيت مما يتمسكون به ـ بكل ما كانت تجود به الاساليب: من حصر ارث الخلافة في خط العمومة ـ صدقاً او ادعاء ـ او في خط ابناء العمومة ـ تفتيشاً عن انتساب او امتحالا لقرابة.

كل ذلك عزز اسم فاطمة مما جعل الانتماء اليها بمثابة دحض لكل المزاعم، فهي ابنة النبي واقرب من الاعمام وابنــاء الاعمام ـ فضلاً عن كونها زوجة ابن العم ، وتحمل ايضاً صك الوصاية ومهمة الانجاب .

كل شيء في وجود فاطمة كان يزيد من متانـــة التمسك بها ـ لقد بدا هـــذا العطف عليها من قبل ان تولد ـ ان اشـــواق الابوين ـ حتى ـ احاطت ولادتها بهالة قدسية ـ لقد كانت تربيتها تنشئة فريدة الاهتمام ـ لقد كان حب البيت لها تخصيصاً موحود العناية ـ ولقد اضفي على زواجها ما كان يضفي على زواج الآلهة في سرد الاساطير . ولقد اهتم ابوها بما انجبت، فسمى

ولديها بريحانتيه ، وطهرهما من كل رجس، ووصفها بانها من خيرة اسيادالجنة، ولقد وعد فاطمة بان يورث «هيبته وسؤدده للحسن وجرأته وجوده للحسين».

وبعد موت النبي ـ تحولت الانظار الى فاطمة من خلال اجتماع السقيفة ـ وتمسكت بها المعارضة من خلف كرسي ابي بكر ـ وتبنت حزنها الساحات العامة ـ والتفت حولها نسوة الانصار ، وكانت مطالبتها بفـدك بمثابة جمع الوقود ـ وفي موتها ودفنها تقمصها الزمن ، وانطوت بهـا الخواطر كالامل بالانبعاث .

هكذا اصبحت ـ مع التاريخ ـ اطلالة شوق وقدسية اطلاب ـ وكلما جار عليها الاضطهاد ، زاد بروز اسمها لمعاناً .

انها وحدها ـ وليس غيرها ـ قلبت الكرسي على رأس عثمان بن عفان ـ هكذا كان يشتغل وحي الثورة : ردة على ظـلم ، وجواباً على امتهان وهي التي ـ بعد ثلاثة قرون ـ تمكنت من مد سيطرة الدولة الفاطمية على ادعاء الاعمام بالخلافة .

ولم تنس « فدك » ان ترجع اليها كل مرة كان يلمع فيها الحق ـ لقد شعر ابن عبد العزيز بقيمة الانصاف ، فارجع الى فاطمة « فدكا» ـ لقد شعر بذلك ايضاً ـ فيما بعد ـ ابو العباس السفاح ، ثم من بعده المأمون بن الرشيد.

هكذا اصبحت فاطمة صديقة الاجيـال ، لتبقى مع كل مطلب حبل الحزام .

المـــردن

هذا هو نسيج فاطمة ، على هذا المردن تم غزله ـ فهي ابنة الامين محمد ، وابنة الوفية الكبيرة خديجة ، ثم اصبحت ابنة النبي لتصبح فيا بعـــد امه ـ حب ولده القلب ثم طغى عليه العقل فاذا هو كتلة من حس وشعلة من نور ، وتزوجت عليا ، رفيق صباها ودرع ابيها ، فاندغمت به كما تندغم بالسيف قبضته ، فانجبتُ الحسن والحسين ذرية لامامة سوف تتحمل اعباء التاريخ .

ليست قليلة تلك الشعلة التي التهبت بها شخصية هذه المرأة ـ فان تكن سيدة نساء العالمين فمن هذا المعين تستقي ـ فهي ابنة نبي ربط حاضر الاجيال بماضيها ووصلها بكل زمان يأتي ـ واخذ الارض طينة نفخ فيها نسمة الامل وتعلّة الجنة ، فاذا غبار الصحاري في الجزيرة ينعجن طينـــاً مخصباً واذا السراب فيها يترطب من كوثر الجنان واذا الآلام في الارض ترتفع الى فوق عقد امال، والمآسي تتعلق بحبال من السلوى والتأسي .

بهذه الهالة القدسية اتشحت شخصية الزهراء آخذة عن ابيها عبء مسؤولية الاجيال : فهي التي انحصر فيها ارث النبوة بكل ما حققت النبوة ـ بكل ما ترتبط به صفات النبوة ـ بكل ما ترمي اليه اشواق النبوة .

وتزوجت رجلاً كان زواجها منه تحقيقاً للمخطط العظيم وتنزيلاً لقدسية

الكلمة : « انت مني بمنزلة هارون من موسى » – وكان زواجها استكمالاً لمتانة ما انيط بها ، وما كان الحسن والحسين غير نتاج هذا الرباط الذي اكتملت به المشيئة .

هكذا ارتبط التاريخ برباطه، وهكذا اتشحت فاطمة بقدسية هذا الرباط هالة اتشحت بها سيدة نساء العالمين ازاراً من نبوة ، وازاراً من امومة ، وازاراً من امامة .

الخاتمة

غفوة الصدّيقة

واخيراً – هويت فاطمة – هوى معك الخصر النحيل ، يا نحول السيف – يا نحول الرمح – يا نحول الشعاع في الشمس – يا نحول الشذا – يا نحول الارهـاف في الحس – يا نحول العزة تتوارى خلف الخطوط في الجبين – يا نحول المجد يتخبأ في غمد حسام مقصوف – يا نحول البطولة ترسف في قيد من تراب – يا نحول البهاء تتلقط به زجاجة دكناء – يا نحول الله في عتمة البصائر ...

لقد عشت الارهاف ، يا أرهف امرأة عرفها التاريخ : إرهاف هو من امتشاق الحسام لمعانه .

يا ابنة المصطفى – يا ابنة المع جبين رفع الارض على منكبيه واستنزل السماء على راحتيه – عشت الكبر في انتساب الكبر الى سماواته ، فهانت عليك الارض يا عجينة الطهر والعبير ، ولم تبتسمي لها الا بسمتين ، بسمة في وجه ابيك على فراش النزاع يعدك بقرب الملتقى ، وبسمة طافت على ثغرك وانت تجودين بالنفس الأخير .

وعشت الحب يا انقى قلب لمسته عفة الحياة ، فـكان لك الزوج العظيم الانوف لف جيدك بالدراري وفرش تحت قدميك ازغاب المكارم .

وعشت الطهر يا اطهر ام انجبت ريحانتين لفتهما بردة جديهما بوقار تخطى العتبات وغطى المدارج .

ثم تركت الارض عن بسمة هزء بها فاذا هي تشتد اوتارها اليك من جيل الى جيل ، كأن اطلابها اياك هو تعطش السراب الى الندى .

وانبزغت من تحت الكفن كما تنبزغ السنبلة من حفنة التراب اضطراد نمو واشواق خصب ــ يا هجعة الغيث في قلب الغمام .

يا ابنة النبي .

يا زوجة علي .

يا ام الحسن والحسين .

ويا سيدة نساء العالمين .

الإمام الحسن عليه السلام

الكوثر المهدور

دراسة أدبية تطهيرية

الكتاب الذي احرز الجائزة الأولى في مسابقة
التأليف عن الامام الحسن عليه السلام

تأليف
سليمان كتاني

دار المرتضى

إلى اللجنة الكريمة

شكراً للجنة الكريمة ـ لقد أفسحت مجالاً في الاطلاع على سيرة رجل كريم الأرومة ، وزكي النفس ، وعميق الغوص في قضايا مجتمع الانسان .

كم هي الآن ـ مجتمعاتنا العربية ـ بحاجة إلى نهجه في التطبيق ، لكان السلام العاقل هو الذي يجمعها إلى تحقيق مثالي ، نظيف العقل والروح والكف ، ويبنيها بناء التوحيد العظيم الذي حققته أرقى مجتمعات الأرض .

أصبحت أؤمن أننا الآن بحاجة إلى الحسن ـ إلى الامام الحسن ـ إلى الرجل العظيم الزكي الذي هو الحسن .

المؤلف

سليمان كتاني

فاتحة

أيها الامام المجتبى
ضاء إسمك يا الحسن
والاسم لك
جادت به عليك عين المصطفى
وقلب له كريم النفخ والشفة واللسان .

وعقل بعيد الغوص والمدى والمجال
وخيال مدغوم الاسراء بالمعراج
تقودني الآن إلى عتبة لك خطوات تهدج الريح بها ، في حنين ، كأنه شفع من وتر دون أن يتعثر بها نجم خفقت به الليالي الأفكة فقطعت عنه موصول الشعاع

انها خطواتي الصغيرة الصغيرة ،
تنقلت بي إلى العتبات الكبيرة الكبيرة ،

وقفت بها ـ في فترات من قبل ـ على عتبات ثلاث، فإذا خلف كل واحدة منها محراب له عمق ،وله عطر ، وله سقف مدّ فوق السماوات .

لقد كانت العتبة الأولى مؤدّية إلى رحاب أبيك ، وهي ملفوفة بالرضوان .
وكانت الثانية مبلولة بالشذا النهلان بالطهر ، وهي منقوشة لأمك الصدّيقة

تجمعها إلى مريم ينت عمران زنانير مبتولة عن المثيل .

وكانت الثالثة لجدك ابن عبد الله ، ذلك الذي وصل الشطّان بميازيب السحب وأغدق عليها همرات السلام .

هي ذاتها هذه الخطوات ، أتراني أدرك ، وأنا أهمزها الآن إليك ـ كم أنت السيد الكريم ، وكم أنت الوارث العظيم ، وكم هي الأجيال لا تزال حتى الآن بحاجة إليك : ترتق لها المفاصل ، وتفك عن أوراكها عقد المعاضل ، بنهج كأنه ممزوج من بلاغة أبيك في الادراك ، وعجينة أمّك في تحمّل القذى ، ومرامي جدّك إلى عجن الانسان وخلقه من جديد في عملية التسليم والتوحيد .

اتراني أصيب إذ أشبهك بنهر الكوثر ؟ أم أنك لا تزال ترفل في ظلال هي منه أسخى وأوفر ؟

ولكن الذين كانوا مدعوين إلى تناول المنهل ، بدلا من أن يتذوّقوه ، هدروه فيا لظى الحلق إليك ، أيها الكوثر المهدور .

المقدمة

إنني مدعو للدخول اليك أيّها السيد الكريم، وها إني أهفو إلى قلمي حتى يطيب فيقرع الباب عليك . عفو المسافات يا سيدي فإنها لا تزال هي التي تهفو إليك هفو الريح في الفضاء ـ وبابك لم يقفل حتى يقرع ـ فهو هو ذاته في صدارة المحراب ، لأنك أنت المسافة التي ليست لأن يقطع إليها ، بل لأن توصل بها المسافات .

هكذا انوصلت بك المواعيد ، وانفتلت بك عهداً في وصلة الصباح بالصباح ، ودمج الضياء بالضياء ، فبدوت كأنّك الوصال المبني لاستلام الساحات دون أن توهي ـ هي ـ بفك الارتباط .

أتكون أنت منتدباً ؟ أم أنك انبثاق من مهجة الرسالة التي هي زرع الحق في الانسان ، ورفعه إلى مدار الكون ، والسير به إلى سناء يجعله إنساناً سوياً .

ألم تكن هي رسالة جدّك ، لقد أنزلت إليه في غار حراء من خلواته العميقة الموصولة الارجاء ، من استغراقاته المديدة المندمجة الذات التي هي مصدر المصادر في معانقة الحق ، من جهاد العمر كله من أجل التبليغ ، من أجل جعل الاشارة تحيا في المشار إليه ، من أجل جعل الانسان ينمو بالحق المزروع فيه والذي هو ـ وحده ـ نصيبه في الوجود ، من أجل جعل الله مُثُلاً في

النفوس الشريفة المبنية للرحاب ، من أجل ، جعل الانسان محررا من أي اخطبوط يخبيء أصابعه في عثانين الأصنام ، من أجل امتداد العمر بالانسان حتى لا يبقى : ما أن يولد في الليل حتى تتناوله الغفوة قبل تباشير الصباح .

لقد نجح الجد العظيم في بعث الرسالة ، وفي حفرها المتين في قرآن ، وفي نقلها البليغ إلى الانسان ، وفي تسجيلها على لوحة الزمان . وها هي الأجيال لا تزال موصولة به كما لا يزال هو موصولا بالمصدر الذي به تم الاتصال .

ولكن الرسالة التي بلغ بها الجهد إلى حقيقة الزرع ، وحقيقة العلوق ، ومن ثم إلى حقيقة الانطلاق ، إنما هي وصلة في الحياة ، ولا بد لها من تركيز يدفع بها من ثقل إلى ثقل ، كما هي الحياة بالذات ، لاتني تتلقط بكل شوق يتنقل بها من وصال إلى وصال .

وكنت أنت المجتبى ـ قبل أن تبصر النور كنت المصطفى ـ إنه الشوق في جدك تتناوله الغيرة على مجهود يلزمه الدفع الطويل حتى يبقى مستمراً ، يلزمه الدفع الذي لا ينتهي ، فهو ليس حكراً على عمر واحد يأتيه اجل ، إنما من أجل بناء الاجيال التي تأتي دون أن تصرمها الآجال إنما هو في الحقيقة المطلقة مجهود تشبث بحقيقة رزم الانسان حتى ينتصر الانسان . أما القيّم على هذا المجهود فهو الذي لا يعرضه الموت للغياب أكثر مما يبقيه في ساحة الصراع عن طريق توارث الصفات ، من سلف إلى خلف ، وهي هذي الصفات الموفورة تحفظ المجهود في خطّه الممدود .

تلك هي العصمة أيّها الامام ، جمع إليك حدودها جدّك البعيد المدى ، فإذا هي لك في كنىً توافرت فيها الصفات ، كأنها قنوات تستقي منها . فأنت أبو محمد ، وأنت الزكي ، وأنت السبط ، وأنت الريحانة في الجنّة ، وأنت الامام قمت أم قعدت ، وأنت السيّد ، وأنت المجتبى ..

إنّها القنوات التي وشمت بها ، لتكون إليها مشدود الالتزام ، كأنّها فعل من أفعال التحضير ، أو عملية من عمليات التخمير ، تلبسها ثوباً يُتَبَاهَى به فلا يُخلع ، وتلتزم بها قميصاً يمتصه عريُك إلى عظمك ، وتمشي بها كأنّك طود له

جذور في الأرض ورياحين مورقة في الفضاء وتترمد بها فتخرج على الوشم الذي يخلد به طير العنقاء .

بالاضافة إلى ذلك ، فأنت المسحوب نقطة من الخط الطويل ، لا لأن يقطع الخط بل لأن يبقى له ـ بك ـ حال الوصل : وصل الأبناء بالآباء، والآباء بالأجداد ـ إنها كريمة سلالة الأجداد ، ثبت طويلا عليها وجود الإنسان المهيأ للتلقط بكل قبس يشع على ضمير الإنسان . من قصي ـ إلى عمرو العلا ـ إلى عبد المطّلب ـ إلى الذي نمت في حضنه ، ورشفت الشوق من عينه ـ إلى أمّك الصدّيقة التي حضنتك في أحشائها ستة أشهر لا أكثر ، ولم تقبل أن تكون أمّاً لك وحدك ، بل أمّاً أيضاً لأبيها ـ ولا يصل الرزم إلى أبيك حتى نلمح أنه سيد من الأسياد هو قطب من الأقطاب ، ونور للعقل ، وركن من أركان الإسلام .

من مثل ذلك كله كان تحضيرك للسهر على الإرث المجيد ، ولم يكن لغيرك قدم في الساحة العريضة ، والتي هي الآن عريضة تحت عين جدّك المتوسعة المأخوذة بكل هذه الابهاء ، والتي صدق رصيده فيها وصدق حسّه ، وصدقت رغائبه ، وتطلعاته ، وتحسباته ـ فكنت أنت الذي ضاءت به الاشارة .

هذا هو الاطار الذي أعد لأن ينزل فيه الامام الحسن بن علي ، لتكون له منه الحدود ، كل الحدود . فهل صدق الزمان في سيره ، وتمكن هذا الإمام من التلبية ، تنفيذاً لكل ما أوكل إليه ؟ .

إنه ليخطىء الظن في أن مدى الرسالة المطروحة الآن على هذا الإنسان الذي يتدرج تدرجاً بطيئاً إلى مثال هو مقيد بزمان ، بل أنه مدى يتناول بدايته من الحقيقة المستمرة التي تلقطت بها هذه الرسالة إلى الحقيقة المستمرة التي لا ينقطع بها الاستمرار في ثبوت الحق في الحياة ـ إنه المدى الذي يتعدّى الوقت في الزمان إلى المسافات التي يطول بها الزمان ، كما وأنه يتعدّى الفرد في وجود الإنسان إلى القيمة المستمرة والمحققة وجود الإنسان .

إن الطرح الذي ابتدأ بابن عبد الله محمد كان نتيجة تولّد الشوق الكبير من الاحتكاك الملتهب بالجوهر ـ جوهر الحقيقة المكنونة في قلب السرمد ـ فكان

هـذا الطرح بـداية مـوصولـة بالحق الـذي ليس له بـداية والـذي به ومنـه وجود الإنسان ، ثم إن الطرح هذا وإن يكن قد قام به فرد معيّن ، فـإنه يتجـاوزه ـ إذ تخلو منه الساحة ـ إلى سواه ليصبح هذا الـطرح ذاته ملك الإنسـان ، لذلـك هو مخصص له وموجه إليه ، ومنوط به ، ما دامت الحياة مستمرة لا بوجود الفرد بـل بوجود الإنسان ، لذلك فإن رسالة محمد لاتزال هي الفاعلة حتى اليوم .

والإمام الحسن، لقد عين مسبقاً لأن تنتقـل إليه القيمـومة وسيحـاول أن يلتـزم بها مـا دامت له الأنبـاض في الحياة ، وسيتركها إلى الغـير مربـوطـة بنهج سيكون لها في مجال الديمومة .

ها هو يقف حـائراً عـلى المفارق التي وقف عليهـا جدّه الـلاهث المدّثّر ، وأبوه التعبان من صروف الدهر ، وها هو قد راحت يده تلوح بالاشارات الهادية إلى حقيقـة السير عـلى الـدروب المعـوجـة بـالإنسـان أتـراه قـد نجـح في تقـويم المسالك .

وإن يكن قد عاش في ذلك الحين المغمور بالعي والتنكر لاكتشاف حقيقـة الـذات ، فإنـه أوّل من أشـار إلى حقيقـة السلوك في الدرب الصحيح المؤدّي إلى حقيقـة البناء . لقـد كان بنـاء الإنسان في نهجـه مـوقـوفـاً بتـوسيـع الـدروب لا بتضييقها ، ببناء المجتمع الكبير والقـوي ، لا بتفتيته وتـوزيعه عـلى كل قبيلة من القبـائل فيصبـح عدة مجتمعـات بالضُعف تـوهى ـ بإزالـة أسباب الـداء قبل أن تنقلب هذه الأسباب بدورها إلى مسببات جديدة تتعمق بها أسباب الإنهيار .

لقد ابتدأت الرسالة بهذا الربط المتين ، وكان أساسها هو التوحيد ، ولقـد حققت بـه الإنفتـاح ، والإنضمـام ، والإلتمـام ، والانصهـار ، وتحقيق الجنى والإزدهار ، ولكنها في اللحظة التي وصلت فيه إلى الإمام ـ كانت قـد رجعت بها الأورام إلى الداء القديم الذي يفتك بهذا الإنسان ، ويوزعه إلى ألف وحدة فوق ألف أرض ، أيُّ شيء سـواهـا كـان يفصـل مكـة عن يثـرب ، والكـوفـة عن البصـرة ؟ وأيّ شيء غيرهـا في صفين فصـل الفـرات عن الفـرات ووسّـع هـوة الفراق بين الشام والعراق ؟ .

وجاء الإمام الحسن بنهج كأنّه الابتكار ، يحقن الدم بالصلح الأبيض حتى تـزول الأورام ، فتلتقي قدم بقـدم، وحسـام بحسـام ، حتى يكـون للمجتمـع العظيم قلب واحد وزند واحد يلعب بالسيف أمام الشمس وتخفق بـه راية الحق براية الإسلام .

لقد غاب الحسن وبقي لـه المنهج حتى تستقيم بـه مناهـج الأمّة في حقيقـة الإسلام ، فما هو هذا المنهج ، منهج الإمام ؟ .

القسم الأول

أطر وملامح

حروف مبعثرة
مع البداية
المهمة
رب المهمة
القيمومة
القصد من القيمومة
أين هي المهمة
الجلوة

حروف مبعثرة

-١-

أيّها الإمام - يا أبا محمد - أيّها التقي الـذي مشى حافياً فوق الـرماد - أيّهـا السبط الذي ارتبطت بـه الأواصر ، وانتهت إليه مفـاصل الحقب ، كـأنّك همـزة الوصل بين ثقل وثقل ، في حوملة تمتزج فيها البدايات بالنهايات .

أيّها الزكي الذي تحمل لعب النار في المصهر ، فـطابت به خميـرة الطهـر ، وصفا رماده .

أيّها اللون الجديـد المشرب بلون الـورود المتدليـة فوق الجـدران العاليـة ، كأنّها امتداد لبحور الجنان ، تشرب الكوثر بدَعَجِ العين ، وتفيض بـك الملامـح إلى حدود الرسالة التي لا يرتعش بها إلاّ ابن نبيّ .

أيهـا الأذن التي اصغت إلى الحفيف فغارت بهـا الأنغـام إلى القعر الـذي التهب بالصمت والوعد وفيض التمني .

- ٢ -

وأخيراً ، أيها المجتبى ، أيجوز لي أن أقول - إذ اختصـرتك بـوصف - إني وصلت إليك ؟ .

منذ زمن طويل وأنا أسعى إلى المبتغىٰ - ولم يكن لي أبداً أن ألمحك إلاّ بعد

أن تطول اغماضة عيني ، كأنك طيف تخف خطواته مع كل دغشة ندية تحلم بها المقاطع المارجة بأفواج الرياحين . ربما يكون لي من هنا أن اكتشفت شوق جدّك العظيم إليك وهو يشمّك ويقول: أنت ريحانتي النديّة ـ كأنك هكذا قد ولدت شعراً في باله .

-٣-

كنتُ مرةً اصلي بين يدي أبيك المنحني أمام عرش الحق ، وكنتُ ـ من فرط التهيّب مغمض العينين . ولكني أبصرته كيف تناولك من حضن أمك البتول ، ليعرضك ـ ملفوفاً بخرقة صفراء ـ على جدّك الرسول ، حتى يعطيك اسماً تمشي به على صفحة الأرض . فأخذك بين يديه ، ورمى عنك الوشاح الأصفر ـ لون الزعفران ، لون الأكباد المشحونة بالبغض والحقد والتشفّي ، لون العروق الشاحب فيها الدم ـ وأزّرك بثوب كان قد نسجه لك في لياليه الراعشة ، المفتشة عن مكوك تحُيّش عليه حقيقة الغزل ، ثم اصطفى لك الإسم المورق من ضفاف الجنان .

- ٤ -

لقد أسرى بي الخيال في مرة من المرات التي ينبت فيها ريش جديد لطير يشبه العنقاء ـ زرت فيها بيتاً لحارثة بن النعمان ، وهو بيت في المدينة يثرب ، مشترك الحيطان ، حيث كان يقيم ، في جناح منه ، جدّك الرسول ، وفي جناح آخر أبواك الجميلان ، علي وفاطمة ـ وفيما رحت اتيمن بلمس الجدران ، سمعت امرأة ، عرفت اسمها من نبرة الطهر في صوتها ، لقد كانت رَنْمَةُ الصوت لأسماء بنت عميس ، وهي تقول : لهفي على فاطمة ، لم تتمكَّنْ خاصرتُهاَ النحيلة من حمل ابنها البكر أكثر من ستة أشهر ـ وكنت أنت بالذات أيها اللطيف ـ وكنت الشبيه الفريد بعيسى بن مريم ، تتركان ـ عن ستة أشهر ، لا عن تسعة ـ مخامل الرحم ، إلى عالم لم تتصلب لكما إليه بعد متانة الجسد . ولكن عيسى لم يترك حنوة من حنوات الأرض الطاهرة ، لا في صيدا وصور ، ولا في الناصرة ولا في أورشليم أو بيسان أو جرزّيم ، إلاّ ووزع عليها قدميه

السابحتين ، وزرع فيها مواسم الناردين ، كما فعلت أنت بالذات ، عندما تمكنت منك الأشواط ، فلم تترك ساحة محرورة إلا حاولت ربطها بأخواتها من الساحات في عمليات كنت تستنبتها وتنقلها من حقيقة الرؤيا إلى حقيقة الاحتراز ، عن طريق التروّي والابتكار .

ـ ٥ ـ

كنت في ذات أمسية أستريح من عناء ، وكان رفيقي ، وأنا ملقٍ رأسي إلى وسادة، كتاب يحدث عنك، لم تأخذني حروفه، لأنها كانت يابسة بحبرها الضئيل ـ كانت يابسة البيان ، لأنها كانت يابسة الحس ، وإن نطقت حتى بالحقيقة ـ من هنا ينقلب لحاء الشجرة إلى قشرة يباس ، إذ تنقطع عنها العصارة الصاعدة والنازلة في آن ، ومن هنا كان الطهر في أمّك البتول مخزوناً في روحها لا في مجرى الدم في عروقها ليكون الحب في القلب المروي بالحس والنبل وبراءة الفهم ، قبل أن يكون دسماً في غدّةٍ يترابط بها قفص الصدر .

رغم ذلك فإني لم ألق الكتاب من يدي ، بل رماني هو في غفوة أغرقتني في حلم . ها إني ، وأنا مغفٍ أتذكر القول : « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها» . وها هي الآية ، كأنها تنزل إلى أذني من أعلى مئذنة ، إنها مسحوبة من سورة الأحزاب : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . » .

واختلطت أمامي المشاهد ها إني أسمع النبي الكريم يباهل أسقف نجران على أهل بيته ، وهم علي وفاطمة والحسنان .

ثم رأيتني أطوف الأزقّة في يثرب ، وسريعاً ما وجدتني على الزاوية الشرقية من المسجد أصغي إلى حديث يتفوّه به البرّاء بن عازب ، كأنه يتباهى بشهادة تبرع بها ألف مرة : رأيت النبي ، والحسن على عاتقه يقول : «اللهم إني أحبّه فأحبّه» . وما كدت أدير رأسي إلى الزاوية الثانية حتى سمعت محدّثاً آخر يدعى أبا بكرة ، كأنه يشهد أيضاً للمرة الألف : « رأيت رسول الله على المنبر ، والحسن

ابنُ علي إلى جنبه ، وهو يقبل على الناس مرّة وعليه أخرى ويقول : إن إبني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . » .

ومن طرف الساحة ، إلى هناك ، قيل لي أنه حبر الأمة عبد الله بن عباس : كان أيضاً في معرض الرواية عما سمعه من فم الرسول : « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق ، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس . » ومن الطرف المقابل سمعت من قيل عنه أنه زيد بن أرقم ، يروي عن النبي : « إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي : أحدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

أما الصوت الذي سمعته فقطع عني حومة الحلم ، فإنه كان لأبي هريرة شيخ المضيرة . . . لقد كان الإسناد عنه أنه كان اذا رأى الإمام الحسن مقبلاً يتسارع إليه ويقبّله في سرّته لأنه رأى الرسول هكذا يفعل . لو أن التقبيل صدق ومحبة ، لطابت شفة الذئب ولدغة الثعبان .

-٦-

ذكرتني قصة ابي هريرة بقصة سوادة بن قيس - إنها قصة تقبيل السرّة ، قيل : عندما اشتد المرض على النبي ، بعد أن رجع من حجّة الوداع ، اراد أن يجمع الجزيرة بمثال حي عن المحبّة والتسامح والغفران ، فعرض ذلك على كل من يعودونه معلناً أنه يتمنى أن يقتص منه كل من اساء هو إليه ولتكن واحدة بواحدة عملية الاقتصاص - فانبرى إليه سوادة بن قيس مدّعياً أنه لقي منه مرة ضربة سوط على بطنه ، فلنسمع إلى ما دار من حوار :

- النبي الكريم - اين انت يا بلّال ؟ ناول سوادة السوط المعلّق في الجدار .

- بلّال - هاك السوط يا سوادة .

- سوادة - اكشف عن بطنك يا رسول الله .

ـ النبي الكريم ـ هاك بطني يا سوادة .

ورمى سوادة السوط من يمينه وانحنى ساجداً يقبل سرّة النبي بشفتين ملتهبتين بالجمال والنّبي العظيم ليقول :

ـ اللّهمّ اعف عن سوادة كما عفا عن نبيّك محمّد ـ .

ـ٧ـ

في الحيز المكنون في وجداني ظن لم يكذّبه حتى اللحظة شعوري : لم يكن لجدّك الرسول أيّها الإمام أن يفرق بين ابيك البليغ في نهجه ، وابي بكر في طويته ، ولكنه كان الغارق في الشوق العظيم إلى تحضير القيمة في الانسان . لقد كانت وعرة كل المسالك ، ولقد كان لها البذل السخي من الدموع والاعراق والدماء النازفة من الاوصال ، ولقد كان التوحيد السبيل الأمثل في لملمة المجتمع وربطه بالانسان المدرك ، ولن يكون الادراك بغير التمرّس بالحق والمعرفة ، في تغطية بليغة المدد ، يترادف فيها الصدق والبراءة والعدالة والمساواة ، تحت ظل من جناح يخفق بالحب والتقوى ونبل الحس والشعور ، هيهات لهذا البساط من الروعة والجمال ، من اين له ان يبقى متين النسج من دون خيط حبيك الفتل وصامد المكوك ! من هنا كان للنبي المشرف على الساحة الكبيرة ، والتي هي الآن ممدودة من لملمة جهوده ، إن يضمن التركيز في قاعدة تتصارع عليها الاجيال دون أن تفرطها . اعتقد بأن اناطة القضية الكبيرة برجل يكون المسؤول الأوّل عن مجهود عريق التحقيق وبعيد المرمى في بناء المجتمع ، وبناء الطاقة التي هي وحدها الإنسان ، لامر جليل الأهمية في جمع الصفات وجعلها تتضافر في حبكها لتحمل المسؤولية الكبيرة والعظيمة والجليلة . من هنا يكون لهذا المسؤول المتين المنكبين بناء خاص كما هو بناء الرياضيين المتمكنين ، يبدأ باكراً في التحضير النفسي ـ العقلي ـ الروحي ، دون أن ينتهي التحضير ، في ممارسة اصيلة الحس والفهم والمؤدّى ، هادفة المران ـ انها الامامة كما يشير إليها القصد ـ إنها تمالك الصفات المتنامية في المسؤول المحضر لاستقبال العصمة المتمكنة من حفظ الرسالة المبنية لصيانة الانسان الذي هو عماد المجتمع العظيم الذي يكون

هو بدوره سياج هذا الانسان ، ومصدر المدد له في البقاء والاستمرار فلتشهد هذه الآية من سورة المائدة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ . إنها الآية التي نزلت في غدير خم ، حيث تمت المبايعة للإمام علي ذلك الذي تفتحت عينه على ولادة الرسالة ، ومن حيث كانت له الرفقة المرموقة ، ومن حيث كانت له المساهمة في الاعداد والتمكّن .

- ٨ -

لا اريد أن تشط بي الاهواء إلى غير الاستقراء في متابعة درس الاحداث في مسيرتها من غير ردّها إلى اسباب ومسببات ، وعرضها على محك التعليل وترك الحكم فيها إلى المنطق .

اليس حدثاً عبور الخلافة عن الإمام علي ثلاث مرات متتالية وهو المُوحىٰ له بها ، كما يؤكدون ، وهو الموجّه والمعد لها ، كما يشهد له الاستحقاق ، وهو المشارك البطل في تدعيم ركائزها ، كما يدل إليه السيف والبطولة في الساحات .

ولكن . . . اتكون الرسالة ملك الموصي حتى يعين من يريد قيّما عليها ؟ أية رسالة على صفحة الارض كانت ملكاً للذي طرحها ، وقدّمها ، وربطها بعقله وروحه واعصابه ، وبرى بنودها ، وصان نحوتها ، وبنى جدرانها وسقوفها ؟ .

إنما هي ملك المجتمع الذي يقبلها فتثبت ، او يرفضها فتنكفىء إلى سكون ، وإنما هو المجتمع هو الارض الخصبة التي تقدم الذخر حتى يتم العلوق ، والنمو ، والزخم ، والانطلاق .

لم يقبل المجتمع بتنفيذ الوصية ، فمن حقه أن يقبل ، مثلما هو من حقه أن يرفض .

يا ليته كان يدرك القصد والمرمى من طرح الوصية ، لكان له أن يحترم

الموصي والموصى له في آن واحد ، بدلاً من أن يعود إلى القبلية فيسحبها هكذا من وأدها .

اليست الردات مرضاً من الوهم المزمن ، يصيب مجتمعات الانسان ويرميها في المعاناة المؤلمة ، إلى أن يعود العقل إلى ردّة معكوسة سليمة يمليها وعي جديد ، وادراك مشع ، هما من الحياة مدد في الزخم ونعمة من كرم الله وجوده ؟ .

-٩-

والقبائل في الجزيرة إنهم مادة العرب - جمعتهم الارض ، وشتتتهم الارض - لقد كان لهم أن يفعلوا حيث تنكروا للقبلية التي كانت ترميهم في حقول مصفرة يقتاتون منها بالطفيليات .

عندما تصبح القبائل جمهوراً واحداً في الوعي ، يكون قد ولد فيهم الانسان في قيمومة الفهم والادراك ، وصولاً إلى تحقيق المجتمع المنيع الباحث في جوهر الحق .

اتكون رسالة الاسلام تلبية للاعجة شوق هاجعة في الطوايا ؟ نادتهم فانسحبوا إليها ، كما ينسحب العطش بالغزلان خلف كل سلك تلمع فيه لهثة ماء ؟ .

وكان التوحيد باسم الله الذي « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان » وكان السؤال من ذعلب اليماني موجهاً إلى الإمام علي عن ربّ علي ، وكان الجواب ، وكان التوحيد مربوط الإيمان بالذي يرى ، وبالذي بسط الحياة على كفّ الازل ، من لا بداية تلحظ ، إلى لا نهاية تدرك ، من حيث يكون الإنسان في ولادة دائمة ، يكتشف ذاته مزروعاً في صدر الحياة - بلا شأن - إلى أن يجد شأنه في المجتمع الذي يبنيه صاعداً لائقاً بعزّته وكرامته كانسان .

-١٠-

كان قميص عثمان منسوجاً قبل أن يولد - يا لـه من قميص ، بدلاً من أن يستر عرياً ، كشفه - ولكنه كان مشغـولاً على نـول تلعب فيه ريـح سموم ، وأن تكن قد هبّت عبر الفدافد المحروقة باللفح - فليس هذا الوهـج هو الـذي اندفق على هذا النول بوطأة النار ، بل أن البلية المسعورة برجم الحمم ، هي في القبلية التي لا تنام إلاّ على القلى المحروق بنبات الحمض ! يا لـه من نول فصَّلت عليـه الجزيرة كل قمصانها القديمة ، فهلهلتها الريح إلى ألف سهم .

ايها الامام المجتبى - كانت لك المحاولة البارعة وانت تتسلم المركز المسنود بمثل هذا العود - ولكن الولاء هو الذي كان معووراً - وبدلاً من أن تنجح بعملية حقن الـدماء ، وجعلهـا في اللحمة الممـدودة والمشدودة ، هـوت بـك مفـاصـل الارض ، لتبقى لك فيها ريح لطيفة تذكـرها - إذ تعـود بها دورة إلى الحق - بـأن السبيل الأمثل إلى العزة في الإنسان ، هو ربط المجتمع بوحدة انسـانه بـوعي هولـه في تحقيق المجال .

مع البداية

بهذه الصفحات المعـدودة وعنوانها « حـروف مبعثرة » أحببت أن أستهـل هـذا الكتاب عن الإمـام الحسن . تشكل هـذه الحـروف المبعثـرة رؤوس أقـلام لمواضيع تظهر فيها بعض الملامح الملفوفـة بأوشحـة من رموز ، مشيـرة إلى الأطر التي أحاطت بسيرة الإمـام ، ولقد عنـونتها بحـروف مبعثرة ، لأن مهمـة الإمام بالذات لم تتحقق لها جوانب الجمع والارتباط على سياق رتيب ، بـل تشعثت بها المفـارق في لوالب من الأحـداث قطعتهـا عن خطِّهـا وبترت خـطواتها فجعلتهـا تتوقف عن السير في طـريق قد اعـوج ، لتعود فتقحمهـا - من جديـد - في طريق آخـر ، رسمت خطوطـه بقدمـين مسحوبتـين من حقيقة السـاحة ، ومن حقيقـة رمالها وغبارها ، وأورام مفـارقها ، ومن مسـاحاتهـا بالـذات التي كان قـد جمعها الجهـد والجهـاد : من أطـراف اليمن ، إلى كـل المـطارح المنهـوكـة من أرض

الحجاز ، إلى الكوفة والبصرة والسهـول المطروحـة في أحضان دجلة والفـرات ، إلى الغوطة التي ينز عليها بردى ، إلى الشاطىء المكشوف والملفوف بالارض التي ولد فيها عيسى المغتسل العماد بنهر الأردن . . . كل هذه المساحـات أصبح الآن يهددها التقاطع ، وراح يتلازج بها عكر ممزوج الوحل بـالكبريت ـ فـما هو هـذا الوحل الذي راحت تتلازج بـه ساحـة الإسلام ، ومـا هو هـذا الكبريت الـذي راحت تصفر به أوصال الجهاد ؟! .

من المعلوم أن رسالة الإسـلام هي أطروحـة بكر ، نقلهـا النبي محمد من جهـده العزيـز الامتثال لانتشـال الجزيـرة من عتـمات ليس فيهـا أكـثر من سرج شحيحة لا تكفي شيئـاً في إظهار معـالم الطريق ـ هنـالـك إنسـان يقفـز قفـزاً في الليـالي ، يفتش عن واحـة ، وما أن يـطلع عليه النهـار حتى يفتش عن ظل ـ وذلـك هو التفتيش المضني ، والـذي هو أقـل من حرمـان . إلا أن هنالـك إنسانـاً ـ أيضـاً ـ يتحـلّى بالذكاء ، هو وديعة ربّه في الحياة ، وإن أي جهد يبذل في سبيله ، يخلصه رويداً رويـداً من متاهـات تضنيه وتقصيـه عن حقيقـة البحث في الشؤون الكبيـرة التي تجعله ـ عن حق ـ إنساناً راشداً .

فلنختصر ـ لقد أثمر الإهتمام العظيم ـ لـو أنه لم يكن مغـروفاً من حقيقـة الفهم ، وصدق العزم ، وعمق الرؤيا ، لمـا كان ليثمـر . وها هي الأطـروحة ، إنها في الرسالة، إنها في الكتاب الجديد الذي لم يكن إلا ليحلم به هـذا الإنسان حتى يجمع به موارد فكره ، وموارد عيشه ، ومواد دفاعـه عن نفسه ، وعن حقّـه في الـوجود . إنـه نظام حيـاتي ـ فكري روحي ـ مـالي ، وهـو ثـوريٌ في حقيقـة التنوير ، والتطوير ، والتحقيق . ولقد قبله هذا الإنسـان المشتاق ـ بعـد لأيٍ ، بعد ترددٍ ، بعد رفض . . . . ولكنه أخيـراً قبله وراح يتذوقـه كأنـه طعم جديـد لجنة كان يحلم بها حتى اكتشفها مزروعة في روحه ، وفي خياله ، وفي وجدانـه . قلت ـ قبله كتاباً ، ولكنه راح يسمع منـه ، أكثر ممـا يقرأ ، فهـو لم يتعلم القراءة بعد إلاّ قليلاً ـ هنالك أعـداد وفيرة من أمثـال هذا الإنسـان ، لا تزال تشـردها الجهالات في عمهٍ طـويل . عنـدما ينقلب هـذا العمه إلى ثقـافات ، تكـون قد فعلت الرسالة الجديدة ، وطابت بإنسانها الجديد .

ولكنها فعلت ـ لقد بدأت تفعل ـ ستستمر تفعل ـ ولن تنتهي تفعل ، لأنها بنيت هٰكذا لأن تفعل ، لأنها من الحياة : جهد ، وبذل ، وعقل ، وتصميم . أليست من هنا فاعليتها ؟ وهي كذلك ، فهل يمكن أن يكون الاهتمام بها أقل شأناً منها حتى تبقى متمادية في الفعل المتطور فتتأصل وتنقش في النفوس وفي العقول ثقافة كأنها الحفر المعبّر عن حق الإنسان في سوية ممتازة ، هي حقيقته في الوجود ؟ .

سيكون الإهتمام بها من أجل استمرارها في حقيقة الفعل، ضلعاً جديداً من ضلوع الأطروحة التي انشغلت بها الرسالة؛ فكيف رسمت حدود هذا الإهتمام والتنامي ؟ وتلك مهمة جديدة نبتت من صلب الرسالة ذاتها ، لأنها منها في مادة الوصل والارتباط ـ فكما أن الرسالة جليلة بهذا المقدار ، فمن المحتّم أن تكون مهمة الصيانة جليلة بالمقدار ذاته ، واستطراداً أقول : كيف رسمت حدود هذا الإهتمام ، وهل رسمت فعلاً حدود المهمة ؟ .

إن الذي يصون الرسالة اليوم هو صاحب الأطروحة الحاضر ـ فهو الذي قدم الرسالة ، وهو الذي تعهدها ، وهو الذي دفعها إلى الساحة ، وهو الذي لا يزال يدفعها ، وهو الذي ـ أيضاً ـ ينتظر خلو الساحة منه ؛ فمن تراه يعين خلفاً له يتناول مهمة السهر عليها ؟ إنه من الجحود أن يهمل المجتمع العظيم الذي رفعت من شأنه هذه الرسالة . لست أنتظر أن أجد حريصاً على الرسالة أبلغ من باريها ـ أتراه أعد الاعداد الكافي ذلك الذي سيتناول منه وعنه عملية الدفع والتكميل والتصعيد ؟ .

حري به أن يفعل ـ كثرهم الذين حوله ـ أكانوا مهاجرين ، أم صحابيين أم من الأنصار الفاعلين ـ لقد أعدّتهم الرسالة إعداداً مجيداً ، وإن متفاوتاً في الفهم والصلابة والإدراك ، أما تعيين القيّم المتفرد، وإنْ يكن ـ في الدلالة إليه ـ تعرضَ لإحراج ، فلا مندوحة عنه ، ولن يكون عنْ طريق القرعة ، بل بتخصيصه باعداد نفسي ـ عقلي ـ روحي طويل الأمد ، يجلوه الاحتكاك ،

والإختبار ، وبعد في النظر ، وتحضير مشتق من الـرسالـة ، ومن الغيرة عليهـا ، ومن تفهم مـراميها ومـرآئيهـا في الحيـاة ، فهـل حصـل هـذا الإعـداد من قبـل الرسول ؟

أول ما تمتد الإشـارة إلـى رجـل فذ ، كـان ربيب الرسـول ـ لمع إسمـه في الجـزيرة ، وفي جميـع أنحاء العـالم الإسلامي ـ منـذ ذلك الـوقت إلى اليوم ـ إنـه عليّ ، فهل سيمثل أصبع الرسول إليـه ؟ إنه ابن عمـه ، ولقد حضنـه في بيته ، وكان ثاني فرد في الجزيـرة يعتنق الإسلام ، وزوّجـه من ابنته فاطمة التي كـانت متفردة بحبّه ، والتي حصر ذريته بابنيها الحسن والحسين ، وأفرد لهما حبّاً خاصـاً دغمهما بالجنة . . . أيكون كـل ذلك حـاضراً ومحسـوباً في الاعـداد المنتظر التنفيـذ ؟ وهل هو ـ بحد ذاته ـ إشارة إلى التخصيص والتعيين ، تعيـين علي ، ومن بعـده يناط الأمر على التوالي ، بالذرية التي تبقى وحدها في المجال ؟ .

كثر هم الذين لمحوا الإشارة ، ولقد كانت ، عريضة وعريضة ، إلى درجة لا يحتـاج معها الى نص يـزيد وضـوحها ، ويثبت حـدودها ، وينقلهـا من حالـة العـرض إلى معنى الفرض ، ولكنهم كـانوا كثـراً ـ بالـوقت ذاته ـ اولئـك الـذين لمحـوها وحجبـوا العين عنهـا ، ولم يريـدوا أن يفتشوا لهـا عن نص يثبتها ، فهي ـ بـالنسبـة إليهم ـ تخصيص يحـرمهم من حق المشـاركـة في تحمـل المسؤوليـات الجسام ، فالانتخاب ، من هذا القبيل هو المفسح في المجال لتقـديم البارزين في طاقاتهم المهيأة ، والأنسب منهم هو الذي يكون له التعيين .

وغاب الرسول عن الساحة ، ومع اللحظة الأولى من غيابـه ـ وهو مسجى تتم على جسده الطاهر عملية الغسل ـ وقبل أن تحصل عملية الدفن ، وقبـل أن تنشف العين من دموعها حتى ترى أين هي الطريق ، وقبل أن يمهد التمهل درباً للتبصر . . . قبل كل شيء من هـذا ، تم السباق إلى دار السقيفـة ، وتم الحجز عـلى كـل نـظريـة في التعيـين المسبق ، وفي التخصيص المقفـل ، وتحسنّماً لكـل اعتراض يحصل ، تم تعيين أبي بكر الصديق أول خليفة للإسلام .

من البـديهي أن نحكم أن عمليـة كهـذه هي عمليـة تعيـين لا عمليـة

إنتخـاب ، فالانتخـاب هو استشـارة الجمـاهـير ، والاستشـارة هي وعي معـزز بثقـافة . لست أظن أن انتخـاباً واحـداً من هذا النـوع قد حصـل في تعيين أي خليفة من خلفاء الإسلام ، لا بل أنه كان بحصل بمبايعـات مقهورة ومهـدور فيها الدم ! لم ينتخب ـ إذاً ـ أبو بكر ، بل جـاء نتيجة تمثيـل خفيف جداً ، قـام على صراع بين بعض الصحابة وبعض الأنصار ، ولم يحصل أبداً على إجمـاع ، وبهذا يكون رفض التعيين وقوعاً في تعيين ممهد لخلاف .

إن الفئة الثانية الممثلة بعليّ ، والتي لم تستشر ـ كانت مقتنعة بالتعيين الذي أشارت إليه إرادة النبيّ ـ فهو تعيين مربوط بجوهر الرسالة ، وهو تعبير عن مركز ديني ، قبـل أن يكون تعبيـراً عن مركـز دنيوي ، بمعنى أنـه دين قبـل أن يكـون دولة ، وهو دولة بعد أن تصلح بالمثل التي تقدمها الرسالة أساساً في كل شـرع . إنه دين قبل أن يكون سياسة ـ وهو سياسة عندما تعززها الرسالة بالهدى والرشد ، وهي تعيين منبثق من جوهر الرسالة ، أكان مثبتاً بنص ، أم مشاراً إليه بتلميح ، إنه جوهر الـرسـالـة . أمـا الانتخـاب ، فلتبن الـرسـالـة ـ أولاً إنسـانـاً يتـوصـل إلى حقيقة الإنتخاب . لا تزال الرسـالة في أول الـطريق ـ وهي التي توفقت وخلقت إنساناً ـ ولكنه لم يصل بعـد إلى السويـة المؤهلة ، فلتبق هي الآن في المرحلة التي تؤهل الإنسان وتحضره للوصول إلى حقيقة الإنتخاب .

تلك هي النـظرية التي قسمت إلى خـطين : واحـد يـريـد الشـورى ، أو الإنتخاب المفروض ـ وثان يتعلق بالتعيين الذي تحضره التقوى ، وتؤهله للقيـادة وتبتعد به الجماهير عن انقسامات قبليـة ، لم تكن يومـاً واحداً في مصلحـة الأمّة المشرّدة ـ هنا وهناك ـ قبائل على صفحة الأرض ! .

ذلك هو نصيبك من الساحة التي راحت تغرق من جديد بـوحل قـديم لا يخصب ، وبكبريت ليس فيه نسمة أو بلّة ـ أيها الفتى الصغير . لقد مـات جدك وهـو ينظر إليـك وهو مستعجـل لأن يسلمـك المهمّـة ـ أتـراك تستعـد منـذ الآن لاستلام المهمّة ، فتحيا أنت في عين جدّك التي لا تزال هي تحيا في الرسالة ؟! .

المهمة

والمهمّة ـ أنها رسالة الإسلام ـ ليس في قصدي أن أحدّدها ، بل أن أتناول منها ما يشدد ضلوع البحث الذي هو الآن في متناول الإشارة . من هنا إن المهمّة الجليلة هذه ، والتي هي قضية الوجود ، أو بالأحرى قضية الإنسان ، ليس يطالها التحديد بأوسع مما يحصرها الإسناد بأنها مصدر من مصادر الشمول ، وضلع من ضلوع الكون ، محضرة لأن تبتدىء بالأنسان ، ومهددة بالخبو إذ تخمد جذوة العقل في الإنسان . إنّها ـ بالفعل ـ قضية الإنسان ، فهي رسالة منزلة الحروف لهدي الإنسان ، والسير به قدماً في الدوائر المدركة حقيقة الكون ، والمتلقطة بكل سبب من الأسباب التي تنتقل بالإنسان من الجهل إلى الوعي والإدراك والتحقيق الإنساني ، في قبس من نور يشع بالحق ، وينعكس بالجمال ، ويتحلّى بالمثل التي تبني المجتمع العظيم بناء صادق المفعول ، وصامد التركيز .

إن التحديد فيها ، كمهمة ، يقوم ـ إذاً ـ في التدليل إلى مؤدياتها . يكفيها التلميح إنها جمعت في غار فتحت فيه كوىً تدلت منها حبال من الشوق الذي يولد فيه ولادة دائمة : الإنسان ، وفكر الإنسان ، وعقل الإنسان ، وخيال الإنسان ، وكل الأماني الكبيرة في ضمائر الإنسان ؛ ويكفيها التبصر إنها نزلت في قرآن ، لم يقرأه الإنسان الأمي في المحيط الذي نزل فيه ، بل أخذه إلى وعيه وجنانه حفظاً كأنه التسجيل ـ بل وأخذته الأجيال في امتدادها الإنساني المجتمعي ، وطوّقت به وجودها الحياتي ، وبنت عليه كيانها الحضاري ، وراحت به إلى ديمومة فاعلة واعية بالحق ، وراشدة بالمثل ، داعية إلى المعروف ، وناهية عن المنكر .

أتكون زهيدة هذه القضية في كل مجالاتها في التحقيق ؟ وأي شيء هو الزهيد فيها : ولادتها في غار ؟ ولكنها فتحت الغار على الأغوار ـ كذلك بالتمام كانت ولادة عيسى في مزود ـ ولكن الطفل الذي تدفأ بأنفاس الحملان ، هو الذي حملته البراءة إلى اكتشاف الحق المزروع في روع الإنسان . . . وكما في

مزود ، كذلك في غار ، كانت ولادة جديدة ، كانت ولادة الإسلام ، وفي المزود كما في الغار ، كان حبك الزنار الذي لا يزال أطول زنار تزنرت به كرة الأرض ، وجمعها كلها في وحدة الإسلام .

ليست زهيدة ـ إذاً ـ هي القضية التي تلقّى حروفها ابن الغار . لقد انتشل بها إنسان الجزيرة من غيبوبة طويلة إلى ديمومة في الحق ، وبدلاً من أن يكون لهذا الإنسان تعلّق بألف عثنون لألف صنم ، داس عنه ابنُ الغار كل الثعانين ، وقدّمه واحداً ، حراً ، كريماً ، إلى الحضن الواحد الذي هو ربّ العالمين ، ليلتقي به الجمع والتوحيد ، وتتنزه به الصفات الكريمة التي بها تبنى المجتمعات ـ وهل بغير التوحيد يثبت الإنسان ويزدهر مجتمع الإنسان ؟ .

رب المهمة

عفوك اللهم ، يا أيها الخالق الذي ناجاك الإمام علي «بان العيون لا تراك بمشاهدة ، وتدركك القلوب بحقائق الايمان » أنت الرّب ، والإسم لك في الربوبية ـ فأنت الباسط الكون : لففته بالمجرّات ، وأنرته بالشموس ، لتكون أنت المجرات ، وأنت الشموس ، في الدائرة التي تبتدىء باللابداية ، وتنتهي باللانهاية ـ أنت الغار الذي حفرته في حنوة من حنوات مكة ، وأنت الذي رفعته إلى حيث لا ينتهي غور ـ وأنت الذي نزّلت على عبدك ورسولك محمد حرفاً ، ناطقاً ، محرور الشوق والعين والخيال ؛ فأنت الرب ، وأنت الاله ، وأنت الكل في الإتصال ، وأنت الإنسان في الإنسان الذي يحمله الوجد إليك .

بهذه اللمحة من وجدان رغبت أن أفتتح حصّتي في البحث عن المهمة الجليلة التي تتوسع برسالة الإسلام ، والتي يكون النبي الكريم محمد ركيزة من ركائز الأداء فيها لتصبح منسوبة إليه ، وليكون ـ بالتالي ـ أول من امتثل بها امتثالاً واعياً ، وفاهماً ، ومدركاً ، وملبّياً ، وليصبح ـ بالنتيجة ـ أحق من يملكها ويملك حدودها ، ويملك سنتها ، وحق الدفاع عنها . هو الذي دخل الغار فهو المغوّر ـ وهو الذي نزل عليه الوحي ، فهو المتقبّل ـ وهو الذي ناء بالحمل ، فهو

المتحمّل ـ وهو الذي حمل التبليغ، هو المبلّغ ـ وهو الذي التهبت أوصاله، فهو المدّثر ـ وهو الذي تقدّم إلى ساحات الصراع ، فهو المصارع ـ وهو الذي بشّر بالحق ، فهو الهادي ـ وهو الذي جمع القوم ، فهو الموحّد ـ وهو الذي مات في سبيل تحقيق الرسالة ، فهو الخالد . إنه ـ إذاً ـ هو الأحق بتخصيص وتعيين من يقدر أن يعتني بالرسالة ، رسالته .

ولكنه لم يوص إلّا من أجل الحفاظ على الرسالة ، لأنه كان يدرك أن الرسالة التي هي بين يديه إنما هو قيم عليها ، ولن تكون رسالة ما لم يشتغل بها ضمير الإنسان ، ووجود الإنسان ، وحقيقة الله في الإنسان ، فهي رسالة لا يملكها إلّا الإنسان ، ولا تعيش إلّا في تحقيق وجود الإنسان . أما الوصية بتعيين قيّم عليها فهي من ضمن حدود الرسالة التي زرعت جديداً في وعي إنسان لم يتحلَّ بعد بالتمرس ، فهو إنسان مسحوب بتلابيبه من غفوة طال مكوثها تحت الرماد : في جاهلية مشرورة القبائل تحت أقدام الأصنام ، ومسحوبة الأذيال في رعي شحيح النبت والجنى ، محروق الظل ، ومسعور الإوار .

أي شيء كان لهذا الإنسان المفتش لاهثاً عن واحات يزرع فيها وجوده ؟ فلنسأل المساحات العريضة التي كان يزرعها بقدميه الحافيتين ، تنتقل به من فروسية موهومة ، يحقق بها بطولة التعدي والغزو ، على عزم لا يهدأ إلا بعد الأخذ بالثأر في استشارات مريضة قوامها استنزال الفأل من نجوم الليل ، والتيمن باللات ، والعزى ، ومناة ، لتكون له بنية عائلية مؤسسة على الوأد في الحفر السوداء .

لا لعمري ، ولم تكن الواحات أمامه مظللة بسماء ، لأنها كانت مفرقة على الساحات العريضة دون أن يجمع ما بينها إلا وازع خفيف من عقل، ووازع خفيف من روح . ليس للتنظيم في مجتمعات الإنسان إلا المعرفة كضابط له ، وهي التي يقدّمها العقل النامي بسبل الحق ، وها إن الحق قد جاء مفتون السبل لقد نزل في كتاب لهذا الإنسان المفتش عن كتاب .

منذ أن اندلعت على الجزيرة السنة الحرات ، وإنسان الجزيرة يفتش عن كتاب يلطف له الأجواء من قيء الرماد ، وكالغزلان الهائمة خلف كل رجرجة من سراب ، كانت تناديه الواحات ، دون أن يتسع فيها لقدميه مكان طويل الظل أو غزير الندى ، ليبقى له التوق إليها مقصوراً على مسارب كانت تتناولها أفواج القبائل النازحة بالتفتيش عن الظل ، والنسمة ، والماء . بتفتيشها هذا ، وبنزوحها عن الصدر الأم كانت تجد الواحات ، خلف خليج العقبة ـ مثلاً ـ مشرورة على طول الشواطىء ، وفي أحضان السهول والوهاد ، وحول كل ضفة من الضفاف ، ابتداء من السهول المفروشة حول الأردن ، إلى التي يباركها بردى ويمدّها بالزلال ، إلى تلك التي تنداح برفارفها إنبساطاً في أحضان الرافدين .

لقد كان كل ذلك تشتيتاً وتنزيحاً للقبائل ، وسلخاً عن الصدر الذي أنجب وربى ، ليكون لكل موجة نازحة حوملة حول المكان الذي راحت تخيم فيه وتبني عليه كياناتها الجديدة .

منذ زمن بعيد كان يحصل ذلك ، قبل الأراميين والأموريين ـ مثلاً ـ قبل الأشوريين والبابليين والكلدانيين والكنعانيين الفينيقيين والأكاديين ـ قبل موسى وحامورابي وسرجون . . . إنه الزمن الغائر في التاريخ ، ذلك الزمان الذي كان يقذف بالقبائل العربية إلى كل جوار فيه واحة ، وفيه نسمة وفيه ظل ، وفيه تربة مخصاب غير محروقة بزفت وكبريت ـ من هنا كانت العروبة المفتوحة الأرجاء ـ يميناً وشمالاً ـ ضمن حدود مبصومة بصماً بخطوات العروبة الجغرافية المجال ، باتصال الأرض ولو على حساب الحرات والاحقاف والربع الخالي ، والتاريخية المدى على ذمة امتداد الشموس في الزمان .

وجاءت الرسالة من أجل الإنسان التائه المفتش عن كتاب يقرأ فيه حقيقة وجوده ، ويجد فيه واحة راسخة البحبوحة يجمع فيها واحاته المشرورة والمهددة أبداً بالنشف .

وكانت العبقرية مصدراً فذاً في عملية التوحيد ـ ها هي القبائل كلها تنجدل الآن في الحبل الواحد الذي يزنر الإنسان حيث يوجد هذا الإنسان ـ

أكـان في الفدافـد المشويـة بأنفـاس الحرات ، أم في الـواحات المنتعشـة بـأنسـام الصبا ، إنه الآن إنسـان واحد في مجتمـع واحد، يسخو عليه التـوزيع في مسـاواة واحدة لا يضنيها الطمع والجشع أو الظلم والبهتان .

ذلـك هو الأسـاس في الرسـالـة التي طـرحت ، والتي طـابت بهـا عمليـة التنـظيم . أخذتهـا الجزيـرة بكل قبـائلها ، فحـطمت بها أصنـامها ، ومحت بهـا قبلياتها ، ومشت بها إلى تحقيق ذاتها ، وروت بها كل واحاتها التي كـانت تعطش أبداً إلى الري الصحيح ، وجمعت بها إنسانها المشرد عبر التاريخ فوق البطاح التي ما ذاقت إلا نادراً طعم الخصب في التراب .

ألم تنجح الرسالة في طرح ذاتها على الإنسان الذي قبلها وحقق بها أشواقه التي جعلته أمّة هادية لكل الأمم ؟ فهل لهذه الرسالة أن تنتسب إلى غير صاحبها العظيم محمّد ؟ وهل لغير محمّد بالذات أن يهتم بنشوئها والحفاظ عليهـا ، بتعيين وصيّ ، أمـين قادر عـلى متابعـة السير بهـا قدمـاً ، دون أي تراجـع عن التحقيق العظيم المرجو لها في مجال الترسيخ ، ومن أجل هذه الأمة الناشئة حـديثاً لتحتـل مكانتها تحت الشمس ؟ .

القيمومة

لم يكن القصد في البحث السابق تجريد إنسـان الجزيـرة من عباءاتـه التي كان يرتديها في لياليه الساهرة ، بالنجوم ، فالأرض ذاتها هي التي حاكت له تلك العباءات من لون رمـالها ، ومن نسـج مساحـاتها المـرمية الأطـراف ، وهي التي متنت قدميه بالعدو، وصبغت عينيه بكحل من سواد لياليها يتقي به ، في بعض ساعات النهـار، وطـأة الشمس وزفـير اللهب. من هنـا كـانت لـه قيلولات يجمـع فيهـا عقله ، وروحه ، وخياله ، في مناجاة للحقيقة الهـاجعة في لبّـه ، يهمزهـا لتهمزه إلى لقاء ، ومن هنا ـ أيضاً ـ كان له التهيؤ ـ وإن بطيئاً ـ مربوطاً بانتظار .

لم تتربع الأصنام في مكة حجـارة نحتت هكذا بـلا دليل ، بـل إنها حملت من قيلولات ذلك الإنسان ما يجعلها فكـراً مفتشاً عن رمـز : فالصخـرة البيضاء

المربعة في الطائف ـ مثلاً ـ والتي هي « اللات » ، إنما هي لتمثيل الصيف المعذوب بالهدوء وطيب الجنى ، لتكون «العزى» عبارة عن ثلاث شجرات في وادي نخلة يتدلى من أغصانها ما تنوء به من تمر ، دلالة إلى الخصب الذي تفرشه في التراب لمسة الحياة ـ أما الطريق العريضة والمحروقة في آن ، والتي تخط الوصل الرائع بين مكة ويثرب ، فهي التي يتربع عليها الحجر الأسود ، إله الجزيرة « مناة » في رمز مسحوب المهابة من عمق الليل ولونه ، ليدل إلى الموت الملفوف بالقضاء والقدر .

ما ونى هذا الإنسان يجمع ذاته في قيلولاته الطويلة ، ولم تكن له هذه القيلولات إلا لقاء بين فكره وروحه واستعداداته للبحث والتحقيق . وحتى قفزاته الكشافة والمستمرة فوق الأرض ، والتي كانت تنتقل به من جوار إلى جوار ومن واحة إلى واحة ـ مع اليمنيين والحميريين ، والغساسنة ، والمناذرة اللخميين ، والهاشميين الطالبيين القرشيين ، أو الأزديين والبكريين ـ حتى النيل ، حتى الأرض من أفريقيا المطلة على المحيط ، حتى الشواطىء المتوسطة التي تخفرها صيدا ، وجبيل وأوغاريت . . . كانت كلها ـ هذه القفزات ـ دليلاً على استعداده لأن يكون كشّافاً عن حقيقته كإنسان ، وبحاثاً عن شؤون الحياة التي تربطه بالكون .

إنما هو ـ هذا الإنسان ـ إبن الجزيرة العربية بحراتها ، وواحاتها على السواء ، برمالها ، وغبارها ، ولياليها ، وشموسها ، وامتدادها في الزمان ، باستمرارها وترابطها بالزمان والمكان ـ فلنجزم أن الإنسان المجتمعي هو ابن الأرض كلها التي نشأ فيها ، وامتص أثداءها ، إبن أمسها الطويل حتى يكون ابن يومها الحاضر ، ويومها الذي يأتي دون أن يفقد معنى الإتصال ، إنما جسده هو المجبول من كل عناصرها المتجمعة من كل حجم المكان ووسع الزمان في التلاحم المتمكن من إنشاء الإنسان ـ إنما هو تعبير عن هذا الشوق المجموع النتائج ، والذي تصاغ منها عظمة المجتمع وبالأحرى عظمة الإنسان .

إن القيلولة التي انسحب بها الفتى الأمين محمد إلى غار مزروع في حنوة

من حنوات مكة ، كـانت من الصنف الفريـد . لقد تجمعت فيهـا ـ على مهـل ـ كل قيلولات الجزيرة ، في عملية إستعراضية كشافة عن حقيقة الإنسان فيها عن جميع محاولاته في التحقيق ، عن جميع أشـواقه المتعثرة وهو يجتاز المكان ويطويه الزمان ـ لقد رافق كل القبائل في كل مسيراتها : رافق الأراميين ـ مثلاً ـ ينتقلون إلى الشمال ، ويساعـدون في بناء مـدينة حلب والشـام ـ رافق الكنعانيـين الذين رماهم التجوال إلى شواطىء المتوسط حيث ساهموا ببنـاء صيدا وصـور ، ونحتوا الحجارة في قصور رأس شمرا ، وأتموا صـك حروف الأبجـدية في سينـاء ـ رافق الكلدانيـين والبابليـين والأشوريـين وهم يمتطون صهـوات الخيـل نحـو الكـوفـة والبصرة والمدائن من أرض العراق .

لم يكن زهيداً ما وفرته له القيلولة في غار حراء ، ولقد كان أكرمها سخـاء عليه إتصاله بالخط المربوط بـالجدود ـ إنهم هم الـذين كان يؤول إليهم الاهتمـام بـأمر الإنسـان في الجزيـرة عن طريق سيـاسة تتلقط بكـل أموره الحيـاتية ، ففي أيديهم كانت السقاية والرفادة ، والحجابة ، والنـدوة ، والقيادة ـ فهم القـرشيون من بني هاشم ـ هكذا كـان خطهم في الاهتمـام بأمـور الناس : من قصي ، إلى عبـد مناف ، إلى هـاشم الشريـد المكنى بعمرو العـلاء ، إلى عبـد المـطلب المكنى بشيبة الحمد ، والذي كان مثله يعتزل في غار حـراء ثم يأتي ليفـرق العطايـا على بني قومه الذين سموا كلهم قرشيين أي مهتمين هم بدورهم بحاجات الناس .

قبل أن يخرج محمد من قيلولته في غار حراء ، كان قد جمع إلى صدره كـل شؤون الإنسان ، وكل أشواقه في الوجود إلى الحق ، ليصوغ منها وحـدة المجتمع الأصيل في رسالة واحدة القصد والنهج والتـطبيق ، مبنية عـلى جوهـر الحقيقة في الوجود الإنساني .

تلك هي الرسالـة العظيمـة الجامعـة والموحـدة وهذاك هـو العظيم الـذي تلقّـاها من مصـدر الحق ، ومصدر الشمـول ، ليكون هـو وحده صـاحب الحق المطلق في القيمومة عليها .

القصد من القيمومة

إذا يليق القول بأن القيمومة على رسالة الإسلام هي من حق الرسول العظيم ، فإن ذلك يعني أيضاً بأن الرسالة هي ملك المجتمع الذي قبلها ، وراحت تفعل فيه ، فهي ليست ملك الذي قدمها أكثر مما هي - بالتالي - ملك الذي قبلها فتجسدت فيه . إنها الحقيقة التي تقدمها الحياة في مجتمعات الإنسان . ولكن القيمومة هنا لا يتجرد منها إلاّ معنى واحد : وهو الإهتمام بأمر الرسالة إهتماماً مطلقاً ، حتى يبقى لها الإستمرار بالنسبة إلى قيمتها العظيمة في بناء مجتمع الإنسان ، من حيث تكون وتبقى فاعلة في حقيقة الملازمة . أما قيمتها الفاعلة فهي في تقديمها المثل الجميلة ، ومن أبهى نتائجها توحيد المجتمع ، وتوحيد مناهجه المستقاة من مصدر واحد فاعل. إن الذي جمع الرسالة بكل حروفها ، إنما هو - بالذات - ذلك الذي سقاها دمه ، وروحه ، وفكره ، وغوصه الكبير المندغم بالحق والخير والجمال ، وهو الذي تلحمه بها غيرته عليها حتى تستمر في حقيقة الملازمة الفاعلة والمتأججة بالشوق الذي لا يشتهي سواه مجتمع الإنسان .

من هنا يليق القول بأن الرسول العظيم هو القيّم الأوّل على رسالة هو قدّمها . . . بل إنما هي منه في التحام رائع ، واتصال بليغ الإندغام . أمّا القيمومة عليها ، من بعده ، فهو الذي يعينها قبل أن يرحل ، ويبيّن حدودها ومدى فاعليتها ، حتى تأتي من لون الرسالة بالذات : قيمة ، وفاعلية ، وملازمة ، ومدى استمرار ، ومن هنا - أيضاً - بمعنى التزكية ، سيبقى هو أبداً القيِّم الكبير الذي لا ينتهي دوره على الرسالة التي هي باسمه تبقى فاعلة إلى المدى الذي لا ينتهي ، ما زال للإنسان مجتمع يستمر ، وإنْ تخسر حرفاً من حروف اسمه الكبير ، تخسر - بالمقابل - ضلعاً من توازنها ، تلمح بوادره في خلل يطرأ على بنية المجتمع ، وعلى سلامة المسالك التي يعود إليها وَعَرٌ ، أو أشواك من هشيم .

أما القيمومة - وإلى من تسند ؟ فذلك هو تحسب الرسول ، إذ يدعوه

الرفيق الأعلى ، فيغمض عينيه عن معانقة الشمس ، ويسبل يديه عن التلويح بالإشارة. إن الذي تسند إليه القيمومة هو الذي يكون مسحوباً من ضلع الرسالة ، من حقيقة الوجد وحقيقة الشوق فيها ، وهو الذي يكون قد تمّ له فهمها وتعشّقها ، فاندغمت به . إنه الأدرى به الآن ، وهو لا يزال جفنه يرف بالحق ، وأذنه تخفق بالدويّ الأعظم - إنه هو الذي يعينه من حرصه على الرسالة ، حتى لا تدب إليها رعشة من وهن . . . حرام - بعد التحقيق العظيم - أن تتعثر بالرسالة رجفةٌ تثنيها عن حقيقة الطريق ! .

بهذا التحسب المحق ، وبهذا الحق المتحسب ، كان للنبي الكبير أن يُلَمِّحَ بالقيمومة إلى الإمام علي المهيّأ لها ، على أن تكون من بعده للفتى المحسوب من شباب الجنة ، الإمام الأوّل الذي أُنزل عليه إسم الحسن .

أين هي المهمة ؟

فلنفصل الآن بين المهمّة والقضيّة - فالقضية هي الأساس، أما المهمّة فهي عمل يقوم في الحفاظ على القضيّة . وللإهتمام بها - شأناً حياتياً إجتماعياً - في النظرة المصيبة في البقاء ، والإستمرار ، والديمومة . إن القضية - إذاً - هي الرسالة التي بذل في سبيلها ما جعل الإنسان الجديد يعتنقها في وعي جديد .

من هذا المنطلق نقول : لقد تحققت الرسالة في جميع مبادئها ، وغاياتها ، ووضوح مراميها - لقد وضعت خطواتها على جميع الدروب التي أخذ يسلكها الإنسان الجديد ، لقد تمّ كل ذلك تحت عين المصطفى ، ومن ضمن عشر سنوات أرختها الهجرة ، وها نحن الآن في السنة العاشرة ، أي في السنة التي تمّت فيها حجّة الوداع ، في هذه اللحظة بالذات ، لحظة إغماضة عين القائد المشرف على الساحة يأتي دور المهمّة ، دور انتقال القيادة من يد إلى يد ، حتى تبقى المسيرة في خطّها النامي . ولكن اليد التي انتقلت إليها أثقال المهمة لم تكن هي التي دل إليها حرص الرسول ، وكانت الخلافة من نصيب أبي بكر الصديق بدلاً من علي بن أبي طالب ، الذي عليه لفافة الرضوان .

ونالت الغفوة بدورها جفني أبي بكر ، وها هي الدرّة المشهورة بيد عمر بن الخطاب ، يسوط بها ظهور أولئك الذين يعصون أوامر الله بعدم الإنصياع لعمل الخير ، والبر ، والمعروف ، في إتيان المنكر - إنها الرسالة ، لا تزال فاعلة في مجالها المكشوف ، دون أن تعمق ذاتها فتصبح في الدم وفي اللِّبان .

وبدورها الدرة تنفتل إلى خنجر في يمين أبي لؤلؤة ، غلام المغيرة يغيبه في صدر ابن الخطاب ، ذلك الصدر الذي ما توسع إلا بمناهج الإسلام .

وانتقل الدور إلى عثمان بن عفان ، ولكنه كان - وهو يجمع القرآن إلى دفتين تقيانه من الغفلة والنسيان - غافلاً عن إعادة صناعة نول قد حطمه الرسول العظيم ، ونجّى الأمة من الأحلاف الكاذبة التي كانت تفرّق الجزيرة بدلاً من أن تجمعها - إنها صناعة القمصان : فهي لم تلبس أبداً في عري ، بل عرت دائماً من لباس . على هذا النول حيك قميص عثمان ، واجتاز به الدنيا وأثقالها ، وأوزاها ، إلى ذمّة الرحمن .

وبعد اثني عشر عاماً، طووها كلها - بأيامها ولياليها ، وثقل الثواني فيها - وصل الدور إلى الإمام علي فجاء يعالج الحكم بإعادة تحطيم الأنوال البائسة ، وتمزيق القمصان التاعسة ، وحفر الله في الصدور ، وزرع الحق في المهج ، وتلوين الدروب بالخطوات الحافية - جاءه ابن ملجم ، وهو لم يخلع قميصه البالي ! ولكن الأنوال لم ينفع بها التحطيم ، فهي لا تزال منقوشة في البال ، وأبو لؤلؤة هو هو خلف الحيطان المطمورة بالرمال ، خطواته منتعلة بسماكة الكبريت ، وخنجره مسنون بالسم ، ومشحوذ على الصدأ .

من أبي بكر الصديق ، إلى التاسع عشر من رمضان ، مسافة تقارب ربع قرن . أتراها كانت كافية لجلوة الإمام الحسن حتى يقوم بالمهمة التي وصلت إليه .

الجلوة

سيكون لنا البحث في الجلوة الأساس التي اجتلى بها الإمام الحسن ، وكان بها المجتبى . تمهيداً ، فلنطرح سؤالاً : ما هو الجمال ؟ .

ولكن الجمـال ، قبل أن يكـون تحديـداً ، وتفصيلاً ، وشـروطـاً ، ومواصفات ـ هو أن تراه بعينك ، وحسّك ، وخيالك ـ بعقلك أنت ، وقلبك أنت، ووجدانك أنت، ولحظة ئذٍ يكـون لك الإدراك المشع بالجمـال الذي هـو كـل ما فيك من إدراك للحق الذي هـو لك ، والـذي هو إطـارك . أما أنت ، فـإنك لست الفـرد الصغير ذا العين التي تـرتـج جـائلة في محجـرك ، بـل أنت الإنسـان المجتمعي الذي حقق فعـل الوجـود في الكون ، وامتـلأ بالشـوق الحي الـذي يعبّر عنـه المجتمع الحي . إنّ المجتمـع ـ والنظرة هـذه ـ هو الـذي يحـدد الجمال تحديداً نسبياً ، بالنسبة إليه ، وتحديداً مطلقـاً ، بالنسبـة إليه أيضـاً ـ لأن كـل نسبة فـاليه ، وكـل مطلق فـاليه أيضـاً ـ لأنه بـالفعل يكـون هو ـ المجتمـع بالذات ـ هو الذي عينّ الجمال جماله ، ولن يكـون الحق إلاّ جمالاً ، ولن يتجلّى الحق على غير الذي يسعى إليه ، وإن المجتمع الذي لا يقدر أن يسعى إلى الحق لهو المجتمع المتنكّب الذي لم يجد له درباً بعد إلى لمح الدفع الذي يبنيه .

هذ هو المجتمع المقصود بناؤه ، المقصود سحبـه من الغفلات العجـاف ، المقصود جمعه ضمن الدائرة العظيمة التي هي ملعبه في المكان والزمان . مـا خار عـزم النبي العظيم ، ولا ضمـر شوقـه ، ولا تقـزم خيـالـه ـ فليكن لهـذه الأمّـة العظيمة مجتمعها العظيم ، ليكون لها الإنسان العظيم . فليكن منها نبيها ، ومن شوقه الرهيف قرآنها، ومنها ولها سنتها وشرائعها وشعائرها، نـابتة منهـا ولها، من إيمانها بالحياة، من ديمومتها في اعتناق الحق، ومن تجرؤها لبناء حقيقة إنسانها . . . فلتكن منها النبوّة ، ومنها القاعدة ، وفيها الاستقـرار ، وعنها الانـطلاق بالهـداية إلى جميع الأمم حولهـا ، حتى تجمعهم إليها روابط إنسـانية تمتن التفـاعل المـوحد النظرة إلى الحق والخير والجمال .

أراني أشرت باقتضاب إلى مصدر جليـل كانت منـه فاعليـة ممتازة في جلوة الإمـام الحسن . ها هـو في السابعـة من عمره عندمـا تـرك جـدّه فـراشـه على الأرض ، إلى دثار من نور الحق ، إنـه اليوم يتـذكّره في كـل لحظة تتقـدم به إلى واحة التمييز ، وإلى استجـلاء المعاني ، وفـك الرمـوز ـ إن الشعاع الـذي كانت

تتراسل به عين الجد إليه ، وهو طفل يلثغ بالحروف ، كان نوراً يتدفّق إليه ، كأنه نوع من شموس لا ثقل فيها للظى . إنه يجد في كل يوم يأتي وصفاً وتفسيراً - أكثر عمقاً وأشد بهاء - لكل تصرّف كان يداعبه به الرجل المهيب؛ لم ينس أنه كان يرتحله - دون أن يزجر - وهو فوق منبر في المسجد يخطب في الناس ، ويعلّمهم كيف لهم أن يتصلوا بالحق ، دون أن يهربوا من التعب الذي به سيلهثون إذ يجاهدون ، لأن لهاثهم بالذات ، هو الذي سيدرّبهم على صدق المسير . وأدرك الحسن أخيراً أن قبول الجد - وهو في المسجد - بأن يعتلي الحفيد ظهره ، دون أن يصد أو يزجر ، لم يكن فقط سماحاً له بالدلع ، أو فرط محبّة ليس لها أن تصد وتزجر ، أو ميعاناً بعاطفة قد ترتد على صاحبها بشحوب المهابة - إنما العظيم بالوصول إلى التفسير : أن الرجل الكبير ، لم يكن فقط لينحني أما البراءة ، منادياً لها بارتحاله ، بل متهيباً لها أمام الساجدين بين يديه لجمال الحق ، بأن الأبناء هم زينة الدنيا ، بأن الحب الوسيع يبنيهم للأمة معاول معاول ، بأن الأمّة جمعاء تناديهم من عالم الأصلاب إلى عالم الأرحام ، حتى يخرجوا بناة لها ، بزنود تناديها الأرض في العمارة المرصوصة بمداميك البناء : « تناكحوا ، تناسلوا ، حتى أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وها هو الآن ، مثال للأبوّة المحبّة والمدركة ، والراضخة لتحمل مسؤولية الإنجاب ، وإن تكن المسؤولية الجليلة الآن ملقاة على من هما من صلبه - دماً ، وحبّاً ، وإيماناً - عليّ ذي الفقار ، وفاطمة الزهراء ، إبنتُه وأمه في آن ، بالطهر والحنان .

أما التفسير الذي كان يرميه طَويلاً في ساحة عريضة من ساحات التأمل والتهيّب ، هو أن اعتلاءه ظهر جدّه ، وهو فوق منبر الصلاة ، هو دعوة من الجد القدير ، في إيماءة لها من الضوء ما يخفيها عن العيان ، ومن القصد ما يجعلها في عيان يطويه الليل إلى صباح يغرق في تباشيره . تلك هي عملية باهرة وماهرة من عمليات المبايعة ، إنه هو - الرجل العظيم - أوّل من يبايع ، وأول من يدعو الناس إلى المبايعة ، إنه يعرض إبنه الحسن من فوق كتفيه ، ويدل إليه بزنديه ، وعينيه ، وبشموخ من فوق كتفيه ، وسيقول عنه بأنه من أهل البيت ، وأنه سيد أهل الجنّة ، وأنه من بين الذين طهّرهم تطهيرا ، والذين هم أحد

الثقلين ، والـذين هم المطيّبون ، وهم الـذين يبـرزون عـلى الخط المـوصـول بـالأجداد ، وإنهم هم الـذين يردون عليـه الحـوض ـ والحـوض الآن هـو الأمّة جمعـاء ـ الأمّة المستيقـظة من هجعتها ، والأمّـة المجموعـة بوعيهـا ـ لقـد جمعتهـا الرسالة ، وهو الذي جمع الـرسالـة ، وهو وعـليّ ، هما أبـوا هذه الأمـة التي هي أرث الأجيال ، والحسن والحسين همـا ـ بالتتـالي ـ خلفان تتم بهما عملية الـربط بـالخط الضابط في المسيـرة ـ أليس الحسن من هنا سيتنـاول التـركيـز ؟ ومن هنـا سيبدأ بالمسيرة ؟ .

القسم الثاني

المراحل

وصلة البحث
السقيفة
أبو بكر الصديق
فاطمة الزهراء
عمر بن الخطاب
نبذة في الواقع
عثمان بن عفان
غمزة
الإمام علي ـ المنحّى
الإمام علي ـ الخليفة
الحسن
معاوية بن أبي سفيان

وصلة البحث

فليكن لنا ـ قبل أن نستهل القسم الثاني من هذا الكتاب ـ تؤطئة توضح القصد من الدخول في فصل جديد عنوانه «المراحل» .

بالحقيقة ، إن القسم الثاني من هذا الكتاب لا يخرج في مؤداه عن أن يكون امتداداً لكل ما جاء في القسم الأول الذي هو « أطر وملامح » ـ فالمراحل التي سيمر بها الإمام الحسن ، منذ خلو الساحة من جدّه الرسول ، إلى الساعة ذاتها التي ارتحل فيها ـ هو الحفيد ـ إلى الحضن الرفيق ، كانت كلها أطراً له ، وملامح عنه ، تلوّنت بكل ما جناه من الاختبار في الحياة ، لم يتمكن من جعل نفسه ـ وبالتالي ـ من جعلنا معه نفيد منها في مدار التطبيق ، إلا نزراً يسيراً ، قد يصبح جداً وفيراً عندما تدرك الأجيال الصاعدة كنهه الوسيع .

ومن الحقيقة أيضاً أن نشير إلى أن القطعة الأخيرة من البحث السابق وعنوانها « الجلوة » ـ لا تمنع عن الحسن حصول جلوات متلاحقة ومستمرة في كيانه النفسي ـ العقلي ـ الروحي . إنما كان تفهمه لمقاصد جده الكبير عاملاً بليغاً في تحضيره القادر على الاستيعاب ، وفي تمتين منكبيه لتحمل المسؤولية الجسيمة التي يجب أن تكون في موازاة الرسالة التي بلغتها شفة لم يمكنها أن تنتسب إلاّ إلى أهل البيت . أما الجلوات المتتابعة والسريعة التلاحق ، فهي التي يمشي إليها الآن في هذا القسم الثاني من هذا الكتاب « المراحل » ، مشياً وئيداً . من

مـرحلة إلى مرحلة سيمشي : من إبن سبـع سنوات ، إلى أن ينتهي بـه الشوط ـ مع أمّه التي كان يفرك وجنتيه بملامس كفيها ، فيشعر أن جنان النعيم كلها ليس لها مثل هذا النعيم ـ وتموت أمه بين يديه ، فيأبى أن يصدق أن في الجنة الموعـودة قطعة أوسع وأخشع من مثواها الصغير في البقيع .

لقـد انتقلت به خـطواته ـ من قبـل ـ وهي صغيرة بعـد ، إلى حيث يلقي رأسه الصغير في حضن أبيه الكبير الـذي هو الآن ـ في تصـوُّره ـ في المركـز الذي حضّره له جده الذي غاب وهجر . . . ولكن قدميه الصغيرتين ترتطمـان بالحفـر التي تصـونت بها دار السقيفـة ، سقيفة بني سـاعدة ـ ويـركض ملتـاعـاً . . . في الزاوية الصـامتة وجـد أباه وأمـه التي لم يكن قد أجهـز الحزن عليهـا بعد ـ وهمـا يجتـران ـ على مهـل ـ أذىً لا يقـدر أن يتحمله إلا من تـطيبت نفسـه بنفحـة من نفحات نهج البلاغة .

في مثـل هذه التنقـلات الوئيـدة ستـزداد ، رويـداً رويـداً جلوة الحسن . فليكن لنا أن نجده متأملاً وجه أبي بكر الصديق الذي احتـل المركـز الذي كـان منتـظراً أن يملأه أبـوه، فـإذا هـو الصـديق فيـه . . . فليكن لنـا أن نـرافقـه إلى مواجهة الخليفة الثاني ، عمـر بن الخطاب ، بـدلاً من أبيه أيضـاً في استلام دفـة السفينة . . . فليكن لنا كـذلك انتقـال ثالث في المـواجهة إلى الخليفـة عثمان بن عفان الذي تـولدت في حضنـه الثورة الجـديدة التي قضت عليـه ونقلت إلى أبيه ورمـاً أبيض ، لا بد أنـه تثاقـل على الـرجل الجليـل في كـل مـا عـانـاه في إدارة الناس ، أكان في معركة الجمل ، أو في في معارك النهـروان ، أم في صفين ، ممـا أدى به أخيراً إلى السقوط صريعاً فوق السـاحة التي مشّت فـوقها رجـلاً مثل ابن ملجم .

ستكون للإمام الحسن مشاهدات غزيرة المادة لهـذه المسرحيـات التي مرت فصولاً من أمامه ، وسيكون لكل مشهد منها حفر معيّن في نفسه ، وجلوة جديدة مضافة إلى كلٍ من الجلوات السابقات . فلننظر إليه كيف يجتاز هذه « المراحل »

بخطوات متأملة ، صاغت منه غوّاصاً وجوّالاً يعرف كيف يغوص ، ويعرف كيف يمشي .

السقيفة

ليت الإجتماع هذا الذي حصل في السقيفة ، قبل أن ينقل جثمان الرسول إلى مقرّه الأخير ـ ليته حصل في الكعبة ، وفي دار الندوة بالذات ، وفي ظلّ القواعد التي كان يتربّع فوقها العدد الكبير من الأصنام ، لكان الاجتماع هناك يحظى بتمثيل قبلي أوسع بكثير مما حظي به في حضن سقيفة لبني ساعدة ، جمعت عدة ممثلين فقط ، من مجموع القبائل .

ما هو رجاؤك أيها الرسول الكريم في أمّة سحبتها من كل قبلياتها إلى قبيلة واحدة تنادي بإله واحد ، لا بألف إله ! ولقد ناديتها ، وسمعت منك النداء . في مدى، عشر سنين فقط ، من سني الهجرة ، إبتداء القرار ، وانتهى القرار ، لم يبق في الجزيرة كلها قبيلة واحدة تركع بين يدي صنم لها ، لقد انجدلت كلها جدلاً غزيراً ، وجاءت من أطراف الأرض تبايع الذي ألبسها لباس الحق ، ولباس التوحيد ، ولباس الرشد ، والهداية ، والعدل ، والمساواة ، ـ لباس الإنسان الجديد الذي اكتشف ـ في نفسه ـ قيمة الإنسان .

منذ السنة الأولى بدئت تبني المساجد المتطاولة بمآذنها التي تصرخ بالناس : كونوا واحداً لإله واحد يعلمكم كيف يبني التوحيد النفوس ، في ظل من خير ، وظل من معروف ، وفي كره عابس بوجه المنكر ـ وفي السنة الثانية ولد للناس شهر كريم سمي رمضان الصوم : إنّه مدرسة الإسلام في التركيز على إهزال الجسد إذا ما حاولت أن تستبد به شهوة من شهوات الدم ـ على أن يكون معنى الصوم إبتعاداً قاسياً عن الموبقات التي تتغذّى منها الفواحش ، وهي قواضم من أنواع الجرذان ، تقرض الحبال ، وتفكّك الرّزَمَ في المجتمع الذي لا يبنى إلا على الحق ، والعدل ، والتطيّب بالفضائل ، وكلها مآثر في المجتمع النظيف المبني على الحب ، والوفاء ، والولاء . من هنا كانت ـ من رمضان ـ أمثولة صدقات

الفطر ، وزكاة المال ، وإنعاش الفقراء ، وكل من يخسرون معيناً لهم في الحياة : كالأرامل ، والأيتام ، والمشردين ، والذين تصيبهم أمراض وعاهات .

وفي السنة الخامسة ولدت فريضة عظيمة المعنى ، وبعيدة المقصد والمرمى ـ إنها فريضة الحج إلى البيت العتيق ـ لا لأنه حجارة يابسة ليست لها ريشة من فنّ ـ بل لأنها تمثيل لبيت الأمة المزروعة في صدر المكان ، وصدر الزمان ـ إنه البيت الذي بناه خط الأجداد ، عبر آلاف السنين ، إنه بيت نقشته أشواق القبائل كلها ، مزهوة في الإجتماعات الواحدة الطويلة فيه ، لا لتعبد الأصنام ، بل لتحضرها كلها للإنحناءة أمام الذي سيفرطها إلى غبار ، ويجمع منها الحجر الأسود ، حتى تشاركه كل القبائل بحمله على منديل ، ووضعه في المكان الأعلى والمصون بالإيمان ، والموسوم بالإشارة إلى الله الواحد الممثل التجسيد في حجر .

ذلك هو الحج إلى البيت في التذكير أن الأمة جمعاء ، هي وحدها التي يجمعها الرباط ، رباط الحاضر بالماضي ، ورباط الحاضر بالآتي ، في ظل الرسالة الجديدة التي قلبت المفاهيم إلى وحدةٍ ما محت الماضي ، بل طوّرته ولوّنته بمجالات الحب والمؤاخاة ، وهي كلها آفاق جديدة مفتوحة أمام فكر ونفس الإنسان .

وفي السنة السادسة كان غزو الحديبية ، ليتلوه صلح الحديبية ، وهو صلح ربط الهاشميين ـ الطالبيين بالسفيانيين ـ الأمويين ، وامتنعت بتوحيدهم قريش ـ وفي هذه السنة تمّ انتشار الإسلام بكتب وجّهت إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى المقوقس أمير مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك فارس ـ إن الهداية التي تتنوَّر بها الرسالة هي للنشر على عالم الإنسان؛ كذلك هي الشمعة المضيئة ـ لتنير ، لا لتوضع تحت مكيال . . . إن السنة السادسة هذه ، كانت متينة الإنجاز ، لأن القبائل كلها مشت طريق التوحيد ، ولفَّها التسليم والإذعان .

لم يكن قليلاً ما أنجزته الرسالة على السنوات العشر من الهجرة ، فالموضوع من الكتاب لم يأخذها كلها في عرض إحصائي وتاريخي، واكتفى ـ من

السرد الضئيل ـ بالإشارة إلى أن التحقيق العظيم الذي حصل ، إنما كان نتيجة توحيد القبائل كلها حتى تم للرسالة الإنتصار ، ولقد قدمت السنة العاشرة فصل الختام في حجة الوداع ، وفي خطبة الوداع ، فليكن لنا ، بخطبة الوداع ، ربط باجتماع السقيفة التي هي الآن في المجال .

كثرهم الذين قالوا بأن خطبة الوداع خلت من وصية تخصص الخلافة بشخص عليّ ـ وكثر أيضاً هم الذين قالوا بانهم سمعوا الوصية ـ هنا وهناك ـ بتمام العكس ، فأهل البيت هم المشار إليهم ، بتمام القصد ، وبوضوح الكلام ، فليكن للفئة الأولى عذر بأنها لم تتسمع إلى وصية خصّت بالإمام ، ولكنها لا تقدر ـ في تغافلها ـ أن لا ترى أن للإمام مركزاً شديد الإلتصاق بالنبيّ ، ولا يجوز أن يقابل ذلك بعدم الاهتمام ـ فعلي هو الربيب في البيت ، وهو الأمين على المكرمات ، وهو الرفيق في كل المهمات والملمات ، وهو المساعد الممتاز في كل عملية من عمليات الكفاح ، وهو الذي شارك في الدفاع بسيفه المشهور : ذي الفقار ، وبزنده المفتول : لا فتى إلا علي ، وبقوله المسبوك في نهج البلاغة ، وفي الرفقة الطويلة والمديدة الإتصال ، وفي كونه رفيقاً وزوجاً لفاطمة الزهراء ، إبنة الرجل الفريد الذي خصها بحب فريد .

سيان إذاً : سمعت الوصية أم لم تسمع ، ولم تكن ـ في رأيي ، بحاجة لأن ينطق بها ، فهي في المكنون أبلغ ، وبغير الحروف لهي الأفصح ، ولها ـ في النيّة المخبؤة في العين ، وفي القلب ، وفي الضمير ، وفي مجرى الأحداث ، وفي الخطوات المحفورة في الساحات ـ كل الدلالات في التعبير عنها : بأنها وصيّة مخصصةٌ برجل موثوق به ، ومرزومةٌ له رزماً أنيقاً ومدروساً ومقصوداً ، فالرسالة ذاتها ، لا يمكن أن تتابع سيرها ، على الخطوط الطويلة بدون من يتداركها وهي في ذمة الجهاد والصراع .

جليل أمر السقيفة ، يذعرها غياب الرسول ، ليطل لها الخوف على الرسالة التي هي الآن ركن أساس في تلمس الإنسان حقيقةً بدت للعيان ، وهو ـ بها ـ راح يؤرخ وجوده المجتمعي الناهض من عتمة النسيان .

ولكن الأمر الجليل هذا ، لم يسنده حسن التصرف ، ولم يجمع الرأي الذي صوبته الرسالة ، وقومته مناهج الرسالة ، وغاياتها ، ومراميها ـ فالرسالة التي جمعت إنسانها من كل قبلياته ، لا يصح الآن أن تملأ فراغاً بغير هذا الإنسان ذاته ـ وبدلاً من أن يُستدعى عليٌّ لملء هذا الفراغ ، كان له أن يستبعد ، حتى عن الإستشارة .

لا يجوز أن يحسب هذا الكلام دفاعاً عن علي ، ليست القضية ـ بتاتاً ـ قائمة على هوى ، إنما هي مبنية ـ مسبقاً ـ على نظرة مختصة بالرسالة : من أين كان لها أن تنجح ، وكيف كان لها أن تثبت وتستمرّ ـ نجحت بالتوحيد ، ولن تعيش لحظة واحدة بالتفرقة ، من هنا صح سحبها من القبلية حتى تثبت أركانها ، ولن تعاد إليها فتحصل زعزعتها ، فتخسر منذ الآن ـ قبائل الجزيرة ـ إرتباطاً بعروبة تخسر قيمة الإنسان ـ لا بل فلتتعزز جميع هذه القبائل بعروبة مجرَّدة من كل عصبياتها المهدورة القيمة ، ليكون لها في الإسلام وحدة جامعة وواعية بالحق ، تبرزها أمة هادية للأمم ، مما يجعلها في حقيقة الصف المتحضّر الذي تؤخذ منه القدوة في بناء المجتمع الصحيح المبني على الصواب في حقيقة بناء الأسرة الإنسانية التي تعززها روابط متينة مشدودة بالحق والرشد والعدل والجمال .

تلك كانت نظرة الرسول الذي برأ الرسالة التي يتزاحم الغيارى على صيانتها الآن في إجتماع السقيفة . لا أيها الأسياد ، أكنتم من الأنصار ، أم من أهل الصحابة ، ليست الخلافة كرسياً للتوازن الطائفي بين قبيلة وقبيلة ، وليست مركزاً محصناً لتثبيت الزعامة ، والسيادة ، وجني المغانم والرفاه ، إنما هي ـ في الأساس ـ تأدية بليغة لبناء الإنسان الذي يكون عماد الأمة ، وليس لها الآن ـ والآن بالذات ـ محيد عن تثبيتها في الإعتبار بأنها سياج للرسالة الطرية العود ، ولا يجوز أن يتسلمها أيٌّ كان ، بل المعدُّ لها إعداداً مربوطاً بها تمام الربط .

لم يخصص الرسول الكريم عليّاً بهذا المركز الممتاز لأنه طالبيّ بل لأنه أكثر من طالبيّ ، لكونه لمّاحاً رائعاً لكل ما يتعلق بشؤون الإنسان ، وما تحققه المثل

في تنشئة الإنسان ـ ولهذا تعلّق به ، وضمّه إلى رفقته الطويلة ، وخصّه بابنته فاطمة التي لمح فيها ذات البناء النفسي ، ليكون له منها ذرية تسهر على صيانة الرسالة وصيانة الأمّة ، وهذه هي الأمانة .

لقد كان التحضير المدروس هذا تجنيباً للأمة من الوقوع في عمليات انتخابية لا بد أن تستيقظ فيها القبلية التي لم تمح بعد من النفوس ، ويحصل الإنشقاق المخيف الذي لم يكن له غير خزي سخيف .

فيما بعد ـ عندما يحين الوقت الثمين ـ عندما تكون قد حققت الرسالة فعلها في الإنسان ـ عندئذٍ يصح أن تلتئم النخبة ـ تلك التي لا قبليّة فيها ، بل هي القبائل كلها في واحد واع ـ حيّ ، لتعيين من هو الأنسب والمهيأ لأن يكون المتولّي سياسة الأمة المثقفة والمحضرة لأن تكون سيدة نفسها في تثبيت مركزها العظيم فوق الأرض أرضها وتحت عين الشمس .

لقد عينّ اجتماع السقيفة أبا بكر الصديق ـ للخلافة ـ قد عينه البكريون التيميون لا الطالبيون ـ خط السفيانيين الأمويين ، لا خط الهاشميين ، ولقد وعى ذلك الإمام عليّ ، دون أن يدرك الفتى الحسنُ عمق الخطر في يقظة القبلية التي لا يمكن أن تحرس الرسالة ، بل تهددها بالإنقسام . سيكون للحسن ـ رويداً رويداً ـ هذا اللمح ، وسيتعلم معالجة الداء عن أبيه بالذات ـ أبيه الذي رضخ للواقع ، وراح يعالجهة بصمت .

أبو بكر الصديق

أعزّ عليَّ أن أقع في هواك من أن أهبط إلى قلاك ـ فأنت أول خليفة أسندت إليه قيادة الأمة ، وأول ضلع في صدر الإسلام ، تسلّم الراية وتمتع بالزمام ، ولقد طاب على فمك قول يلهج بالرسالة ، ويتمنّع بها ـ إن الرسالة هذه هي التي أنت مهدت لها النزول إلى الساحات التي قضمت من نعليك وأنت تهاجر معها في الزمان وفي المكان ، من ليل إلى ليل ، ومن مخبأ إلى مخبأ : فأنت

أول المهـاجرين ، وأول الصحابيين .

يا أيها الرفيق الجليل القدر ، ويا أيها اللمّاح صـدق المرامي والمغـازي ـ ما من نيّةٍ واحدة من نـوايا الـرسول، وفـاتك فهمهـا وإدراكها، فهـلا لمحت قصده في التشديد على حبّ عليّ ، وأبرازه في الساحات ، والاعتماد عليه في الملمات ؟ هلا لمحت حبّه الوحيد لفاطمة ، كيف يغدقهُ عليها وعلى إبنيها اللاعبين أمامـك حتى في ساحة المسجـد ؟ هلاّ لمحت ـ من هنـا ـ التخصيص والتعيين ، وأدركت المعنى ، بأنه لا يجوز استدعاءُ القبائل إلى أية مبايعة ـ فليكن الاقتصـاد في التعيين المـركّز ، لا العـودة إلى القديم البـالي الذي يـردّ القبليّة إلى تثبيت وجـودهـا من جديد ـ إن التعيين هو ابتداءُ الحصر بالقيـاديّ ، المتمرس طـويلاً بـالرسـالة ، لا بـالتفتيش عنه بـين زعماء القبـائل ، لتبقى الأساليب ذاتها : مبـايعـة لا تفهـم ، وقبلية تستدعى على فوضى .

أظن أنك أدركت ذلك أيها السيد ، وأظن أنك لم تطق الحصر والتعيـين . أنت صـديق حميم لعمر بن الخـطاب ، وهـو لا يـطيق الحصر والتعيـين . . . لا شك أنه نقل إليك ذلك ، فهو الشهير بقوله : (لا تجتمع نبـوة وخلافـة في بيت واحـد) ـ من هنـا كـان لابن الخـطاب حـزم وجـزم ، ومن هنـا ـ أيضـاً ـ كـان استعجـالـك في قبـول الخـلافـة عن طـريق طـرح المبـايعـة ، حتى لا تتصـل بالطالبيين ، لا من أجل إنالة الأمة حقاً من حقـوقها الكبيـرة ، ولن تصل إليهـا قبل أن يرزمها الوعي والنضج إلى صراط مستقيم .

من هنا إن الذين بـايعوك ، مـا شدّ بهم إلى هـواك ، هذا الـذي هو كـل معناك ، إنما هو حقد قديم موروث عن تناحر القبائل فيما بينها ، نتيجة تصارعها في الرعي حول كـل تربـة فيها عشبـة للكلأ ـ إنمـا هو ، بـالفعل ، قـد تجسّد في التصـرف ، لتكون أنت ـ والله أعلم إن كنت تـدري أو لا تدري ـ أول البـادئين بتجـريد الهـاشميين من القيـادة والرفـادة والسقايـة ـ ألم يكن الصراع هكـذا بين السفيانيين الأمويين والهاشميين الطالبيين ؟ فكـما كانت تفصـل بين الانتـماءين ،

قيادة عن رفادة ، أو حجابة عن سقـاية ، فلتفصـل الآن نبوّة عن خـلافة ، دون أن تكونا مجموعتين في الخط الواحد الذي حصَّل الزعامة ومنَّعها بالنبوّة .

نحن الآن ـ أيها السيد الجليل ، ويا أيها الشيخ الصدّيق ـ تفصلنا عنك في الـزمان أربعـة عشر قرنـاً ، دون أن تنفصل عنـا فضيلة مارستهـا أنت بـالـذات فبنت ، أو غلطة حصلت آنذاك أيضاً فـأنبتت معانـاة وقعت فيها الأمـة ولا نزال نعـاني منها ، ولا يـزال يصلنا بهـا الواقـع والمصير ، والارتبـاط الدائم المـوصول المكان بالمكان ، والزمان بالزمان ، والحاضر بالماضي وبالآتي .

عفـــو الله ، وجـل من لـه أن يقـاضي ، فـإن الخـطأ الـذي يقـع فيــه الفرد ـ فليكن من هو هـذا الفرد ـ أكـان في مركـز الحكم، أو مركـز الصدارة في الحكم ـ فـإن المسؤول الأساس عن كـل خـطأ في حصـولـه ، إنمـا هي الأمـة في مجموعها : من تمرسها في الحياة ، من عاداتها ، وتقاليدها ، وتنكبها عن الصدق في السير ـ فإن كنتَ قـد رضيتَ الوصـول إلى الخلافـة عن طريق إنعـاش القبلية التي وأدها الرسول الكريم ـ بلا حزن عليها ولا تأسف ـ فإنك تكون بحاجة إلى طلب الغفـران ! وتكون الأمـة مدعوة إلى صبر آخـر يمكنها من إنجـاز ذاتهـا من جديد في محاولة فهم الرسالة التي أعدتها إعداداً جميلاً يتّزن رويداً رويداً بـالمراس والمران .

ثلاثة ، يا سيدي ، ورابعهم قلم يكتفي أن يرسم الآن فيك ، جـاؤوك ، لا ليفرضوا عليك، قَوَداً ـ بل حتى يؤازروك :

- رجل متين المنكبين ، قلع المزلاج ورمى بحجارة الحصن على بني خيبـر ، وهو متين العقل ، ومتين النهج ، ومتين الحجّة ، ومتين الصلة بالقرآن وبالإسلام ، يجمعك به أنّهُ من بني قريش ، على فاصـل رهيفٍ كحد السيف ـ إنـه من بني طالب . جاءك متناسياً أنه الصفة التي تتصف بهـا أنت الآن ، وبايعـك بها ، حتى ينعم لك فيها هذا الجلال .
- وامرأة نحيلة كأنها شفرة رمح ، أو كأنها وَتَرٌ يَظُنُّ أنه مرخيّ ، ولكنه مشدود إلى قيثارة تطنّ عليها ريح صرصر ، ريح مقلوعة من جوف صنج من نحاس . . .

لقد ظننت أنا ـ وهي كذلك ـ أنها تعبير عن ثورة لم تنضج بعد ، فاكتفت بوشاح من زهر طوقت به عنقها وهي تمشي إلى الجهاد . . . جاءتك تطالب بما ورَّثَهَا أبوها من فدك ـ فلم تردَّ أنت إليها طلبتها ، بحجة أنَّ الأنبياء لا يُورِّثون ، ونسيت أنهم : إذ يُولَّدون ـ بحكم الطبع ـ يُورِّثون .

وفتىً لم يبلغ الثامنة بعد ـ جاءك متعلقاً بذيل أمه فاطمة الزهراء ، بنت النبي الذي كانت صحبتك له سبباً لهجرتك عن مكة ، وأساساً رائعاً لإسلامك الذي تمثله الآن بعده في الخلافة ، وابن العظيم عليّ الذي هو رفيقك في كل ساعات الجهاد . أما الحسن ، هذا الفتى ، فليقول لك ، وهو الملفوح بشمس الطريق إليك : كانت لنا شجرة الآراك قرب بيتنا المحروق بالشمس ، وليس لنا سواها من ظل ، ولقد اقتلعوها ، وأنت تدري من ، واقتلعوا معها كل ما لنا من فيء ـ من يردها لنا ؟ .

وجاءك مرّة أخرى وأنت تخطب من على المنبر ، فقال لك : أنزل عن منبر أبي .

ونظرت إليه ، ودمعت عيناك وقدت في سرك إنه لمنبر أبيك حقاً ـ ولفك هو بعينيه المفتشتين عن كل جلوة يتبصر بها في الغد الآتي ! .

فاطمة الزهراء

وفاطمة الزهراء ـ ليس لها في التاريخ صفحة تقرأ فيها سطوراً ـ بل أنك لَتقرأ بضع كلمات ، إذا طاب سمعك لها ، تجد أنّ عليها نتفاً أَرِجَةً ، يتضوّع بها الجوّ ، دون أن تراها العين كيف تموج بالأنس وبالعطر اللذين هما فوح بلا جسم يؤخذ بلمس ، وبلا لون تشربه حدقة .

كل ما ذكره التاريخ على ألسنة النسّابين يحصتره عمود واحد :

ـ أبوها الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي .

ـ أمها الطاهرة خديجة بنت خويلد بن أسد القرشي .

أخواتها ثلاث وهي رابعتهن وصغيرتهن النحيلة .

- ربي البنات الأربع بدون أخ لهن يسندنه ويسندهنّ « بالحب الأخوي » .
- ماتت الأم وفاطمة صغيرة ، فغرقت في حضن أبيها .
- خصها أبوها بحبّ عامر وفريد .
- جاءها عدة طالبين للزواج ، منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فلم تحصل استجابة من قضاء الله .
- طلبها للزواج ابن عم أبيها - علي - ربيب البيت ، فتمتم جبريل بالبشرى .
- حضنت أباها كأنها أمه ، واشتهرت بكونها أم أبيها ، وبانها بضعةمنه ، وبأنها مع زوجها وابنيها أهل البيت ، وبأنهم المطهرون ، وبأنهم من أهل الجنّة ، وبأنهم هم الذين يردون عليه الحوض .
- سكنت بيتاً ، بعد الزواج ، لحارثة بن النعمان ، مشترك الحيطان ، وخلف الحائط الثاني كان ينام أبوها .
- ولدت الحسن والحسين وابنةً هي الثالثة ، ثم خطفها الموت عن عمر لم يتجاوز العشرين حزناً على أبيها الذي غاب قبلها بعدة أشهر .
- حُصِرَ بها إرثُ أبيها ، وبابنيها ميراثُ آخر ، دمغ بالإمامة .
- تفوهت بخطاب واحد ، في باحة المسجد ، بوجه الخليفة أبي بكر الصدّيق ، تطالب فيه بنحلة هي - فدك - خصّها بها أبوها ، فقطعت عنها بعد أن طوى أباها الغياب .
- من صفاتها :
- إسمها - فاطمة = أي مفطومة عن النار هي وذريتها .
- البتول = أي تعذر من يماثلها بالطهر .
- الحوراء = أي لم تحض ولم تطمث . .
الصدّيقة = أي الصادقة في تكوينها الروحي والمادي على السواء .
- الزهراء = ربما المشتقة من الأزهرين : الشمس والقمر ، ومن اجتماع النورين : عليّ وفاطمة .

تلك هي فاطمة في التاريخ ، ولقد اجتهدت الأسانيد المتكررة في إبراز ذلك مع إشارات بالشرح والتعليل يبقيان يابسين على مضغ واجترار مملّين .

والحقيقة أن فاطمة هي تنزيل في خاطر الرسول ـ ما أن أخذها عن صدر أمها خديجة إلى حضنه الأبوي ، حتى شعر بأنها الشوق الهائم في روحه منذ اللحظة التي تجسد هو فيها من تربة الأرض ـ هكذا بنيت أوصاله على شفافية من الوجد ترنحت به الآن ، وهذه الطفلة بين يديه ، يقرأها قراءة مستجيبة إلى كل أحاسيسه المتأثرة بهذا النوع من البراءة ، والنعومة ، والأنوثة الفريدة الملامح . إنها وحدها ـ فاطمة ـ دون أي طفل في الوجود ، قد فعلت في أبيها ، ما قد فعله الانبعاث ، لكأنها هبطت عليه مبزغاً من تلك المبازغ التي كان يستنير بها كلّ وجوده الشفاف ، حتى لكأنها تجسيد لجبرائيل ، يتقبل منها الوحي المنعش المملوء بالعذوبة ، والأمل الموصول بالغد الأكبر ـ إنها بين يديه سر ينطوي فيه حبّه لخديجة أمّها ، تلك الشمعة التي تذوب في حبه ، وينطوي فيه حنينه المشتاق إلى آمنة ـ أمّه ـ تلك التي أهزلها الفقر ولم تناوله ثديها ، فاستعاروا له أمينّ غيرها : ثويبية ، وحليمة السعدية ، ما كان لهما إلاّ أن تعمقا حفر الشوق في قلبه إلى أمّه الكبيرة التي نزلت في جدثها ، قرب مكة ، في الأبواء ، وهو بعمر ست سنين ، ولم ينعم برؤياها أكثر من ستة أيام ـ أجل ، إن فاطمة ـ بين يديه ـ سرٌّ ينطوي فيه أيضاً هذا المبهم المتلاعب في أحاسيسه المتزاحمة فيه إلى تحقيق كل عظيم لا يزال هاجعاً إلى غد تستيقظ فيه أحلامه ، وأمانيه ، وآماله .

لقد انعكس كل ذلك في تصرفه مع حبيبته فاطمة ، فكانت تنمو بين يديه كأنها الزنبقة البيضاء ـ كأنها عطره ، أو الطيب الذي يحب أن يتطيّب به ـ كأنها الأمل الذي لا يجوز له إلاّ أن يكبر ـ كأنها العذوبة التي لا يسمح لها إلاّ أن تتمسّح دائماً بالجمال ـ كأنها الشوق المطهّر بنار ليس فيها رماد ـ كأنها الأم يطهرها الحب ، وتغسلها الأمومة بماء الورد وكل أزهار الجنان .

كيف يقال عن فاطمة الزهراء أقل من هذا ؟ وهي في عين أبيها أوسع من سماء . . . من هنا هجيّ إسمها ولوّنه بالصفات : فهي بلا إثم ، ولن تدخل قصاص النار ، ولهذا : فهي فاطمة ، وهي البتول ، وهل في الأرض كلّها إلاّ مريم تماثلها بالطهر والعفاف ؟ وهي الحوراء لأنها منسوجة من شفافية الطهر والجمال ، ولا شيء فيها ينضح بغير العبير الزلال ، وهي الصدّيقة ، وهلى أبهى

من عينيها المعجونتين بقلبها البكر ، وطهرها الشفاف ؟ وهي الزهراء ، وهل الأزهران أبهى منها وأنقى ؟ .

يا للنبيّ العظيم ! يرى ما لم ير ، يربط الأيام ، بعضها ببعضها الآخر ، فلا دابر يموت ، ولا حاضر يفنى ، إن الغد العظيم هو الذي يولد ، وهو الذي يبقى ، والرسالة التي هي لأجل هذا الإنسان ، إنها مولودة من أمسه الدابر ، ومن يومه الحاضر ، إلى الغد الزاهر الذي لا يجوز له أن ينطفي .

وفاطمة الزهراء ، والتي هي نصيبه الأوحد في المجال ، وفي الإستمرار ، وفي تمام الصفات ، إنما هي منه في الخط النزيه ، وهي منه لمتابعة الأشواط - إنها للغد الذي يأتي : فلا تفنى اللحظة الواحدة في الرقاص الذي تخلد عليه عقارب الساعة - ستكون مبنية للغد الآتي ، وستكون نيّرة أيضاً بالتحامها الرائع بالنيّر الآخر الذي هو الآن يربو تحت إبطه - فعليّ هو الذي سيربط الثواني برباط الزمان ، وسيكون له في المكان قاعدة تحيا بالزمان .

قلت : أن النبيّ اللمّاح رأى ما لم ير ، ولكنه - فيما بعد - أصبح يُرى هذا الذي قد شقت عنه الحجب . إن أول اللمّاحين المقاصد كان عليّ - وفاطمة بالذات كانت تشعر بالحنان المهيج ، وهي تنتقل - بين يديه - من كف إلى كف ، كأنها اللعبة الراقصة على الزهو والدلال ، وكانت تشعر ، وهي تغرق في عينيه تسبح فيهما على أنوثة فيها عبق مجنون البوح والفوح - ولما امتلأت به حباً وفهما وصدقا ، ما قدرت إلاّ أن تتبناه ، كأنه وصلة من قلبها ، وفيض من مناغمها ، ولفح في عروقها ، أو توأم لها في الكيان - ولما دقت ساعته الأخيرة وانخسفت ثوانيها عن النبض ، جُنّت بأحزانها ، وغرقت في حسراتٍ من الدمع لم تمهلها أكثر من بضعة شهور . . . ولما أدركت أنها أضحت في حالة التلاشي طفت على ثغرها بسمات ناعمات ، لأنها أصبحت جاهزة للقاء أبيها .

في الساعة التي انتقلت بها فاطمة إلى جلال السكون ، كان الحسن والحسين - وهما في الثامنة والسادسة من العمر - يلمسان لمساً حزيناً ثوب أمهما المسجّاة في فراشها ، وهما يشعران بحفيف هابط إليهما حول السرير : أنتما

ريحانتي ـ وأنتما سيدا أهل الجنّة ـ وأنتما إمامان ، قمتما أم قعدتما ، وأنتما ميراثي ، ومن أهل البيت المطهر تطهيرا .

عمر بن الخطاب

وأنت ، يا أمير المؤمنين ، كنت ـ ليس فقط من أبلغ اللمّاحين ، بل ـ من أخطر اللمّاحين ، ولكن ـ اسمح لي يا سيدي أن ألمح أيضاً : أنك لم تبنِ ، من لمحك ، تقاك ، أكثر مما بنيت منه دهاك ـ والخطر الخطر لم يكن من فيض تقاك ، بل كان من فرط دهاك ! تلك ملمة لم تقع فيها أنت وحدك بالذات، بل العصر كله آنذاك ـ وبئس ما كان لها من التعدية إلى العصور الآتية من عصور الإسلام ! .

مهما يكن من أمر ، فأنت العظيم بما أفاض عليك الإسلام من الورع والتقى ، وكلها قيم فيك وشمتك وشماً على الصفحات المجيدة من تاريخ الإسلام ، وأحصتك من بين الصحابيين الأولين ، والمهاجرين الثابتين في الأمانة لحقيقة الرسالة التي تم لك بها اعتناق والتحام، وتمّ بها ومنها إقرار لك بأنك الحريص عليها ، والصائن لها ، وبأنك تستحق فيها مركز الخلافة .

أيكون هذا جزاء على كل ما لمحت من حقيقة الإسلام، وعظمة الإسلام، وروعة التوحيد في الإسلام ؟ ولكن لمحك هذا ـ وهو العظيم الأجل ـ لم يسم مثله لمحك الثاني . أجل يا سيدي ، وأنك لمحت نية الرسول الكريم ، وهو يفرق الشوق غرفاً إلى ابنته فاطمة ، وكيف ينظر إليها بالمنظار البعيد ، وكيف يغلفها بهذا الجمال ، وبهذه القدسيّة ، وبهذه الروعة المسحوبة من العمق ، ومن الجلال .

من المؤكّد أنك لمحت وفهمت وأدركت أن النبيّ الكريم لم يعطف على أهل بيته أكثر مما يعطف على أبناء أمته ، وإن ذريته ليست فقط محصورة بعلي والحسن والحسين، بل أن الأمة جمعاء هي ذريته التي تدوم له في حقيقة خط البقاء وإن الرسالة ـ وحدها ـ هي الباقية ، والواقية ، والحريصة في الحياة . أما

أن تكون الوصية في أهل بيته ، بأن منهم المستخلفين ، فذلك معناه ، إن العناية هي التي أنعمت عليه بالتخصيص، وأن الرسالة تستحق الإعداد النفسي المتين ، وإن الأقربين منه هم الذين يمكن الإعداد منهم وفيهم ، فهم تحت العين ، وتحت اليد التي تستقيم منها الإشارة ، وفي حنوة الصدر الذي يخفق فيه القلب ، وأمام كل المشاهدة التي يتم فيها الإستغراق المدرج أمام بسطات العقل ، والروح، والخيال ، وإنهم ـ بلا شك ـ هم المتأثرون ، وهو وحده المؤثر ، وإنه هو المريد ، والمشترع ، وباذل الذات ، وإنه وحده المخطط ، والمنفذ ، والصادق في بعد النظر وحقيقة المرمى . لهذا كله كان منه لفاطمة شوق مفطوم ، وأجل ما فيه ، قصد محتاط بأن لا يوقع المجتمع الجديد في تقسيم يفتته من بعده ، دون أن يلحمه أيّ انتخاب للخلافة يعرض على جماهير لم ينضجوا بعد ـ فكما أنه هو الذي قدم الرسالة ، فإنه أيضاً هو الذي يصطفي قيّماً عليها يتعهدها ، ويرسخ خطاها إلى أن يأتي الترسيخ بيوم آخر يصح فيه انتقاءٌ واعٍ وانتخابٌ راشد .

أما الأمل الكبير، بأنه سيطاع، فلأن الذين حوله، هم الذين ساعدوه وأحبوه ، وهم الذين به يؤمنون ، وبهديه يأتمون ، وقرآنه يقرأون ، وباسمه يجتمعون .

إلاّ أن الوصية وحدها ـ يا سيدي ـ ما نفّذت ـ كأنّك ما سمعت وما لمحت . وعلي ، الموصى له بالخلافة ـ كان رفيقك ، وكنت تراه مجللاً بالجهاد ـ وفاطمة الزهراء ـ كنت تراها غارقة في عيني أبيها ، كأنها قلبه في مقلتيه ـ والحسن والحسين ، كنت تراهما يدرجان في المسجد ، ويعتليان ظهر النبي ، وهو يخطب في الناس ، ليصبح الحسن كأنه مئذنة فوق كتفيه .

لماذا أنا الآن ألمح أن الذي استتر فيك هو الذي به تصرفت ـ والمستتر فيك هو الموروث القديم ، وإنك انت هو الذي نبذته إذ بعثت إنساناً جديداً . ليست الرسالة اليوم ترفض أن تجتمع في البيت الواحد نبوة وخلافة ـ فعلام ينسب إليك القول : « لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد » ـ قلت ذلك عشية إغماضة

عين الرسول . وكأن إجتماع السقيفة ، سقيفة بني ساعدة ، وكان فيه إبعادك عليّاً عن الخلافة ، وتعيينك أبا بكر لها ـ وكنت أنت في تلك اللحظة محسوباً لها ، لأنك كنت الوجيه المقتدر ـ ولكنك أنت الذي قدمت الصدّيق عليك ، حتى يتحمل هو بداية رشق السهام . . .

لست أدري ما الفرق بين النبوة والخلافة ، أتكونان مركزين وكرسيين ؟ أم إنهما مركز واحد لتحصين الرسالة؟ فأيّة قسمة هي الآن بين بني هاشم وبني قريش ؟ ولكنك بهذا الوحي المستتر تصرفت ، وما تمعّنت ، حتى عادت إليك الخلافة بوصية من أبي بكر بالذات ، وهو على فراش الموت ، فقبلت الوصية التي لم تقبلها أنت من النبي بالذات ، لعليّ بالذات ـ .

حتى الخلافة ـ سيدي ـ وأنت تخلف بها الرسول الذي أحببت ، وبه آمنت ـ قد أبدلت لها الإسم بالإمارة ، وابتداءً من عهدك ، صار « الخليفة » أميراً للمؤمنين ـ أقول : أيكون ذلك منك ، لأن النبي المخلوف ينتمي إلى الطالبيين الهاشميين ؟ .

لا أقبل أن يكون في الكلام تجريح لك يا سيدي ، كما وأني لا أحب أن يكون كله دفاعاً عن عليّ ، فأنت بالذات أحببت علياً بقدر ما أجللته ، ولسوف تستيقظ فيك شهامة مرسومة فيك ومرشوقة بالنبل ، عندما نحاك عن الجهاد والكفاح اللذين أنت لهما في الميزان ، ذلك الوغد ابو لؤلؤة بضربة من خنجر أسود ، فلم تر أنت أن تترك الأمة تتعثر بالتفتيش عمّن يستلم كرسي إمارتك ، لأنك ـ في تلك الساعة بالذات ـ أدركت أن جمهرة القبائل لم يتسنّ لها بعدُ أن تستشير وعيها في تعيين المتمكن من قيادتها ، فتداركتها بلجنة سداسية تنتقي واحداً من اثنين : إما علياً ، وإما عثمان ، وإن يكن قد انزلق عنك تلميح مغموز به عن الأول إلى الثاني ، وهذه ـ أيضاً ـ أموية سفيانية حسبت عليك في المجال المستتر الذي ما كنت قد انتصرت تماماً عليه .

ما عدا ذلك ـ فعمر بن الخطاب الذي ترك الكرسي لعثمان بن عفان وهو

أمير للمؤمنين ، قد عبأ العشر سنين من عمره بما وصف بالأعمال الجليلة : لقد وصل الجزيرة ، أطرافها بأطرافها ، وربط بالعروبة كل ما وصلت إليه العروبة ، وعززها بفتح الشام ، والعراق ، وبيت المقدس ، والمدائن ، ومصر ، وبرقة - ولقد أنشأ الدواوين ، وبنى الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط ، والمسجد الحرام في مكة . . .

إن الأعمال الجليلة أو التي وصفت بالجلال - إنما هي لتشهد عليه بالشخصية المنفصمة - نال الإسلام شطراً منها فاصطبغ بهذا التقى ، وكانت الإستقامة مما لفحته به الرسالة الجديدة ، وكان ميله إلى خطوط العدل رشحاً لذيذاً منها - ونالت القبلية المتأصلة في فكره وروحه ودمه ، كل الشطر الآخر منها . فلما استترت مقاصده ، ولا صفا العدل بين يديه في التصرف ، فجاءت عروبته قديمة التأدية في التعبير وراحت ترجّح في مقاعد السلطة والنفوذ ، سلطان زعامة على زعامة في « أرستقراطية » شوهت قديماً صفحة العروبة إذ حصرتها في بداوة مقفلة عن أي انفتاح شريف الإطلالة وعريض الجبين ، وما جاءت الرسالة الكبيرة إلّا لتجعل هذا الانفتاح كريم الراية في تعبير إنساني يشهد أن للعروبة وجهاً قديم الحضور في الساحات العريضة ، وهو إنما كان حضوراً بناء في وجود المجتمعات وجوداً إنسانياً محققاً حضارات زها بها صدر العالم القديم - إنها حضارة وجودية في عروبة الأكاديين والبابليين والأشوريين والأراميين والأموريين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقيين الأبجديين - وكانت عروبتهم - جميعاً - عروبة رسالية منفتحة الحضارة ، كما جاءت في هذا اليوم بالذات رسالة الإسلام العربية الانتماء ، لتكون توحيداً، ولتكون نوراً وهداية ما قدرت أن تنتسب إليها العروبة الباقية في أمراضها القبلية ، بينما نشرتها العروبة الصحيحة والسليمة هداية للأمم ، وراحت تجمعهم تحت رايتها مجتمعات إنسانية تنضج رويداً رويدا بصحة العقيدة ونقاوة الإسلام .

إني أشك كثيراً بعروبة عمر بن الخطاب ، إنها ليست هي العروبة التي أحيا وجودها نبي الإسلام ، وبثها انفتاحاً على العالم وعلى أمم الأرض ، وبثها وعداً كريماً يحرز التباهي والإفتخار ، بما ضمنها من حب وانفتاح وسماح - إن

العروبة هـذه ، هي شوق الإنسـان إلى الإستزادة الـدائمة من خـزانات الخـير ، يتصل بها الإنسان بالإنسان في الحقول التي تجمع بها مجتمعات الإنسان وحدتها ، وطمـأنينتها ، واستقـرارها ، وكـل مثلها المنـاقبية الحـافظة لهـا الصـدر والـوجـه والجبين .

لـو أن ابن الخطاب هكـذا تثقف ، لكانت لـه الوصلة العـريضة المنـدمجة بالإمام علي ، ولكان قلده ساحة الإسلام بدلاً من أن يعـزله إلى الـزاوية ويغلفـه بالإنفراد لقد قدر على ذلك لأن عـروبته المـريضة بقبليـاتها هي التي كـانت تملك الساحة وتسلمه الزمام .

فوق كل ذلك ـ كان عمـر بن الخطاب الـداهية الـذي لم يشتهر لـه دهاء ـ أظنه هو الذي علم عمرا بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، كيف يكون الدهاء ، وعلم معاوية بن أبي سفيان كيف يغير معالم الخطوط قبل أن يسير عليها ، وكيف ينقل التخوم والحدود للأشياء تاركاً دونها غباراً يشير إلى سواها .

سيكون عمر الحسن عشـرين حولاً عنـد انتقال الحكم إلى عثمـان ، ولقد تمكن من مـراقبة ابن الخـطاب كيف أوصل الحكم ـ بلبـاقة مكتـومـة ـ إلى الخط السفياني حارماً منه الخط الهاشمي ، وسيبقى له أيضاً برج المـراقبة مفتـوحاً عـلى عهد عثمان الذي لم يزه أبداً قميصه .

نبذة في الواقع

لقـد كانت القبـائل في المبتـدأ تنقسم إلى خطين كبيـرين : العدنانية وما يلتف إليهـا من مضر وربيعـة ، والقحـطانيـة ومـا ينتسب إليهـا من كهـلان وحمـير ـ وكـانت البـطون والأفخـاذ مشتـدة الأواصر بقـريش وخـزاعـة وبني تميم . . . . . وشيبان وبكر وبني وائل . . . وغسان والأزد والخـزرج . . . وكلب وتنوخ وقضاعة . إن الحبل طـويل لـو يطلب المـوضوع عـرضه . إن هـذا الحبل الطويل من القبائل ، ما كان ينجدل لعمران الأرض ، بل كانت تقطعه الفوضى وعـدم تنـظيم أسبـاب العيش ، لتتلهى القبـائـل كلهـا بتحصيـل عيش لم يكن

ليستقيم أوده من دون الاستعانة بالغزو والتعدي ، وكان الكل ـ تقريباً ـ سواء بسواء . لقد كانت الهجرات الطويلة والمستمرة والقديمة العهود ـ وحدها ـ منجاة من هوان يتذمر منه وجود الإنسان . من هنا كان التصاق كل فرد بقبيلته صوناً له ، يأتيه من تضافر القوى للوقوف بوجه أي تعد يأتيه من قبيلة ثانية تفتش مثله عن تأمين العيش الذي يشح على الجميع . كان للقبيلة الكثيرة العدد ذلك الحظ الأوفر بالغلبة ، وتثبيت المكانة ، والحصول على الزعامة . . . قريش ـ مثلاً ـ وهي فخذ من مضر وبطن من عدنان ، كانت سيدة مكة بالنسبة إلى عدد فروعها ، ومنهم بنو طالب الهاشميون وبنو حرب الأمويون .

ولكن ـ لا العدنانية ولا القحطانية ، بكونهما جامعتين لمختلف أعداد القبائل والبطون والأفخاذ ، كان لهما أن تحولا دون وقوع صراع مرير ضمن فخذ واحد من أفخاذها ، وهذا ما كان يحصل في قريش بين الهاشميين الطالبيين والسفيانيين الأمويين ، أو بالاختصار بين الهاشميين والأمويين .

تلك كانت حالة الإنسان في الجزيرة ، لما جاء محمد بن عبد الله الطالبي ـ الهاشمي ـ القرشي ـ المضري ـ العدناني ، وبسط على الجزيرة ظل الرسالة المحمدية التوحيدية ، بحيث لم يعد هنالك لا قحطانية أو عدنانية ، ولا مضرية أو كهلانية ، ولا هاشمية أو أموية ـ بل وحدة إنسانية منظمة على أسس من مثل تجمع في الحق والمعروف والعدل والمساواة ـ لقد أصبح الفرد إمكانية إنسانية تدافع عنه الأمة المنتمي إليها ، لا القبيلة المفككة والمشرذمة بعدم التنظيم . إن الإنتماء إلى واحد هو بدون شك وبلا أي جدال ـ غير الإنتماء إلى ألف قبيلة يوزعها التناحر في ألف مجال .

لقد صح كل ذلك ، ولقد تحقق على الأرض ، وأصبحت القبيلة إسماً للإنتماء به إلى الأمة ، لا مرجعاً للإنطواء به إلى التفرد . لقد كان الجهد منصباً على تجريد القبيلة من معناها القديم ، ومن مفعولها الرجعي البائس ، لتكون النتائج خروجاً حضارياً تعززه النظرة الواعية في تكوين الجماعة ولمّها في الشمل المتين . لقد انتهت الرسالة إلى الحيز الجميل ، وكانت الخطط كلها مرسومة

لمتابعة المناهج في حقول الإتمام والملاحقة ، ورصف الحجارة في البناء .

ولكن الذي حصل عند إغماضة عين الرسول ، لم يكن بالحسبان . لقد كان التصرف بلا روية ، وكان الإسراع بإعلان أبي بكر الصديق خليفة للرسول نذيراً بتقسيم الصف الواحد ، وإعادة القبلية إلى حقولها العتيقة - وفعلاً قد انقسم الصف بين فئة تؤمن بالتخصيص والتعيين في أمور الخلافة ، وفئة ترفض التخصيص والتعيين ، وتسرع - مغتنمة فرصتها - إلى تعيين خليفة يتستر بشرعية الإنتخاب ، على أن تأتي فتسنده المبايعات التي تتألب لها مجموعات القبائل . ستظهر النتائج وخيمة مع مرور الوقت ، ستحتاج كل فئة إلى حشد طاقاتها المساندة في الميدان : سفيانيون أمويون من جهة ، ومن ينتمي إليهم من لفيف القبائل ، وطالبيون هاشميون من جهة ثانية ، ومن ينتمي إليهم أيضاً من مناصرين . . . كلهم ستلفهم الساحات في صراع يلهي الأمة جمعاء عن سيرها المحقق والمجلي .

ماذا يفيد تفنيد الأخطاء غير أخذ العبر منها تحرزاً من الوقوع بمثلها - وها إننا نتساءل : لماذا اعتنق الإسلام أبو سفيان وإبناه يزيد ومعاوية ، وطلحة والزبير وسعد بن عبادة وابن عمه بشير بن سعد الخزرجيان ، وعويم بن ساعدة ومعمر بن عدي الأوسيان طالما أن كل واحد منهم لا يريد أن يفقه معنى الإسلام ؟ .

لست أدري الآن - بعد مضي عقد وثلث العقد على اجتماع السقيفة - كيف اختلط هكذا الحابل بالنابل ، وكيف عادت تنتعش القبائل والبطون والأفخاذ ، وراحت من جديد تبني مواقفها ، وتنتقل بالمناصرة من ساحة يشح فيها الفيء ، إلى ساحة أخرى تغزر فيها الغنائم ! .

ولكن - لماذا التعجب ؟ طالما إننا نعرف أن إبدال حرف بحرف في كلمة ، أو حذف حرف منها ، يغير من معالمها ، ويقلب إلى عكس مداليلها . فلنجرب ذلك بإبدال ميم بهاء من كلمة « ملاك » - أو حذف نون من كلمة « نرجس » . . . وبئس الملاك يستحيل هلاكاً أو شيطاناً رجيماً - ويا ضوع

النرجس المطيب ، يستحيل رجساً يذللنا إلى جحيم ؟ .

والرسالة الطرية المطروحة على البساط الكبير ؟ لماذا نحذف حرفاً صغيراً من حروف مناهجها ، طالما أننا قدّسناها ، وقدّسنا مناهجها ، واجتمعنا بها ولها . إن إتمام لمحة صغيرة لمح بها الرسول الكريم ، كان كافياً لحفظ الكلمة الكبيرة المؤلفة من وحدة الصف، ووحدة القبائل، ووحدة الأمّة ورصّها في صفّها العريض ، وما كانت الطاعة لتضير وهي فعل إيمان بالرسول ، وبصدق ما يقول ، وهي ـ بحد ذاتها ـ نبل وشهامة ، وحب مشبع بنسيان الأحقاد ، وجمع لكلمة تستقيم حروفها في حضن جامعها الحريص على إتمام معناها .

ولكن الحرف الصغير هذا قد أسقط من الكلمة ، لا بل نقل من تدرجه في تأليف الكلمة ـ لقد كانت « الياء » بعد « الباء » فأزيحت إلى ما بعد « اللام » في كلمة « قبيلة » فرجعت إلى معناها القديم ـ قبلية ـ وهي الداء ، وهي الوباء . . . فالقبيلة هي أساس تأليف الإجتماع الذي يجمع قبيلة إلى قبيلة في خط النمو والبناء ـ أما القبلية فهي استدعاء القبيلة إلى تعصّب وصراع ضد قبيلة ثانية مزاحمة لها في الجوار .

لقد قرر ابن الخطاب نقل حرف من الكلمة . . . وابتدأ التحضير لبني أمية ضد بني هاشم ، وكيف يكون التحضير بغير استدعاء القبائل وأيقاظها من نومتها ، ورصّها لدعم الصف ؟ أين هم بنو قيس ، وبنو أسد ، وبنو تميم ، وبنو بكر ، وبنو تغلب ، وبنو تيم الله ؟ أين هم الأوسيون والخزاعيون ، والخزرجيون ؟ فليتفرّقوا ، وليختلطوا من جديد ولينطلقوا إلى فتح مبين ـ إن الساحة اليوم مقسومة أمام كل اللاعبين ـ والخلافة الآن حلم اللاعبين . لماذا يكون لها أبو بكر ولا يكون لها طلحة أو الزبير ـ وكيف يحق لسعد بن عبادة أن يزاحم عليها أبا بكر ؟ فليبطش ـ إذاً ـ خالد بن الوليد بسعد بن عبادة حتى تنطفىء نار المزاحمة .

وكانت أخيراً لأبي بكر ، بمعونةٍ حتى من زعماء الأنصار الأوسيين والخزرجيين ، شأن أسيد بن خضير ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدي .

هكـذا رجعت تنتعش القبلية ، وعـادت تبني المخططات لـلإستعـانـة بهـا مخلوطة أوراقها ، وذلك صبيحة انتقال الحكم إلى عثمان بن عفان .

عثمان بن عفان

- ١ -

لقد ثلّث عثمان بن عفان الإثنين اللذين سبقاه ، دون أن يكون لعلي في ما بينهم أكثر من تعلّة . لقد تم لهم - بنجاح - إفراده وإبعاده . إنما الخطة قد عولجت ليكون لها هذا المؤدّى . ابتـدأت بمحـاولـة فيهـا من التصميم بقـدر مـا فيهـا من العَـجْم والسَبْر والرَّوز ، وكان المصمم - كما لمحنا - عمر بن الخطاب ، فرمى إلى الساحة أبا بكر ، وراح يراقب كيف تسير الأحداث في مجراها الجديد ، ويسندها بكل ما هو ناجح فعال .

لقد كانت التقوى تشع من أبي بكـر - إنها مسحة حلوة مسـح بها النهـج ، وهي هالة تمنطقت بها - منذ اللحظة الأولى - رسالة الإسلام . وهذا هـو الحصن الذي تحصنت به الخلافة الأولى في المحاولة البكر .

وعـاد الدور إلى ابن الخـطاب ، بموت الشيـخ المسن ، فقبل المتـابعة بعـد التجربة التي منّعت الخط وركزته ، وراح من جـديد يمتن الأسـاس ، ويفتش له عما يدعمه ويدفعه إلى ثبات . وبنهـج مدروس أخـذ يعين رجـاله المنتخبـين لملء المراكز الحسـاسة في الحكم ، ولم يكن ليتسـاهل مـع أي واحد منهم إذا لم يتحـلَّ بالتقوى والنظافة والصلاح . ولكن . . . هنالـك وفرة كـريمة من هؤلاء الـرجال المؤهلين والمتحلين بهذا المعدن الكريم . كانوا موجودين بين الطالبيين ، ولم يكن لعمر أن يشدَّ إليهم ، إلا نادراً ، في التعيين ، وكان للأمويين ميل بارز .

وانتقل الدور إلى عثمان بن عفان . لقـد كان لابن الخـطاب فرس تمكنت من بلوغٍ إلى قصب الرهان وهي تقضم لجامها - أما الفرس التي اعتلاها عثمـان ورمى بها إلى الساحة المكشوفة ، فكانت بلا لجام . مـاذا قلت ؟ أليس التحديـد هذا هو التحـديد الـذي يشمل سيـاسة العصر ؟ أليس الـوصول إلى عثمـان بن

عفان ، هو وصول إلى كشف نوايا ، ما استترت بها اللباقة حيناً ، حتى أتاها حائك أرعن، فنشرها قميصاً ما بلي خيطه حتى اليوم . . . ! لقد كان الوصول إلى عثمان ، وصولاً إلى حد السيف ، بين قبيلة وقبيلة ، أو بين فخذ وفخذ ، أو بين بطن وبطن ، من كل قبائل العرب : من عصر الراشدين ، إلى عصر الأمويين ، إلى عصر العباسيين ، إلى عصر الإنتقاليين إلى الأندلس ، وهلم جرا يميناً وشمالاً ـ من مكة ، إلى يثرب ، إلى اليمن ـ إلى العراق ـ إلى الشام وفلسطين ومصر ـ وكل أرجاء المغرب . لقد كان وصول الحكم إلى عثمان بداية الشرارة التي أحدثت الحريق المريع ، وكانت الأمة جمعاء وقوداً له ! ليتني ما أدركت أنه بهذا التحديد كانت مصيبتنا الكبرى ، وليت عمر بن الخطاب قد اقتنع في تلك اللحظة التاريخية ، إن التخصيص أو التعيين كان خشبة الخلاص للأمة ، ومنجاة للقبائل من تسليمها حبال الشد التي راحت ـ من شد إلى شد ـ تختنق بها .

فلنتبسط قليلاً وبإيجاز ، ولنستعد قراءة الأحداث ونحن نسترق الخطى خلفها ، ليكون لنا لمح كيف تنقلت تلك الأحداث ، منذ اللحظة التي غاب فيها الرسول ، إلى الساعة المأفونة التي اشتعلت فيها الثورة على عثمان ، ولفته قميصاً على صدر الزمان .

ـ ٢ ـ

غاب الرسول بعد أن ترك رسالة فعلت فعلها الكبير في إنشاء التوحيد والإسلام ـ جمع القبائل كلها في قبيلة واحدة هي الأمّة ـ ربطها بالأرض وبالتاريخ : الأرض التي هي ركيزة النشوء ، وهي أرض الأمة ، ومرماها الوسيع في التفتيش عن كل أوَدٍ لها فيه سبل العيش ، وفيه كل المضامين في تحقيق التطور والإرتقاء والبلوغ . . . والتاريخ الذي هو مداها الطويل في الزمن ، وفيه إثبات الحق في الوجود ، وفيه حقيقة الإستمرار الموصول بالأرض ،. وهو سجلها الوحيد الذي تحيا فيه ، وتأخذ منه الإفادة والعبر .

لقد ترك هذا كله في عهدة قبضة من الرجال حوله ، أفهمهم أنه لم

يتركهم قبل أن أتم لهم ديناً هو لهم في متابعة السير في الصراط المستقيم ، ولقد أوصل إليهم ـ على مدى وجوده القصير بين ظهرانيهم ، بالقدوة ، والإشارات ، والتلميح ـ كيف يمكن أن تساس الأمة التي أيقظها هو من سباتها الطويل ـ كيف يمكن التغلب على كل ما هو مرض وتخلف وجوع وعطش وتشتيت وحرمان ـ لقد لمح لهم كثيراً، قبل أن يغيب، أن الوحدة هي كل العمل، وكل الدين، وكل الإيمان ـ ولمح أن القبلية ، لا القبيلة ـ هي مرض الأمة المزمن ـ ولمح أن الذي يتأهَّل لاستلام الإدارة بعده ، هو الذي ينهج بنهج الرسالة التي جمعت القبائل من صراعاتها وضغائنها ، وانتصرت بها في عملية التوحيد ـ ولمح أن تعيين الخلف هو عملية إراحة الأمة من نزول إلى الساحة الكثيرة الغبار ، نتيجة إلْتِمَامِ القبائل فيها إلى مبايعة ـ ولمح كثيراً إلى هذا الخَلَف : بتهذيب أنيق لَمَّح ، بعطف كبير لمح ، بإشارات بليغة لمح ، بعينيه ويديه لمح ، وأكثر ما به لمح : استعطافه ، وتشوقه ، وتمنيه أن يكون لأهل بيته حب كريم يخصصون به ، فهم عترته وأهله المطيبون .

-٣-

وجاء دور الخليفة الأوّل ـ لقد لاحظنا كيف أنه نبت نبتاً على الساحة، دون أن يستشار المخصص لها ، اكان التخصيص بنص، أم كان باشارات وتلميحات . ولكن المخصص هذا ، والذي هو فعلاً من أهل البيت ، وهو الآن ربّ البيت الذي يدرج فيه فتيان لا يزالان قاصرين ـ ترك منهمكا بعملية غسل الرسول ، بعملية تحضير دفنه ، بمؤاساة نفسه الحزينة ، بمؤاساة زوجته المفجوعة بموت ابيها . . . كل شيء كان يشغله عن مراقبة حدث ، لم يكن له الآن أن يحسبه يحدث ، ولكنه في هذا الوقت الحرج قد حدث ـ في اجتماع السقيفة قد حدث ـ بحضور اشهر الصحابيين واشهر الانصار قد حدث . . . وكانت الامارة مركزاً للتنازع ، وكان البت سريعاً ، وكان الفرض اسرع ، وكان ابن الخطاب الموجّه الاقدر : من الصحابة الامير ، وللانصار الوزارة ـ وتمت قسمة الحكم ، وتمت التولية ، ولمّا يتمّ الدفن بعد ، وها أن ابا بكر الصديق هو الخليفة .

لمـاذا كـل هـذا ؟ إن البـداهـة التي تلمـح ، هي التي تجيب = لأن ابن الخطاب لم يقتنع ابداً بأن الخلافة تأتي بالتعيين أو التخصيص ، بل بـالانتخاب ـ ـ ونسي أنـه الآن هـو أول من يعـين ، ونسي أن مجلس الشـورى الـذي سيشتق التعيـين منه هـو الذي ـ في مـا بعد ـ سيحـدثه بـالتعيـين ، ونسي أن المعـين هـو المطروح في الساحة للمبايعة ، وأن المبايعة هي التي تحرك القبـائل وتجـدها بكـل عماءاتها ، وعنعناتها ، وقديمها الـذي اهترأت بـه الساحـات ـ ونسي أن الرسـالة التي تحب الجمـاهـير ـ وهي لهم في كـل حـال ـ قـد جمعتهم مـرة واحـدة ولن تستدعيهم الآن إلى اثبات وجـود لم يستتر بعـد ـ ونسي أن التعيين أو التخصيص أو أيَّ شيء بمبنـاه ـ هـو حصر المسؤوليـة بـالمسؤول حصـراً يـرفعـه إلى مستـوى الرسالة ، ولهذا يجب أن يكـون معدّاً تمـام الاعداد ، واعـداده هذا يكـون كفيلاً بنقـل الصفات إلى مُعَـدٍّ آخر ، يتم بـه الخط الذي يكـون مرسـوماً لـلامامة . لم نسمع أن النبي الكريم فصَّـل ذلك أو افـرد له شـروحاً ـ ولكنـه عيّن لـه الاهمية بقـوله لابنيـه من علي وفـاطمة : «انتما امامان قمتـا أم قعـدتمـا » ولقـد نسي ابن الخطاب أيضاً هذا التلميح ، ونسي أن المعد الأوّل لتحمل المسؤوليـة من بعده ـ بكل اشارة وكل تلميح ـ إنما هو علي بالذات .

اننا الآن نستعرض قناعة ابن الخطاب ، ولقد نفذ بموجب قناعته ، ولهـذا شدد ، وبكل روية وقصد ، عـلى تنحية عـلي عن الخط ، لقد اسـرع ـ وثبّت أبا بكر في الخلافة ـ وبحكم الطبع لم يستشر علي .

ثلاث سنوات لم تكتمـل ، واحس الخليفة الأوّل بقـرب الاجل ، فأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ـ هكذا صارت الخلافة رد جميل لموليه ـ وقبـل الوصيـة ابن الخطاب ـ بلا شورى وبلا انتخاب ـ بوصية صريحـة ، اصرح من التعيـين . امتد به العمر عشر سنين في كرسي الخلافة ، لقد حقق الجليل فيها ، ولقـد كان يشعر في قرارة نفسه أنه نجّى الامة من عبودية التعيين والتخصيص ، ومن حصر الدين والدنيـا في بيت واحد ، وهكـذا بقيت النبوة لبيت عـلي دون أن يصل إلى يمينه صولجان . هل كان يدري ابن الخطاب أن الصولجان لم يكن ليطيب في يمينه لـو أن النبـوة التي خـرجت من البيت لم تمسحـه بـقبس كـشف لـه معـالم

الطريق ؟!. . . لست اظنه جحد ذلك ، ولكن نظرته في التأسيس لم تمثل الحقيقة الواقع ـ واقع الجزيرة آنذاك ـ فتصرف كأن المجتمع بين يديه هو المؤهل الرافض ، وهو السيد المستنير ، مع أن النظرة هذه في اسلوب التخصيص لا تستنكف من مريد معين مصقول ، يقوم بالاعباء الجليلة وهو بها بصير .

-٤-

وانتقل الحكم بترجيح توصية ، إلى عثمان بن عفان من عمر بن الخطاب ـ وها هي المواجهة ـ لم يتورع ابن عفان ـ ورث الحكم ـ صحيح ، كأن الحكم وراثة وصلت إليه . لهذا لم يتورع ، وراح يستبد ، وراح يؤسس ، وراح يدعم الاساس . هل من أمل بعد لأهل البيت في الوصول إلى كرسي حكم هو الآن ـ عثمان ـ متربع فيه ؟ فليقض نهائياً على أيِّ أمل ـ من هذا النوع ـ يحتل به بنو هاشم عقر الدار . أن الدار وما فيها لبني عبد شمس ، لبني سفيان ، لبني حرب ، لبني أمية . اليس عثمان الآن هو السليل في الركيزة ؟ أية ضغينة في الامس لا يكون لها اليوم ايتار قوس ؟ أنه يرى الآن أن سلفيه في الحكم لم يتصرفا التصرف الكافي بالقضاء المبرم على آمال علي بالوصول ، أما هو ـ عثمان ـ فبكل حزم سيتصرف .

حتى الشوارع والازقة سينظفها من اتباع علي ، اكان في مكة ، أم في المدينة ، أم في اليمن ، أم في الكوفة والبصرة ، أم في مصر. أما الشام ـ بنوع خاص ـ فستكون ركيزة متينة للإنطلاق والقضاء على كل من تحدثه نفسه بالوقوف بوجه بني امية ـ هنالك معاوية ، لقد زرعه ابن الخطاب حاكماً على الشام ، أنه هناك ـ فليرسخ له الكرسي ـ انه حاكم الشام ـ فلتوسَّع له الادارة والارض ـ فلتكن موسعة بالاردن ـ فليعزل عن فلسطين عبد الرحمن بن علقمة ولتنضم إلى معاوية ولتنسحب حمص من عمير بن سعد الانصاري ، ولتضم أيضاً إلى معاوية ـ وليغرق معاوية بالحرير والخز والديباج ـ ألم يصفه عمر ـ من قبل : بأنه كسرى العرب ـ وسيكون معاوية ، حقيقةً ، كسرى العرب ، وعلى يديه سيتم القضاء على كل أمل لعلي ، وبه سيورق كل عز لبني أمية ـ وستأتيه المساندة : من هنا

وهناك ستأتيه المسانـدات : سيعزل عن الكـوفة سعـد بـن أبي وقاص ، ويـولي مكانه وليد بن عقبة ، وستكون الكوفة بستان بني قريش ـ وقريش الآن هي كـل بني أمية ـ أما وليد بن عقبة ، فليكن سكيـراً ، فليكن خليعاً ـ اليس بمثله يكـون التحكم المـذل في رقـاب النـاس ! فليتغـذَّ عليٍّ وانـاس علـيٍّ ، من المُثُل التي يباهون بها ، وليكن ـ بالمقابل ـ سواد الكوفة طعمةً لبني حرب . . .

أما عبد الله بن ابي سرح ـ أخوه بالرضاعة ـ والذي هدر دمـه النبيّ ، لأنه كذّاب ودجّال ـ فليتولَّ الآن حقول مصر ، مصر البقرة الحلوب حسبما وصفهـا ـ في ما بعد ـ عمرو بن العاص .

أما رجال علي ـ الناس الـطيبون ـ الاتقيـاء الطاهـرون ـ فلعذاب جهنم ، لأي عـذاب من عذابـات عثمان معـرضون ، أنهم الآن المضـطهـدون . . . أي معنى لأبي ذر الغفـاري ؟ فليشـرد أبـو ذر ، ولينف إلى جحيم الـربـذة أبـو ذر ، وليمت في منفاه أبو ذر . . . ولينف أيضاً عمار بن ياسر ـ اليس ابن ياسر من طينة أبي ذر ؟؟ .

هـذا قليل من كثير مما ارتجـل عثمان وهـو في كرسي الخـلافة ، في سبيـل توجيه الحكم وحصره في بني أمية . أن معـاوية ـ في نـظره ـ هو رجـل الساعـة ، وهو المؤهل الوحيد لاستلام الزعامة ، واستلام الامارة ، واستلام الملك .

ولـو أن ثورة قـد تـولـدت ـ فعـلا ـ من عنجهيـة عثمـان ، فقضت عـلى عثمان ! إلا أنها وصمة تلوَّثَ بها كاهل خلافـة ليس من حقها أن تخـطىء وتجني على كل المؤمنين . كما وأن المغانم التي جناها عثمان ، ومنها غـزو اذربيجـان ، وارمينيا وطبرستان . وفتح جزيرة قبـرص التي هي امتداد الارض عـلى الشاطىء الذي سكنه الجدود الممتدون من الجزيرة ـ بنوكنعان ـ قبرص التي كان يسمع من حمص صياح ديكتها ونباح كلابها .

اقول ـ أن هذه المغـانم الثمينة بتـوسيع نشـاطات الامـة ، وللمة اطـرافها بعضها إلى البعض الآخر ، لم تـواز خسارة جسيمـة حلت ـ وستحل عـلى ابلغ ـ

بالامة ، وتؤخرها عن بلوغ كل مجد عظيم ، لو أن اللحمة الرائعة بقيت لها ، ولم تتفسخ إلى عدة معسكرات تتناحر جميعها تناحراً عقيماً ومبيداً . أن صراعاً أوصل معاوية الأموي إلى كرسي الملك ، زعزع اللحمة وفسخ الأمة بين الشام والعراق والجزيرة ، وتركها اشلاء تتلهى باشلاء ، وصدعها تصديعاً ، وكان لها من كل قبيلة همجية جديدة تضرم النار وتوهجها بكبريت منها وبوحل منها أيضاً يتلازج ثم ينشف إلى سحب من غبار ، وستبقى الحزازات والضغائن تتغذى بمواليدها وفصلانها كما تتغذّى مواليد العناكب بامّاتها . كأنها ـ هذه الامات ـ هي الصيد الجديد الذي وقع في احبولة النسيج ، حتى يدول عصر أموي ويولد عصر عباسي فيشويه ويزدرده امويا ، ثم يلتوي على ذاته فيلتهمها التهاماً تركياً ـ تتريا ـ مغولياً اصفر ! يا للمسافات تلتهمها ثوانيها القارضة ، ويا للاستعدادات النفسية يغرقها اللاوعي في فوضاها .

اصبحت الآن أيها الحسن ـ وعثمان بن عفان أمام مقاضاة الزمان ـ بعمر يتجاوز الثلاثين . أنه نضجك أيّها السيد الكريم ، وأنه لمحك الذي ستأخذ عنه ـ أَفَلَسْتَ الآن في الساحة المعكورة ؟! سينزل إليها أبوك ـ ايكون لك أن تساند خطواته في تفتيشها عن الطريق ؟!.

غمزة

لست اظنه مات ـ عثمان بن عفان ـ إن شرارة تلقطت بقميصه ، سيكون منها لقاح نار تجعل يباساً كل اخضر ! إن الشرارة الآن قد تناولتها الشام ، لتبني بها ثأراً لعثمان ـ لقد عاش الآن عثمان في الشام ـ أليس معاوية المزروع فيها ، هو المنتظرُ موعداً موقوتاً ومخبؤاً في قميص ؟! .

إنها الساعة الذهبية المعلقة في جدار القبة الحمراء ـ بهذا الهباء ستبقى تدق ثوانيها في تأليف الوقت المرهون والمصبوغ بالدهاء .

إن الحكم هو حلية اللازورد الصافي والشفاف ـ الضارب إلى حمرة الدم المنتوف من مهجة الملك وعرنين المجد ـ وهو فطيرة اللوزينج التي تفترشها مرقوقة

موائد الملوك ، استدراراً للعاب يسيل على الشفاه المدهونة بالقرمز .

قتل عثمان ليعيش طويلاً في بال معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن أمية ، من أجل احياء ثأر مدَّرِع ببغض للأَقربين بني هاشم - فلتجتمع القبائل المساندة ،من كل حدب وصوب =ولتوجه كلها - لا لتحرير الشام ، وربطها بمداها المُصَدَّد إلى أرض الرافدين - بل لشحن الصدور بالاحقاد التي عاشت بها طويلاً - قبل محمد - قبائل اليمن ، وقبائل الحجاز .

الامام علي - المنحى

- ١ -

العفو منك أيها الامام ، ها هو البحث في موضوع هذا الكتاب ، قد خطا خطوات طويلة حتى الآن - وان قلقة - وهو يرمي باسمك ، هنا وهناك ، على شح وتقتير ، كأن اسمك هكذا يبنى بالحروف البسيطة المهملة . لا يا سيدي - ان اسمك ليحاط بهالة يبهو بها ، وان الوصول إليك هو الوصول إلى لب الموضوع الذي يقرأه الآن قلم يبحث عن حقيقة الصراع في وجود الإنسان . أنت من القطع النادر أيّها السيّد المهيب ، وأنت شوق الله في الانسان ، وشوق الوجود في الانسان ، وشوق الدساتير إلى اختصارها في المثل المعبّاة بقيمة الحياة في وجود الإنسان . فلنأخذ الآن اليك حديثنا وهو يفسرّ - بك عنك - حقيقة ما لمسته الأجيال فيك من روعة هي لك دائماً في صلابة مجتمع الانسان .

جل ما يهمنا أن نعرف من حدودك أنك ربيت في بيت الرسول الكريم - ليس المهم أن نحدد أنه اجتذبك إليه وهو بعمر الخمس والعشرين أو أكثر ، وأنت بعمر الأربع أو أقل ، المهم أنه تناولك إلى حضنه وهو في حالة من التأمل والاستغراق ترفعه إلى مستوى آخر ، عزيز الصنو في وجود الانسان . انه الغواص الكبير في أسرار الكون والوجود ، وهو اللماح الأكبر في استكشاف الطوايا المخبوءة في العين ، وفي الاسارير المتلألئة في وجه الانسان - لا شك أنه قرأ السرّ الذي هو فيك ، جوالاً في عينك ، ومحفوراً على لوحة جبينك ،

فامتشقك إليه حساما تحسن جلوته ، ويطيب حدّه - لا ليضرب الهامات ، بل ليقيم به حدّاً لأي شعاع يستهيم به الضوء لمحو العتمات . الم تكن مهمة محمّد مبنيّة على استطلاع الأغوار من مخبآتها المكنونة في ضمير الحق ، والمطويّة في وجود الانسان ؟

والجزيرة ؟ وانسان الجزيرة ؟ وأرضها الممدودة على فدافد وحرات واحقاف ؟ وتاريخها المسحوب من اطراف الزمان ، كأنه شلو من الساعات ، لا تلتحم ثوانيها على تأليف شيء من الزمان وربطه بالمكان ! ألم يكن كل ذلك من همّه في كيفية خلق الانسان الجديد ، تنداح به الجزيرة - على فهم وادراك - وتلم به شعثها ، وتؤجّج به شوقها ، وتعبّد خطوط السير بين فدفد وفدفد ، أو بين واحة وواحة ، حتى تتم المسيرة على الدروب الموصلة إلى العزّة والمنعة والكرامة .

ما من شك في ذلك ، ليكون انتقاء محمد فتىً يربيه في كنفه ، ملحوظاً فيه القصد الكبير في مساندة اخراج الرسالة التي يستعد الآن لتبليغها . ان الرسالة هذه لتحتاج إلى نيرين ، عزيزين في الصفات ، ومتينين في التركيب النفسيّ الممتاز ، اكثر مما تحتاج إلى أقرباء موصولين برابطة الرحم والدم - وان صادف أن الفتى هو مربوط أيضاً بصلة كهذه ، فهو ابن عم . لهذين السببين ، ملتقيين على صدفة ، ثم على التزام ، نشأ الفتى في الحضن الكريم تحت عين زوجة المربي - خديجة الطاهرة الذيل - مع اخوات أربع درجن في البيت الواحد ، لتكون صغراهن - فاطمة - رفيقة بالتربية ، ورفيقة بالزواج ، يرتبط بها علي ارتباطاً منخوباً ومقرراً في خدمة الهدف الذي تعيَّن ، الآن رسالة . إن فاطمة ، وقد سبق التلميح عنها ، هي التي لفّها اللمح ذاته من حيث قراءة عينها ، وتلمس أسارير تطفو على وجهها ، وجبينها ، وصدغيها ولون أنوثة فيها غائصة في براءة فريدة النوع وشهية النكهة والمذاق . ان فاطمة هذه لم تغرق في بال ابيها لأنها فلذة من كبده ، بل لأنها سر ولادة في كينونته المربوطة بالاشواق - إنها النضج في معنى الأمومة المطهرة التي يجب أن تكون رحماً قدسية الانجاب - هكذا لمحها أبوها - وهكذا تبناها منفردة من بين أخواتها ، لتكون له وحده منجبة لميراث مضموم إلى الجزيرة المشتاقة إلى رسالة لفتها وتلفها في المكان والزمان .

- ٢ -

أتكـون هذه كلهـا حدود عـلي ؟ إنها حدوده ، ولكن التفسـير هو المضفي حدوداً اخرى تفيضه على الحدود الأساس ، وتنتقل به إلى مقاييس تجد حدوداً لها في كل زمان يأتي متزناً بالحق ، ومخفوراً بالصفات والمثل ، ومـوشومـاً بالجمـال ، من هنـا فلنسـأل : هـل صـدق اللمـح ـ لمح النبي ؟ ومتى وكيف بـدأ اللمح يصدق ؟

دون أن يعتمد التسلسل في الأحـداث يمكن القول : بـدأ علي يصـدق لمح النبي فيه منذ اللحـظة التي كان ينسحب فيهـا محمد إلى غـار حراء ـ كيف كـان يراقب الانسحاب ، وكيف كان يتأمله ويفهمه ، وينحني أمام جلال معناه ـ اظنه كان في التاسعة من عمره ـ وبالتدريـج ، مع إعـلان البعث ، ومع العـزم الأكيد على التبليغ ، ومع صعوبة التبليغ ، ومجابهة المبلغين الرافضين . . . كان هو أول الفـاهمـين ، وأول المـدركـين والمـذعنـين ، وأول المبشـرين المسـاعـدين ، وأول المتحملين ، والمدافعين والمتلقين صدود المتصدين . . . وكان الهروب إلى المخابىء حول مكة ، وكانت الهجرات إلى الحبشة وإلى يثرب . . . ومـا ونى يتحمل مثـل هـذه الضغوط كلهـا ، بالـرفقة المـلازمة دون أي انقـطاع ، وكان الانـدفـاع إلى سـاحات الصـراع ، وكان امتشـاق الحسـام المسنـون الشفـرة عـلى مشحـذ ، أو المسنون اللسان على عزم ، ومنطق ، وحجة ، وبيان . . . لقد كان لها كلها عزم الفتى ـ ومن معـركة إلى معـركة ، ومن خنـدق محفور إلى سـاحة مكشـوفـة ، تمَّ النصرُ ، ثم ابـلاغ الرسـالة ، وتمت قـراءة القرآن ، وكـان لهـا جميعهـا : بـطلاً صنديداً ، ومحققاً مجيداً ، وقارئاً مستجيباً ـ مما جعله شريكاً في التحقيق ، وبليغاً مسلوخ النهج من حقيقة النهـج ، بما قـدمه ـ بـدوره ـ من آيات بينـات ، كانت تظهر تباعاً في كلامه الذي انجمع منه فكره في نهج البلاغة .

تلك هي المـلامح التي لمحهـا محمد ، وحقق عـلي صدقهـا فيـه . . . ومـا انتهى اللمح ، بل جاءت موصولة به روافد أخرى وسعتها عين النبي ، وجاءت نهجاً مكملاً لمناهجه الموصولة بدفع الرسالة أبـداً إلى الامام . فهـذا الرجـل علي

ـ البليغ النهج ، والصادق السيرة والقصد ، والبعيد العين في الرأي والتبصر ، والملم بأسرار النفس ، ومعاني الوجود ، والخاشع أمام مهابة الخالق ، والمدرك كمال الصفات ، والمبني من صفوة الحق ـ انما هو الانسان الأقرب من ردهات الكمال التي يلزم أن يتدرج إليها الانسان ، وصولاً إلى المرتبة الجليلة التي يجب أن يتأسس عليها وبها مجتمع الانسان . تقديراً من النبي لعلي ، وأثابة له ، قال : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ـ علي مني وأنا من علي ـ من أحبّ علياً فقد احبّني ، ومن أبغضه فقد أبغضني ـ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ـ فاطمة بضعة مني ، أهل بيتي هم المطهرون ـ ابناي هذان هما ولداي ، وهما أمامان قاما أم قعدا .

إن يكن هذا الكلام قد ورد على لسان الرسول ، فما اصدقه بحق علي ، وما أمرأه على قلبه ـ وان لم يكن قد قيل ، فما احق علياً به لأن يخصص له . . . ولقد خصص له ، وحتى وان لم يرد باشارات اللسان ، فبكل آيات المعاني والبيان . . . أي رجل مثل علي ، مثل سيفه ، مثل صدره ، مثل صدقه ، مثل نبله ، مثل حدبه الوسيع ، ومثل نهجه البليغ ، يمكن أن يرث الجهد ، ويمتد بالرسالة التي لم تأت الدهور الطويلة بمثلها في خدمة الانسان ـ هذا الانسان الغافي والفاقد كثيراً من قيمة الانسان ؟!

ـ ٣ ـ

هكذا كانت مصداقية اللمح ، ومن هنا كانت موصولة بهذا اللمح روافد أخرى ، انما هي ـ هذه الروافد ـ القاء مهمة تتميم الرسالة ، ومتابعة الإهتمام بها ـ للقيام على صيانتها ، ودفع استمرارها ـ على الكاهل المتين الذي اكتشف الرسول حقيقته ، منذ أن وقعت عليه عينه الكشافة . ان القاء المهمة على كاهل هذا الفرد ، معناه تسليم هذا الفرد وكالة عامة تنقل إليه جميع الصلاحيات ـ وصلاحية النبي الكريم في الرسالة هي أنه جامعها ، ومسؤول عنها وصاحب السلطتين فيها : السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . لقد نزل التشريع في القرآن ، أما التنفيذ الذي هو الآن يجريه ، فعلى هذا الكاهل الجديد أن يجريه

من بعـده ، بدعـامة يقـدمها لـه هذا التعيـين أو التخصيص النـاتـج من صـدق اللمح ، ومن حقيقة التبصر ، وبعد النظر في القضايا المصيرية التي هي من وزن الـرسالـة التي اصابت في جمـع أمة عـظيمة هجـع بها الـدهر هجعـة طويلة حتى أفاقت ، ولكن جفنها لا يزال مقطوباً بأثقال النعاس .

إن التعيين هذا هو ـ في الأساس ـ بمعنى تشكيـل الحكم وحصره بـواحد ، دون الالتجاء ـ فيما بعد ـ إلى عمليات استشارية انتخـابية ، تستيقظ فيهـا القبلية في القبـائل التي تتـألف منهـا الجـزيـرة العـربيـة ، كـما وأن حصر الحكم وربـطه ـ مسبقاً ـ بواحد ، هو أيضاً خطير الدلائل والنتائج ، فكما أن الحاضر قـد ارتبط به ، فان الغد كذلك قد اتصل إليه الربط ـ والمعنى الجليل والخـطير في ذلك هـو تثبيت نـظام مكفوف بـالرسـالـة ، ومن صلب الـرسـالـة ، ومن نهج الـرسـالـة وصـوابيتها في الضبط ، من حيث يكـون المستنير بهـا معصومـاً ـ ضمنـاً ـ بهـا ، وتلك هي الإمامة التي تتصل بها ـ على التوالي ـ كل امامة تنتقل إليهـا هكذا كـل الصفـات ، متوارثـة في الخط الذي ابتـدأ ، ولا ينتهي إلاَّ بنضج المجتمـع الذي توحده المعرفة ، وتشرق به الصفات .

انها أحـلام النبيّ العظيم في تكـوين الأمّة العـظيمة ، والتبصّر لهـا بالغـد الكبير الذي ستـطاله الـرسالـة بالتحقيق . أن التعيـين هذا ، والمنـوه عنه ، هـو ـ إذا ـ تشكيـل الحكم وحصره بـالامامـة . انه بـالاساس ، ديني ـ أي من لـون الـرسالـة ـ ودنيوي ـ أي من لـون الاهتمام بـأمـور الأمـة ، وطـرق معيشتهـا ، وتحصيل أرزاقها ـ والدين والدنيـا هما في نـظام الامامـة موحـداً الربط ـ فـالدين يقـدم الايمـان معـززاً بـالمثـل التي تبني الاخـلاق ، والـدنيـا هي الحصـول عـلى الرغيف، وكيفية اكله بنظافة العين ، والكف ، والقلب ، والشفة ، واللسان .

ـ ٤ ـ

كل ذلك كان من لمح النبيّ ، ومن تبصر النبيّ ، ومن تـأكيده عـلى غد لا بد أن يأتي اذ تتطبق له الأحكام المصيبة والصيرورات الواسعة العين ، والناضجة

الـطموح ، والصـادقة اللب ـ وكلهـا مطويـة عليها الـرسالـة ، ولقد مـرّت كلها باللمح على عينه .

ومات الرسـول ـ فلنقل انـه مات ـ ولكن الفكـر الأصيل لا يمـوت ، فهو حيّ في المجتمـع ، يتوارثـه انسان عن انسـان ، أو فلنلون القـول : امـامـة عن امـامة ، في تـوارث الصفات حـين تصير فـاعلة ، والتي تستمر بهـا ـ في الربـاط مجتمعات الإنسان . مات الرسول ـ اذا ـ وجاء دور تطبيق لمحة من لمحاته ، فيـما يختص بالخلافة المربوطة أصلاً وشمولاً بالرسالة .

لم يلمـح اجتماع السقيفـة كل مـا لمحه الـرسول ، أو لّمحت اليـه كلماتـه وإشاراته ـ والتجأ إلى تصرف سريع يعطيه حقاً تقليدياً في انتخاب الرئاسة . لقد كـان الاجتمـاع هـذا مسـوقـاً بشعـور ضمني ـ لم يفصـح عنـه إلاّ بيــان خفيف الاشارة ـ بأن القبول بخلافة علي هـو تكريس الخـلافة بـاهل البيت وحـدهم ، وهي من حق جمهـور القبـائـل ، دون قيـد أو شـرط . فكـما أن الـرسـالــة هي للجمهور ، فمن حق الجمهور أن يتصرف بها ، ويعـين لها القـائد ، من اجمـاعه عليه ـ هكذا كان لهم الحق المبرر في أن يتصرفوا بابعادها عن دائـرة الاحتكار أمـا أن يدرسوا فلسفة انظمة الحكم ـ أما أن ينظروا إلى الرسـالة الجـديدة كيف يجب أن يتهيأ لها الحكم الذي يديرها ويرعاها في مجالات الصيانة والتنفيذ ـ فهذا ما لم يرد بتاتاً في التعليل والتنفيذ .

لقـد كان للقبيلة نـظام ودستور ـ رئيسهـا هو المتقـدم بالسن ـ إنها رئـاسـة السن ـ والقبائل عديدة في الجزيرة ، والرؤساء كذلك هم عديدون ، وكان نظام القبيلة ـ كأنه ملوكي ـ مستبداً بربط الأفراد بالسيّد الأوّل ربطاً مستعبـداً ، وكان المجتمـع كله وحدات عـديدة لا يلمهـا التجمهر بقـدر مـا يفسخهـا التنـاحـر ، والتباغض ، والتقاتل ـ بحيث يكون الفرد امكانية ضئيلة ، يرمي بها إلى الساحة رمي الحصاة ، تحقيقاً لغزو فيه من التعدّي ما يـزيد حقـداً على حقـد ، وضغينة إلى ضغينـة ـ وكلهـا عـوامـل تفتيت في المجتمـع الـذي تبنيـه وحـدتـه الـواعيـة والراشدة . ان نظام رئاسة السن قدّم للجـزيرة أبـا بكر الصـديق ، ولم يقدم لـه

الامام علي ، تلبية للنظام الجديد الـذي حلم به الـرسول نـظام الإمامـة ـ فنظام الإمامة ، في حلم النبي ، وفي اقتراحه تقديمه إلى التظهير ـ هو غير النظام الملكي المستبد ، وغير نظام رئاسة السن الذي ترفضه الرسالة ـ انما هو نظام مؤسس على اختيـار الصفات الملبيّـة للرئاسـة الجامعـة مصلحة الأمـة ـ لقد عيّنت الـرسـالـة الجديدة مصلحة الأمة وكذلك قد اقترحت لهـا نظامـاً جديـداً من صلبها ، ومن لحمتها، ومن معدنها، على أن تكون الصفات المتوارثـة هي لها دائـماً في المجال. وبحكم الـطبـع ـ فـان الإمـامـة تسقط من تلقـاء ذاتهـا ، اذ تخسر ركيـزتهـا من الصفات المخزونة لها في الرسالة ، والتي منها يأتي المدد .

ـ ٥ ـ

أتكـون ارادة المجتمـع هي التي نحّت عليّـاً عن الحكم ؟ ولم تقبـل بـه في مركز القيـادة ؟ ولماذا لا نسلم بـالحقيقة ، طـالما انها حصلت عـلى الأرض ؟ وإن الرسالة أيضاً ـ وقد الغت رئاسةالسن ، كنظام بائد ، كان يفرق ، وأبداً لم يجمع ـ أقـامت لهـا رئيسـاً إلى الأبـد ، هـو النبي الكـريم ، ومشت بـه إلى الـزعـامـة المقـدسة ، وإلى سن الدستور المحفـور على لـوحة الـزمان . ان هـذه الـرسـالـة بالذات ، كثيراً ما كان يعصاها المجتمع ، من حين إلى حين ، لأنها لم تفعـل فيه بعد ، تمام الفعـل ، انها له ـ اذا تفعـل ـ وليست له بعـدم الفهم ـ من هنا : ان المجتمع هو المقرر ـ وهو القابل ـ وهو الرافض .

الامام علي ـ الخليفة

ـ ١ ـ

لم تصل اليك امامة ، ووصلت اليك خلافة ـ كأنها انتظرتك لتصبـح أهلاً لهـا بالسن ـ يـا ابن الستين . . . لقـد ذابت دعابتـك ، وانـدغمت الآن بنضـج الكهولة ، واستسلمت فيك مهابة العمر خضوعاً أمام سلطات المبايعات ، تأتيك من هنا وهناك ، وهي تطلبك إلى حقيقة الانتداب لتسلُّم أمور المسلمين . هنيئـاً

للبصـرة ، وهنيئاً للكـوفة تستقـلان بك بـطلاً من أبطال التـوحيد ، وقـطبـاً من أقطاب الجهاد ، وسيفاً من السيوف المفلولـة التي أصبحت تكتفي بالنصـل دلالة على أنه عتيق هو السيف ، ما فُلَّ إلاّ من شدة الثبت في ساحات القراع ، لا من روعة النصر في حلبات الصراع !

يـا لها من خـلافة وصلت إليـك من طرف الميـدان ، بعد خمس وعشـرين حجّة ، بعد ثلاث محطات مهترئة بالمبايعات لرؤسـاء السن ، تحت زحمة القبـائل المتسابقة إلى اعتلاء ذوات الخفاف ، مجرورين من أطراف الفـدافد والأحقـاف ، لطرح مبايعات ليس فيها غير رجوع إلى الوراء : من بني أسد ـ رجوعاً ـ إلى بني غيان «كانت قبيلة غيان في الجاهلية ولما اسلمت أبدل الاسم لها النبي الكـريم ، فصارت تعرف ببني أسد» ـ ومن عبدالله ـ رجوعاً إلى عبد العزى ـ ومن راشـد ـ رجوعاً إلى غوي .

لقد أُعددت للامامة أيّها السيّد ، للنظام الجـديد الـذي اقترحتـه الرسـالة الجديدة ـ لقد بايعتك الرسالة كلها في الإمامة : أكانت ناطقة في غـدير خم ، أم معلنة باللمح والاشارات ، لقد بايعتك الرسـالة من خلف الفـدافد والحـرات ، من أبعد منها ـ من قلب الواحات الممتدة من خلف سيناء ، من خلف القـدس ، وتلال اريحا ، وسهول بيسان ـ من خلف غـوطة الشـام ، ومن كل بستـان حول بردى ، ومن كل بسـطة أرض يرويهـا هنا دجلة والفـرات ، ويرويهـا هناك نيـل مصر ـ من كـل أرض وصل إليهـا من قبل الـزمان مـد القبائـل ، مما مهـد اليوم للرسـالة أن تمـد اليها فعلهـا وزخمها . لقـد أعدّتـك الرسـالة الجـديدة للمهمـة الممتـازة ، وصولاً اليهـا ، بفعل الـوصايـة ، لا بمماحكـات المبايعـة . . . فكيف عادت ووصلت اليك بهذا الشكل ، هذه الخلافة ؟!

بحكم الـطبع ، أنت لم تـردها ملوثـة بدم عثمـان ، ولقد اوجـزت ذلك بالوصف في خطبتك «الشقشقية» فلنستمع قليلاً اليك: «وإنّه ليعلمَ أبو بكر ـ أنّ محلّي منها محل القطب من الـرحى ، ينحدر عنّي السيـل ، ولا يرقى إليّ الـطير ، فسـدلت دونها ثوبـاً ، وطويت عنهـا كشحاً ، وطفقت ارتئي بـين أن أصـول بيـد

جـذاء ، أو أصبر عـلى طخية عميـاء يهرم فيهـا الكبير ، ويشيب فيهـا الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقىٰ ربّه ، فرأيت أن الصبر على هاتا احجى ، فصبرت وفي العـين قذي ، وفي الحلق شجى ارى تـراثي نهبـا ، حتى مضى الأول لسبيله فادلىٰ بها إلى فلان بعده (ابن الخطاب) فصبرت عـلى طول المـدّة وشدّة المحنـة ، حتى اذا مضى لسبيله ، جعلهـا في جماعـة زعم اني أحدهم فيـالله وللشورى متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم ، حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر !» .

أما إلى ابن عفان ، فقد وجهت القول : «إلى أن انتكث فتله واجهـز عليه عمله ، فـما راعني إلا والناس إلي كعـرف الضبع . . . فلما نهضت بـالأمر نكثت طـائفة «أي أصحـاب الجمل» ومـرقت أخـرى (أي أصحـاب النهـروان) وقسط آخرون (أي جار عليه أصحاب صفين) .

هكـذا وصلت اليك مشقـوقة الثـوب ، مقرَّحـة ، منهوكـة ، مبعثـرة ـ لا كوفتها مكوفة بحقيقة الجهد ، ولا بصرتها مجموعة تحت عين البصيرة ، ولا مكـة فيهـا إلا مفتشة عن كـل ذرة غبار تعيـد بها عجن اصنـامهـا ، ولا يثـرب لهـا ، تصغي إلى الكلمـة تهبط من فوق منبـر المسجد ، ولا دجلة والفـرات إلا ليغسلا الأرض من دم ، بدلاً من أن يكون عـطر الأرض وملحها ، أصبـح زنخاً يمجّـه الذوق ، والأنف ، والعقل ، واللب ، وكل بصيرة في الانسان .

ـ ٢ ـ

مـاذا نقول لـك أيها الامـام ، أو فلنـرضـخ معـك للواقـع ونقـول ، أيّهـا الخليفة ؟ لقد الحّت عليك جمهرة من القبائل أن تتسلم الزمام ولـو مدبـوغاً بهـذا العكـر ، ولو مهـزوماً بمبـايعات مـريضـة مـردودة إلى وبـاء ـ قبلت بعـد تـردد ، وتلكؤ ، وطول تصبّر ، وامعان روية ـ ولكنك قبلت ـ لأن القبول هـو فرض من فروض الواقع ـ ان المجتمع هو الذي يفرض ـ مخطئاً يفرض ، ومصيباً يفرض ، واعيـاً يفـرض ـ ومغفـلاً يفـرض . . . ! والمجتمـع هـو ارتبـاط الفـرد فيـه عـلى الصيرورة المشتركة والتي لا مناص من الدخول فيهـا ، والقبول بهـا ، ثم العمل

على تزكيتها أو تصويبها بقدر الامكان . هذا ـ أوّلا وآخراً ـ كل ما حداك على القبول برمي ذاتك ـ ولو بعد لأي إلى الميدان .

لقد كنت المتأفف ، ولكنك نزلت . ولقد كنت المستنكف ، ولكنك أيضاً نزلت ، ولكن نزولك لم يعن أنك قبلت أكثر مما عنى إنّك رحت إلى المحاولة ، محاولة رد الاعتبار إلى المركز الكبير ، بجعله يعود رويداً رويداً إلى مجراه اللامح المسنود بنظافة الإيمان والتقوى ، والعدالة ، والمساواة ، وكلها مزاياك ـ إننا الآن ، واليوم ، وغداً ، نثق بك ، لأنها مزاياك ـ لأن كل آية من آياتك أنت ، في نهج البلاغة ، هي شرح لمزاياك ، وهي ـ ان تكن بليغة ـ فلأن الرسالة هي كل ثقافتها ، فهي ـ بالنسبة إلى القرآن الكريم ـ أبعاض منه ، نقول ذلك انعاشاً لذكرى ذلك الذي أوصى لك بالخلافة في غدير خم ، واغدق عليك رضوان ربه وربك ، ولفّك اليه بأخوّة جمعت كل القبائل ـ فيما بعد ـ بوحدة الاسلام ، ووحدة المجتمع ، ووحدة المصير .

وابتدأت المحاولة برفض كل مساومة تؤخّر الرسالة عن مسيرتها القويمة . فهنالك الشام ـ والشام مهبط لطيف الظل ، وعليل النسمات ، وكريم العطاء في سندس زاهي اللون على ينع الثمار ـ انها مهبط من المهابط المحببة على قلوب المتدين من أصلاب الجزيرة العربية ، والفائضين عن امكاناتها الاستيعابية ، فاعتمدوا الانسياب متنفساً لهم عبر اجيال واجيال ، لم يحصرها زمان ، من قبل أن يتلقط التاريخ بحرف يضبط التدوين ، ويؤرخ للحوادث أو يفسرها ويعطيها معناها الأصيل ، من قبل أن يأتي مؤخراً الأراميون ـ مثلاً ـ ويشاركوا في عمارة الأرض وبناء المدن ، واعطاء دمشق اسمها الذي تعيش به إلى الآن . ان دمشق هذه ، هذه الشام الكريمة الحدب ، والموصولة المكان بالمكان ، والزمان بالزمان ، هي ملعب جديد يلعب عليه معاوية ـ على هواه ـ لعبة دهياء . هذا حذفته عن كرسي الامارة ، ودعوته من جديد إلى الانتساب ، إلى ترك بني قيس ، وبني كلب ، وبني غسّان ، يعودون إلى وحدة الصف مع بني كهلان ، وبني الأزد ، وبني لخم ، ليبقى المكان ـ مكان العراق ومكان الشام ـ موصول

الهـواء بالهـواء والرذاذ بـالرذاذ ، والقبيلة بـالقبيلة التي سحبت من عمق غفلات الزمان ، لتشارك في بناء المكـان ، لا لتعمل عـلى هدر الـزمان وجعله رغـوة من رغوات التناحر ، يموت بهـا الحق ، وينهدر الـدم ، لنصبغ بـه قطعـة من قماش نتقلدها برفيرا كاذباً نغطي به ابداننا ، وستائـر قصورنـا ، وكراسينـا التي نجلس عليها وبيدنا خاتم الملك الأحمر ، وقصبة الصولجان !

ولكن معـاوية ـ والـدنيـا أصبحت في عينـه ، وقميص عثمـان في يمينـه ، وعطاءات الأرض في خزائنه وفوق موائده ـ لم يعتبر نصحك أيّها الخليفة المجموع من خلف نصف قرن من الاهمال المـدروس ، والنسيان المصـطنع ، إلا هـراء ، وإن الدنيا هي التي تخلق ذاتها ، وتصبغ عينهـا بلون قلبها وزنـدها ودهـائها ـ ثم دعاك ـ هو معاوية بدوره ـ إلى غسل قدميك قبل أن تمشي إليه ، وعليهما غبار من الصحـراء التي انسحبت منها ، وهـو غبار لا ينبت خصباً . وكـانت صفـين حـداً فاصلاً بين شوق وشوق ، وبين معراج ومعراج ، وبين توحيـد وتوحيـد ـ وكانت امتداداً لحرب الجمل ، واشتقاقاً لمعارك النهروان .

ـ ٣ ـ

لم يخطر ببالي أن أبحث عن معنى صفين في تركيبها اللغوي البياني ـ ولكني الآن اتساءل : هل هي مثنّى «صفـ» ، وجاءت بها سهولة اللفظ بحـالة النصب أو الجرّ ؟! يا لذل التفكهة في التعليـل ، ويا لتعس الفـرات ينقسم دفقه المعـطاء إلى جدولين قاحلين بالخصومة المخبوطة بحوامض الدم ، وبـرواسب منقولـة مع الأجيـال ، حملها معهم المتجـولون ، مـربوطـة بالاوتـاد وحبـال الاطنـاب !! يـا للفرات يضيع مجراه عن حقيقة الورد ، ويتحول ولغا للعطاش !

يا كبدي على الكوفة والبصرة تشويهما معركة جانبية زرعهـا فنُّ الصراع في الخاصرة ، كأنها خرَّاج اصطناعيّ ينشبه النطاسي البارع في فخذ المـريض ليحوِّل أوهام الحمّى إلى المكان الآخر ـ يا لـدهاء معـاوية وعمـرو بن العاص ، يخففـان الضغط عن صفين إلى عمق الكوفة والبصرة ، حيث تقاتل عائشة التي هي الآن بنت أبي بكر الصديق لا أم جميع المؤمنين .

إنها معركة الجمل ، جمل عائشة المتعلقة ببني تيم - طلحة هو ابن عمها - لماذا لا تكون الخلافة لابن عمها ؟ ان انتصار ابن أبي طالب يثبت الخلافة في البيت الهاشمي ، ويوقع أباها - الذي ترك الدنيا والخلافة على خط سياسي معينّ - في ذل الخيبة وذل الانكسار - وها هي القبائل في البصرة تستميت في المناصرة ، وتضرب طوقاً من سيوف مشرعة فوق جمال ونوق متلعة الاعناق ، لصيانة «عسكر» جمل أم المؤمنين - يا لنخوة الرجال من بني ضبّة ، والأزد ، وبني ناجية - انهم من أبناء العشيرة ، وهل يناصر الأهل إلّا الأهل ؟ وهي تنادي القبائل إلّا سحبُ الغبار ؟ وهل تكون المبايعات لغير هذه الاثارة !

لم تنته معركة الجمل بعرقبة «عسكر» وجندلة طلحة والزبير، وأسر عائشة ثم بفك أسارها . ولم يكن معنى ذلك - بالمقابل - انتصار علي ، وتثبيت قوائم الخلافة لبني طالب - ان انتهاء المعركة قد اشار إلى أن الخراج المصطنع قد أدّى مهمته المزدوجة : حذفه - أولاً - رجلين من الساحة يطالبان بخلافة - وثانياً انهاك قوى خليفة هو الآن خطر في ساحة الصراع . ان التلهيّ - ميدانياً - عن صفين ، هو أيضاً توفير فرص لمعاوية في اتمام اعداد جيوشه ، من وحي الساحة ووحي المستجدات ، ويخلق لكم الله ما لا تعلمون .

ثم إن الرجوع جدّياً إلى صفين ، وان راح يميل الكفة إلى مصلحة الخليفة أو يرجحها ، لم يكن إلّا ليعصر قلبه بالغم - فالفرات الذي يتهلل بسقاية الحقول واستنبات الخير منها - إنه الآن هو الذي يسقى الحنظل ، لتنتشر حوله ، فوق السهول ، جثث المسلمين الملبين نداء الموت في الخراب والدمار !

وجاء دور رفع المصاحف - لم يزل التاريخ حتى الآن يهزأ من تمثيلية عوراء ادخلها الدهاء بلونٍ ، وأخرجها بلون آخر - يا للدنيا تأخذك بهاتف الصدق ، وهي مموهة ببريق الخديعة ! ان الاجتماع باذرح ، أو في دومة الجندل - سيان تعيين المكان ، أو ابداله بمكان - لم يبدل من الجوهر - ودل إلى أن الخادع هو الذي يحتال على امتلاك الدنيا ، وان المخدوع هو الذي يحاول رأب الصدع ، أبعاداً عن الناس أهوال الحرب ، وهدر الدماء .

ولكن المحاولة التي بقي الإمام مستمراً بها لم تثمر ـ ما كانت الرسالة التي امتلأت بها المصاحف لتقرأ ! لأن الزيغ لم يتعلم أبداً تهجئة الحروف في الكلمة ، وكانت النتيجة ، بين يدي معاوية : تحضير جبّة حمراء راح يزهو صباغها ، وهي تنهل على كتفيه ـ وفي حروراء تحضير فتنة لقمت العصيان فلسفة العصيان ، راح الامام علي يتلهى بقمعها وتخليص الناس من مخارجها ـ وما كاد يقضي عليها ، ويعود إلى إسماع كلمة أخرى من كلماته ، حتى اسكته ـ بضربة سيف ـ ابن ملجم !!!

- ٤ -

ما أظن الإمام قد سكت . ان الكلمة التي يبست على شفتيه بقيت تنطق ـ ما أيبسها الموت ـ بل أنها زهت به .

ها ان الحسن جاء يقرأها في اذن معاوية ، جاء يأخذها عن شفة أبيه التي لا تزال تفصح : ان الدنيا لا تؤخذ إلاّ بالجمال ، وإن الحق هو الذي يبني الناس في المجتمع الصحيح ، وإن الناس هم زينة الدنيا ، فلتزه الدنيا ، وانما هي لتزهو ، فهي جنة الله لعباده ، ولكن بالتقوى فلتزه ، بنعمة الله ونعمة الحياة الكريمة فلتزه ، بمفهوم الرسالة التي تحيا في الضمير الكبير فلتزه ، برفع المصاحف ـ مثلاً ـ وبتحكيمها الصادق فلتزه ، وليكن الصدق ديدنا في البناء ، لا الخديعة ـ فالخديعة هي التمويه الذي يشبه الغبار .

ليت المجتمع قد لبّى مضامين الرسالة ، لكان عليّ اماماً قبل أن يدخل حلبة الخلافة والمبايعات التي طرحته في الساحة مغمض العين ، ولكن ، ناطق الشفتين : بأن الحقيقة لا تموت في مجتمع الانسان ، فهي تعيشُ به وفيهُ مع قيام الساعة .

هذا هو مجالك الآن أيّها الخليفة الجديد ـ أيّها الحسن ، أيّها الامام النائم في عيني جدّك العظيم ، والناطق بشفتي أبيك المتمتمتين بنهج البلاغة .

الحسن

- ١ -

أيّها السيّد ـ هذا هو مجمل المراحل التي قدَّمها ومثلها وأخرجها العصر أمامك ـ لقد رزمت ذاتها كلها بين يديك ، وتحت عينيك : عينيك الناظرتين ، وعينيك المبصرتين ـ عينيك الرائيتين ، وعينيك المغمضتين على اللمح المكنون في خزائن الظنون ـ ولقد شاهدتها جميعها تمشي : تارة باقدام مشقوقة من تراب الأرض ورمادها المذري قيحاً في الجفون ، وطوراً بأقدام مخففة ، ليست من ريش اللحم والعظم ، بل من أريج مسحوب من مقل ليس لها في التراب مقام . ولقد رافقتها تدرج امامك في حلبات الزحام ، يلفّها هناك زمام من الحق ، وزمام من الخيال ، وزمام من الروح ، وزمام من الصفاء يطفو في العين فيجعلها قطعة من جنان ـ بينما يلفّها ـ هنا ـ في المقطع الثاني ، تراب مجبول بلعاب الثعابين ، على رباطات من زنانير يموّهها الطمع بالخداع ، والبطولة بالدهاء ، وكلها علامات وهن جاء جدك العظيم ليخلص منها عقدة اللسان .

ما شحّت عليك المراحل أيّها السيّد ، وما شحّت عليك قراءتها : لا في حبو الطفولة طفولتك ، ولا في قفزات الفتوّة فتوّتك ، ولا في مراحل وصولك إلى حقول البلوغ . ولقد شاهدتها ـ في التمثيل وفي الاخراج ـ يمتلىء بها العصر عصرك ، عصر النبوّة ، عصر البداية في الطرح الكبير ، عصر الاساس في الانطلاق المركز لجمع أمّة من أمم الأرض ، هي الآن للجمع والتحضير ، لأن تصبح أمّة للاعتداد بها ، وللتباهي . ألا يكون لنا ظفر ونحن نعيد قراءة خطواتك ، وأنت طفل ملفوف بخرقة صفراء ، لم تحبُ بعد ، إلى أن قفزت عقدك الثالث ، موشّحاً بجلال البلوغ ، ومجلّياً بجلوة معتمرة بجوهر الأحداث المحشورة في العصر ؟ ليست زهيدة هي الفترة التي عَجَنْتَ فيها خطواتك ، وعَجَمَتْ هي عودَك ـ ولقد أصبحت فيها عظيماً ، لأنك ربيت في أحضان العظام ، ورافقت الخلفاء الأوائل ، وشاهدت بام العين كيف يتم اللعب فوق خشبات المسارح ، وكيف تطفو النوايا على بياض العيون وسوادها ، وكيف تحفر

السرائر خطوطها في صفحات الوجه وفوق لـوحة الجبين ، وكيف تتم الأحداث فوق ساحات الصراع ، وكيف يلهو بها مجتمع الانسان فتبنيـه أو تشقيه ، إلى أن يدرك ما هي حقيقة الصراع .

- ٢ -

قد تكون المرحلة الأولى من بين المراحل التي مـرّت أمامـك في الانسياق ، هي اغنى المراحل وأعمقها ترسيخاً في ذاتك ـ انها مرحلة الطفولة . من المنـطقيّ انك عشتها جميلة بريئة ، وملونة بالـدلال ، ولكنك لم تكن ـ وانت طفـل يلثغ ـ لتفقه ما تخصص لك فيها ، وما اختفى من معانيها ، وما انـطوت عليه المقـاصد من تلوينهـا ، ومـا هـو الـذي يشتغـل في تنسيقهـا ودفعهـا من الخـطو الصغـير القدمين ، إلى انتعال الساحات العظيمة التي هي شاوٌ آخر عزيز الشأن في حقيقة وجـود الانسان . . . فيـما بعد ـ أيّهـا السيّد ـ بحكم الـطبع فيـما بعد ، من كـل خطوة كنت تنتقل بها ـ كان يتألف هذا «البعد» ـ صرت تدرك الأبعاد ، وتتوضح لك المضامين ، وتشرق عليك ابعاد المقاصد .

لقد أدركت بالتدريج أن ولادتك كانت ثمينـة ، كانت من صنف آخـر ، غير الصنف الذي يأتي ـ هكذا فقط ـ عن طريق اتصال رجـل بأمـرأة ، فتحصل بنوة ، بل عن طريقة اختيار بني في الروح ، وادّاه الشـوق مدفـوعاً إلى الاخـراج ـ لهذا ادركت أنّ أمّك فاطمة لم تحضرّْ رحمـاً يتم فيها الاخصـاب ، بل حُضِّـرَتْ أمّاً تشارك في حقيقة التوليد ، ولا لتكون امّـاً لفرد ، بـل امّاً لـذاتها المتـدفقة من ذات أبيهـا ـ ستصبح فيـما بعد ، امّـاً لسلالات يسمـو بهـا الحق ، ويثبتهـا نبـل القصد جداراً من جدرانه المنمّقة بالصـواب . لهذا حضنت أمـك فاطمـة بحنان لوّن لها التربية والتخصيص ، بعد أن اكتشفها جـدّك ـ أبوهـا ـ بأنها خميـرة ممتازة من خمائر التكوين النفسي ـ الروحي الأنيق ، وإن فيها من الجمال ما يجذب روحه إلى الانسكاب فيها انسكاباً اندماجياً ، يجد له فيه حقيقة الإرث .

من هذا النوع كان ادراكك لأبيك ، بأنه منخوب لأن يتصل بأمـك ، فهو من الخميـرة ذاتها التي يـطيب بها عجن الـطحـين ـ سيكـون عـلي ابـاك ، وهـو

موصول بجدّك ، ينقل منه إلى ذاته صفات أبوّة مدغومة بالتراث المستمر في الحقيقة التي شحذت عليها الرسالة حسامها ، أنه الاهتمام ذاته ببناء رجل يكون أباً لذريّة تأخذ على عاتقها اعباء قيادة أمّة مجموعة من فيض حق غرقت فيه الرسالة . ان الرسالة الآن هي الجامعة صفات الأبوة ، وصفات الأمومة ، منقولة غرساً في الأبناء الموصولين بها بالتوجيه المتوارث . . .

من هنا كان ادراكك بأنك وريث قبل أن تولد ، بأنك معد قبل أن أبصرت عيناك هذا القبس ، بأن بناءك يصدق وتتعينّ المسؤولية فيه ، لأن التربية هي المعدودة لاثبات الصدق ، فهي منه خصب ، ودفع ، وتلبية أمانة ، ومن هنا كان دلعك على جدّك ـ وأنت تلعب حتى في باحة المسجد ـ قبولاً واقراراً ، بأنك أنت ابن الشوق الأصيل ، وأن اهتمامه بطفولتك الندية ، هو تجسيم لأحلامه البكر في تبصّره بأمور الصيرورة ـ حتى الخرقة الصفراء التي رماها عن جسمك الطري ـ وأنت ابن يوم ـ توصلت أنت واكتشفت أن الرمز فيها هو تخليصك من أيِّ لون يقصفك به الكبريت ـ أن الأكباد المشحونة بالضغائن ، هي التي تخطف اللون من الوجوه ، وتكسوها بصفار الموت ـ حتى لون القماش يلفون به جسدك ، لم يرده إلاّ نظيفاً من لونه الأصفر . هذه هي مرحلة طفولتك ، وهي تلقي عليك أثقال الروابط ، وهي تحضّرك للاتصال بكل غد يحقق لك جلوة تستنبتها من حقيقة مهماتك .

ـ ٣ ـ

أوّل صدمة هزّت كيانك وأنت في اطلاتك الأولى على سن التمييز ، كانت اغماضة عين جدك في غفوة صامتة الهدب ، ورهيبة السكون . لم تكن انت لتحسب أن عين جدّك ـ هكذا ـ يعتريها مثل هذا الانطفاء ، ولكنك أدركت هولاً قرأته في عين أمك المذبوحة بالدمعة الحمراء وتحسست ثقلاً رزح تحته أبوك وهو يلملم نفسه من ترنح يكاد يفقده الصواب ! لقد فتحت الصدمة هذه اخدوداً في كيانك النفسي ، عمقت فيه التجليات ـ وان غارقة الآن في المبهمات ـ إلاّ أنها ستطل بك ، مع امتدادات الأوان ، على استكشاف الحقائق في

الوجود ، وربط الموت بالحياة التي يبقى لها في المجتمع كل الاستمرار .

لقد أخذت كـل ذلك بـاحساس ضمني ، وإن يكن إحسـاساً طفـلاً ، إلاّ أنـك تناولتـه من رهبة المـوت ، ورحت تفتش عن جدّك الـذي غاب ، لتجـده متفجراً في عين أمك ، ولتجده حيّاً في صدر أبيـك المزروع في حقيقتـه الفائضة بروح الرسالة . انه شعورك الضمني المعبّر عنه بالصمت والحزن والهـدوء ، وهو من البدايات التي راحت تسير بك إلى كـل جلوة تستنير بهـا في طريقـك الآتي . يكفيك منها الآن ، أنك شعرت بهلع المصيبة ، وأنك جمعت على صدرك الصغير حسّابها عميق الحفر، وأنك ـ بالتالي ـ ملجوج اليها بـالادراك : ان جدّك الـذي غاب ، هو الآن حاضر بأبيـك وأمّك ، وشـديد الحضـور بك وبـأخيك . أليس الموت الآن هو الذي يمتن هذا الرباط ، ويلحمه لحماً بنياط الحياة ؟

وهناك شيء آخر قد حدث أمامك ـ أنـه أيضاً من نـوع الفجيعة ، أو أنـه جاء صباغاً تلونت به فجيعة الموت بما جعلها أشـد رزءاً ، وأثقل حمـلاً في عملية التصبّر عليها ، والتصـدي لها بـالتأسيّ : انـه الاسراع بعمليـة تعيين الخليفـة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، قبل انتهاء تغييب الجثمـان ، ولفّه بحـرمة الـوداع ـ لقد قرأت أيضاً في عين أبيك ، ذلا طالـه بطعنـة في قلبه ، وفكـره ، ومكانتـه ، وكذلك فانك لم تدرك إلاّ بحسّك الضمني ، إن الخلافة هي تـأكيد لأبيـك ، فما دخل الغير فيها ؟ الجد هو جدّك ، والنبيّ هو أبو أمّك ، وأبو أبيك ، وأبوك بـلا جدل وبلا أي نزاع . . . فما بـال الناس يـأكلون الثمرة ويقـطعون الشجـرة ! ما بالهم يأخذون الرسالة وينبذون أصحابها الفاعلين ! ما بالهم يتسابقون إلى المـائدة ويطردون عنها الذين بسطوها ومدّوها ولوّنوها بـالطعـام ! ما بـالهم يتزاحمـون إلى البئر يرتوون منها ويطمرونها بالذين حفروها وأغرقوها بالعذب الزلال !!

هذا ما رأيته بحسّك الضمني أيّها الحسن ، في هذه الساعة المطلة بك على جدث جدّك الذي لم يتوار بعد ـ ولكنك ـ فيما بعد ـ سترى الحقيقة الكبيرة ، بأن الـرسالـة التي تفوّه بهـا جدّك العـظيم ، انما هي للمجتمـع العظيم ، انها لـه ، تؤسسـه حتى يصير عـظيماً . . . أمـا الآن ، في هـذه اللحـظة الحـاضـرة ، فـان

المجتمع هذا لم يبلغ بعد الساعة الثمينة ، لهذا اعتبر المجتمعون في دار السقيفة ، ان الرسالة هي للمجتمع الذي يتصرف بها الآن على هواه ـ ستدرك فيما بعد ، أن الرسالة ـ حقّاً ـ هي للمجتمع ، وأن الوصاية لأبيك في القيمومة عليها ، هي من باب الحرص على تعهدها وهي طرية العود ، من أن تتناولها الأهواء والأنواء فتلويها عن سواء السبيل ـ إنه النظام الجديد أيّها السيّد ، انه تدارك من وقوع في اخطاء ادارة . . . من حقّك أن تشعر أن أباك قد هضم حقّه في الولاية ، ولكن واقع المجتمع قد فرض ذلك ـ وسترى أن أباك هو الراضخ الأوّل لما هو مفروض ، وستجد نفسك أنت أيضاً مسوقاً إلى القبول وأنت تخدم رسالة هي لك وللجميع ، دون أن تنسى أن مهمتها الجليلة لن تكون إلّا بناء المجتمع الذي هو الأمة العظيمة التي تستحق جليل العطاء ، لأنه منها هذا العطاء .

- ٤ -

كنت تقفز عشراً من عمرك ، عندما خلت عن أبي بكر سنوه ـ جئت منسلاً خلف أبيك لالقاء نظرة أخيرة على الجثمان المسجّى . بقي أبوك غارقاً في مداه وهو واقف كأنّه قطعة من هزيع الليل ، أما أنت ، فانك لبست زاوية من حنايا المكان ، ورحت متأملاً ـ أما عمر بن الخطاب الذي انتقلت إليه الخلافة بوصاية خلعها عليه الرجل النائم الآن على عتبة الصمت ، فانه لم يتورع عن تثبيت عينيه عليك ـ لا ليخفف ما بنفسك ـ بل ليغسل به نية عاشت في خلية نفسه ، وهو الآن يتأثّم بها ! لقد أصبح الآن خليفة المسلمين ، لا أبوك علي أيها الفتى الذي ظل متفكراً يستعيد ذكريات جده ـ هكذا ـ قد اندمج في حلبة الصمت ، وهو يتمثل أيضاً أمه المبتسمة فوق فراشها الأبيض ، بعد أن خسرت أباها ، وميراثها في أرض فدك ، وشجرة أراك كانت تقيها من حرارة الشمس ، وكرسيا للخلافة وقف لذريتها في حقيقة التمثيل لقضايا المسلمين .

لقد أخذت كل ذلك بحسك الضمني ـ في تلك اللحظة ـ وأنت تتأمل نقل المشاهد فوق خشبة المسرح : من أبي بكر إلى ابن الخطاب ، دون أن تطرف

عين نحو أبيك الذي هو في نظرك أرجح من كل من هو في المكان .

لم تلحظ عند أبيك حقداً على عمر ، ورحت فقط تستشعر عنده عتباً على الرجل الذي لم يلب نداء الأشواق عند جدك الرسول ، من هنا كان أبوك يلبي الخليفة المستشير ، بتقديم النصح ، وابداء الرأي ، والمشاركة في حل المعضلات ـ مساهمة منه في خدمة الرسالة التي هو الآن يمثلها بورع ونظافة كف . إن الرسالة التي كان يتمنى جدّك أن يتعهدها أبوك ، لم تُسْتَجَبْ تمنياته ، انما هي الآن بحكم واقع آخر ، بين يدي رجل آخر .

كنت في بداية عقدك الثاني لما استل أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة ، خنجره وضرب به خاصرة الخليفة ، فأرداه يعالج سكرات الموت ! لقد هزّ الحادث كيانك المنقول حديثاً إلى باحة الرجولة المتحلية بالادراك والنضج والفهم ، ولقد أوقفك ملياً أمام نفسك تفتش عن سبب الجريمة ، ربما وجدت أن قساوة الخليفة في توزيع الضرائب بين الناس ، هي التي اردته ضحية ـ ربما رأيت أن حقداً موروثاً بين القبائل هو الذي اشتغل في أخذ ثأر ـ ربما بدأت تدرك أن المجتمع المريض لم يعمل بعد على تخليص ذاته من أورام مرضه ، ففعل التخلف فيه ما فعل على يد أبي لؤلؤة ـ ولكن النتيجة واحدة ـ ان الخليفة قد مات ـ حرام أن تصاب الخلافة بعقاب لا يستحقه نبل الرسالة .

ـ ٥ ـ

ها هي زحمة من الأحداث بدأت تتمثل تباعاً أمامك فوق الساحة التي مات عليها الخليفة ـ لم يمهله خنجر ابو لؤلؤة أكثر من أيام معدودة ، تمكن أثناءها من تأليف مجلس استشاريّ أسند إليه أمر تعيين خليفة جديد يتسلم زمام الحكم وادارة المسلمين ـ لم يكن مسموحاً للمقرر فيه ـ عبد الرحمن بن عوف ـ أن يتجاوز حدّاً مفروضاً عليه مسبقاً في التعيين ، مما سهل وصول الخلافة إلى عثمان بن عفان ـ لقد كان أبوك يستشعر حصول ذلك ، وأنت كذلك ـ وإن كنت في مستهل الرجولة والنضج ـ أصبحت تدرك أيّ حطب تُسْتَحَثُّ نارُهُ تحت القدر المعد لطباخة مثل هذا الثريد ـ ولكن الذي راح ، بوقاحة ، يتكشّف كأنه

يسابق الزمن إلى الظهور والبروز ـ هو اسناد كل وظائف الدولة المرموقة والحساسة ، إلى بني أمية بالتخصيص ، وها هو معاوية ، حاكم الشام ، يتمتع بنفوذ وسيع الصلاحيات ، وسعها له عثمان ، من أجل الغاية المبيتة بقصد وفن !

لم تخف عليك أيّها السيّد ، لا فصول الرواية ، ولا حتى مشاهدها الصغيرة الجانبية ، ورحت مع أبيك تنبهان الخليفة إلى وجوب تلافي الأخطاء ، والتخفيف من غلوائها ـ ليست الخلافة مركزاً يستهان به في خدمة المسلمين ، وجمعهم إلى حق هو للكل على السواء ـ ليس الاستئثار بمغانم الحكم هو في خدمة الرسالة ، وليس الحكم أبداً لجني مغنم دون توزيعه على المجتمع بقسط وعدالة ، وليس الحكم سباقاً إلى نفوذ يحقق رغبة في تغذية شهوة ، ولا بؤرة يربو فيها الحقد ، وتتغذى منها الضغينة ، ولا مركزاً حصيناً تتجمع فيه القبائل لتنطلق إلى عمليات سلب ، وغزو ، واغارة على مراعي الغير . . . لقد قيل كل ذلك لعثمان ، انتما بالذات قلتماه له ، وكانت منكما ـ لاصلاحه ـ مشاركة ومساندة ـ فأنتما لم تعتبرا الخلافة إلّا مركزاً مشقوقاً من صلب الرسالة ، إنه تمثيل للنبي العظيم الذي إستوحى الرسالة ، ليعيش بها وفيها من أجل الأمّة . من هنا تكون الغيرة عليها منبثقة منها ـ ان الغيورين عليها هم من أهلها المنسوبين إليها في حقيقة الجهد ، والتحقيق ، والأصالة .

بهذا الادراك والاقتناع أيّها السيّد ، رحت تنخرط بجيش التحرير تعزيزاً للأمة وربط طاقاتها بجميع مصالحها ـ وهكذا تم تحرير افريقيا ، وكنت مع ابن العباس ، وابن جعفر ، وأخيك الحسين ، وكلهم أهلوك من بني البيت ، تحت قيادة عبدالله بن أبي سرح ، أخي عثمان بالرضاعة ـ ولقد اشتركت أيضاً بتحرير طبرستان في الجبهة الشرقية ، بقيادة سعيد بن العاص .

تلك هي مبادراتك ، بعد أن أوفى بك العمر إلى جلوة بدأت تحقق لك حقيقة الاعتبار ـ لم تنجح في تغيير مجرى الاحداث ، ولم تصلح من نيّة عثمان ، ولم تثبط من عزم معاوية ، إلّا أنها ـ مبادراتك تلك ـ ثبتتك رجلاً مجلّياً بحقيقة

الإمامة . . . ستنظر اليك الساحة الخالية منك ، وتطلبك إلى نوع من التمثيل ، ولا فرق إن جئتها إماماً ، أم خليفة ، أم رجلاً بلا حقيبة - طالما أن الزمن لم تتكثف ثوانيه على رقاص الساعة .

- ٦ -

لقد انقلب الدهر على عثمان - ماذا نقول ؟ هل هو القصاص ؟ وهل طال القصاص كذلك صدر ابن الخطاب ؟ فهوى ذليلاً بين يدي قاتل - نحر ، ثم انتحر تحت قدمي من قتله ؟! وأي عقاب كان للامام علي على جهاد وصل عمره بطرفيه في ساحات الجهاد ، وفي باحات التحقيق لرسالة الاسلام ! أيه يا ابن ملجم ، اتكون أنت منفذاً لحكم القضاء !

جل ما في الأمر أيّها السيّد انك احتككت بصلب الأحداث ، وفهمت أن المجتمع وحدة في الفهم وفي الاخطاء ، وان التردّي في المجتمع لا يفرق بين طينة ذكية وطينة سخيفة ، فهو يصيب الفريقين ، إلى أن يخفف الشطر الفاهم من ثقل الجهل ، ويرده رويداً رويداً إلى حقيقة الصواب .

ها انك اليوم ، وقد افضى مقتل عثمان إلى عكر ادى إلى مقتل أبيك - وجهاً لوجه أمام معاوية ، يسنده كل بني حرب ، وكل من يلوذ به من القبائل - اتراك تشد الحبال ، إلى ساحات النزال ، في سبيل كبح الأهواء ، ورد الحقيقة إلى واقع الصراع - ام انك ستوهى - بواقع المجتمع المرير : تقدم له الدواء إلى أن يقبل - هو - تناول الدواء !!!

معاوية بن ابي سفيان

أيّها السيد الخطير

ها إن القلم يصل اليك ، وهو يقف مشدوهاً حيالك - كيف يرسمك ؟ كيف يتناولك بالتحديد ؟ كيف يلبسك قمصانك المنسوجة منك ، والمدبوغة بجلدك ، كأنّك أنت نولها ، وحياكتها ، ومكوكها ! أنت عظيم على ما يبدو ،

ولكن العظمة هـذه ـ كما يبـدو أيضاً ـ جـاءت بها التحـاديد إلى مفـاوز ما جمعت عليك الشعاع أكثر مما كسرته تكسيراً ـ فإذا أنت قطعة من فسيفساء هي لـك من زخـرف الشام ـ صنـاعتها المـزركشة ـ واذا أنت من بلورات الأرض انعكـاسات تشـرب النور ملوّنـاً بكل سـاعة من سـاعات النهـار : فأنت مـع الصبح شعـاع لـطيف يفتش عن منديـل مقصَّب يلف به عنقـه ـ ومع الـظهيرة كـابوس شمس يفتش عن ظل ومع ساعات المساء وشاح يفتش عن قيلولة يغمرهـا حتى ينام بهـا في حضن حبيب ـ يا للدنيا بين راحتيك ـ حضنتها وحضنتك على عشق متبادل ، جعلتك منها ، وجعلت ذاتها منك في اشتقاق مهووس ، ملطوخ الشفة بالشفة ، والعِطفْ بالعِـطفْ ، كأنكـما واحد لمـلء المكان ، وكـأنكما رقـاص ساعـة لجعل الزمان قينـة تغني للزمان ـ أنت حيـرة على القـرطاس إمامي ـ آخذك بنفس مـليء بـالاندهـاش ، ثم لا اعتم أن اغمض عينيّ على وهن يـردني إلى خديعـة فيك ، يقع بمثلها النظر ، وهو يقيس مسافة في الصحراء بين كثيب وكثيب ، فاذا الرياح تمحو كثيباً من هنا وتلاشيه ، بينما تصنع هناك من الثاني خمسة كثبـان . هل كنت هكـذا تتناول قميصـاً اخضر ، ولا تلبسه إلّا وقـد انهلّ منـه عليـك عبـاءتـان : واحدة بلون الليل في شعاب مكة ، واخرى بلون النسرين في ربى الشام ؟

لقـد ولدت في مكـة وربيت فيها بـين يدي أبيـك أبي سفيـان ـ لقـد كـان يشكل على أبيـك التفريق بـين العزى ومنـاة ، أيّهما هـو الاله الأقدر في عملية الخلق والتكـوين ، وكـان يميـل إلى هبـل في تسليمـه قضيـة ادارة الكـون وفـك احاجي الوجود ـ لهذا جـاء الاسلام ولم يسلس لـه عود في تقبله دينـا يبعثر كميـة من الأصنـام بعدد أيـام السنة كـانت تترصـع بها الكعبـة ، فوق كـل لـطوة من لطواتها حجـر قائم يمثـل بضعة من الـه ـ الا أنه كـان لأبيك أن يؤخـذ ببهر كلما وقعت عينـه على غـزالي مكة المحبـوكين بخيـوط الـذهب ـ لهذا سلمـك قـوسـاً وعلمـك كيف توتـرها لتصـطاد كل غـزال محلّيً بقـرنين صـافيـين من عسجـد ، وبخصرين ناعمين أبيضين بلون الفضة ، وبذيلين منسـوبين فـوق فخذين انيقي اللمس كأنهما عجينة مطيبة بالكافور ـ وبعينين مكحّلتين نائمتـين على حبتـين من ماس هما شهوة الدنيا إلى الجواهر واللؤلؤ .

لم يكن شحيحاً عليك علم أبيك : كيف تؤخذ الدنيا وكيف تحلب ، وكيف تنصب الشراك للغزلان من حبال السراب حتى تجري سريعاً إلى المناهل فتقع دون أن تشرب . لقد كان لك جد أيضاً نقل اليك تلقيناً كيف تأخذ الخيط من مغزل جار لك فتفتل به حبلاً تشنقه به ، ثم تأخذ المغزل وكل الخيوط التي تكون عليه ـ انه أمية جدّك الحاقد على عمه هاشم ، المكنّى بعمرو العلا ، المكنّى بهاشم الثريد ـ هكذا تقول الملح في سير العرب ، في تزاحم القبائل على الغنم أو على مراتب الزعامة . . . هنالك ملحة أيضاً تذكر عن منافرة وقعت بين جدّك أمية وعمّه هاشم ، في أيّها أكرم وأسخى وأسمح ـ وهي صفات توفّر الزعامة عند رؤساء القبائل ـ ولقد افضت المنافرة تلك إلى إقامة حكم يفرض الحكم وينفذه على أن ينفى الخاسر عن مكة إلى الشام عشر سنين . . . ونفي جدّك أميّة إلى الشام عشر سنين ، ولما رجع إلى مكّة ، بقيت الدار في الشام باسمه ـ من هنا يعلّق المراقبون : لما عينك الخليفة عمر والياً على الشام ، جئت ولم تبحث عن دارة تسكن فيها ، رأساً وصلت وحللت دارة جدّك ـ لقد نزلت توّاً في السرير الذي كان ينام فيه ، وكانت الوسادات من حرير الدمقس ، محشوة بصوف من وبر الإبل ، وكانت الجدران مطعمة بالرسوم الملونة ، وكانت الغزلان مشبوحة عليها كأنها تحت وطأة المطاردة ، أو كأنَّ عطشاً يطاردها مشدوداً بالسراب .

فَلْيُسْمَحْ لنا أيّها السيد أن نبدأ ـ ان الملامح التي سيقت في هذه النبذات القليلة لترسم فيك ، لا يجوز أن تبقى هكذا ملفوفة برموز واشارات ، بل ان الانطلاق منها ، والتوسّع فيها ، هو الذي يخدم الموضوع الذي نسوقه ، ليس اليك ، وأنت قد لففت بأربعة عشر قرناً من الغياب ، بل الينا نحن الآن وقد لففنا بك بحقيقة الاستمرار . فان كانت الأمّة قد أصابت منك هدفاً أو تحقيقاً لصالحها أصيلاً ، فيا ما أطيبك في حقيقة الذكر ، وان تكن ـ عن يدك ـ قد خذلت في أمانيها ، فما احوجنا إلى عتب ولوم نقاضيك بها ـ لا للشماتة أو الإنتقام ، بل لتقديم تصحيح تستقيم به أيامنا الطالعة في التمنّي لأن يكون الخير في الأمّة هو نبراسها الصادق في الحياة .

ما من شكّ ـ أنه اقرار من التاريخ فيك ـ ان فيك ذكاء رفع فيك العقل إلى مرتبة مميزة التصنيف ، لهذا فأنت ادهى العرب على ما يقال ـ بقطع النظر عن تحديد ماهية الدهاء ، وما هي شروطه الصحيحة لأن يكون ـ أوّلاً ـ عقلاً ، ثمّ يتحلّ بالصفات التي يكون الدهاء واحدة منها . بهذا الذكاء تمّ لك بروز إلى الساحة ، وبهذا الدهاء الذي تحلّى به ذكاؤك ، ستكون لك مراحل في البروز ، تقتنصها من كل المستجدات التي كنت تزرع الساحة بها ، لتقطفها أينع فاينع ـ ما من أحد أنكر عليك جديد الابتكار في الاستحضار ـ فأنت فذ بين الرجال ـ أنت من الصف الرفيع الذي يعرف كيف يسوق الريح ويلفّها على دواليب النواعير .

ولكن . . . هل أن الذي رجحك إلى الساحة هو فقط ذكاؤك ، أم أن هناك خطّاً سياسياً تمت عليه اللعبة الصامتة ؟ اسمع يا سيدي ، قد يجوز لكل واحد منا أن يكذب على نفسه ـ ولكننا لا نقدر أن نكذب على التاريخ ـ ان التعليل الصحيح لا يسمح للتاريخ أن يكذب ، وإن كذب ، فان المنطق يقاضيه ويردّه إلى صواب . ما من أحد حتى الآن ـ رغم عبور الاجيال وامتصاص الأيام ساعاتها وثوانيها ـ شك بصدق ابن الخطاب وابي بكر في خدمة رسالة الاسلام ، ولكن نيتهما المبيّتة في التصرّف دلت اليهما بوضوح ، انهما يرفضان تسليم النبوة والخلافة لبيت واحد ، هو بيت الطالبيين ـ لهذا كانت الخلافة لقرشي آخر ، هو بحكم الطبع غير طالبي . خمسة وعشرون فخذاً هم بنو قريش ـ ان فخذ الأمويين على الأقل ، هو المريد الأحقد والأصلب في ابعاد النفوذ عن بني طالب ـ الجد «أمية» الذي نوّهت عنه منذ قليل بملحة من الملح ، هو الذي يعيش دائماً فيك أيّها السيد ، وان نيّة الخليفتين : أبي بكر وعمر ، هي أيضاً قد استندت على ذكائك في تمثيل الخط السياسي المعيّن الذي يقطع الوصل بين الخلافة والنبوة ، ويجعل الخط مفتوحاً أمام كل بني قريش ، ان القبائل في العصر هي التي تريد ـ أما النبيّ الذي كان يتمنّى ، فان حياته على الأرض كانت قصيرة وغير كافية لتحقيق الأمنية .

هنالك سند آخر جاءك درعاً جديدة منّعت بها صدرك في ساحة الصراع ـ

انه الخليفة الثالث ، قريبـك من بني أميّة ـ عثمـان بن عفان ، لقـد آزرك ووسّع لك الولايـة على جميـع أرض الشام ، من حـدود فلسطين إلى أبعـد من حمص ، وكسح لك حدود البحر ، وأوصلك إلى القـاعدة قبـرص ـ لقد افسـح لك كـل مجال في التثبيت ، حتى يكون على يديك بناء ملك لا بناء خلافة ، تتناوله مركـزاً لـك وللبيت الأموي ، في القضـاء نهائياً عـلى كل أمـل يختلج به صـدر طالبي ـ هـاشمي ، لقد تـوسّم فيك أبـو بكر وعمـر ذكاءً تتسلم بـه دائـرة الشـام ، أمّـا عثمان ، فانه وثق بك إلى أبعـد الحدود ، بـأن فيك ذكـاء تتصرف بـه إلى درجة الدهاء ، وآمن بك طبّاخاً ماهراً تلعب بكل نار تحت أي قدر ـ وتحصد الدنيا إلى بيادرك التي هي بيادر بني أمية .

ـ ٣ ـ

منـذ ربع قـرن وأنت في الشام : في سنـدس من غوطتهـا ، وفي ينـع من ثمارها ، وفي مرح من سهولها ومروجها ومجاري انهارها ـ لقد كانت كل خيـرات الأرض بين يديك ، بحكم ولاية مكّنتك منها سياسة عمـر بن الخطاب في تحـرير الأمّة وصيانة مواردها ، وتخليصها من النير الروماني المستعمر المستبـد ، وقد لبّت الشام سياسة الخليفة ، وسهّلت عمليات الفتح والتحـرير أمـام خالـد بن الوليـد وأبي عبيدة بن الجراح ، لا لأنك أنت ستكون الوالي عليها ، ولا لأن جـدّك أميّة قد نزل فيها مدة عشر سنين ـ كما تقـول الأحدوثـة ـ ثم انسحب مخلفاً لـك فيها دارة فسيحـة ومركـزاً قاعـدة ثبِّتَّ أنت له الأركـان بذكـائـك المستحق ـ بـل لأن السلسلة الـطويلة من الجـدود الأقــربـين والأبعــدين ، وآخـرهـم المغريون والحميريون ، الاسماعيليون والقحـطانيون : القـرشيون والبكـريون والتغلبيـون والتميميـون ، الأوسيون الخـزرجيون الأزديـون والكلبيـون واللخميـون ـ وكلهم المتداحون فوق أرض الشام ، وفوق أرض العراق ، الحاملون الاسم والنسب ، والأرومـة العـربيـة ، والمشتـركـون منـذ آلاف السنـين بعمـارة الأرض ، وزرع البسـاتين ، وتنـظيم الري ، وإنشـاء المدن ، وتـأسيس الحضـارات . لقـد جـاء الإسلام من أرض بجزيره الأم ، ليجمع الأم إلى أبنـائها المنشـورين هنا وهنـاك

منذ بداية تكوين الانسان فوق الأرض المفتوحة أمام عزم المتنقلين وارادتهم في ترجمة الحياة التي تجذر الإنسان في التربة المعدّة ميداناً أبدياً لعلوق الانسان .

ليس في القول هذا انتقاص منك، أيّها السيد ، فالشام ما كانت أبداً ملكاً لك ، بل كانت تلبية لنداء طلبها إلى التحقيق فلبّت ، كما طلب العراق فلبّى ، وكذلك مصر أو المغرب العربي ، ما ساء أبداً خط الرسالة ، رسالة التوحيد - لقد كانت لكل القبائل - فكما وحّدت بين الأوس والخزرج ، كذلك وحّدت بين الخطين العريضين ، خط مضر وخط حمير - والخطّان الموجودان اليوم في الشام ، قد تضافرا أمامك كوالٍ ، وقدّما لك النجدة الكبيرة والعريضة لتثبيتك والياً مقتدراً . ان الرسالة - والحالة هذه - هي التي جمعت لك السلطان ، فأنت باسمها أصبحت تفعل ، ولقد تمكّنت بها حتى الآن من جعل الحميريين متناسين احقادهم القديمة على المضريين - أو على الأقل مجمّدين في عدم اثارتها فاعلة ، لأن الرسالة قضت بذلك ، ولأنه ليس من مصلحة الوالي الذكي ، أن يذكي ناراً تحرق له طبخة لذيذة هي الآن تتقلى في القدر .

إن المهمّة جليلة أيّها السيد أن تمتن اللحمة بين خطّين من خطوط القبائل التي يقوم عليها كيان الأمّة ، ان تلفهما إلى حقيقة اجتماعية بنّاءة ، هي رمي السهام كلها عن صدر الأمّة لجمعها كلها لصيانة الصدر الذي يخفق فيه قلب الأمّة - هكذا الرسالة بنظرها إلى الحقيقة ، راحت توحّد بين جميع القبائل والبطون والأفخاذ - ولقد قدّمت المثال في التوحيد والمؤاخات في يثرب بين الأوس والخزرج ، وأنه لمن الايجابيات أيضاً أن يكمل الوالي سيراً في الخط الذي مهّدت له الرسالة بنظرتها الأصيلة إلى الوجود والكون . ألم تكن منصّباً في الشام والياً باسم الرسالة التي تبحث بأمر الأنسان الذي هو حقيقة الوجود والكون ؟

- ٤ -

يطيب لي الآن ان أنوّه عن حدثين متوازيين في الاداء ، مرّا عليك في ذلك الحين ، وكيف ننظر اليهما نحن الآن ، بعين العصر - ان الحدثين المتوازيين هذين ، هما شخصانِ حمل اليك كل واحد منهما رسالة : الأوّل هو بشير بن

النعمان ، والرسالة التي كان يحملها كتبت بحروف مدقوقة على نول ، فواصلها خيوط مكوك ، وحبرها دم مفجور من وريدي الأبهرين ، أما الفكر فيها فتعبير عن ثورة ، قرأتها أنت : جريمة اغتيال ، أنها مشهورة رسالة بشير بن النعمان - أليست قميص عثمان ؟ ملفوفة فيها أصابع زوجته نائلة ، التي قطعت اذ مدّت لوقاية صدر الخليفة من ضربة السيف ؟ لقد تلقيت الرسالة وجعلتها راية منشورة فوق المنابر . أما الرسالة الثانية فلقد حملها اليك - بعد برهة أخرى - جرير بن عبدالله البجلي ، يطلبك فيها الخليفة الامام علي لاجراء لقاء يتم فيه صلح تحقن به دماء المسلمين . ولكنك لم ترد أن تقرأ رسالة جرير ، لأنها كانت في نظرك - على ما يبدو - سخيفة التعبير . أما نحن الآن فلنا أن نفسّرك أنت ، والرسالتان بين يديك ، بأي عين قرأت ، وبأي اذن سمعت ، وبأي قصد طويت رسالة ونشرت أخرى ، تاركين الحكم لك أو عليك إلى مجرى الأحداث التي يأخذها التاريخ إلى خانة النتائج التي تتقيّم عليها عمليات الحساب .

إن الرجل المقتدر الذي هو أنت، عرفت كيف تتسلم أزمة الأمور، وكيف توجهها للوصول بك إلي حيث أنت تريد - لم تفتك السوانح ، لقد كنت تعرف كيف توّجه دواليبها مع الريح ، ولقد وافتك طائعة المجرى - هل أنت بذاتك جعلتها طائعة ؟ وكنت تتمكن ان تجعلها هكذا طائعة ، بفيض من موهبة لك وذكاء - أم أنها انقادت اليك ولك ، مع طيب حظك وسعد نجمك ؟ كل ذلك قد كان لك على مدى خمس وعشرين سنة في ظل ثلاثة خلفاء متعاقبين على الحكم في دنيا المسلمين ، وكان لثلاثتهم تحقيق في سبيل الأمة وتحريرها ، ألم تحرروا أرض الشام من عبث وتسلط قياصرة الروم ، وسهلوا لك ، بكثير من اليسر ، وصولاً إلى ادارة حكم أرض هي درّة في الشرق ، وهي موئل من الموائل العظيمة التي هضمت كل موجات القبائل العربية ، ولا تزال تهضمها وتحولها ماهية انسانية عظيمة القيمة ، وعظيمة الحضارة ، وعظيمة التاريخ ، وعظيمة الانسان - انها كلها - هذه الأرض - ممدودة من أقصىٰ الشرق من الخليج العربي ، إلى أقصى الغرب من حدود المتوسط ، على طول الخط الجنوبي الصحراوي من الجزيرة الأم ، أما أنت فلقد خصصت الشام لك بالولاية -

الشـام القلب ، والشام الـرئة ، والشـام السهول ، والشـام الجبال ، والهـواء ، والظل ، وقسم وفير من المجد الموصول بمجد دجلة والفرات . . . تسلّمت الشام ورحت تديرها دون أن يعكر أحد عليك أي مجّرى من المجاري ، لقد لبّتك كل القبـائل ، اكـانوا مضـريين أم حميـريين ، أكـانوا اديـرة أم قسسـاً رهـابـين ، أم مواطنين صامتين عاديين ، أم فلاحين زراعين كادحين ، ام تجاراً بـارعين ينقلون انتاج الأمّة إلى كل صقع من أصقاعها ، توزيع خير ، وتوزيـع انتاج ، وتـوزيع رفاهية ـ لقد سكن الجميع اليك ، ووفروا الربح لك ، وحققوه ظـلاً لعيالـك ، وبيوتك ، وقصورك ، وحققوه منعة لجيشك ، وسيفك ، ونبلك ، وقوسك .

إنّها الحقيقـة في القصد ـ عـلى ما يبـدو ـ فأنت مـا جمعت هكذا الشـام إلاّ لتكـون لك الشـام في حقيقة الملك ، لا لتكـون الشام من مجهـودك لأي خليفـة سواك . لقد كان كل ذلك وضوحـاً في مسراك . أمـا أن يموت عثمـان ، فلست أنت لتدافع عنه ، بل لأن يكون موته دفاعاً عنك أنت بالذات ـ أمـا ان يطلبـك الخليفـة الجديـد إلى صلح ـ فأي معنى لـذلك ؟ فـأنت لا تـطلب صلحـاً ، بـل تـطلب ملكاً يخسـرك اياه الصلح الأعـور . . . ان تطلب ثـاراً لعثمان ، فـذلك أيضاً هو مرانك في عمليات الدهاء ـ فالملك لا يثبت إلاّ باسم المسلمين ، بـاسم الرسالة التي هي الآن جامعة لكل المسلمـين ـ وأن تكن أنت من الطلقـاء ـ وأن تكن الأخـير في الادعاء إنـك مسلم ، فأنت الآن في المركـز المـربـوط بحقـوقيـة المسلم ، وأنت أيضاً من صلب قريش ، وأنت في المركز الممتـاز الذي ثبّتتْـهُ لك الموهبة ، وأنت الداهية الذي تعلم طويلاً من أين تؤكل الكتف ، وانت المتمرّس الحصين ، وأنت الرجل الكفء في اكتشاف الثغرات ، وفي كيفية سـدّها حتى لا تكون فراغاً .

هل قتل عثمان بثورة ؟ أم قتلته يد مجرمة حرّكت على ثـورة ؟ سيان ذلـك أن تعتمـد على تحقيق ، أم إلى رمي تهمـة ـ إنَّ نقضـك الصلحَ كـاف لتـوضيـح القصد ، بأنك جعلت عثمان لك ولم تجعل نفسـك أنت لعثمان ، وأن يكن قـد مات ، فهنيئاً له أنه قـد مات مخلّفـاً لك السـاحة الـوسيعة التي هي الآن قـاعدة لك ، صّرفت العمر كله وأنت تشتهيها ، ولن يشتهيها أحد سواك .

رفعت المصاحف ـ يا لعمرو بن العاص ـ انزلتها إلى ساحة العراك ـ عجباً . . . ولم تستنطقها بحرف . . . يا للدنيا ، كيف تطيع بين يدي طالبها ، وتلبّيه بالخديعة الكبرى ! هل هكذا هي أركان الدنيا ؟! تشبع الخادع بخديعته ؟! وتجعله أخيراً يلتهم ثدي أمه بعد أن يكون قد امتصّه ـ عافيةً ـ قطرة قطرة ؟!

ما هكذا الدنيا ـ على ما أرى ـ واعشقها مليئة بالجمال . يا ليتك استنطقت كل حرف من حروف المصاحف ـ لقد كانت أرضتك بأنك عظيم ، وبها ساعتئذ عظيم . لقد كانت أوحت اليك أن العظمة صفة في الإنسان ، يلتقط بها من جدية الحياة ـ يجمعها من زخرف الأرض ، ومن تراب الأرض ، ليجمعها زهراً ، وليجعلها أريجاً ، وليجعلها ثمراً ، وليجعلها روحاً منسوجاً من قدسية التراب ، لقد كانت علمتك بأن الدنيا لا تطيب ـ والحالة هذه ـ إلاّ اذا ازدهرت بحقيقة الإنسان ، وان الدنيا ارتفاع القيمة من جوهر الانسان ـ والقيمة هي المثل العليا التي تفرّق بين الحيوان والإنسان ـ لقد كانت أوحت اليك أن الدولة التي نمّقت حواشيها في الشام هي الدولة الحديثة ، وان تكن أنت قد أخذت لها طرازاً من وحي حكومات بني هرقل ـ فانما هم قد استرقّوها عن اجدادك القدامى القدامى ، الذين علموا الفرس والاغريق الحرف ، ورق خشبة المجذاف، وتنسيق الري في السهول بعد أن جففوها سن الوحول، وعمارة المدن وتنسيقها بالشوارع ـ لقد كانت أوحت اليك أنك عظيم تعمل على بناء الأمّة من جديد ، لتكون ملحومة بكل قبائلها حتى تصير أعظم أمّة يتباهى بها فوق الأرض ـ لقد كانت أملت عليك مدَّ يد كريمة إلى اليد الكريمة الثانية التي تطلبك إلى الصلح حتى تشد أزره، ويشدّ أزرك في الألحام، وفي تجنيب الأمّة ويلات الحروب والصراع بلا جدوى انصرافاً أكيداً عن حقيقة البناء .

إنني لا أزال احتار فيك أيّها السيد ـ يا كتلة من دهاء، وكتلة من ذكاء ، كيف أنك لم تصغ إلى آيات الرسالة البيّنات ، وتركت الساحة تخلو منك بريئاً ، لتتشبث بك متهافتاً علي ملك الدنيا وبهارجها ، وحصرها في زوايا بيت أموي يفصل نفسه عن بيت ملاصق له هو بيت طالبي .

ستشاهد بأم عينك أزاحة خصم لك من الساحة المريضة ، على يد ابن ملجم . . . أتراه ـ علي ـ غاب مسهّلاً لك الوصول؟ ولكنه لا يغيب ، طالما أنه حرف جليل في حقيقة المصاحف التي احتميت بها في صفين ـ لقد سمعته ينطق بالحرف ذاته في مدينة يثرب على أيام عثمان بن عفان . الا نزال نحن الآن نسمعه يحاضر في ساحات يثرب عاملاً ـ مع ابن عمه عبدالله بن العباس ـ على انعاش الطاقات الفكرية ، غائصاً في الفلسفة ، والمنطق ، والحديث ، والبلاغة ، والفقه ـ انها المواد التي تتألف منها حقيقة المصاحف ـ إنها القوت الغزير المكثّف ، والمركز الذي يتملى منه العقل ، وتزدهر به مجتمعات الانسان ان بها تلقيحَ الدنيا ، وتجميلَهَا حتى ترتفع بها الحقائق إلى ديمومة ترسمها لها مجاميع القيم .

القسم الثالث

أي كرسي هو الحكم !

المواجهة
جعبة الحكم
المبايعات
أي كرسي هو الحكم ؟!
القرار

المـواجهـة

- ١ -

لا بأس من اعادة الكرة في التلميح إلى مـا سبق البحث فيه ، ليس ذلـك إلّا طمعاً بالتوضيح والتركيز : أية لحظة من لحظات عمر الحسن لم تكن وقوفاً به ـ وجهاً لوجه ـ أمام معضلة وجودية ، ما تحمل وطأتها إلّا وبنتـه ـ بالمقـابل ـ بنـاء نفسياً عميقاً ، وألقت عليه مسؤولية جديدة الطراز ، وثقيلة المعاناة ؟

وجهاً لوجه كان ينام في حضن جدّه الحنـون ، يتنقل عـلى زنديـه من كفّ إلى كفّ ، ومن ضمّة إلى قبلة ، ومن لفتة مفتحة العينين ، إلى استغراقة غـائصة في كل مداها .

وجهاً إلى وجه رافق خطوات جدّه العظيم في البيت ، وعلى الدرب المؤدي إلى المسجـد لـوعظ النـاس ، والصـلاة فيهم صـلاة التبـرّك بـالحق ، والتمـرّس بالإيمان الذي يحرر من البغض ، والحقد ، والجبن عن السير في تنقية النفس من ادرانها الوبيئة .

وجهاً لوجه ـ أمام نفسه ـ عندما تجاوز سن التمييز إلى سن الرشـد ـ ادرك المقـاصد ، وفهم المـداليل بـأنه وريث أنيق ومسؤول في إمـامـة ستتصـل بـه عن أبيه ، بعد أن يحرز لها عصمة منها ، تؤكـد له حكـماً موصـلاً إلى تركيـز الرسـالة مادة فاعلة في رفع سوية الأمّة ، وتوسيع الميادين لها بحقيقة التقرير .

وجهاً إلى وجه شاهد تمثيل جميع فصول المأساة في تغيير الاتجاه الملحوظ في اسناد الحكم ـ بالتعيين ـ إلى شخص مثّقف بالرسالة ، مبني مسبقاً لضبط سيرها ، وعدم الشط بها عن مجراها القويم . لقد كان ذلك من فرط حيطة النبيّ الكريم ، في اقتراحه نظاماً جديداً لضبط الحكم ، ودفع الرسالة الجديدة بهذا الحكم ، ليكون جديداً من نوعها ـ ألا وهو نظام الامامة الموسومة بالعصمة ، تمكيناً لحاملها بالمسؤولية الفريدة من نوعها في تعهد الرسالة حتى لا تحيد عن مضامينها ، أن التمرّس بالصفات هو القمين على استحضار المناقب التي يتم بها الحكم ، والتي هي ـ وحدها ـ المادة العظيمة التي تبني الحاكم ، وكل مسؤول في الادارة الاجرائية والتنفيذية التي ترعى هذه القيم وتوزعها على المجموعات الواسعة التي تتألف منها الأمّة . يعني ذلك نشر ثقافة عامة ، نظيفة ، منذ البداية ، تجمع بالحق ، وتوزّع بالعدالة والمساواة ، وتطيّب النفوس بالتقوى والورع ، وتقضي على الفقر الروحيّ والمادي على السواء ، وتوحد المجتمع بالشعور النبيل الذي يقضي على الحرمان ، دون التسابق إلى إحراز زعامات قبائلية قديمة العهود ، لم يعد بحاجة إليها الإنسان الجديد الناشىء في حضن رسالة جديدة عنوانها : الاسلام والتوحيد .

يمكن القول ـ اختصاراً في التحديد ـ ان اقتراح نظام الامامة يبعّد الأمّة عن عمليات انتخابية لم تصب بعد منها حظّاً حضارياً موصلاً إلى إصابة . أما المبايعة فلتكن للامة ، اجماعاً منها ، بقبول الرسالة التي قدّمت الجديد الجامع ، وقدّمت الامام المصطفى معبّراً عنها في حقيقة التمرّس بالفهم والرشد ، فلتكن اقتناعاً منها بأنها وحّدت مساعيها مسبقاً دونما حاجة للرجوع إلى التنافس على مراكز السيادة التي كانت تتوزعها القبائل وتضنى بها في تقاتل كان يرميها في الفقر والجوع والبغض والحقد ، والبعد عن أي تحقيق انساني تجد ازدهارها فيه مجتمعات الانسان .

قد لا أقول بالامامة نظاماً أبدياً ، يرافق الانسان في جميع مراحله التقدمية في الحياة ـ أنه ليليق للمجتمعات التي تصيب شوطاً محترماً من الحضارة

والثقافة ، أن تبتكر أنظمة ودساتير تعبّر بها عن كل جديد لها في الحياة ، يوصلها إلى أوفى ، وإلى أسمى وأرقى ـ ولكني فقط أتساءل : لو أن نظام الإمامة حظي بالقبول ، ورأساً جاء الامام علي إلى مركز الخلافة بصفة الامام ، اجل ـ الامام علي ـ الرجل المصطفى ، الرجل الأوّل الذي اعتنق الاسلام ، والذي لا يزال الاسلام حتى اليوم يقول عنه : رضوان الله عليه ، وكرم الله وجهه ـ ترى ، لو أنه قبل إماماً خليفة ـ أي بالتوصية التي تغافلوا عنها ـ أكانت قد تغيرت مجاري الأحداث ، وآل بها الاستقرار الى تثبيت رزين ، وبناء عفيف ، وترسيخ ماكن ؟ ألم يكن الامام علي موازياً لعظمة الرسالة وصدقها في بناء المجتمع ، ودعمه بالصواب ؟ ألم يكن القبول به مبايعة اجماعية له ، دون استشارة القبائل وانزالها إلى حلبات الصراع التي كانت تقتل المتصارعين ولا تجمعهم إلى صواب ؟ افترض ذلك وأنا أسمع صوتاً من هنا أو من هناك : ـ ولكنه وصل إلى الحكم ، فهل نجّى من قتال ؟! ـ ولكنه لم يصل أبداً إلى الحكم ، بل ان الذي وصل إليه هو المرض الذي ينتج من حوملة القتال ـ اثنّي القول الذي بنيته على افتراض : لو أن علياً قُبِلَ فاتحة في النظام ، لكانت تبركت به الأجيال ، ولكانت ترفض التخلي عنه ، كما أنها لا تزال ترفض التخلي عن الاسلام الذي يجمعها كلاً ، ويجمعها ديناً ودنياً ، ويجمعها عالماً يرجح به الغد الكبير .

ـ ٢ ـ

وكان للحسن أن وقف وجهاً لوجه أمام أحداث جسام كشفت أمامه ـ بالتدريج ـ واقع البيئة التي عاش فيها جدّه العظيم ، وأبوه الذي عانى وطأة الجهاد ، فاذا هي بيئة مفتوحة فوق أرض فسيحة الأرجاء ولكنها مشوية بالبراكين ، تتلاعب بها الريح ذرياً للرمال ، فتعلو أبداً كثباناً ، ثم تنبري مخلّفة لجحاً يطمو عليها السراب دون أن يطفىء لها ظمأ ـ واحة هنا وواحة هناك لا يطول لها أمد ، ولا يستقر بها خصب تظلله سماء ، ـ فواصل فواصل مزروع بها المكان ، بين كل حقف وحقف فجوات مستطيلة من فدافد تملأها الشمس بالحرات

ولا تقطعها الرواحل إلاّ في لطوات من حلك الليالي المستضيئة ـ ابداً بغوامز النجوم .

لقد انتشرت فوق هذه الأرض ألوف القبائل، تتوزعها المساحات والمسافات ، في ظعن دائم مشدود النعال ومشدود الرحال ـ ولقد كان الرحيل يلعب بها كلما اشتد عليها ضيق المكان ـ لا بمساحاته المترامية الاطراف ، بل بشحه الأغبر ، ورماله السمر الحمر ـ اللهم إلا جنوب سعيد ـ اليمن ـ كان تعويضاً حلواً ، وان يكن زهيداً بالنسبة إلى مدود طويلة تأكلها الأحقاف ، وترتج بها رياح من سراب . هكذا كانت تتجمع القبائل افواجاً أفواجاً ، وتنداح متسربة في انسيابات كبيرة إلى الجهات الأربع من حدود المكان ـ والجهات الأربع تعني بالضبط ، كل ارجاء العالم العربي ، لقد دمغته عربياً كل هذه الموجات الفائضة والمتسربة من أرض الجزيرة الأم ، عبر آلاف السنين ، من خلف الليالي الطوال ، من خلف حدود التاريخ ، من صلب وجود القبائل المنتشرة فوق أرض الجزيرة ، من حدود حاجة الانسان إلى زرع نفسه في الأرض التي تفتش عن الانسان لتتبناه .

كل هذه الأقطار التي توصل إليها النزوح ، والتسرب ، والانسياب ـ كما يحلو للوصف أن يسميها ـ هي انفتاحات جغرافية موصولة المكان بالمكان ـ عبر البيد والصحاري ـ وموصولة الزمان بالزمان ـ عبر الأيام والليالي ـ انها كلها ، سجل حياتي لمآتي هذا الانسان ، في عملية موحدة الانسياق ، وموحدة الاخراج، وموحدة الاسلوب، جمعها المكان ـ وجمعها الزمان، وجمعها النهج في التفتيش ، وسيّان ان كانت أقطاراً لعدة أمم ، كما يقول العلم في تقسيم بيئات الأرض ، أم كانت أمّة واحدة ، كما تشهد لها غزارة الانسيابات من المصدر الواحد ـ فهي بالنتيجة الحتمية ، حدود تكميليّة للعالم العربي .. الذي تجمعه إلى ذاته وحدة في الأصل ، يشهد لها المكان ، ويشهد لها وسع الزمان ، قبل أن تصبح تاريخاً جليل الفهم ، وفصيح اللسان .

هذه هي البيئة ، بيئة الجزيرة العربية التي كانت ـ رغم حدودها الكبيرة

الكبيرة ـ صغيرة صغيرة ، حتى تكاملت فاصبحت جاهزة للتلبية . تكاملت بالاندماج ، تكاملت بالانسياب ، تكاملت بالتفتيش عن ذاتها الحائرة !!! ولكنَّ الرسالة ذات النزعة الانسانية في الاسلام هي التي جاءت في حقيقة التكميل الوجودي لهذه البيئة الحائرة على صفحة الأرض لتضمّها إلى حقيقة الوجود ، وهذا هو دور الاسلام في اعادة فتح مجاري الحياة في العالم القديم كله .

بهذه العين الوسيعة ألَمَّ النبيّ العظيم بحدود الأمّة النائمة غافلة عن كل امكاناتها المطروحة على ساحات الأرض . لقد انحصرت كل اهتماماته في كيفية جمع هذه الأمّة إلى حقيقتها ، لتصبح فاعلة وحاضرة الوجود . أن يحمل الرسالة ، وان يبلغها ، فمن أجل هذه الأمّة بالذات ، حتى يجمعها ، ويوحدها ، ويجعلها قويّة فاعلة . لا وايم الحق ، لم يغرق الرسول العميق الفكر والرأي والخيال ، في خلواته الروحية الصادقة الذات ، من اجل تحديد علة الوجود ، وصيانة حدود الله جلّ جلاله ـ وحسب ـ ليس الله العزيز الحكيم ، بحاجة إلى تحديد ، بل نحن بحاجة إلى التبصّر به : فهو المطلق العزيز عن المثال ، وهو الشمول الذي لا يلمس له حد في بداية ، أو حد في نهاية ـ انما يكون ذكر اسمه تمثيلاً في اجتباء الحق ، واجتذاباً إلى منازع الخير ، واقترابا من منابع القيم ، وكلها مقومات فاعلة في بناء الانسان المجتمعي الذي يبنيه الصدق ، والعدل ، والمعروف ، ويهدّه الكذب والجهل وكل أسباب التخلّف ، وهي ـ هذه الآفات ـ تعيش في المجتمعات البدائية ، ولا تسير بها خطوة واحدة إلاّ إلى الوراء الذي هو ضعف ، وخمول ، وحيرة في وجود الانسان .

تلك هي رسالة النبيّ الجليل ، بناها على الإيمان بالله مصدراً مفتوناً بالحق والخير والمعروف ، وهو المصدر الذي يجب أن يغلف الأمّة لتكون عظيمة بمصدرها العظيم ، لأن المصدر هذا هو الحياة ، هو علّة الوجود ، هو استحقاق الأمّة المفتشة عن ملاذها .

من هنا يكون الانطلاق الرحب في جعل الأمّة تدمج المكان بالزمان ، وتلونه بقيم تتفتح بها على ميّزات رسالية حضارية تجعلها عالمية في قدسية

الشوق ، تتآخى بها في الساحات الوسيعة على صفحة الأرض ـ ومن هنا أيضاً كان لرسالة الاسلام التي انطلقت من أغوار هذه الأرض المشرقية ريح ناعمة الحواشي بالحب والسماح والمعروف ، وتعشّق الخير ، والحق ، والعدل ، والمساواة ، مما جعل تراب الأرض كلها ينعجن بها غذاء وحضارة لمجتمعاتها ، واذ تتخلى عنها قيما ييبس بها الوجود في انخسافات وحشية همجية لا يخلصها منها إلّا رجوعها إلى الدائرة الرسالية الملونة بريح هذا الشرق الكريم .

لقد واجهت الحسن كل هذه الحقائق التي املت عليه هذه المعاني ، وهذه المقاصد ، وهذه الغايات ، لتقف به ـ وجهاً لوجه ـ أمام مسؤوليات جسام ألقاها عليه جدّه الكبير بالوصاية المختومة بحقيقة الارث الذي هو ـ بمجرد الحق ـ قيام على فهم الرسالة فهماً أصيلاً ، وقيام على تعهّدها ، لتستمر صاعدة نحو مؤدّاها ومرماها ، ومن أجل هذه الأمّة المطلوبة إلى التحقيق، ولن يكون التحقيق عظيماً إلّا من خلال الأمّة العظيمة ، ولا تحصل العظمة إلّا من وحدة المجتمع وتكامله ، ووحدة الفكر ، ووحدة التطبيق ، ووحدة المصدر . . . وكلها وحدات يؤلّفها العقل والوعي في الانسان .

ـ ٣ ـ

من أبلغ المواجهات التي جاءت بانطباعاتها وحفرها في نفس الحسن ، وصول الحكم إلى أبيه وصولاً ممهوراً بدم عثمان . أية ثورة هي هذه الثورة المريضة التي عرّت عثمان من قميصه ، وحذفته عن كرسي الخلافة ، لتشد خصرها الآن ، وتأتي راقصة بثياب «الحمس» أمام علي بن أبي طالب ، تستحثه للنزول إلى الساحة المعمية بالعجاج : عجاج الغبار ، وعجاج الناس العور الذين لا يعرفون كيف يتنفسون إلّا بعد أن يختنقوا بالغبار الذي يكونون ـ هم ـ قد أثاروه ـ أين كان الاوسيون والخزرجيون حتى يأتوا اليوم ـ بعد خمس وعشرين سنة ، ليتعرّفوا إلى فتى الساحة ، ويطلبوا نزوله إلى حلبة الصراع ؟

باسم الأوس والخزرج، باسم الأنصار، باسم القبائل الخاسرة مركزاً

للزعامة ، باسم الخط الحاقد والرافض القبول ببني حرب ممثلين بمعاوية ، جاءت الثورة تحذف ابن عفان ، وتتعلق بذيل ابن أبي طالب ، لا لتنظيف الساحة من الاعوجاج ، بل لحذف بني أمية من الساحة . ان الرسالة بالذات ـ منذ المبتدأ ـ منذ دخولها إلى ساحات مكة ـ لم تر صواباً أن تحذف بني أمية من باحات النصر ، بل أرادت أن توحّدهم في عمليات الاندماج ، حتى يكتمل النصر بهم لا عليهم ـ حتى يكون بهم التوحيد الرائع ، حتى يشعروا ـ هم ـ انهم ليسوا فقط الطلقاء ، بل هم أيضاً الموحدون في الخط الذي لا يجوز بعد الآن أن ينشق إلى مضرّي وحميري ، حتى يتأكدوا ـ هم الأمويون ، وكل الزاحفين من هذه الساعة الكبيرة إلى التحقيق المرصود ـ ان خيطان القبائل هي المجدولة الآن في الحبل المتين الذي يتزنر به في هذه اللحظة بالذات ، خصر الأمّة الموحّدة والناهدة إلى اكتشاف ذاتها في حقيقة الكيان .

لو أن الثائرين الذين حذفوا عثمان ، والذين يركضون الآن لتولية الامام ، ادركوا فعلاً ، وهم في يثرب ، ثم في مكة ، حقيقة الرسالة ، وحقيقة جوهرها ، لما كانوا تركوا لحظة واحدة تمر عن عتمة الليل ، عندما اطبق الرسول جفنه عن متابعة الرؤيا ، إلا وكان لهم القرار العنيد بالقاء الزمام إلى الامام .

أي تأخير طال إلى الآن أمده ، ينظف الساحة من الأمويين ـ ولا أعني بالضبط بني أمية ، بل اعني بالاشارة العريضة ، كل القبائل الذين راحوا يلعبون في الساحة لعبتهم القديمة في التفاف كل قبيلة حول زعيمها للوصول به إلى المركز الشهي . ليس وصول معاوية إلى حكم يتم بلا التفاف قبلي ـ ليكون الشد إلى زحزحته عن الحكم ، مربوطاً بالتفاف قبلي معاكس ، يتم به النزول إلى الساحة ، والسيوف مشرعة ، والغبار مثار ، والحناجر مبحوحة : يا لبني مضر ، يا لبني حمير ، يا لثارات العرب .

لقد شاهد الحسن أباه الامام كيف رضخ للتلبية ، كأنه قبل بالهزيمة التي لا مفر منها . ليس في النزول إلى ساحات الصراع هزيمة ، بل القبول بصراع ليس فيه تحقيق لأية بطولة هو الهزيمة أين هو صراع الامس الذي انتصر على كل

قبيلة كانت تنهزم بها جميع قبائل الجزيرة ـ من صراع اليوم الذي هو احياء الميت وارجاعه من رمسه العفن إلى ساحة النضال ؟! هل بامكان الامام الآن أن يتقدّم خطوة واحدة من مكانه بلا سيف يستعيره من هذه القبيلة ليضرب به لبان جواد يعتليه فارس من القبيلة المعادية ؟ وبالرغم من ذلك تمَّ القبول بنيَّة استخدام الذل للتخلص من الذل ـ بنيَّة استحضار القبلية للانتصار بها عليها ، في عملية تجديد يستفيق بها الغافلون إلى حقيقة تركوها تنام ، فاذا هي الآن قذى في عيونهم تحرمهم الراحة ولذة النوم .

أجل ـ لقد شاهد الحسن أباه يقوم إلى التلبية ، وشاهده كيف التجأ إلى الحق يقوّم به أَسَلَةَ رمحه ، ولكن الخصم الذي كان يلوِّح بقميص عثمان ـ لم يكن اذكى ، بل كان أمرن في استعمال الدنيا ، والين في أخذها بدهاء ، وادهى في لثم راحتيها وقدميها ، وحتى نعليها ـ فهي التي كان يرضيها الغزل ، حتى الصفاقة في الغزل ـ انها الدنيا ـ انها اللحم ، أنها الدم ، انها الشرايين الزرق التي تتغذى بكل احمر مدفوق عليها بلون اللذاذات المتشبة في ضلوع الوحش . . . اين هو الامام علي من تناول الدنيا باسلوب عريان من رشاقة الروح وقدسية عطرها ؟ من هنا كان لمعاوية استعمال أساليب مبتكرة في جعل الساحة تنساق إليه ، من حيث كان متعذراً على الامام أن يبتدرها ، ومن حيث كان لمعاوية استعداد مركّز في الشام ، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، على هدف مدروس ، ولم يكن شيء من ذلك موفوراً للامام وهو المنحّى عن الحكم أيضاً طيلة المدة ذاتها التي ساندت معاوية إلى مثل هذا البلوغ ـ وفوق ذلك ، فان استدعاء معاوية لأية قبيلة حتى تلبيه ، كان في نهج الامام مرفوضاً ، لأنه كان يطلب حكماً تسنده كل القبائل الموحدة في الرسالة ، لا بعض منها يناجزه البعض الآخر ، ويحصل الالتهاء والغاء القوى ، وهدم المجاهيد ، وزعزعة البناء المادي والروحي على السواء .

لقد شاهد الحسن كل ذلك يتمثل على خشبة المسرح ـ يتسلم أبوه الحكم علي ضيم ، وعلى تردد مفجع ، لينساق إلى مجابهة الأحداث المفتعلة ،

والمصطنعة ، والمرمية رمياً ذكياً إلى الساحة ـ لقد شاهد الحسن أباه يخوض كل معركة جانبية ، بالم وصبر بمضًين : من معركة الجمل ، إلى معركة صفين ، إلى معارك النهروان ـ وكلها تهديم لقدرات الأمة التي جاءت الرسالة لتجمعها وترصها خطاً واحداً في عمليات التحقيق الموصل إلى مجد الأمة وفخارها .

لقد حقق أبوه الامام نصرا في معركة الجمل ، ولكنه ـ بالحقيقة ـ كان انهزاماً في حقوق الامة المفروطة ـ وحقق نصراً في معارك النهروان ـ ولكنه أيضاً كان هزيمة نكراء للامة التي اضيعت عن سبلها القويمة ، وخسرت رجالها المدافعين عن حياضها ـ وحققت نصراً في صفين ، ضاع بين صفحات المصاحف المحرومة من آياتها الكبيرة الجامعة . لقد ارادها الامام صفّا واحداً مشدوداً للإسلام وأرادها الآخرون احزاباً وأبواباً مفضية إلى الدنيا .

لقد حاول الامام أن يمشي إلى الوراء حتى يعود فيمشي إلى الامام ، طمعاً باصلاح الخطوط ـ ولكن الهزيمة بقيت له بالمرصاد ـ لقد انبتر الخط ـ لقد كان عزم ابن ملجم أصدق في تمثيل مفاهيم الجماعات التي لم تثقفها بعد حروف الرسالة !

وجهاً لوجه وجد الإمام الحسن نفسه ـ بعد مقتل أبيه ـ أمام معاوية الذي خطط لكل الأحداث ، والذي راح يتلاعب ـ على هواه ـ فوق الساحة المقسومة الآن إلى ساحتين : ساحة شرقية قوامها الكوفة والبصرة وساحة غربية وقوامها الشام .

جعبة الحكم

ـ ١ ـ

وجعبة الحاكم ؟ اجل ـ انها الجعبة التي يجب أن تكون مليئة ، يجب أن تمتلىء جعبة الحاكم قبل أن يأتي إلى الحكم ـ وأن تتابع الامتلاء وهو في الحكم ـ وان لا تفرغ بل أن تزيد أيضاً ، بعد أن يترك الحكم ـ يجب أن يملأها غيابه من

زخم الصدق الذي يكون قد جمع منه كل مواد الحكم ، والا فانها جعبة كاذبة لحاكم كاذب ـ وأنها أيضاً جعبة صادقة بما يكون فيها من التعبير ، حتى ولو أن صاحبها حضّرها ولم يصل بها إلى مرحلة التنفيذ ، فهي له ـ حتى بعد فوات الأوان ـ في الانتظار الرائع لعملية التطبيق والتنفيذ ، فالمجتمعات الانسانية تعتمد في تطورها ، وتقدمها ، وكل تحقيقاتها ، على كثير من المناهج ، غاب مقترحوها ، ومقدموها ، وسانّوها ، وبقي الكثيرون منهم مجهولي الاسماء والهوية ـ ومعنى ذلك أن التراث الانساني هو ـ في حقيقة الانسان ـ توارث مجتمعي لا يفعل إلّا في صلب المجتمع فعلاً تكاملياً مليئاً بحقيقة الانسان .

إذا كان الحاكم ، وهذه هي صفاته ، وهو صاحب الجعبة المعدة أبداً للامتلاء ـ فأي جعبة عظيمة هي للمشترع العظيم وهي تمتلىء بحكمة الدهور ، ونعمة العقل المبرىّ من العقل الأكبر الذي هو ثقل الوجود، وثقل الخلود في الوجود ؟!

على هذا التحديد التلميحي نركز الاتجاه إلى رسالتين تعمّمت بها هذه المنطقة العظيمة من أرض الشرق ، هما رسالتان موحدتان بالاسلام ـ جاءت الأولى مكثّفة لمبادىء فكرية ـ روحية ـ فلسفية ـ اجتماعية ، عاشت بها حضارة السومريين والأكاديين ـ الأراميين ـ الكنعانيين ـ الفينيقيين المتحدرين جميعهم من أرض الجزيرة الأم ، إلى الأقطار الواسعة المربوطة بوحدة الاتصال الانساني الموحد المصدر ، والمشترك الانتاج والمصير ، وجاءت الثانية مكملة لسابقتها بذات الجوهر ، وذات المبدأ ، وذات التأثير الفكري الروحي الواحد .

لقد كانت الرسالة الأولى هي رسالة عيسى بن مريم ـ وامتلأت جعبته بمادة واحدة هي مادة المحبّة ، ايماناً منه بأن المحبّة وحدها هي التي تثقف المجتمع الانساني ، اذ تطهّره من الحقد والبغض والطمع ، وتطبعه بالخير الذي هو اشتراك في الانتاج الكبير المبني على الصدق ، وعلى حقيقة العلم والفهم ، وعلى تنقية الذات من غرائز الوحش ، وعلى ايلاء النفس جمالاً روحياً ، تعيش به الأرض في ظل السماء ـ لقد شنّ حرباً ـ بالمحبّة على كل ميل يَعْوَجُّ بالشر ،

ويكـذب باسم الله ، وبـاسم المحبّة ـ فـاذا كان لاسـرائيل أن تتعصب وتتـزمت بـاسم إلهٍ لهـا أسود العينـين ، ومحروق بهشيم من عـوسج ، فليكن لها من جعبة عيسى منديل يمسح العمى عن عيون المتعصبين المتزمتين ، المحملين الناس احمالاً ثقيلة ، ولا يمسونها ـ هم ـ باحدى اصابعهم .

لم يجلس عيسى على منصة حكم ، ولم يطلب عرشـاً ولكنه زلـزل العروش القائمة على غير المحبّة والرحمة والعفاف ، وحكم الأرض كلها باسم الاسلام لله بشـريعة الحب ـ ان جعبتـه التي هي مليئة بـالحق والصدق والجمـال ، مـا زالت حتى اليـوم تمتلىء ـ بـزخم منه ـ هـو زخم الحق الجميل الـذي تحيا بـه مجتمعـات الانسان .

ولقد جاءت الرسالة الثانية ، وهي رسالة محمد ، وامتلأت جعبته أيضاً بمادة واحدة ، هي طبق الأصل عن المحبّة التي تؤلف المجتمع ، وتوحّده بـالحق الذي هو مطلب مليء بالجوهر ـ أنها ذاتها في التمثيل المجتمعي ـ الانساني ـ الرسـالي ، تصدرها هـذه الأرض المشرقيـة الطيبـة الريـح إلى عباب الأرض ، فـاذا الأرض كلها تستمر شدها في صراط مستقيم .

لقد امتلأت جعبة النبيّ الكريم بكل ما يضمن حياة هذه الأمّة ، بكل ما يـوحدهـا ، بكل مـا يجمعها إلى ذاتهـا ، من أطراف أيّـامها المـاضيـة المتعـاقـدة بالتراث ، إلى كل يومها الحاضر الراسخ في الـزمان ، إلى الغـد المعزز بـالاحلام والآمال . ولقد افـرغت الرسـالة جعبتهـا على الأرض ، ونفـذت كل أغـراضها ومـراميها واهـدافها ـ فـاذا هي الأمّة تجتمـع باسم الـرسالـة ، رسالـة التـوحيـد والإسلام ، واذا هي تمتد إلى الآن في عمليات التنفيذ ـ وسيـان ـ احصل خـلاف في أساليب الجمع ، أو اجتهـادات في عمليات الاخـراج ـ فان العصـور كلها لا تزال موحّدة بالإسلام ـ اتكون قد جاء الحكم فيهـا باسم الـراشدين ، ام بـاسم الامـويين ، أو بـاسم العباسيـين أو الفـاطميـين والانـدلسيـين ، أم سـواهم من المحتجين والمنتفضين والرافضين .

لقد جمعت الرسالة الكريمة الانسان إلى حظيرتها التوحيدية ، ولم تفرق فيها

بين الناس ، ولقد احتضنتهم منتمين اليها ، يجمعهم الولاء - إذ يصدق - ويخيبون إلى فرقة اذ يستبد بهم ضياع أو زيغ .

- ٢ -

ما أرهب الساعة هذه وما أشبهها بالساعة تلك ! ان المسافة الزمنية بين الساعتين تزيد خطوتين عن ربع قرن - انها الساعة الحاضرة ، تقف بالامام الحسن - وجهاً لوجه أمام أبيه الواقف الآن - كالعملاق - أمام رهبة الصمت ، مطبقاً شفتيه على بلاغة ما نطق بابلغ منها إلاّ ذلك الذي لا يزال ماثلاً أمام عينيه الممرغتين به صامتاً فوق فراش ممدود على الأرض ، ومدقوق الحواشي بامجاد الدهور . هناك جدّه الذي صمت وما زالت له الكلمة تخفق بروح الحق ، كأنها لسان من نار ونور - وهنا أبوه الذي يتمدّد أيضاً على فراش من خيش وليف ، إلاّ أنه حبك من فصاحة وبلاغة ، تعلّمان الدنيا كلّها كيف تخبز رغيفها المطهّر ، وكيف تملأ به موائدها النظيفة ، وكيف تقتات به بلا شهوة مرّة ، وبلا ورم يشقى بدنسه .

لله ما أروع الإستحضار الذي ملأ منه الحسن جعبته التي يحملها الآن ليتقدم بها إلى الساحة التي تطلبه إلى اثبات وجوده كوريث لرجلين ملتحمين في عملية خلق الجذور من جديد ، وربطها بكل مآتيها بحبال الحياة ، وجعل هذه الحبال أوتاراً يعيش عليها كل نغم حيّ معبّر عن حقيقة الأمّة ، وحقيقة ارتباطاتها بمقومات الوجود - إنها هي اللحظة الكبيرة التي القت على الامام الحسن الشعور البكر بالمسؤولية الجليلة ، أنها اللحظة الحاضرة التي يقف بها أمام جثمان أبيه المسجّى ، تاركاً له وحده استلام الزمام الذي خلا اليه في هذه اللحظة ، لحظة الموت !

لقد أدرك ، في هذه اللحظة ، ان جعبته التي ما ونى كل عمره يعبئها بكل ما يوسعها ويفيضها على نفسه - انما هي الآن تتعبّأ بحقيقة توازي جنى العمر كله . لقد تكشّفت له كل الأبعاد التي كان يرمي اليها جدّه الكبير ، جدّه العظيم ، جده الرائي ، جدّه الذي راح يعمل على احتواء الأمّة أولاً احتواء كلياً ،

واحتـواء جزئيـاً ، قبل أن راح يجمـع حجراً حجـراً مداميـك البناء أمّـا عمليات البناء ـ وأن يكن قد جهز لها حجارات الاساس ـ فـانه تـركها لتصـاميم الأجيال التي تبتدىء الآن ـ تحت ناظريه ـ وتمتد إلى الإمام ، برعاية من ذكراه ، ما دامت الحيـاة تغزل لـلانسان خيـوطها الخضر المـزركشة بـالآمال السعيـدة ، وبالنـوايـا المليحة ، وبالهـدايات المنـوّرة بالحق ، والملقّحـة بالمعـروف ، والمستنيرة بـالعقل ـ عقل الإنسان .

لقد أدرك الآن ادراكاً واضحاً ما كان يقصد جدّه العليم ، من تعيين أبيـه علي في مركز الخلافة المميزة بالإمامـة ـ وذلك تجنيباً للمجتمع الـطفل ، الخـارج جديداً من عهده البدائي ، والداخل جديداً في البوابة التي تـطل به عـلى الباحـة التي يتـركز فيهـا مجتمع الانسـان . لم يكن ذلك ـ مـطلقاً ـ من اجـل الاحتفـاظ بـزعامـة لبيت كـريم ـ هـو منـه الجـد الكـريم ـ أن الـذي يهتم بشـأن المجتمـع الواسع ، لم يضـع نصب عينيه احتجـاز زعامـة لبيت واحد من بيـوت الأمّة التي تتألف من ملايين البيوت ومن ملايين السنين ، إلى المجال الـذي لا ينتهي ـ لا ، وقسـماً بالحق ـ لم يكن ذلـك ليتراءى أمـام خاطـر المشترع العظيـم الذي يحتـوي الجزيرة كلها ، والمجتمع كله ، والتاريخ كله الذي بنيت وتبنى به حقيقة الأجيال ـ انما كان ذلك من أجل صيانة المجتمع الناشىء من فوضى يجب أن تذوب منه ، وهي التي اضنته طويلاً ، وهي التي ـ ما بقيت ـ ستضنيه بلا انقطاع . ان مجتمعاً لم يتثقف بعـد ، أو فلنقل ـ لم يتحضر بعـد ، لا يجوز أن يعـرض بناؤه الجـديـد لهزات ارتجاجية ، تحركهـا عليه عمليـات انتخابيـة ، ليس فيها ، لا وعي ، ولا المام ، ولا مجال ثقافي ظاهر التركيـز ـ عندمـا يتهيأ لـه ذلك في مـداه الصحيح ، فليكن عندئذٍ للحرية الجديدة النابتة من ثقافته العـامة ، ومن حقيقة الصواب ، أن تستفيق إلى ذاتها العاقلة وتعمل إلى تعديل مواقفها .

لقد أدرك الامام الحسن الآن أن المجتمع الذي لم يتقيـد بالـطاعة ، وراح إلى مخالفة الرأي والاقتراح ـ وقع في المحذور ، وبـدلاً من أن يبقي خط الخلافـة ناعماً بالاستقرار ، ومستمراً بعمليات البناء المركـز ، بعيداً عن التشـويش ، جاء

كل خليفة جديد مجذوباً إلى مركز الزعامة بقوة انتخابية لم تحققها إلّا المبايعات ، ولا تعني المبايعات إلّا تجميع القبائل التي لا تحركها إلى الجمع إلّا إثارة الأحقاد ، وتحريك الحزازات والعصبيات ، وتلك هي الفوضى ، بدلاً من أن تجمع الشد ، تلغيه ، وبدلاً من أن تجدل الحبل ، تقطعه ، وبدلاً من أن تنشىء العمران ، تهدمه ، وبدلاً من أن تحقن الدم ، تهدره . لقد حصل كل ذلك ـ لقد حصل منذ اللحظة الأولى التي اخطأ فيها عمر بن الخطاب قراءة نية الرسول الحكيم ، فأوّلَ اسنادَ الخلافة إلى علي ، بأنها أحياء لزعامة البيت ، فابعدها عنه ، وهذا كان أوّل خطأ تاريخي يرتكبه سوء التأويل ، وسوء الظن ، وسوء النهج الذي لم يقض على القبلية ، بل ترك لها نزّاً تتنفس به إلى التفريخ الذي يسمم الجذور ، وييبس الأغصان ، ويُمْحِلُهَا من رونق الإخضرار . لو أن ابن الخطاب كان يجيد القراءة ، لما كان هكذا قد تصرف ـ ولكنه تصرف ، دون أن يكون له أن يقرأ النتائج ـ لقد كانت في عهد عثمان بن عفان طلائع النتائج ـ لقد عاشت من جديد قبلية بني أمية ، وقبلية بني أميةّ معناها استنجاد بخط معيّن ضد خط معيّن اخر ، فَرَطَ الوحدة ، وقَسَّمَ المجتمع ، ونال كثيراً من مداه .

أما وصول الامام علي إلى الخلافة بعد القضاء على عثمان ، فهو وصول ضعيف الرجاء ـ انه وصول ضاعت فرصه منذ زمن طويل ـ لقد خسر كل مؤدياته ، وكل امتيازاته ، وكل معانيه التركيزية ، وكل لزومياته البنائية التكاملية ـ وخسر كل احتياطه في التدارك . لقد جاء حساماً مقصوفاً في الساحة المريضة التي أصبح يلم بها الخور ، لهذا فإنها خلافة عاشت في الهزيمة وماتت في الهزيمة ـ لقد تركت فقط عبرة كبيرة : بأن المجتمع الذي يخسر جوامعه لا بد أن يسقط في المعاناة ، وأن المثل وحدها هي التي ستعود فتحميه إذ يهتدى اليها .

كل ذلك قد أدركه الآن الامام الحسن ، وهو ملفوف بالصمت المخيّم في جو القاعة المسجى فيها أبوه . ان الجعبة التي هي له ، والتي جمع اليها كل مجتلياته من العمر ، يختصرها كلها مما يستوحيه من روح جدّه المهيمن الآن في القاعة المليئة بكل وجوده ، وكل غاياته ومقاصده ـ ان المجتمع العظيم هو كل ما

بـان وكل مـا استتر من مقـاصده ـ إذا زال هـذا المجتمع العـظيم ـ ولا يمكن أن يزول ـ لا يعود للنبي العظيم وجود ـ شرط في الوجود مربـوط بشرط ـ ايجـوز أن يضمحل الانسان من الوجود ويبقى لاله الخلق تصور ؟ كل شيء في المجتمع هو امكـانية انسـانية فـريدة وعـزيزة الخلق والابـداع ، ولا شيء سواهـا يحقق عـلى صفحة الأرض ، اللهم إلاّ بارادة هي العزيزة في الادراك .

كـل ما في جعبـة الحسن هو الإهتمـام بالمجتمـع ، حلم جـدّه ، وأسـاس رسالته ، ومهبط وحيه ـ فاذا كان له أن يستأنف السير على خطى أبيـه ، فلتناول المحاولة في الاصـلاح والترميم ـ أمـا الهزيمـة ، فسيكون لـه أن يرى كيف يحـوّلها نصـراً للأمّـة التي يضنيها الصـراع وينفعها ، من أجـل الـوصـول إلى أي تحقيق ـ ولن تكون الهزيمة إلاّ نوعاً من أنواع الصراع الذي يبين الخطأ حتى يكون تجنبه في اليوم التالي بوابة إلى نوع من نصر يجني منه المجتمع كل محاولاته إلى البلوغ .

المبـايعـات

ـ ١ ـ

والمبايعات ؟ إنها الطريقة القديمة المتبعة عند العرب في جميع قبائلهم المؤلفة من بطون وأفخاذ ـ لقد كانت المبايعة تعبيراً عن جمع رأي كل قبيلة بمفردها حول زعيم لها يدير شؤونها ، ويحكم في قضاياها ، ويدبّر أمـورها ـ وكـل ذلك حسب عادات وتقاليد تخضع لهـا طرق العيش . لقـد كانت المبـايعة تعـينّ الزعيم ، أو توليه أمر القبيلة التي تتعهد له بالطاعة . أما أن يكون الزعماء أو شيـوخ القبائـل كثيـرين ، فان ذلـك عائـد إلى كثرة القبـائل التي يتعـين لكـل فخـذ منهـا زعيم يتصـرف بمقـدراتهـا ، وكـل شؤونها . ربمـا كـان تعيـين كـل صنم من الأصنـام المشرورة في الكعبة ، أو في الأحياء الموزعة في أغلبية المـدن من أرض الجزيـرة ، نتيجة مبايعة له رسخته الهاً يدير شؤون الحياة فوق تلك الأرض .

معنى ذلك أن المبايعات للزعماء ، واخضاع الناس لهم بـالطاعـة العمياء ، كانت نظامـاً بدائيـاً استبداديـاً ، يقسم الأرض إلى زعامـات ، ولم يكن له ـ ولا

مـرة ـ إن يجمع الأرض كلهـا لزعيم واخذ يمثلها ، وينـظمهـا ، ويـوزع عليهـا الإدارات . قد يكون أن حصل شيء من هذا على أيام الهاشميين ـ مثـلاً ـ فتعين نذر قليل من التنظيم بما يشبه التشكيل الاداري . الوزاري ، كوزارة السقاية أو وزارة الرفادة . . . وضبط مواعيد الـرحلات الـطويلة في الصيف ، أو في الشتاء إلى الجوار ، إلاّ أن ذلك كله لم يجمع دولة ، ولم يصنع حكماً له دلائله الحضاريـة المحترمة . لقد كان المجتمع العربي كله موزعاً على زعامات قبائليـة ، يحصل مـا بينهم التقاتل على تقوية كل زعامة بمفردها ، عـلى غيرهـا من الزعـامات المـوزعة على عدد القبائل . لم يكن للولاء مفهـوم يجني منه المجتمـع ، بل أن الـولاء كله كان ـ في القبيلة الواحدة ـ لرئيسهـا المسن ، أو لشيخها المتـزعم ، دون أن يكون للأفراد حق الاعتراض أو حق اثبات الوجود ـ لقد كان الفرد رقماً مفرداً في العدد الذي تنطق به لفظة المئة أو لفظة الألف . فليكن المجتمع مركباً من ألف قبيلة ، هنـالك ـ إذا ـ ألف زعيم في مجتمـع واحد ، أو بـالأحـرى ألف زعيم عـلى ألف... مجتمع ، وهذا معناه : مجتمع واحـد مفروط إلى وحـدات ، لا معنى لها كلهـا في ثقل الميزان .

إن الـذي وحّد المجتمـع وأعطاه ثقـلاً في كفة الميـزان ، هـو الـذي دخـل مكة ، واحتل الكعبة ، وحطم فيها مئات الأصنام ـ أنه هو الذي جمع القبائـل ، ووحـدها في زعـامة واحـدة ، ومحى من الاستعمـال كلمـة «المبـايعـة» التي تعني رجوعاً إلى معناها القديم ، وهو احياء الزعامة القبلية التي قضى عليها التوحيد ، ومحتها الرسالة من قاموس المجتمع الجديد. إلا أن كل مبايعة تحصل اليوم ، هي جـاهلية تمتهن المجتمـع وترده إلى أسبـاب تفسيخه ، وتعمـل عـلى تهـديم بنـائـه المؤسس جديداً على نظرة في الحق تمسحه بكل حضارة يبنى بها مجتمع الانسان .

ـ ٢ ـ

ولكن الرسالة ، رسالة التوحيد والاسلام ، لم تقصد أبداً حـذف القبائـل من وجـود الجزيـرة ـ فلنعد القـول هذا مـراراً وتكراراً ـ انمـا كان القصـد تنجيـة القبيلة من قبليتهـا ، تنجية الانسـان من غريـزة الوحش فيـه ، تمـامـاً كي تبقى

الأظافر في الأصابع لحماية الأصابع من تجريحها ، لا لاستعمالها كما يستعملها الذئب أو النسور وطيور الباز - ان العقل وحده يدافع عن الانسان ، لا أظافر كفّه ، ونواجز لا تنبت إلاّ في فك الحيوان - المفترس من الحيوان . تلك مفارقات في حقيقة بنية المجتمع المعد لأن يكون انسانياً متطوراً ومحققاً ذاته في الوجود .

ان تقترح الرسالة ، أو فلنقل : إن يتمنى الرسول ذاته ، صاحب الرسالة ، ان يكون الخليفة من بعده مخصصاً بالنص أو بالتعيين ، فذلك كان منه قصداً بعدم استعمال المبايعة - فلفظة المبايعة لا تحمل إلاّ معناها ، وفي معناها كانت كل أصنام الجزيرة وكل حزبياتها اليابسة ، وكل تقاليدها البائدة ، التي فيها الميتة والوأد ، ورقص الجن والسعالي - لقد كانت المبايعات تعني ، في قاموسها العتيق البالي ، رجوعاً إلى المراعي القاحلة ، رجوعاً إلى ألف ثار وثار ، رجوعاً إلى الدماء والولوغ فيها ، رجوعاً إلى ألف فتنة وفتنة ، وألف قبيلة وقبيلة ، وعشرة آلاف حزازة من حزازات الصدور العفنة بجهلها وأوهامها ، رجوعاً إلى قبائل مفككة تربطها حبال الاطناب ولا تقيها من حرارة الشمس ومن عنعناتها المحروقة بأكبادها .

أما الرسالة التي حزمت أمرها ، وبثت بثها الشافي ، فانها بقيت تنتظر المجتمع السليم الواعي - أما أمنية الرسول التي عصي بها الأمر ، فأنها بقيت مجمّدة للتنفيذ : بأن المجتمع الذي لم يتثقف بعد بمحتوى الرسالة ، فان المبايعات تبقى أبداً تأكل مجاهيده إلى أن يضنيه الكلل ، فيرمي بكل قبلية فيه إلى النار التي لا تأكل إلاّ ضلوع ابليس - ولا ينفخ في نار جهنم إلاّ الذين يعيشون على الطائفية القبلية المذهبية ، والرجعية الحزبية ، وكلها تقتات بها زعامات ضيقة تنتفع أبداً بالتخلف - أما المجتمع الصحيح ، فهو الذي ينبذها مدركاً أن المجتمع الراقي هو المجتمع الموحد بكل ما فيه ، وبكل ما له ومنه ، وبكل اشارة تشهد له بصدق انسانه في الحياة .

- ٣ -

منذ نال الصمت شفة الرسول الكريم فامتنع عنها البث والتلميح ،

أصابته موجة الجفاء . فان كانت له الأمنية بأن يكون الامام علي خليفته ، فان تعيين سواه كان استنجاداً بالقبلية حتى تعود . . . إن رفض القبول بجمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، كان - ضمناً - استدعاء ملحاً للقبلية أن تعود فتثبت مركزها العنيد . كل ردة هي مركز ثابت للقبلية . ان تعيين أو انتخاب شخص آخر للخلافة هو - بحكم الطبع - من بيت آخر ، أو بالتأكيد ، من القبيلة الأخرى التي ليس منها شخص النبوة . الا تكون هكذا المبايعة لشخص ، فتوصله إلى كرسي الزغامة ؟ لقد كانت كراسي الزعامة كثيرة العدد في عهود الجزيرة - أما مقعد الخلافة ، خلافة النبي ، فهو الآن جديد وواحد لجميع القبائل ، ولكل أهل الجزيرة ، ولكل سكانها المقيمين ، والمتفرعين منها بالتمدد التاريخي والحاصل أبداً إلى كل جوار - لذلك فان المبايعة التي تحصر المركز بشخص واحد هي بالغة الخطر بعدم التأكد من الحصول بالاجماع على شخص واحد مؤهل للقيادة - فاذا حصل الآن اتفاق في اجتماع السقيفة ، فليس يعني أن اجتماعات الغد الآتي سيكون لها ذات النصيب - فالقبائل التي سيستنجد بها بنو أمية ، ستكون سقيفتها من طراز غير الطراز الذي بنيت به سقيفة بني ساعدة ، وستكون السقيفة الأخرى التي سيجتمع بها طلحة أو الزبير ، أوسع مربضاً للجمال التي ستحضرها عائشة أم المؤمنين ، لخوض المعارك الجانبية في الكوفة والبصرة .

تلك هي شؤون وشجون ، سيلتجىء إليها خط المبايعات ، من حيث ينشأ الهرج والمرج ، وتتصارع القبائل مجدولة حول زعمائها النازلين إلى الساحة ، ليكون لكل واحد منهم خليفة بعدم التراضي ، وبعدم القبول والرضوخ لزعامة أخرى ، وستصبح الخلافة اثنتين ، وثلاثاً ، أو ربما عشرين أو أكثر . . . ألم يكن لكل قبيلة زعيم يديرها ويرعاها في الملمات ! ها هي الخلافة ، بعد ثلاث جولات ، أصبحت خلافتين : واحدة في الكوفة تجمع العراق على خط معيّن ، وأخرى هي الآن تبسط نفوذها على ربى الشام . أما غد الشام فمرتبط بخيط فاصل بين المضريين والحميريين ، إذا ينقطع فيا لَحَظِّ الشام منه منفرطاً إلى إنقسام ! أما المدينة ومكة في أرض الحجاز ، فان خطوط القبائل

فيهما بانتظار ساعاتٍ حتى تعود إلى النبض وقرع الطبول .

أتكون الرسالة التي اجترحت الأعجوبة المعجزة ، وجمعت الأمّة من كل حواشيها المنظورة وغير المنظورة إلى وحدة رائعة المصير ورائعة التعبير، تقف الآن حائرة على المفرق الملتاع ، تضع نفسها على المفرق المعوج ، وتعمل على بسط ذاتها في وسط الساحة ، وتقدم ذاتها مصدراً صالحاً يغرف منه الجميع ثقافة معينة تصطلح بها النفوس ، وتطيب من اخطائها ، وتعدل خطواتها في السير الموصل إلى حقيقة جمع الأمة جمعاً موحداً يمكنها من قوتها المنتجة ، ويبعد عنها خطر الانزلاق ؟

- ٤ -

كان الزعيم الإنصاري قيس بن سعد أوّل المبايعين للامام الحسن :

- أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين .

وكان جواب الامام كثير الاختصار وبليغ الدلالة :

- على كتاب الله وسنة نبيه - فانهما يأتيان على كل شرط .

وكانت البيعة من الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل العراق ، والمدائن ، وأهل فارس ، وجاءته البيعة من الحجاز، ومن اليمانيين ، ولم تبايع عائشة أم المؤمنين ، ولا بنو أزد ، ولا بنو ضبّة ، ولا بنو أمية ، ولا أحد من أهل الشام المسحورين الآن بامجاد معاوية . .

من هم الطارحون بيعة ، ومن هم الحاجزونها ؟ وهل هي بيعة الخلافة ؟ أم هي بيعة لأخذ ثأر ! فان كانت لخلافة - فأين هو المخلوف منها ؟ وأين هو كتابه من الذين يقرأون ؟ وأين هي سنته من الذين هم المؤتمون ؟ متى خضعوا خاشعين فاهمين ؟ ومتى آمنوا مكبرين معظمين ؟ وأين كانوا يتلهون منذ ثلاثة عقود ؟ واذا كانت لأخذ ثأر - فيا لتعس الأمّة من المثأور له ومن المثأور منه - يا ويل أم القرى ، ويا ويل يثرب ! يا ويل اليمن ويا ويل الحجاز ! يا ويل الجزيرة

الأم ، تتعب الحقب والدهور في تنشئة ابنائها ، وأحفادها ، وكل أجيالها المندثرة ، وأجيالها الطالعة والفخورة الآن بكتابها الجديد الذي هو لها في الصف الأول من الكتب السماوية - يا ويلها تعود إلى قراءة عتمات لياليها المصبوغات بثارات بني كلب على بني قيس ! يا ويل البصرة ، ويا ويل الكوفة ، ويا ويل العراق - عراق دجلة وعراق الفرات - عراق الخصب وعراق السواد - يا ويلها من الوافدين إليها على أمل أن يشاركوا فيها بعمارة الأرض ، ورص العمران في حضارات زهت بها - في القديم - سهول ما بين النهرين ، وتوزعت على العالم نوراً وهدايات - يا ويلها من الوافدين الجدد يمدونها بنعمة الله في كتاب ، وبسنته في دستور يطبع المجتمع بالحق ، ويفتح له اقنية لا تضيع بها الدنيا في معالجاتها سبل الحياة - يا ويل العراق - بدلاً من أن تترسخ لها الديمومة في الاستقرار والتنعم في انفتاح الأمّة على جميع الأقطار في معاطاة كريمة البذل وكريمة الإنفتاح ، واذا هي تقع في خلاف على خلافة ، تفسخ دجلة عن الفرات ، وتوسع البادية على يباسها وقحلها ، لتكون حاجزاً عريضاً بين أرض الرافدين وغوطة الشام ! ما كانت العراق أرضاً يتزاحم عليها المبايعون بالخلافة : عشرات القبائل من هنا لطلحة ، وعشرات القبائل من هناك للزبير ، وفئات من هنا وهناك ، يناموت على ضيم يطالبون بالامام علي ويساندونه ، وفئات من هناك يجمعون الشام وخيراتها لتأليف جيش ضخم زاحف ليقطع الخلافة عن الجميع ليجمعها في عب رجل اسمه معاوية !

في هذه الليلة ، والامام علي مغف غفوة طويلة الصمت على نصلة سيف أوصلها إلى أحشائه ابن ملجم - كان الامام الحسن يستعد لأخذ مبايعة له تجعله خليفة على المسلمين وحتى يقوض خلافة ثانية يمهد لها عريضاً في الشام ، معاوية بن أبي سفيان .

أي كرسي هو الحكم !؟

- ١ -

لقد أصبح الكلام الآن كثير التوجيه اليك أيّها الامام - لست أدري ان كنت أنا الذي يطرح السؤال عن المعنى المخبأ في كرسي الحكم ، أم انك أنت بالذات توحي إلي البحث في ماهية الحكم ، ومن أي خشب تصنع قوائم الكرسي الذي يجلس عليه شخص الحاكم ، ولكني أرى ، وأسانيد التاريخ تنقل إلي - انك لم تحكم - بضعة أشهر فقط ، وتنازلت عن الحكم لمصلحة ألدِّ عدوٍّ تاريخي لك ، عمل على صقل مئة خنجر صبّها كلها في صدر الامام أبيك ، وطبخ لك قدوراً من السم ، ما ونى يبخها في كل جو تتنفس فيه رئتاك ، حتى أرداك أخيراً مسموماً في زاوية بيت لك في مدينة يثرب ! ونام قريراً تحت قبة قصره الأخضر في الشام ، مثبتاً لإصلابه من بعده - كرسي ملك ، خشبه من الأبنوس المطعم بالماس ، والذهب ، وكل أنواع الحجارة الكريمة . . . يا للصولجان الذي يزهو بغلال الأرض ، ودرها ، مجبولة باعراق الناس ، وبكل جهد ينتجه العقل ، والعلم ، وزنود العمل ! وكلها تتحول إلى ألوان يصطبغ بها هذا الصولجان - صولجان الحاكم - تمييزاً له بالعنفوان المقتدر على صياغة كل شيء له ، في إبراز مجده ، وتلذذه في إشباع شهواته والتنعم بها وسيعاً في الدنيا ، كأن الدنيا وما فيها من تراب وشمس وسحاب - انما هي له مبذولة تحت قدميه ، لا يجمعها إلّا بكراً له في التمتع الشهي الذي يبتكر ، في كل لحظة ، لذاذة جديدة لا تريد أن تشبع ، ولا تريد أن ترتوي ، ولا تريد أن تنطفي .

هذا هو نقل التاريخ عنك - كأن التاريخ آلة فقط تأخذ ما يقع تحت عدستها ، دون أن تقلبها من ظاهر إلى باطن ، ومن باطن إلى باطن آخر ، ربما تختفي فيه لؤلؤة لم تحلم أن ترى مثلها عدسة العين .

هذا هو شأنك مع التاريخ ، ومع المؤرخين الذين لم يروا ، أو لم يريدوا إلّا هكذا أن يروا ، مع أن التاريخ - في حقيقته العظيمة - هو أن لا يكون فقط

مجذفاً بسيطاً على ظهر خشبة ، بل أن يكون أيضاً غواصاً إلى القاع ، وإلاّ فحرام أن يركب سفينة ويتسلم خشبة مجذاف .

فعلاً ـ أنت لم تحكم أيّها الإمام ـ لا معنى لحكم يطول بضعة أشهر ويذهب مع الريح ـ ان الحكم هو مراس ومران ـ انه علم واطلاع وفهم وروية ـ انه ـ أولاً ـ ادارة الذات وفهمها ، والغوص فيها ، حتى يصلح لأن يكون ادارة جيل من الناس . أما أن تحكم بضعة أشهر ثم تتنازل عن الحكم ، فان ذلك ، أيّها الامام ، كان مربوطاً عندك بقصد هو التمهيد للوصول إلى نوع من الحكم يكون هو الأقوى والأبعد والأثبت ، وهو المبني على نظرة صحيحة وجليلة ، لو أن التاريخ تلقط بهذه النظرة عنك ، لكان لنا الآن أن نحترم التاريخ الذي يتمكن من الرؤيا ، ومن تسجيل القرارات .

ولكن ـ بالحقيقة ـ أنت الذي تمرست طويلاً بالحكم أيّها الامام ـ لم تجلس إلى كرسي له قوائم وعوارض من خشب ، ولكنك توصلت وجلست فيه مملؤاً بمعانيه الجليلة ، مغموراً غمراً بكل الأحاسيس والمشاعر ، والمقاصد التي تغني النفس وتشحنها بنبل المرامي التي تخلق الانسان وتصون حدوده بالابعاد ، وهي التي تبقيه حيّاً في انسانية تتألف منها عبقرية المجتمعات الخالدة في مرابع الحياة ـ فليسمح لنا نتأكد من كل ذلك ، اذ نستعيد قراءتك من جديد ، فأنت عظيم أيّها الإمام ، وأنت جدير بكل درس ينشرك على الحقيقة التي لا نزال نترقبها تلمنا إلى دنيانا الصحيحة فيزهو بها مجتمعنا العظيم المبني للوصول إلى كل عظمة .

ـ ٢ ـ

أساساً ، أنت مدعو للحكم ، أنت إمام في ضمير جدّك قبل أن تولد ـ وبعد أن ولدت أصبحت قراراً في حزمة من الشوق المبارك ـ هنيئاً لأمك بك ، فأنت نسيج من خاصرتها الموصولة بخاصرة الحق ـ وهنيئاً لأبيك بخيوط الإرتباط ، تشده إلى جدّك بوجد لا ينسل له خيط ـ ولقد علمت أنت بذلك ـ أخبرتك أمّك ، وأخبرك أبوك أنّك أنت من البيت الذي هو ـ بحد ذاته ـ

قضيـة ، ولقد فهمت ملياً أنّـك أنت القضيـة ـ بـالحس الضمني فهمت ، ومن عطف العين والحضن واليدين فهمت ـ ومن التصرف الكبير الوسيع الحد والبليغ الإشـارة فهمت ـ وبـالتعيـين والتخصيص فهمت ، وأبلغ مـا فهمت ، عنـدمـا وَسُعَتْ عينـك ، وَرشُدَ لمحُـكَ وفهمك : ان الـذين كان عليهم أن يفهمـوا مـا أرادوا أن يفهموا ، وان الذين قصـدوا أن يسمعوا لم يـريدوا أن يسمعـوا ـ ولقد فهمت أيضاً لماذا لم يريدوا أن يفهموا ولماذا لم يريدوا أن يسمعوا .

لم تكن تعرف ، عندمـا اغمض جدّك جفنـه ، انك مـدعو لخـوض غمار العصر ، والكشف عن النـوايـا المخبـأة في الصـدور ، والاطـلاع بكنـه قضـايـا النفس، والوقوف على أسرار الوجود والعمل على اكتنـاهها، والتثقف بكـل ذلك حتى يتم لك التمكن من الوصول إلى تحمل المسؤوليـات الجسام التي تلقيهـا على منكبيـك اعبـاء الإمـامـة التي ادركت فعـلاً أنـك لهـا بـارادة التعيـين ، وارادة التخصيص ، وارادة النبوة . لقد كشفت كل ذلك باحتكاكك المتين بأبيـك الكبير الذي كان ملاذك ، وكان عملاقاً أمامك ، وكان حفّاراً في بنـائك ، وكـان قدوة أمام عينيك وأمام فكرك وأمام خيالك ، وكان كتابك ، وكان حرفاً كبيراً في كـل كلمة من قراءاتك ، وكان جلوتك المضيئة ، وكـان ارادتك الخفيـة ، وتصرفـك الذي لم يعلن بعد ، ثم انصهرت فيه فلم يكن لك عنه لمحة من انفصال .

لم يتناولك التاريخ بشيء من هذا الوصف وبهـذا التحديـد ، وبهذا الـربط الأصيـل ـ لأن التاريـخ لا يحاول كثيـراً شد حقـويه بـالمنطق ، ويـرضيـه السـرد الضئيل ، دون أن يستهويه النزول إلى عمق خلف كل تحليل وتعليل ، هل هي خلة عنـد التاريـخ ؟ أم هي كبوة في قلم المؤرخ ، أم أنها ـ في نيتـه النائمـة بـين ضلوعه ـ شرخ من شروخ النفس ، تلبس الغرض وتمشي به بلا مبالاة .

جـل ما في الأمـر أيّها الإمـام أنك لم تقـدر أن تلبس إلاّ قميصك المتصـل بـك ـ لم تكن تعرف في المبتـدأ أنـه قميصـك ـ أو أنـه قميص أبيـك حتى ينتقـل اليـك ، ولكنك أصبحت تعلم ذلـك مع تقـدم خطواتـك عـلى الـطريق . لقـد أخذت بحس أن أباك الإمام هو الأولى من أبي بكر ، ولكن أباك تمـرّس أمامـك

بـالصبر عـلى الحيف ، فبدأتْ تكبـر حروف الأمثـولة أمـام عينيك ـ ولـما انتقلت الخـلافة من جـديد ، وعـادت فعـلاً إلى عمـر بن الخـطاب الـذي هـو فـارسهـا المتلاعب بها في الساحة الخرساء ، قرأ عليك أبوك امثولة ثانية في تحمل الضيم ، كيف أنه يقرع النفوس ويجلوها إلى عمق ، وإلى كبر ، ورحت أنت ـ بعَيْن أوسع وبصَمت وتـأمـل ـ تلمـح كيف أن الـدروب تتغـير بهـا الخـطوات إلى انتقـال في السير ، تمّحي به المعالم ، وتتحول الأهداف إلى منطلقات أخرى تتشوه معها كل المقاصد .

عندما أصبـح عثمان بن عفـان في دست الحكم ، اصبحت لك العـين ، وهي المدغومة دائماً بعـين أبيك ـ تـرى بوضـوح أكثر ، كيف أن الحبـال الملعوب عليها هي للرقص ، أكثر مما هي لحقيقة الحكم ، وأن الحكم الـذي يجري تحت عدسة عينك ، هو تماماً على نقيض ما هو مرسوم في تصورك ، أو مهيأ في بالـك ـ وعندما رحت وأنت موجس خيفة مما تشاهد ، تسأل أباك الإمام توضيحاً يخفف عنك همّاً وشَجَنا ، اغمض عينيه عن عينيـك حتى لا تقرأ فيهـما ما يعييـك ! من هنـا أصبحت تدرك جسـامة الأحـداث ، وأن تنحية أبيـك عن الحكم ما كـانت بالأمر البسيط، ولا بالخاطر العابر ، انما هي بالقصد المدروس ، والاخراج الذي اشتغـل بـه العقـل والفن ـ ان الفتـرة التي مـرّت عـلى حكم عثمـان ، لم تبعـده ـ بالموت ـ عن الساحة إلاّ بعد أن وسعت الساحة وصيرتها ميداناً لبني أمية .

في هذه الفترة بالذات ، وقد غيب الموت ابن عفان ، وقد امتـلأت الشام بمعاوية بن أبي سفيـان ـ أصبح أبـوك بالـذات يفتش عنك ، حتى يغـرز عينيه في عينيـك ، يستجلي فيهـما رأيك الغني في مـراقبة الأحـداث ، وما هي ردة الفعـل لديك ـ أما أنت فصرت بـدورك تغمض عينيك عن عينيـه ، حتى لا يرى فيهـما أثـراً لأي صدمـة خلفتها في النفس سلسلة من الخيبـات . . . لكن الإمـام أبـاك الذي قرأ في تأملك الهادي عزماً للروح فيـك ، ليس هو إلاّ متـين الحَبك ومتـين الخيال ، قَبلَ أن ينزل إلى ساحة الجهاد ، عساه يتمكن ـ بالمحاولة ـ أن يرد ضيماً عن بني طالب يعرضهم لتهديدٍ خطرٍ جسيـم ـ وعساه يعيد للحكم هيبةً تقيه من

وطأة الدنيا وفورانها ، وعساه يرد إلى الدنيا ما يطيب الذوق فيها وينقيه من الأملاح ـــ ولكن ابن ملجم كان في المرصاد .

ـ ٣ ـ

لست أدري لماذا يكون على الأديب ـ مثلاً ـ ان يفسّر الأحداث ، وليس على التاريخ أن يفعل ذلك ؟ اتكون مهمة التاريخ في التلميح الضئيل ، دونَ أن تكون له قيمة في التحليل والتعليل ؟

لقد ذكر التاريخ ـ بكل بساطة أيّها الامام ـ أنك تناولت الحكم لبضعة أشهر ، ثم غسلت يديك منه ـ هكذا ـ كأنك تغسلها من قطعة حلوى كنت تأكلها وانتهيت ، كأنك لست من الحكم بشيء ولست له بأي شيء .

ولقد ذكر التاريخ أيضاً أن وصولك إلى الحكم كان بعد مبايعة رصت اليك الصفوف ، فما كان منك إلاّ أن اهملت مبايعيك وتركتهم وحدهم في طرف الميدان ، ورحت تتصرف على هواك .

أي معنى لك أيها الإمام اذا كان مثل هذا هكذا قد حصل ؟ ولماذا أنا اليوم ـ بعد أربعة عشر جيلاً ـ أقف واحداً في الصف الطويل من المحبين لك والمتهيبين ! إني أرى أن خفة السرد في التاريخ منقصة في حق الذات الانسانية الشريفة ، وتقليل وتخفيف من قيمة الرجال الأفذاذ الذين يجاهدون في نحت حجارة الأساس ، لبناء مجتمعاتهم الانسانية العظيمة ، والإمام الحسن هو واحد من بين هؤلاء النادرين الذين عملوا بعقل وصمت ـ وصمتهم العظيم هو الذي يفسح لهم الآن بالشهادة .

انك في الظاهر أيّها الإمام ، وجهت الحكم لبضعة أشهر ، وتنازلت فعلاً عن الحكم لمصالحة معاوية بن أبي سفيان ، وليس مطلقاً لمصلحته بالذات . أما الحقيقة التي هي أساس في تكوينك الذاتي الموجه ، فأنت للحكم الطويل المرسوم والمعين ، أي : أنت إمام «قمت أم قعدت» لم تسندك السياسة ، سياسة البيئة ، أو سياسة العصر ، حتى تقوم إلى مهمتك الجليلة ، فقعدت عنها ،

مغلول الارادة ، دون أن تغفلها حقاً من حقوقك ، أو لزوماً في ضميرك ووجدانك . لهذا كان تمرّسك في الحكم تمرّساً ضمنياً متكاملاً في ذاته ، ومتكاملاً في تحمل مسؤولياته تجاه الأمّة التي أنت بالذات منتدب للاهتمام بكل شؤونها . من هنا كانت رقابتك على كل الأحداث الموصولة بكرسي الخلافة، رقابة مسؤولة ومحتكّة ، تجمع منها مادة الحكم الصحيح المنزّه والمعصوم عن الخلل والزلل . لقد كان أبوك ذاته في الحكم ـ أكان قائماً فيه أم كان عنه منحّى ـ إنّه أنت في ذاتك الصحيحة ، وأنه اكتمالك في التحامك فيه ، وفي انتدابه عليك حتى تظهر بك الولاية . من هنا بالتمام ، أنك عشت العصر ورافقته حتى انتهى بابيك إلى مأساة !!!

وبالحقيقة أيضاً أن العصر الذي انتهى بموت أبيك لم ينته بك أو اليك ، بل توّقف عندك ، حتى تكون له بداية أخرى ، لم يكتب لها بعد أن ترسخ عهودها، وعند ذاك ـ بالتأكيد ـ سيكون لنا أن نقول : أنت الركيزة الصحيحة في بناء المجتمع الصحيح ، في نظرة إمامية تفي ذاتها حتى تعيش في المجتمع الكبير الذي هو وحده قيمة الإنسان ، ومجد الانسان وروعة الانسان . أما توضيح ذلك ، فله دوره بعد حين .

نعود إلى التاريخ ، ومحاسبة التاريخ على قوله أنك وصلت إلى الحكم بواسطة المبايعة . اجل ـ ولكنك لست أساساً لتقبل بمبايعات من هذا النوع ، فأنت ـ في صياغتك الكبيرة ، وفي حلم جدك العظيم ، وفي كينونة أبيك المنحّى منذ البداية عن الحكم ـ لا تقر بمبايعة تجرّدك عن إمامة ، وتنحدر بك إلى مساندات جانبية تستنجد بها حتى تفسخ الكوفة عن البصرة ، ودجلة عن الفرات وما بين النهرين عن مفارش الغوطة ، واليمن عن الحجاز ، ومكة عن مدينة يثرب ـ فليكن قبولك بالحكم ـ وفي مثل هذا الظرف العصيب بالذات ـ توسيعاً لفسحة من الوقت ، تلملم فيها نفسك إلى جمع ارادتك وقدراتك ، وسيكون لك قرار متخذ من صلب القضية ـ قضية جدّك في رسالته العظيمة ، وقضية أبيك الساقط جديداً ومتعباً فوق أرض الميدان ـ يثبت أنك بمستوى صناعة القرار .

- ٤ -

أيّها السيّد ، أيّها الامام ـ وليسمح لي التاريخ أن أقول : أيّها العظيم .

إني أقر الآن أمامك ، وأمام حقيقتي فيك ، وأمام الواقع الرائع الذي نبتَّ أنت منه ـ اني لم ادرك أنك عظيم إلاّ في الفترة الصغيرة التي وصفت بأنها بضعة أشهر ضئيلة جلست فيها إلى كرسي الحكم ، وما انسحبت منه إلاّ وفي حوزتك القرار ـ كأنه قصبة السبق التي ينتزعها إلى يمينه الفارس السبّاق من طرف الميدان .

هنالك بطولتان حققتهما مترابطتين في المعنى وفي المغزى : الأولى هي تنازلك عن حكم يتسابق عليه كل طامع طامح ولا يتخلّى عنه ، ولو كلفه ذلك بتر الوريدين ـ ايه لعمري ، كم يبذل الطامحون الطامعون في سبيل كرسي لا ليعدلوا به بين الناس ، بل ليستذلوهم به إلى أبعد من الخضوع والرضوخ والسجود ـ انهم السادة ، لا العادلون الصائنون حدود العباد ، بل انهم المستغلونهم ، والمستعبدونهم والجاعلونهم مطايا إلى امجاد لهم ، هي ثروتهم في الدنيا ، وهي أوهامهم الطائشة الغاشمة ، وهي عقلهم في كل شهوة زائفة عن حقيقة الحكم ، وحقيقة العدل ، وحقيقة الأساس . والثانية اتخاذك القرار النابع من معاناتك الكبيرة ، والذي هو تعبير عن فهم حقيقة المجتمع الإنساني ، وعن فهم تركيبته المادية ـ النفسية ، وعن كيفية تقديم المعالجات الأساسية في فك معضلات ترافقه دائماً في حلبات الصراع ، وتؤدي به من معركة إلى معركة يستفيد منها عقله في عملية التمرّس والتقويم والمرور بالخطأ الذي يتحول إلى زاجرٍ موصلٍ إلى صواب أو إلى نوع من صواب .

بطولتان ـ اذا ـ تفرعت الثانية من الأولى ، أو فلنقل : تضافرتا مندمجتين في بناء الشخصية المثالية التي هي أنت أيّها الامام . فلندرسهما منفصلتين قبل أن نجمعهما في عملية التكوين الرائعة التي منها بنيت ذاتك .

أليس من حقنا أن نسأل : لماذا تنازلت عن الحكم ؟ ولكن ، فليكن لنا مثل هذا التمهيد: أنت موعود بالحكم، أوبالتالي، أنت مدعو إليه

بواسطة أبيك على الأقل ـ ومنذ خمس وعشرين سنة ، وصراع حاد قائم على الأرض ، ليحول دون وصول أي واحد من بني طالب إلى الحكم ـ انه صراع قبلي تاريخي منذ الأساس بين بني هاشم ، من طرف ، وبني أمية من طرف آخر ، ولكنه تميز بهذا العنف ، وبهذا الشكل العنيد الذي لا يقبل بأية مهادنة ، بعد ظهورالنبيّ من الطالبيين ، واكتسابهم مقاماً يرجحهم شهرة واحتراماً بين جميع قبائل العرب ويبؤهم مركزاً سياسياً قوي الزعامة ، وبليغ النفوذ !!! ان الوقوف ـ إذاً ـ بوجه مثل هذه الزعامة الملتهبة بنور النبوة، لضرورة لا يجوز تركها إلى الغد ، وإلاّ يستفحل أمرها وتتقهقر أمامها كل الزعامات . من هنا كان السباق إلى اجتماع السقيفة تنفيذاً مدروساً ، ومهيأ ، ومسحوباً من ضلوع القبلية التي ساندتها زعامة ابن الخطاب .

لقد أصبح الطالبيون في أميز كفة سيرجح بها مركز السيادة ، أو مركز الخلافة بعد موت النبيّ . إن المركز الأوّل ـ كما يبدو ، وكما تشير الملامح ، ونية النبيّ ، وارادته المرجّحة كل كفة في الميزان ـ هو من نصيب البيت وأهل البيت . والبيت كله الآن ، يختصره عليّ ، ويمثله عليّ ، ولا يستحق البروز فيه أحد مثل عليّ ـ اشارات بليغة في التوجيه تناثرت من النبيّ على عليّ زوج فاطمة بنت الرسول ، تبتدىء بها ، وتنتهي اليها أمومة تنقل الإرث وتحصره في ولديها الحسن والحسين اللذين ضمّهما جدهما اليه وحصر إرثه بهما ، وسماهما «إمامين قاما أم قعدا» وسيدين من أسياد الجنّة ، ومشمولين بطهارة مميّزة هي ـ فقط ـ مخصصة بأهل البيت .

تلك هي دلائل وجف لها ومنها ـ بنوع عام ـ زعماء القبائل التقليديون ، وبنوع خاص ـ لم يخف غرضه ولم يقل الذعر من حصوله وحدوثه ـ الأمويون . ان السفيانيين ، بوسع الإشارة ، وبلاغة التأكيد هم الخائفون والمذعورون ، وهم العازمون على أي بذل ، حتى لا يكون الدينُ والدنيا في يد الطالبيين في آن معاً . ستكون المعركة ، ما بين الطرفين ، لازمة لاجبة ، وهائجة كاسرة ، ليس لها ذمّة لمهادنة ، فالنصر في الساحة لبني أمية ، لا يعني مهادنة ، بل قضاء مبرماً على عدو قديم ، حتى لا تقوم له أبداً قائمة .

هذا هو واقع القبلية الذي عاد من وأده إلى البروز ، بعد أن اغمض عينيه صاحب الرسالة عن متابعة الرعاية ، ومتابعة التركيز . لقد فوجىء علي بتصرّف عمر بن الخطاب ، ولم يتأخّر كثيراً عن ادراك القصد ، ولكنّه لم يأخذ الأمور بكل ابعادها ـ رويداً رويداً راحت تتوضح لديه الأخطار ، لقد كان وصول الخلافة إلى عثمان بن عفان نذيراً بحلول خطر محدق ببني طالب ، وكان استعداد الرجل تهديداً مباشراً بجعل بني أمية أسياد الساحة . وعداوة الأمويين لا ترحم طالبياً هاشمياً . إن علياً يعرف ذلك ، ويعرف أن تصرف النبيّ بعفوه عنهم عند دخوله مكة منتصراً ، كان انذاك محاولة في جمع الكلمة ، والتخفيف من نزف الجراح حتى تكون الأمّة المجموعة سيّدة متعالية فوق كل الخصومات ، وناسية أحزانها المتولدة من كل غباوة تلفلفها بها قبلياتها الذميمة . ولكن الرسالة ـ على ما يبدو ـ لم تبلغ شأوها في النجاح ، ربما لأن موت النبيّ كان أسرع وأسبق من حدوث التأثير وجعله أبلغ في النفوس ، وربما لأنه كان يلزم بني أميّة جيل آخر من التثقف والتمرّس ، حتى تمحى من نفوسهم نواياهم العتيقة التي تربو بالحقد ، دون أن تدرك ما هو التسامح ، ودون أن تعرف كيف يجب أن يكون تهذيب الدنيا بما يجعلها شريفة محبوبة لا عشيقة مجذوبة إلى فراش من فجور .

كل الذي تحسَّب له الامام عليّ ، وتخوَّف منه ، جعله يقبل بتسلم الحكم ، بعد سقوط عثمان تحت حوافر الثورة ـ لقد كان القبول بالحكم محاولة ركبها الإمام وهو كاره لها ـ انها محاولة اصلاح الخط ، ولكن بعد كثير من فوات الأوان . وما العمل ؟ فان معاوية الذي جمع الشام ، وخيرات الشام ، وكل السيوف والخناجر المدقوقة في أرض الشام ـ انما هو الآن يوجهها إلى صدره ، وفيها القضاء عليه وعلى كل بني طالب . لقد أصبح كل ذلك حاضراً ، ليس فقط في باله ، بل أيضاً مجسّماً أمام عينيه ـ أما المؤلم الذي كان يضنيه وهو يخوض غمار حرب أهلية ـ فهو شعوره بأنه ـ ولو انتصر ـ سيكون المهزوم الأكبر ! ان المهزومين الذين يصلون ـ بهزيمتهم ـ إلى طرف الميدان ، لا يحق لهم أن يتناولوا بيدهم قصبة السبق الذي هو ـ فقط ـ للسبّاق الأول ، للفارس الأصيل .

يا حظاً بائساً ينال ابن أبي طالب ! لقد فاتته الجولة الأولى في الساحة التي كانت له ممتازة في يومه البكر ، فاذا هي لأبي بكر تقدمه اليها رئاسة السن ، وهي رئاسة هرمة لناقة تسمى «الوصيلة» عند العرب في قاموس عمر بن لحي ، وكانت الجولة الثانية لعمرو بن الخطاب ، يؤسس فيها للقبائل ألف طنب ، وألف خيمة بلا ظل ! وكانت الجولة الثالثة لابن عفان ـ ذلك الذي ما همه أن يركب كرسي الخلافة إلّا ليتمكن من صنع نول ما حاك عليه إلّا قميصاً يستر به صدر معاوية في الشام .

أية هزيمة وصلت الآن لعليّ الذي انسحب من الجزيرة ليكون له سند في الكوفة والبصرة ، لينطلق منهما إلى مقابلة معاوية في صفين على حدود الشام ، ولكي يتلهى بمقاتلة جمل تعتليه عائشة في هودج مشقوق تنفث من خلف سجفه حقداً ، ولا تتقبل منه دخول نسمة من حب وسلام ، ثم ليغرق بمعركة النهروان كأنه جاء ليطعم فيها كل ابليس من أبالسة الكون ، مما هو مفتوت على موائد الشيطان !

بئست الهزيمة التي وصلت مجمعة إليه بعد خمس وعشرين سنة ، وصلت إليه وهو في طرف الميدان ، يحصد ما زرع له ابن الخطاب في حضن ابن عفان ، من حقد ومن زيغ تحصن بها كلها معاوية بن أبي سفيان ، فاذا الدنيا ـ بين يديه ـ حصن له بناه منذ ربع قرن : قصوراً ، وجيوشاً ، وأموالاً ، ودروعاً ، وسيوفاً يهاجم بها صدور الطالبيين ، وصدور كل المسلمين الذين هم في المقلب الثاني خلف صفين .

لست أظن أنه كان مقدراً لابن أبي طالب أيُّ نجاح بعد خمس وعشرين سنة مقهورة وبعيدة عن محورها الأصيل ، أن النجاح العسكري ـ بحد ذاته ـ كان هزيمة بحق المسلمين المتناحرين بحروب أهلية ما استنزفت إلّا دماءهم ، وما أهدرت إلّا قواهم ، وما شحنت إلّا صدورهم بالحقد والضغائن !! أية محاولة مقهورة وبائسة أصاب منها الإمام عليّ ، وهو كما قلت ، معرّىً في طرف الميدان ! اللّهم ، اذا اعددنا له النصر الصحيح ، فلكونه قد وضع حجارة

الاساس في توجيه الحكم النظيف العادل لبناء أية دولة في أي عهد ، بناء مثبتاً على الحقيقة التي لا يقوم إلّا بها مجتمع الانسان . بعد انتصارك العظيم هذا أيّها الإمام ، فأية خسارة يمكن أن يوقعنا بها غدر ابن ملجم ؟

ـ ٥ ـ

أليست كلها ـ هذه الأسباب ـ في الكفّة الضاغطة عليك أيّها الإمام لتتنازل عن الحكم ! هكذا وجدت نفسك ـ بعد سقوط أبيك مضرّجاً بدمائه فوق الساحة التي امتصت كل عمره بالجهاد ـ وجهاً لوجه أمام المعركة التي يطلبك معاوية إلى مقارعتها وجعلها حدّاً فاصلاً بينك وبينه ـ أخذت من المبايعة التي أوصلتك إلى الحكم ، مهلة لك تمكنك من اتخاذ القرار .

منذ قبلت المبايعة ، لم تأخذها مشروطة كما جاءتك من قيس بن سعد إننا نتذكر ذلك :

ـ «أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ، وقتال المحلين» . وقبلتها مكيّفة بما تخبىء في نيتك وضميرك :

ـ «على كتاب الله وسنة نبيه ، فانهما يأتيان على كل شرط» .

أي أنك قبلت المبايعة بشرطيها الأساسيين ، ولا لزوم للزيادة التي لا يقررها إلّا رأيك واجتهادك . ان في إسلوب الرد ، وفي اللهجة التي ورد فيها ، مادةً غزيرة يجب أن تقرأ . من هنا يثبت الظن أنك نويت أن تجعل الحكم مجازاً شرعياً للوصول إلى مفاوضات تخدم غرضاً كبيراً مأخوذاً فيه قرارك الحاسم ، فأنت ـ كما يبدو ـ لم تَنْوأنْ تنزلَ إلى مساجلات في القتال ، ولو كنت تظاهرت باعداد الجيش ، وترتيب القيادات فيه ، وحفز الهمم . لقد كان كل ذلك من ضمن تدعيم موقفك حتى تتسنى لك المفاوضة المقصودة ، وكانت للمفاوضة المقصودة هذه ، كل الدلائل للوصول إلى غرض السلم ، لا إلى تسعير القتال ، ولم يكن ثمن السلم ـ في ذلك الحين وذلك الوضع الدقيق الذي كنت فيه ـ أقل من تنازل عن الحكم ، في الوقت الذي ما كان النزول فيه إلى الحرب ـ بالمقابل ـ

أقل من استدعاء نصف الأمة نزولاً إلى الساحات .

أردت السلم ولم ترد الحرب ـ لا استرضاء ، وجبناً ، وخوراً ، وخمولاً ، كما أراد أن يرشقك المتهمون ـ بل تحقيقاً لمبدأ أنت وحدك توصلت إلى إدراكه ورسمه في مجال التحقيق والتطبيق . لقد كان من حقك أن تلم بالاوضاع ، من ضمن ما هو منوط بك الالمام به ـ فالامامة هي فرض عليك بالاحاطة والاحتواء ، وان الاتزان والبعد في النظر ، هما من الاتصافات الثابتة للامامة التي هي الآن ترخي عليك ثقلاً في المسؤولية الجسيمة تجاه أمة للمها جدّك العظيم إلى تثبيت وجود أضحى مربوطاً بالقيمة والوزن .

في هذه اللحظة بالذات ـ والمسؤولية اجتمعت مربوطة في عنقك ـ رأيت أنك مدعو بالحاح إلى حقيقة الغوص ، وحقيقة الفهم ، وحقيقة اتخاذ القرار . لست أقول انك الآن فقط أدركت ، ولكنك الآن أصبحت مسؤولاً لأوّل مرّة ـ مسؤولية مباشرة جعلت لك من الإدراك كثافة لم تجن مثل قيمتها بعد ـ لقد فهمت الآن جدّك الرسول في كل مقاصده ومراميه ـ أدركت لماذا أفنى العمر في سبيل قضية تساوي وجوده ـ أدركت أن الأمّة العظيمة هي كل قضيته ، فصرف عليها كل الإهتمام ، وكل الجهد ، وكل تعليق المصير ، حتى يتمكن من أن يباهي بها جميع أمم الأرض . لقد فتش لها عن كل ركن يثبّتها في ساحة الحق ـ محضها بالقرآن العظيم حتى تعيش أبية إلى مجد وابداع ـ عززها بالتوحيد ، بكل معانيه الفكرية ـ الروحية ـ المادية على السواء ، حتى تكون منيعة بالروح لا تضيع عن سبل الحق ، وشبعانة من حبك السواعد التي هي معاول الله في استدرار الخير من تلاحم التراب .

ما قلل جدّك النبيّ من أيلاء الأمّة العظيمة قيمتها الفاعلة ، والتي هي تفاعل الانسان مع أرضه ، ولقد عينّ هذه الأرض التي اكتشفها وجود هذا الانسان ، وَحَصرَ تفاعله فيها ، وتفاعُلُه فيها أقدم من التاريخ ، وأعمق من الزمان المكشوف ، لهذا أشار ودل إلى هذه الأمّة العظيمة التي صاغ منها عظمته ، ولذا بالضبط حضرها لأن تكون ركيزة انفتاح على العالم بواسطة رسالة

لها ميزاتها الإنسانية العالمية ، في حضور مثـالي فيه كـل الحق والعدل والمسـاواة . ستكـون حبّة القمـح هي رغيفها من دون أن يكـون لمحتـال أن يـركب عتمـات الليل إلى بيادرها ـ انها سنة الشـرفاء والأحرار في الحياة ليس لهم أن يجنـوا إلاّ مما يملكون ـ إن الجمع والوحدة والتحرير ، هي كلها من اجل هـذه الأرض التي لا تفرقها الأقاليم إلاّ ليرصّها التنظيم ، والعيش الواحد المشترك ، إلى مصير واحـد يتحقق من أجل العظمة المنشودة . فلتكن الأرض عـدة أقاليم ، إلاّ ان انسـانية الاسـلام هي الملقط العظيم الـذي يلقطهـا بالحق ، وهـو وحـده ميـزان الضبط وميزان العظمة .

ذلك هو كتاب الله ، وتلك هي سنّة النبيّ ، من أجـل هذا الإنسـان حتى يكون عماد مجتمع لا يوصف بالعظمة إلاّ بالعمل العظيم ، وكان العمل العظيم في مبادرة بنائية ، أول ما أبعدت عنها قبلية الجزيرة الأم التي عاشت بها دهوراً ، ولم تحقق مجتمعاً ، بالمعنى الصحيح ، إلاّ عندما أتاها اللمح التـوحيدي ، فـردّها إلى زعامة واحدة ، لها كتاب واحد وازع ، وسنّة واحدة منظّمة ، فـاذا كانت هـذه هي مهمّـة الكتاب ، وهـذه هي غايـة السنة ، فـأي معنى يكـون لمجتمـع يحيـد عنهما ، وقد بنيـاه ، ولا يتلقّط بهما ، وقـد جمعاه ، وقـد حدداه ، وقـد وحّداه ، وقد عززاه ، وقد حرراه ، وقد رسماه للعظمة التي يطمح اليهـا مجد الإنسـان ، وفخر الإنسان ، وحقيقة وجود الإنسان ؟ !

وفي هذه اللحظة بالذات ، وقد أَدْرَكْتَ فيها تمام الادراك ، أهمية المجتمع الذي امتص كل اهتمام جدّك العظيم ـ ادركت أيضاً جـدية اهتمـامه البليـغ في عملية بناء الذين سيأخذون من بعده متابعة الجهد في السهر عـلى اتمام عمليـات بناء هذه الأمّـة حتى تبقى مستمرة في التـرقّي واثبات الـذات ، فهي أمّة النبيّ ، ولها التاريخ ، ولها اليوم الحاضر ، ولها الغد الأكبـر ، ولها الأسـاس في العروبـة الجامعة ، ولها الأرض الكريمة السخاء والتي لا يقـطع عنها المـدد ، ولها الـوحدة الفـاعلة ، وسيكـون لها نـظام اداري يخصص ذاته للعمـل الكبير في تـولي جميع شؤونها الحياتية .

لقـد أدركت أيّها الإمـام لماذا خصص جـدّك ارثه الـواسع في أهـل بيته ؛ وليس ارثه مالاً وقصوراً ورياشاً ، بل أمّة ورسالة ، لا لأنه بـلا عقب ، ولا لأنه متعصب بالتخصيص لأهل عشيرته . . . ان الذي يبني الأمّة كلها على جهـده ، لا يعتبر بلا عقب ، وان الذي وحّد العشائر كلهـا ، وحزمهـا بحبل واحـد ، لا يتعصّب لشخص واحـد يـربـطه سلك ببني هـاشم ـ انمـا هي العصبيـة لـلأمّـة العظيمة في الاعداد النفسي المتين لمن يثق بـه انه هـو المختار الممتاز لاتمام العمـل الجبار ، لوصلة المجتمع الجبّار . من هنا كان الإمام علي هـو أبوك المـوثوق بـه ، وكنت أنت هو المتوسّم بك في قضية تناول الإرث إلى القيمومة الفاعلة في حقيقـة وجدية الإرتباط .

في هـذه اللحظة بـالذات ، اشـرقت عليك ونـوّرت كل الفكـر ، وبعمق ونبل أدركت :

- إن بناء الأمّة العظيمة هو مطلب لجوج ، لا محيد عنه ، يخلق الإنسان العـظيم الذي يعتز به وجود الانسان .
- أولاً وآخـراً ـ هو الإنسـان ـ يتلقّط به المجتمـع الإنساني ، وبـالتالي ، كـل أمة بمفردها ، ضمن حدود لها فوق صفحة الأرض ، تلبية لكرم الحياة ، وصيانـة لحقوقها الطبيعية المقدّسة ، في التشبث بالوجـود الذي هـو كلي ومـطلق في الله العزيز المثال .
- ان النبيَّ الكريم ، نبيّ الأمّة العربية بانتسابه اليها وبانتسابها إليه ، لم يقدّم لها كتاباً عربياً ناطق الحرف ، إلّا ليجعلها أمّة مفتوحة الذراعين عـلى العالم كله ، تحمـل رسـالـة جمع ، وتـوحيد ، وتحـرر ونور ، وهـداية ، وهي كلها رسـالـة الإسلام ، وهي كلها للأمّة في مركز الإحترام بجليل القدر والمنيع الجانب .
- إن المبادىء في مجتمعات الإنسان، هي التي تبقى ـ بعزة فاعليتها وصلاحها ـ لا الأفـراد الذين يقـررونها أو يزيـدون في تطويـرها ، أو يسهـرون عـلى تحقيقهـا وتطبيقها ، وتنفيذها ـ ثم يغيبون .

على هذا الأساس من الادراك المستنير، ركزت ما انتهيت إلى الإقتناع به،

وحصـرت هذا الاقتناع بأن الأمّـة وحـدهـا هي المقصـودة بكـل اهتمـام ، وان السيـاسة الحكيمة الفاعلة هي التي تكـون لها في التعهـد الرشيـد الهادف ، وأن المجتمع لا يحقق ذاته عن طريق حكم مبني على عصبيات قبلية ، كـما هو شأنه الآن .

لا يجوز اذا ـ وهذا هو الإقتناع ـ ان ينشق المجتمـع إلى جبهتين عـريضتين متصارعتين ، وهكذا فان الأمّـة إلى تدمـير ذاتها ، وتفتيت قـدراتها ، وهـدرها ، وتفكيك كياناتها إلى وحـدات متناحـرة ترجعهـا إلى قبلياتهـا التي ما ان اختفت ، حتى عادت إلى الظهور .

لقد حصل كـل ذلك تحت نـظرك طيلة النهار الـذي ثبت فيه أبـوك الإمام وجوده ، ولم يترك الأرض إلى الآخرة التي ارتضته شهيـد الصراع ، إلاّ والغصّـة في حلقه على أنـه لم يقدر أن يـرد الشام والعـراق إلى الوصلة الكبيـرة المنشودة ، وبذلك بقيت الأمـة منشقة تتعـارك وتتناحـر في الميدان الـذي ائتك منـه المبايعة لمتابعة قتال المحلّين .

أيّ حكم تسلّمت ، لا يقوم إلاّ على قتـال المحلّيـن ! وقتـال المحلّين يشل الأمّة ويفنيها ، يشل وحدتها ، ويشل عزمها على الثبات في الوجود .

بـامكانـك أيّها الإمـام أن تجمع كـل رصيدك عنـد القبائـل ، وتقاتـل بـه المحلّين ـ ان للقبائل ديدنا لم ينسوا بعد كيف يلبسونه نـزولاً إلى ساحـات الغبار ـ ولكن التنـادي هـذا إلى تسعـير القتـال لن يخفف من غلواء معـاويـة ، ومعـه عمـرو بن العاص ، والمغيـرة بن شعبة ، وزيـاد بن أبيـه الـذي انضم إلى أخيـه معاوية في عملية الإلتحاق . . . سيطول الصراع عـلى ذات النمط الذي ابتـدىء به مع أبيك الإمام ـ انـه صراع مخطط للوصول إليـه منذ أن تـرك الأرض جدّك الـذي أوصاك بـالأمّة والعمـل على صيـانتهـا وتخليصهـا من الـدمـار ! أي معنى للحكم يستمـر بالصـراع البائس الـذي لا يجني إلاّ الدمـار ! وأي معنى لحكم لم تـأت أنت لـه ، ولم تبن نفسـك للتحصن بـه ، وأي حكم يصلح وليس لـه إلاّ القبائل في الدعائم !

لقد ثبّت الآن أيّها الامام ـ في هذه اللحظة من التأمل الكبير ، أمام الواقع الكبير أيضاً ـ كل عزمك ، وكل ارادتك ، واتخذت القرار .

القـــرار

أيّها الإمام ،

إنها ليلة مررت بها حتى تباشير الصباح ـ كنت مستلقياً في فراشي لما أحسست كأني أعاني وطأة حلم يشبه الكابوس ، مع أني كنت أشعر أني أقلّب كتاباً بين يدي وهو يبحث ملياً فيك . . . ولكن كل شيء حولي راح إلى تحيّر وابهام : فأنا لست في فراشي ، انما أنا ـ هنا وهناك ـ في استحضارات ومشاهدات ليس فيها كثير من التوازن في الربط ، أو تسلسل في تنويع الأحداث . كنت أنت الذي تبدو دائماً أمامي ، مرّة في جبّة طويلة بيضاء تجللك حتى الأخمصين ، وأخرى في شبه غلالة كانت تعريك حتى العظم ـ أما الناس فكانوا ينبتون نبتاً أمامك ، كأنك كنت تستدعيهم استدعاء فيطلون من كل زاوية ، ومن خلف ما يشبه الستائر . لقد كان كل استحضار ـ بمفرده ـ يلفّني بشدةٍ يسمرني في مكاني ، دون أن ادري ، هل أنت تراني وستستدعيني لتطرح عليّ ومضة من عينيك ، أم أنك ستتركني متغلّفاً بحيرتي وسكوني ، إلى أن يأتي صباح يرشدني اليك . . . إلاّ أني لبثت واقفاً أراقب ما يحدث أمامي في المكان .

رأيت شخصاً يقترب منك وأنت تتنقل في صحن الدار . كان عريض المنكبين ومفتول الساعدين . حاول أن ينبهك إليه بتوجيه الكلام :

ـ حمداً لله أيّها السيّد ، يبدو أن الجرح في كتفك قد طاب . والتفت اليه بعد أن مررت كفّك بسرعة على عاتقك ـ لقد أخذته بعين عاطفة ، بينما كنت تمد يمناك إلى المصافحة .

الإمام : إني أتمنّى لو أفديك اذا وقعت بشدة مثلما فعلت معي يا عبدالله بن حنظل الطائي . اتراه كان شجاعاً مثل ابن ملجم ؟ هذا المدعو : الجراح بن سنان ـ يهوي بمغوله على

كتفي !! لقد وجدت نفسي مجبراً على معاقبة ابن ملجم ، فقطعت عنقه ، لأنه قتل بالسيف المسموم ابي . . . ولكني لن أنتقم من ابن سنان اتعرف يا عبدالله لماذا ؟

كنت أحضر اذني لمعرفة الجواب من عبدالله الطائي ، ولكني فوجئت ببروز الجراح بن سنان ـ لقد تقدم سريعاً من الزاوية ووقف يقول :

الجراح : أنا الذي أسأل أيها السيّد لماذا .

الإمام : لأن سيفك لم يكن مسموماً يا ابن سنان ، وبالتالي لأني شعرت ببطولة فيك لا تريدني اتنازل عن المطالبة بحقّي الذي يتجنّى عليه معاوية .

الجراح : ولماذا لا نقاتل معاوية ونسترد حقّنا منه ؟ لماذا نَسْحَبُ الجيش ونتراجع به من النخيلة إلى ساباط ، بدلاً من أن نسوقه إلى منبج حيث يعسكر عدوّنا معاوية ؟

الامام : لقد وجهنا ثلاث فرق من جيشنا المخيّم في النخيلة إلى منبج ، ولم يرجع أحد من فرق الجيش الينا . فانسحبنا إلى ساباط حتى نلملم جيشاً أصبح ضعيفاً ومهدداً بهزيمة .

الجراح : ماذا تقول أيّها السيد ؟!

الإمام : سل قائد الجيش عبيدالله بن العباس . لقد زحف بعشرة آلاف ولم يعد بعد ـ وسل القائد الكندي : أربعة آلاف ولم يرجع أحد منهم بعد ـ وسل قائد بني مرّة ، أربعة آلاف أيضاً ولم يعد أحد منهم بعد .

الجراح : وكيف ؟

الامام : سدده الجواب يا عبدالله بن حنظل .

ابن حنظل : لأن الكندي باع معاوية أربعة آلاف من قبيلته بني كندة باربعمئة ألف درهم ! ولأن الثاني باع من قبيلته بني مرّة

العـدد نفسـه وبـالصفقـة نفسهـا أيضـاً . أمـا عبيدالله بن العباس ، فلقاء عشرة آلاف رجل تناول ألف ألف درهم .

قال ابن حنظل هذا القول وعصب عينيه بكفّيه وانسحب ، فلحق بـه ابن سنان واختفيا خلف الستائر ـ بينما الامام قـد ساق قـدميه المثقلتـين بالتعب نحـو الزاوية الشرقية المطلّة من المكان الموجود الآن في ساباط عـلى المدائن حيث يشهق أيوان كسرى ـ ولكنه ما أزاح الستـار حتى فوجىء بحبر الأمّة عبـدالله بن عباس يعاتب أخاه عبيدالله على هذه الهفوة التي لا تغتفر فوقف الامام تجاهه يرمي عليـه رمياً نظراته المخنوقة برمش عينيه ، فتناوله ابن العباس بيديه وهو يقول :

لا تنظر إليّ هكذا ـ فأنا ما أقدمت على ما فعلت إلاّ بعـد أن شعرت أنّـك تحضّر رسلاً إلى معاوية لمفاوضته على الصلح ، عندئذ تصرّفت .

الامام : لا يـا ابن العم ـ ليس عليـك أن تتصـرف بـالصلح قبـل أن اتناوله أنا بما أمكن من التمهيد وتوفير الشروط التي تحفظ لنـا صيـانة الـرسالـة فهي التي نستوحي منهـا سلامتنـا وسـلامـة الأمّـة . لقد أخـطأت يا ابن العم ـ فـأنا المسؤول الأوّل كـما تعلم ، أنا وصيّة جدّي ، وأنا ارثـه في تعيين الحق ، وتعيـين النهج ، وتقبل الصـدمـات ، وتحمّلهـا ، والافـادة منهـا مـا أمكن . أتكـون أنت من عداد الـذين تصدوا لارادة النبيّ في تخليص الأمّـة من قبليـاتهـا ، ومن كـل فـوضى تنتـج عنهـا ! أتكـون أنت أيضـاً واحـداً من المـلاجمـة الـذين قتلوا أبي الامام ؟! ألا ترى أن كل واحد منهم كـان ابن ملجم ، قبل أن يولد ابن ملجم ؟! من أبي بكـر ـ إلى عمر ـ إلى عثمـان ـ إلى معاوية الذي هو رصيد الجميع !

ابن العباس : لا يا ابن العم ـ لا تظلمني بهذا المقدار فـأنا تصـرّفت بالنـوع ذاته الذي تصرّفت به أنت .

الامام : لم يكن من شيمـك إلا أن تتكلم بـالحق . لست أدري لمـاذا

انقلبت إلى غير ذاتك ؟ هل لك أن تتبعني خمس خطوات لتأخذ التوضيح ؟

يقول الامام ذلك وهو يشد به قليلاً إلى زاوية مجاورة ـ يزيح ستاراً عنها فتنكشف عن اثنين كأنهما يتحاوران والامام ليقول :

الامام : يا عمرو بن سلمة الهمداني .
ويا محمد بن الأشعث الكندي .
هل أنتما اطلعتما عبيدالله بن العباس ، قائد الجيش ، على المهمّة التي انتدبتما اليها إلى معاوية بن أبي سفيان ؟

الهمداني : اني احترمك يا سيّدي قائد الجيش ، ولكني أمرت ان أكتم عن أي انسان ما أنا أحمله إلى معاوية ـ فهل الامام يتهمني بقطع السر ؟

الكندي : وأنا كذلك يا سيدي ، فهل أكون متّهماً ؟

الامام : ولكنك يا ابن العم لم تلمح ما لمحت إلّا من معاوية بعد أن رأيت الرسولين عنده ـ أنه أخبرك بذلك حتى يدل بتبجحه عليّ ، وحتى يبالغ في تشوفه عليك ، أما حصولك منه على ألف ألف درهم فكان أعز لك أن تقبضها مني بعد أن أثبتها حقّاً من حقوقي في مال الفيء ، أصرفه على المسلمين الذين هم الآن في عهدتي .

ابن العباس : اتكون فعلاً قد أبرمت الصلح مع معاوية ؟

الامام : ولقد عرفت ذلك من معاوية بالتأكيد ، لأنه أرسل إليّ شروط الصلح مع رسولين غير هذين الماثلين أمامك يا ابن العم . انهما ينتظران في القاعة هذه المسدول عليها الستار ، حتى آخذ قراري ، وأدخل عليهما ، وأوقع على جميع البنود التي اقترحتها لقاء تنازلي عن الحكم ، وثمناً لبقاء الحكم في

حوزته ـ سأوقع أمامك هذه البنود كلها ، ثم أوجه الرسولين إلى الشام أمامك ، حتى يكون لي ما أردت لمصلحة هذه الأمّة التي لا أتنازل مطلقاً عن ايلائها حقّها بالاهتمام .

يقول الامام ذلك ويترك الزاوية هذه إلى الزاوية تلك ، ويرفع عنها الستار فاذا الجميع في قاعة مصدّرة بطاولة أمامها كرسي ، وعليها دواة ، ونسختان من اتفاقية الصلح ، وهنا وهناك مقاعد من خشب ، يجلس على مقعد منها رجل وأمّه ، هما عبدالله بن الحارث بن نوفل ، وأمّه وهي أخت معاوية بالذات ، وعلى مقعد آخر عبدالله الطائي والجراح بن سنان ، وعلى مقعد مواز عمرو الهمداني ومحمد الكندي . وما ان يدخل الإمام وابن العباس حتى يقف الجميع ، والإمام ليقول ، مشيراً إلى عبدالله وأمّه :

الامام : هذان هما رسولاي إلى معاوية يا أبن العم . يجلس الامام إلى المقعد ، ويجلس قبالته ابن العباس وحده إلى مقعد آخر موجود في القاعة ، يأخذ الامام النسختين ، وبعد أن يطوي واحدة منها ويضعها في عبّه ، وقبل أن يوّقع الثانية التي يعرضها الآن بيده يقول :

الامام : طويت إلى عبّي النسخة التي أصبحت لي ، وهي موقعة مسبقاً بخاتم معاوية ـ أما هذه فهي التي أوقّعها الآن تحت عينك يا ابن العباس ـ اني أوقّع واثبت قراري هذا واختصره عليك بثلاثة شروط أساسية :

أولاً : جعل الحسن ولي عهد معاوية .

ثانياً : لا يتعرض لأحد من شيعة أبيه ، والناس كلهم آمنون .

ثالثاً : وللحسن خراج دارابجرد من بلاد فارس .

لما ينتهي من قراءة هذه الشروط يلتفت صوب ابن العباس ويشير معلقاً على طول الاتفاقية الموجودة على عدة صفحات :

الامام : أما هذا كله المكتوب على هذه الصفحات ، فهو شرح لهذه البنود الثلاثة التي قرأتها عليك ، حتى تكون معللة ومفصلة دون أن يتلاعب بها فيما بعد أي اجتهاد أو أي تأويل .

يخيم على القاعة صمت وتأمل ، بينما كان الإمام يتناول القلم من الدواة الموجودة أمامه على الطاولة ، يغمسه في حبر الدواة ـ ثم يوقع به على نسخة الاتفاقية ، ثم يطويها ويناولها لعبدالله بن الحارث بن نوفل وهو يقول :

خذ يا عبدالله ، أوصلها إلى معاوية ، بامكانك الآن أن تذهب .

بينما يقف عبدالله مع أمه ليرحلا ، يتقدم الإمام من المرأة وهو يقول :

أما أنتِ يا أم عبدالله ، فاني انتقيتك خصيصاً لتكوني في الحاشية التي حققت الصلح إني انتقيتك حتى تقومي بمهمة من بلاغ : بلّغي أخاك معاوية ، اني خفت فعلاً دهاءه ، واستبداده وعناده ، وكان لي أن أركب المركب الخشن ، واستمر في الصراع والنزال ، ولكني كرهت أن أعرّض الأمّة جمعاء لمصير أسود . وكي لا يقسو الحكم على بني قريش فينصب عليهم البلاء .

* بلغيه يا أم عبدالله أن حقن الدماء ، دماء الأمّة جمعاء ـ هو قصدي ومبتغاي .
* بلغيه أن القتال يشطر الأمّة الآن إلى جبهتين عريضتين ، وربما غداً إلى جبهات .
* بلغيه أن الشام هي وصلة العراق ، وأن العراق ، هو درع الشام وصدرها الأوسع ، والحقيقة الصارخة : أن الاسلام يفرض حمايتهما ويطلبنا إلى وئام .
* بلغيه أنه لا يجوز لنا أبداً أن نفصل الشام عن العراق ولا أن نفصلهما عن الجزيرة الأم في عالمنا الأوسع .
* بلغيه أن الشام ثروة للأمة ولا يجوز أن نجمعها قصوراً لنا وحدنا وقبباً حمراء . . . وكذلك العراق ثروة للأمة موحدة مع الشام فحذار أن نجعل

الكـوفة والبصـرة بستانـاً فقط لنا لأننـا من قريش . وأن مصر والنيـل هما في مداناً الوسيع ، فلا نجعل مصر بقـرة حلوباً لتكـون طعمة لنـا إرضاء لخـاطر عمرو بن العاص واضرابه .

* بلغيه أنها تكون مهزلة في جريمة وجريمة في مهزلة : ان نعتلي خشبة المسـرح ، ونكون نحن أبطال تمثيل المهزلة والمأساة في آن معاً .

* بلغيه أن الأجيال كلها ستطالبنا اذا جعلنا كرسي الحكم لنفوذنا وسيادتنـا سبباً لجمع المال والجاه ، وركيزة نستبد بها ونظلم العباد .

* بلغيه أن الجزيرة الأم ، ما وزعت ابناءها على كل بقعة من بقاع العـروبة إلّا ليشـاركـوا في عمـارة الأرض ، وعمـارة الحضـارات التي ينشئهـا الإنسـان الجميـل ، لا ليعيثوا فسـاداً في الأرض وينقلوا دائـماً معهم قبليـاتهم القـديمـة المريضة ، وكلها للتخريب وتوقيف سبل الخير عن مجاريهـا ـ وكلها عـار علينا في عملية الحساب ، تهزمنا في التاريخ وتقاضينا ، وتحكم علينا بالتخلف .

* بلغيه أني اتنازل له عن كرسي حتى يجعله صالحاً لحكم عادل يجمع الـرعية في أمّة ، لا أن يقسم الأمّة إلى رعايا تتناحر على جمع المغانم والاستئثار بها .

* بلغيه أن نشر الثقافة هو الذي يجمع الأمة ويتوّي فيها عناصر الخير .

* بلغيـه أنه يكـون على الخـطبـاء الـذين يعتلون المنـابـر لعـظة النـاس وتقـويم الاخلاق ، وتزيين النفوس بالصدق والعفـة والنبل ـ عـار عليهم وعلينا . اذ تكون فاتحة القول لديهم لعنة الامام علي الـذي هو بحبـوحة في مقـدساتنـا ، ونبراس ومتراس في صدارة اسلامنا .

* بلغيه يا أم عبدالله أن اللعنة هذه ستأخذها علينا الأجيال بوصمة عار ، ليس يستحق شيئاً منها جلال الإسلام وتبشير الإسلام والمقاصد والغايات في حقيقة الإسلام .

* بلغيـه أن الحسن يحب أن يصـدقـه أنـه سيصمـد نفسـه حتى يحكم لا حتى يملك .

* اتقدرين يا أم عبدالله أن تنقلي إلى معاوية تمنياتي هذه حتى يتمكّن من حكم هو لي في الأساس ، واني ما تنازلت له عنه إلّا لأجنب الأمّة وقوعاً في مهزلة ومأساة ، أو بالتالي وقوعاً في فراغ !

لقد بقي الجميع صامتين مطرقين . . . يأخذ عبدالله ساعد أمّه ويذهب خارجاً من القاعة ـ يتمشى الإمام قليلاً ـ ثم يتوجّه نحو عبدالله بن العباس بالسؤال :

الامام : ما رأيك يا عبدالله ؟

ابن العباس : هل هذا هو قرارك ؟

الامام : ألا ترى أني هكذا قررت لأني «خشيت أن يُجتث المسلمون عن وجه الأرض» !

ابن سنان : ألا يمكننا أن نقاتل معاوية ؟ وهل هكذا نصالحه ؟

ووجه الامام كلامه للجميع ، بينما كانت سحابة من الحزن تلف عنقه :

الامام : «ما أردت بمصالحة معاوية إلّا أن ادفع عنكم القتل ان الأمر الذي اختلفت فيه مع معاوية ، انما هو حق اتركه لاصلاح أمر الأمّة وحقن دمائها» .

يقول ذلك ويتمشى خارجاً إلى صحن الدار ـ يلحق به عبدالله بن العباس ـ يتوجه الامام نحو الجهة المطلة على ايوان كسرى ـ يزيح الستار ـ يأخذ ابن العباس بيده إلى الواجهة ويقول :

الأمام : هذا هو الايوان الذي بناه كسرى على أرض المدائن ؛ منذ أكثر من عشر سنين ، وجّه الخليفة عثمان جيشاً لابعاد كسرى عن الايوان ـ لقد ترك كسرى ـ فعلاً ـ هذا الايوان .

ابن العباس : وما تقصد من القول .

الامام : لا أقصد بل أسأل : لو أن كسرى لبّى نداء الرسالة التي وجهها جدي اليه ، وفهم حقيقة الاسلام ـ أكان له هكذا أن

يتـرك قسراً بهـرجة من بهـارج الدنيـا جمعهـا اليـه وحـده من سواعد المستعبدين ، بدلاً من أن يردها عن طيبة خاطر للأمة التي هي أحق بها منه وأجدر ؟!!

وبعـد امعـان وتفكـير واعمـال رويـة ، يلتفت نحـو ابن الـعبـاس ويستطرد القول :

الامام : لقد بدت لي ـ بعد تفكير طويل فيه مقارنة مع الواقع ، واقع الجزيرة التي نحن من أبنـائها ، فكـرة بنيت بها مبـدأ جديـداً طبقته أولاً على نفسي ، اتسمعه الآن مني ؟

ابن العباس : اجل أيّها الامام ـ لقد تـرسخ الآن أيمـاني بأنـك تقدر أن تبني مبدأ وتصوغ منه قراراً ـ فما هو مبدأك الجديد ؟

الامام : رأيت أن تَحَسُّبَ جـدي الـرسـول في تخليص هـذه الأمّـة من قبلياتهـا لم يستـوف نصيبـه عـلى الأرض ، انمـا ـ بـالعكس ـ عادت القبلية للظهور باقبح نتائجها ، اذ غاب هـو عنا . . . لم يتصـرف معاويـة إلاّ بوحي من القبليـة التي تفتش بها كـل قبيلة عن نصيبهـا في الزعـامة ، كـل من الخلفـاء : أبي بكـر الصديق ، وابن الخطاب ، حتى انتهى الأمـر المفجع إلى ابن عفان الذي أوقعنا في الهزيمة ! ألا ترى ؟

ابن العباس : صحيـح ـ لقد عمـل النبيّ المعجـزة في تـوحيـد الجـزيـرة ، وتوحيد الأرض وتحـريرهـا ، وها هي دولـة الاسلام لم تتـرك شبراً واحداً من أرض العروبة إلاّ ومـدّت اليه قلبهـا وروحها وبـاعهـا . . . إلاّ القبليـة ، إلاّ هـذه العصبيـة الصغيـرة الحقيـرة ، فلمـاذا لم يتمكن أحـد من القضـاء عليهـا قضـاء مبرماً ؟

الامام : ان القبلية هي روحية القبائل يا عبدالله ، والقبـائل هم مـادة

العرب ومادة الاسلام . قد يكون التشديد على زجر القبلية عمليةً تذعر منها بنية القبائل في هيكليتها الأساسية ـ من هنا تتحرك دائماً عصبية الزعامات ـ تتحرك ولمّا يُهَذِّبْهَا بعد مران في تحمل الحق ، وفي تحمل العدل فيما يفرض ، وفي فرض المساواة فيما ترمي اليه في حقيقة البناء النفسي ـ الروحي في آن معاً ـ انها كلها من مقومات بناء المجتمع في توحيد العصبية له ككل ، وليس لكل زعيم فيه على انفراد . ان تهذيباً من هذا النوع الجليل ، لا ينشئه ، ولا يوسعه ، ولا ينشره إلاّ العقل . . . ليت جدي قد طال عمره ثلاثين سنة فوق عمره الذي تعجل بتره ـ لكان المران قد أصبح أفعل ، وأجدى ، وأبلغ ، ولكانت القبلية قد أخذت لها اتجاهاً آخر هو إلى جني الخير من خزانه العام المشترك ، وليس عن طريق كل زعيم بمفرده ، لا يوصل للناس من الجني العام أكثر من عشرة بالمئة ، أما الباقي فهو له على استئثار . انما تهذيب الجماعات البشرية هو فن واخلاص ، وهما من انتاج قلب كبير ، وعقل أكبر . . . الا ترى يا عبدالله ؟

ابن العباس : بدأت ادرك كيف يمكن المجتمع أن يحقق ـ كم أتمنى الآن لو أن البداية بعد موت النبيّ ـ كانت بأبيك ، رضوان الله عليه ـ لكنا الآن قد اختصرنا المسافات ، ولكانت اليك الآن وصلت إمامة تستمر ـ كما قلت ـ في التحرير والتسيير . أراك فعلاً لها يا الحسن .

الامام : اني لها الآن يا ابن العباس ـ لقد تجلت لي الآن الحقائق : ان بناء المجتمع لا يتم بعشر سنين ـ انه العمل الذي لا ينتهي ، أما جدّي ـ فانه لم يقدم إلاّ حجارة الأساس ، علينا ـ م[illegible] هذه الحجارة ـ ان نبني ، حجراً حجراً يك[illegible] المداميك . أما القبلية فاننا لا نقدر أن نزحزح شـ[illegible]

إلاّ بفرط رمالها ـ حبّة حبّة ـ من المداميك المشوّهة التي نحن نعاني منها .

انه الواقع يا عبدالله ـ لهذا لم يكن لنا الدور في الوصول إلى الحكم الذي تترجاه لنا الآن ـ بعد أن ترجاه لنا جدّي ـ لأن الواقع المريض الذي هو واقعنا ، لم يرض بنا في هذا الظرف الذي لم تنتظم بعد قرعات ثوانيه لقد تنكر لنا المجتمع القبلي ، لأنه ظننا نتقديم عليه بعصبية ضخمها علينا انتماؤنا إلى بني طالب ، نقمهَا علينا بنو أمية ، وان كنا جميعاً من بني قريش . ربما نكون نحن المغالين بالإفتخار بطالبيتنا التي انجبت فخر المسلمين ، فلم تتحملها عصبية الزعماء ، فارتدوا الينا وطعنونا بها بما جعل الضربة ترتد اليهم والينا بشكل أليم !

ابن العباس : ولكن النبيّ منا أيّها الإمام ، فهل كان الغير بنا من الخاسرين ؟

الإمام : أنه منا بتمام الحقيقة يا ابن العم ، وأنه أيضاً بالحقيقة الواسعة ، من كامل أرض الجزيرة ، من تاريخها ، من واقعها ، من حرّاتها ، ومن واحاتها على السواء . . . ولكنه بالحقيقة الواسعة والعظيمة ـ ليس لنا وحدنا ـ بل أنه للرسالة التي هي ـ أبداً ـ للإنسان : أظنها ستجمع إلى صدرها الرحب عالم الانسان في حضن الله العزيز الحكيم . . . هكذا علينا نحن الآن أن نستوعبه وأن نستوحيه في متابعة العمل . . .

ابن العباس : وكيف ؟

الإمام : أن نقر بالواقع ـ أن نقدم ما يزيل عنا سوء الظن ، أن

نقـول : لا فرق بـين طالبي وامـويّ ، وأية قبيلة من قبـائـل العرب ، أن نتحد لمصلحة الأمّة ، وأن نتنـازل عن كل شيء في سبيل مصلحة الأمّة ، وفي سبيل وحدتها واستقرارها ، اني اتنازل عن الحكم الذي حجبه عن والدي وعني واقع الأمّة ، فأنا لست لـه ، اذا يحسب علي استثشاراً كما يحسب عـلى كل ساع إليه لجعله اداة كسب . . . أنا لست من هذا النـوع من طالبي الحكم يا عبدالله ـ أنا اقدّم الآن القدوة الحسنـة ـ حتى يتأثر بها معاويـة لجعل الحكم اداة جمـع لا اداة تفرقـة ـ حقنا للدماء أولاً ـ ومنعاً للقبلية من التمادي في استفحال أمرهـا ـ وتـوحيداً لـلأمّـة وجعـل كـل أبـوابهـا مفتـوحـة لا مـوصـدة بحـواجـز ، وفـوارق ، وحـدود ـ حتى يفتـح العـراق عـلى الشام ، وتنعم أرض الجزيرة الأم بحقها من الأمومة ، يـأتيها حباً وتكريماً ووفـاء وتقديراً ، من جميع ابنائها المتمددين فـوق الأرض منذ عشرات آلاف السنين ـ ألا ترى ذلك صحيحاً يا عبدالله ؟

ابن العباس : ولكن معاوية ليس هكذا سيفعل !

الامام : يكفي أنـه سيرد جيشـه إلى الشام ويـريحه من قتـال ليس لـه جـدوى ـ يكفي أن يجمـع العـراق إلى الشـام ويـريحـه من مضنيـات القتال ـ يكفي أنـه يـريـح أرض الجـزيـرة الأم من صراع يقف بها على حد الانفجـار ـ يكفي أن يحسب التنازل تخفيفاً من قبلية هي عـلى الأقل ـ بـين الطالبيـين ـ الهاشميـين والسفيانيين ـ الأمويين ـ مرض عضال يطال كل القبائل . . .

ابن العباس : وهـل تـراه سيصلح للحكم الـواسـع وهـو يؤسس ملكيـة لا خلافة صحيحة للمسلمين ؟

الامام : أنـا لا أظن أن مبـدأي في جعـل مصلحـة الأمّـة فـوق كــل

مصلحة ، هو الذي سيأخذ منه معاوية كل البنود التي سيبني عليها دولة حكمه ـ ان مبدأي هذا ليس لمعاوية بالتخصيص ـ انه للأجيال الصاعدة . كل جيل يأخذ منه مادة سيستحق درجة من النجاح ـ ان الحكم الذي سيتوصل إلى الفهم ، هو الذي سيجمع الأمّة إلى بساط واحد من العمق الحضاري ـ وعندئذ فان المجتمع الصحيح هو الذي يستحق المجد المسحوب من خيرات الأرض ، ومن الحضارة التي يولدها عقل الإنسان الواعي ، في ظل من معرفة تكون قد محت التعصّب الصغير الحقير للزعامات ، وجعلته تعصّباً كبيراً مجيداً للمجتمع الذي هو كل المعرفة ، وكل الحق ، وكل الجمال .

ابن العباس : والآن أيها الامام ؟

الامام : اترافقني إلى المدينة حيث نستقر ونؤسس ندوات للبحث والعلم ونشر الثقافة ؟ علّنا هكذا نستمر في عمليات البناء ، ويستمر لنا الحكم الذي فاتنا على كرسي ، ولا يفوتنا أبداً ، ولو قصدنا بعملية التنحية ، والقهر ، والتغييب !

ابن العباس : سأكون معك يا ابن العم ، وبالرغم مما أوجس منه . . . ولكن معاوية لن يحقق بنداً واحداً من بنودك الكبيرة في الإصلاح - لن تنفصل عنه مقاصده ، فهي مطوية في نفسه ـ سيلاحقك إلى المدينة ـ سيلبث أبداً طابخ سم ـ يكفيه في بطانته : مروان بن الحكم وبقية الحثالة الأموية وأخيراً هذا الذي فتّش عنه والحقه بنسبه ـ زياد بن سميّه ـ فهلا تحذر دائماً معاوية !

الامام : هيا يا ابن العم ـ أنا أعرف معاوية ، وأعرف تماماً أنه هو بالذات قاتلي ، وأعرف أنه هو السم الذي اشربه ـ وأعرف

الآن أني جعلت منه ترياقي .

ابن العباس : أنت نهر الكوثر أيها الامام ، فيا خوفي من أنك ستكون الكوثر المهدور !!!

الإمام : طالما أن الكوثر هو الكوثر، فكيف يهدر - يا عبدالله - كوثر الجنّة ؟ نحن قدمنا الحق يا ابن العباس ، وهل يبنى مجتمع بغير الحق ؟ فلينتظرنا اليوم الكبير - إلى ذلك اليوم سنبقى نحيا - هيا بنا الآن يا عبدالله بن العباس . . .

ويشمل المكان صمت كأنّ عليه سجف الأبدية . . . رفعت رأسي لأرى أين هما المتحدثان اللذان لم يتركا إلاّ صدى بقي رهبة في سقف المكان وعلى جدرانه . . . ولكني لم أجدهما ، فتقدمت إلى الستار المكشوف عن نافذة وسيعة في الجدار ، فرأيت ايوان كسرى رابضاً في الأبعاد ، ورأيت شبحين يسيران بخطوات مقهورة ، ولكنها مستضيئة بنجوم الليل - عرفت انهما يتجهان نحو يثرب ، فأغمضت عيني التعبتين وأنا أقول : الا يمكنني أن اتبعهما إلى يثرب ؟

ولكني وجدتني - وتباشير الصباح تسبق الشمس إليّ - افتح عينيّ على الكتاب الذي ما زال بين يدي ، ولكن أصابع كفي كانت تدغدغ الصفحة البيضاء من خاتمته ، فأخذته ورحت استدرج - كرّاً سريعاً - صفحاته وأنا أسأله : أين وجدت فيك أيّها السارد كل ما سمعت في هذا الليل من حديث جليل لم أقرأه مجموعاً فيك ؟ ولكني صمت وعدت إلى نفسي أقول : ولكني جمعته كله من بين دفتيك - تلقطت به معلقاً بكل حرف من حروفك أيّها الكتاب - من هنا وهنالك جمعته - مما قيل بالكلمة ، ومما قيل بالاشارة ، ومما خرج بالصدى - من الحقيقة جمعته ، ومن الكذبة السوداء جمعته ، ومن الكذبة البيضاء جمعته ، ومن المقصد الرهيب ، ومن الغاية المرهونة خلف الستائر المتدلية على النوافذ ، لتحجب النور ، وتبقي المكان في عتمة السقف والجدران . . . وجمعته من لسان من هنا ولسان من هناك ، يَتَحاوران ويتخبآن خلف شفتين تقدمان

السم للهضم ، فاذا الساحات كلها الغبار الذي تتنفس به عصبيات أبعدت الحقيقة عن نصابها .

اجل أيّها الامام ـ أنا ما قرأتك هكذا مجموعاً في كلمة ، ولكني ادركت أنك أنت كل هذا بتصرفك على الأرض الذي هو تصرفٌ تعبيرٌ عن نهج هو كل الصواب . . . . سألحق بك إلى المدينة ، علني أسمع منك كلمة أخرى ستقولها مفروطة من عطشك الذي تسقي به ظمأك ـ فأنت ـ من الكلمتين المشتقتين من مصدر واحد ـ جبلت للتأكيد على معاناة مات بها أبوك ، وستموت بها ـ لتحيا ـ أيها العظيم ، كما لا يزال يحيا بها أبوك العظيم الآخر .

الخاتمة

جروف أخيرة
خاتمة

حروف أخيرة

أيه أيّها الامام

أجل ـ يا أبا محمد ـ لقد تمنيت أن الحق بك إلى يثرب ـ لا لا ستزيد معرفة بك ، بل لأبلّغ من غرقي في كنهك ، لقد بدا لي أن رفيقك في الطريق الممتد طويلاً طويلاً بين المدائن ويثرب ، كان عبدالله بن العباس ـ ولكنه بدا لي أيضاً أنه لم يصبح ـ كما اتصف به ـ حبر الأمّة ، إلّا بعد أن ارتوى منك وأنت تكشف له علماً في طوية النفس وحقيقة واقع المجتمعات ـ لكن . . . لماذا لا يبدو لي أيضاً ـ في حقيقة الشوق ـ أني أنا بالذات ، بعد أربعة عشر قرناً من مسافات الانفصال ، كنت رفيقك في الطريق الممدود فوق صفحات الرمال ؟ يا للعظمة في تركيز الخيال ! كيف يجعل من حبّة الرمل وصلة تجمع الصحراء من طرفيها ، وكذلك قطرة الماء في جمع المحيط الخاضع تحت خفقة المجذاف !

ـ ٢ ـ

لست أحب أن اتخيلك أنّك العظيم ، فأنت ـ بالحقيقة ـ كنت العظيم ، لقد أنشأت صلحاً مع معاوية ، لا ليسلم معاوية متنعماً بأرض الغوطة ، أو لتسلم أنت مكفكفاً في أرض يثرب ـ بل لتسلم يثرب في الشام ، والشام في يثرب ـ ولتسلم يثرب في العراق والعراق في يثرب . . . يا للأمة سالمة في وحدتها ، كما هي سالمة بمثلها المجموعة إليها من ثمرتها بالحق .

- ٣ -

أيه أيّها الضمير المشتاق أبداً إلى الاقرار بالمعروف الناصع البياض - اتكون خطوات الامام قد نقشت نقشاً على رمال الطريق - بين المدائن ويثرب ؟ كأنّ الرمال بلاطة تحفظ النقش فلا يمحّى ، وهي مسحوبة من مقالع زغروس المخيم على الخليج ، وهي لا شك ممتدة ، من تحت لجج المياه ، إلى تحت هذه الفدافد والصحارى ، حتى تكون أساسات بنيت عليها مساحات الجزيرة الأم ، وبالأخص مدينة مكة ، ومدينة يثرب . . . أتكون الخطوات هذه غير تسجيل لواقع مهزوم ، لا تزال تئن منه الأمّة العظيمة التي لم تصل بعد إلى حضور ترتجى له العظمة !

- ٤ -

لقد وقعت الأمّة في ويل لمّا تحولت صفين إلى اسفين قطع الفرات عن الفرات ، والشام عن العراق ، والإنسان عن الإنسان ! ولكانت وقعت بالويل العميم لو لم يبادر الحسن إلى اتخاذ القرار - أيه أيّها الجراح بن سنان - ما كنت ادري أية بطولة هي التي كانت تحدثك برفض القبول بالقرار - أم أنك عدت فقبلت بالقرار ، بعد أن سمعت الشرح من الامام ، يُحمّله أمّ عبدالله ، حتى تبلغه أخاها معاوية في الشام - ففهمت أن القرار هذا هو أساس ثقافة ستنجح بها الأمّة ، اذ تتغطى به كأساس .

- ٥ -

أصبح حبر الأمة عبدالله بن العباس يساهم معك في يثرب في الندوات التي قمت بها لنشر العلم والثقافة ، من هنا يشتد إيماني بأن نشر الثقافة في المجتمع هو الذي يخلّصه من غفلاته ، ويقدّم له الوعي الذي كان غافلاً عنه ، وهو الذي يقدم له المعرفة التي تنبع من عمق الواقع الانساني - المجتمعي ، ويدلّه إلى الخير الذي هو له ، والذي هو مادة جمعه وتوحيده ، وأساس مناعته كمجتمع حيّ . . . ليست الثقافة المنشودة إلاّ حصيلة اختبار الإنسان من حقيقة

واقعه في مجتمعه ، حتى تكون له في مجال التلبية .

- ٦ -

لقد قالوا عنك أيّها الامام : لو لم تكن مهزوماً لما اتخذت القرار - ولقد اتخذته بالتمام لأنك كنت مخذولاً . . . ولكنها الحقيقة بالتمام : لقد كنت مهزوماً - لهو واقع الأمّة الذي هزمك - وأنه واقع الأمّة الراهن هو الذي خذلك . . . لقد خُذل جدّك العظيم قبلك فلم يطع في احلامه وتمنياته - لقد خُذل أبوك الغارق في اصالة الوجدان ، فافرزته القبلية إلى الهزيمة ! وللهزيمة هنا مدلول آخر ، لم ينهجه لا أبو بكر ، ولا حتى عمر - انها هي التي تطال الأمّة كلها : باحلامها ، وامانيها ، ووحدتها ، وكل تحقيقاتها البكر ! وأية هزيمة نكراء تقع فيها الأمّة ، وهي تجمع حقداً عند قبائلها وتزرعه في صدر كل زعيم لا يمكنه أن يحقق زعامته . إلاّ بجمع كل قبيلة تقاوم قبيلة اخرى تسابقها على الزعامة ! أن الذي حصل على الأرض هو الهزيمة بالذات ، تلقاها الحسن ، وألف منها القرار ، وألّف منها النصر ، وألّف منها الأمثولة للأجيال : بأن الصلح الواعي هو وحده لجمع الأمّة وربطها بوحدتها الكبيرة التي منها وحدها تحصل العظمة .

- ٧ -

ما رايتك أيّها الامام - ازاء معاوية - إلاّ لتصفو . فهو الذي رماك في المعاناة التي وصفوها بأنها أصل الهزيمة والانخذال - حتى أخذت منها طاقة حولتها إلى المجرى الآخر الذي هو تنظير حضاري في التحام الأمّة التحاماً رائعاً يقوم على نبذ الأحقاد ، وتسليم العقل السليم زمام المجتمع القوي الراقي - كأنّك ابتكرت النهج أيّها الامام ، في مجتمع أضناه النهج القبلي العتيق ، فاذا أنت طريق جديد مخطوط في قلب الصحراء ، كأنه مزروع الجانبين ببواسق الشجر ، وكأنّ قوافل تخطر عليه ، وهي تنؤ باحمال وآمال هي كل الخير المبني به مجتمع الانسان .

- ٨ -

لم يمت هانيبعل العظيم مهزوماً ، فهو لا يزال يحيا في كل ما رسم من مخططات جعلته عبقرياً في فنون الحرب ، دفاعاً عن مجد قرطاجة - ولم يترك عيسى الأرض مهزوماً ، فهو يحيا في كل حرف بالرحمة نطق ، وبالحب والتسامح ، لتكون الأرض كلها في فلسطين عجينة مطهرة يأكل منها الإنسان حتى لا يموت - وجدّك العظيم - أيّها الإمام - لم يمت مهزوماً في يثرب ، بل أنه لا يزال يحيا في كل آية توحّد الله في توحيد الأمة ، حتى تبقى عظيمة بين أمم الأرض - ولم يمت مهزوماً أبوك علي فوق أرض الكوفة ، فهو الحيّ في كل حرف بليغ نطق به ، وهو يرسم فيه - بالفعل - قيمة الحق ، وقيمة العفّة ، وقيمة الوجدان ، وكلها أساس في بناء مجتمعات الإنسان - ولم تمت أنت مهزوماً ، يا أيّها الذي ناولوك السم في كوب - فمات الساقي ملفوفاً بنيته السوداء ، وحييت أنت بسم جعلت منه - أبداً - ترياقك . . . يكفيك أنك قدمت للمجتمع المفسّخ الذي هو لك ، مبادىء حق ستجمعه إلى ذاته العظيمة اذ يفتش عنك .

- ٩ -

أصحيح أيّها الإمام أن المرأة التي هي ضلع في بيتك - زوجتك جعدة بنت الأشعث - هي التي مزجت لك السم في كوب من اللبن ، رحت تجرعه في مرض ألمّ بك ورماك محموماً في الفراش ؟! وهل هو صحيح أيضاً أن طابخ السم معاوية ؟ لماذا لا يكون صحيحاً كل ذلك ؟ ألا يكذب على الغير ذلك الذي يكذب على نفسه ؟ أيكون معاوية قد حقق شرطاً واحداً من الشروط التي قطعها لك ، لقاء تنازلك له عن الحكم ؟ أين هي - في آخر المطاف - ولاية العهد ؟ لقد كانت اليك في حقيقة الاتفاق ، وها هي لابنه يزيد . . . فلماذا لا يكون له أن يختم العهد بالقضاء عليك قضاء مبرماً ، حتى لا يكون له - منك - أية بادرة من ازعاج !!! أمّا أنت أيّها الإمام ، فكنت العارف منذ ذلك الوقت بأن معاوية لن يصدق ، ولكنك - بالذات - كنت العازم على اتخاذ القرار ، لا لتجترح اعجوبة تخليص معاوية من أثقال سفيانيته - فان ذلك لم يكن بمقدورك - بل لتقدم للأمة

مادة تنجيها من تخلفها ، وتجعلها ماثلة أمامك في القدوة التي تناولها دمك مهراً لها ـ مقدماً ومؤخراً على السواء !!!

- ١٠ -

لقد كانت لك الأمنية أن تنام نومتك الأخيرة قرب جدّك حيث هو ثاوٍ في باحة المسجد ـ ولكن الوباء ذاته الذي رمى أباك في الساحة بعيداً عن كرسيّ الحكم ، هو الذي أخذ به والي المدينة الأموي سعيد بن العاص ، وجردك ، حتى من أمانيك في جدّك الرسول . . . لقد كانت لك استعاضة ، فنمت في حضن امك فاطمة في البقيع ، فكنت عزاء لها في غربتها ! أما ذلك الذي هو ثاو في النجف الاشرف ، فانه رنا اليك وهو هازىء من صروف الدهر ـ أما اخوك الحسين ، فانه بقي واقفاً وحده قربك ، لا ينحني ولا يلين ـ لقد أخذته العاصفة إلى حضنها ، ولفته بما هو أعمق من العنفوان .

خاتمة

أيّها الامام ،
واسأل نفسي فيك
ما هو الجلال ؟
هو أنك قد أتيته رحباً ـ
انه كالخيال ـ
تستدرجك اللحظة فيه إلى ألف مجال ـ
وكنت المجال . . .
في تلك اللحظة الأولى كنت المجال ـ
وبعد أن اختطفت إلى المدى ،
أصبحت شوقاً في المجال ـ
فلتنظر اليك الأمّة ،
بعد رصيد طويل من السنين ،
فأنت لها بساط الأساس .
يا للنهج الأساس !
وأنت لها جامع الحق ،
وجامع النهى ،
وجامع المفارق فوق الدروب ،

وأنت جامع حبّات العقد في رصف النضيد ،
وأنت الرائي الكبير :
تمشي الطريق بالهمس اللطيف ـ
تجمع الهمس وتصوغ منه باحات الزمان ـ
كأنّ عناق الصلح بين اثنين ،
هو عتبة البناء ـ
تمرّ من تحتها أفواج وأفواج ـ
أنهم الميامين ألفاهمون ـ
انهم سواعد الأمّة السمحاء والعذراء . . .
يا لجاجة الشوق اليك .
تمر الأيام ، وهي تذوب في فراغ ،
دون أن تعرف كيف تتلمس خطاك !
كأنّها لا تزال تغرق في حراتها المضنيات !
كأنَّ الحقد هو الضرورة من حاجاتها !
تقتات به ـ ظنّاً ـ أنه هو العنفوان ـ
يا للأمّة ! ومبتغاها العظيم !
أليس هو الجمع في طاقاتها ؟
فأين هي ـ بعد طول في مسافات الزمان ـ
لا تستجيب إلى خطاك ؟!
أيّها البهيّ الذي نقشت الدرب بخطاك ـ
وقصدت رزم الأمّة ـ
فمتي يكون لها مجد ـ
وهي تقفو خطاك !!!

للمؤلف

- الامام علي نبراس ومتراس
- فاطمة الزهراء وتر في غمد
- محمد شاطىء وسحاب
- يسوع أبد الانسان
- لبنان على نزيف خواصره
- جبران خليل جبران في مداره الواسع
- مي زيادة في بحر من ظمأ
- أمل ويأس
- الجذور
- محاكمة هارون الرشيد (مسرحية مخطوطة)
- المهلب بن أبي صفرة (مسرحية مخطوطة)

استشارة المراجع

تاريخ الطبري	لأبي جعفر الطبري
تاريخ التمدن الاسلامي	لجرجي زيدان
مروج الذهب	المسعودي
تاريخ العرب	فيليب حتي
تاريخ العرب	سيد أمير علي
الامام الحسن بن علي	باقر الشريف القرشي
مجموعة سير العرب	أ . م . مغنية
نهج البلاغة	الامام علي

دليل الكتاب

محمد شاطيء وسحاب

اولا – مقدمة : تحت عنوان « لمحات » وهي بحث مستقى من التاريخ والاجتماع والسيرة، ومقاطعها ستة :

١ – جاهلية
٢ = موعد
٣ = خط الرجولة
٤ = المبعث
٥ = الصراع
٦ = تصفية

ثانيا – التوسع : كل مقطع من هذه المقاطع الستة سيكون عنوانا لفصل جديد فيه شيء من التوسع. وكل فصل يتألف من عدة قطع أدبية تتسلسل فيها هذه الاشارات التوسعية :

الفصل الاول = الجاهلية

١ = جاهلية الجزيرة
٢ = جاحدة
٣ = مغازل

١٢ = العام الحزين

١٣ = شاطىء وسحاب

١٤ = اعجاز

١٥ = الاسراء والمعراج

١٦ = التكامل

١٧ = المصطفى

١٨ = شفرات الاسنة

١٩ = المؤآخاة

٢٠ = ولادة تاريخ

٢١ = دعائم التاريخ

٢٢ = الانطلاق

٢٣ = حد الحسام

٢٤ = اللُّحمة العجيبة

٢٥ = الشذَّاذ

٢٦ = سيف الحق

٢٧ = صلح الحديبية

٢٨ = مؤتة

٢٩ = مكة

٣٠ = ساحة المجد

الفصل السادس = تصفية : وهي كناية
عن خواطر

١ = الغرانيق

٢ = مالك بن عوف ودريد بن الصمَّة

٣ = خميرة الردة

٤ = الطائف

٥ = تبوك

٦ = سَفَّانة ابنة حاتم الطائيّ

٧ = لملمة الحواشي

٨ = تقييم

٩ = حجة الوداع

ثالثا – الخاتمة : قبل الغروب

الامام علي نبراس ومتراس

ركائز

مقاطع البحث:

التحضير

مقاطع البحث:

أعباء القيادة

مقاطع البحث:

معابر

مقاطع البحث:

الخاتمة

فاطمة الزهراء وتر في غمد

الامام الحسن الكوثر المهدور

الموضوع ———— الصفحة